
دراسة
أريك دورتشميد
أبطال
مجهولون
ترجمة: أحمد الزبيدي

أريك دورتشميد

أبطال مجهولون

ترجمة : أحمد الزبيدي





اسم المؤلف: أريك دورتشميد

Author: **Erik Durschmied**

عنوان الكتاب: أبطال مجهولون

Title: **Unsung Heroes**

ترجمة: أحمد الزبيدي

Translated by: **Ahamed Al-Zubaydi**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al-Mada**

الطبعة الأولى: **2020**

First Edition: **2020**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 · +964 (0) 780 808 0800 · +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 · +961 706 15017 · +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 · +963 11 232 2275 · +963 11 232 2289 · ص.ب: 8272

شكر وتقدير

من أهم الأشياء التي يعتمد عليها كلّ عمل يسعى لأن يستعيد أجواء لحظة تاريخية معينة ذكريات ومقتنيات الأشخاص الذين عاشوها، فبدونها تكون جميع الأشياء الأخرى ليست بذي نفع. آمل أن يسامحني أولئك الذين ضحّوا بوقتهم، من أجل أن يطلعوني على ذكرياتهم وما يحتفظون به من وثائق عن الأحداث التي عايشوها، لأني سأسترجع بعض الذكريات المؤلمة.

أودّ أن أشكر بشكل خاص أولئك الذين كانت مذكراتهم شيئاً لا غنى عنه؛ إنني أقدر ميزتها الفريدة والالتزام بالحذر في ذكر الأسماء لأولئك الذين سمحوا لي بالاطلاع على بعض من وثائقهم التي لم يعرضوها على أحد من قبل، وهم جينيفيف دي غالاردو الملقبة بملاك معركة ديان بيان فو، وجوديث مالتر، أرملة الجنرال المجري بال ماليتر؛ وإسرائيل لودفيغ وبيت سلوتين شور، وأقارب عالم الفيزياء النووية الكندي الدكتور سلوتين؛ وضابط قارب الصيد الدانماركي سيلوو، وآخرون، الذين حدثوني في إطار ذكرياتهم عن الحرب عن «المعبر الخطير»؛ منهم الصحفي الكندي مارتن زيليج، والجنرال أهنفيلد-ماليروب وسفين دابيلستين (الدانمارك)، وإيلي كولينز (فرنسا)، وكاتالينا فينشزيل (المجر)، والعقيد كين هامبرغر وداني كراوفورد (الولايات المتحدة الأمريكية)، وولفغانغ كابيريتش (ألمانيا)، ومايكل باترسون، وكريغ كابيل وميجور ريبيك (المملكة المتحدة). شكراً أيضاً لمن قدم لي إرشادات أوصلتني

إلى المصادر المهمة وخضت معهم أحاديث ملهمة عن الأشخاص الذين قابلوهم. أودّ أن أشكر روبرت لانكستر وكيري هود ولويجي بونومي على مشورتهم التحريرية ودعمهم. امتناني الخالص للجميع.

أريك دورتشميد

فالينسول، فرنسا، خريف 2003.

تمهيد

اليقظة ضرب من ضروب الشجاعة. والروح المعنوية تمثل ثلاثة أرباع أسباب النصر. أما القوة العسكرية فلا تمثل سوى الربع الأخير.

• نابليون، عشية معركة أوسترليتز،
2 كانون الأول 1805

لا يولد المرء بطلاً.

لا يمثل الإيمان بهذه المقولة غروراً ونظرة متعالية تجاه الآخرين؛ ولا بطولة قائمة على الغرور الزائف أو تمجيداً للذات. تكمن في كلّ إنسان جذور اليقين المطلق بميزاته الشخصية، وأنّه يتمتع بحكمة أو شجاعة أكثر من غيره، ويدين بذلك لمشاعره الإنسانية التي تدفعه لأن يكون حرّاً في أن يفعل ما يراه أفضل نيابة عن الآخرين. فما هو الدافع وراء ذلك؟ هل هو الإلهام أم الحافز أم دوافع أخرى مختلفة: يمكن أن تكون غريزة الإنسان نحو البقاء على قيد الحياة، أو الرغبة بالقيام بأعمال بطولية بسيطة لا تلفت النظر، أو شعور المرء بأنه أقوى من التحدي، وقد يكون الشعور العميق بالواجب، والاستعداد للتضحية بالنفس دفاعاً عن الوطن الأم، أو اتخاذ موقف أخلاقي ضد الأعمال اللاإنسانية. عادة ما يُنظر إلى الشجاعة والبطولة – سواء كانت البدنية أو الروحية – كصفة مطلقة: إما أن يمتلكها المرء أو لا تكون من صفاته. هناك بعض من ولدوا وهم يقدسون الشجاعة

الروحية والقدرة البدنية العالية. وتقف في طليعة هؤلاء مجموعة مختارة من الرجال الشجعان، الذين يلهمهم الحماس الوطني، للدفاع عن وطنهم الأم ضد كلّ الأشرار. فهم يشعرون بأنّه من المشرّف لهم أن يضحوا بحياتهم من أجل ملكهم، أو في خضم الكفاح من أجل تحقيق حرية شعبهم. تشكل الحكايات التي تروي مثل هذه المآثر البطولية جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الأمة.

يتحدث هذا الكتاب عن بعض الرجال والنساء الذين خاطروا بحياتهم، وعن شجاعتهم في مواجهة تحديات مذهلة، وحول طبيعة الصدفة؛ حول الظلم الكبير الذي يتعرض له بعض الأشخاص حين يتمّ جعل المآسي التي واجهتهم من أسرار الدولة؛ حول الأحداث المأساوية، والروايات المتعددة للحقيقة.

في كثير من الأحيان، تنبع البطولة من الأفعال التي تتمّ بطريقة غريزية وسط سخونة الحدث، وتسببها ظروف خارجة عن السيطرة. هناك فكرة تقول: «لقد قاتلوا حتى آخر رجل وإلى النفس الأخير»، حيث يفتدي الأفراد حياتهم بأغلى ما يملكون على أمل أن يعيشوا براحة، وعندما تبدو الإبادة أمراً حتميّاً، فلن يكون أمامهم إلّا التضحية بكل ما يملكون لأجل أن يحصلوا على أدنى فرصة لأن يعيشوا يوماً واحداً زيادة.

شهد التاريخ أمثلة عدة عن رفض الكثير من الأفراد الاستسلام. في الحرب العالمية الثانية، قرّر اليابانيون الانتحار بسبب إيمانهم الديني بأن حياتهم كانت ملكاً لإمبراطورهم. كان منتشراً بين مقاتليهم ما يعرف بـ«السلوك القتالي الجدير بالثناء»، وهو مبدأ يشدد على روح الجماعة ويستخدم كحافز قوي؛ يجعل الجندي يلبّي نداء الواجب ويلتزم بقواعد الانضباط والتقاليد ويكون مستعدّاً للموت. كان خوفه الكبير هو أن يوصم بالعار أمام رفاقه. يمكن أن يصل هذا الأمر إلى حدّ العبث عندما يطلب القائد من أفراد وحدته التصرف بشجاعة و«لا يعنيه حتى لو كان مصيرهم الجحيم». وقعت واحدة من أكثر الحوادث غرابة التي توضح ذلك خلال

معركة السوم في عام 1916 عندما أصدر النقيب نيفيل قائد كتيبة في الجيش البريطاني أمراً إلى رجال فوج مقاطعة سري الثامن أن يتركوا مواضعهم ويهجموا على العدوّ، وحينها خطرت له فكرة مجنونة بأن يقوم أفراد كتيبته بركل كرة قدم عبر المنطقة الحرام ومطاردتها حتى الخطوط الألمانية. تمّ قتل جميع أفراد الكتيبة، بما فيهم النقيب الذي قام بإصدار الأمر.

يجب عدم الخلط بين الغباء والبساطة. ولدت بعض المآثر المذهلة من أفعال بسيطة (الحاسدون فقط يسمونها غبية) - تلك الأعمال البطولية البسيطة، التي لم يكن قد خرّبها بعد الإفراط في الذكاء. في الأوقات الصعبة، يمكن أن تكون البساطة موهبة لا تقدر بثمن، وعباءة سحرية تخفي الخطر الذي لن يجازف أيّ شخص لامع الذكاء بإقحام نفسه فيه. في الآونة الأخيرة، ظهر نوع جديد من تلك الشجاعة المجنونة: بطولة ممتزجة بالتضحية بالنفس. فالإمساك بقنبلة للعدوّ دخلت إلى مخبأ للجنود والركض بها بعيداً، سيؤدي إلى إنقاذ أرواح الكثيرين، مثل هذا الفعل يمكن أن نسميه شجاعة. أو أن يحيط شخص ما نفسه بحزام من أصابع الديناميت مثبت حول خصره، وهذا يمثل الجنون نفسه - حتى لو كان الهدف تحقيق بعض الأهداف المقدسة. كان القادة الروحيون الذين غرسوا في عقول شبان صغار من أتباعهم الرغبة في أن يصبحوا «ملح الأرض، ومحركات التاريخ، والأكثر شرفاً بيننا»، مجرمون متهورون؛ الأفعال الانتحارية التي يقوم بها تلاميذهم المتعصبون لا يمكن وصفها بالبطولية. مصدر إلهامهم الوحيد هو تدمير الذات، مع التسبب في وفاة العديد من الناس باستخدام طائرات الركاب باعتبارها سيوفهم الملتهبة.

تمتلك شخصيات هذا الكتاب التي تشمل طيفاً واسعاً من الناس واحداً من العديد من العناصر التي تخلق البطل: الغريزة الفطرية للبقاء، والشجاعة الجسدية في العمل، والإرادة والتصميم، والثبات الأخلاقي والشجاعة الأخلاقية، وكونهم محل ثقة، والمثابرة، والإصرار المتزن والتصميم الهادئ والجرأة.

كان الأبطال مراراً وتكراراً، مثل شخصيات مسرحيات شكسبير. يرتفعون بسرعة، ويتعرضون للخيانة من قبل أقرانهم ويطعنون في الظهر من قبل المعجبين بهم؛ ويتمّ إهمالهم بعد أن تتغير الأولويات، فيخسرون كلّ شيء، وفي النهاية يساء فهمهم من الجميع. في كثير من الأحيان، على الرجل الشجاع أن يعيش بذكائه بدلاً من سلاحه؛ إنّه يعرف الخطر الذي يتربص به ويظهر استعداده لتحمله. ليس الحفاظ على الذات هو الدافع الذي يهيمن على تفكيره؛ فهو يشقّ طريقاً للخير في مواجهة الشرّ، ويحاول بتصرفاته الفردية تصحيح الظلم لمساعدة الآخرين دون أن يطلب أن يشيد به الآخرون أو يكافئوه. ويمثل تجسيداً للروح الخالصة للشجاعة والتفاني. ونحن نادراً ما نسمع عنه: إنه بطل مجهول الهوية.

معركة فردان، 25 شباط 1916

كونتسه الرقيب في الجيش الألماني: الذي أصبح بطلاً رغماً عن أنفه

يقدم هـذا الحدث دليلاً لا يرقى إليه الشك على صحة القانون التاريخي الذي يقول: إن الرجال هم الذين يصنعون التاريخ.

• **أرشيف الرايخ الألماني، 25 شباط 1916**

كونتسه هذا هو اسمه. لم يكن أوتو، ولا فيلهلم... بل كونتسه فقط، وهذا الاسم أطلقه عليه أصدقاؤه، الذين لم يبقَ منهم سوى ثلاثة منذ أن دخلوا في أتون تلك المذبحة التي جرت وقائعها في آب 1914. بديله في الوحدة العسكرية كان يناديه «هير فيلدويبيل»، (وتعني بالألمانية السيد الرقيب م). أمّا الضباط فكانوا ينادونه ببساطة «رقيب كونتسه».

في تلك اللحظة، كان كونتسه مستلقياً وسط الوحل وأصابعه مغروسة فيه. يعضّ على نواجذه، محاولاً أن ينسى آثار هجوم الأمس، وحينها كشف ضوء الفجر عن جثث الجنود المشاة التي كانت تتمايل وسط الحفر المليئة بالمياه التي خلفتها القذائف. كانت بعض تلك الجثث المتمايلة وسط مياه يبلغ عمقها نحو قدمين تعود لرجاله، الذين سقطوا برصاص البنادق الفرنسية الرشاشة. كان يستلقي في قاع إحدى تلك الحفر، وقد

غاص عميقاً في الوحل؛ وكان كلّ ما يمكن أن يراه من حوله في ضوء الشتاء الشاحب ذاك، جداراً ترابيّاً شديد الانحدار كان يخيّم عليه هدوء مريب، على شكل كتل من الحجارة المتراكمة جرّاء أحد الانفجارات، التي كانت كثيرة النتوءات وغير منتظمة. لا بدّ أنّها كانت ناتجة من سقوط قذيفة مدفع ضخم من طراز كروب كي تصنع حفرة مثل هذه. ورغم أن الجوّ كان بارداً إلّا أنه كان يشعر بأن العرق ينزل على صدره، أوه يا فتى، أتمنى أن تعرف ما تفعله...، إذا سألتني رأيي فإنّ كلّ هذا أمر غبيّ للغاية... بهذه الكلمات كان يتمتم مع نفسه دون أن يخاطب أحداً، لأنّه كان وحيداً. كان غارقاً حتى رقبته في الوحل المقرف ولم يكن هناك أدنى احتمال أنه على وشك الخروج منه. لم يكن يعرف مصير تلك الحرب ولا مصيره. سمع صفيراً خفيفاً ناتجاً عن قذيفة شقّت طريقها في الجوّ، كانت تسرع نحوه... حدث انفجار يصمّ الأذن... تطاير كلّ شيء من حوله بينما كان هو مستلقياً وهو يهتزّ، والطنين يملأ أذنيه. في أعقاب تلك الفترة التي امتدت إلى ما وراء التفكير العقلاني، كان يعلم غريزيّاً أنّه يتعين عليه أن يخرج من جحيم تلك الحفرة – فبدأ يعدو إلى الأمام، لأن القذائف بدأت تنفجر وراءه. كان بإمكانه أن يميزها من خلال صوت انفجارها، لأنّه أصبح خبيراً بالقذائف؛ الأولى كانت قذيفة صغيرة زنة 7 كجم، والثانية قذفها مدفع عيار 150 ملم وتزن أكثر من الأولى بكثير. فيما كانت الثالثة قذيفة مدفع عيار 420 ملم وتزن طنّاً كاملاً. سارع الرجل في بدلته الموحلة ذات اللون الرمادي، والمياه تتدفق من بسطاله، للقفز بصعوبة ليخرج من الحفرة واندفع يعدو وسط الدخان. متوجهاً مباشرة إلى الأمام.

لم يكن الرقيب كونتسه ذا شخصية ساحرة. وحتى أقرب أصدقائه يعتقد بذلك. لم يبقَ من أصدقائه سوى اثنين: كارل ستولوارت وهاينريش شتيغليتز. أمّا الآخرون فماتوا جميعاً أثناء القتال في أراضي بلدان غريبة، وقد علقت خوذاتهم الفولاذية على عصا مغروسة في الأرض. كان كونتسه ممتلئ الجسم، مع فك بارز من رأس يشبه الرصاصة. وقد

حلق شعره الأشقر بشكل كامل ولم يبقَ فيه سوى شعيرات خفيفة، لم يكن ذلك بسبب بعض التعليمات العسكرية الغبية، ولكن لتجنب إعطاء القمل فرصة للعيش فيه. كان مقاتلاً متماسكاً وقويّاً ولم يتوسع في تعليمه، لكنه كان يمتلك ذكاءً ريفيّاً معيناً ناله من العمل في الحقول. عندما عاد مالك الأرض التي يعمل بها كونتسه إلى البيت قال لوكيله: «يبدو أن حقل الشعير الذي وراء البحيرة قد أصبح جاهزاً للحصاد...». فأرسل الأخير بطلب كونتسه ليبدأ بحصاد الحقل. لم يكن لديهم آنذاك أيّ من الآلات الزراعية الحديثة. كان يجب على كونتسه القيام بكل شيء بيديه، وعندما يعود إلى بيته مساءً، كان هذا الشاب القوي وبسبب التعب لا يمتلك القدرة حتى على خلع ملابسه فيغطّ في نومه، مع العلم أن يومه التالي يبدأ في الثالثة فجراً. كانت عطلته يوم الأحد فقط، عندما يذهب إلى الكنيسة ليستمع إلى القس وهو يلقي موعظته التي يبشر فيها بالطيبة والخير والسلام بين جميع الناس، ويدعوهم فيها إلى التمسك بالطاعة المطلقة للقيصر وملاك الأراضي الأثرياء. كانت وجبة الطعام التي يتناولها المزارعون بعد ذلك هي الحدث الرئيس في الأسبوع: حساء الفاصوليا الكثيفة مع شريحة من الشبيك (لحم الخنزير المقدد) والبطاطا مع البصل - على شرط، أن لا تكون الآفات الحشرية قد أصابت محصول البطاطا في ذلك العام.

عندما اجتاحت العواصف الشتوية جميع أنحاء البلاد، كان قد حان الوقت لذبح الخنازير فتكون شحومها من نصيب المزارعين في حين تكون لحومها من حصة مالك الأرض وعائلته. كان كونتسه قد تعلّم أن يذبح الخنزير بنفسه، وكان فخوراً بمهارته في هذا المجال. فكان يقتاد الخنزير من الحظيرة، ويربط حبلاً حول قدميه، ويطرحه أرضاً ثم يغرز سكيناً في رقبته. لم يتحصل سوى على مبادئ التعليم الأساسي الذي كان إلزاميّاً بموجب القانون؛ وعدا ذلك فقد كان شابّاً قويّاً يأخذ جميع أوامره من وكيل مالك الأرض وينفذها من دون نقاش. وهكذا كان

يتجنب التفكير. عندما اندلعت الحرب، كان كونتسه هو الرجل الآلي المثالي للتقدم بلا جدال في وجه المدافع الرشاشة للجيش الفرنسي. لم يتطوع أبداً للهجوم؛ ومع ذلك، عندما تلقى أمر التقدم، نظر إلى ضابطه دون أن يرتسم تعبير على وجهه، وثبّت الحربة على فوهة بندقيته، ومع صيحات: «أمرك! يا سيدي الملازم!» اندفع بقوة نحو المنطقة الحرام. وبسبب هذا العمل، ولأنّه كان أيضاً أحد الناجين القلائل من المجموعة الأصلية التي تقدّمت نحو خطوط العدوّ في عام 1914، تمّت ترقيته وسط ميدان المعركة إلى رتبة (رقيب أول). لم يكن كونتسه مختلفاً عن الجنود الآخرين. كان كلّ جندي يتذمّر إذا ما تمّ تكليفه بمهمة ما، ومع هذا كان يترك خندقه ويؤدّي واجبه. لم يكن الأمر مختلفاً في 1914 أو 1915 أو 1916. كانت جبهة القتال في فرنسا جحيماً. فكان مصير الجنود إما أن تقع فوقهم القذائف أو تطعنهم الحراب، أو يغرقون في الوحل في خنادقهم خلال موسم الأمطار. كان التذمر جيداً بالنسبة لنفسياتهم، فقد كانوا يتذمرون بشكل ساخر يساعد على تلطيف الأجواء، مثل تذمّرهم من (الطعام) الذي أطلقوا عليه تسمية (الأسلاك الشائكة)، وحصتهم (القليلة من السمن، وعدم رضاهم عن حقيقة أن الضباط فقط تزين صدورهم (الماسات الزرقاء)، والتي تمثل أرفع الأوسمة التي كانت تمنح آنذاك في ألمانيا. وهكذا، كان كونتسه يتذمر مثل أيّ شخص آخر، لكنه بعد ذلك ينفذ ما يأمره به الملازم.

هكذا كان كونتسه، نتاجاً خالصاً للمدرسة الفكرية لإمبراطور بروسيا فريدريك، التي تقوم على استعداد للتضحية بخسائر تفوق خسائر أعدائه سعياً لتحقيق النصر، وهو ما جعل الملك المحارب البروسي ينال لقب «حفار القبور». نعم، كان كونتسه هو الجندي الألماني المثالي: شجاعاً، ومطيعاً، ولا يناقش أبداً لمعرفة سبب الأوامر التي تصدر إليه، مع طيش واندفاع متهور ليس له حدود كشف عن عدم امتلاكه لأية رؤية. بطريقة ما، كان من المدهش أنّه بقي على قيد الحياة. ربما كان محظوظاً أكثر من

الآخرين، أو ربما بسبب ما كان يتمتع به من ذكاء الفتى الريفي، فقد كان فطناً بما يكفي لكي يسعى لتوقع تحركات أعدائه - والمحافظة على حياته حيثما تطلّب الأمر ذلك.

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان (الرقيب) كونتسه في الثانية والعشرين من عمره، وهو عمر مناسب للموت فداءً للقيصر والوطن. ولأنّه ولد في منطقة تورينغن، فقد تمّ استبعاده تلقائيّاً من الالتحاق بإحدى تشكيلات المشاة النخبة في بروسيا. ومع ذلك، فقد أظهر شغفاً للموت من أجل قيصره، مما جعل الفوج الرابع والعشرين «إحدى تشكيلات الجيش الألماني المعروف باسم فوج براندنبورغ» يقرّر ضمّه إلى صفوفه، ليس كواحد من أفراد اللاندرز (الجنود العاديين الذين يقومون بالهجوم) والذين يسيرون خلف الجوق الموسيقي، ولكن باعتباره مجرد جندي يقوم ببعض المهام الهندسية والإنشائية، كانت مهمته الرئيسة هي إزالة تشابك الأسلاك الشائكة والألغام أمام القوات المتقدمة. تمّ تشكيل الفوج الرابع والعشرين «براندنبورغ»، وهو فوج مشهور بالانضباط الحديدي وتشكيله ذي التدريب المثالي، كقوات نخبة للجيش البروسي يكفيه فخراً أنه قد أُسس على يد القيصر فريدريك العظيم نفسه، الذي أنعم عليها أيضاً بشعاره: القتال ليس مجرد تأدية واجب فقط! بعد معركة يينا ضد جيوش نابليون (1806)، قال المارشال بلوشير عنه: كان مقاتلو فوج «براندنبورغ» هم الأعظم. خطؤهم الوحيد هو أنّهم شجعان للغاية. عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، تمّ دمجهم في فيلق الجيش البروسي الثالث التابع للجنرال فون لوتشو، واشتد عودهم في القتال عندما نجحوا في اختراق صفوف قوة مشاة في الجيش البريطاني في معركة مونس في خريف عام 1914. وشقّوا طريقهم حتى وصلوا إلى ضواحي باريس، لكنهم استداروا عند «برج إيفل» في «خطوة الانسحاب المثيرة للجدل التي قام بها الجنرال فون كلوك» في معركة المارن.

في عام 1915، تمّ سحب الفوج من الجبهة الغربية وأُرسل إلى صربيا لدعم الجيش النمساوي الذي كان يتفكك تدريجيّاً. ومن خلال سلسلة من الهجمات الانتحارية، تمكن مقاتلوه من تحطيم شوكة الصرب، قبل أن يوضعوا مرة أخرى في القطارات وتتمّ إعادتهم إلى فرنسا ليصبحوا جزءاً من الهجوم المخطط له على فردان. في رحلة القطار التي قاموا بها عبر ألمانيا، كان السكان في العديد من محطات السكك الحديدية يحاولون زيادة حماسهم بهذه العبارات: «أحسنتم صنعاً، أيها الرجال الشجعان ذوو البدلات الرمادية، عليكم بالجنود الفرنسيين، أرض الإباء ستكون ممتنة إلى الأبد لجنودها المنتصرين».

لم يكن الجنود يبالون بهذه الشعارات. فقد كان هؤلاء من نوعية الأشخاص الذين يجلسون في بيوتهم لا يفعلون شيئاً فلم يجربوا القصف المدفعي أبداً، ولم يكن لديهم أدنى فكرة عمّا يمكن أن تفعله الرصاصة حين تخترق جسم الإنسان. لتذهب إلى الجحيم كلّ هتافات الحماس الوطني هذه! بعد عام ونصف العام قضاها الجنود في خط المواجهة، كان التعب والإرهاق هو السائد بينهم. لم يبقَ سوى القليل من الشعور بالحماس الذي كان طاغياً عليهم في الشهر الأول من الحرب، عندما كان كلّ انتصار يحققونه يعقبه انتصار آخر. كان لا يزال لدى الألمان أوقات في شهر آب 1914 يسخرون فيها من العبارة المكتوبة في اللافتات التي علقها الفرنسيون على جدران منازل القرية: سنمحوهم! وكان الجندي الألماني يستمتع كثيراً بإضافة كلمة واحدة إلى تلك العبارة لتصبح«لن نمحوهم!».

أثناء تقدم الألمان نحو باريس الذي كان يبدو أنّه لا يمكن وقفه، بدأ الجنود الفرنسيون يتمتمون مع أنفسهم عبارة: «لن نمحوهم!»، وبذلك، انهارت معنويات الفرنسيين، وانهار إلى جانبها خطّ المواجهة. لكن كان ذلك في آب 1914، ونحن الآن في شباط 1916، بعد سنة ونصف من أعمال القتل التي جرت على نطاق واسع لا يمكن تصوره، كان يتمّ إرسال الجنود الألمان مرة بعد أخرى، مع القليل من الدعم أو بدونه، ليهاجموا

بشكل مباشر خطوط العدوّ، لتقوم بحصدهم الرشاشات. ولهذا لم يبقَ من مقاتلي فوج براندنبورغ الذين كان عددهم في الأصل خمسة آلاف، سوى 500 شخص قادر على القتال؛ كان البقية يرقدون في المنطقة المحرمة، وجثثهم تتفسخ في الحفر التي صنعتها قذائف المدفعية.

على مدار ما يقارب عاماً كاملاً، كان المقاتلون في الجبهة الغربية يتجمدون أثناء النوم. من المؤكد أن مئات الآلاف منهم قد لقوا حتفهم، كانوا ضحايا لقصف المدفعية والإصابة بحمى الخنادق (حمى تصيب الجنود في الخنادق وينتقل هذا المرض عن طريق قملة الجسم.– م)، والتلوث بالطين، وانتقال العدوى إليهم، وإصابتهم بمرض الغرغرينا. ولكن، بخلاف هذه «التفاصيل البسيطة»، فإنّ النشرة اليومية الصادرة عن القيادة العليا الألمانية كانت تصف الموقف بالعبارة التالية: كلّ شيء هادئ على الجبهة الغربية، كان ما يكدّر صفو هذا الهدوء حدوث انفجارات تهزّ الأرض. لقد بدأ الأمر بفكرة حمقاء، لم تُجرّب من قبل في الحرب: وهي ألّا تهزم العدوّ في المعركة، بل باستنزافه! في كانون الأول 1915 عرض رئيس أركان الحرب العامة في ألمانيا، الجنرال إريك فون فالكنهاين، هذه الخطة على القيصر: هناك هدف في متناول يدنا... وهيئة الأركان العامة الفرنسية مستعدة من أجل الاحتفاظ به للتضحية بكلّ رجل لديها. إذا توجهنا نحوه فإنّ القوات الفرنسية سوف تُستنزف حتى الموت، حيث لا يمكن أن يكون لديها أيّ متسع للقيام بانسحاب طوعي، سواء وصلنا إلى هدفنا أم لا... وكان هذا الهدف هو مدينة فردان الفرنسية.

خلال الشهرين الأخيرين، كان الجنرال فون فالكنهاين قد دفع باثنتين وسبعين كتيبة مع مدفعية ووحدات دعم إلى خطّ قتالي أمامي ضيق يواجه فردان. كانت الخطة تهدف إلى تحقيق اختراق وبسبب التفوق الذي تتمتع به قوة نيران المدفعية الألمانية البعيدة المدى، سيقع عدد كبير من الإصابات. وافق القيصر على الخطة بلا نقاش لأنّه احتاج إلى وقوع

معركة كبرى تشغل الجماهير الجائعة في ألمانيا عن التفكير في مشاكلها. كان يرى في خطة فالكنهاين حلّاً لمأزقه؛ فوافق على الفكرة، وحوّل فردان من خلالها إلى مقبرة مهولة.

أطلق الألمان على العملية اسم «القصاص العادل»، وسمّاها الفرنسيون: «ميدان المذبحة». وبرزت وسط ذلك كلّه الكلمة التي تسحر الفرنسيين: حصن دوموون، وهو أكبر حصن يمتد على طول نهر فرنسي. أطلق عليه الألمان اسم (غطاء التابوت). ووصف الجنرال فيليب بيتان، آخر قائد للجيش الفرنسي في معركة فردان، حصن دوموون بأنّه «يشكل دعامة نظام الدفاع الفرنسي بأكمله». بفضل درعه المصنوع من الفولاذ والخرسانة، والمشيد على منطقة عالية يبلغ ارتفاعها 388 متراً، كان يشرف على الطرق المؤدية إلى فردان. كان بحدبته غير القابلة للتدمير، مثل سلحفاة محملة بمدفعية ثقيلة. كان يحوي نظاماً بارعاً من الأوزان المتعادلة لتثبيت أبراج مدفعيته، مصنوع من الصلب السميك بحجم متر واحد؛ وفي حالة تعرضها للقصف، يمكن أن تنحسر الأبراج بشكل مستوٍ داخل الغلاف الخرساني الذي يبلغ ارتفاعه 3 أمتار، ولا يمكن حتى لضربة مباشرة من إحدى قذائف الهاون الألمانية المرعبة التي يصل طولها إلى 42 سم أن تنفجر فيها - إلّا إذا أصابت ضربة دقيقة جدّاً إحدى النقاط القليلة المكشوفة، مثل منفذ إطلاق المدفعية.

كان حصن دوموون محميّاً بميدان للرمي، يمتد أمامه خندق عمقه 8 أمتار. إذا نجح أيّ شخص - وكان هذا هو الأمر الأكثر احتمالاً - في أن يشقّ طريقه من خلال التشابك الثلاثي للأسلاك الشائكة، يمكن إبعاد المهاجمين من ميدان الرمي عن طريق الرشاشات الآلية الموجودة في أبراج الحصن والتي تطلق النار في كلّ اتجاه. كان الجزء الداخلي للحصن عبارة عن دهاليز تحوي ثكنات الجنود والمستشفيات ومخازن الذخيرة ومركز للاتصالات ومواقع المراقبة، محمية بمصاريع فولاذية في كلّ واحد منها. كانت الأبواب والتحصينات ذات الأقفال بمثابة رفاهية لا

لزوم لها، حيث لن يتمكن أيّ من أفراد العدوّ الدخول إلى هذا الحصن المذهل. كان سلاحها الرئيس هو أحدث الأنواع من المدافع السريعة من عيار 155 ملم القادرة على إطلاق قذيفة كلّ عشرين ثانية. كان يتمّ تحديد الأهداف مسبقاً مما يتيح إصابتها بدقة، وأحياناً تخطئ تلك المدافع هدفها في الضباب أو أثناء الليل.

في عام 1915، وقع حادث جعل كامل تصاميم سلسلة الحصون الفرنسية موضع شك. تولى الماريشال جوفري قيادة الجيش الفرنسي. لم يكن هذا المهندس البالغ من العمر 62 عاماً يجد أية فائدة في الدفاعات الثابتة. أراد أن يكون كلّ رجاله في الخنادق الأمامية، تدعمهم المدفعية المتنقلة. كانت المشكلة أن فرنسا ليس لديها مدفعية قادرة على الوقوف بوجه المدفعية الألمانية البعيدة المدى. ومع ذلك، فقد صدر الأمر لتفريغ حصن دوموون من معظم أسلحته. لكن الشيء الأكثر جنوناً هو الأمر الذي أصدره بسحب حامية المدفعية التي يبلغ قوامها 600 فرد من ذوي الخبرة القتالية في خطوة لم تنتبه إليها الاستخبارات العسكرية للقيصر. عند مغادرتهم، كتب الجنود الفرنسيون - كتذكير بوجودهم - عبارة على جدران الحصن «ادفن نفسك تحت أنقاض الحصن بدلاً من الاستسلام!»، لاحقاً، أصبح هذا الشعار يحمل أهمية كبيرة بالنسبة للألمان!.

بينما كان المدافعون المنسحبون من حصن دوموون يحفرون الخنادق أمام خطّ الحصن، تعرّضت كتيبتهم للقصف بقذائف مدافع هاون ثقيلة وقذائف المدفعية الألمانية البعيدة المدى أدّت إلى مقتل جميع مقاتلي الحصن الخمس مئة، بمن فيهم قائد الحصن. تمّ تسليم مهمة الدفاع عن أقوى حصن في الخطوط الفرنسية إلى شخص مدني يبلغ من العمر 65 عاماً لا يمتلك خبرة عسكرية سابقة، وقد تمّت ترقيته بهذه المناسبة إلى رتبة رقيب أول؛ أخذ المونسنيور شينوت ترقيته على محمل الجدّ وكان يرتدي زيّاً صمّم خصيصاً ليناسب منصبه. مع طاقم مكوّن من ستة

وخمسين رجلاً، ليس لديهم سوى ثلاثة مدافع – اثنان منها من عيار 75 ملم وواحد من عيار 155 ملم، وهي كلّ ما بقي بعد سحب بقية المدافع.

أظهرت حادثة وقعت في أواخر عام 1915 مدى حماقة التنظيم الجديد للقوات الفرنسية. حيث جرت محاولة لإعادة تنظيم قياداتها العسكرية، تمّ بموجبها وضع خطوط الحصن القتالية تحت إمرة حاكم فردان، الجنرال هير، بينما تمّ وضع القطاع الذي يوجد فيه الحصن الرئيس تحت إمرة قائد آخر، هو الجنرال كريتيان. وحيث إن كريتيان وهير يعرفان بعضهما منذ فترة طويلة، لم يكن لديهما الكثير ليقولاه بعضهما لبعض، ولم يفعلا شيئاً لتنسيق خطوات بناء استراتيجية دفاعية. ولهذا فعندما قام قائد الفيلق الجنرال كريتيان، في كانون الأول 1915، بجولة تفقدية لجميع الدفاعات في قطاعه ووصل إلى بوابة حصن دوموون المغلقة بإحكام، ووقف أمامها رفض المونسنيور شينوت وقد كان مأخوذاً بأهميته كقائد لأكبر حصن في البلاد، أن يفتح الباب للجنرال، وما قاله ذلك الرقيب لذلك الجنرال يجب أن يظلّ فريداً من نوعه في تاريخ الحروب: «هذا الحصن لا يفتح إلّا للسيد حاكم فردان، ولن أسمح لك بالدخول من دون أمره الصريح». ولكي يضيف إهانة للجرح الذي أحدثه للجنرال، صرخ المونسنيور شينوت من برج دبابة مفتوح: «يجب أن ألقي القبض عليك كونك جاسوساً!».

ربما لَعبت هذه الإهانة دوراً في الأحداث الدرامية التي أعقبته.

شنّ الألمان هجومهم على فردان، والذي أطلقوا عليه تسمية «عملية القصاص العادل»، في الساعة 09:00 من يوم الثاني والعشرين من شباط 1916. وفيما كان يمثل آخر حلقة من سلسلة الأنشطة العسكرية الرومانسية في الحروب الحديثة، سار مقاتلو فيلق الجيش الثالث، وكان معظمهم من فوج براندنبورغ، في تشكيل كان يتقدم خلف فرقة موسيقية عسكرية تعزف نشيد «مجد بروسيا» وسط النيران المركزة للمدافع الفرنسية. على الرغم من الخسائر الفظيعة التي تعرض لها المقاتلون، فقد استمرّوا في التقدم وهم يصرخون: «إلى الأمام في سبيل الله والإمبراطور والوطن!»

في ذلك الصباح نفسه كان اللفتنانت كولونيل دريان بصحبة مقاتلي فوج تشاوروس وهو (وحدة سلاح فرسان مدرعة تابعة للجيش الفرنسي – م) يكمن منتظراً عند غابة كوار التي تقع على مقربة من أحد أجنحة الحصن، وحاول يائساً الوصول إلى الجنرال كريتيان وتحذيره من خطر ترك الحصن الذي يمثل حجر الزاوية في خطوط المواجهة الفرنسية بأكملها مجرداً من دفاعاته. لم يهتمّ أحد على مستوى الفيلق بالاستماع إليه ولم تصل رسالته إلى الجنرال هير إلّا بعد فوات الأوان ولم تدرأ عنه الكارثة. في الليلة الثانية والعشرين، زار العقيد دريان موضع الملازم روبين، الذي كان يقع أمام غابات كوا. «سيدي العقيد، ماذا أفعل بجنودي الثمانين؟».

أجابه العقيد المرهق: «يا روبن المسكين، لا أستطيع مساعدتك». «الأوامر التي لدينا تقول أن نصمد إلى آخر رجل».

«لكن هناك على الأقل فوج كامل سينزل علينا». لقد كان الملازم روبن مخطئاً في تقديره. لم يكن ما سيواجهونه فوجاً، لكن فيلق الجيش الثامن عشر الألماني بأكمله. شنّ الألمان هجومهم باستخدام الأفواج 81 و87 و115 و117 وفي وقت قياسي اجتاحوا المواقع الموجودة إلى الشرق من كتيبة العقيد دريان. خلال هذه المعركة، خسر الفوج الفرنسي 362 فرداً من أصل ما يقارب 1800 رجل.

أدّى الاختراق الألماني إلى فتح البوابة المؤدية إلى العمودين المزدوجين لحصني دوموون وفوو ولأجل وقف هذا الهجوم على مواضعه في غابات كوار، ضحّى اللفتنانت كولونيل دريان بألف ومئتين من جنوده. قاتل العقيد الشجاع حتى لم يعد هناك أمل، قبل أن يأمر بالانسحاب. بعد أن أصيب أحد جنوده، ويدعى بابين بجروح في الكتف وكان ينزف بغزارة. جرّه دريان إلى حفرة الملجأ وبدأ يلفّ حول كتفه ضمادة، عندما ظهر أحد الجنود الألمان على حافة الحفرة. أطلق عليه رصاصة حينها صرخ قائلاً: «يا إلهي!» قبل أن يسقط فوق الجندي الجريح. لكن الألمان لحقت بهم أيضاً إصابات كثيرة؛ ففي ذلك الهجوم،

خسر فيلق جيشهم الثامن عشر 2350 جنديّاً. أشادت مذكرات الحرب الفرنسية الرسمية بالموقف البطولي لدريان وجنوده: «لقد قاتل جنود اللفتنانت كولونيل دريان ببسالة، حيث لم يسمع أحد نداءهم لطلب المساعدة. ما قاموا به، وحققوه وعانوه هو أبعد عن الوصف».

كان المشهد على طول خطوط القتال واحداً؛ قاتل المدافعون حتى آخر رصاصة، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء في وجه المدفعية الألمانية. لقد تمكنت المدافع البعيدة المدى من طراز كروب 250 ملم وقذائفها التي يبلغ وزنها 300 كيلوجرام من تسوية الخنادق الفرنسية بالأرض مع الجنود الذين داخلها: لن يتمكن أيّ شخص لم يرَ المجزرة بعينيه من تكوين فكرة واضحة عن الذي حدث. عندما تتقدم، تسقط القذائف عليك مع كلّ خطوة تمشيها، ومع ذلك كان يتعين عليك التقدم. كان علينا أن نكون حريصين على أن لا ندوس جميع الجثث المشوهة بشكل فظيع والتي كانت متناثرة وسط الوحل. وبالإضافة إلى ذلك، كان هناك بعض الجرحى الذين يتمّ ربط جروحهم بالضمادات، بينما يتمّ نقل آخرين على نقالات. البعض يبكي من الألم، وآخرون يستلقون هناك. ورأينا جثثاً بلا أرجل، أو بلا رأس مرمية منذ أسابيع في ميدان المعركة.[1]

بعد القضاء على فوج دريان، لم يعد هناك شيء يوقف تقدم الألمان.

ثم حدثت كارثة أخرى أضافت بالتأكيد شيئاً مثيراً جديداً. في 24 شباط 1916، تمّت إعادة تعيين الجنرال كريتيان، الذي أُصيبت كرامته بجرح شديد في دوموون، ففي منتصف المعركة اضطر إلى تسليم قيادة فرقته العشرين إلى الجنرال بالفوير، وهو رجل وصل إلى فردان بعد رحلة طويلة بالسيارة تركته منهكاً تماماً بعد أن اجتاز حاجزاً من نيران المدفعية حيث تحطمت سيارته وقتل سائقه.

استفسر منه الجنرال بالفوير: «ما هو الموقف؟».

1- من رسالة وجدت في بدلة جندي فرنسي ميت في غابات كاري.

قال له كريتيان: «لا يوجد شيء يدعو للقلق، فالحصنان[2] مؤمنان على أتمّ وجه»، ولم يكن لدى بالفوير أيّ سبب للاعتقاد بأن الوضع لم يكن كذلك. أثناء مغادرته لأخذ غفوة، اقترح الجنرال ديليني قائد اللواءين اللذين يغطيان أجنحة حصن دوومون، بإلحاح نقل مقرّ قيادته إلى داخل الحصن. أكّد له كريتيان أن هذا ليس بالأمر الصائب لأنّه سيؤدي إلى فصله عن قواته، حينها تلقى مكالمة مستعجلة من حاكم فردان، الجنرال هير يخبره فيها: «لقد اخترق الألمان صفوف قوات القائد ديريان في غابات كارو، يجب أن تتخذ على الفور جميع الإجراءات اللازمة لإعادة الاستيلاء على الحصن والصمود فيه حتى النهاية حالاً!» تلك هي الكلمة التي استخدمها الجنرال هير - وهو يأمر كريتيان الذي كان، في هذه اللحظة بالتحديد، لا يزال القائد العام لقطاع الحصن، ليخبر الجنرال ديليني بأنه يجب عليه أن يقتحم حصن دوموون. وهكذا، في مساء يوم 24 شباط، وقّع الجنرال كريتيان أمراً بحضور مرافقه الشخصي، القومندان دواريه، لإرسال وحدات كبيرة من أفراد المشاة النظامية على الفور لاقتحام الحصن. في صباح اليوم التالي، الخامس والعشرين من ذلك الشهر المشؤوم، عندما كان كريتيان على وشك تسليم القيادة إلى الجنرال بالفوير، تلقى صدمة: «جاء الجنرال بالفوير في الساعة 10:00 إلى مقرّ القيادة. كنا نعرف بعضنا بعضاً من قبل وأبلغته بالموقف. ثم رأيت على مكتبي ورقتين. تتضمن الأولى الأمر الصادر بالاشتراك في المعركة في يوم 25. وكانت الثانية تتضمن الأمر الذي وجهته في الليلة السابقة إلى قائد الفرقة بأن يقوم فوراً بالاستيلاء على الحصن. كنت أشدد على أهمية الأمر الثاني فتمعن الجنرال بالفوير في ورقتيه، وقال: لا تزال تلك الأوامر نافذة[3]».

لكن الخطأ القاتل كان قد وقع. أيّاً كان السبب، فإنّ الأمر الذي كان

2- كان هناك حصنان كبيران مخصصان لحماية أحدهما الآخر وهما دوموون وفو.

3- الأرشيف الوطني، باريس.

من المقرّر أن يصدر في مساء يوم الرابع والعشرين من الشهر كان لا يزال موضوعاً على مكتب الجنرال عند الساعة 10:00 من صباح اليوم التالي. لم يتمّ تحديد هوية الشخص الذي كان مذنباً بالتسبب في عدم تنفيذ الأمر الحاسم، أو ربما، من أجل الحفاظ على شرف الجنرال، تمّ التستر على القضية. ولو قام كريتيان بالفعل بإرسال أحد ضباطه لينقل الأمر بتعزيز حصن دوموون بالقوات النظامية فإنّه لن يصل إلى قائد الفرقة دولينيه إلّا بعد 18 ساعة، وحينها يكون الأوان قد فات. وقد كلفت هذه الحماقة فرنسا خسارة مئة ألف رجل!

ومع ذلك، لم تنتهِ سلسلة الأخطاء تلك. فقد تلقى دولينيه عقب الأوامر السابقة التي وصلته من الجنرال كريتيان أمراً آخر «يجب أن يتمركز لواءاك عند جانبي دعامتي الحصن...» وبينما كان لواءا دولينيه يتحركان لأخذ مواقعهما في حصن دوموون ليشكلا دعامته المركزية، بدأت قذائف مدافع الهاون من عيار 420 ملم والتي يبلغ وزنها طنّاً واحداً تتساقط بغزارة على أسوار الحصن. قام قادة لواءي دولينيه بتصرف حكيم وهو أن يباعدوا المسافات التي تفصل بين الجنود، خوفاً من تزايد الخسائر في صفوفهم والناجمة عن المدافع الألمانية الطويلة المدى التي كانت تركز نيرانها على الحصن. لقد أثبت قصفها تأثيره الكارثي على الفرنسيين. خلال يومين فقط، هما الثاني والعشرين والرابع والعشرين من الشهر، خسر الفيلق الثلاثين للجيش الفرنسي 65 في المئة من ضباطه ورجاله، وكانت الحصيلة النهائية مقتل 413 ضابطاً و15892 جنديّاً.

تدخل الجنرال بيتان في النهاية دفاعاً عن الجنرال: «لقد شهد كريتيان بأمّ عينه انهيار خطوطنا الأمامية. فكيف يمكنه الصمود؟ لم يكن لديه المزيد من القوات تحت تصرفه. منذ الليلة السابقة للحدث (يوم الثالث والعشرين) لم يبقَ سوى 500 فرد في كلّ وحدة، أمّا البقية فقد كانت جثثهم مبعثرة في الخنادق...».

أدّت خطوة دولينيه إلى أن يكون هناك ممرّ غير محميّ طوله أكثر من

500 متر على جانبي الحصن. وشعر بيقين نسبي من أن البنادق الرشاشة للمدافعين عن حصن دوموون، وقذائف مدافعهم من عيار 155 ملم و75 ملم، ستهتمّ بهذا الشريط من الأرض الحرام وتمنع العدوّ من تحقيق اختراق. كان هذا الافتراض قائماً على حدوث الانهيار النهائي، بل والأكثر فتكاً الذي حدث في سلسلة القيادة، بدءاً من المارشال جوفري حتى الجنرال هير، ووصل من هناك إلى وحدات الخطوط الأمامية: لم يتمّ إخبار الألوية المكلفة بالتغطية أبداً بأن الحصن كان قد جُرّد من مدافعه وأنّه بدون جنود تقريباً! وهكذا حلّ يوم 25 شباط 1916 المشؤوم، فقد ترك أكبر حصن في العالم ليدافع عن نفسه وحيداً، دافع عنه طاقم من المقاتلين كان يتكون في حدّه الأدنى من ستة وخمسين رجلاً، منهم 12 جنديّاً نظاميّاً فقط؛ وكان الباقون ميكانيكيين كباراً في السن، كانت مهمتهم تشحيم المدافع ومفاصل الأبواب أمّا قائدهم، المونسنيور شينوت وحتى لا يتجنى عليه المرء، فلم يكن هو الرجل الأكبر سنّاً في الميدان فحسب، بل إنّه لم يسمع صوت طلقة في حياته. والأسوأ من ذلك أنّه كان على الدوام يؤدي واجبات بسيطة، ولم يكن في وضع يسمح له باتخاذ أيّ قرار من تلقاء نفسه. كان ذلك هو الرجل المسؤول عن الحصن، الذي كان على وشك أن تهاجمه قوات تعتبر فخر جيش بروسيا.

بالطبع، لم يكن الألمان على دراية بسلسلة الأخطاء التي ارتكبها الفرنسيون. على أيّ حال، لم يكن لديهم أيّ نية لمهاجمة الحصن، وهو أمر اعتبروه ميئوساً منه ولن يؤدي سوى إلى تبدد قوتهم البشرية الثمينة التي كانت تحاول أن تنتزع ما لا يمكن الاستيلاء عليه. كانت خطة (القيادة العليا) تتضمن ترك (أسوار الحصن) دون مساس والضرب من حول أجنحته، وكانت تهدف إلى تحقيق اختراق حاسم في سلسلة الحصون دون التوقف عند الدعامتين المزدوجتين الرئيستين لحصني دوموون وفوو. ولغرض القيام بذلك، سيتمّ هدم كلا الحصنين من خلال القصف المتواصل بواسطة المدفعية الثقيلة. كان ولي العهد الألماني يلتزم بمبدأ

معروف في القتال وهو: إذا كانت عملية السيطرة على موقع محصن تكلف الكثير من التضحيات لا يجب اختراقه، بل من الأفضل تطويقه، ثم قصفه بشدة حتى ينسحق ويتفتت إلى ذرات صغيرة. فأمر بإحضار بطارية مدافع هاون عيار 380 ملم وبعض قذائف مدافع الهاون المعروفة باسم بيرثا الضخمة من عيار 420 ملم لتقذف قنابلها العملاقة التي يبلغ وزنها طنّاً واحداً على الحصن ومنع القوات التي في داخله من إبداء أيّ ردّ فعل؛ سددت اثنتان وستون من هذه القنابل الوحشية ضربات مباشرة – ولكنها لم تسفر عن أيّ نتيجة. في يوم 25، استمر القصف الألماني من الساعة 09:00 حتى الظهر. وتسبّب في تصاعد كميات هائلة من التراب وظهور حفر عميقة. لقد تحولت المنطقة التي أمام المواقع الأمامية للقوات الألمانية إلى أرض خالية. في الساعة 15:45، استلم الرائد كورت فون كلوفر من الكتيبة الثانية، من فوج براندنبورغ الرابع والعشرين، الأمر: اقتحام حصن دوموون من اليمين. والقيام بهجوم مباشر رغماً عن كلّ الظروف.

كان يوماً شتائيّاً ثلجيّاً بارداً، والسماء ملبدة بالغيوم؛ في الساعة 16:00، خرج الجنود من خنادقهم ليشنّوا الهجوم. بينما كانت كتيبة من المشاة تشق طريقها إلى الأمام وسط ميدان المعركة الذي تتناثر فيه الحفر وآثار الدمار، كانت تتقدمها وحدة مشاة مؤلفة من دزينة من الرجال تحت إمرة الرقيب كونتسه البالغ من العمر 24 عاماً. لم يكن رجال كونتسه مسلحين بأيّ سلاح شديد الفتك سوى البنادق وأدوات قطع الأسلاك الشائكة. كان عليهم أن يمهدوا الطريق لقوات كلوفر المهاجمة عبر التخلص من تشابك الأسلاك الشائكة الموجودة على يمين الحصن. كان الأمر الصادر لهم هو التقدم بثبات، فيما كان يسقط وراءهم وابل كثيف من قذائف المدفعية الثقيلة[4] التي كان مدى تأثيرها لا يقل عن 50 متراً. كانوا يدركون

4- هذا الابتكار تمّ اختباره لأول مرة في معركة فردان حيث تتساقط القذائف أمام الوحدات المهاجمة.

أنّه في الحرب، وخصوصاً فيما يتعلق بدقة نيران المدفعية، لا يحدث أيّ شيء وفقاً للخطة المرسومة. لم يكن جنود كونتسه يثقون بكفاءة رجال مدفعيتهم وبدؤوا في التحرك قدماً معتمدين في الغالب على غريزتهم، وهي التي كانت تملي عليهم كلّاً من التوقيت وكذلك اتجاه تقدمهم. كانوا ينتقلون إلى أيّ مكان كانت قد سقطت فيه القذائف من قبل. وكلّما كانوا يصعدون إلى الأعلى، كان يقلّ ما يمكنهم رؤيته من الأمام أو الخلف، بالإضافة إلى فقدانهم كلّ اتصال بكتيبتهم.

وحينها حدث لأولئك الجنود مجموعة من الظروف التي يصعب تفسيرها والمعروفة في كلّ حرب، والتي غالباً ما تقرر مجرى التاريخ. استمر رجال كونتسه في السير امتثالاً لأوامره وهم يتتبعون آثار ما خلفه الوابل الكثيف للقصف المدفعي. لم يصادفوا أيّ عدوّ، على الرغم من أنّهم كانوا يسمعون قعقعة الرشاشات التي كانت تصلهم من الجوانب. كانت هناك الكتيبة الثانية بقيادة الميجور فون كلوفر وهي تواجه مقاومة من كتيبة الرشاشات الفرنسية تحت قيادة النقيب ديلارو. واشتبكت كتيبة أخرى وهي الكتيبة الثالثة لفوج براندنبورغ، مع مقاتلي فوج الزواف وهو فوج من المشاة الخفيفة في الجيش الفرنسي مؤلف من المتطوعين من سكان دول شمال إفريقيا. بعد معركة قصيرة ولكنها دامية، استدار مقاتلو فوج الزواف وهربوا، وبدأ مقاتلو فوج براندنبورغ بملاحقتهم عند سفح التل.

وبسرعة فائقة ينبغي أن تعتبر أنّها سجلت رقماً قياسيّاً في سرعة التقدم في الحرب العالمية الأولى، طاردت مجموعة من الجنود الألمان بقيادة الملازم الأول كورت فون برانديس، عدوّهم الهارب، وقطعت خلال خمس وعشرين دقيقة الألف متر التي توصلها إلى قمة التلال ووقفت على القمة، على بعد كيلومتر من أسوار الحصن.

كان يجب أن يكون نزولهم بالسرعة نفسها. ما إن وصلوا إلى قمة التل حتى شاهد أحد جنود استمكان المدفعية الألمانية ظلال أشخاص

يتحركون على قمة التل واعتقد أنّها لتشكيل فرنسي يستعد للقيام بهجوم مضاد. قام بتدوير مدافعه ليوجهها بعيداً عن حصن دوموون، حيث أرسل وابلاً مروعاً من قذائف المدفعية لتسقط على أفراد وحدته. أطلق الملازم الأول فون براند يس مشاعل فوسفورية بيضاء، لكن صواريخ الإشارة تلك أطفأتها زخات الثلج المتساقط. لم يعد أمامه أيّ خيار سوى أن يسحب كتيبته من قمة التل المكشوفة، قبل أن تمحوهم «النيران الصديقة». أخيراً، قام جندي سلاح المدفعية، بعد إدراكه لخطئه، بتدوير المدافع من جديد لتقوم بمهمتها الأصلية، وهي قذف وابل من القنابل على تلة دوموون. وبينما كانت هذا الالتباس مستمرّاً، حيث غيّرت المدافع وجهتها بشكل مؤقت لتتحول عن قصف حصن دوموون، وكانت الكتيبة الثانية بقيادة فون كلوفر تتعرض لرمي منتظم بنيران كثيفة من البنادق الرشاشة من برج كنيسة قرية دوموون، استمرّ الرقيب كونتسه ورجاله في السير وسط تساقط الثلج في خط مستقيم لصعود التل. وأثناء مسيرهم صادفوا أحد الجنود الفرنسيين وهو مختبئ في حفرة ويعاني من إصابة في ساقه.

توقف كونتسه لفترة وجيزة ليضع ضمادة على جرح الرجل لوقف النزيف؛ وحينما همّ بتركه، شعر بشيء من القلق، فقد رأى الجندي الفرنسي يلتقط سلاحه، وكانت غايته على الأرجح استخدامه كعكاز له. لكن كونتسه أطلق النار عليه وأرداه قتيلاً. اعتقد كونتسه ورفاقه أن وابل القصف المدفعي قد توقف لكن المدافع الألمانية تحولت فجأة، عن تسديدها الخاطئ على الكتيبة الألمانية الموجودة في قمة التل لتتدفق قذائفها من جديد على التل الذي يؤدي إلى الحصن.

وجد كونتسه نفسه وحفنة الجنود الذين كانوا معه، وقد تملكهم الرعب فجأة لأنّهم كانوا متقدمين بالفعل بمسافة طويلة عن المكان الذي كانت تصل إليه مديات المدفعية الألمانية، فيما كانت شظايا الانفجارات تقترب منهم بثبات. لقد وقعوا في فخّ قاتل: حصن العدوّ

أمامهم وكرة نيران قذائف المدفعية تقترب منهم من الخلف. لم يكن بإمكانهم التراجع، فسوف يتمّ طحنهم بكل تأكيد، ولا كان باستطاعتهم المضيّ قدماً إلى الأمام، لأنّه يوجد في مكان ما خلف ستارة من الثلج سور الحصن الهائل، وقد نبتت منه إلى الخارج الرشاشات بشكل كثيف مثلما تنبت الأشواك من جسد حيوان النيص. الأمر المذهل هو أنّه حتى هذه اللحظة بقيت مدافع الحصن صامتة. استخدم كونتسه غريزته للبقاء على قيد الحياة: كانت الفرصة الوحيدة أمامهم للنجاة بحياتهم وسط وابل القذائف المتساقطة عليهم توجد أمامهم، إمّا في الاختباء بمحاذاة جدران الحصن، أو ربما النزول إلى الخندق المائي الذي يحيط بالحصن، والذي كان بعيداً عن مرمى المدفعية الألمانية. تمكن كونتسه، الذي كان قد انفصل عن رجاله، وكان كلّ واحد منهم يرتعد خوفاً في الحفرة التي نزل فيها، من إيجادهم جميعاً، طالباً منهم التجمع: «!» وصرخ بصوت أعلى من الضجيج المحيط بهم (إلى الأمام سر)، فساروا يجرجرون أجسادهم وسط الثلج المتساقط متجهين نحو الحصن.

في تلك اللحظة انفتحت أمامهم أبواب الجحيم. كان كونتسه على يقين من أنّه قد تمّ استمكانهم. ألقى الرجال بأنفسهم أرضاً وتشبثوا بها بأصابعهم، حين بدأت مدفعية الحصن الوحيدة من عيار 155 ملم تقذف اللهب والدخان وتطلق نيرانها التي كانت تمرّ من فوق رؤوسهم نحو القوات المهاجمة وراءهم، أو هكذا بدا الأمر. حالما أطلق الفرنسيون أول طلقة حتى أصبح الحصن هدفاً للمدافع الثقيلة الألمانية، في حين واصلت مدافعهم المتوسطة الحجم بقصف القوات المتقدمة. كانت شدة النيران التي أمطرت حصن دوموون شيئاً أقرب إلى الخيال. خلال الساعات الثلاث والنصف التي انقضت منذ بدء القصف، أطلقت مدافع الهاون الثمانية لكتيبة المدفعية الثانية عشرة 860 قذيفة من طراز 210 ملم، وكانت تزن كلّ واحدة منها 600 كجم.

حوصر الجنود الذين كانوا برفقة كونتسه ما بين إطلاقات الرشاشات

الفرنسية، التي كانت تمرّ بسرعة وبتتابع فوق رؤوسهم، وقصف المدافع الألمانية من الأمام والخلف. وعلى أثر حدوث انفجار في مكان قريب، صرخ أحد رجاله غاضباً، حين أصابت صدره شظية تعثر في مسيره إلى الأمام، وبكى وهو يدعو الله، ويلعن بلده. فيما تشبث آخر بالأرض وبكى بهدوء متذكراً والدته. أمّا البقية فكانوا يشقون طريقهم وهم مرهقون من خلال الأسلاك الشائكة المتشابكة. اهتزّت الأرض، وانطلق لهيب النار من فوهات جديدة. ومع ذلك، فإنّ أكثر ما كان يخشاه كلّ جندي ألماني، هو المدفعية الفرنسية البغيضة، التي ظلّت صامتة بشكل غريب. لم يكن هناك سوى تفسير واحد محتمل لذلك الصمت. وبسبب أنّهم انتقلوا إلى الباحة المكشوفة المحيطة بالحصن، فلا بدّ أن الفرنسيين قد رأوهم ولم يتخيلوا أبداً أن يكون هؤلاء الرجال الذين أمامهم جنوداً ألمان؛ فقد اعتقدوا أنهم جنود فرنسيون منسحبون.

إلى الأمام صرخ كونتسه بأعلى ما يستطيع وهو يبتلع أنفاسه. كان بوسع رجاله أن يسمعوا صراخه الذي كان أعلى من ضجيج القصف. بات الموقف من حولهم مجنوناً تماماً. كان جنوده يتبعونه الواحد تلو الآخر، وكانوا مرعوبين يخشون أن تبدأ الرشاشات بإطلاق النار. في الواقع، ما حدث هو أن المونسنيور شينوت الطاعن في السن، الذي كان يعاني من اضطراب نفسي يدعى صدمة القصف جرّاء القصف المستمر، قد غفل ببساطة عن وضع مراقبين في أبراج الحصن وأن رجال المدفعية المحترفين الذين يبلغ عددهم نصف دزينة، وكانت مهمتهم حشو المدافع بقذائف من عيار 155 ملم، كانوا مشغولين للغاية يحدقون إلى الثلوج المتساقطة في الخارج التي حجبت عنهم كلّ شيء فلم ينظروا إلى الأسفل حيث الباحة القريبة منهم.

تمزقت الأسلاك الشائكة بسبب القصف، فعبرها رجال كونتسه. وصلوا فجأة إلى سياج ذي قضبان معدنية يبلغ ارتفاعه مترين ونصفاً.

وكان ينتصب خلفه بناء ضخم ذو جدران رمادية - يشبه تمثال أبو الهول كان يمثل حصن دوموون! ما العمل؟ دزينة من الألمان في مواجهة حصن دوموون: لم تكن المقارنة غير عادلة فقط، بل كانت مثيرة للسخرية تماماً. شجع صمت المدافع الرشاشة كونتسه على المضي قدماً إلى الأمام؛ ولكن كيف له أن يتغلب على هذا السياج المرتفع؟ لم يكن هناك طريق واضح للعيان يمكن أن يسلكوه ولم تكن أدوات قطع الأسلاك الخاصة بهم تستطيع أن تفعل شيئاً في مواجهة قضبان السياج المعدنية. تناهى إلى سمعهم فجأة صوت مدفع رشاش. سمع كونتسه صوت رنين قوي في قبة الحصن فاستدار راجعاً بسرعة. بدأت إطلاقات الرصاص تصطدم بالبرج الحديدي الذي فوقه والذي كان مأوى المدافع الرشاشة، وبدأت تطنّ في السماء مثل حشرات يراعة غاضبة. كان مصدر النيران هو أحد التلال القريبة، أو ربما من قرية دوموون.

اندفع كونتسه نحو إحدى الحفر، وانزلق في بركة من الطين. وأقعى جانباً، وهو يشعر بالإعياء والتعب. سمع صرخة دفعته إلى رفع رأسه، فرأى صديقه كارل ستولوارت يتدحرج باتجاهه. فسحبه بشكل غريزي، قبل أن يسقط على رأسه في الحفرة وليغرق في الوحل. وقع صديقه فوقه، وهو يصرخ من الألم. فقد اخترقت رصاصة مرفقه واستقرت في جنبه. وخدشت رصاصة أخرى جبهته. استخدم كونتسه حربته كجبيرة ولفّ ضمادة حول ذراع صديقه: «ابقَ مكانك، سوف ننزل بك إلى الأسفل». لم تكن لديه فكرة عن كيفية فعل ذلك. كانت الأعيرة النارية تأتيه من الجانب، والقذائف من الخلف وينتصب أمامه سور عالٍ وطويل. عندها مدّ له إله الحرب يد العون. سقطت قذيفة ألمانية من عيار 210 ملم في مكان قريب، وأحدثت فجوة في السياج، وفي الوقت نفسه، أدّى انفجارها إلى تمكين كونتسه من التقدم من خلال القفز منها ليهبط في الوحل العميق للخندق، وسبب له ذلك حالة من الدوار ولكنه لم يصب بأذى. بعدها لوّح لرجاله، وهو يختلس النظر فوق حافة

الحفرة إلى الجانب الآخر من السياج. شخص واحد فقط، هو صديقه هاينريش شتيغليتز، انسلّ من خلال الفجوة وانزلق إلى الخندق، بعد أن تعلق بسلسلة من أسلاك الهاتف. وحينها قال كونتسه: «علينا أن ننزل كارل».

هزّ شتيغلتز رأسه وصرخ بصوت عالٍ حتى يتمكن أن يسمعه وسط ضجيج أصوات الانفجارات: لقد نال كارل نصيبه... إنّه ميت.

حينها قال كونتسه: «سحقاً»، وهو يحاول فهم أقدار الحرب الغريبة. فالقذيفة التي أوصلته إلى برّ الأمان تقريباً تسببت في موت صديقه. لقد رأى العديد من الرجال يموتون من قبل، لكن هذا كان صديقه. مرّت المشاهد أمام عينيه. أغمض عينيه وفتحهما عدة مرات وحدّق إلى حافة الخندق، متخيلاً الحفرة وجثة صديقه فيها. حينها انفجرت قذيفة على بعد بضعة ياردات منه وعاد ليدرك موقفه المحفوف بالمخاطر: رقيب يحمل أدوات قطع الأسلاك الشائكة، يتكئ على جدار أكبر حصن على وجه الأرض، وقذائف المدافع الألمانية تتساقط بشدة على قبة الحصن لتدمرها، وأصوات لأزيز شظايا فولاذية تتناثر بجنون في كلّ مكان. رفع كونتسه بندقيته وصوبها باتجاه فتحة في الحصن يتمّ إطلاق النار منها، لكنه لم يستطع أن يستبين من هو وراء الحركة التي فيها. تراجع ببطء بعيداً عن الجدار للبحث عن بقية أفراد مفرزته. وناداهم، كانوا لا يزالون يرتعدون وهم قابعون في الحفر التي على حافة الخندق، وطلب منهم أن يتشبثوا بالسلك نفسه الذي استخدمه هاينريش وينضموا إليه فردّ عليه صوت أحدهم: «أنت مجنون تماماً». لكنهم اضطروا إلى أن يلتحقوا به وينزلوا إلى الخندق الذي كان فيه، لأن بقاءهم في ذلك المكان سوف يجعلهم يتشظون أوصالاً بواسطة القذائف الألمانية أو يمكن للموجودين في أبراج الحصن التي تحوي الرشاشات الآلية أن يكتشفوهم.

صرخ بهم كونتسه: «أيها الأغبياء أطيعوا الأمر!» حينها نزلوا إليه متشبثين بسلك الهاتف، فالأمر في الجيش الألماني كان واجب التنفيذ.

«اتبعوني» صاح بهم كونتسه، فأسرع عشرة رجال خائفين للخروج من قعر الخندق ليختبئوا خلف الحصن، تخلصاً من نيران المدفعية المباشرة. وقد جعلهم هذا بالتأكيد بعيدين عن الخطر؛ بدأت قذائف المدفعية تصيب الحصن بدقة متزايدة. فيما بقيت مدفعية الحصن الفرنسية وعلى نحو غير قابل للتفسير صامتة ولم يستطع الرقيب كونتسه أن يفهم كيف لا يمكن لجنود نقاط المراقبة في الحصن أن يشاهدوا حفنة من الجنود ذوي الخوذات الحديدية وهم يركضون حول جدرانه. زادت شدة القصف الألماني واخترقت قذائفه الجدران الخرسانية. كانت تلك فرصتهم الوحيدة للبقاء على قيد الحياة رغم أن حظوظ نجاحها كانت ضئيلة للغاية. بحث كونتسه عن فتحة، أو بوابة، أو فجوة صنعتها قذيفة ما ليدخلوا منها، ولكن كلّ ما رآه كان جدراناً ترتفع فوق سطح الأرض. عندها رأى منفذ مدفع لإطلاق النار مفتوحاً في أحد القباب العالية. لقد كان مرهقاً جدّاً فلم يفكر ويتساءل لماذا لم يبرز في تلك الفتحة مدفع يخرج منها! في الواقع، كان ذلك هو أحد الأبراج الذي كان فيه مدفع من طراز 155 ملم ولم يعد موجوداً الآن. كانت الفجوة ترتفع حوالي ثلاثة أمتار عن جرف شديد الانحدار.

وفي ومضة عبقرية، استدعتها ضرورة البقاء على قيد الحياة، تذكّر كونتسه كيف كان يقوم هو وأصحابه، حين كانوا فتياناً، في اليوم الأول من فصل الربيع، بتشكيل هرم بشري للحصول على النقانق الموجود فيما تعرف بشجرة مايو للزينة (التي يتمّ صنعها في القرى الألمانية احتفالاً بقدوم الربيع - م). صحيح أنّه لم يكن هناك احتفال بقدوم الربيع وليس فيه نقانق كبيرة الحجم تعطى هدية للمشاركين فيه، ولكن الهرم كان الهرم نفسه الذي كانوا يصنعونه أيام الاحتفالات، فقد كان الطريقة الوحيدة لجعله يصل إلى الفتحة. صنع الجنود، وظهورهم مستندة إلى الحائط، هرماً بشريّاً، انهار ثلاث مرات قبل أن يتمكن كونتسه من أن يرفع نفسه ويمسك بحافة منفذ المدفع. ثم بدأ يسحب جسده، حتى استطاع أن يدخل

رأسه وكتفيه من خلال الفتحة. لم يكن أمامه سوى الظلام فقط وتوقع أن يتمّ إطلاق النار عليه في أيّ لحظة. لم يحدث شيء، لم يتحرك شيء. مع الدفعة الأخيرة، كان قد أصبح جسمه بالكامل داخل فتحة المدفع.

وجد كونتسه نفسه في مخزن ذخيرة مهجور، وكانت توجد في أرضيته حفرة تتدلى من خلالها كابلات مصعد الذخيرة. توقف لالتقاط أنفاسه للمرة الأولى منذ أكثر من ساعة، وبدأ ينفخ في يديه الباردتين، حاملاً بندقيته في مرفق ذراعه. كانت تصله من خلال الحفرة، ومضات زرقاء للانفجارات التي كانت تحدث على طول الباحة الخارجية للحصن. وتطايرت شظايا قذيفة لتدخل من خلال الفتحة. ووقع كونتسه على الأرض وشبك ذراعيه على رأسه، في حين رددت القبة الفولاذية التي فوقه صدى صوت قرقعة معدنية تشبه صوت جرس الكنيسة. زحف إلى الحفرة التي في الأرضية وضربته رائحة الهواء العفن القادم من الظلام. أنزل ساقيه في الحفرة، وقد تعلق بسلك المصعد حتى عثرت قدماه على درجة سلّم حديدي. بعد عشر درجات من السلم انتهى به المطاف إلى نفق شديد السواد. مشى بشكل جانبي على طول الجدار وقد برزت إلى الأمام فوهة بندقيته ليتحسس بها لئلّا يصطدم بعائق ما، أشعل عود ثقاب بأصابع ترتجف وألقى نظرة سريعة. وجد باباً موصداً بواسطة مزلاج سميك، لا يمكن تحريكه إلّا بواسطة دفة في وسطه. أدار تلك الدفة، وانفتح الباب وضرب الهواء البارد وجهه. لقد عاد إلى العراء، فوق الخندق مباشرة حيث ترك رجاله. ناداهم، لكنهم أخبروه دون أيّ لبس، أنّه من الجنون أن يسير في عرين الأسد، ولا يحمل معه سوى بندقية. كانوا في العراء يجلسون القرفصاء فرحين وسط الخندق العميق وهم يحتمون به وينتظرون حتى تنتهي المعركة.

الوحيد الذي كان مستعدّاً للانضمام إليه هو هاينريش، أمّا البقية فقد كانوا قد تسلّلوا خلسة وقتلوا في نهاية المطاف جرّاء الشظايا التي أصابتهم. سرعان ما قام كونتسه بسحب هاينريش من الباب المفتوح،

وأمره بمراقبة المكان وإطلاق النار على أيّ شخص يحاول الدخول أو الخروج لا يرتدي خوذة ألمانية، قبل أن يتوجه وحده إلى أسفل النفق المظلم الطويل، كان يتعثر وسط ظلام دامس، ويتحسس طريقه مستعيناً بالجدار الرطب. كان الطريق إلى الخارج مضاءً بدائرة من الضوء الأصفر صادرة من مصباح إعصاري معلق بمسمار، نشر وهجاً أصفر وسط الظلام العفن. كان لديه على الأقل ضوء ينير له المكان.

كان النفق الأول يؤدي إلى نفق ثانٍ، كان مظلماً وضيقاً مثل الأول تماماً، قبل أن يصل إلى السلّم وسط دويّ الانفجارات المتقطعة بانتظام والتي كانت هي السائدة على وجه الخصوص. كان من المفترض أن تؤدي درجات السلم هذه إلى أحد أبراج المدافع وأن يكون صوت الانفجارات هو صوت إطلاقات مدفع من طراز 155 ملم. تسلّق المكان ببطء حاملاً مصباح الأعاصير بيد، وبندقيته باليد الأخرى. انزلق حذاؤه ذو المسامير على الدرجات الحجرية الرطبة. كان يشعر بالخوف، يتسلّل إليه وهو يدخل في أعماق حصن العدوّ.

كان الرقيب كونتسه شارد الذهن مثل رجل غائب عن الوعي تماماً. كان جسده يتحرك، لكن كان يبدو كما لو أن عينيه فقدتا التركيز، وجميع أطرافه مصابة بالشلل. كان يتصرف كشخص لا يدرك ما يدور حوله ويقوم بأفعال غير متوازنة، كما لو أنّه لم يعد يصدق أنّه لا زال على قيد الحياة. عند آخر درجات السلّم كان هناك صندوق، وإلى جانبه صناديق قذائف مكدسة على الجدران وباب حديدي أسود. كان يبدو منيعاً، لم تخترقه أية رصاصة أو قذيفة. كانت الغاية منه حماية الذخيرة الحية المكدسة من الانفجار. وقد وصل إلى ذلك المكان رقيب بسيط، كان بإمكانه، برصاصة جيدة التصويب، أن يدمر أكبر حصن في فرنسا! لكن هذا الفعل سيتسبب بمقتله أيضاً، ولم يكن يرغب بالانتحار على الإطلاق. كان الباب يحوي عجلة معدنية، مثل تلك الموجودة في خزانات البنوك. حشر الرقيب كونتسه نفسه في مكان ضيق، وحدق بثبات إلى العجلة، وانتظر حتى تستدير. انتظر، دقيقة واحدة،

دقيقتين... بدت بالنسبة له دهراً. كان عليه أن يتصرف قبل أن يأتي شخص ما من أجل الحصول على مزيد من الذخيرة، لذلك انتظر أن يخمد صوت الانفجار التالي صوت العجلة. بووم!! وحصل الانفجار وتلاشى المدفع، وسرعان ما أدار العجلة، قبل أن يدفع الباب. الذي انفتح بصمت، فقد كان مركباً على مفصلات مدهونة جيداً. تسلّل برأسه من خلال الباب. كشفت له نظرة سريعة على المكان أن «النفق» يؤدي إلى باطن الحصن. لم يتحرك شيء. فأين يا ترى العدوّ؟ كان ينبغي أن يكون هناك المئات من أفراده، ومع ذلك كان كلّ شيء يبدو مهجوراً. لم تكن هناك أصوات، ولا رائحة طبخ، وليس سوى الصمت - باستثناء صوت الانفجارات، حيث تضرب القذائف الحصن مثل الطبل. كان التفكير بإيجاد تفسير وحيد معقول - حيث لم يكن هناك حامية للجنود - كان، يمثل بالنسبة للجندي الألماني، أمراً صادماً ومدعاة للتأمل فيه.

هنا بدأت سلسلة من تلك المصادفات الغريبة التي تكون فريدة من نوعها أثناء المعارك الحاسمة بشكل خاص، والتي تحول أحياناً الحرب إلى ما يشبه عرضاً مسرحيّاً صامتاً للبطولة - عرضاً ساخراً يواجه احتمالات مستحيلة، مثلما يحدث حين يعلق رأس المهرج في فك الأسد. ولكن ذلك المكان لم يكن سيركاً، لقد كان حصناً منيعاً فيه رصاص قاتل ورجال مستعدون للقتل. دوّى انفجار بصوت عالٍ من مكان قريب. قفز كونتسه إلى الوراء، حتى وخزه مقبض معدني من باب آخر في منطقة الحوض. كزّ على أسنانه بشدة حتى إن الدماء تدفقت من لثته إلى لسانه الجاف. حدث انفجار آخر، وهذه المرة كان متأكداً من أن الانفجارات كانت وراء الباب. كان لا بدّ أن يكون هذا هو المدخل إلى برج المدافع. دفع الباب بحذر ليفتحه وقد أعماه الضوء القوي الصادر من مصباح كهربائي. كشفت له نظرة سريعة على المكان عن وجود أربعة من رماة المدفعية داخل الغرفة، يقومون بحشو مدفع مخيف من عيار 155 ملم ذي سبطانة قصيرة وإطلاق القذائف منه.

كان من الصعب تحديد من هو الطرف الذي كان أكثر دهشة؛ فعل كونتسه الشيء الوحيد الذي تبادر إلى ذهنه، فأشار ببندقيته وصاح بهم: «ارفعوا أيديكم!»، وبتلك الحركة، استولى الرقيب كونتسه على مدفع ميدان العمليات الوحيد في الحصن. لم تصدر عن رماة المدفعية المذهولين أية مقاومة عندما أمرهم كونتسه أن يخرجوا من المكان ويتحركوا أمام بندقيته. جعلهم يقودونه إلى أسفل نفق مظلم آخر ينتهي أمام باب حديدي آخر. وأمر أسراه بتدوير العجلة، وهو ما فعلوه بحماسة شديدة. انفتح الباب إلى فناء داخلي. في تلك اللحظة، أصابت قذيفة قبة الحصن، تسبب العصف الجوي الناجم عن القذيفة والحطام المتساقط في إثارة الغبار الذي غطى وجهه، في حين هرب أسراه الأربعة مسرعين عبر الفناء وتوجهوا نحو باب آخر ليعودوا إلى الحصن. شعر حينها بأنّه قد وقع في الفخ!

من المؤكد أن رماة المدفعية سوف يوقظون بقية الجنود، وسوف يبدؤون بالبحث عنه. وربما سيموت - أو ربما لا. لأنه، مثل العديد من الجنود، كان يتمسك بالاعتقاد البدائي بأنّه إذا توقع المرء الأسوأ فلن يحدث له ذلك أبداً. لكن الحماس اشتعل في قلبه حتى إنه تخلّى عن الحذر الذي لازمه أثناء ملاحقتهم في الحفرة نفسها. لقد لعن نفسه بسبب جنونه لأنّه كان مسلحاً ببندقية وقنبلتين يدويتين ويركض داخل الحصن. لقد كان وحيداً ومتعباً ويشعر بالعطش والجوع وكانت ركبته تؤلمه. لقد تمّ تدريبه على تلقي الأوامر، ولكن لم يكن هناك في تلك اللحظة أحد يعطيه أيّ أوامر. كان كونتسه بمفرده وكان عليه أن يتصرف من تلقاء نفسه؛ لكنه أدرك فجأة شيئاً، قد يحصل بسبب ما قام به على وسام الصليب الحديدي - هذا إذا لم يكن ميتاً حينها.

وجد نفسه أمام باب آخر. تمتم بالدعاء والصلاة، شقّ طريقه ببطء حاملاً بندقيته، وتساءل عمّا إذا كان سيتمّ في هذه المرة تقطيع أوصاله. أصدرت مفاصل هذا الباب صريراً عندما انفتح على ممرّ طويل وواسع

ومضاء بشكل خافت بالشموع، تواجد فيه العشرات من الرجال وهم يرقدون في أسرّة ذات طابقين؛ على الرغم من القصف المدفعي وتساقط القذائف، إلّا أنهم استسلموا لنوم عميق. ما نجح فيه من قبل ربما سينجح مرة أخرى. كانوا نائمين وكان مستيقظاً. كانوا في النور وكان في الظلام. ربما لم يلاحظوا أنّه كان وحيداً.

«ارفعوا أيديكم!» صرخ بهم، فوقعوا من أسرّتهم، يغالبهم النعاس. عندها انفجرت قذيفة في الفناء. تسلّل العصف الجوي الناجم عن الانفجار عبر النفق ومن خلال الباب الذي تركه مفتوحاً، وأطفأ الشموع. قبل أن يتمكنوا من استعادة وعيهم والاندفاع نحوه، أغلق كونتسه الباب بإحكام وثبت قضيباً معدنيّاً فوقه. تعثّر في سيره على طول الممرّ المظلم، بعد أن أسر ثلاثين رجلاً ببندقية يدوية ودون إطلاق رصاصة واحدة. جلس على الأرض الرطبة وفتش في جيوبه بحثاً عن سيكارة.

بيدين مرتجفتين، وجد بقايا سيجارة في جيبه وأشعلها بآخر عود ثقاب بقي لديه. أدرك ما يحمل وجهه من تعب ومدى ما كان يعانيه من إرهاق. لم يكن هناك شيء يتحرك، وليس من صوت سوى دقات قلبه. لقد سبق له أن حارب في الخنادق وهاجم العدوّ عبر ساحات القتال المفتوحة، وشعر بالخوف هناك. لكن هذا الحصن الرطب والمظلم جعله يشعر بأنّه مدفون وهو حيّ داخل قبر. كان الخوف يتسلّل تدريجيّاً إلى داخله، وكانت تطوف من حوله أشكال شريرة، تصور خسوف القمر أو العجول ذوات الرأسين، والتي يعتبرها أبناء قريته نذير شؤم للكون المجهول. أغلقت الأنفاق بوجهه، وكان يساوره ذعر مفهوم من الخوف من الأماكن المغلقة، وكان يكافح من أجل الحصول على نسمة هواء في بيئة ذات رطوبة كريهة. تغلّب الذعر عليه. وشدّد من قبضته على بندقيته.

اجتاحه دافع قوي ليخرج من هذا الجحر إلى العراء سواء تعرض للقصف أم لا. أصبح مدى الهوة التي تفصله الآن عن الموتى الآخرين من رفاقه، يتسع بشكل واضح أكثر، ولم تمضِ سوى بضع دقائق قبل

أن يبدأ بالسير على رؤوس أصابعه إلى الأمام؛ تحركت قدماه أسرع من عقله. كان عليه أن يخرج من هنا، ويهرب، إلى أيّ مكان. فوق هذا النفق المظلم كان هناك إطلاق نار وموت، لكن هنا في باطن الحصن كان المكان مظلماً وخانقاً ومخيفاً. ومثلما ساعدته بعض الآلهة في العثور على ممرّ للدخول، فهو الآن يصلّي لكي تكشف له تلك الآلهة نفسها على منفذ للخروج. حينها سمع وقع أقدام عند أعلى النفق المظلم. هل كانوا يلاحقونه! أم كانوا لا يعلمون بوجوده؟ لقد تراءى له شخص يمشي حاملاً شمعة. كان جنديّاً فرنسيّاً لا يحمل سلاحاً.

ارفع يديك صرخ كونتسه للمرة الثالثة في غضون عشرين دقيقة. جمد الفرنسي في مكانه، رفع ذراعيه في الهواء وصاح من الألم من أثر الشمع الساخن الذي كان يسيل على يديه.

«لا تطلق النار!» كانت تلك صيحة بصوت واهن أطلقها صبي، يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً على الأكثر، كانت يداه ترتجف وشفتاه وعيناه ترتعشان. أدرك كونتسه أن إطلاق النار على هذا الصبي لن يحدث أيّ تأثير على نتيجة الحرب. صاح الرقيب، الذي لم يكن يعرف التحدث بلغة أخرى سوى لهجة سكان مدينة تورينغن، قائلاً: «هل أنت ضابط؟».

لم يفهم الصبي ما كان هذا الألماني يريده؛ كلّ ما رآه هو فوهة بندقية موجهة نحوه.

«كلّا يا سيدي النقيب...» غمغم الصبي الفرنسي بصوت منخفض. لم يكن الرقيب نقيباً ولم يفعل سوى أن يلكز الصبي بفوهة بندقيته:

«أين الضابط؟» كانت هذه المحادثة بين مراهق فرنسي خائف تماماً ورقيب ألماني قلق، تشبه حوار الطرشان.

«نعم، نعم الضابط»، تمتم الرجل الفرنسي ورسم علامة بيده ليتبعه. أحضر كونتسه إلى غرفة مهجورة. «هذه هي غرفة طعام الضباط»، تمتم أسيره مرة أخرى. لم تكن فارغة تماماً – فمن خلال ضوء الشمعة التي كانت تترجرج بيد الصبي، كان هناك كنز موجود فوق طاولة كانت سلة

تحوي في داخلها بيض مزرعة وزجاجة من النبيذ! فيا ترى ما الذي فعله ذلك الرقيب الطيب وسط نيران المدفعية الفرنسية وهو داخل حصن العدوّ وهناك حامية كاملة من الجنود ربما تبحث عنه؟ لقد جلس إلى المنضدة وبدأ في تكسير البيض وقليه وتناوله مع جرعات سخية من النبيذ الأحمر.

بعد أسابيع من اتباع الحمية التي فرضتها عليه الأسلاك الشائكة النتنة، كانت هذه بالفعل وليمة لا تُنسى. سرعان ما كان راضياً عن نفسه لدرجة أنّه فتح فمه إلى أقصى ما يستطيع وقدّم الزجاجة لأسيره الفرنسي، الذي ابتسم ابتسامة عريضة وتناول جرعة كبيرة منها. ابتلع كونتسه الطعام بنهم وتجشأ وسرعان ما بدأ الدفء يغمر جسده، خاصة بعد أن أخرج أسيره المراهق شريحة كبيرة من الجبن والخبز وزجاجة أخرى من خلف أحد رفوف مخزن الذخيرة.

«هممم!» قال كونتسه متعجباً، «إنّه النبيذ الفرنسي»، كان هذا الطعام الشهي يخصص عادة للكولونيلات والجنرالات. استغرق في تناول الطعام أكثر من نصف ساعة. لم يكن يشعر بأيّ ألم عندما سمع من جديد الصوت المميز لإطلاق النار من مدفع عيار 155 ملم، وهو الصوت الذي استولى على إحساسه وجعله يصمت. لقد حان الوقت للخروج. بينما كان الرقيب الطيب يحشو بطنه بالبيض والجبن والنبيذ، ظهر طاقم تبديل لرماة المدفع في البرج ولم يجدوا أحداً عند المدفع الكبير.

«يا لها من فوضى»، انطلقت شتيمة من أحد الرماة. «ذهب هؤلاء الأوغاد إلى النوم». ودفع بقذيفة في بطن المدفع، وأعاده للعمل بعد نصف ساعة من الصمت، حيث بدأ برمي القذائف على موجات الثلج الكثيفة.

مرّت على كونتسه الآن وهو داخل الحصن مدة ساعة تقريباً، أين كان بقية أفراد كتيبة براندنبرج الثانية تحت قيادة الرائد فون كلوفر؟ يمكن العثور على شرح لتأخيرهم في هذا التقرير الذي أعدّه الملازم الفرنسي بيركارد من سرية المشاة الخفيفة الثانية عشرة:

كانت سريتي أوفر حظاً من بقية السرايا، التي لم تجد ملجأً لها سوى عدد من الحفر، وحين كانت قذائف الألمان تتساقط على خنادقنا، كان أفرادها يركضون من الجانب الأيمن من قرية دوموون باتجاه الحصن. بصفتي الضابط الوحيد الباقي على قيد الحياة في السرية 12، توليت قيادة هذا القطاع. إلى يساري كان ضابط الصف ديبارو من الحظيرة الثانية من الكتيبة، وكان الرقيب دوراسيه من الحظيرة الثالثة في الوسط، وكانت حظيرتي الرابعة هي الأقرب إلى الحصن. كان النقيب ديلارو من سرية المدفعية الثالثة قد نصب مدافعه الرشاشه أمامنا على حافة الغابة لتوفير الغطاء للقادمين من قرية دوموون.

بعد القصف العنيف الذي استمر طوال الصباح، أوقف الألمان قصفهم في الساعة 13:00. لقد كانت هدنة مريحة لرجالي. لم تدم طويلاً؛ بحلول الساعة 15:30، بدأت مدافعهم تقصف الحصن؛ حين لاحظنا صواريخ إشارة بيضاء ترتفع على بعد حوالي 600 متر من الحصن، ولكن بما أن موضع العدوّ كانت تخفيه حافة جبلية لم يكن بإمكاننا أن نستكشف ما إذا كانوا قد توقفوا، أو أنهم يتقدمون. في هذا الوقت، بدأنا نشك في الطريقة التي تصرف بها الرجال داخل الحصن. لم تكن هناك نيران مضادة، وظلّ الصمت يسود حصن دوموون بشكل غريب. والجنود ماذا حدث لرشاشاتهم، لماذا لم يردّوا على صواريخ الإشارة الألمانية؟ كان سلوكهم سلبيّاً بشكل لا يصدق.

يجب التذكير أن أيّاً من الوحدات الفرنسية لم تكن تعلم أنّه لم يبقَ في الحصن سوى الحدّ الأدنى من المقاتلين يقودهم رجل مدني عجوز.

ناقشت مع الرقيب دراسي الوضع وقررنا أنه يجب عليه أن يتوجه إلى الحصن ليرى ما يجري. وما إن كان على وشك الرحيل، حتى ظهرت أربع أو خمس مجموعات من الجنود على بعد 200 متر أمام خطوطنا، يسيرون بلامبالاة، وبنادقهم معلقة على أكتافهم. لقد جاء هؤلاء الرجال من الخطوط الألمانية، وأصبحوا الآن في مرمى نيراننا، لكنهم بدوا غير مهتمين تماماً. ما الذي يجري بحق الجحيم؟ إلى أن رأينا أغطية الرأس الخاصة بهم وفهمنا: لقد كانوا يرتدون القلنسوات التي تعرف بالشاشية والتي كان يرتديها الزواف (مقاتلو أفواج المشاة الخفيفة الفرنسية من سكان شمال أفريقيا – م!) هؤلاء هم جنودنا، وكنا على وشك أن نطلق النار عليهم! كنا نعلم أن وحدتهم كانت تتمركز في قطاعنا لأنّه قبل ساعات قليلة فقط من وصولنا إلى خنادقنا كان بعض الناجين من فوج المشاة التاسع من المقاتلين الزواف قد تمكنوا من الفرار من هجوم شنّه عليهم الألمان.

ولقطع أيّ شك في أنّهم من جنودنا، فقد دعونا الجنود الذين مرّوا من جانبنا، بالتحرك صوب الحصن. استدار آخر ثلاثة منهم ولوّحوا لنا. ومع ذلك، كان لدى النقيب ديلارو شكوك، فقد خرج للتحقق من هويتهم عندما انفجرت قذيفة من عيار 210 ملم بالقرب منه، وقتلت ثلاثة من أفراد دوريته وجعلته يطير في الهواء. حاول النهوض لكنه شعر بألم في كتفه. ومع ذلك تمكن من الزحف إلى الوراء لإعطاء الأوامر لأن يفتح المدفع الرشاش النار على الزواف! ركضت نحوه لأطلب منه إيقاف النار، عندما صرخ في وجهي: «لقد سمحت لهم أنت بالمرور لقد أتوا من عند الألمان». إنهم ألمان.

في تلك اللحظة تلقينا أوامر من العقيد دي بيليت: «أطلقوا النار على الألمان بشدة!» واختفى الزواف بسرعة في الحفر، ما زلت مقتنعاً بأننا أطلقنا النار على زملائنا الفرنسيين، وعرض الرقيب دوراسي أن يقوم بالزحف إلى الأمام ويبحث بنفسه. لقد كان على بعد أمتار قليلة من الزواف، عندما ناداه صوت بلهجة مألوفة لديه تماماً:

- ارمِ سلاحك... تعالَ إلى هنا!

واصل دوراسي الصراخ «أطلقوا النار!! أطلقوا النار!» ثم ألقى بنفسه فوراً في إحدى الحفر بينما بدأت مدافعنا الرشاشة تقرقع، وأوقفت الزواف المتقدمين الذين لم يكونوا فرنسيين، لكن ألماناً. عند الليل، عاد دوراسي إلى صفوفنا.[5]

تسبب العمل الذي قام به رجال المدافع الرشاشة بقيادة النقيب ديلارو وشجاعة الرقيب دوراسي التي تسببت في تأخير وصول كتيبة الرائد فون كلوفر إلى الحصن لمدة ساعة كاملة والتي كانت تتعقب مجموعة الجنود الذين كانوا مع كونتسه. لا يزال ظهور الألمان وهم يرتدون قبعات الزواف الحمراء أحد ألغاز الحرب غير المحلولة.

هناك شيء آخر تسبب في تأخير تقدم قطعات الجيش الألماني. كان الملازم مولر قائد السرية السادسة، مع اثنين من قادة الفصائل، الملازم مورغينروث والملازم رادكيليه، يستخدمون وادي أسول للدخول من تلك الكوة الموجودة في ذلك الحصن المنيع. كانوا يتبعون إلى كتيبة الرائد فون كلوفر، لكن، ومثلما حدث مع كونتسه، فقدوا الاتصال بالمقرّ. كان من المفترض أن يكون تقدمهم مدعوماً بمدافع الهاوتزر الخفيفة لسرية مدفعية الميدان 39 بقيادة الملازم فاكيرزاب. كان جنود

5- راجع: Péricard, J., Verdun 1914–1918, Paris 1933

القوة المهاجمة قد تركوا لتوّهم الوادي وما كان يوفره لهم من حماية نسبية وبدؤوا يتقدمون على طول الباحة الخارجية على جانب الحصن، عندما بدأت القذائف تتساقط عليهم. نظراً لأنّه لم يتمّ إصدار أمر للقوات الألمانية بالانتقال إلى الحصن، فقد أخطأهم جنود استمكان المدفعية الخاصة بها واعتبروهم من الوحدات الفرنسية المتراجعة! كانوا يراقبون المكان من خلال المنظار ووسط تعذر الرؤية الواضحة بسبب تساقط الثلج، رأى هؤلاء الجنود أشكالاً تتجه نحو الحصن، حينها أصدروا الأمر التالي: «أطلقوا النار بكثافة على الحصن».

بدأت المدافع بإطلاق نيرانها وشرعت الكتيبة الثانية لفوج براندنبورغ التي يقودها الرائد فون كلوفر، بقصف المنحدر الذي يؤدّي إلى الباحة الخارجية للحصن. وبينما اعتقد المقاتلون في بادئ الأمر أن إطلاق النار جاء من الحصن، إلّا أن هذه الفكرة سرعان ما تبددت عندما سقط عدد من القذائف من حولهم أكثر من عدد ومضات فوهات مدافع العدوّ. ولأجل الإشارة إلى مواضع مقاتليه في الأمام ومنع رماة المدافع الألمان من قتل أفراد وحدته بأكملها، أطلق رادكيليه قنابل فسفورية مضيئة، والتي كانت تنطفئ بسبب الثلج المتساقط. أدرك الملازم رادتكيليه، مثلما أدرك كونتسه قبله، أن أملهم الوحيد في النجاة هو الوصول إلى الخندق العميق الموجود حول الحصن والاحتماء به. على الرغم من القصف العنيف، تسلّل هو ورجاله من خلال الحفر باتجاه السياج ذي القضبان الحديدية والأسلاك الشائكة. ومن خلال الحفر التي كونتها قذائف المدفعية، استطاع الذين نجوا من القصف أن يتسلّلوا إلى الخندق.

وفي حين إن الملازم رادكيليه كان يقاتل عند الجانب الأيسر من الحصن، فإنّ وحدة أخرى، وهي السرية السابعة بقيادة النقيب هانز يواكيم هوبت نجحت في الاقتراب من الحصن. عندما تجرأ الملازم على أن يلفت انتباه النقيب إلى أنّهم تجاوزوا الخط الذي ينتهي عنده مدى مدفعيتهم بعدة مئات من الياردات، صاح النقيب قائلاً: «اللعنة على هذا الخط، سنقتحم حصن

دومون!» وعندما بقي رجاله مترددين، صرخ بهم: «تقدموا وليسقط من يسقط!» لم يكن هناك أيّ دليل أبداً يشير إلى من هو الضابط الذي عبر أولاً إلى الخندق للوصول إلى الحصن، رادكيليه أم النقيب هوبت؛ ولكن فيما بعد، ادّعى كلاهما أن شرف ذلك يعود له واندلع بينهما نقاش ساخن،[6] وقد ألقى هذا الأمر بظلاله العميقة على مدى الضعف الإنساني في واحد من الأحداث الأكثر استثنائية في الحرب العالمية الأولى. لم يكن معروفاً سوى أنّه في مكان ما خارج الأسلاك الشائكة، كان يزحف في الظلام الذي كان يزداد حلكة من اتجاهات مختلفة ومن خلال الاحتماء بالحفر التي صنعتها القذائف، رجال النقيب هوبت التقوا مع رجال الملازم رادكيليه، عندما صرخ صوت: «لقد قُتل النقيب هوبت». وباعتبار رادكيليه الضابط الذي يليه في التسلسل القيادي فقد تولّى المنصب. لكن النقيب هوبت لم يمت. سقطت قذيفة من عيار 210 ملم بالقرب منه وقتلت جنديين بجواره، لكن لم تصب النقيب سوى حالة ذهول. لكن الارتجاج الناجم عن سقوط القذيفة أوقعه أرضاً وظلّ ممدداً فوقها وهو يشعر بالصدمة.

في تلك الأثناء، كان قد مضى على وجود الرقيب كونتسه، «البطل رغم أنفه»، داخل حصن دومون أكثر من ثلاثة أرباع الساعة. لقد قام بإسكات المدفع الوحيد، وحبس أفراد حاميته، واستمتع بوليمة لا تُنسى. لكنه يواجه الآن مشكلة، ولم تكن بالمشكلة البسيطة في جيش القيصر: كان كونتسه الرقيب الطيب في حالة سكر شديدة وكانت عقوبة السكر أثناء الحرب هي الإعدام في الميدان.

من الآن فصاعداً، تختلف الروايات اختلافاً كبيراً. لكن هناك شيء واحد مؤكد: فإنّ الملازم رادكيليه إمّا بناءً على أوامر من النقيب هوبت، أو بمبادرة منه، اصطحب معه ستة عشر رجلاً[7]، وخاض برفقة الملازم

6- وفقاً للسجلات الرسمية الألمانية.

7- وهم سولداتين وكلين وكوهين وشتيلينج وزايشكه وبلانكينشتاين ورايخ والعرفاء باك وإيزنر وزابلتزكي وهارتونغ وهايفكه وهيمبل، والرقيبان هايدر وإيوالد واللفتنانت بارتش واللفتنانت نورنبيرغ والجميع من السرية العاشرة.

نيومان، الخندق المائي المؤدي إلى الحصن. حين وصلوا إلى الباب الذي كان يحرسه هاينريش شتيغليتز عثر رادكيليه على جثة جندي ألماني (ربما ستيغلتز) عبر المدخل، لقد أصيب بشظايا قذيفة أدّت إلى مصرعه، وقد أثّرت تلك الشظايا على عبارة «حصن دوموون» التي كانت منقوشة على الجدار في مكان يقع فوق الباب. وإذا كان الأمر يحتاج إلى دليل، فإنّ تلك الجثة كانت إشارة مؤكدة إلى أن بعض الألمان كانوا قد وصلوا إلى الحصن قبل رادكيليه وهوبت.

أدار رادكيليه رأسه فقط نحوهم وصاح: «اتبعوني!» لم يكن هناك ما يعيقهم. اقتحم رجال رادكيليه النفق المعتم الممتد أمامهم وسط الظلام. ومن خلال وهج الانفجارات، كان يمكن رؤية العرق وهو يتلألأ على الحواجب والشفاه العليا؛ والعضلات مشدودة وتصدر أصواتاً غريبة. يمكن للمرء أن يتخيل دهشتهم عندما رأوا حركة في نهاية الممر حينها صاح رادكيليه بلهجة فرنسية مميزة للغاية: «إنهم أسرى، سيدي!» وجاءته الإجابة من صوت متداخل: «لا تطلقوا النار، أيها الحمقى، أنا كونتسه» وبسبب أن جوفه كان مملوءاً بأكثر من زجاجتين من شراب البورغوندي اللذيذ، فقد كان يتمايل بشدة، وكذلك كان حال أسيره الذي شاركه تناول النبيذ. حدّق رجال رادكيليه إليه وقد فغروا أفواههم دهشة، ومرّ يتعثر من أمامهم وخرج من الباب.

«كونتسه من أين خرجت لنا؟»، سأله الملازم فويغت، قائد الفصيل الهندسي القتالي الثاني والعشرين في الفرقة الرابعة. كان الملازم فويغت قائد الفصيل الهندسي لكونتسه ورئيسه المباشر. وصل الملازم (فويغت)، برفقة «جندي صنف الهندسة هيمبل» وكانا قد التقطا الصور وهم في الطريق، إلى الخندق «من خلال ممرّ فرع له في الفناء الشمالي».[8] وعندما

8- في الحياة المدنية، لم يكن الملازم فويغت مهندساً فقط، ولكن - وهو ما جعله في هذه الحالة مهمّاً للغاية - كان مصوراً هاوياً بارعاً، لم يكن يذهب إلى أيّ مكان دون أن يصطحب معه آلة تصويره. بسبب هذه الهواية، وعن طريق الصور التي التقطها بعد ظهر يوم 25 شباط 1916، بما في ذلك تحديد الأوقات التي أخذها فيها، تمّ تسجيل وصف دقيق لعملية الاستيلاء على حصن دوموون.

سأله (فويغت) من أين جاء، أشار كونتسه وهو يكشف عن ابتسامة سخيفة، بإبهامه على الكتف. «من الخلف هناك، حيث يجلس الكثير من هؤلاء»، بهذه الكلمات دفع أسيره الصبي بماسورة بندقيته وهو يتهادى في مشيته.

بات الخندق خارج الأسوار يشبه مكان التقاء الناس أيام الأحد أمام الكنيسة، حيث جاء إليه الألمان من كلّ الاتجاهات. فقد كانت قذائف مدفعيتهم تطاردهم جميعاً عند التل، وكانوا يحملون جميعاً الفكرة نفسها: العثور على مأوى من القصف في الخندق. بينما بدأ الملازم رادكيليه ورجاله التسعة عشر في البحث عن الدهليز الذي يتواجد فيه أفراد الحامية الفرنسية الذي حبسهم فيه كونتسه، دخل النقيب هوبت أيضاً إلى مبنى الحصن. أدّى ذلك إلى اندلاع نزاع حول من كان أول من دخل إلى الحصن. بدا أن كليهما نسي أن الرقيب كونتسه سبقهما إليه قبل أكثر من ساعة. اجتاز النقيب هوبت الخندق من خلال حفرة كبيرة أحدثتها قذيفة مدفع عيار 420 ملم، والتي تسببت في صنع فجوة واسعة في السياج الحديدي وأدّت إلى انهيار جزء من الخندق. اكتشفها العريف هوشكه والذي كان تحت إمرة النقيب هوبت.

«من هنا يا سيدي النقيب....» ثم دخل منها ضابط آخر؛ كان ذلك هو الملازم الأول كوردت فون برانديس البالغ من العمر 27 عاماً قائد الفصيل الثامن من الكتيبة الثالثة، الذي أسرع المسير عبر الباحة الخارجية للحصن ونزل في إحدى حفر الخندق، عندما انفتحت بوابة الحصن ظهر منها جندي فرنسي وهو يرفع يديه في الهواء، وفي ظهره بندقية الرقيب كونتسه. تمكن برانديس من الانضمام إلى هوبت قبل أن يصل كونتسه إليهم. كانت المدفعية لا تزال تزمجر كما كانت دائماً، وتجمهر الجنود الألمان قبالة الجدار، يحدقون إلى كونتسه وكأنّه مخلوق نزل من المريخ.

سأله النقيب هوبت وقد أصابه الذهول: «... من أين أتيت؟».

«من هناك، سيدي النقيب؟»، أشار كونتسه وراءه، إلى النفق، وعندما

عاد أحدهم وطرح عليه السؤال ذاته، تساءل قائلاً: «لماذا؟» ما الذي يجعل الجميع يهتمون كثيراً بمعرفة المكان الذي جئت منه؟

رفع النقيب صوته بشكل صارم. «لماذا؟ منذ متى يطلب الجندي من ضابطه تفسيراً؟».

صاح فون برانديس، الذي لم يتدخل حتى الآن، بوجه كونتسه: «هل فقدت عقلك؟ لا يجب عليك سوى أن تجيب عندما يوجّه إليك السؤال، هل فهمت؟».

ولكن هوبت كان قد بدا في غاية الإثارة والارتباك؛ حيث إنّه كان جنديّاً محترفاً في مطلع حياته المهنية، ووصل إلى الأربعين من عمره، ولم يكن سوى نقيب فقط دون أن يحقق أيّ إنجاز بارز، ووجد نفسه فجأة على وشك التحول إلى بطل قومي لألمانيا باعتباره الفاتح لأكثر حصون العدوّ مناعة، فيما كان يقف هناك هذا الرقيب الغبي وهو على وشك سرقة الأضواء منه. «أنت تبدو مثل...» ثم توقف فجأة، كما لو أن فكرة ما جاءته. كان الجنود الذين يراقبون المشهد يعرفون نغمة صوت النقيب وطريقة حديثه، وشعروا بأن ما سيحدث لن يكون أمراً سارّاً. وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما استدار هوبت نحو الملازم الأول من السرية الثامنة ليقول له: «لقد واجه هذا الرجل الكثير من الأحداث. إنّه يبدو... منهكاً».

كان يعلم، ومعه فون برانديس، أن كونتسه لم يكن مرهقاً، بل كان في حالة سكر. ومع ذلك، قرّر هوبت أن يتخلص من «ذلك الجندي الغبيّ» مؤقتاً وأن لا يتهمه بالسكر، وإلّا فإنّ القصة الحقيقية عن الاستيلاء على الحصن قد تنتشر. تصبح الحقيقة التاريخية باهتة عندما تواجه الدوافع والطموحات الشخصية. كان هوبت يعرف ذلك، وفون برانديس كذلك، الذي ركّز نظره على كونتسه: «إنّه رفيق حرب شجاع، هذا الجسور. ما اسمك أيها الجندي؟».

«كونتسه، سيدي الملازم الأول».

أدرك فون برانديس أنّه في حالة معرفة عما حدث بالفعل، فهذا يعني

أنّه ستتمّ ترقية هذا الفلاح الغبيّ وجعله يتحول إلى بطل وطني. كان يعلم أيضاً أن هوبت سوف يكون حريصاً تماماً على أن هذا لن يحدث. وفي الحقيقة، فإنّ هوبت أخذ كونتسه جانباً وقال له: «بمجرد أن نؤمّن عملية الاستيلاء على الحصن، ستحصل على إجازة لمدة أسبوعين تقضيها مع أهلك. والآن اذهب وخذ قسطاً من الراحة».

لم يستطع كونتسه أن يصدق أنّه محظوظ بهذا الشكل؛ ليس هناك مكافاة أعظم من حصوله على أسبوعين إجازة يبتعد فيها عن هذا الجحيم، وهذه كانت أقصى حدود تفكيره. فتمتم قائلاً: «نعم سيدي النقيب»، فقد عقله الإحساس من أثر الإرهاق الجسدي واضطرب تفكيره بسبب إكثاره من تناول النبيذ. كان الوعد بحصوله على الإجازة في الوطن هو آخر ما تذكره قبل أن يعود إلى النفق ويغطّ في النوم.

بات الملازم رادكيليه، وقد أصبح الآن في أعماق الدهليز، بحاجة لإسكات المدفع من طراز 155 ملم مجدداً قبل أن يقضي على بقية أفراد الكتيبة، والذين كانوا يتنقلون في الباحة الخارجية للحصن. أرسل الملازم نيومان ليقوم بهذه المهمة، فحاول الدخول إلى برج المدفع من خلال الشرفة، لكنه أصيب برصاصة على الفور. وقتل أيضاً العريف هارتونغ عندما كان يحاول سحب الملازم المصاب بجروح قاتلة إلى برّ الأمان. وفي الوقت نفسه، وجد رادكيليه، وليس معه سوى حفنة من الرجال فقط، دريئة فيها ثمانية وأربعين من الفرنسيين في حيرة من أمرهم، وغير مسلحين. كانت هذه هي المجموعة نفسها التي حبسها كونتسه والتي أطلق سراحها أحد أفراد طاقم المدفعية الهاربين؛ ونزلوا تحت الأرض في نفق عميق، وظلّوا لا يعرفون ما الذي كان يجري فوقهم. صرخ بهم الجندي زايشيك، الذي كان قبل الحرب يعمل نادلاً في ستراسبورج ويتكلم قليلاً من الفرنسية، قائلاً: «ارفعوا أيديكم أنتم أسرى لدينا!».

كان الملازم رادكيليه، مقتنعاً بأن الحصن كان مفخخاً وأنّه سينفجر في أيّ لحظة ويحولهم جميعاً إلى أشلاء متناثرة، فصاح بالجنود الفرنسيين

الذين كانوا يرتعشون: «أين هي العبوات الناسفة؟» أشاروا جميعاً إليها برؤوسهم بارتباك. أمر رادكيليه بإحضار الرجال، بمن فيهم الرقيب شينوت، إلى غرفة تقع مباشرة فوق مخزن الذخيرة. إذا كان الحصن ملغماً بالفعل، فسيكون الفرنسيون أول من يموت، وبالتالي سيعرف أين مكان الشحنات المتفجرة. توجه رادكيليه بالطلب من فيغوت، الملازم في صنف الهندسة والذي كان قد لاحقه في الدهليز، لأن يبحث عن سلك فتيل المفرقعات. لم يتمّ العثور على شيء. لم يكن رادكيليه يصدق أن الفرنسيين لم يتخذوا الاحتياطات اللازمة لتهيئة الحصن للتفجير. في الواقع، كان الجنرال هير قد أمر بذلك، ولكن لم يتمّ تنفيذ أمره!

«كون، اصعد وضع العلم فوق القبة». بهذه الكلمات، أمر رادكيليه الجندي كون[9] بالتوجه إلى قمة قبة الحصن، لجعل المدفعية الألمانية تتوقف عن إطلاق النار. قام هذا الجندي الشجاع بشكل لا يصدق بمهمة انتحارية. رغم الخطر المميت الذي يحيق به من جرّاء تساقط القذائف، صعد إلى أعلى الحصن وربط العلم الذي كان إشارة للمدفعية بالتوقف بأنبوب معدني ملتوٍ كان قد سقط من الجدار بسبب أحد الانفجارات. ولوح به بشدة، آملاً أن يراه جنود المراقبة الألمان قبل أن يتفتت إلى شظايا. على الرغم من أعمدة التراب التي كانت تتصاعد في الهواء وتساقط الثلوج بكثافة، إلّا أن العلم قد تمّ رصده وتوقف القصف! ومع رفرفة العلم الذي وضعه كون فوق الحصن، أصبح حصن دوموون رسمياً بيد الألمان. استغرق الأمر ساعة وخمساً وعشرين دقيقة. لقد تمّ الاستيلاء عليه دون إطلاق طلقة واحدة.

قبل الساعة 18:00، بقليل، أصبح النقيب هوبت، الضابط الأعلى في الموقع، وأمر جميع قواته بالتجمع. جاء على محمل السرعة أفراد السرية المنتصرة والمؤلفة من تسعة وسبعين جندياً وتسعة عشر ضابطاً وضابط صف، واصطفوا في ترتيب مثالي لأفراد جيش بروسي في الفناء الداخلي.

9- من المصادفات الغريبة فإنّ كلمة كون Kühn تعني الجرأة باللغة الألمانية.

كان ينبغي أن يكون هناك ثمانون فرداً، ولكن أحدهم، وهو رقيب في صنف الهندسة، كان يغطّ في النوم في النفق.

«أيها الرجال، لقد فتحنا للتوّ أقوى حصن في فرنسا»، وأجابه رجاله بهتاف مثير: «يعيش القيصر والوطن» وبينما كان هوبت منشغلاً بتطهير بقية الأنفاق، أرسل الضابط الأدنى منه رتبة، وهو الملازم الأول فون برانديس، برفقة أحد الجنود، لإيصال خبر سقوط حصن دوموون إلى مقرّ قيادة الفوج، الموجود في غابة كاريري.

في الساعة 18:30، وصل أخيراً الرائد كورت فون كلوفر،[10] قائد الكتيبة الثانية، والذي تأخر بسبب قصف مدفعية النقيب ديلارو في قرية دوموون، ليتولى القيادة الشاملة لعملية تأمين الحصن.

في الساعة 19:00. وصل الملازم الأول فون برانديس إلى مقرّ قيادة الفوج ووجد أن معظم كبار الضباط كانوا ينحنون حول طاولة فيها خريطة، يناقشون خطة تمّ تجاوزها من قبل الحدث الذي كان على وشك الإعلان عنه. ومثل شبحين، خرجا لتوهما من قبر، ظهرا [برانديس والجندي] في مخبئنا.[11] قفز العقيد فون أوفن من مكانه، وقد لفت انتباهه الهياج المفاجئ الذي تسبب به وصولهم، واحتضنه. «فون برانديس يا إلهي من أين قدمت يا رجل؟».

«من حصن دوموون، سيدي العقيد».

«بالله عليك يا برانديس، لا تروي نكتاً سخيفة».

فردّ عليه برانديس، وهو رجل معروف بكلامه الطنان، بإيماءة مبالغ فيها، مشيراً إلى أعلى التل. «سيدي يشرفني أن أعلمك، أن حصن دوموون أصبح آمناً وتحت سيطرتنا!».

«لكن كيف حدث ذلك، هل اجتزتموه من اليسار! أخبرني الحقيقة.

10- كثير من أحداث هذا الكتاب استندت إلى شهادات كلوفر.

11- مأخوذ نصّاً من تقرير الفيلق الرسمي.

كيف هو حال هوبت، هل ما زال حيّاً؟ هل يمكنني التحدث إليه؟» بدا فون برانديس يصف ببراعة دوره في (الخطوة المفاجئة) للاستيلاء على الحصن، وعبور الأسلاك الشائكة، والتغلب على الحواجز، وصولاً إلى التفاصيل الأخيرة عن اللوح المحفور عليه اسم «دوموون» على المدخل الرئيس الذي أصابته بعض الشظايا. لكن اسم كونتسه لم تتمّ الإشارة إليه في أيّ موضع. تناول العقيد فون أوفن الهاتف الميداني لينقل الأخبار المهمة إلى قيادة الفيلق.

كانت البرقية الأولى التي صدرت من مقرّ قيادة الفوج، موقعة من قائد الفوج 24، وتمّ إرسالها من قِبل معاونه الملازم كلوغ، وصدرت في 25 شباط 1916، الساعة 22:00. يعكس نصّها مدى الفرح الذي أشاعه تقرير الملازم الأول فون برانديس في المقرّ الرئيس. نظراً للارتباك الذي ساد، فقد تمّ التبليغ عن الموقف حسب رؤية القادة في الفوج:

(برقية من الفوج 24: حصن دوموون أصبح في يدنا، قامت باقتحامه الكتيبة السابعة والثامنة من الفوج الرابع والعشرين بقيادة النقيب هوبت والملازم الأول فون برانديس. كلا القائدين كانا يتمتعان بشجاعة فائقة).

وبسبب التوافق الأولي بين نسخة تقرير العقيد فون أوفين، قائد الفوج الرابع والعشرين، ونسخة الملازم أول فون برانديس في وصف ما حدث، شاعت الحكاية التي تصف كيف أن فون برانديس، وبدرجة أقل، النقيب هوبت، تمكنا من خلال إنجاز مأثرة فردية من اقتحام «حصن دوموون»، «المنيع» ليتمّ نقلها من الفوج إلى الفيلق، ومن هناك إلى ولي العهد الألماني في المقرّ العام للجيش ثم تمّ نقلها مباشرة إلى القيصر. جاء في البيان الألماني الرسمي الصادر في 26 شباط 1916: تمّ الاستيلاء يوم أمس على حصن دوموون، الذي يقع شمال شرق حصن فردان، من قبل وحدات من فوج براندنبورغ الرابع والعشرين. ولقد صدم الخبر بلداناً في أماكن بعيدة مثل الهند والولايات المتحدة. قرعت أجراس الكنائس في جميع أنحاء ألمانيا، وظهرت الصحف في جميع أنحاء البلاد تحمل

عنوان النصر في فردان. «انهيار فرنسا». وبينما حدثت كلّ هذه الإثارة، هرع العقيد فون أوفين، برفقة الملازم الأول فون برانديس، ليصعدا المنحدر الطويل لتهنئة المنتصرين على إنجازهم العظيم، كان هناك ذلك الرقيب كونتسه يحتسي شرابه بهدوء في ركن من الحصن الذي اقتحمه هو.

رفض الفرنسيون قبول فكرة فقدان أكبر حصونهم. لا يمكن أن يحدث ذلك، ولا يمكن لأحد أن يستوعب الأمر ببساطة؛ لا يمكن أن يضيع حصن دوموون هكذا. تمّ إرسال الملازم بيركارد لتقييم الموقف، عندما عثر على أشلاء القتلى في غابة كوا، والبقايا المحطمة لمعدات كتيبة القائد دريان الشجاعة، ارتسمت أمامه صورة مشوشة لشدة القتل الذي جرى. أدرك الملازم بيريكار أخيراً معنى التضحية المطلقة، التي تستحق التقديس. ولكن كان لها أيضاً معنى أكثر سوداوية، إنّها الخسارة النهائية. شعر بأنّه شخص ميت. في تلك اللحظة صرخ الملازم الفرنسي الشاب بجملة أصبحت إحدى عبارات الحرب الخالدة: «أفيقوا أيها الموتى!».

رأى الجنرال دي بونيفال قائد الفرقة 37 من قوات النخبة في الجيش الفرنسي، أن صواريخ الإشارة الألمانية تسطع في السماء فوق حصن دوموون. كان رجاله قد عاشوا لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة تحت وابل من القذائف المتساقطة عليهم من المدافع الألمانية البعيدة المدى، والتي عرّضتهم لخسائر مروعة؛ وبدلاً من أن يعرض فرقته بالكامل إلى أن تتشظى إلى أجزاء بسبب ما كان يجب أن يكون حينها اختراقاً ألمانياً حاسماً لجناحه، فقد أمر بالانسحاب الفوري. بموجب هذا الأمر، فإنّه قد تمّ التخلي عن قائدين إضافيين، وهما قائد الفرقة 51 والفرقة 72، على التوالي وعن كلّ موضع قوي في «الخط القتالي للحصن» المنيع، كان يساهم في تغطية المرتفعات الواقعة على الضفة اليمنى لنهر ميوز. وقد أشار دوبروليه، الرقيب في الفوج الثامن إلى ذلك بالقول: «لقد ضعنا. فقد ألقوا بنا وسط المحرقة. كنا آخر المقاتلين. فضحّوا بنا

وستذهب تضحياتنا هباء». بالطبع، فإنّ قادته لم يكونوا ينظرون إلى الأمر بالطريقة نفسها.

وقد صرح الجنرال ريبيلو لصحيفة ليبري بارول قائلاً: «الجميع يشعر بالسعادة، على الرغم من حزنهم الكبير، على أولئك الذين ضحّوا بدمائهم من أجل الوطن!».

مع سقوط حصن دوموون، تصدعت الروح المعنوية الفرنسية، لم يعد هناك من يدافع عن مدينة فردان، ونجحت بعض وحدات المشاة الخفيفة الألمانية في الوصول إلى نطاق مدى المدافع الرشاشة في المدينة. ثم حدث ما لا يمكن تصوره: لم يكن الجنرالات الألمان يثقون بتقارير دورياتهم الاستطلاعية بأن الطريق إلى فردان أصبح سالكاً وأن الفرنسيين قد انسحبوا دون شنّ قتال. وبينما شوهد الآلاف من المدنيين من قبل جنود الاستطلاع الألمان وهم يدفعون عربات الأطفال وعرباتهم مكدسة بأمتعتهم التي جلبوها من المدينة المحاصرة وجنود صنف الهندسة في الجيش الفرنسي يقومون بنصب عبوات ناسفة على جسور نهر ميوز، كان القادة الألمان يبحثون عن «الفخ الذي نصبه الفرنسيون». لقد كانوا مقتنعين للغاية بأنّه يجب أن يكون الأمر فخّاً وليس فشلاً في التحرك، أو ربما تكون الحرب قد انتهت. أرسل الفرنسيون قائداً جديداً، والذي تمكن في النهاية من جلب الاستقرار إلى خطوط القتال. وهكذا استمرت المذبحة لمدة عامين ونصف. كان عدد قليل ممن نجوا من صدمات القصف وممن لم يكن لديهم اتصال بوجداتهم، يرتعدون وسط حفرة موحلة، مغطاة بعلب صدئة وأسلحة تالفة، وقطع ممزقة من بدلات المقاتلين وقذائف غير منفجرة، ومن حولها الجثث المتعفنة. كانت تلك الصورة التي رآها وعاشها مئات الآلاف من الأفراد في فردان.

في معركة فردان، كما هو الحال بالنسبة لبقية معارك الحرب العالمية الأولى، وصل مستوى القتل إلى نطاق غير متناسب كليّاً مع أيّ هدف عسكري يمكن تحقيقه من قبل أيّ من الجانبين.

وقد أشار ولي العهد الألماني إلى ذلك في مذكراته: «في 25 شباط، كنا على مرمى حجر من تحقيق النصر النهائي».

حاولت الدعاية الفرنسية التقليل من حجم الخسارة التي تعرضت لها قواتها بالادعاء أن «الألمان احتلوا مكاناً مهدماً عديم الفائدة». في تلك الليلة، تمّ الاستغناء عن الجنرال هير وتولى جنرال جديد، هو الجنرال فيليب بيتان، مسؤولية قاطع فردان. عندما تولى الجنرال بيتان القيادة، استدعى ضباطه وخاطبهم قائلاً: «أيها السادة، إن سقوط حصن دوموون يعدّ وصمة عار في جبين فرنسا. ولن يهدأ لنا بال حتى نستعيده مرة أخرى». طوال ربيع وصيف عام 1916، خطط الجنرالات الفرنسيون لشنّ هجوم تلو الآخر ولكن كانت بلا جدوى، وكان على الجندي الفرنسي، أن ينفذها. هاجم الجنرالات الفرنسيون بلا كلل الحصن الذي تحول إلى رمز للشرف، والمجد الأخلاقي للأمة العظيمة ويوماً بعد يوم، أصبحت المعاناة التي يتحملها الجنود تتجاوز حدود الخيال. تسبب الغبار الذي تثيره القذائف التي لا نهاية لها، وحرارة الصيف والهواء الحمضي للقذائف المتفجرة في شعور الجنود بعطش شديد. كانت جميع المقاصف فارغة من الماء، وقد أجبرنا على شرب بولنا.[12] تمسك الألمان بالقدر نفسه من العناد وقاموا بتحويل حصن دوموون إلى غطاء تابوت حقيقي، لم يستسلم أيّ من الجانبين، كان يمكن قياس التقدم بالأمتار. استولى الألمان على حصن دوموون دون تكلفة، واستعاده الفرنسيون بثمن باهظ.[13] ولأجل استعادة حصن دوموون من الألمان، أطلقت المدفعية الفرنسية الثقيلة 790000 قذيفة وفقد الفرنسيون جيشين كاملين من المشاة عندما اقتحموا الحصن.

للمرة الثالثة خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، فشل الهجوم على الحصن.

12- عن: Historique du 67 me Régiment d'Infantrie

13- تراوحت خسائر كلا الجانبين الألماني والفرنسي خلال المعركة التي استمرت عشرة أشهر ما بين 800 ألف إلى مليون قتيل.

كانت معنويات الجنود الفرنسيين منخفضة وكانوا منهكين ومتعبين، لذا، تمردوا على الأمر الذي صدر إليهم للتوجه نحو القمة، أمّا القلة منهم ممن كانوا يرتعدون منهكين وسط الحفر في المنطقة الحرام فكانوا يكيلون اللعنات ويصبون الشتائم مراراً وتكراراً على ضباطهم، «الأوغاد! تباً لكم يا سفلة...» هكذا كانوا يشتمون ضباطهم. حدث ذلك قبل أن تفتح المدافع الرهيبة من طراز كروب نيرانها عليهم. كانت جثث الموتى الذين سقطوا في الهجوم الأخير، والذين دفنوا في الليلة السابقة، منتشرة ومتناثرة على أغصان الأشجار المقطعة. تقدم، نعم، أيها الجندي الصغير تقدم من يهتمّ بعذاباتك وجراحك... كتب الكاهن الأب سيرتيان يقول:

«انطلقت كتيبتنا للهجوم على ذلك التل الملعون. ما إن خرجنا إلى العراء حتى جوبهنا بإطلاق نار مميت من مدافع رشاشة مستترة انفجرت من الأرض في كلّ مكان من حولنا نافورات عالية من التراب؛ كان الأمر كما لو أن أبواب الجحيم قد انفتحت. لم نستطع التقدم إلّا ببطء، خطوة مؤلمة بعد أخرى في جميع أنحاء الميدان المليء بالحفر. خسائرنا كانت شديدة. كان الأمر ميئوساً منه. كانت جميع أمثلة المحاولات البطولية عديمة الفائدة وكانت مدفعيتنا تطلق النيران دون نتيجة ملحوظة. كنا نأمل أن نحصل على بعض الدعم من فرقة احتياطية أخرى، كانت تهاجم من الجناح، لأن هجومنا نحو الأمام كان بمثابة رحلة نحو الهلاك. كانت المدافع الرشاشة الموجودة في القمة توزع علينا الموت. أمّا الأوامر الصادرة إلينا فكانت هي نفسها دائماً: تقدموا إلى الأمام! كان سباقاً مع الموت. بحلول الساعة 6 مساءً، كان الموت قد انتصر. تمّت إبادة كتيبتنا وصدرت الأوامر لنا بالانسحاب. ومن السبع مئة وخمسين فرداً الذين شنّوا الهجوم، لم ينجُ سوى اثنين وأربعين. أعتقد أنّنا كنا محظوظين».

قتل الجندي الفرنسي الذي كتب هذه الشهادة عن الأحداث في رسالة إلى زوجته بعد أسبوع، في 24 تشرين الأول 1916، في الهجوم على حصن دوموون الذي توّج بالنجاح في النهاية.

كتب فيليب بيتان، المارشال الفرنسي: «لقد كلف سقوط حصن دوموون فرنسا مئة ألف رجل».

لقد تحمّل جيل كامل من الفرنسيين والألمان آثار معركة فردان قبل أن تصل إلى نهايتها. لم تحسم معركة فردان شيئاً. في معركة فردان، كان هناك الخاسرون فقط. كتب أحد المدافعين عن الحصن من الألمان، وهو الملازم فيرنر بوميلبرج، والذي سقط دفاعاً عن الحصن، قبل وقت قصير من وفاته قصيدة سماها دوموون 1916:

لم يشتكوا عندما اضطروا للموت.
إنه لمن الشرف أن يضحي المرء ويموت
في سبيل مبدأ عظيم.
إنه لأمر مقدس أن يضحي المرء ويموت
في سبيل أرض الإباء.

بات الملازم الأول فون براندیس يعامل كبطل، وكذلك النقيب هوبت وإن كان بدرجة أقل، الهاوبتمان هوبت ظهرت صورهما في الصحف وهي تصفهما بالبطلين اللذين اقتحما حصن دوموون وتمّ تزيين صدريهما بأرفع ميدالية في ألمانيا، وهي وسام الاستحقاق.

أمّا الملازم رادكيليه، الذي يستحق هو أيضاً ما لا يقلّ عن ذلك، فقد تمّ حرمانه من هذا الشرف. أمّا بالنسبة للرقيب كونتسه، فلم يرد ذكره.

بعد انتهاء الحرب، تضمن التقرير الحربي الرسمي الألماني عن القتال حول حصن دوموون سطراً واحداً: «إضافة إلى ذلك كانت مجموعة صغيرة من مقاتلي صنف الهندسة بقيادة الرقيب كونتسه قد دخلت الحصن من جهة اليسار...» ولا شيء أكثر من ذلك.

لم يكن الدور الذي لعبه الملازم رادكيليه مذكوراً في البداية؛ في

غضون ساعات من خوضه القتال ببسالة، أصيب بشظايا سبّبت له جروحاً خطيرة وتمّ إجلاؤه. لم تمضِ سوى بضعة أسابيع حتى سمع وهو في المستشفى أن القيصر قد زين صدري هوبت وفون براندیس بوسام الاستحقاق ذي الماسة الزرقاء. سرعان ما طوى النسيان ذكر هوبت. لكن الأمر لم يكن كذلك مع فون براندیس، الذي تحول إلى «الساعد الأيمن» المفضل لوليّ العهد. لقد انتشرت شهرته على مستوى البلاد لدرجة أن سكان قرية في منطقة بوميرانيا غيروا اسمها إلى براندیس. لم يشر الملازم أول فون براندیس في كتابه «اقتحام حصن دوموون»، ولو بشكل بسيط إلى الدور الذي لعبه أيّ شخص غيره في الاستيلاء على الحصن، على الرغم من أنّه ذكر بلامبالاة أنّه «شاهد شخصاً يلوّح بعلم المدفعية من أعلى قبة الحصن». هذا يعني ضمناً أن الملازم رادكيليه أو النقيب هوبت (مع الأخذ في الاعتبار الجدال الذي تلا ذلك بشأن من أمر حامل العلم بالصعود إلى الأعلى) يجب أن يكونا قد دخلا الحصن قبله. حتى عام 1927، لم تكن شهادة فون براندیس موضع خلاف؛ فيما بعد، أشارت النسخة الرسمية المنشورة من أرشيف الرايخ إلى دور الملازم رادكيليه في سقوط الحصن. ولكن لم يكن هناك أيّ ذكر للرقيب كونتسه.

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، أصبح الرائد كورت فون كلوفر، قائد الكتيبة الثانية من فوج براندنبورغ للمشاة الرابع والعشرين، مهووساً بإثبات حقيقة ما حدث بالفعل في 25 شباط 1916. استندت إشارته الأولى والوحيدة إلى مذكرة في أرشيف الجيش الألماني، سجلت نص مكالمة جرت بين الملازم أول فون براندیس، من الكتيبة الثامنة الفوج الرابع والعشرين، والملازم كلوغ، وهي المكالمة التي أكدها في نهاية المطاف كلوغ، الذي تذكر بوضوح نص محادثتهما.[14] أفاد فون براندیس، باستخدام الهاتف الميداني للوحدة المتقدمة للكتيبة السادسة من الفوج الرابع والعشرين (من صنف المخابرة) لقد أصبح الحصن تحت سيطرتنا

14- صدر إعلان الملازم كلوغ في 8 آذار 1937.

لا بدّ أن هوبت قد سقط ميتاً أنا ذاهب إلى الحصن. الحقيقة أن برانديس حين أخبر الملازم كلوغ في تلك اللحظة أن الحصن أصبح «آمناً في أيدينا»، وتبعها بعبارة: «إن هوبت سقط ميتاً»، فقد كشف عن أنّه لم يتصل حتى الآن بهوبت، الذي كان على قيد الحياة ويتقدم نحو حصن دوموون. لكن العبارة الأخيرة كانت الفاصلة. وبعد أن قال في السابق: «قد استطعنا إحكام السيطرة على الحصن»، أضاف قائلاً: «أنا ذاهب إليه الآن». وهذا يثبت دون أدنى شك أن فون برانديس ذهب بعد أن استولى شخص آخر على الحصن ولكن من هو ذلك الشخص؟ في وقت مكالمة برانديس، كان هوبت ورادكيليه لا يزالان خارج سور الخندق، وكان برانديس في طريقه إلى باحة الحصن. لم يكن لدى كلوفر أيّ شيء آخر سوى سطر واحد في التقرير الرسمي حول مجموعة من الجنود من صنف الهندسة «كانت قد دخلت أيضاً إلى الحصن». أمضى كلوفر سنوات في محاولة لتحديد موقع قائد تلك المجموعة، لكنه اختفى، وربما لقي حتفه في أحد الخنادق خلال عملية قتالية لاحقة.

بعد مضي عشرين عاماً، في كانون الأول من عام 1936، أرسل كونتسه، وكان قد أصبح ضابط شرطة طاعناً في السن في مدينة تورينغن، رسالة إلى قائد كتيبته السابق كورت فون كلوفر. واتفقا على اللقاء وأخبره كونتسه بالقصة كاملة.

- يا إلهي يا كونتسه لماذا صمتّ كلّ هذه الفترة الطويلة؟

- سيدي الرائد، لقد كنت في حالة سكر في ذلك اليوم، وكنت خائفاً من الاضطرار إلى مواجهة فرقة الإعدامات.

بحصوله على هذه المعلومات الجديدة، شرع كلوفر بالعمل. بدأ يستكشف الأماكن وأجرى مقابلات مع أشخاص آخرين للتحقق من قصة كونتسه، وأخيراً نشر النتائج في كتاب صدر في عام 1938. ولم تشر أيّ من الكتب العديدة المنشورة عن هذا الحدث الاستثنائي، قبل

عمل كلوفر[15] إلى أيّ ذكر لكونتسه. يقدم كتاب كلوفر تفاصيل دقيقة عن الأسماء وأوقات دخول الحصن:

1. عند الساعة 16:07 دخل كونتسه أولاً إلى الحصن الخارجي واخترق مدخل الحصن في الساعة 16:50 عند الساعة 17:33 غادر كونتسه (وهو في حالة من الإثارة) بهو الضباط.
2. عند الساعة 17:40 توغل الملازم رادكيليه والنقيب هوبت في المدخل.
3. عند الساعة 17:44 التقى كونتسه مع الملازم هوبت، تلاه ثلاثة أفراد من زملائه من الكتيبة الرابعة للفوج الثاني والعشرين، وهم الجنود باير وليوب ومونش. قاد زملاءه الثلاثة إلى بهو الضباط ليشاركوه تناول زجاجات شراب البورجوندي الفرنسي.
4. عند الساعة 17:53 التقى كونتسه «المهتاج للغاية» بالنقيب هوبت داخل الحصن لتقديم تقريره.
5. عند الساعة 17:55 التقى النقيب هوبت مع فون برانديس في النفق الرئيس (أصبح فون برانديس يحمل التسلسل الرابع والستين بين الألمان الذين دخلوا الحصن). أمر النقيب هوبت الملازم فون برانديس بجمع عدد كافٍ من الرجال لحماية الجزء الخارجي المحيط بالحصن، بينما اهتمّ هو بحماية بالجزء الداخلي.
6. عند الساعة 18:05 نجح فون برانديس في جمع ثمانية وتسعين جنديّاً بالإضافة إلى أربعة ضباط آخرين لإنجاز المهمة. [لا يوجد ذكر أيضاً لكونتسه، الذي اختفى حينها من مكان الحادث].

... (حصن دوموون آمن في أيدينا، تمّ اقتحامه على يد رجال الكتيبتين السابعة والثامنة من الفوج الرابع والعشرين بقيادة النقيب هوبت والملازم الأول فون برانديس) كان ذلك نص برقية واحدة، تمّ إرسالها في لحظة

15- راجع: Klüfer, Kurt v, Seelenkräfte im Kampf um Douaumont, Berlin, 1938.

الابتهاج بتحقيق إنجاز لا يمكن تخيله، أطلقت ما عرف بـ(أسطورة الحصن) التي استمرت لمدة 22 عاماً. أما الجنود الذين شاركوا كونتسه المسير نحو التل الطويل، فقد لقوا مصرعهم في الحرب العالمية الأولى وهم الجندي الأول زاكسه والعريف بيهريند والعريف باك والجندي شارم. تمّ نشر كتاب الرائد فون كلوفر، الذي يحتوي على رواية كونتسه، بعد فوات الأوان ولم يحدث أيّ فرق. بحلول عام 1938، كان اهتمام ألمانيا ومعها اهتمام العالم يركز على سحب الحرب التي كانت تتجمع وتشير إلى اقتراب نشوب حرب عالمية أخرى. في عام 1938، خاطب أدولف هتلر حشداً ضخماً من الجنود الألمان. وليضرب لهم مثالاً ساطعاً، أشار إلى شجاعة رجال حصن دوموون كمثال للجندي الألماني في المستقبل:

«سننتصر في معاركنا في المستقبل كما كان الحال في معركة حصن دوموون – وبغضّ النظر عن حسن حظ الجندي والأداء الفردي الاستثنائي فإنّنا سننتصر فقط عندما يؤدي كلّ فرد وفقاً لقدرته الواجب الذي وضعه أمامه القدر».

يحتوي أرشيف الرايخ الألماني على مذكرة بتاريخ 25 شباط 1916:

هذا اليوم يقدم دليلاً لا يرقى إليه الشك على صحة القانون التاريخي الذي يفيد أن الرجال هم الذين يصنعون التاريخ.

نعم، الرجال هم الذين يصنعون التاريخ، لكن أين كان البطل الذي اقتحم حصناً منيعاً واستولى عليه بمفرده، ثم لم يجرؤ على الحديث عن ذلك خوفاً من تقديمه إلى محكمة عسكرية توجه له تهمة السكر أثناء قتال العدوّ؟ لقد طُلب من صبي فلاح من تورينغن التضحية بنفسه من أجل الوطن؛ لكنه لم يحصل على ميدالية قط، ولم يصرف له راتب تقاعدي. رجل شجاع لم يستفد من مأثرته المذهلة حقّاً. فيما حصل آخرون على التقدير وتمّ تكريمهم.

لقد تمّ رمي رقيب بسيط في غياهب التاريخ. كونتسه؟ من هو كونتسه هذا؟

كان دافع كونتسه هو الغريزة الفطرية للبقاء على قيد الحياة عندما

تهدد المخاطر حياة الجندي. لقد وقع في فخّ قاتل. من الخلف، كان يتساقط وابل من قذائف المدفعية ويزحف نحوه، وأمامه، كان ينتصب أكبر حصن في العالم يعود لعدوّه، مليء بالمدافع الرشاشة، لكنه يوفر له أيضاً حماية من خلال جدار مقاوم للقذائف. كانت تلك فرصته الوحيدة لينفذ بجلده من القذائف المتساقطة. أمّا بقية ما حدث فقد جاء عن طريق الصدفة البحتة، كان جنديّاً بسيطاً قام بعمل بطولي بسبب الخطر القاتل الذي داهمه. وقد آتت مبادرة كونتسه في اللحظة الحرجة أكلها. فيما بعد، وبعد أن لعبت الخمرة برأسه بشدة، سمح للآخرين بأن يسرقوا منه شرف البطولة.

كان هذا أحد جوانب الغرور الذي كان سائداً في طبقة الضباط في بروسيا، والطريقة التي كان يتمّ بها توزيع الأوسمة فيما بينهم، ولهذا فلم يحصل كونتسه على التكريم الذي لا يمكن أن يفيه حقه والذي كان يستحقه بشدة.

معركة جوتلاند، 31 أيار 1916

«الصبي جاك كورنويل، والعودة إلى الأرض التي يستحقها الأبطال لقد نقش القدر اسمه بحزن في لوحة شرف الشجعان وحتى الموت كان فخوراً به».

- **في تأبين جون ترافرز كورنويل، تموز 1916**

«ما هي مهمتنا؟ جعل بريطانيا بلداً يستحق الأبطال أن يعيشوا فيه»

- **رئيس الوزراء لويد جورج، 24 تشرين الثاني 1918**

أصدر سكرتير الأدميرالية البيان التالي الليلة الماضية:

اشتبك أسطول بريطانيا العظمى مع أسطول أعالي البحار الألماني في الساعة 03:30 بعد ظهر يوم 31 أيّار. خاضت أعظم السفن في الأسطولين قتالاً عنيفاً، شاركت فيه جميع الطرادات الحربية والسفن الحربية السريعة والزوارق المساندة. كانت هناك خسائر كبيرة في كلا الجانبين.

يمكننا تعويض السفن التي خسرناها. لكننا نرثي الرجال الشجعان والبواسل الذين كانوا عماد تشكيلاتهم القتالية. بالتأكيد فإنّ أولى

أفكارنا تتوجه نحو الزملاء الأبطال الذين ماتوا بشجاعة وهم يواجهون مخاطر كبيرة.[1]

«من بين جميع الأبطال العظماء...» نتحدث عن أولئك الذين تمّ تكريمهم بالأوسمة وكتبت لهم الأناشيد. ولكن ماذا عن أحبائهم وآبائهم وأمهاتهم؟ أولئك الذين لم يبقَ لديهم سوى البكاء؟ ستكون قصة «الأبطال المجهولون» غير مكتملة دون التفكير ببعضهم. هذه هي قصة البطل الذي غمرته الدولة والناس بالتكريم، وكان أصغر الأبطال سنّاً من بين من كانوا في خدمة صاحب الجلالة ونالوا وسام صليب فكتوريا، وقصة العائلة التي تركها وراءه.

في بداية الحرب العالمية الأولى، كانت الدولتان المتحاربتان تمتلكان أسطولين حربيين كبيرين، الأسطول البريطاني الكبير وأسطول أعالي البحار الإمبراطوري الألماني، وكلاهما كانا يمتلكان قوى هائلة حقّاً. على الرغم من أن البحرية البريطانية كانت تملك المزيد من السفن الكبيرة، فإنّ القوة النارية للأسطولين كانت تضاهي بعضها بعضاً، ولكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لنطاق عملياتها الحربية. ففي حين إن بريطانيا، بإمبراطوريتها الاستعمارية الشاسعة، تستطيع الحصول على الفحم وتزويد قوتها البحرية حتى لو كانت في أراضٍ بعيدة، كان الأسطول الألماني يعتمد على قرب القواعد العسكرية التابعة له ليكون قادراً على مضاهاة القوة النارية البريطانية ويمتلك القدرة على المناورة. وبالتالي، لم يكن بإمكان الأسطول الذي كان يطلق عليه «فخر القيصر» أن يشنّ حرباً في البحر بعيداً عن قواعده الأصلية التي كانت تقع في بحر الشمال. لهذا السبب، تمّ إبقاء قطع الأسطول البريطاني الكبير راسية في قواعده البحرية في اسكتلندا، من أجل مواجهة السفن الألمانية الكبيرة، في حال قرّر قادتها القيام بحملة عسكرية. كانت الخشية، أن يتمكن الألمان من القيام بغارة مفاجئة، فقد يتسببون في أضرار كبيرة وبسرعة

1- عن صحيفة التايمز العدد الصادر في 5 حزيران 1916.

شديدة. الغريب، أنّه بدا في السنوات الأولى من الحرب، أن بعض التردد في الأخذ بزمام المبادرة كان هو السائد عند قادة الأسطولين.

بينما كان الألمان يعتمدون على شاشات غواصاتهم للحفاظ على الممرات البحرية خالية من سفن العدوّ الحربية، أطلقت إنجلترا سلسلة من الطرادات السريعة للقيام بدوريات في مياه بحر الشمال. كانت إحدى هذه السفن الجديدة هي إتش. أم. أس. تشيستر، وهي طراد كشف سريع في سرب السرية القتالية التابع للبحرية الملكية بقيادة الفريق البحري ديفيد بيتي. في منتصف صباح يوم 31 أيّار 1916، كسر الفريق البحري صمت جهاز اللاسلكي وأمر قبطان تشيستر بالتحقق من الوضع قبالة الساحل الغربي لجزيرة جوتلاند، حيث تمّ الإبلاغ عن وجود دخان كثيف. كان من المعروف أن المزارعين الدانماركيين اعتادوا على حرق الحقول بعد انتهائهم من عملية الحصاد، ولكن قبل كلّ شيء، كان الدخان الناتج من القش أبيض اللون ولم تكن أواخر شهر أيّار وقتاً للحصاد. قد يعني هذا شيئاً واحداً فقط: إن هناك وحدة بحرية ألمانية كانت في مكان ما شرقاً ويجب العثور عليها وإغراقها قبل أن تتسبب في إحداث أيّ ضرر.

راقب طاقم المدفعية في مقدمة السفينة تشيستر، التي كانت تبعد عن ساحة الاشتباك مسافة أكثر من ساعتين، غيوم الدخان على مدار الساعة الماضية، عندما زحفت السفينة الأولى في صف السفن الحربية الضخمة نحو الأفق.

يا للعجب، إنه أسطول القيصر لقد عرفوا جيداً جدّاً أنّ طرادهم الخفيف قد تمّ تجاوزه وإطلاق النار عليه من قبل المدافع الضخمة للقيصر الألماني. أطلق أنبوب السفينة الناطق صفيراً عالياً: «على الجميع الاقتراب!».

كان جميع الأفراد العشرة المتواجدين في برج المدفعية في مقدمة الطراد تشتستر من البحارة المتمرسين باستثناء واحد. وكان «صبيّاً» يبلغ من

العمر ستة عشر عاماً يدعى جون ترافرز كورنويل وقد التحق بأحدث طراد في إنجلترا في 1 أيار 1916. وبعد مرور واحد وثلاثين يوماً، أصبح بطلاً وانتشرت صورته في كلّ مكان. قرّر مؤسس «فرقة الكشافة البريطانية»، السير روبرت بادن باول، منح ميدالية خاصة تحمل اسم كورنويل كأعلى مكافأة «لتكريم أفراد فرقة الكشافة»، والتي تمنح لمن يؤدي مهمة متميزة ويتحلّى بالشجاعة. ومع ذلك، فإنّ الصبي كورنويل لم يكن يعرف في بداية حياته أيّ شيء من هذا؛ كان مجرد فتى عادي من مدينة ليتون في مقاطعة إسيكس؛ من عائلة متواضعة، غادر المدرسة في سنّ مبكرة ليكسب المال ليعيل عائلته، تملكته موجة الخوف من الألمان التي كانت سائدة وكان يردد دائماً: «أريد أن أفعل شيئاً للملك والبلد». كان أخوه غير الشقيق يخدم في فوج للمشاة في مقاطعة فلانديرز؛ لهذا السبب كان والده، إيلي كورنويل، سائق الترام، والجندي الاحتياطي في فيلق الدفاع الملكي قد رفض، السماح للصبي بالانضمام إلى القوات البحرية: «ابقَ في المنزل لتساعد والدتك». حصل جاك المراهق على عمل كعامل توصيل للحليب.

في 27 تموز 1915، وبعد رفض والده، ذهب سرّاً إلى مركز تجنيد البحرية الملكية. وعن طريق تغيير تاريخ ولادته، تمّ قبوله في برنامج تدريبي على المدفعية على متن السفينة ج. أم. أس. فيفيد. كان مستوى الاستعداد القتالي والتدريب على الأسلحة مرتفعاً، وكان التدريب تنافسيّاً، ووجد جاك الشاب نفسه خاضعاً لقسوة انضباط القوات البحرية، التي غرست فيه الشعور المقدس بتأدية الواجب في سبيل الملك والوطن. كان يرغب مثله مثل أيّ مراهق في عمره، في خوض معركة شريفة، وكان نفاد الصبر لديه أمراً طبيعيّاً بما يكفي بالنسبة لصبي في سنّ السادسة عشرة في الوقت الذي كانت فيه بلاده في حالة حرب. على الرغم من أنّه لم يكن بإمكانه أن يتوقع ما ينتظره، فإنّ العمل القتالي الذي صلّى بشدة من أجل أن ينخرط فيه تتوج باشتراكه في أعظم معركة بحرية في العصر الحديث، وجعله يحوز على سمعة طيبة وشهرة عالية في جميع أنحاء البلاد.

في الساعة 15:49 من يوم 31 أيّار 1916، وفي بحر الشمال قبالة سواحل جوتلاند (سكاجيراك)، خاض الصبي الماهر كورنويل وآلاف البحارة الإنجليز من الأسطول البريطاني الكبير بقيادة السير جون جيليكو، مواجهةً مع القوة العظيمة لأسطول (أعالي البحار) الألماني تحت قيادة الأدميرال راينهارد شير، في قتال عنيف لم يشهده العالم من قبل، وربما لن يشهده أبداً مرة أخرى[2]. خمسون سفينة مزودة بمدافع ضخمة من طراز 15 بوصة، تقوم بإطلاق قذائف وزنها طنّ واحد كما في بعض معارك أفلام رعاة البقر الأمريكية.

اندلعت المواجهة الأولى بين سرب السفن الحربية للبحرية الملكية بقيادة نائب الأدميرال ديفيد بيتي والطرادات الثقيلة الألمانية التي يقودها نائب الأدميرال فرانز فون هيبر. كان الجانبان خصمان متعادلان كثيراً، لكن ليس من ناحية قوتهما النارية. أثبتت دقة إصابات المدافع الألمانية أنّها ذات قدرة تدميرية. فقد تحطمت السفينة القتالية المنيعة تشستر إلى عدة أجزاء بعد إصابتها بثلاث قذائف. بعد بضع دقائق، اختفت أيضاً السفينتان كوين ماري وإنفينسيبل تحت الأمواج حيث تسبّبت الانفجارات التي حدثت في داخلها بتناثر أجزائها، مما دفع نائب الأدميرال السير ديفيد بيتي[3] أن يبحر في سفينة ليونز وهو يقول: «يبدو أنّ هناك شيئاً خاطئاً في سفننا اللعينة اليوم». وكان هناك شيء بالفعل، ولكن ليس له علاقة بتركيبة السفن. كان من الضروري في المعركة، توفير القذائف والبارود الخاص بإشعالها في أبراج السلاح المختلفة بأسرع ما يمكن حتى تتمكن طواقم الإمداد من نقلها. قام الرجال الذي كانوا يعملون وهم يتصببون عرقاً

2- كانت قوة الأسطول البريطاني (بقيادة جيليكو وبيتي) مؤلفة من 148 سفينة، منها 28 حربية. أمّا الأسطول الألماني (بقيادة شير وهيبر) فكانت مؤلفة من 99 سفينة منها 22 حربية.

3- كانت السرية الحربية في الأسطول التي يقودها بيتي مؤلفة من ستة طرادات قتالية وأربع سفن مدرعة و14 طراداً خفيفاً من ضمنها تشيستر و27 مدمرة وحاملة طائرات مائية واحدة.

في مستودعات البارود داخل السفن، بإخراج حشوات مادة الكوردايت (المادة الدافعة المستعملة في القذائف- م) من علبها الواقية وتكديسها في العربات، بينما دفع آخرون عرباتهم المحملة بعلب البارود نحو المصعد. وهرعوا مسرعين ليتمّ تزويد المدافع بما تحتاجه بأسرع وقت ممكن، ولكنها كانت علباً قطنية تحوي مادة كوردايت ذات شحنة عالية، ترك الطاقم الأبواب التي توصل ما بين مستودعات البارود، والمصعد، وبرج المدفعية مفتوحةً. كان يمكن لأصغر شعلة من قذيفة سقطت، بغضّ النظر عن حجمها، أن تشعل النيران في مادة الكوردايت المتناثرة على طول الممر المؤدي إلى أسفل السفينة. وهذا بالضبط ما حدث عندما سقط عدد من قذائف المدفعية الألمانية. فقد أدّى الانفجار إلى أن تطير تلك السفينة الضخمة في الهواء، وأن يغطس المقود في البحر، وأن تختفي خلال دقيقتين. لم ينجُ من طاقم تلك السفينة العملاقة والذي كان يبلغ عدده 1017 فرداً، سوى اثنين فقط؛ أمّا على متن السفينة كوين ماري، فلم يكن الأمر مختلفاً: من بين بحارتها الذين كان عددهم 1266 بحاراً، لم ينجُ سوى عشرين فرداً. في حين أحصت المجلة التاريخية ذا إنفينسبل (The Invincible) وجود ستة ناجين من أصل 1206فرداً. أمّا سفينة ليون التي كان يقودها الجنرال بيتي فقد تعرضت لضربة قوية في البرج الرئيس ولم ينقذ السفينة سوى ردّ الفعل السريع من الرائد هارفي من البحرية الملكية. على الرغم من الإصابات الشديدة التي تعرض لها هارفي ورجاله فقد تمكنوا من فتح الصنابير وجعل المياه تغمر مستودعات الذخيرة.

سبق وأن تمّ إرسال السفينة إتش. أم. أس. تشيستر، باعتبارها جزءاً من سرب الطراد البحري الثالث بقيادة اللواء البحري هود، لاستكشاف الجناح الأيمن لأسراب الطراد الذي يقوده الأدميرال بيتي، عندما اشتبكت وجهاً لوجه مع أربعة طرادات ثقيلة من أسطول الطرادات الثاني بقيادة الأدميرال هيبر. مع مرور كلّ دقيقة كان التشكيلان الحربيان يقتربان بعضهما من بعض.

«وردت إشارة، يا سيدي الرائد. حدث اشتباك مع العدوّ».

أصدر النقيب روبرت لوسون قائد السفينة تشيستر تعليماته: «ارفعوا لواء المعركة» تكون سرعة الدوران في الحدّ الأقصى. ويكون المدى من تسع إلى خمس عقد في الساعة. نقل طاقم مكافحة الحرائق هذا الأمر إلى طاقم أبراج المدافع الثلاثة. وأعاد المراقب في البرج الأمامي الصبي البحار كورنويل، تكرار هذا الأمر. «يكون المدى من تسع إلى خمس عقد في الساعة». اهتزت السفينة بعنف بعد أن ارتطم بها عدد من الصواريخ التي أخطأت الهدف. حدّق الصبي كورنويل من خلال منظاره، حينها ارتفعت أمامه سحابة سوداء يتوسطها لهيب وبدأ يترنح حينما بدأ سطح السفينة من خلفه يتمايل فجأةً. وجد بوي نفسه مرمياً على الأرض، ولا يعرف كيف وصل إلى هناك. حينها صاح رئيس طاقم المدفعية: «لقد أصابتنا ضربة من سفينة ألمانية!».

كانت قوة الطراد تشيستر، بمدافعه الستة من طراز 5.5 بوصة، لا تقارن بقوة مدافع سرب القائد هيبر الثلاثين من طراز 5.9 بوصة. في الساعة 16:40، تمّت إصابة الطراد تشيستر سبع عشرة مرة. بدأ الطراد يتمايل بسبب تلك الإصابات، تفجر هيكله العلوي وتشظّى إلى أجزاء وكان الانفجار مصحوباً بدويّ شديد، لكن علم المعركة كان ما زال يرفرف. فجأة، صعق الصبي بخبطة تصم الآذان، رمته بشدة فوق سطح السفينة الفولاذي. بدأت ترن في أذنيه قعقعة مدوية. كان الانفجار الذي نجم عن القذيفة التي أصابت برج المدفع الأمامي من طراز 5.5 بوصة يشبه صاعقة رعدية. نزعت ألسنة اللهب العالية غطاء برج المدافع الفولاذي مثلما يفتح المرء علبة سردين. كانت بقايا من الجثث متناثرة بين الحطام، ومات جميع من كان داخل البرج. الجميع ما عدا الجندي الذي كان في مرقاب المدفع ذي الستة عشر عاماً. تمزقت سترته العسكرية إلى حدّ الخصر وبدأ ينزف بسبب إصابته بجروح متعددة في صدره وبطنه.

تلمّس الصبي طريق عودته بقدميه، وهو يزحف بأنفاس متقطعة إلى

موقعه المخصص له، ثم تشبث بقوة بمرقاب مدفعه ليحميه من السقوط، في انتظار أوامر أخرى.

اختفى الطراد تشيستر وسط غابة من المياه المتناثرة في جميع الاتجاهات. كانت محركاته تزأر بشكل محموم أثناء محاولاته لتفادي القذائف المتساقطة. كانت القذائف التي تخطئه تسقط بالقرب منه. ثم تصيبه مرة أخرى؛ حطم أحد الانفجارات هيكل الطراد. أدّت قوة الصدمات إلى أن تخترق مسامير البرشام بدن السفينة المدرع، ارتفعت ألسنة اللهب في الهواء، وانفجرت مستودعات الذخيرة، غمرت المياه التي انبعثت من سخان الطراد الحطام الملطخ بالدماء. بطريقة ما، شعر بوي كورنويل بأنّه معزول تماماً عن الفوضى المحيطة به. لما بدا وكأنّها نهاية العالم، لم يعد هناك المزيد من المدافع التي تطلق النار، ولم تعد هناك قذائف تنفجر، ولم يعد يخيم سوى الصمت العميق. وسط الدخان الكثيف، بدأ بوي كورنويل يلعن العرق الذي كان يتسلّل إلى عينيه. نزع عن عينيه نظارته المطاطية لبرهة من الزمن ليرى عن قرب السفينة التي تنفجر. بدا أنّ الجزء الأكبر منها يرتفع فوق الماء، وهو يتلوى من العذاب. من خلال سطح السفينة، شعر بأن الطراد كان يترجرج ويهتزّ من حوله، وتبع ذلك ارتجاج آخر تسبب به سقوط قذيفة ضخمة بالقرب من قمرة القيادة، حمل معه شظايا الانفجار الساخنة المعدنية وحطام الجثث. ساعد سقوط القذيفة على أن يصحو بوي من الخدر الذي كان يزحف على جسمه.

من مكان ما ظهر ضابط السفينة ليقوم بجولة لتقييم الأضرار. كانت الجثث مكومة في طريقه. رأى سحابة من الدخان تتصاعد من المدفع الأمامي من عيار 5.5 بوصة، والذي حطمته ضربة شديدة. لم يكن هناك أيّ علامة على وجود أحياء في ذلك البرج المنبعج، الذي اخترقته وفككته الشظايا. عندها رأى الصبي الذي ابتسم بشجاعة عندما حاول الضابط مساعدته قائلاً له: «انزل إلى الوحدة الطبية لتتلقى العلاج».

أجابه الصبي: «أمرك سيدي»، ثم بقي في موضعه. على الرغم من الدمار والموت المحيطين به، إلّا أنّ مرقاب مدفعه وأنبوبه الناطق كانا يعملان بالدقة نفسها تماماً التي عملا فيها أثناء فترة تدريبه خلال الأشهر الماضية. بات الألم الذي يوخزه في صدره أمراً لا يطاق، لكنه لم يصل إلى حدّ أن يفقد وعيه. وبسبب ما كان يحمله من كراهية شديدة للعدوّ وشعور متأصل بالواجب، قام بمطاردة سفنه التي تكون في مرمى نيرانه. كان يشعر بالفرح عند قيامه بالردّ على الضربات الشديدة التي يتعرض لها طراده تشيستر. ومع أنّ مدفعه لم يعد موجوداً ورغم موت جميع رفاقه، فقد تمّ تكليفه بمهمة السيطرة على الحرائق، وقد فعل ذلك ببسالة. وحين يطلب منه ذلك، كان يعبر من خلال الأماكن التي كانت تشتعل فيها النيران ويتوجه إلى الأبراج التي كانت لا تزال تعمل. كان الدم يسيل على ساقيه، وهو يتدفق من رئته المثقوبة. وبينما كانت حياته تتلاشى، تشبث هذا الصبي بموضعه كما لو كان يجري أحد تدريبات سلاح البحرية. ظلّ يعيد ترديد قصائد كان قد تعلمها في المدرسة ويفكر في عائلته، ما عاد الألم يلتهم عضلاته فحسب، بل بات ينتشر في رأسه، كان يحاول الصمود، وقد شبك يديه حول مرقاب مدفعه.

وفي الوقت نفسه، اشتدت ضراوة المعركة البحرية. سفن تتعرض لضربات وأخرى تغرق. كانت سبطانات المدافع تزداد سخونة، ثم تعود لتبرد مرة أخرى حين تغمرها أطنان من الماء ناجمة عن الكثير من القذائف التي كانت تخطئ الهدف وتسقط بالقرب منها. بات الطراد تشيستر الذي أصبح حطاماً بفعل انفجارات القذائف يتلقى المزيد منها. مثلما كان ذلك المراهق المصاب بجروح قاتلة يقاوم الموت، وهو يتشبث بمرقاب مدفعه بذرعين تنزفان، مصرّاً على الصمود في أكثر المواقع تعرضاً للخطر على الرغم من وابل القذائف المتساقطة، مؤكداً استعداده للبقاء في موضعه في حالة وجود حاجة إليه. لم تكن غايته من

البقاء عند مدفعه، ودماؤه تسيل على ساقيه، تحقيق مجد شخصي، بل لأنّه كان يعتبر التخلي عن موقعه بمثابة فشل لا يمكن تصوره في أداء واجبه كبحار مقاتل.

عندما حلّ الغسق، عبر الأدميرال جيليكو الخط الألماني، ثم أمر طواقم سفنه بتجنب المزيد من القتال، وخاطبهم بلهجة جافة قائلاً: «لا أريد أن أخسر الحرب في مثل هذا الوقت من اليوم». في وقت لاحق من تلك الليلة خسر الطرفان الكثير من السفن، بسبب قيامهما بنشاطات سادها ارتباك كبير حين توجب على السفن أن تشرع في ضبط مديات نيران مدفعيتها اعتماداً على الومضات الصادرة من فوهات مدافع العدوّ. اعتبر كلا الجانبين ما حدث بمثابة نصر له. لكن بما أن الألمان قد أغرقوا حوالي ضعف عدد السفن التي أغرقها البريطانيون، وقتلوا 6748 من البحارة البريطانيين مقابل فقدانهم 3058 ألمانيّاً، فإنّ كبزياء البحرية الملكية البريطانية تعرضت للإهانة، وبدأت ومعها كلّ البلاد، في البحث عن بطل يعيد لبريطانيا كرامتها.

عند نهاية تلك المواجهة، وجب على كورنويل أن يفتح يديه المشبوكتين، واللتين كان قد أحكمهما حول بندقيته، ويتوجه إلى داخل السفينة. ألقى نظرة عليه طبيب السفينة، وكان يرتدي مئزره المطاطي الملطخ بالدم، ثم هزّ رأسه. على الرغم من انتشار العديد من الثقوب في سطح السفينة تشيستر الناجمة عن تساقط العديد من القذائف، إلّا أنّها تمكنت من الانسحاب من المعركة والعودة ببطء إلى الميناء. كان الصبي البحار كورنويل أول من تمّ إجلاؤه من على ظهر السفينة ونقله إلى مستشفى غريمسبي، حيث توفي متأثراً بجراحه الخطيرة في 2 حزيران 1916. وكتب النقيب روبرت لوسون من طاقم السفينة خطاباً إلى والدته:

كان إخلاصه للواجب مثالاً وقدوة لنا جميعاً. أصابته الجروح التي أدّت إلى وفاته في الدقائق القليلة الأولى من اندلاع القتال. لكنه ظلّ صامداً عند مدفعه في أكثر

المواقع عرضة للقذائف، ينتظر الأوامر. ما كان ليترك سلاحه أمام العدوّ. قتل جميع أفراد الطاقم وكان الوحيد الذي بقي في ذلك الموضع المكشوف. لكنه شعر أنّه قد تكون هناك حاجة إليه، وربما كان الأمر كذلك؛ لذلك بقي هناك، صامداً ورهن الإشارة، رغم النيران الكثيفة، لم يكن معه سوى قلبه الشجاع، وعين الله التي كانت ترعاه.(4)

أرسل النقيب لوسون تقريراً مشابهاً إلى قائد سرب السفن الحربية، نائب الأدميرال بيتي، الذي أشار إلى شجاعة الصبي في رسالته الرسمية: «... لقد وقف صامداً وحيداً في أحد أكثر المواضع تعرضاً للخطر وهو ينتظر الأوامر بهدوء، حتى نهاية العمليات القتالية، رغم مقتل جميع من حوله من أفراد طاقم المدفعية»....

أصبح للإنجليز بطلهم! ذاع صيت صورة جاك كورنويل البطل الذي لا يقهر مثل شهاب ساطع وأصبح مثالاً ورمزاً لكلّ مقاتل رفض الاستسلام. وإصراره المستميت على تحقيق مجد لوطنه في معركة لم يخسرها، لكنه بالتأكيد لم ينتصر بها،(5) تناولت الصحافة بسرعة القصة البطولية للفتى كورنويل. ظلّت صورة الصبي الصغير المبتسم وهو يرتدي زيّ البحرية الأزرق تتصدر الصفحات الأولى لصحف البلاد، حتى جاء اليوم الذي تمّ فيه استبدالها بصورة أخرى أكثر إثارة. كانت صورة لقبر مشترك نقشت على شاهده العبارة التالية: (هنا يرقد بسلام بطل معركة جوتلاند) لم تبذل القوات البحرية جهداً لمنح عائلة الصبي مقبرة تليق ببطلها وأمه، وكانت

4- راجع: Winton, J., The Victoria Cross at Sea, London, 1978

5- فقد الأسطول الألماني إحدى عشرة سفينة و2551 رجلاً؛ وخسر الأسطول البريطاني الكبير 14 سفينة وقتل 6097 من أفراد طاقمه.

والدته ليلي كورنويل قد استلمت جثته من مشفى غريمسبي؛ ولكونها عديمة الحيلة، تمّ دفن ابنها الذي كان أصغر بطل في البلاد في قبر مشترك في بلدة غريمسبي، في مقاطعة لينكولنشاير. جاء في المقال الافتتاحي لصحيفة لندن ديلي سكيتش:

ستصاب إنجلترا اليوم بصدمة كبيرة عندما تعلم أن ذلك الفتى بطل الانتصار البحري قد دفن في قبر مشترك. أرسل زملاؤه في المدرسة زهوراً لتوضع على قبره. وهكذا قاموا بطريقتهم المتواضعة بتكريم ذلك البطل الصغير في الوقت الذي عجزت فيه قيادة البحرية الملكية البريطانية عن تكريمه.

منذ تلك اللحظة، تسببت قصة الصبي كورنويل البطولية في حدوث «نوبة حماس جماعية لإحياء ذكـراه».[6] وبعد سلسلة من افتتاحيات الصحف والمقالات التي تتابعت بعد نشر الصورة، بدأت حملة للصق صورة الصبي على جدران المدارس في جميع أنحاء البلاد، وقام رسام البلاط الملكي الشهير فرانك ساليسبري، برسم صورة للصبي لتحفظ في السجلات الرسمية لقيادة البحرية البريطانية، متخذاً من شقيقه الأصغر إرنست موديلاً له. أصبحت صورة الصبي كورنويل بنظرته الحزينة، وهو يقف بجانب مدفعه على متن السفينة تشيستر، شعاراً للتجنيد في البحرية الملكية. تمّت تسمية الجناح الذي توفي فيه في مستشفى غريمسبي باسم «غرفة الصبي كورنويل». مع تواصل تصدر موضوعه عناوين الصحف بشكل يومي ووصول حماس الرأي العام إلى ذروته، ارتفع صوت اللورد بيريسفورد في مجلس اللوردات مطالباً قيادة البحرية الملكية بوجوب تكريم هذا الصبي الشجاع ومنحه وسام صليب فيكتوريا عقب وفاته. فأجاب رئيس لجنة منح الوسام، دوق ديفونشاير، على هذه الدعوة بالقول إنّه لم يتمّ تقديم مثل هذه التوصية، ولم تتمّ التهيئة لها. كان قد سبق لثلاثة من قادة البحرية قد نالوا هذا الوسام تكريماً لأدائهم المتميز في معركة

6- راجع: Winton, J., The Victoria Cross at Sea, London, 1978

جوتلاند،[7] ولكن في حالة الصبي كورنويل، ترددت لجنة منح الوسام كثيراً في البتّ في الموضوع، لأنّه كان مراهقاً، وليس منتسباً بالغاً، كان مجرد صبي متدرب، وبالتالي فلم يكن مؤهلاً للحصول على وسام صليب فيكتوريا. بمجرد أن نشر الصحفيون الذين يبحثون عن القصص المثيرة هذا الردّ المؤسف واطلع عليه الجمهور، حتى كانت صناديق البريد التابعة للقوات البحرية الملكية مملوءة برسائل تعبّر عن استنكارها للقرار وصلت من جميع أنحاء البلاد، وتوفرت للصحافة الشعبية مادة دسمة لتخوض فيها. حاولت قيادة القوات البحرية الدفاع عن نفسها ضد اتهامات الصحافة بنشرها تصريحاً كان غير موفق: «لقد كان الكثير من رفاق كورنويل في السفينة أكثر حظّاً منه حيث يرقدون بسلام في بحر الشمال، حيث ليس بإمكان أيّ من الصحفيين المتوحشين أن ينبش رفاتهم».

في الواقع، لم تترك رفات الصبي لترقد في سلام. في 29 تموز 1916، قررت قيادة البحرية أن تستخرج جثته وأن تقام جنازة رسمية تليق به، وموكب فخم وعظيم مصحوباً بعزف تؤديه الفرقة الموسيقية العسكرية في مثل هذه المناسبات. قام صبيان من «مركز تدريب أفراد القوات البحرية في كريستال بالاس» بسحب عربة مدفع، وسارت وراءهما والدته الحزينة، يرافقها أسقف باركينغ وضابط رفيع المنصب يمثل قيادة القوات البحرية. واصطف الآلاف في طريق الجنازة وقرعت أجراس الكنائس وأغلقت المتاجر. في جميع أنحاء البلاد، دقّت أجراس المدارس ووقف الأطفال دقيقة صمت. حمل ستة رفاق، وجميعهم من بحارة السفينة تشيستر، النعش الملفوف بعلم البحرية الأبيض إلى مثواه الأخير في مقبرة مانولا بارك. كانت هناك أكاليل من الزهور تحمل عبارات «الاحترام العميق» تحمل اسم عمدة لندن والفريق البحري ديفيد بيتي. فيما بعد، انتشرت أقاويل تزعم أن «الصحافة اختلقت قصة هذا البطل». من المؤكد

7- وهم كل من إدوارد باري وستيوارت بينغهام ولوفتوس ويليام جونز وفرانسيس جون ويليام هارفي.

أن الصحف ساعدت في تعريف الجمهور بهذا العمل الفذّ الشجاع. لكن من كان صاحب ذلك الموقف الشهم هو الصبي كورنويل وقام به بمفرده. مع تصاعد ضغوط الرأي العام، أعلن القصر الملكي في 30 أيلول 1916 عن تكريم البحار المتميز الصبي جون ترافرز كورنويل بمنحه وسام صليب فيكتوريا بعد الوفاة.

في 16 تشرين الثاني 1916، أقيم حفل في قصر باكنغهام، قلّد فيه الملك الوسام الرفيع لوالدة جاك وانتشرت الأحاديث بين النسوة: «هل سمعتن، سيداتي، لقد ذهبت ليلي كورنويل لرؤية الملك...» باتت والدة جاك على مدار عدة أيام حديث المدينة. لم تكن راغبة في ذلك التكريم؛ كان كلّ مناها أن يكون ابنها حيّاً بجانبها. لكنه رحل، بعد أن ضحى بشبابه من أجل ملكه وبلده. لم يبقَ سوى الحزن لهذه المرأة البسيطة التي كانت تخشى الله وتبذل قصارى جهدها لمحاولة توفير المال اللازم لإعالة عائلتها الصغيرة، حين ذهب زوجها وأبناؤها إلى الحرب. ومثل أيّ أم أو زوجة أخرى كان لديها شخص يقاتل في ميدان المعركة، كانت ليلي كورنويل دائماً تشعر بالقلق من اليوم الذي تصلها فيها رسالة من وزارة الحرب تنعى لها أحد أحبائها. عندما جاء ساعي البريد إلى منزلها ذات يوم، كان يحمل خبر مقتل جاك. قامت بدفنه. لم يكن هناك من ساعد تلك الأم لتشيد لابنها الذي سقط في أرض المعركة قبراً لائقاً؛ كانت قد اصطحبت معها طفليها الصغيرين ليلي وإرنست، وألبستهما أجمل ثياب يوم الأحد، ولفّت شالاً أسود حول كتفيها، سار الثلاثة وراء العربة التي كانت تحمل التابوت. بعد بضعة أسابيع، ظهر رجل يعمل في صحيفة تصدر في لندن، والتقط صورة للقبر وفجأة أصبح ابنها جاك مشهوراً. قررت قيادة البحرية حفر قبره واستخراج جثته وأقامت له جنازة مهيبة، وشيدت له قبراً مناسباً تحيط به زهور حقيقية ليرقد فيه بسلام. ولكن سرعان ما ذبلت الزهور، وبدأ يخفت الاهتمام الذي أبدته الصحف بوالدة الصبي.

إذا كان لا بدّ من وصف جاك كورنويل بأنّه «بطل مجهول»، فإنّ بقية قصته لم تحمل أيّ شيء زاد من عظمة أولئك الذين استفادوا شيئاً ما من بطولة صبي عمره ستة عشر عاماً. غمر ليلي كورنويل المزيد من الحزن. في تشرين الأول 1916، توفي زوجها إيلي كورنويل بسبب إصابته بنزلة برد في الشعب الهوائية والتي تركها دون علاج بسبب عدم توفر المال لديه، بعد ذلك بوقت قصير، لقي مصرعه آخر مصدر رزق للعائلة، وهو آرثر شقيق جاك الأكبر غير الشقيق في معارك مقاطعة فلاندرز. تُركت الأم ليلي مع طفليها الصغيرين دون أيّ مصادر للدخل، في حين تمّ جمع مئات الآلاف من الجنيهات عن طريق بيع طوابع البريد التي تحمل صورة الصبي كورنويل والبطاقات المصورة له لصالح «صندوق الصبي كورنويل التذكاري». اشترى سبعة ملايين تلميذ الطابع بمبلغ بنس واحد مع صورة الصبي! صرفت هذه المبالغ على تقديم منح للطلبة الراغبين في الدراسة في الأكاديمية البحرية وبناء منازل ريفية للبحارة المتقاعدين وتجديد مبنى مشفى ستار أند كارتر في مقاطعة ريتشموند؛ لم يصل أيّ من تلك المبالغ إلى والدة البطل، التي كانت تعيش في الحدّ الأدنى من مستلزمات الحياة وتسكن في بناية رثّة في بلدة ستيبني في شرق لندن. في بعض الأحيان كانت تتمنى لو أنّها تزيل قصاصات الصحف التي تحمل صور ابنها من كلّ مكان، لأنّها تنكأ جراحها وتهيج آلامها. ثم تجلس لساعات على كرسيها، ممسكة بيديها إطار الصورة الباهتة لعائلة مكونة من ستة أفراد، يبتسمون بسعادة أمام عدسة الكاميرا. كانت الصورة قد التقطت خلال كرنفال أقيم في قريتها، قبل أشهر فقط من انطلاق المدافع في آب 1914 لتحطم السلام في العالم. لقد سلبت منها تلك المدافع كلّ شيء.

عاشت ليلي كورنويل والدة الصبي البطل على معاش الأرملة الذي لا يتجاوز ستة بنسات في الأسبوع وعلى ما تحصل عليه من معونات تصلها من حين إلى آخر من رابطة البحرية البريطانية، كانت امرأة شجاعة وبسيطة، صافحت يد الملك وسارت وراء نعش ملفوف بالعلم الوطني، امرأة أعطت

كلّ شيء لبلدها، والتي فقدت زوجها واثنين من أبنائها في الحرب؛ امرأة كانت تعاني من عذابات الحزن في كلّ مرة ترى فيها ولدها يبتسم لها من أحد الملصقات الخاصة بالتجنيد؛ وأصبحت منطوية على نفسها أكثر فأكثر وبدأت تذبل تدريجيّاً، إلى أن هلكت. بعد ثلاث سنوات من الجنازة الرسمية التي أقيمت لجاك، وجدها الجيران ميتة في سريرها. عاشت ليلي كورنويل والدة أحد أبطال الأمة الأكثر شهرة، منسية بهدوء وتوفيت في حال من الفقر المدقع وهي في عمر الثامنة والأربعين فقط. وقد خلص مؤلف كتاب رجال البحرية الذين نالوا وسام صليب فيكتوريا إلى هذا الاستنتاج: «من يتأمل الأحداث التي جرت، يبدو له أن الكثير من الأموال التي تمّ جمعها لجاك كورنويل ربما قد ذهبت لمساعدة من تربطهم معه علاقات قرابة».[8]

كانت والدة هذا البطل مثالاً على التجاهل الحكومي للأبطال،[9] لكنها لم تكن الاستثناء. لم تعد إنجلترا مع انتهاء الحرب بانتصارها في عام 1918، بحاجة إلى الأبطال. لم يتمكن الآلاف من الجنود السابقين العائدين من جبهات القتال مغالبة شعورهم بالاستياء من مشاعر الناس حيث كان يبدو أنّه لا أحد يهتمّ بما مرّوا به. لقد كانوا مرهقين بسبب الحرب، وأصابهم الاكتئاب وغالباً ما كانوا يشعرون بالمرارة. الحياة التي وجدوها عند عودتهم كانت تبدو تافهة وسخيفة بالنسبة لأولئك الذين عاشوا وماتوا في الخنادق؛ فلم ينتبهوا إلى بؤس الآخرين، ولم يروا سوى الشباب والفتيات الذين يتأنقون في بدلات وملابس السهرة الجذابة، وهم يحتسون كؤوس الشمبانيا، ويرقصون للتخلص من آثار حرب مروعة. هل كان هذا ما قاتلوا من أجله؟ كانت قائمة التناقضات لا حصر لها. كانت عبارة: «عودة إنجلترا إلى وضعها الطبيعي» تثير السخرية لدى أولئك الذين قاتلوا في جوتلاند أو وادي السوم. بطبيعة الحال، لا أحد

8- راجع: Winton, J., The Victoria Cross at Sea.

9- تمّ تقديم بعض من تلك المبالغ إلى شقيقته ليلي (التي تحمل اسم والدته نفسه) بعد فترة قصيرة من الحرب لتمويل رحلتها إلى كندا.

كان يهتمّ لسماع ما حدث في معارك مقاطعة الفلاندرز. أراد الإنجليز أن ينسوا الماضي، والكثير من الحاضر أيضاً، كانت لديهم مآسيهم الخاصة ولم يكونوا يرغبون في تذكر مآسي الآخرين.

قال أحد المحاربين القدامى ممّن نجوا من المذبحة التي حدثت في معركة إيبر لقد ضاع الحلم العظيم بتحقيق حياة أفضل للبشرية. «لقد تصورت أنّه ستكون هناك حياة مدنية مختلفة للغاية»، أجابه مقاتل آخر حارب في مضيق الدردنيل: «نحن جميعاً مثلك». وقد حُكم على العائدين إلى الوطن بأن يكون جزاؤهم اللامبالاة، والشعور المرير بأنّه لم تعد هناك حاجة لهم، إضافة إلى افتقارهم إلى السكن وعدم وجود أمل في حصولهم على عمل. كانوا يرفعون أصواتهم تذمراً «إنّها الخيانة!» بكل ما تحمل الكلمة من معنى. ورغم انتصارهم الذي تحقق بشقّ الأنفس، انهار كلّ شيء داخلهم، واضطربت نفوسهم، وتمّ نسيانهم. لم يبقَ لديهم سوى أن يشعروا باليأس وإدمان الكحول. وقف الجنود السابقون في زوايا الشوارع حاملين لوحات الإعلان الخشبية، يتسولون بحثاً عن أيّ نوع من العمل لإطعام أسرهم، بينما كان ينام آخرون وهم يلتحفون البطانيات على ضفاف نهر التايمز.[10] وعلى ضفاف نهر الراين أو نهر الدانوب، بدا مثل هذا السلوك طبيعيّاً إلى حدّ بعيد. بعد كلّ ما حدث، كانت ألمانيا هي الخاسرة. لكن ليس في إنجلترا كما كان يقولون. ومع ذلك، كان ثمن نصر إنجلترا العظيم كارثيّاً، لأنّه جاء على حساب ضياع ثروات هائلة وأنهار من الدم، لم تحصل على شيء جديد في أعقاب الحرب لم تكن تمتلكه قبلها. كان يمكن التنبؤ بما سيحصل بكل ثقة: الدولة التي ربحت الحرب كانت تتجه إلى أوقات عصيبة. وماذا عن الملايين الذين قاتلوا وعانوا؟ هؤلاء أبطال لا عدّ ولا حصر لهم، ويا للأسف فإنّ تلك المآثر البطولية لم يسجلها أحد؟ طوال أربع سنوات دامية، كان الحماس لتحقيق النصر المجيد يتقد في أعماق قلوبهم. يحلمون بالعودة إلى الوطن الذي

10- راجع: Sydney Chaplin, Returning from the War

كان ينتظر عودة المحاربين الشجعان الذين خاضوا في الخنادق والسفن الحربية معارك دموية، العودة إلى الأرض التي وعدهم بها رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج «الأرض التي يستحقها الأبطال».

كانت حكاياتهم إحدى قصص الأبطال المجهولين.

لقد انتهينا من الحرب القذرة

لقد فزنا بما كنا نقاتل من أجله

... أم أنّنا لم ننتصر؟ لا أعرف...[11]

كان شرف الصبي كورنويل ملازماً لشجاعته الشخصية؛ كان دافعه هو أداء واجبه تجاه الملك والوطن، كما كان يفعل أيّ بحار بريطاني. ومن المؤسف أن هذا الشيء لم يقدره المسؤولون الحكوميون؛ في النهاية، فإنّ أولئك الذين انتفعوا من بطولته لم يكن لديهم الكثير ليفخروا به - انتهى بهم الحال إلى الإهمال كما هو حال من كانت تربطهم صلة دم مع أصغر بطل قومي في الحرب عرفته بريطانيا.

11- ختام قصيدة للشاعر روبيرت سيرفس.

جزيرة ويك المرجانية، 8 كانون الأول 1941

كننغهام وديفيرو وإيلرود، إنهم رجال حقيقيون

أرسل لنا (توقف الآن هو الوقت المناسب لجميع الرجال الطيبين لتقديم المساعدة لرجال مفرزتهم توقف كننغهام توقف)...

• **كلمات مشوشة لبرقية مرسلة من جزيرة ويك المرجانية في 11 كانون الأول 1941**

أول شيء لاحظه الرائد جيمس ديفيرو، من مشاة البحرية الأمريكية، بعد أن نفض عن رأسه آثار الانفجار، حشرة خنفساء سوداء تلمع وهي تسير فوق الرمال وتقترب من خده. حاول لبرهة من الزمن أن يغلق أذنيه حتى لا يسمع هدير المدافع، وصرخات الرجال اليائسة، والقعقعات المتتالية للمدافع الرشاشة. توجهت كتلة بشرية نحوهم. ثم انشطرت إلى وجوه أفراد وحراب مقرفة، كان الجميع يقاتلون من أجل البقاء وقد أحاط اليأس بالمقاتلين في الخطوط الأمامية حيثما كانوا، يسيرون على غير هدى في عالم من الضجيج المقرف والدخان المتصاعد. ثم خيّم صمت عميق وسقط في فراغ كبير. من مكان ما بالقرب من حافة الماء، خيّل إليه أنّه سمع صوت بوق واهن مما يعني أن هجوم العدوّ بدأ يتعثر. من

خلال الضباب الذي كان لا يزال يغشي عينيه، رأى الرائد ديفيرو شاطئاً محطماً ومليئاً بالجثث، وصورة بانورامية رهيبة للموت. ولكن الأمر الأكثر أهمية بالنسبة له هو أن رجاله صمدوا وتماسكوا. قد يكون هناك أمل بعد كلّ الذي حدث.

قبل وقت طويل من حدوث تلك المواجهة الدامية على شريط من الرمال يشبه عظم الترقوة يحيط بوسط بحيرة شاطئية زرقاء، تحميها الشعاب المرجانية ذات الإبر الحادة، كان أفضل وصف للموقع بأنّه «مكان مخلوق من العدم». لقد كان مكاناً مقفراً وساخناً، لا تنمو فيه سوى شجيرات ملتوية بعلو الخصر، ويمثل مرتعاً حصريّاً للطيور البحرية، وأنواع فريدة من الفئران الرملية التي تتغذى على بيض الطيور. كان الزوار الوحيدون لتلك الجزيرة هي السلاحف العملاقة. لم تتمّ الإشارة إلى المكان حتى في خرائط قدامى مشاة البحرية كنقطة توقف مؤقتة، حيث إنّه كان يفتقر إلى الحاجتين الضروريتين للسفن التي تمرّ عبر المحيط: ممرات ذات مياه عميقة ومصدر للمياه العذبة. وبعبارة أخرى، كان مكاناً لا يستحق بالتأكيد التوقف فيه.

في أعقاب الحرب الإسبانية الأمريكية التي اندلعت عام 1899، التي خاضها بشكل أساسي فوج سلاح الفرسان الذي أسسه تيدي روزفلت في كوبا، ورثت الولايات المتحدة تلك الجزيرة المرجانية في وسط المحيط الهادئ كإحدى النتائج الثانوية التي تمخضت عنها معاهدة السلام مع إسبانيا، ولم تعرف حقّاً ما يجب أن تفعله معها. ولكن بما أنّها أصبحت ملكاً لها، فقد بذلت الإدارة الأمريكية جهودها لإرسال سفينة لتستكشف ممتلكاتها الجديدة. وجدت تلك السفينة أرخبيلاً مرجانيّاً يتألف من ثلاث جزر منفصلة: ويلكس في الشرق، وبيالا في الشمال، والثالثة ويك، وهي أكبر جزيرة بينها، وهذا لا يعني أنّها جزيرة شاسعة حيث لا يستغرق السير من بدايتها إلى نهايتها سوى خمس عشرة دقيقة. قام المفتشون بتحديد المداخل البحرية للجزر المرجانية، وتعيين الشعاب المرجانية،

والحواجز المرجانية غير المرئية، بحيث يمكن لقباطنة السفن الهروب قبل أن تسحقهم العاصفة ويغرقوا في المياه العاصفة. نظراً لعدم وجود ممرّ حقيقي واضح من البحر يقود إلى البحيرة الداخلية، فإنّ جزيرة ويك، كانت من وجهة نظرهم، لا تحمل قيمة استراتيجية؛ اعتمدت الولايات المتحدة الأمريكية على أسطولها الضخم في المحيط الهادئ لتنفيذ استراتيجيتها الخاصة بالشرق الأقصى؛ كانت سفن الأسطول ترسو في ميناء بيرل في سلسلة جزر هاواي. في النهاية، لم يشجع تقرير اللجنة عن جزيرة ويك المرجانية على القيام بأيّ نشاط إضافي فيها. طوال الثلاثين عاماً التي تلت ذلك التاريخ، عاد ذلك الشريط الرملي في وسط المحيط الضخم ليغطّ في نومه.

في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، بدأت شركة خطوط جوية فتية، وهي بان أميركان أيرلاينز، تستكشف مسارات سفر جديدة. تمّ تجاهل مسار واحد، لأنّه حتى ذلك الحين لم يكن هناك طائرة قادرة على التحليق طوال هذه المسافات الشاسعة، مباشرة عبر المحيط الهادئ. طورت الشركة نماذج قوارب طائرة كبيرة بأربعة محركات تسمى كليبرز لتسهيل حركة المرور عبر المحيط الأطلسي وكان تركيزها منصبّاً على فتح خط طيران مباشر إلى الشرق الأقصى. وبسبب أن مساحة المحيط الهادئ تساوي ضعف مساحة المحيط الأطلسي، فقد برزت مشكلة التزود بالوقود في منتصف الطريق. انتهى المطاف بالتقرير عن جزيرة ويك، الذي أعدّه فريق المسح الأول، إلى أن يقبع في بعض الطوابق السفلية التي يعلوها التراب في مباني الشركة. اكتشف أحد مخططي شركة بان أمريكان وهو يطالع في أطلس المدرسة التي يدرس فيها ابنه بقعة صغيرة في وسط كتلة ماء زرقاء كبيرة، تحمل ألوان علم الولايات المتحدة فقال في نفسه: يبدو أنّنا نمتلك قطعة من الأرض في وسط المحيط الهادئ؛ وهذه يمكن أن تكون نقطة مثالية للتزود بالوقود.

أرسلت شركة بان أمريكان سفينة لتفحص كومة الرمل الوطنية المعاد

اكتشافها. عثر الطاقم على عقارب وأفاع وفئران ومجموعة من الأشجار القصيرة، لكن أفراده وجدوا أيضاً بحيرة داخلية محمية، والتي كانت مثالية للغرض الذي جاؤوا من أجله. كانت مياهها محمية بحاجز من الشعاب المرجانية الخارجية وكانت هادئة دائماً مما يجعلها مناسبة لتكون موضع هبوط للطائرات، وكانت مياهها عميقة بدرجة كافية لاستيعاب قارب طائر كبير. ثم جاءت مسألة البنية التحتية، وخزانات الوقود، والأرصفة، وتشييد حظيرة لإصلاح الطائرات، وبناء مساكن لطاقم الدعم الأرضي، وفندق للمسافرين الذين يقومون بتبديل الطائرات في الجزيرة المرجانية. كان بناء أيّ شيء على الجزيرة يوعد بأن يكون مهمة كبيرة؛ فهي ترتفع في أعلى نقطة لها، بمقدار ستة أمتار فقط عن مستوى المدّ العالي، وبالتالي كانت عرضة للغرق بالأمواج أثناء هبوب أعاصير المحيط الهادئ. ولكن عندما تكون هناك إرادة يكون هناك حلّ، وحينها تلاقت براعة المخططين الأمريكان مع أطقم البناء الماهرة لتشرع في عمليات الحفر وصبّ الخرسانة. ظهر إلى الوجود مبنى متكامل. في ربيع عام 1935، حطّت أول طائرة قارب من شركة بان أمريكان على البحيرة المتلالئة مثل البلور. نزل ركابها، وهم يتجولون في الجزيرة بحماس وقد تخيل كل واحد منهم نفسه كأنه كولومبوس القرن العشرين و قام باكتشاف عظيم. ولكي يحملوا معهم أدلة على الإنجاز الذي حققوه عند عودتهم «إلى العالم الحقيقي»، التقطوا صوراً بعضهم لبعض. وهذا منح كلّ مسافر جريء مواد لا حصر لها ليعرضها في حفلات التعارف القادمة التي سيحضرها سواء في فيلادلفيا أو بوسطن.

«ماذا، لم تسمع من قبل بجزيرة ويك؟».

«أليست تلك التي تقع في مكان ما قبالة ساحل ألاسكا؟».

أوضح المستكشف الذي عبر المحيط الهادئ الأمر قائلاً: «إنّها تقع في منتصف المسافة التي تفصل ما بيننا وبين اليابانيين» وقام بإخراج قوقعة أهداها له كتذكار أحد أفراد الطاقم الأرضي في جزيرة ويك.

كانت أيام رحلات الاستكشاف بقبعات السفاري وتناول وجبات الطعام بالسكاكين الفضية على متن القارب الطائرة تقترب بسرعة من نهايتها. بحلول نهاية الثلاثينيات، كان العالم يتجه نحو انفجار هائل. وقع هتلر صفقة ما عرف بالسلام من أجل عصرنا (اتفاق ميونيخ) لكنه لم يكن ينوي الالتزام بها. كانت اليابان قد غزت بالفعل جزءاً كبيراً من منشوريا، حيث شنّت حرباً شاملة بمعدات آلية متطورة ضد مجموعة من القوميين والشيوعيين الصينيين الذين لم يكونوا يمتلكون معدات تسليح جيدة. لأجل إكمال قبضتها التوسعية على نصف الكرة الآسيوي وتزويد آلتها الحربية المتخمة بالسفن والطائرات والدبابات الشرهة للوقود، كانت اليابان في أمسّ الحاجة إلى النفط؛ عندما رفضت الولايات المتحدة بيعه لها، ركزت اليابان نظرها على إندونيسيا الهولندية واحتياطياتها النفطية الهائلة في جزر سومطرة وجافا وإريان جايا. من أجل الوصول إلى حقول النفط الغنية تلك، اضطرت الجيوش اليابانية إلى تجاوز مستعمرات التاج البريطاني في هونغ كونغ وسنغافورة، وهذا من شأنه أن يجعل إمبراطورية الشمس المشرقة في صراع مع القوى الأوروبية المتحالفة مع الولايات المتحدة مع تورط أوروبا في حرب مدمرة، واستنزاف المملكة المتحدة لمواردها إلى الحدّ الأقصى، أصبحت اليابان قوة لا يستهان بها في الشرق الأقصى. لم تبقَ في الساحة سوى الولايات المتحدة، والتي باتت تشعر بقلق متزايد إزاء الخطر الذي تشكله الجيوش اليابانية على مصالحها ونفوذها العسكري في الفلبين. كان القوميون اليابانيون المتطرفون على استعداد لتحمل مخاطر محسوبة. كان صوت المعارضة الوحيد لمخططاتهم هو صوت الأدميرال ياماموتو، قائد البحرية اليابانية، الذي تجرأ على تحذير إمبراطوره حين قال له: «صاحب الجلالة الإمبراطورية، بإمكاني أن أضمن لكم تحقيقنا النصر لمدة ستة أشهر. لكننا بعد ذلك، سنخسر الحرب».

إنّها لحقيقة أن الجيوش اليابانية لم تخرج لسحق الولايات المتحدة

في حرب عرفوا أنّهم لن يتمكنوا من الانتصار فيها أبداً. لقد عملوا وفقاً لمبدأ بسمارك ليسجلوا انتصاراً سريعاً ويعرضوا «سلاماً مشرفاً مع الحصول على تنازلات». إذا كان الهدف النهائي لليابان هو إنشاء اتحاد آسيوي أكبر، تسيطر عليه من طوكيو ويشمل الصين المسالمة، فإنّ ذلك الأمر كان يحتاج إلى الحدّ من طموحات أمريكا في جنوب شرق آسيا. ولتحقيق هذا الهدف تمّ التخطيط لغزو سريع لمناطق معينة، وهذا ما دعا اليابان مرة أخرى إلى القضاء على أكبر تهديد لطموحاتها التوسعية، وهو أسطول المحيط الهادئ الأمريكي.

كان المخططون الاستراتيجيون الأمريكان على الجانب الآخر من المحيط الهادئ يبحثون الموقف؛ أصبح من الواضح بالنسبة لهم أن تجارتهم في الشرق الأقصى باتت في خطر، وأن ذلك الأمر لا بدّ من أن يؤدي في النهاية إلى حدوث مواجهة مع اليابان. وفي خطاب له إلى الأمة حذر الرئيس روزفلت من أن: «الحرب باتت على مشارف نصف الكرة الغربي. إنها تقترب جدّاً من الوطن...» تمّ تقديم المذكرة الأولى لإجراءات الدفاع عن غرب المحيط الهادئ إلى الرئيس روزفلت من قبل قادة القوات المشتركة تحت الاسم الرمزي «رينبو»: ولم تشمل هذه الإجراءات جزيرة غوام أو الفلبين... لمنع انتهاك نص وروح مبدأ مونرو في المحيط الهادئ وكذلك جزر هاواي، وويك وساموا...، لكن كان من الطبيعي أن تضطر أمريكا إلى الدفاع عن مصالحها ونفوذها في أوروبا.

سرعان ما تعامل المخططون العسكريون الأمريكيون مع الموقف بشكل صحيح. فبالنظر إلى اتساع رقعة المحيط الهادئ، اعتبروا أن أيّ معركة في المستقبل ستجري بأحدث سلاح موجود في ترسانة الأمم الحديثة -وهو سلاح القوة الجوية. فالهجمات الجوية ستجعل البوارج الحربية تحت رحمتها، وربما تصبح في خبر كان. وقد بنى هتلر استراتيجية الحرب الخاطفة، التي استخدم فيها طائرات اليونكرز يو. 87 لتكون بمثابة (مدفعية محمولة جوّاً) على هذا الأساس بدأت البحرية

الأمريكية بالتخطيط لمواجهة هذا الاحتمال. احتاجت الطائرات المقاتلة إلى منصة للإقلاع والهبوط؛ ويمكن أن تكون حاملة طائرات أو شريطاً من الأرض. كان أحد هذه المواقع، والذي كان بمثابة منطقة هبوط ثابتة في منتصف المحيط ومكان للتزود بالوقود، هو جزيرة ويك أتول.

في شباط 1941، بينما كانت لندن ترزح تحت وطأة الحرب الخاطفة وطبول الحرب تقترب من الولايات المتحدة، تعاقدت وزارة الدفاع الأمريكية مع طاقم عمل مكون من ألف شخص، تحت إشراف دان تترس المهندس الأيرلندي القوي الشكيمة، الذي كان «حائط الصدّ لهجمات الخصم» حين كان يلعب مدافعاً في فريق كرة القدم في جامعة واشنطن. طوال الأشهر العشرة التالية، قام طاقمه بأعمال الحفر والتسوية ولم يستطع أيّ شيء أن يوقف حماسهم للعمل، لا الحرارة الشديدة ولا العواصف المدمرة. تمّ تخليص شريط الهبوط من المرجان العالق فيه بواسطة المتفجرات. ارتفعت صهاريج تخزين الوقود؛ كانت الأكواخ الصغيرة تدمج معاً لتصبح قادرة على إيواء أفراد قوة بحجم كتيبة. كانت دفاعات الجزيرة المرجانية الرئيسة عبارة عن ستة مدافع بحرية من عيار 5 بوصة، تمّ جلبها من طراد يعود إلى أيام الحرب العالمية الأولى ونصبها في ثلاثة مواقع استراتيجية: كوكو في جزيرة ويلكس، وبيكوك في جزيرة ويك، وتاكي في جزيرة بيل. ولغرض دعم هذه المدفعية الثقيلة تمّ نصب اثنتي عشرة قطعة من المدافع المضادة للطائرات من طراز 3 بوصة.

كان هناك ثمانية عشر مدفعاً رشاشاً ثقيلاً من عيار 50 بوصة وثلاثون مدفعاً متوسطاً من عيار 30 بوصة تقوم بحماية بطاريات المدفعية من هجمات برية محتملة. ظهر أن من الصعب للغاية نصب قضبان الأسلاك الشائكة وسط الشعاب المرجانية؛ لكن الطبيعة وفّرت للجزيرة المرجانية دفاعاتها ضد أيّ هجمات قد تقوم بها السفن، وكانت عبارة عن شعاب مرجانية ذات رؤوس مرجانية حادة تعمل مثل مثرمة اللحم فأصبحت

وسائل دفاعية تحيط بالجزر الثلاث وبحيرتها الداخلية. كانت المهمة الرئيسة للجزيرة المرجانية أن تكون بمثابة قاعدة للاستطلاع الجوي لاستكشاف حركات العدوّ البحرية، وقوة اعتراض سريعة لإطلاق مهام اعتراض خطوط إمداد العدوّ. كان الوقوف في وجه غارات يقوم بها بضعة أفراد أو تجار غير مسلحين شيئاً؛ والصمود في وجه هجوم كبير الحجم شيئاً آخر تماماً. ولم تكن جزيرة ويك مهيأة ومستعدة لمثل هكذا احتمال.

كانت الوحدة النظامية الأولى (والوحيدة) التي وطأت قدمها أرض الجزيرة هي الوحدة 449 لمشاة البحرية الأمريكية من كتيبة الدفاع الأمريكية الأولى، المعروفة باسم كتيبة ويكز، وقد وضعت تحت قيادة مقاتل محترف يبلغ من العمر 38 عاماً، هو الرائد جيمس ديفيرو. الذي وُلد في كوبا، وتلقى تعليمه في الولايات المتحدة وسويسرا، وانضم إلى سلاح مشاة البحرية في عام 1923 وحصل على ترقيته أثناء قتاله قطاع الطرق في غابات نيكاراغوا والفلبين. كان نحيفاً وطويل القامة ويتميز بجمعه ما بين القوة والسلطة. كان طياراً مجتهداً، وذكيّاً، ومنظماً بشكل كبير ونشطاً. في سنوات ما بين الحربين، لم تكن البحرية الأمريكية تقدم الكثير من الإغراءات المستقبلية لشاب يطمح في التقدم في الحياة؛ كان قد تلقى عرضاً سخيّاً من شركة طيران مدنية. ولكنه كان يرغب بشدة في البقاء في قوات مشاة البحرية الأمريكية، أو في الواقع، لصنع النسخة الأمريكية من أرخبيل الغولاغ (إشارة إلى معسكرات الاعتقال الروسية في عهد ستالين – م)، وليقود مجموعة جوية ويتوجه بها نحو جزيرة ويك المهجورة.

الجانب الإيجابي في الموضوع هو أنّه أعطاه فرصة للعمل مع الطيارين الحربيين وفي مجال الطائرات المقاتلة. وقبل بهذا المنصب، على الرغم من أنّه كان واضحاً للجميع أنّه إذا أراد البقاء في القوات البحرية، فلم يكن أمامه خيار آخر. كان يرتدي دائماً بدلات عادية، وكان العديد من المقربين منه يعتقدون أنّه لا يشعر بالراحة تجاه البهرجة التي تصاحب رتبة رائد في

المارينز، واتفق الجميع في الجزيرة على أنّه على الأقل كان أشهر الضباط القادة على الإطلاق. كان أغلب أفراد وحدته من قدامى المحاربين، ومن المجندين الذين لم يتلقوا تدريباً عالياً؛ وجميعهم كانوا من مشاة البحرية الأمريكية، وهو لقب حملوه بكل فخر. اعتبرت جزيرة ويك قاعدة تدريب جيدة لأنّه لم يكن من المتوقع حدوث شيء كبير هناك. في الواقع، لم تكن ويك مثل جزيرة هاواي: لم تكن في جزيرة ويك لا نساء ولا بيرة على الإطلاق، بل وليس هناك أيّ شيء على الإطلاق.

كان جميع منتقدي العملية في واشنطن يعتبرونها غير ذات جدوى. فإرسال 449 فرداً من مشاة البحرية إلى جزيرة صحراوية، والذي كان يتعين إطعامهم وإكسائهم ومن ثم تركهم هناك، كان بمثابة هدر واضح لأموال دافعي الضرائب. لم يكن هناك فيها شيء يجعلهم يفتخرون به ولم تكن تعد بحدوث تطور ما في القرن القادم. في أحسن الأحوال، كانت الكتيبة متجهة إلى مكان لا يكاد يُشار إليه حتى كقوة احتياطية، وكانت الفرصة الوحيدة لترقية ضباطها هو المشاركة في ساحات القتال التي يضرب بها المثل. وفي داخل أمريكا لم يزعج أحد نفسه في طرح أسئلة حول قضايا الاستعداد والتدريب والتحفيز لها. وكان الوحيد الذي تقلقه مثل هذه التفاصيل هو الرائد ديفيرو ولكي يحافظ على رجاله من الاستسلام لحالة من السبات العميق في مكان يشجع فعليّاً على عدم النشاط، وعدا عن الركض ذهاباً وإياباً وهم يغنون، وتحية الضباط، فإنّ الرائد ديفيرو واظب على جعلهم يعملون من الفجر حتى الغسق؛ فوزع عليهم عدداً من المجارف وطلب منهم ملء أكياس من الرمل. لم يكن هناك نقص في الرمال؛ فكانوا يعملون في ملء الأكياس، وتكديسها، ودفع عربات اليد التي كانت مكتظة بها. كان لا بدّ من تخليص كلّ بقعة من الجزيرة من المرجان بواسطة المتفجرات. لحسن الحظ، كان لدى فريق العمل المدني كمية وافرة من الديناميت.

حوّل أفراد قوات المارينز الجزيرة من خلال العمل تحت إشراف

المهندسين المدنيين، إلى متاهة من مواضع المدافع الرشاشة إلى جانب الخنادق المغطاة المتصلة، بالإضافة إلى منشآت مستشفيات الطوارئ، ومخازن للأسلحة والمواد الغذائية ومستودعات الذخيرة. كان كلّ شيء مموهاً بعناية بالرمال. وكان لا يمكن رصد أيّ شيء من الجوّ، ولكن على الأرض تحولت جزيرة ويك إلى ما يشبه قنفذاً أشواكه بارزة. لسوء الحظ، كان الرائد ديفيرو لا زال يفتقر إلى معدات مكافحة الحرائق الملائمة وما يكفي من أجهزة الرصد لتحديد المديات لمدافعه الثقيلة. قام الرائد بتقديم طلب لتزويده بهذه المعدات، ولكن كان مصيره البقاء مدفوناً تحت كومة من الأوراق على مكتب ضابط التموين في الجيش الأمريكي، ولم تصل المعدات أبداً، وانطبق الأمر نفسه أيضاً على بقية وحدات البحرية الأمريكية. ربما اعتبر بعض ضباط تموين الوحدات العسكرية دعم معقل ديفيرو هذا مضيعة للوقت. بعد كلّ ما سبق ظلّ المحيط الهادئ حتى حلول شهر تشرين الثاني 1941بحيرة هادئة.

في 28 تشرين الثاني، تولّى قائد البحرية الأمريكية وينفيلد سكوت كننغهام، الذي تخرج عام 1921، والخبير في الطيران البحري، قيادة قاعدة ويك. كان كننغهام يتحدث بهدوء رغم أنّه كان طياراً مقاتلاً ونشطاً، وكان قد ارتقى في المنصب منذ طيار تحت التدريب في مدرسة تدريب الضباط إلى مسؤول عن قاعدة عسكرية تدافع عن جزيرة تقع في مكان مهجور. عاد الرائد ديفيرو إلى دوره كقائد للقوات البرية المتمركزة في الجزيرة المرجانية. مع اقتراب سحب الحرب الصاعقة، انطلقت طائرة قاذفة من طراز بوينغ بي. 17(القلعة الطائرة) ذات الأربعة محركات من كاليفورنيا متوجهة إلى الفلبين. وكانت أول من افتتح مهبط الطائرات الجديد في جزيرة ويك، وكانت عملية الهبوط فيه تستغرق فترة طويلة، ولم يكن مجهزاً بمضخات آلية مناسبة لعملية تزود بالوقود بسعة 3000 جالون لكل طائرة من الطائرات ذات المحركات الأربعة. بعد الانتهاء من تكديس الأكياس الرملية الخاصة بهم، صدرت الأوامر إلى أفراد قوات المارينز

بالبدء فوراً في ضخّ الوقود بشكل يدوي من براميل سعة 40 جالون كانت مكدسة بجانب الشريط الرملي. سارع الطيارون إلى تحذير أفراد أطقم التزويد بالوقود الذين كانوا يتصبب منهم العرق: «تأكدوا من عدم دخول الرمل إلى الخزانات». أيّ نوع من الطلب كان هذا في جزيرة تهب فيها الرياح المليئة بالرمال لمدة 365 يوماً في السنة؟ كان العرق يتصبب من العمال القليلي الخبرة، وكانوا يكيلون الشتائم وهم يضخون الوقود، وغمرتهم السعادة عندما حلقت آخر طائرة من طراز بي. -17 في الجوّ.[1]

في 4 كانون الأول جرى حادث مثير جديد كسر روتين حياتهم اليومية. على بعد مئتي ميل إلى الشمال الشرقي من جزيرة ويك، استدارت حاملة الطائرات يو. أس. إنتربرايز عكس اتجاه الريح وانطلقت منها اثنتا عشرة طائرة مقاتلة من طراز غرومان إف. 4 إف. وايد كات من سرب مشاة البحرية 211. بعد مرور ساعة، هبطت تلك الطائرات في جزيرة ويك[2].

اشتكى الرائد بول بوتنام، قائد السرب إلى مساعده التنفيذي النقيب هنري تي. هانك إيلرود، قائلاً: «سحقاً، انظر إلى كلّ تلك الرمال، وليس هناك ملاجئ صلبة هانك إيلرود». كان لدى بوتنام سبب وجيه للانزعاج؛ فقبل أن يتولى قيادة السرب في 17 تشرين الثاني، حصل على تأكيدات بوجود ملاجئ لطائراته الثمينة حتى لا تذروها الرياح إذا ما هبت «عاصفة في المحيط الهادئ».

أجابه مساعده على نحو غير متوقع: «إلى أن يتمّ بناء تلك الملاجئ، ليس أمامنا سوى أن نعمل بما لدينا»، كان هذا المساعد صبي ريفي بطيء الكلام من ولاية جورجيا، له نظرة صبيانية طيبة وقد أمال قبعته إلى

1- تمّ محو أسطول طائرات بي 17، المتمركز في الفلبين بأكمله، كأنّه مجموعة من البط الراكد على المدرج في اليوم الأول من الحرب، بسبب خطأ ارتكبته القيادة العليا. فقد نسي الجنرال ماك آرثر إبلاغ قائد القوة الجوية للولايات المتحدة بالهجوم على بيرل هاربور والذي حدث قبل ساعات.

2- بسبب هذا الإجراء، كانت حاملة الطائرات هذه ذات الأهمية العظيمة بعيدة عن مكان رسوّها في بيرل هاربور صبيحة يوم شنّ الهجوم الياباني.

الجانب. لم يكن هنري تي. إيلرود مختلفاً عن جميع الأطفال الذين نشؤوا في سنوات الكساد في جنوب أمريكا: لعب كرة البيسبول في صغره، وكرة القدم عندما أصبح في المدرسة الثانوية، وكان يخوض مع الفتيات في أحاديث جنسية في سيارة والده الفورد إلى أن شهدت مدينته في أحد الأيام عرضاً لما يعرف بالسيرك الطائر. أصيب الشاب هانك بالذهول وهو يحدق إلى الحركات الجريئة التي يقوم بها الطيارون البارعون وهم يقومون بالألعاب البهلوانية. وأنفق كلّ ما كان يملكه من مال حصل عليه بمشقة ليكون على متن واحدة من المحركات الطائرة الفاخرة تلك. كانت تلك هي المرة الأولى التي ينظر فيها إلى الأرض من أعالي السماء. منذ ذلك اليوم صمم على أن يكون طياراً. أرسله والداه إلى جامعة جورجيا ثم إلى جامعة ييل. كانت أسرع وسيلة لتعلم الطيران هي الانضمام إلى قسم الطيران في سلاح مشاة البحرية الأمريكية. انضم إليه هنري إيلرود في عام 1927، وأصبح طياراً في عام 1931، ووضع في ذلك الوقت حجر الأساس لأول برنامج لتدريب الطيارين النخبة من سلاح البحرية على أساليب وتقنيات الاشتباك في الجوّ، المعروف أكثر باسم TOPGUN.

عدا ما كان يتمركز بالفعل في الجزيرة من المقاتلين والأسلحة والإمدادات، لم تتمّ إضافة شيء آخر. تمّت إعادة السفينة الحربية ويليام وارد بوروز، التي كانت تحمل على متنها كتيبة مشاة البحرية بهدف تعزيز القوات في جزيرة ويك، إلى جزيرة جونستون. لم يبقَ من القوات الأمريكية في المنطقة سوى طرادين غواصين هما، يو. أس. أس. تريتون ويو. أس. أس. تامبور، لكن كانا لا يتحركان إلّا وفق أوامر تصدر من قيادة القوات البحرية في بيرل هاربور.

في 7 كانون الأول[3]، هبطت طائرة قارب تابعة لشركة بان أمريكان تدعى فيلبين كلبير في البحيرة، لتنقل البريد لسلسلة من القواعد العسكرية

3- 7 كانون الأول / 1941، كان مجرد يوم آخر مثل اليوم الذي سبقه، أو الذي سيتبعه، وأن كلّ ما كانوا يفعلونه هو النظر إلى السحب وهي تمرّ في السماء.

الأمريكية في المحيط الهادئ، ولكن من دون مسافرين. عند الظهر تقريباً، أطلق الرائد ديفيرو نداء إلى «جميع المقاتلين»، وهو فحص روتيني لاختبار مدى استعداد دفاعات الجزيرة. وما إن حلّ يوم الأحد (وكان يصادف السبت 6 كانون الأول في جزر هاواي والولايات المتحدة)، منح أفراد كتيبته عطلة لبقية اليوم، للاسترخاء في الظل، ولعب النرد أو كتابة الرسائل إلى الأهل. وقد كتبوا فيها أن هذا اليوم، وفي الوقت نفسه، حددت الولايات المتحدة، منذ أن وقّع اليابانيون معاهدة ثلاثية الأطراف مع ألمانيا بزعامة هتلر وإيطاليا تحت حكم موسوليني في عام 1940، الخصم المحتمل في المحيط الهادئ. وقد بذلت جهود كبيرة لجمع أكبر قدر ممكن من الأدلة التي تعزز التحذيرات المسبقة بشأن نوايا اليابان. قام العقيد ويليام فريدمان، وهو عالم تشفير بارز في جهاز الاستخبارات الإشارية في الجيش الأمريكي، بمساعدة هاري لورانس كلارك، بصنع آلة لفك الشفرات تسمى «ماجيك»، كانت قادرة على فك رموز الرسائل الدبلوماسية السرية لليابان. قبل وقت قصير من ظهر يوم السبت، 6 كانون الأول 1941، قامت اختصاصية التشفير، دوروثي إدجرز، التي تعمل في مكتب الاستخبارات البحرية الأمريكية حيث توجد الآلة «ماجيك»، بفك تشفير رسالة سرية للغاية مرسلة من طوكيو إلى السفارة اليابانية في واشنطن، تحدد فيها جزيرة هونولولو كهدف للهجوم الياباني القادم. أبلغت رئيسها على الفور. ومع ذلك، نظراً لأن ذلك اليوم صادف عطلة نهاية أسبوع، وبما أن السيدة إدجرز كانت قد أضيفت حديثاً إلى قسم فكّ التشفير في القوات البحرية، فإنّ تحذيرها المثير لم يؤخذ على محمل الجدّ. وقيل لها «يمكن أن تنتظر حتى يوم الإثنين»، وهكذا فإنّ معلومات حيوية - كان يبدو أن لا أحد قد صدقها - قد تمّ وضعها على الرفّ. لم يكن هذا كلّ شيء. في الساعة 05:00 من يوم الأحد، تسلّم رئيس أركان الجيش الأمريكي، الجنرال جورج مارشال، إشارة أخرى، والتي ذكرت مجدداً أن الهجوم الياباني كان وشيكاً، على الرغم من أن إشارته لم تحتوِ على تحديد الهدف بدقة، كما هو حال إشارة السيدة إدجرز. كان الجنرال مارشال، في

رحلة على ظهور الخيل، ولم يصل إلى مكتبه إلّا في الساعة 11:30 صباحاً، وفي ذلك الوقت أمر بإرسال برقية إلى جميع الحاميات الأمريكية البعيدة. أدّى هبوب عاصفة قوية امتدت عبر المحيط الهادئ إلى إحداث تشويش على عملية استلام البرقيات. استلم عدد قليل من الحاميات التحذير بشكل واضح، وشمل ذلك الحاميات الموجودة في الفلبين ومنطقة قناة بنما. أمّا الحاميات الأخرى فلم تستلم سوى جزء من البرقية ولم تتمكن من فهمها. لكن بعض الحاميات لم تسمع حرفاً واحداً منها. وكانت إحداها فورت شافتر، مركز اتصالات الجيش الأمريكي في جزيرة هاواي.

كانت الساعة تشير حينها إلى 07:55 (بتوقيت هاواي)، من يوم الأحد 7 كانون الأول في بيرل هاربور، عندما قام القائد ميتسوي فوشيدا من القوات الجوية والبحرية للإمبراطورية اليابانية، بقيادة سرب مؤلف من 183 طائرة، لشنّ غارة جوية مباغتة على الأسطول الأمريكي القابع في ميناء بيرل هاربور، ومع تعالي صيحات تورا! تورا!(ومعناها نمر باللغة اليابانية وكانت إشارة إلى بدء الغارة – م) دخل العالم في صراع شمل كوكب الأرض بأكمله. بدون إعلان للحرب، أغرقت أمواج من الطائرات المقاتلة اليابانية جزءاً كبيراً من أسطول المحيط الهادئ الأمريكي. بحلول الساعة العاشرة صباحاً (بتوقيت هاواي)، تسبب هجوم اليابان المفاجئ بغرق عدة سفن حربية أمريكية أو تعرضها للتلف غير القابل للإصلاح كان من بينها السفينة أريزونا، وكاليفورنيا، وفرجينيا الغربية، وأوكلاهوما، وتينيسي، وميريلاند، وبنسلفانيا، ونيفادا ويوتا، والطرادات يو. أس. هونولولو، وهيلينا ورالي، والمدمرات كاسين، وداونز، وشاو، وحاملة الطائرات المائية كورتيس. علاوة على ذلك، وفي هجمات متزامنة على مطارات جزيرة هاواي، تمّ تدمير 188 طائرة أمريكية على الأرض، بينما تضررت 159 طائرة أخرى. وبشكل إجمالي، قُتل 2403 بحاراً وجنديّاً ومدنيّاً. أثار هذا الهجوم غير المبرر وغير المعلن الغضب في جميع أنحاء أمريكا وزاد من شهية رعاة البقر من أجل القيام بعمليات انتقام منه.

عبر خط التوقيت الدولي الذي يمتد إلى الشرق من هاواي، أشرقت الشمس الحمراء عند خط الأفق في المحيط الهادئ الممتد إلى لانهاية. وبين لحظة وأخرى، وبعد أن كان رجال كتيبة الدفاع الأمريكية الأولى لقوات المارينز في جزيرة ويك يراقبون السحب وهي تمرّ في السماء، وجدوا أنفسهم في اليوم التالي وقد دخلوا في حالة حرب. حلّ الفجر على جزيرة ويك يوم الإثنين 8 كانون الأول 1941 (الأحد 7 كانون الأول، حسب توقيت منطقة هاواي). في الساعة 06:00 (وقت الاستيقاظ)، نادى صوت البوق العسكري مفرزة الواجب إلى الشروع بمراسيم رفع العلم الصباحية. الشيء الوحيد الذي غيّر الروتين اليومي هو إقلاع طائرة بان أيبر فلبين؛ في الساعة 06:30، اختصر القارب الطائر الضخم الطريق نحو جزيرة ويك عبر المرور فوق البحيرة، ثم حلق بشكل منخفض فوق السارية التي يرفرف عليها علم الولايات المتحدة وسط نسيم الصباح، قبل أن يرتفع متوجهاً فوق المحيط – نحو جزيرة غوام. كانت الساعة حينها تشير إلى 06:50. حين شاهدوا، مثل أيّ شخص آخر، الطائرة كليبرز المهيبة وهي تقلع، دخل اثنان من الجنود المناوبين في فيلق سلاح الإشارة الأمريكي إلى كوخهم للتحضير لأعمالهم الروتينية اليومية المعتادة عند الساعة 07:00 (وكانت توافق الساعة 10:40 في بيرل هاربور) عندما انطلق نداء عبر جهاز اللاسلكي من مقرّ قيادة البحرية الأمريكية في المحيط الهادئ في حقل هيكهام في هاواي. كان صوتاً حماسيّاً يصدر من مكبر الصوت: «نحن نتعرض للهجوم... نحن نتعرض للهجوم... هذه ليست تدريبات، وأكرر، هذه ليست تدريبات... إنها قاذفات انقضاضية... هؤلاء الأوغاد في كلّ مكان...» قاطعت المتحدث لحظات من الانفجارات العالية «... أستطيع أن أرى علم بلادهم على أجنحة الطائرات... هناك يابانيون أوغاد في كلّ مكان... هذه ليست تدريبات...» لقد حدث ذلك فجأة لدرجة أن رئيس مركز الاتصالات في جزيرة ويك، النقيب هنري ويلسون، من فيلق سلاح الإشارة للولايات

المتحدة جلس مذهولاً أمام صندوق جهاز اللاسلكي، قبل أن يركض إلى مقرّ ديفيرو، حيث وجد الرائد يقوم بحلاقة ذقنه.

«سيدي الرائد، نحن في حالة حرب».

«بالله عليك أيها النقيب، اهدأ قليلاً».

«كلّا، إن الأمر حقيقي. اليابانيون يقصفون بيرل هاربور».

«يا إلهي» هرع ديفيرو على الفور لرؤية قائد القاعدة، المقدم كننغهام، حيث وجده يتناول وجبة الإفطار على مهل في مقصف طاقم البناء، ويناقش مجريات العمل مع دان تيترز.

«أيها القائد، يجب أن أتحدث إليكم».

استأذن كننغهام من تيترز، وغادر المكان تاركاً إياه لينتهي من وجبة الإفطار. عندما أبلغه ديفيرو بالأخبار، لم يصدقها كننغهام. لكن برقية كانت قد وصلت للتوّ من بيرل هاربور أكدت حدوث الهجوم.

دوّت صفارات الإنذار في جزيرة ويك، كما هو الحال في جميع النقاط البعيدة في الولايات المتحدة عبر المحيط الهادئ.

اصطفت قوات المارينز الأمريكية بكامل عدتها وعددها تحت العلم الأمريكي.

(كتيبة: انتباه)

وقف جميع الرجال البالغ عددهم 449 فرداً وهم يرتدون فانيلات (تي شيرتات) وسراويل خاكية اللون بشكل مرتب بينما كان المقدم كننغهام يسير بضع خطوات تحت العلم الأمريكي، الذي كان يرفرف في نسيم الصباح.

«أيها الرجال، تلقيت للتوّ الرسالة التالية من قائد أسطول المحيط الهادئ

7 كانون الأول 1941. من وزير البحرية. إلى جميع السفن ومحطات الأسطول الأمريكي. وقّع رئيس الولايات المتحدة اليوم أمراً يعلن فيه قيام الحرب بين الولايات المتحدة وإمبراطورية اليابان...».

لم يكن الأمر يحتاج إلى تفسير؛ لقد فهموا معنى ذلك. أصبحت الولايات المتحدة متورطة في هذا الصراع العالمي. وكذلك جزيرة ويك، كونها واحدة من الأراضي الأمريكية الأقرب إلى إمبراطورية الشمس المشرقة، وبذلك أصبحت كتيبة الدفاع الأولى من فيلق مشاة البحرية الأمريكية، تمثل فجأة الخط الأمامي للدفاع عن أمريكا!

صدرت الأوامر إلى الجندي هارولد بورث والرقيب جيمس هول ليتولى مهمة المراقبة من أعلى نقطة في الجزيرة، وهي خزان المياه. لم يتعدَّ مدى رؤيتهم أكثر من ميل بسبب العاصفة المطرية التي هبت بالقرب من الجزيرة المرجانية. انشغلت أطقم المدافع البحرية من عيار 5 بوصة والمدافع المضادة للطائرات من عيار 3 بوصة في حشوها بالقذائف. لم يتمّ إخبار أطقم البناء المدنية حتى ذلك الحين؛ فكانوا يتبادلون النكات فيما بينهم في حين كان أفراد وحدات مشاة البحرية يزودون مواضعهم بالذخيرة الحية.

ابتسم سائق الجرافة إريك ليتولا، ابتسامة عريضة وهو يقول: «ألا تبالغون أيها الرفاق في تدريباتكم».

التقط الرقيب ريموند غراج بندقيته الرشاشة من كيس الرمل الذي خلفه وأجابه: «ليست هذه تدريبات، يا صديقي، اليابانيون قادمون».

«هل تقول الحقيقة؟» تمتم ليتولا، فاغراً فمه. مع تسارع انتشار الأخبار في المخيم، رمى حفارو الخنادق مجارفهم على الأرض، وأوقف السائقون شاحناتهم، ودخلوا جميعاً في نقاش ساخن: «... لا بدّ أن سفننا الحربية في طريقها... ولا بدّ أن قاذفات بي 17 تقصف الآن قصر الإمبراطور في طوكيو... لا شيء يدعو للقلق، وسترون، خلال يوم أو يومين، سيتمّ سحق اليابانيين وسيعود كلّ شيء إلى طبيعته...» كانت تلك مجرد تمنيات.

أطلع الرائد بوتنام طياريه على الموقف بشكل موجز. أعدّ الميكانيكيون في الطاقم الأرضي الطائرات لكي تتهيأ للإقلاع في غضون دقيقتين. تلقت

طائرة بانام فليبين، وهي في طريقها إلى جزيرة غوام، من خلال الاتصال بها عبر اللاسلكي تحذيراً من قبل مدير محطة شركة الطيران، جون كوك من الخطر المحيق بها؛ فاستدار طيارها ونزل وسط البحيرة في هبوط اضطراري. كان كننغهام وديفيرو يعقدان اجتماعاً: «إلى أن نعرف ما الذي سيحصل معنا، يجب أن نلتزم بالقيام بأعمالنا الاعتيادية. لا يوجد أيّ داع لإثارة حالة من الذعر العام».

«ماذا سنفعل مع المدنيين؟» أراد ديفيرو أن يعرف.

«دعنا نمنحهم خياراً. يمكنهم مساعدتنا أو يمكنهم المراقبة».

حلّ تيترز مشكلة المدنيين قائلاً: «أيها الأيرلندي: كيف يمكن لأولادي أن يقدموا يد العون؟» أجابه ديفيرو: «يمسكون بالمسدس ويطلقون النار». ثم أمر جونر جون الضابط المكلف بالإشراف على الذخيرة بأن يوزع عليهم مسدسات من طراز براوننغ الأوتوماتيكية وبنادق رشاشة من طراز طومسون وبنادق خفيفة من طراز سبرينغفيلد وأقنعة غاز وخوذات معدنية وصناديق رمانات يدوية. كان العديد من أفراد أطقم البناء من قدامى المحاربين الذين تعلموا كيفية إطلاق النار في فرنسا في عام 1917. ولم يبحث سوى القليل منهم عن النجاة هرباً بين الأدغال. مع أن هؤلاء كانوا أول من يموت.

أمر بوتنام بإقلاع زوجين من طائرات وايلد كات ليقوما بدورية فوق الطرق المؤدية إلى الجزيرة المرجانية. وأوجز الأمر لطياريه: «أريدكم أن تصلوا إلى آخر مدى يصله جهاز اللاسلكي داخل المحيط. وتكون مهمتكم الاستكشاف فقط، وليس الانخراط في القتال».

«كم سيكون الارتفاع؟».

«إلى أعلى ارتفاع ممكن. سيحلق اليابانيون فوق السحاب». لقد كان مخطئاً.

وفي الوقت نفسه، تواصلت أعمال البناء بوتيرة محمومة لتشييد

الملاجئ المحكمة لطائرات غرومان وايلد كات. في هذه المرة لم تكن الغاية حمايتها من أضرار العاصفة. وتساءل بوتنام: «هل يمكننا نقل الطائرة المتوقفة بعيداً عن المدرج؟».

أجاب تيترز، «كلّا، لن ينتج عن ذلك سوى اتساخها بمعداتنا وهذا يمكن أن يضرّ بمحركات الطيران فيها».

«حسناً. متى تتوقع أنّنا نستطيع نقلها؟».

«ستكون أولى الملاجئ جاهزة عند الساعة 14:00». لقد ثبت فيما بعد أنّها تأخرت ساعتين وعشرين دقيقة وكان قد فات الأوان!

وكانت 34 طائرة من طراز متسوبيشي جي3 أم.2 من صنف 96 نيل الخاص بالقصف البري من مجموعة شيتوسي الجوية قد انطلقت قبل عدة ساعات من جزيرة روي نامور في منطقة مارشال، التي تقع على بعد 700 ميل (1120 كم) إلى الجنوب من جزيرة ويك. عندما اقتربت الطائرات من جزيرة ويك، اصطفت بسرعة على شكل غيمة. لهذا السبب فشلت الطائرات الأربع من طراز غرومان وايلد كات التي تقوم بدوريات مراقبة في رؤيتها. في تمام الساعة 11:38، خرجت موجات من الطائرات من صنف نيلز وهي ترعد من وسط الغيمة التي لم تكن سوى على ارتفاع 1500 قدم فقط وتوجهت مباشرة لمهبط الطائرات في الجزيرة المرجانية.

حينها وقعت الكارثة.

تساقطت القنابل على جزيرة ويك مثل المطر. انبطح جنود المارينز والعمال على الأرض وقد صعقتهم المفاجأة. كان من المقرّر أن يقلع الملازم روبرت كوندرمان والملازم جورج غريفز بطائرتيهما من طراز وايلد كات ليقوما بدورية الاستطلاع التالية، وكانا حينها يجلسان بجانب المدرج عندما حلّقت فوقهما الموجة الأولى من الطائرات اليابانية. سقطت أكوام من القنابل على المباني وورش التصليح. لقد أدركا أن ما يجب فعله هو الاختباء. لكنهما تدربا كطيارين مقاتلين، فانطلق غريفز مسرعاً وسط القصف نحو طائرته المتوقفة؛ عندما تسلق السلم إلى قمرة

القيادة، اصطدمت إحدى القنابل بشكل مباشر بطائرته التي كانت من طراز وايلد كات كان الملازم غريفز أول ضحية تسقط في جزيرة ويك. أمّا الطيار الآخر، الملازم كوندرمان، فقد كان يركض من أجل إنقاذ حياته؛ وشعر دون أن يسمع، أنّه كانت خلفه الموجة التالية من القاذفات وهي تقوم بالقصف. كادت سحابة الدخان المنبعثة من خزان الوقود المنفجر أن تخنق غريفز. وكافح من أجل الحصول على الهواء، وهو يسير متعرجاً وسط طلقات الرصاص أسفل المدرج للوصول إلى طائرته. لقد كاد أن يصلها عندما أصابته شظية في ساقه. أثناء محاولته الزحف للوصول إلى مكان آمن، انفجرت طائرته فاصطدم به جزء من جناح الطائرة الممزق ورمى به أسفل الحطام. هرع العريف روبرت بيج والملازم فرانك هولدن، وهما يسمعان كوندرمان يطلب المساعدة، إلى الحطام المحترق، حينها حلّقت الموجة التالية من الطائرات المهاجمة بشكل منخفض فوق المدرج، وهي تقصف وتلقي بالقنابل. ارتدت إحدى القنابل بعد سقوطها على رأس مرجاني وأصابت الملازم هولدن بضربة مميتة. أصابت شظاياها الملازم ويب، الذي حلّ محل هولدن ليخرج كوندرمان من وسط النيران.

حاول الرجال الركض للاختباء خلف نتوءات الصخور المرجانية وتشبثوا بها للتخلص من رصاص المدافع الرشاشة الطائرات. رأى دان تيترز طائرة يابانية من نوع نيل وهي تتجه نحوهم بشكل مستقيم وبارتفاع منخفض، كانت نصال مروحتها تعكس النيران الصفراء المنبعثة من خزان الزيت المحترق في جزيرة ويك. بدأت الأرض تهتز بفعل الانفجارات المتتالية. وكانت الشظايا المعدنية المتطايرة تصدر طنيناً وسمع تيترز شخصاً ما يصرخ. ويغمره فجأة من الأعلى وهج ساطع. لقد أصابت قذيفة بحجم 3 بوصة صهريجاً للوقود في جناح إحدى الطائرات، وأشعلت ستة أطنان من السوائل الهيدروليكية امتزجت مع اللحم البشري وسبائك المغنيسيوم ليتوهج منها ضوء أخضر. حيث سقطت في البحر، تلاه ارتفاع أزيز المياه.

كشفت مراقبة الهجوم على جزيرة ويك المجاورة من قبل الطائرات التي لم تقصف بشكل مباشر جزيرتي ويك وبيل، عن رؤية مشهد فظيع. وأثبت الهجوم المفاجئ أنّه كان ذا قوة تدميرية فظيعة. تمكنت مدافع البطاريات المضادة للطائرات من طراز 3 بوصة من إطلاق أربعين طلقة فقط على القاذفات المهاجمة. هاجمت أربع وثلاثون قاذفة يابانية من طراز نيل جزيرة ويك. قصفتها تسع وعشرون منها وهي على بعد 300 متر من نقطة الهدف المحددة لها. أصبحت معظم المنشآت الأرضية في حالة خراب؛ دمر القصف منشأت شركة طيران بان أمريكان، مما أسفر عن مقتل تسعة من موظفي طاقمها الأرضي، بالإضافة إلى 25 من عمال البناء.

أصبح سرب الطائرات القتالية لسلاح مشاة البحرية أف. أم 211 في غضون ثلاث دقائق وكأن لا وجود له من جميع النواحي العملية، ومن بين اثنتي عشرة مقاتلة من طراز وايلد كات، تعرضت الثماني التي كانت متوقفة على طول المدرج إلى دمار كامل. لم تنجُ سوى الطائرات الأربع التي كانت تحلق في الجوّ. وما كان أكبر هو الخسارة في الأرواح البشرية. قُتل ثلاثة وعشرون من أصل خمسة وخمسين من الطيارين والطاقم الأرضي خلال الموجة الأولى الرهيبة من القصف. تلقى الرائد بوتنام رصاصة اخترقت كتفه لكنه واصل دوره كقائد للسرب. قتل الملازم غريفز المسؤول عن أطقم إصلاح الطائرات. أمّا من معه من الميكانيكيين في الطاقم الأرضي الثمانية عشر، فقد دفنت جثثهم تحت أنقاض سقيفة الصيانة لم تبقَ قطعة غيار احتياطية واحدة صالحة للعمل. تمّ إطلاق النار على مستودعي وقود يحوي كلّ منهما خزاناً سعة 25000 جالون وتشظّيا إلى أجزاء متفرقة. لم يسلم سوى المدرج الذي لم يمسّه أحد، مما أكد عزم العدوّ على ترك مهبط الطائرات في الجزيرة سليماً لتستخدمه طائراته. وهذا يعني أنّه كان يمكن توقع أن تظهر مجدداً في الأفق قوة مهاجمة في أية لحظة.

بينما كان أفراد المارينز وطواقم البناء يلعقون جراحهم، ويزيلون الأنقاض ويدفنون موتاهم، تمكنت آخر مجموعة باقية من مغادرة

الجزيرة؛ انحشر طاقم موظفي شركة النقل الجوي بان أمريكان الأمريكية داخل طائرة من نوع فلبيني كليبرز، والتي نجت بأعجوبة، رغم أن اثنتين وثلاثين رصاصة أصابت بدنها. تمكنت كليبرز من الارتفاع في الجوّ رغم حمولتها الثقيلة، ولكنها بالكاد كانت تتمكن من الارتفاع، كان محركها يزأر بأقصى طاقته. توجه القبطان بالطائرة إلى جزيرة ميدواي. كانت أمامه رحلة طويلة على نحو غير عادي فوق المحيط الهادئ، كانت الطائرة مليئة بثقوب الرصاص والركاب الخائفين. كانت عيون طاقم الطائرة تحدق في السماء من خلال كوة في الطائرة بحثاً عن وجود أية قطعة للعدوّ، عندها اكتشفوا فجأة وميضاً فضيّاً يلمع من مسافة بعيدة جدّاً. كانت تلك زوجاً من المقاتلات اليابانية قد رصدتهم وهرعتا نحوهم لتقوم بعملية تفحص دقيقة؛ ومع ذلك نجحت الطائرة كليبرز في الاختباء وسط غيمة في السماء. عندما خرجت الطائرة من تلك الغيمة ذات اللون الرمادي المشوب بالبياض، كانت السماء التي أمامها خالية من طائرات العدوّ. فهبطت بسلام في جزيرة ميدواي.

قام الملازم الاحتياط غوستاف كاهن، من الفيلق الطبي الأمريكي، والطبيب المعالج لطاقم البناء، الدكتور لاوتون شانك، بإنشاء جناح لإجراء عمليات الطوارئ في طاقم البناء المدمر. كانت تتمّ فيه عمليات بتر وترقيع للجرحى المصابين حالما يتمّ جلبهم. وبالنظر إلى أنّه لم يكن تحت تصرفهم سوى الوسائل البدائية للعلاج - لأن القنابل حطمت قناني وقوارير الدواء الزجاجية - فقد صنعا المعجزات وأنقذا حياة الكثيرين. لسوء الحظ، لم يحصل البعض على المساعدة، وكان من بينهم الملازم الطيار كوندرمان الذي أصيب بحروق شديدة، وتوفي أثناء الليل.

لم تقضِ الغارة على طاقم سرب المقاتلات الهجومية أم 211 فحسب، بل قضت على قوتها القتالية أيضاً. تمّ تقليص مجموعة مقاتلات القائد بوتنام التي تعرف بالسيرك الطائر إلى أربع طائرات من طراز وايلد كات وقد ثقبتها الشظايا والتي كانت، حتى في أفضل حالاتها، أقل شأناً من حيث

السرعة والقدرة على المناورة مقارنة مع طائرات الزيرو المقاتلة اليابانية الرائعة. ولكن عندما يتعلق الأمر بالقيادة، فليس هناك من يضاهي هؤلاء الطيارين الذين يمتلكون خبرة سنوات من التحليق بالطائرات التي ترش المبيدات في البراري الأمريكية. عيّن الرائد بوتنام الملازم جون كينني[4] ليحلّ محلّ الملازم أول غريفز الذي لقي مصرعه في منصب رئيس طاقم الصيانة الأرضي. «كن حريصاً على جعل طائراتي الأربع تحلق باستمرار، وأنا متأكد أنّها ستجعلك تنال ميدالية كبيرة مثل قطعة بيتزا».

أجاب كينني بابتسامة وحشية: «حسناً، لك ذلك. هل سيتمّ توصيل البيتزا لي في سان فرانسيسكو؟» حافظ كينني على جعل الطائرات الأربع تحلق، واصل العمل في جوّ من التحدي بجدّ وكفاءة وفعل ما يجب عليه القيام به بالضبط. بدأ بنزع أيّ قطعة خردة كانت تستحق الإبقاء عليها من الطائرات المحطمة. في صباح اليوم التالي، كانت هناك أربع طائرات، مزودة بأدوات مساعدة في أجنحتها، جاهزة للطيران ويمكن أن يحلق بها طياروها ليبرهنوا مجدداً على علوّ همتهم. لسوء الحظ، قام النقيب تارين بتحريك طائرته وايلد كات مستعيناً ببراميل نفط، ممّا ألحق الضرر بمروحة طائرته. وإلى أن يتمّ إصلاحها، فإنّ ذلك الإجراء قلّص عدد دفاعات ويك الجوية إلى ثلاث طائرات. انطلقت دورية بقيادة الملازم كليوير والرقيب هاملتون في مهمة استكشافية واعتراضية؛ على بعد عشرة أميال (16 كم) من الساحل رصدت تشكيلاً كبيراً من طائرات النيلز ذات المحرك المزدوج وهو يترك جزيرة ويك.

صرخ هاملتون قائلاً: «إن الأوغاد على اليمين!» وهو يشير إلى الطائرات الفضية التي تظهر على أجنحتها بشكل بارز الشمس الحمراء (رمز العلم الياباني)، وهي تمرّ بشكل منخفض من فوق البحر.

ردّ عليه كليوير: «اثنان ضد ثلاثين، احتمالات النجاح غير مؤكدة. دعنا نرى ماذا نفعل معها».

4- أنهى حياته المهنية برتبة بريغادير جنرال في قوات المارينز.

منحهم موقعهم المرتفع فوق اليابانيين، تعويضاً لهم عن الفرق في سرعة الطيران. تسبّبت أول قذيفة أطلقتها أسلحتهم إلى اشتعال النيران في طائرة معادية وسقوطها وتعطلت أخرى مخلّفة وراءها خيطاً من الدخان. ثم بدأت المدافع المضادة للطائرات في جزيرة بيليا تطلق قذائفها وكان عليهم أن ينحرفوا، أو يجازفوا بالتعرض للقصف من مدفعيتهم. في ذلك اليوم، أصيبت خمس طائرات معادية؛ تحطمت طائرة واحدة في البحيرة. أكد القائد كننغهام من خلال تفحصه الآثار التي خلفها الاشتباك في جسم الطائرة أنّهم تعرضوا لهجوم من طائرة تابعة لأسطول الطيران الياباني الرابع والعشرين.

كانت غارة الصباح التالي تكراراً لغارة اليومين السابقين، في هذه المرة فقط وصل اليابانيون بشكل مبكر قبل 15 دقيقة. ولتجنب الدفاعات المضادة للطائرات في جزيرة ويك، حلّقت الطائرات اليابانية من طراز نيلز بنمط طيران مرتفع فقد كانت على علوّ 18000 قدم (5400 متر). ولكن بعد ذلك بدأت تنخفض. كافأها المدافعون عن جزيرة ويك بعدة ضربات موجعة، وأمكن رؤية الطائرات وهي تسقط والمياه تتناثر من حولها. فات طائرات العدوّ أيضاً الانتباه إلى طائرات وايلد كات الأربع، التي كانت على استعداد للانقضاض عليها من خلال أشعة الشمس التي تحجب الرؤية. كان قائد رحلة الطائرات المقاتلة من طراز أف. أم. 211 هو النقيب هانك إيلرود. لقد سبق له أن تدرب على القتال، لكن لا شيء يشبه القتال الحقيقي. كان التوجه بصحبة أربع طائرات ثقبتها إطلاقات الرصاص من كلّ جانب للاشتباك مع أسطول مؤلف من ثلاثين إلى أربعين طائرة، مدججة بالمدافع الرشاشة، عملاً جنونيّاً. ولكن فيما بعد أصبح الجميع في حالة جنون. كان القائد بوتنام يندهش دائماً بما يقوم به الطيارون الذين رافقهم طوال سنوات عمله في الطيران، لكن لا أحد منهم كان يشبه هانك إيلرود. كان هو الأروع. كانت تعابير وجهه، وسلوكه، ومواقفه صلبة لا تتزعزع، وكأنّها منفصلة تماماً عن قواعد الاشتباك المميت.

كان الملازم كليوير أول من اكتشفهم. كان متحمساً لدرجة أنّه نسي السيطرة على مشاعره وهو يتحدث في جهاز اللاسلكي. «إنّهم اليابانيون الأوغاد، إنهم في كلّ مكان...».

«حسناً، اقتفِ أثرهم... حلّق بارتفاع عشرين ألف ثم اهجم على هؤلاء الأوباش...» بات الصمام الخانق في القاذفات يعمل في أقصى مدى له. اختار إيلرود شنّ الهجوم بطائراته الأربع على اليابانيين الأوباش من أعلى ارتفاع. وبدأ يتوالى وصول المزيد من التقارير:

«اثنتا عشرة طائرة للأوغاد على اليمين».

«... ثلاث طائرات للأوباش في الأمام...».

«ثلاث طائرات في الخلف وفجأة أصبحت الطائرات في كلّ مكان. اللعنة عليهم!» بدأ إيلرود يلعن نفسه. كان هناك الكثير منها. سيشتبك على الأقل مع طائرة واحدة قبل أن تقوم بمهاجمة الجزيرة.

قام كليوير وهاملتون بمناورة مثالية وتمكنا من إيقاع إحدى الطائرات اليابانية بين فكّي كماشة أضاء هذان المتعقبان السماء وهما يتوجهان نحو الطائرة التي أمامهما. بعد ثوانٍ وقع انفجار وانقسم كلّ ما بقي من الطائرة اليابانية إلى شظايا سقطت في المحيط الذي تحتها. رأى إيلرود طائرة يابانية من طراز نيل تنسحب من تشكيلها لتلاحق طائرة الوايلد كات التي يقودها كليوير، اقتربت إلى مسافة تكفي لإطلاق قذيفة نحوها. حينها حذره إيلرود: «الوغد قريب جدّاً منك... انحرف إلى اليمين...».

غيّر كليوير اتجاهه بسرعة، ولكن ليس بنمط عادي ولكن من خلال مزج الارتفاع مع تغيير السرعة. الآن بعد أن أصبح كليوير آمناً، بات إيلرود مصمماً على «مطاردة اليابانيين». أصبح متخلّفاً عن الركب وقاد طائرته من طراز وايلد كات لتقترب من عدوّه. كان تشكيل الطائرات اليابانية تحته تماماً، وقد أثار هذا المشهد في داخله مشاعر غضب عنيفة. ضغط على زرّ إطلاق القذائف عندما أصبحت قاذفة يابانية من طراز نيل أمامه مباشرة. لم يكن هناك احتمال أن يخطئ هدفه لكون المسافة قريبة.

«... فلتذهب إلى الجحيم أيها الأبله، ولتمت!» اشتعلت كرة من اللهب باللونين البرتقالي والأصفر في السماء أمام طائرة وايلد كات التي يقودها إيلرود عندما عثرت القذائف التي أطلقها على هدفها خاضت قاذفة يابانية من طراز نيل في دوامة الموت في المياه المظلمة أسفلها.

«إصابة موفقة أيها، النقيب...».

اجتاح الحماس جهاز اللاسلكي: «سأرشهم بالرصاص... هناك وغدان في أقصى اليسار... سأوجه لهم ضربة...».

تسابقا بعضهما نحو بعض في مواجهة وحشية كانت تجري على ارتفاع لا يزيد عن ألفي قدم (600 متر) فوق سطح البحر، وأصبح جهاز اللاسلكي مشوشاً من الضجيج المتواصل للرجال الذين يصرخون بسلسلة من الكلمات المكونة من أربعة أحرف، تتخلّلها رشقات نارية.

صاح النقيب في لاقطة جهازه اللاسلكي بصوت مخنوق بسبب القناع الذي كان يرتديه: «توقفوا، يا شباب». أخرج إيلرود كتفيه من حمالة المظلة ليتمكن من النظر من خلال قمرة القيادة في الوقت المناسب لرؤية تشكيل الطائرات اليابانية وهو يتمايل ويولي هارباً، متوجهاً مباشرة إلى جزيرة ويلكس.

«لاحقوهم» صرخ إيلرود في جهاز اتصال أصبح يستلم خليطاً من المحادثات المشوشة. كان يركز انتباهه بالكامل حينها على طائرة يابانية أخرى كانت أمامه؛ لقد حاولت القيام بمناورة يائسة لكي تفلت. لاحظ إيلرود أن الطائرة أصبحت في مدى مدفعيته إلى حدّ كبير. كان الإجراء التالي يتطلب قدراً كبيراً من الدقة، وتقدير سرعة العدوّ وتغيير المسار. فتح النار، مطلقاً العنان لعملية انطلاق قنبلة استغرقت ثانيتين، وقد اصطدمت معظم أجزاء القنبلة بالقاذفة اليابانية. مما جعلها تترنح. تسببت القذائف التي انهمرت على القاذفة اليابانية من أربعة مدافع رشاشة من عيار50 بوصة كانت محمولة على أجنحة طائرة إيلرود في انشطارها وهي

في الجوّ. لا بدّ أن تكون القذائف التي انفجرت قد اصطدمت بالقنابل التي كانت تحملها القاذفة. سقطت القاذفة اليابانية من على ارتفاع 1500 قدم (450 متراً) فوق جزيرة ويك. لم يتمكن إيلرود، الذي كان لا يزال ينحدر بطائرته بشدة، من تجنب التحليق بعيداً عن حطام القاذفة، التي تساقطت أجزاؤها فوق طائرته وهزّت بدنها مثل أحجار البَرَد. كان يحلّق بارتفاع أقل من ثلاث مئة قدم (90 متراً) فوق الماء ولا يبعد سوى ميل واحد من الجزيرة.

«هانك! هناك ياباني وغد خلفك! انخفض انخفض» صدر هذا النداء من كليوير، الذي كان يراقب قاذفة يابانية تقترب من ذيل طائرة قائد سربه. قام إيلرود على الفور بحرف طائرته وهي تزأر نحو الجهة اليمنى واستمر في ذلك إلى أن ارتفع صوت جهاز التحذير من خطر السقوط، فضغط بقوة على المقود لَجعل طائرته تنعطف إلى الجانب بمقدار 45 درجة، مما يجعل فقدان القدرة على الارتفاع المفاجئ أعلى من الانحدار إلى الأسفل. وجعل مستوى الأجنحة يرتفع عند مئة قدم (30 متراً) فوق سطح البحر - لا تفصلها سوى المسافة الممتدة بين الأجنحة عن المياه المظلمة تحتها. كان بإمكانه رؤية الطائرات التي تتعقبه وهي تقوم بتسديد الضربات نحوه وتثير نافورات ساخنة من المياه أمام مقدمة طائرته. كان يجب عليه أن يرتفع بالطائرة. «هيا، يا صغيري، يمكنك القيام بذلك ارتفع ألف قدم (300 متر)»، ثم مال بحدّة ووجد نفسه خلف قاذفة عدوّ أخرى ولكن أدنى منها قليلاً. ثم ارتفع بطائرته، ومثلما فعل في المرة السابقة أطلق من المدفع الرشاش قنبلة انفجرت في ثلاث ثوانٍ مزقت جزءاً من جناح طائرة العدوّ وجعلت القاذفة اليابانية من طراز نيل تدور في حلقة مفرغة. وظلّت حافات عجلات الطائرة تلامس المياه لعدة مئات من الأمتار قبل أن تغوص عميقاً فيها وتختفي عن الأنظار إلى الأبد.

في تلك الأثناء كان قد استنفد حظّه. «هناك وغد خلفك» جاءه التحذير مجدداً. سحب إيلرود دواسة الوقود ليصبح المحرك قريباً من

حالة اللاتعشيق، ثم قاد الطائرة بالمقلوب، وانطلق بمقدمة الطائرة نحو المحيط، محاولاً جعل ذيلها عمودياً وبعيداً عن الطائرة اليابانية؛ استقر على ارتفاع بمئة قدم (30 متراً) فوق المياه المظلمة ثم انعطف بحدة وخفق دواسة الوقود ليعود إلى منطقة القتال. حتى لو أخطأه الآخرون، فيمكنه تسديد ضربة أخرى لذلك الياباني. ثم صعد بحدة، ولكن قبل أن يتمكن من اللحاق بهدفه التالي، تلقت طائرته ضربة شديدة جعلتها تنحرف جانباً. نفذت القذيفة التي أطلقتها الطائرة اليابانية من خلال بدن طائرته واخترقت محركها. سلخت الريح جنيحات الألمنيوم الممزّقة من طائرته كأنّها علبة سردين؛ تعرض المحرك للإجهاد وفقد الرؤية لأن زيت المحرك الأسود غطّى الزجاج الأمامي للطائرة. مع وجود طائرة يابانية خلفها، والضربة التي تلقاها المقود وجعلته يتشظى إلى قطع صغيرة ووسط زعيق المحرك، سقطت الطائرة من ارتفاع مئات الأقدام؛ وبدأت مسامير البرشام تتفكك، وتدفق تيار من الهواء، واندفع بشدة من خلال الثقوب التي كانت في جناحي الطائرة، محدثة صوتاً يشبه صراخ قط هاجمته النيران، قبل أن يستعيد إيلرود السيطرة على الطائرة. تراخى مقبض التحكم فيما كان بنزين الطائرة يتسرب.

«إنها نهايتي...!» لكنه لم يقفز بالمظلة ويترك الطائرة، لأن رفاقه على الأرض كانوا في حاجة إلى كلّ هيكل طائرة يمكن إصلاحه بطريقة أو بأخرى. كذلك فإنّ السرعة التي كان يهبط بها ستجعل الرياح تمزقه إرباً. قام بإغلاق صنبور الوقود وسحب ذراع الخزان لتفريغ الوقود لتجنب نشوب حريق عند الهبوط. وبالاعتماد على حدسه الشخصي، تمكن من الهبوط بطائرته على الشريط الرملي. مرّت فترة قصيرة من الزمن قبل أن يهزّ انفجار ضخم الجزيرة المرجانية، مما جعل طائرته الوايلد كات التي تلقت الكثير من الصدمات تدور حول نفسها عند المدرج.

كان الرقيب هاملتون يقود طائرة الوايلد كات الثالثة وما إن أصبح خلف طائرة يابانية حتى لم يعد يرى شيئاً بسبب شعلة ضوء تسبّب بها

انفجار حدث قربه، وشعر حينها كما لو أن كلّ الهواء الموجود في رئتيه قد خرج وحلّت محلّه صفيحة من النار. كانت طائرته تتأرجح والطائرة اليابانية التي تحلق على ارتفاع منخفض أمامه - تتحطم دون أن يطلق النار عليها! وبسبب عصف الانفجار انحرفت جانباً طائرة الوايلد كات التي يقودها هاملتون وجعلت رأسه يصطدم بمقبض قمرة القيادة. وجد هاملتون نفسه وسط حالة من الذهول وحاول أن يرى بوضوح أكثر؛ كان يظنّ أنّه سمع صوتاً من بعيد: «أنا راحل... أنا راحل...» نظر إلى الأسفل فرأى ألسنة اللهب وهي تتصاعد من انفجار مدوٍّ وترتفع في الهواء لمسافة مئات الأقدام. تدفقت المياه أمامه بسبب عصف الانفجار. بدت جزيرة ويلكس مشتعلة بالنار قبل أن تنجح سحابة من الغبار كانت تتوهج في وسطها النيران بشدة في أن تخفي ذلك المكان المحطم عن الأنظار.

وهاكم ما حدث. على الرغم من الوابل الكثيف من النيران التي انطلقت من بطاريات المدفعية عيار 3 بوصة، فقد ركز العدوّ مجهوده بالكامل لضرب جزيرة ويلكس. كان يتوالى تحليق موجات من الطائرات اليابانية في السماء، وكانت تصل إلى الجزر من مختلف الزوايا والارتفاعات، وتلقي القنابل. ثم فجأة انفجرت كرة ضخمة من النار كما لو أن العالم قد وصل إلى نهايته المفاجئة. ارتفعت جزيرة ويلكس إلى عنان السماء مثل نافورة ثم ما لبثت أن تكومت على نفسها. اخترقت ضربة موفقة لقنبلة سعة 250 رطلاً اللوح الخشبي الذي يحمي مستودعاً لتخزين مواد البناء، مما أدّى إلى انفجار 125 طنّاً من الديناميت. وتسبب ذلك في اندلاع حريق مهول لدرجة أن ظلاله امتدت فوق البحر لعدة أميال. وبسبب ارتفاع النيران لآلاف الأقدام، اعتقد الطيارون الذين كانوا يقودون طائرات وايلد كات أن طبلات آذانهم تمزقت. ومن خلال نظرات عابرة من قمرة القيادة، كانوا يحدقون برعب إلى الجزيرة التي كانت تنفث لهباً أرجوانياً، وتحوّل السماء إلى لون قرمزي، ثم برتقالي وبعده أرجواني بينما كانت النيران تغمر جزيرة ويلكس وحاميتها.

بجانب هذا الانفجار الهائل الذي يصمّ الآذان والذي قذف بطائراتهم مثل لعب الأطفال، اجتاحت الانفجارات الجزيرة من كلّ حدب وصوب، تفجرت الذخيرة المعدة للاشتعال على شكل صواريخ ملتهبة ارتفعت في كبد السماء، وتوالت انفجاراتها وأصبحت تشبه الألعاب النارية الهائلة. ارتفعت عالياً سحابة كثيفة من الغبار والحطام المتبخر، جعلت الجزيرة المدمرة تختفي عن الأنظار، إلى أن قامت تيارات هوائية قادمة من طبقات عالية في السماء بتبديد تلك السحابة. أصبحت الجزيرة، التي كانت تشتعل فيها آلاف الحرائق، مكشوفة بالكامل اختفت كلّ وسائل التمويه، لم يعد هناك سوى بقايا أشجار متفحمة وسبطانات مدافع أصبحت سوداء اللون تشير مثل الرماح إلى السماء. كان الانفجار شديداً لدرجة أنّه قام بصهر أكوام من المدافع من طراز 5 بوصة ومزجها معاً وتسبّب بإشعال كلّ خرطوشة من الذخيرة المخزونة على أراضي جزيرة ويلكس. ومع ذلك فإنّ الشيء الذي لا يصدق، أن جنديين فقط من صنف المدفعية في نقطة كوكو القتالية فقدا حياتهما.

كان لهذه الانفجارات الهائلة تأثير نفسي شديد على الطيارين اليابانيين، فقد استهدفهم أيضاً العصف الناجم عنها. كانت لخسائرهم في سماء جزيرة ويك - فقد سقطت لهم 14 طائرة في البحر- حيث كانوا لا يتوقعون وجود الكثير من المنصات الدفاعية - أسوأ تأثير على قائد سرب الطائرات اليابانية، وكانت النتيجة أن العار قد لحقه. لقد وفرت لهم هذه التفجيرات الفرصة لإظهار كفاءتهم، لكنهم تسببوا من خلالها مجدداً بإحداث قدر من الأضرار مبالغ به ومن دون مراعاة لقوانين الحروب. كان لديهم الحق في أن يكونوا مخطئين: فكان من الممتع بالنسبة لهم، مراقبة التفجيرات من قمرة القيادة في طائراتهم، وهي تقوم بمحو جزيرة ويك.

كان نصّ البرقية التي تلقاها الأدميرال ساداميتشي كاجيوكا، قائد قوة الغزو في جزيرة ويك، يقول: «تمّ تفجير جزيرة ويك. ليس من المتوقع أن يكون هناك أيّ ناجين فيها». ونتيجة لذلك، استند الأدميرال

في خطة غزوه على تقييم خاطئ. وأصبح بإمكان سفنه حينها أن تقترب من الشاطئ لتنزل منها قواته المؤلفة من نخبة من الجنود للاستيلاء على الجزيرة المرجانية. ولكن كانت هناك حقيقة أخرى دفعت كاجيوكا إلى شنّ هجوم متسرع دون انتظار نتائج مهام الاستطلاع الأخرى. لقد تعرض غرور هذا الأدميرال الطموح للأذى. كان قد تناهى إلى سمعه أن الأمر الذي كان يحتفظ به لنفسه وهو أن يتشرف بتكريمه من قبل إمبراطور اليابان باعتباره أول ياباني يضع قدمه على الأرض الأمريكية، سيذهب إلى قائد آخر استطاع أن يستولي على جزيرة غوام التي كانت تابعة للولايات المتحدة. أقسم الأدميرال كاجيوكا أنّه سوف يغزو جزيرة ويك - التي تمثل الجسر الذي يؤدي إلى طريق الإمبراطورية المجيد للانتصار على أمريكا. باحتلاله جزيرة ويك، سيكون هو البطل الذي سينال التكريم. كان قد خطط لشنّ عملية الغزو في 11 كانون الأول 1941، أي بعد أربعة أيام من هجوم بيرل هاربور، أمر بأن تتحرك قطع أسطوله بأقصى طاقتها ثم انطلق بها من جزيرة كواجالين إحدى جزر مارشال باتجاه الشمال.

كان أول من واجه قوة الغزو بقيادة الأدميرال كاجيوكا هي الغواصة يو. أس. تريتون. كانت الغواصة تسير فوق سطح الماء لإعادة شحن بطارياتها المستنفدة، عندما رصدت دخاناً يرتفع عند الأفق. غطست في الماء وأطلقت حزمة مؤلفة من أربعة طوربيدات على المدمرة التي كانت تقترب بسرعة. ثم غاصت إلى أقصى عمق تنتظر سماع صوت الانفجار.

«هناك ضربة!» صاح المسؤول التنفيذي للغواصة عند سماعه صوت ارتطام غير شديد. ما لم يدركه طاقم الغواصة أن طوربيدهم قد اصطدم (وربما ضرب لم يكن هناك شيء مؤكد) بسفينة رادار أسطول غزو قوي، كانت تبحر على بعد 10 أميال بحرية خلف المدمرة. كان الأسطول يتألف من الطراد يوباري الذي يبلغ وزنه 3587 طنّاً، بقيادة الأدميرال كاجيوكا، والمجهز بأبراج لمدافع من طراز 5.5 بوصة؛ والطرادين تاتسوتا وتنريو لتوفير الدعم الناري. والمدمرات موتسوكي، وكيساراجي، ويايوي،

وموتشيزوكي، وأويتي، وهاياتي؛ بالإضافة إلى اثنتين من المدمرات الأقدم عمراً تمّ تحويرهما لتحملا على متنهما قوة الإنزال والسفينتين التجاريتين كونغو مارو وكينريو مارو اللتين تحملان الوقود والمؤن اللازمة.

عمل أفراد طاقم الطائرات الميكانيكي بقيادة الملازم كيني بأقصى جهدهم طوال الليل، حيث أعادوا تركيب أربع طائرات وجعلوها صالحة للطيران باستخدام أجزاء منزوعة من الطائرات المحطمة التي كانت جاثمة على الأرض. في الساعة 04:00، صدرت الأوامر إلى الطيارين لأن يكونوا على أهبة الاستعداد. تمّ تكليف ثلاثة قباطنة هم إيلرود وثيرين وفويلر بمهمة قيادة ثلاث طائرات قتالية من طراز F4F-3، فيما ظلّت هناك طائرة رابعة مجهزة بالعتاد وفي حالة تأهب. كانت توجد قنبلة واحدة سعة 100 رطل تحت كلّ جناح من أجنحة الطائرات الثلاث، بعد ذلك تمّ نقلها إلى موقع الإقلاع الفوري. قبل وقت قصير من بزوغ الضياء الأول عند الساعة 05:00، ظهر أسطول كاجيوكا في الأفق البعيد. قام كلّ من إيلرود وثيرين وفويلر بتشغيل محركاتهم وأقلعوا لتوفير غطاء جوّي ضد هجوم جوّي متوقع من قِبل الطائرات اليابانية من طراز نيلز، وكانوا يتوقعون أن يتزامن وصولها مع بدء الهجوم البري.

ظهر وميض برتقالي في الأفق البعيد، أعقبه بعد لحظات، ارتفاع عواء يشبه صوت قطار سريع يمرّ عبر نفق. في الساعة 05:22، سقطت أول قذيفة من عيار 5.5 بوصة على جزيرة ويك، انطلقت من الطراد يوباري. أصدر الرائد ديفيرو أوامر صارمة لضباط سلاح مدفعيته في جزر ويلكس، وبيل وويك، بأن لا يطلقوا نيران مدفعيتهم إلّا بأوامر محددة منه. لم يكن هناك ما يدعو لإهدار الذخيرة. كانت مدافع العدوّ متفوقة بشكل كبير من حيث الدقة والمدى مقارنة بمدافعهم العتيقة من عيار الخمس بوصات. استهدفت قذائف العدوّ خزانات الوقود التي لم يمسّها الضرر والواقعة في الركن الجنوبي الغربي من جزيرة ويك. في غضون دقائق، انفجرت الخزانات جاعلة جزءاً كبيراً من الجزيرة المرجانية يختفي تحت غطاء من

الدخان الأسود. دفعت الرياح السائدة سحابة الدخان الكثيفة نحو البحر. تحت غطاء من الدخان، بدأت ناقلات الجنود اليابانية تخرج قوارب الإنزال لتنقل قوة الإنزال البحرية الخاصة بقيادة الأدميرال كاجيوكا إلى الشاطئ. لم تكن اللحظة مواتية لمحاولة القيام بالإنزال لأن القوارب كانت غارقة في الوحل. أرسلت عواصف اجتاحت أماكن بعيدة جدّاً من المحيط الهادئ دوامات قطعت آلاف الأميال عبر البحر، وكانت تزيد بشكل مطرد من ارتفاع الأمواج وقوتها قبل أن تصطدم بالعقبة الطبيعية الأولى، التي تصادف أنّها كانت جزيرة ويك. ارتفعت الأمواج العملاقة مثل ثقوب سوداء تتلألأ وسط بحر أزرق رمادي قبل أن تنقضّ على الشعاب المرجانية كأنّها طائرات تقوم بالقصف؛ وقد وصل رذاذ ملحها إلى المواضع التي نصبت فيها مدفعية الجزيرة.

رفع الملازم كلارنس أ. بارنغر، ضابط صنف المدفعية في البطارية «أي» في نقطة بيكوك، نظارته الثقيلة وألقى نظرة على حالة البحر في الصباح الباكر. استطاع أن يرى من مكانه، الطراد يوباري وهو يبحر بطريقة متعجرفة بموازاة الساحل. لقد كان ذا مظهر أنيق، يخوض البحار العميقة ناثراً زبداً أبيض مثيراً للإعجاب. كانت جميع أبراج مدافعه مهيأة لتصب حمم قذائفها على الشاطئ. كان يبحر على كلا جانبي هذا الطراد الحربي، رتل من إثنين من الطرادات وست مدمرات تتجه جميعاً للقيام بعملية الغزو. استدار الطراد يوباري وبغطرسة مذهلة، كما لو أنّه كان يريد أن يثبت تفوقه، وبذلك قلّص المسافة التي تبعده عن بطارية أي. ذات المدافع من عيار 5 بوصات التي يقودها الملازم بارينغر إلى حوالي 5000 متر. راقبه الملازم بارينغر وهو يمرّ قريباً جدّاً منه إلى حدّ أن غرفة القيادة المرتفعة في الطراد، انعكست صورتها في مناظير المتدربين في جزيرة ويك، ثم قفزت لتنعكس في عدسات نظارته. لماذا لم يعطِ الرائد ديفيرو الإذن بإطلاق النار؟ فبواسطة مدفع من عيار 5 بوصة متموضع بشكل جيد، وهدف كشفه ضوء الفجر البرتقالي، ستكون الضربة مسألة وقت فقط.

في الساعة 06:10، رنّ الهاتف الميداني للملازم بارينغر: «أطلقوا النار!».

«المدى خمسة!» صاح بارينغر.

كرّر عبارته جندي المدفعية الأقدم: «المدى خمسة».

«أطلقوا النار!».

توهج ضوء يعمي الأبصار فوق الجزيرة، كان ساطعاً لدرجة أن أعين جنود المارينز الذين كانوا في الجوار انقبضت فقاموا بإغلاقها. تصاعدت النيران ودخان بني من مدفع ذي سبطانة مزدوجة من بطارية «أي». انتقل صوت الانفجار عبر الماء. انطلق عمودان من الماء في الهواء. لكن الانفجارَ أطاح بعيداً بموضع مدفع الملازم بارينغر المموّه؛ ردّت على الفور نيران مضادة انطلقت من مدافع الطراد يوباري. ومع ذلك، فإنّ رجال مدفعيتهم لم يكونوا دقيقين بما يكفي فلم يلحقوا أيّ ضرر عدا تفتيت بعض الشعاب المرجانية.

أمر الملازم بنغمة باردة وهو يثبت عينيه على الغطاء المطاطي لنظاراته: «مدى قصير! حتى مئتي درجة».

«البعد خمسة اثنان... سدّد...».

«أطلق النار!».

أطلق المدفع النار مرة أخرى.

«أعلى! انخفض 100 درجة».

قام أفراد الطاقم والعرق يتصبب منهم بحشو المزيد من القذائف في مؤخرة المدافع التي يتصاعد منها الدخان في الوقت الذي دوّت فيه فوق رؤوسهم قذيفة جديدة أطلقها الطراد يوباري. صارت سحابة من غبار الرمال والكوردايت أقرب إليهم بكثير، هذه المرة؛ جعلت أفراد الطاقم يتقيّؤون.

«البعد خمسة واحد... سدّد».

حطمت القذيفة الثالثة التي انطلقت من مدفع البطارية الطراد يوباري. تحول الطراد الياباني في غضون دقائق إلى هيكل تشتعل فيه النيران.

بدأ يدور حول نفسه، وينفث الدخان واختفى وراء سحابة الدخان التي تسببت بها النيران المشتعلة على متنه.

«كان لدى البطارية (أل) في جزيرة ويلكس، مدافع مزدوجة السبطانة من عيار 5 بوصة وتمّ الإبلاغ عن تعرضها للدمار في الانفجار الهائل الذي حدث قبل أربع وعشرين ساعة، لكنها كانت تملك سبطانة واحدة لا زالت تعمل؛ فقام الملازم جون مكاليستر بتفكيك أجزاء مدفع مدمر وركبها على مدفع ثانٍ وأعاده إلى العمل قبل ظهور الضياء الأول. تفجرت أكداس العتاد أثناء الانفجار - وكان هذا هو الذي تسبب في مقتل جنديين من صنف المدفعية- ولم يبقَ سوى بضع عشرات من القذائف. لم يعد لدى الملازم مكاليستر جهاز مكتشف النطاق، وكانت دعامات مدفعه الذي أعاده للعمل ملتوية. لكن رجاله كانوا يمتلكون الإرادة، ومن خلال آلية التدريب اليدوية التي تعلموها، تمكنوا من استخدام سبطانة المدفع وتوجيهها نحو المدمرة هاياتي التي كانت في المقدمة وكانت تقوم بالإبحار بشكل استفزازي بالقرب من الشاطئ.

الساعة 06:10: «أطلقوا النار!».

مرّت أول قذيفة من فوق المدمرة هاياتي، والثانية كانت قصيرة، ولكن القذائف الثلاث التالية اصطدمت بالمدمرة عند أسفل غرفة القيادة. اخترقت إحداها مخزن الذخيرة وتسببت في حدوث انفجار داخلي. غرقت المدمرة هاياتي في غضون دقيقة، مع طاقمها المكون من 167فرداً.

«يا إلهي». حدّق طاقم المدفعية بها وهم فاغرون أفواههم. لقد غرقت.

صرخ رقيب الدورية هنري بيدل بهم: «أوقفوا كلّ شيء، عودوا إلى مدفعكم. ماذا تتخيلون ما حصل، إصابة ناجحة للهدف في مباراة كروية؟».

استدار المدفع نحو هدفيه التاليين، وهما الطرادان أويتي وموشيزوكي، وكلاهما كان قد عانى من آثار ضربات القذائف، كما هو حال ناقلات الجنود. بعد ذلك نفدت القذائف من المدفع.

أما مدفع البطارية «بي» التي كانت متواجدة في نقطة توكي، تحت إمرة الملازم وودرو كيسلر، فقد توقف عن العمل جرّاء إطلاق النار عليها من قبل ما لا يقل عن ثلاث مدمرات هي يايوي وموتسوكي وكيساراغي، واثنين من الطرادات هما تاتسوتا وتينريو، تسببت قطعة كبيرة من شظايا إحدى القذائف بتدمير إحدى أذرع المدفع، لكن طاقم الملازم كيسلر استمر في حشو المدافع الباقية بالقذائف وإطلاق النار منها، واستطاعت قذيفته العاشرة ومن على بعد عشرة آلاف متر، أن تشعل النار في مؤخرة المدمرة يايوي.

وبينما كانت هذه المواجهة بالمدافع البحرية الثقيلة مستمرة، ماذا كان يحدث في السماء فوق جزيرة ويك؟ كانت هناك أربع طائرات من الوايلد كات تحلق في الجوّ: بول بوتنام، وهانك إيلرود، وهربرت فيولر، وفرانك ثيرين. ولدهشتهم، تمّ شنّ الهجوم البحري دون غطاء جوي. مما أطلق يد الطيارين الأمريكيين وجعلهم يقومون بدورهم الثانوي، وهو اعتراض السفن. بعد وقت قصير من الساعة 07:00، كان لدى الأدميرال الياباني ما يكفيه؛ فقد كان لديه عدة سفن مشتعلة، فقام بإطفاء نيرانها وتوجه إلى عرض البحر، عندها انقضّت ثلاث من طائرات الوايلد كات على سفن العدوّ بقنابلها التي تزن 100 رطل. قام بوتنام وثيرين وفيولر بتحليق منخفض وشنّ جولة قصف مشتركة على الطراد تينريو، والذي عانى من أضرار سطحية من جرّاء الضربات القريبة. خلال جولة القصف هذه، أصيبت طائرة الوايلد كات التي يقودها ثيرين بنيران المدافع المضادة للطائرات في المدمرة وأصيب بجروح طفيفة، لكنه واصل الطيران.

أما الطائرة الرابعة، التي كان يقودها النقيب إيلرود، فقد انفصلت عن التشكيل. وكان إيلرود متحمساً للقتال. ولكن ما أفسد متعته هو عدم إمكانية تقدير موضع السفن في ذلك الطقس السيّئ. ووسط عمله في تلك الظروف فإنّه فقد اتصاله برحلة النقيب بوتنام في ذلك الطقس الملبد بالغيوم. فانخفض بطائرته بشكل أكبر حتى بات يحلّق على مسافة قصيرة جداً فوق قمم موجات المياه المرتفعة وسط المحيط الهائج، عندما رأى

من بعيد ما بدا وكأنّه معالم رمادية اللون لسفن حربية فارتفع بطائرته ليختبئ وسط إحدى الغيمات ليتجنب إطلاق النار عليه.

نقر على ميكروفونه وتحدث بتثاقل وهدوء: «السفن في الأمام. اذهبوا وراءها»، كانت يداه ممسكة بعصا القيادة وعيناه جامدتين تنظران إلى الأمام مباشرة. فجأة اخترق الغيوم وكانت في الأسفل منه سفينة كبيرة تعجّ بالمدافع، ومياه بيضاء تتماوج في مؤخرتها. ألقى إيلرود نظرة واسعة قبل أن يرتفع بطائرته بكل قوتها ليخترق السحابة. سرعان ما بدأت مقاتلته تتأرجح على أثر قيامه بدورة مقدارها 180 درجة متجهاً نحو هدفه. بعد لحظات اصطف إلى جانب المدمرة الضخمة كيساراغي. لقد رآه طاقمها أيضاً واندفع كمّ هائل من النيران من المدافع المضادة للطائرات الموجودة على سطحها. كان أفضل دفاع يقوم به هو توجيه مقدمة المقاتلة نحو من يقتفون أثره، ليضيّق المسافة بينهما إلى أقل حدّ ممكن.

في تمام الساعة 07:31 مساءً، أصبحت طائرة إيلرود ترتفع بشكل مستقيم تقريباً فوق السفينة التي كانت تنفث النيران، قام إيلرود بإمالة جناح الطائرة وانحدر بها بشكل حادّ. كان أحد طرفي الجناح يشير نحو أعالي السماء فيما اتجهت مقدمة الطائرة إلى الأسفل بخط مستقيم. وجد إيلرود نفسه وسط وابل من القذائف التي كانت تنطلق نحوه من فوق سطح المدمرة وبدأت شظاياها تجعل طائرته الوايلد كات تهتزّ. لقد كان يندفع إلى الأسفل بخط مستقيم بسرعة مخيفة، بدأ جسم الطائرة يصدر زعيقاً وبدأت مسامير الجناحين تتفكك. قاوم الاهتزاز العنيف وتمكن من السيطرة على طائرته، وغايته الوصول إلى مدخنة السفينة الخلفية. جاهد بشكل محموم من أجل السيطرة على الوضع، مصرّاً على أن تتخذ قنبلته المسار الصحيح خلال الثواني الحرجة التي تستغرقها للسقوط بشكل دقيق. وبات يرى من خلال مظلة الطائرة الزجاجية كلّاً من البحر والهدف الذي يقصده وهما يقتربان منه بسرعة.

من على مسافة لا تتجاوز 500 قدم (150 متراً)، سحب مقبض طائرته

وأطلق قنبلتين. ارتدّت الطائرة حين تخلصت من حمولتها، ثم كانت السماء فوقه مرة أخرى؛ تسببت القرقعة التي حصلت بانسداد أذنيه وخنقه الشعور المفاجئ بالحرارة الشديدة والدخان. أمّا قنابله! فقد وقعت إحداها وسط الماء بجانب السفينة. لكن الأخرى اتجهت بخط مستقيم نحو السطح الخلفي، حيث تمّ تخزين قذائف الأعماق المضادة للغواصات. انفجرت المدمرة وارتفعت منها كرة ضخمة من اللهب، تطايرت سبطانات المدافع، والصواري، وقطع من اللحم البشري لتنهمر مثل المطر في البحر الهائج. نظف إيلرود آذانه وبدا له أنّه قد وصل إليه من خلال سماعات الأذن صوت أحدهم وهو يصيح (رائع... ممتاز!)

عندما انقشعت الغيوم، ظهر أنّه لم يعد للمدمرة كيساراغي وجود. دفع العصف الناجم عن الانفجار مؤخرة طائرة إيلرود لتصعد في الهواء، مما أدّى إلى أن تعلق دفة المؤخرة. اجتاحت السماء قذيفة انطلقت من سفينة القتال البرمائية التي كانت ترافق المدمرة كيساراغي، وبما أنّها استندت على جهاز التتبع ذي الخطوط المتموجة فإنّ القذيفة انطلقت فيما يبدو بشكل عشوائي وأصابت مظلته الزجاجية. ضربت قذيفة أخرى محرك طائرته. كان تأثيرها مثل ضربة مطرقة، جعلت رأسه يرتطم بجسم الطائرة. اندفع الهواء بقوة داخل الطائرة ليضربه في وجهه. وأبقاه واعياً وأخرج الدخان الخانق الذي بدأ يملأ قمرة القيادة. أصبح ضوء مؤشر تدفق الزيت باللون الأحمر وبدأ جهاز المناداة يطلق صفيراً. بات من الممكن في أيّ لحظة حينها أن يتوقف المحرك. بدأ مؤشر السرعة الجوية ينخفض، وبدأت طائرته تنخفض كذلك. أصبح لديه إحساس بانعدام الوزن عندما بدأت طائرته الوايلد كات تهوي.

«هانك! اخرج! هيّا اخرج!» كان يمكنه أن يسمع بواسطة سماعات الأذن رغم قوة الهواء المتدفق. استطاع إيلرود الوصول إلى مقبض إفلات المظلة وسحبه، ولكن ذلك الشيء اللعين كان محشوراً. لم يتمكن من إفلات المظلة ولم يتمكن من العودة إلى مهبط الطائرات؛ قام بتفحص

شرائط مقعده، راقب مؤشر الانعطاف ورأى أنّه كان يطير بشكل غير متوازن بسبب الفتحة الكبيرة الموجودة في جناحه الأيمن. كان هدفه أن يعثر على شريط رملي طويل على طول حافات مياه جزيرة ويك. كانت الطائرة تغوص بمعدل مخيف يبلغ عشرة أمتار في الثانية، عندما وصل قرب الشاطئ لطمه بشدة لدرجة أن أنفاسه تقطعت. اخترقت حافات جناحي الطائرة التي كانت ملتفة بشكل جنوني الشعاب المرجانية، مطلقة الشرر، تمزقت عجلات الهبوط بسبب رؤوس المرجان الحادة، وانثقبت خزانات الجناحين، مما أدّى إلى تدفق البنزين المتطاير الذي يستخدم كوقود. عندما استرجع إيلرود قدرته على أن يرى ما حوله، صنع معجزة عندما استطاع أن ينسلّ خارجاً من خلال ثقب في قمرة القيادة دون أن يصاب بشيء سوى بعض الخدوش والحروق والكدمات. حدث ذلك بلمح البصر قبل أن يلامس البنزين المتدفق غطاء المحرك الساخن وتنفجر طائرته الوايلد كات.

بعد توقفات سريعة لغرض التزود بالوقود وإعادة التزويد بالذخيرة، عادت طائرات الوايلد كات الثلاث الباقية إلى الجوّ لمواجهة تشكيل جوّي ياباني مكون من ثلاثين قاذفة، والذي وصل مؤخراً لمساعدة الأسطول الذي يقوده الأدميرال كاجيوكا الذي كان يتعرض لضغط شديد. انقضّت طائرات الوايلد كات على طائرات نيلز اليابانية وأسقطت اثنتين منها وجعلت الثالثة كتلة من اللهب. خلال الاشتباك الجوّي الذي تلا ذلك، أصابت إطلاقة رصاص محرك طائرة فريولر رصاصة واخترقت الهيكل الداخلي للمحرك. وحيث إن المحرك توقف عن الحركة، فإنّ فريولر سيهبط بطائرته وكأنّها طائرة شراعية ثقيلة الوزن. أمّا الرقيب هاملتون، فقد استرجع الطائرة من ثيرين المصاب، على الرغم من الثقوب التي كانت في بدنها. ثم انخرط في المزيد من المعارك، وعندما هبط بها في نهاية المطاف، بدت طائرته الوايلد كات مثل غربال يُضرب به المثل.

في ذلك اليوم، سجلت مدافع جزيرة ويك وطائراتها أول انتصار أمريكي كبير.

توجه أسطول الغزو بقيادة الأدميرال كاجيوكا وسط شعوره بالإذلال بسبب الخسائر الكبيرة التي تعرّض لها، نحو جزر مارشال، وهو يلعق جراحه. اعتقد الأدميرال أنّه من الأفضل إبلاغ قيادة البحرية الإمبراطورية على الفور؛ رغم أنّه لم يفعل شيئاً جديراً بالذكر سوى تعريضه نصف قوة الغزو للتدمير أو لأضرار شديدة. كان بحاجة إلى إظهار القيام بإجراء حاسم قبل إعلان الكارثة. كان من المؤكد أنّه سيتعرض للتوبيخ من قبل الأدميرال ياماموتو لخسارته عدة سفن ثمينة، وفي النهاية، كتب في تقريره ما يبرر ما حدث: «قام الأمريكيون بهجوم مضاد قوي. تمّ إجبارنا على التراجع مؤقتاً».

في مقابل خسارتهم طائرتين (واحدة يمكن إصلاحها) وإصابة أربعة جنود من مشاة البحرية بجروح، تمكن الأمريكان من إسقاط خمس طائرات معادية، وإغراق مدمرتين، وإلحاق عدة أضرار بالطراد يوباري الذي يعتبره قائد الأسطول الياباني سفينته الحربية الرئيسة، فضلاً عن تحطيم طرادين قديمين. فقد المئات من البحارة في الانفجارات التي أصابت المدمرات. لم يكن هذا كلّ شيء. كان هناك سبع مئة جندي من قوة الغزو في قوارب الإنزال وسط مياه البحار الهائجة. عندما تمّ إلغاء الهجوم، وأثناء محاولتهم الصعود إلى سفنهم، اجتاحت الأمواج قوارب الإنزال غير المستقرة فابتلعتهم ظلمة خانقة في قاع البحر. بالنسبة للقيادة العليا لليابان، كان هجوم الأدميرال كاجيوكا في 11 كانون الأول بمثابة كارثة بكافة المقاييس. ولكن ما هو أكثر من ذلك، فإنّ الهزيمة في معركة ويك كانت نكسة أخلاقية. تعرّض «أسطولهم الذي لا يقهر» لهزيمته الأولى. لقد كشّرت أمريكا عن أنيابها. لم تستغرق تلك الحرب التي شهدها المحيط الهادئ سوى أربعة أيام.

تمّ تسريب قصة الدفاع البطولي عن جزيرة ويك لصحيفة أمريكية بسبب الحاجة الماسة للحصول على أنباء جيدة. أصبح القائد كننغهام

أحد صناع التاريخ لقيامه بصياغة برقية مشفرة. تنصّ قواعد الاتصال في البحرية الأمريكية على أن إرسال برقية مشفرة يجب أن يتمّ عن طريق مزج نصها مع بعض الرطانة للتشويش على أيّ اعتراض محتمل لها. وهكذا، كان نص رسالة كننغهام، التي تلقاها (القائد العام لقوات المحيط الهادئ) في جزيرة هاواي، كما يلي:

«أرسل لنا توقف الآن هو الوقت المناسب لجميع الرجال الطيبين للحضور لمساعدة رفاقهم الذي توقف كننغهام الكثير من اليابانيين».

بمجرد التمكن من فكّ شفرتها، يعرف المرء أنّها تطلب من القوات الأمريكية أن ترسل مساعداتها لأن المزيد من اليابانيين كانوا في طريقهم إليها. وقع النص عن طريق الصدفة، بيد متخصص في الحرب النفسية وكاتب سابق لشعارات الدعاية. أدرك مدى قيمتها الدعائية؛ وعن طريق حذف بعض الكلمات حولّها إلى أحد أكثر شعارات الحرب في المحيط الهادئ جاذبية: «أرسلوا لنا المزيد من اليابانيين!».

لم تساهم الشعارات في التخفيف عن الجنود الموجودين في جزيرة ويك. فلم يكونوا بحاجة إلى عبارات لتقوية الروح المعنوية. ما كانوا يحتاجونه هو القذائف والإمدادات والتعزيزات، والتي سبق أن وعدهم القادة بتوفيرها كلّها. تلقى القائد كننغهام برقية تمنحه الإذن لاستخدام «ورق القرطاسية المقوى الباهظ الثمن كبديل عن الزجاج في ألواح النوافذ التالفة». لم يكن هناك مكان بحاجة لذلك. لقد تسببت قنابل اليابانيين في تحويل جميع المباني ذات النوافذ إلى أنقاض. لم تعد القوة الجوية لجزيرة ويك المرجانية التي كان يقودها بوتنام تتألف سوى من طائرتين قتاليتين، وحتى تلك الطائرتان تمّ الاحتفاظ بهما معاً وسط مشاعر متحولة ما بين اليأس والأمل، تماماً كما حصل في معالجة طياريها وتضميدهما. في اليوم التالي، قاد القبطان تيرين إحدى الطائرتين وأسقط قارباً طائراً يابانياً كان يطلق عليه الأمريكان اسم مافيس. أمّا طائرة الوايلد

كات الأخرى، التي حلّق بها الملازم ديفيد كليوير وهو ملتصق بالجزء السفلي من الغطاء السحابي الكثيف، مثل ذبابة التصقت بالسقف، فقد حدّدت موضع غواصة يابانية صغيرة كانت تتحرك بالقرب من الجزيرة. اندفع بطائرته في هبوط حادّ، وأطلق قنبلة زنة 100 رطل. تسبّب الانفجار في جعل حطام الغواصة يطفو على السطح.

أصبحت الغارات الجوية بالنسبة للقوات الموجودة في الجزيرة المهجورة، أمراً روتينيّاً. حوّل القصف اليومي الذي تقوم به ثلاثين إلى أربعين قاذفة يابانية من نوع نيل الجزر المرجانية الثلاث إلى كومة من الأنقاض. مع عدم وجود أهداف أخرى لتدميرها، كان اليابانيون يقومون بإلقاء قنابلهم على الأماكن التي سبق أن قصفوها في اليوم السابق، أو في اليوم الذي سبقه. لم تستسلم القوات الأمريكية في جزيرة ويك للأمر. بل كشّرت عن أنيابها. أسقطت دفاعاتها الجوية عدداً كبيراً من القوارب الطائرة والقاذفات. مع كلّ هجوم، كانت موجات إطلاق النار مذهلة بقدر ما هي مخيفة. كانت القذائف تنفجر في سماء الجزيرة، وجعلتها تبدو وكأنّها قبة من الألعاب النارية وسحب من القطن الأسود. قامت بعض طائرات نيلز اليابانية بانعطافة حادة قبل أن تصل إلى الستار الناري وانفجرت قنابلها في الماء دون أن تسبب أيّ أذى. ولكن لم يفعل الجميع ذلك. واجه الكثيرون تلك العاصفة من النار وحلّقوا بشكل منخفض فوق الجزر. أمّا أولئك الذين كانوا على الأرض، والذين لم يكن معهم مدافع نشطة من عيار 3 بوصات، فقد جلسوا في جحورهم المحاطة بأكياس الرمل، وهم يصبون اللعنات، ويصلّون، وغرزوا أصابعهم في الرمال حتى مرّت العاصفة. بالنسبة للجميع، أصبحت الحرب عملاً روتينيّاً يبدأ بانتظار القصف وينتهي بإزالة الأنقاض.

في 14 كانون الأول، حاول القبطان فيولر أن يتجنب اصطدام طائرته الوايلد كات بعامل كان يعبر المدرج؛ فقام بتدويرها بشكل سريع وهي على الأرض لتصطدم برافعة كانت موجودة في المكان. في ذلك المساء نفسه، وخلال غارة قامت بها ثلاثون طائرة يابانية من نوع نيلز، حطمت

قنابلها آخر طائرة ويلد كات صالحة للطيران. باشر طاقم الميكانيكيين الأرضي بقيادة الملازم كيني بالعمل - وكان من بينهم الميكانيكي ماتي هيسون من سلاح البحرية الأمريكي، الذي كان يعاني من جرح عميق تسبب به انفجار قنبلة في صباح اليوم السابق. على الرغم من جرحه المفتوح وأوامر الطبيب الصارمة، كان هيسون يتسلّل من ملجأ الإسعافات الأولية ليؤدي واجباته ثم استمر يقوم بذلك على نحو فعال كما هو حاله دائماً. وقد ساهم النموذج الذي كان يمثله بالنسبة لبقية الميكانيكيين المنهكين، إلى رفع معنوياتهم بشكل حقيقي. أشاد القائد بوتنام بأفعال هيسون معتبراً إياها «قد شيدت الأساس لمنظومة الدفاع الجوي لجزيرة ويك بأكملها». في إحدى الليالي، قامت الطواقم الأرضية، بمساعدة فعالة من الميكانيكيين المدنيين، بتجميع طائرتين محليتي الصنع من خلال عملهما المشترك لتتمكنا من الطيران.

كان من الطبيعي أن تبالغ وسائل الإعلام في الاهتمام بما يحدث في أعقاب هجوم اليابان المفاجئ على بيرل هاربور والغرق المثير لقطع للأسطول الأمريكي في المحيط الهادئ حيث جعلت كلّ خبر يتعلق بالحدث متصدراً لعناوين صحف البلاد. وتلا ذلك المزيد من الأخبار السيئة. سقوط جزيرة غوام، وغزو الفلبين، وغرق السفينتين الحربيتين البريطانيتين، أمير ويلز وريبولس، قبالة سنغافورة، وسقوط هونغ كونغ بيد اليابانيين. تحول موقف الصمود البطولي في جزيرة ويك إلى عامل مهم رفع من معنويات الأمة. لم يكن هناك مراسلون مستقلون يرسلون الأخبار من الجزيرة المحاصرة، وكان على الصحافة الاعتماد على النشرات الرسمية الخاضعة للرقابة. مع تصدّر أخبار جزيرة ويك عناوين الصحف، تعيّن على قيادة البحرية الأمريكية القيام بخطوة ما لإظهار دعمها لرجال كتيبة الدفاع الأمريكية الأولى. تمّ تشكيل قافلة للإغاثة، تتكون من الطرادات الضخمة يو. أس. أس. أستوريا ومينيابوليس وسان فرانسيسكو. وكان من المقرّر أن ترافق حاملة الطائرات يو. أس.

ساراتوغا، بمجرد وصولها إلى مياه جزر هاواي بعد توقفها للتزود بالوقود قبالة سواحل كاليفورنيا. في ساعة متأخرة من يوم 15 كانون الأول، غادرت ميناء بيرل هاربور فرقة المهام 14، المؤلفة من قارب دعم الطائرات المائية الذي يطلق عليه اسم طنجة، وسفينة الوقود نيتشيس وحاملة الطائرات يو. أس. أس. ساراتوغا، والتي تمثل السفينة الحربية بقيادة الأدميرال فرانك فليتشر، وكانت تقوم بحمايتها أربع مدمرات. كان قارب دعم الطائرات المائية طنجة يحمل على متنه عناصر من كتيبة الدفاع الأمريكية الرابعة، بالإضافة إلى الذخيرة والمعدات الضرورية للغاية، بما في ذلك الرادار الأرضي. أمّا على متن حاملة الطائرات ساراتوغا فقد كان يوجد السرب الجوي أف. أم. أف. 221 بقيادة الرائد فيرني ماكول المؤلف من طائرات من طراز بروستر أف. 2 أي. بوفالو، وهي طائرة مقاتلة بطيئة غير مناسبة، يقودها طيارون لم يسبق لهم أبداً أن أقلعوا من حاملة طائرات. وبمجرد أن أصبحوا في عرض البحر، تمّ فتح الظروف المغلقة التي تحوي الأوامر ليتمّ إخبار الطاقم: «إن الوجهة هي جزيرة ويك!».

إذا كان الصمود في جزيرة «ويك» قد رفع من الروح القتالية للقوات الأمريكية، فإنّ تأثيره كان سيئاً على الروح المعنوية للمقاتلين اليابانيين. بالنسبة للأدميرال إيسوروكو ياماموتو، القائد الأعلى للأسطول الياباني المشترك، ونائب الأدميرال ناريوشي إنوي، قائد الأسطول الرابع، تحولت جزيرة ويك إلى كابوس. كان الأمر الذي وصل إليهم من القيادة العليا واضحاً: «يجب كسر شوكة الأمريكان!». تمّ إيكال هذه المهمة لحاملتي الطائرات العملاقتين سوريو وهيروي فخر البحرية اليابانية، ترافقهما ستة طرادات ضخمة، وقد وضعت تحت قيادة الأدميرال هيرواكي آبي. في 16 كانون الأول، توجهت قوة مساندة إلى جزيرة ويك مؤلفة من حاملتي طائرات تحملان على متنهما 118 طائرة هجومية، بحماية الطرادين الضخمين تون وتشيكوما والمدمرتين تانيكازي وأوراكاز. تمكنت القوة من إخفاء عملية تحركها عن أعين المخابرات الأمريكية لمدة ثمانٍ

وأربعين ساعة، قبل أن يعترض مركز تنصّت تابع للبحرية الأمريكية عملية إرسال برقية مشفرة تتحدث عن مهمة تقوم بها حاملتا طائرات؛ لم يتمكن الأمريكان من فك الشفرة وتحديد وجهتهما أو مكانهما الحالي.

بعد الصدمة التي أعقبت حادثة قصف بيرل هاربور، اقترح قائد الأسطول الأمريكي في المحيط الهادئ، الأدميرال كيميل، خطة متماسكة لنشر قوة قتالية أمريكية ضخمة لمساندة القوات المتواجدة في جزيرة ويك. لكن وزير البحرية فرانك نوكس، الذي طلب منه الرئيس روزفلت، الذي كان يخشى من نتائج التحقيقات التي كان يجريها الكونغرس، أن يجد كبش فداء لكارثة بيرل هاربور، قام بعزل كيميل. غيّرت إقالته الخطط العملياتية لقيادة أسطول المحيط الهادئ الأمريكي في هاواي. لم يكن الأدميرال بي. الذي حلّ محلّ كيميل مؤقتاً، على استعداد للمخاطرة بحاملة الطائرات ساراتوغا في مواجهة اثنتين من أكبر حاملات الطائرات في العالم، والتي أثبت طياروها مدى كفاءتها في بيرل هاربور.

كانت إجابة ماكموريس ضابط التخطيط الذي يعمل تحت إمرة القائد باي، عندما سأله عن رأيه في الاستغناء عن جزيرة ويك: «بصراحة يا سيدي، ليس لدينا فكرة عن حجم القوات اليابانية هناك».

سأله الأدميرال باي بتهكم: «أليس لديك أية أخبار جيدة تفرحنا؟».

«نوعاً ما. لقد خسر اليابانيون المعركة الأولى في جزيرة ويك. نعتقد أن العدوّ أراد استخدام المدرج الموجود هناك لتنطلق منه القاذفات التي ستدعم الهجوم على جزيرة ميدواي. رجال القائد كننغهام صامدون. لكنهم يطلبون الدعم».

لم يحسم الأدميرال باي قراره؛ تمّ السماح لفرقة المهام 14بالاستمرار في مهمتها، ولكن فقط بعد أن يتمّ تعزيزها بسرب آخر من الطرادات الضخمة من فرقة المهام 11.

تمّ رسم خطة الغزو على متن طراد الفرقة اليابانية الثامنة (بقيادة الأدميرال هيرواكي آبي): في هذه المرة، سيتمّ شنّ الهجوم على جزيرة

ويك دون القيام بعملية قصف تحضيري. تمّ تحوير اثنتين من المدمرات القديمة لتصبحا قاربي إنزال يستقلهما الجنود ولم يكن هناك من مانع في التضحية بهما؛ لأن عارضات قاعيهما ستصطدم بالشعاب المرجانية، كان من المفترض أن ترسوا في الجزيرة المرجانية وينزل منهما ألف فرد من نخبة قوة هجومية يابانية محترفة، وهي قوة الإنزال البحرية الخاصة الثانية المعروفة باسم ميزورو، وكانوا جميعهم من قدامى المحاربين الذين اكتسبوا خبرتهم من القتال في منشوريا. وتمّ إبلاغ قادة القوات البحرية والبرية أنّه يجب عليهم عدم التفكير في احتمالات فشل مهمتهم.

هبطت الطائرة المائية كاتالينا التي تعود للبحرية الأمريكية في بحيرة الجزيرة في 20 كانون الأول، وهي تحمل أنباءً عن محاولة الإنقاذ التي ستقوم بها فرقة المهام 14، والأوامر التي صدرت إلى القائد كننغهام بتهيئة ثلاث مئة وخمسين مدنيّاً بقوا في الجزيرة لكي يستعدوا لإجلائهم في يوم النصر، الذي يصادف صباح يوم 24 كانون الأول. أصبح الحديث الرئيس لعمال البناء. (سنكون في الوطن في أعياد الميلاد). سلّم الرائد بوتنام قائد الطائرة كاتالينا تقريراً إلى رئيسه في مجموعة دعم التدريب والطيران البحري 21، والذي توجه مباشرة لقراءة النقطة التالية: «... تمّ إبدال أجزاء الطائرات وقطع الغيار الأمامية بالخلفية وبالعكس حتى لا يمكن التعرف على أيّ طائرة. وتمّ نقل المحركات من طائرة إلى أخرى، وترميمها ونزع أجزاء منها وإعادة تركيبها وتصميم هياكل الطائرات جميعاً. في الواقع، لقد تحققت معجزة بتحليق آخر طائرة دلّت على براعة هؤلاء العاملين، فقد تمّ تركيبها من أجزاء تمّ إنقاذها من اثنتي عشرة طائرة محطمة». أضاف بوتنام سطراً جديداً إلى تلك النقطة: «لقد عمل الجميع بشكل رائع ودعموا بعضهم بعضاً بطريقة من المؤكد أن سلاح مشاة البحرية الأمريكي سيتحدث عنها بفخر».

في 21 كانون الأول، هاجم المزيد من الطائرات اليابانية الجزيرة المرجانية. شهدت هذه المرة فقط اشتراك القاذفتين اليابانيتين فال

وكيت، ترافقهما طائرات مقاتلة من طراز زيرو في تنفيذ الغارة! منذ أن انطلقت هذه الطائرات، أدرك المدافعون عن جزيرة ويك أن حاملة طائرات العدوّ موجودة بالقرب منهم. في الواقع، فإنّ الطائرات انطلقت من حاملة الطائرات العملاقة هيريو. في الساعة 11:35، قام الملازم كارل ديفيدسون، الذي كان يحلّق إلى الشمال من الجزيرة المرجانية، بالاتصال باللاسلكي بالنقيب هربرت فيولر الذي كان على متن طائرة الدورية الثانية ليخبره: «هناك تشكيل كبير من الأوغاد يقترب. سأشتبك معه».

انضم فيولر إلى ديفيدسون لمطاردة سرب مؤلف من ست طائرات من نوع كيتس. أسقط فيولر إحداها، وجعل الدخان يتصاعد من طائرة ثانية، قبل أن تضعه عدة طائرات من نوع زيرو في مرمى نيرانها. انفصل ديفيدسون عن فيولر ليطارد سرباً آخر. آخر مرة شاهد فيها فيولر الملازم ديفيدسون حين كان يطارد طائرة كيت بينما كانت خلفه أربع طائرات على الأقل من نوع زيرو. أطلقت إحدى هذه الطائرات النار على مؤخرة طائرة فيولر؛ اخترقت رصاصتان مظلة الهبوط الخاصة به ومقعده، أصيب فيولر بجروح بليغة وأصبح على وشك أن يفقد الوعي، دفع بمقود الطائرة إلى الأمام، وتمكن من أن ينزل بالطائرة بنجاح وأن يهبط بسلام. ولكن ما حدث حينها أن مظلة الهبوط علقت والنيران اشتعلت في الطائرة. لكن الطاقم الأرضي الذي كان في حالة تأهب تمكن من انتشاله من المظلة. أمّا الملازم كارل ديفيدسون فقد فُقد في البحر.

في 22 كانون الأول، كانت فرقة المهام 14 على بعد 425 ميلاً (680 كم) عن جزيرة ويك، ما يعني أقل من يوم واحد من الإبحار. ازداد قلق قائد الأسطول الأمريكي في المحيط الهادئ بشأن أحدث تقرير لكننغهام عن الهجوم الذي قامت به طائرات انطلقت من حاملة طائرات يابانية. وإلى أن يتمّ تقديم معلومات أكثر تفصيلاً، أمر الأدميرال بي. الأميرال فليتشر الذي كان على متن حاملة الطائرات ساراتوغا أن لا يقوم بتحريك سفنه.

بعد فترة وجيزة من منتصف ليل 23 كانون الأول 1941، اندفعت كتلة هوائية محملة بالأمطار فوق جزيرة ويك، أصبحت الرؤية وسط الزوابع الممطرة شبه معدومة. قال أحد أفراد كتيبة المدفعية من عيار 5 بوصة المتموضع عند نقطة بيكوك التي كان يقودها الملازم بيرنينغر، وهو يحدق إلى ظلام البحر: «إنّه يوم ممطر آخر، هذا النوع من الطقس ليس ملائماً للغزو».

لاحظ الملازم، وهو يصيخ السمع إلى صوت الأمواج التي تضرب الشعاب البحرية. إنها هادئة للغاية، بعد ذلك بعدة دقائق، اشتعل وميض عند الغيوم، اعتقد بيرنينغر في البداية أنّه ناجم عن برق بعيد. ومع ذلك، عندما استمرت الومضات تشتعل بشكل غير منتظم اتصل بالرائد ديفيرو ليخبره: «لقد رأينا ومضات من جانب الجزيرة المعاكس للريح»[5].

تساءل ديفيرو لكي يفهم: «هل هو إطلاق نار موجّه إلينا؟».

«كلّا، أبداً، ربما تكون الكتلة الهوائية تتحرك نحونا».

ازداد صوت دويّ الرعد، بدأ يهطل المطر. لكن الومضات لم تكن من البرق. كان بإمكان بيرنينغر أن يرى بقع ضوء شديدة تخرج من فوهات المدافع الكبيرة. اتصل بديفيرو مرة أخرى، هذه المرة كان الاتصال مصحوباً بفرقعة وتشويش وصدى. ومع ذلك، نجح بيرنينغر في أن يوصل الخبر السيئ: «هناك شيء ما قادم نحونا...».

أيقظ ديفيرو القائد كننغهام الذي اتصل بعد أن شاهد تلك الومضات، لاسلكيّاً بقائد الأسطول الأمريكي في المحيط الهادئ في الساعة 01:45: «هناك قصف مدفعي صادر من السفن الموجودة في الشمال الشرقي من الجزيرة».

انطلقت صفارات الإنذار ووضعت الحامية في حالة تأهب. قام النقيب بلات من البطارية(أل) في جزيرة ويلكس بتحديد موقع لطاقم المدفع الرشاش عند حافة البحيرة ليقوم بتغطية القوات المقتربة من

5- لم يثبت أبداً ماذا كان مصدر هذه الومضات.

الجسر عبر قناة ويلكس. قام الملازم آرثر بويندكستر بتجميع مجموعة متنوعة من المدنيين من وحدة إدارة المخيم وأضاف إليهم ثمانية أفراد من مشاة البحرية ليقوموا بإرشاد الوحدة. زوّدهم بأربعة رشاشات خفيفة وذخيرة كافية، وأخبرهم بالتوجه فوراً إلى جزيرة بيل. لكن قبل خروجهم، اعترض الرائد ديفيرو طريق أفراد مجموعة بويندكستر وأعادهم من حيث أتوا ليستخدمهم كاحتياطي متنقل.

عند الساعة 02:35. وصل اليابانيون سرّاً. تحت جنح الظلام ووسط أصوات الأمواج العاتية نزل أول قارب إنزال ياباني ليفاجئ راكبوه المواقع الأمامية للقوات الأمريكية ويأخذوا الجنود على حين غرة. وبدلاً من أن يراهم، شعر جندي المدفعية ماكينستري، المرابط في جزيرة ويلكس، فجأة بأشياء سوداء تتجمع أمامه. طلب الإذن لأن يشعل كشاف النور. استغرق الأمر بضع لحظات، لكنها كانت طويلة بما فيه الكفاية. أضاءت قوة شعاعه كلّ شيء على مدّ البصر. شاهد من خلال حجاب من المطر والظلام، مقدمة قارب إنزال يقف على بعد 200 قدم (150 متر) من موضع طاقمه.

لم يتمكن ماكينستري من أن يخفض ماسورة مدفعه الثقيل بدرجة كافية ليتمكن من إصابة القارب، لكن كان لا بدّ من القيام بشيء ما وبسرعة. أمسك رقيب الدورية هنري بيدل بحقيبة تحوي قنابل يدوية وهرول ومعه جندي المارينز ويلي بوهلر نحو الشاطئ. لم تكن هناك حاجة لديهما للانحناء أو الزحف خافضي الرؤوس أو التخفي. كان على ركاب قارب الإنزال أن يتخفوا حتى لا يتمّ اكتشافهم. ربما سيتمكن بيدل من الوصول إلى الشاطئ قبلهم. رأى مقدمة القارب تتجه إلى الأمام. وصل الاثنان إلى الشريط الرملي عند حافة الماء وتحركا خارج مجموعة من الأشجار المنخفضة، وسحبا مسامير قنابلهم. كان بيدل، وهو يخوض في مياه الأمواج، على وشك أن يقذف قنبلته، حين دوّى صوت طلقة نارية، تلاه على الفور صوت عشرات الإطلاقات الأخرى. لم يعد بإمكانه أن يفعل شيئاً، وقعت القنبلة من يده

وسقط ميتاً وسط الماء. لاحق بوهلر عدد من الرصاصات أيضاً، لكنه تمكن من الزحف واختبأ خلف عدد من رؤوس الشعاب المرجانية. بعد لحظات، وحين وصل القارب نزل منه فصيل من وحدة تاكانو التابعة لقوة الإنزال البحرية الخاصة. هرع ماكينستري وجندي آخر من مشاة البحرية إلى مدفع رشاش من عيار 50 بوصة، ليحمي مدفعه الرشاش من عيار 3 بوصة، وأطلقا منهما وابلاً من الرصاص تجاه الغزاة. ومن أحد جوانبهم، أرسل مدفع رشاش آخر سيلاً من الرصاص نحو اليابانيين المتقدمين. فاجأت النيران التي أطلقها جندي مشاة البحرية ساندي كاي من مدفعه الرشاش من عيار 50 درجة وأصابت وحدة تاكانو من جناحها أفرادها وأصيبوا بصدمة أجبرتهم على وقف تقدمهم الذي كانت غايته الوصول إلى موضع المدفع طراز 3 بوصة. هذا التأخير القصير منح طاقم المدفع وقتاً لاستخراج دبابيس إطلاق النار من المدفع ودفنها في الرمال.

في الساعة 02:50، أرسل كننغهام برقية لاحقة إلى قائد المنطقة البحرية الأمريكية الرابعة عشرة: «الجزيرة تتعرض إلى إطلاق نار. يبدو أن العدوّ قام بإنزال».

في الطرف الجنوبي من جزيرة ويك، عند نقطة بيكوك، بدأ الرقيب ريموند غراغ، المسؤول عن فصيل مدافع رشاشة كان قد أخذ مكاناً له خلف أكياس الرمل التي كانت تحيط بشكل وقائي بطارية مدفع عيار 5 بوصات بإمرة الملازم برينغر، يسمع صوت سائل يترجرج وصرير شديد قادم من الظلام. بدا وكأنّه صوت محرك سفينة كبيرة الحجم. لكنه لم يكن كذلك! كان يفصل بينه وبين اليابانيين حاجز مغمور بالمياه من الشعاب المرجانية ذات الحواف الحادة لحماية الجزيرة من أيّ إنزال بحري. كان غراغ متأكداً من شيء واحد، لم يكن الأمر يبدو مثل صوت صرير محرك دفع ثنائي الأشواط.

تمتم أحد رجاله قائلاً: «أيها الرقيب، كم يزعجني سماع هذا الصوت».

«أغلق فمك، أيها الجندي!» صاح الرقيب المخضرم. لكن الصوت ظلّ

يزداد حدة. كان هناك شيء كبير يتجه نحو الشاطئ، يتبعه هدير مستمر صادر من محركات ديزل لسفن بحرية عالية السرعة وكانت قريبة جدّاً. لم يكن هناك أدنى شك فيما يتعلق بمصدرها، قام الرقيب غراغ بالاتصال بمركز القيادة لإبلاغه: «هناك قارب إنزال كبير للعدوّ يقترب من مواضعنا. المسافة التقديرية 1000 يارد (900 متر). كان يبعد عنه مسافة 500 يارد (450 متراً).

جاءه صوت ديفيرو: «اصمد أنت والرجال الذين معك»، فقال في نفسه: «اللعنة، والرجال الذين معي؟» ما كان يتجه نحو الشاطئ هو أعداد كبيرة للغاية مقارنة مع بضعة رجال كانوا معه واثنين من المدافع الرشاشة. «أوامر الرائد تقول يجب علينا أن نصمد!» قاموا بالاختباء وراء أكياس الرمل الخاصة بهم. فجأة صدر صوت انفجار مدوّ.

«يا لابن العاهرة! ها هم قادمون...» صرخ أحد رجال المدفعية وضغط على الزناد اهتزّ مدفعه الرشاش الثقيل وهو يقذف بنيرانه بينما كانت مقدمة سفينة كبيرة تشقّ طريقها وهي تمزق الشعاب المرجانية التي تصادفها وتصاعد زئيرها وهي تتجه مباشرة نحو مواضعهم. انغرزت مقدمتها في الرمل عند الشاطئ، وباتت لا تبعد أكثر من 50 ياردا (45 متراً) عن الرقيب غراغ. تدفق منها المئات من اليابانيين وهم ينزلون على حبال السلالم. لم يكن يمنعهم هذه المرة شيء. فقد جاؤوا في موجات انتحارية. كانت الليلة حالكة الظلام تصاعدت فيها أصوات القذائف المتساقطة، وأزيز الشظايا وصرخات غريبة.

قام الملازم روبرت حنا، المسؤول عن المدافع الرشاشة الموجودة بالقرب من المدرج، مع العريف رالف هولوينسكي وثلاثة مدنيين، هم بول غاي، وإريك ليولا وبوب برايان وأخذوا معاً، بالركض متجهين نحو مدفع من عيار 3 بوصات كان خلف المدرج ويتجه بشكل مباشر نحو المهاجمين اليابانيين الذين كانوا يصرخون. وقف أحدهم باستقامة، وبدأ يرمي بمدفعه الرشاش من طراز طومسون، على أفراد العدوّ المتقدمين حين كانوا على وشك الاستيلاء على المدفع.

كشف الرائد بوتنام لطاقمه عن الحفر الصغيرة في المدرج بعدها بدؤوا بزرع الألغام المضادة للدبابات على طول المدرج. وهكذا فإنّ أيّ طائرة يابانية تحاول الهبوط ليلاً، ستنفجر.

بدأت السفن الحربية اليابانية في إطلاق موجة بعد أخرى من قوارب الإنزال الصغيرة لترسو على الشاطئ. بحلول الساعة 03:00، بدأ العدوّ يقيم رؤوس جسور في الجزر الثلاث؛ وقاموا بقطع خطوط الهواتف الأرضية، وبذلك فقد الرائد ديفيرو جميع اتصالاته مع مواضع مدافعه النائية؛ لم يكن يعرف مكان أو عدد من وصل من أفراد العدوّ إلى الشاطئ. حينها أمر المفرزة الاحتياطية المشتركة بقيادة الملازم بويندكستر والمكونة من ثمانية أفراد من مشاة البحرية وأربعة عشر من عمال البناء المسلحين بالقنابل اليدوية والمسدسات وأربعة مدافع رشاشة بإقامة خط دفاعي عند نقطة التقاء معسكر البناء مع المدرج؛ وبهذه الطريقة يمكنهم أيضاً اجتياح الجسر الضيق المقام فوق قناة ويلكس، والذي يفصل جزيرة ويك عن جزيرة ويلكس. عبر الشريط الضيق من المياه بدأت الأنوار تومض من فوهات مئة بندقية. وبدأت القذائف تخرج من مدفع رشاش اليابانيين بشكل متقطع. كانت إطلاقات الرصاص تئزّ فوق رؤوسهم. لكنها لم تصبهم جميعاً. بل البعض منهم.

«لقد شلّوا حركتنا»، صاح أحد أفراد طاقم البناء، وهو يعاود إطلاق النار بشكل متكرر من بندقيته من طراز سبرينغفيلد على الظلال التي أمامهم. كان يتمدد بجانبه رفيقه الميت. ودون أن يعلموا، فقد نزل اليابانيون خلفهم، وأحاطوا بهم للقضاء عليهم نهائيّاً. بدأ عامل بناء آخر يصرخ وقبل أن يتمكن أيّ شخص من إيقافه، كان قد فقد السيطرة على نفسه. تأرجح إلى الوراء ومال بجسمه وسط صرخة احتضار مكبوتة، لقد ثقب صدره الرصاص. اكتشف بويندكستر قاربي إنزال آخرين يحاولان الطفو عبر سطح المرجان. وبينما جعل الملازم بويندكستر قائد القارب الياباني يضطر لأن يبقي رأسه منخفضاً بإطلاقه النيران بشكل مستمر من

مدفعه الرشاش، انطلق رجلان من وحدته إلى الشاطئ واختبئا خلف رؤوس المرجان. ما إن توقفت الزوارق عند الرمال، حتى قام «النقيب» روتلدج، المشرف على طاقم البناء، وبارنز المقاتل الماهر، بإلقاء القنابل اليدوية على القوارب، مما أدّى إلى مقتل عدد كبير من الأعداء. وهكذا، انقلبت القوارب واندفع اليابانيون من فوق موتاهم ومن كان يحتضر منهم كالطوفان ليصلوا إلى الشاطئ.

كانت مجموعة بويندكستر الصغيرة ترى العدوّ، ليس كأفراد، ولكن ككتلة ضخمة من الأشكال التي تتحرك في الظلام. جاؤوا وهم يصرخون بوحشية وتدفقوا عبر الجسر. بسبب لهيب النيران التي انطلقت بشدة من قوارب الإنزال، تشبثت تلك المجموعة الصغيرة من مشاة البحرية الأمريكية والمدنيين بمواضعها. قاتلهم أفرادها بالرصاص وأعقاب البنادق والمجارف والقبضات العارية. ووسط انخراطهم في عراك فردي وحشي، كان اليابانيون والأمريكيون يترنحون بسبب تعثرهم بالحلزونات المنتشرة بكثافة وهم يبكون وينزفون ويتمايلون ويسقطون. على الرغم من التضحية الكبيرة التي قدمتها مجموعة بويندكستر الصغيرة، إلّا أن اليابانيين نجحوا أخيراً في عبور الجسر.

أمّا في جزيرة ويك، فقد كان رجال الملازم حنا يقومون بحشو القذيفة تلو الأخرى في المؤخرة الساخنة والتي تتصاعد منها الأدخنة لمدفع من عيار 3 بوصة تمّ إصلاحه مؤخراً. وأطلقوا من مسافة قريبة، أربع عشرة قذيفة على سفينة حربية كانت ترسو على الشاطئ، عالقة في الشعاب المرجانية، أصابت خزانات الوقود وأشعلت النار فيها. وصلت النيران إلى وقود الديزل الموجود في صهاريج التخزين في السفينة، مما أدّى إلى تصاعد اللهب من وسط كرة من النار؛ واهتزت السفينة بفعل الانفجارات الداخلية. لقد كانت الانفجارات مدمرة بالقدر نفسه بالنسبة للرجال الذين حاولوا النزول في قوارب الإنزال الصغيرة، حيث اشتعلت النار في ملابسهم وشعرهم. وسط وهج النيران المشتعلة، كان بإمكان

رجال الملازم حنا أن يشاهدوا اليابانيين وهم يقذفون بأنفسهم إلى البحر ليسقطوا في المياه التي يغطيها الزيت المحترق. توقف عدد قليل من رجاله لينظروا إلى سفينة الموت. صرخ حنا بحرقة: «هيّا أسرعوا!».

كشفت ألسنة اللهب عن وجود سفينة ثانية كانت راسية في الجوار، فقام «طاقم المدفعية من المدنيين» بقيادة الملازم حنا بتغيير وجهة أهدافهم. عندما حاولت حفنة من اليابانيين التسلّل إلى موقع المدفعية، سحب حنا ببراعة مسدسه البراوننغ عيار 45 وفي غضون لحظات، تمدد ثلاثة يابانيين قتلى أمامه. أظهر هذا الحادث الحاجة الملحة لإسناد آخر مدفع يعمل كان بحوزتهم. لم يكن من المتوقع أن يصمد الملازم حنا لفترة أطول. أمر ديفيرو أطقم الطائرات التي يقودها بوتنام بإقامة طوق دفاعي حول المدفع.

عند الساعة 06:12، تحركت حاملة الطائرات اليابانية العملاقة سوريو، الموجودة على بعد 250 ميلاً (400 كم) إلى الجنوب، عكس اتجاه الريح وانطلقت منها اثنتا عشرة طائرة هجومية. في أقل من ساعة، كانت الطائرات تشق طريقها نحو المعقل الأخير للأمريكان في جزيرة ويك، كانت الحرائق مشتعلة في كلّ مكان، ولم يعد هناك أيّ مكان يمكن الاختباء فيه. في موقع معسكر البناء، انضم إلى الملازم بويندكستر الكثير من الجنود الذين ضلّوا طريقهم، واستطاع بفصيل مكون من خمسة وخمسين رجلاً، أن يصدّ الهجوم الذي شنّته كتيبة يابانية قوامها ثماني مئة فرد.

كشف الضياء الأول في النهار أن جزيرة ويك التي تشتعل فيها النيران ويتصاعد منها الدخان كانت مطوقة بطائرات البحرية اليابانية. ألقت الطرادات الضخمة أوبا وكينوغاسا وفوروتاكا وكاكو بقذائفها على دفاعات الجزيرة الواحدة تلو الأخرى، وفاقت شدة القصف البحري كلّ وصف. غطّت الجزر المرجانية الثلاث سحابة كثيفة من الغبار، تصاعدت مثل الدوامة في الهواء بسبب طوفان القذائف التي كانت تتساقط. هذه المرة، كان الأدميرال كاجيوكا متأكداً أن الانتصار الأمريكي المفاجئ الذي حدث قبل بضعة أيام لن يتكرر في هذه المرة. كان معدل تساقط قذائف العدوّ في

تصاعد مستمر، وكانت القنابل الثقيلة تسقط على شكل كتل، لتنفجر فوق الرمال والخنادق ومشاة البحرية. قبل وقت طويل من سماع صوت سقوط القذائف، كان دخانها يخرج إلى الهواء ويتسبب في نوبات من السعال. كان مشاة البحرية يتقيؤون مادة الكوردايت المتفجرة المسببة للغثيان قبل أن تنتشر في الهواء. كانت أفواههم، وأنوفهم، وآذانهم مسدودة بالتراب وعيونهم لا ترى شيئاً بسبب الرمل. لم يعودوا يفكرون باليابانيين الذين أمامهم، بل بأولئك الذين خلفهم. كان جسم أحد جنود المارينز يتدلى من الخندق والدم يسيل عند أسفل ساقه. كانت أصوات الانفجارات والقذائف التي تمرّ من فوقهما تتخلل صراخ صاحبه وهو يخاطبه بأعلى صوته: «تكلم معي يا تشاك!» لكن تشاك لم ينطق بكلمة. لقد مات.

كانت قذائف الهاون تنفجر وسط الشعب المرجانية الكثيفة الممزقة. حين حدث ذلك عندما سمع ديفيرو أزيزاً خاطفاً جعله ينحني غريزيّاً، دوّت أصوات قذائف الهاون وانفجرت في تتابع سريع بالقرب من موضعه غير المحمي. أحاط به ضوء غشي عينيه وغمره دفء رائع قبل أن يصيبه ارتجاج جعل قواه تخور وأبقاه مرمياً على الأرض. ظنّ رجاله أنّهم فقدوه، لكنه نهض بعد ذلك من جديد وقد غطاه الغبار وينزف من أثر جروح في جبينه. في كلّ مكان، كان رفاقه المارينز يواصلون قتل اليابانيين بأقصى طاقتهم. تمّ إجبار العدوّ على التراجع في كثير من الأماكن. غسلت الأمواج الجثث الموجودة عند الشاطئ، تاركةً إياها متناثرة على الرمال؛ طفت الجثث وسط المياه وقد غمرت رؤوسها وأكتافها الأمواج التي كانت تفصل ما بين الشعاب المرجانية والشاطئ. على الشاطئ الرملي، احتشدت مجموعة من اليابانيين حول مدفعهم الرشاش. لم تنطلق من هذا المدفع سوى عشرين إطلاقة قبل أن يلقى طاقمه مصرعه جرّاء إصابة مباشرة بقذيفة من عيار 3 بوصة. لم يكن من شأن حرق السفن ولا الخسائر البشرية أن يوقف الأدميرال كاجيوكا. كانت ناقلات الجنود تقذف بالمزيد منهم. ساعدت الأمواج في أن تتهادى القوارب الصغيرة

فوق الشعاب المرجانية. والمثير للدهشة أن بندقية الملازم حنا من عيار 3 بوصات كانت لا تزال تطلق النار، بالإضافة إلى أن الطاقم الميكانيكي الذي يقوده الرائد بوتنام ضرب طوقاً من المدافع الرشاشة حوله. خدشت رصاصة فك الرائد ونقعت بالدم قميصه وصورة لزوجته وبناته.

خاطب رجاله قائلاً: «ما هذا بحق الجحيم، إنّه أبعد مما كنا نرمي إليه».

التفت إلى إيلرود، قائلاً: «أريد أن توفر لي الحماية». ثم توقف عن الكلام حينما بدأت تتصاعد أبخرة مادة الكوردايت من حول خندقه بسبب انفجار مجموعة من قذائف الهاون. عندما انقشعت سحابة الدخان، رأى إيلرود يتمشى، معتدّاً بنفسه في مكان بعيد عنه، كانت ملامحه تخفي تصميماً عالياً. إنّه الطيار البطل، الذي أسقط بعض الطائرات وأغرق مدمرة، وكان من ضمن مجموعة من مهندسي الطيران التي صمدت إلى جانب خط دفاع القائد بوتنام، واتخذت لها موضعاً وسط شجيرات كثيفة بالقرب من المدفع الكبير، ولم يكن بإمكان أيّ قوة هجومية تقتحم المكان من البحر أن تراها. قفز اليابانيون بالمئات من قواربهم وخاضوا في المياه ليتقدموا بصعوبة نحو الشاطئ. كان إيلرود يعلم أن عدد رجاله القليل لا يعني شيئاً مقارنة بهم، وأن هناك على الأقل سريتين تتقدمان نحوهما، لكنه لم يعتبر وضعه ميئوساً منه؛ فقد اتخذت قواته موقعاً متميزاً لها، ولم يعد بوسع مدافع العدوّ البحرية التدخل، وإلّا ستقوم بإبادة جنودها. فعل العدوّ بالضبط ما كان إيلرود يتوقع أن يقوم به، وهو شنّ هجوم أحادي المركز. وهذا ما جعل قواته تصبح في مرمى النيران الثابتة للمدافع الرشاشة لمجموعة إيلرود.

صرخ إيلرود: «الرمي حرّ»، بينما كان أفراد الموجة الأولى من الهجوم لا يزالون يخوضون في المياه التي كانت تصل إلى مستوى الكاحل. تفجرت مجموعة من الشجيرات. فيما انكسر الصمت الذي كان مخيّماً على المكان بفعل الأصوات المتقطعة الحادة للقعقعة العنيفة للمدافع الرشاشة الثقيلة وكأنّها صاعقة نزلت من السماء الصافية. فيما

أدّت رشقات الرصاص التي كانت تصطدم بالمياه إلى اشتعال الوميض عند الشاطئ. تمّ القضاء على الموجة الأولى من جنود العدوّ، لكن ذلك لم يمنع الآخرين من التقدم إلى الأمام، غير آبهين بالخسائر التي تعرضوا لها. أطلق الأمريكان كشافاً سطع وميضه في السماء. كشفت أنواره مكان المهاجمين وقد أصابهم الذهول من سطوعه المبهر. رفع ضابط ياباني يده كما لو كان يطلب من المدفع الرشاش أن يتوقف. لقد كان هذا آخر عمل يقوم به لأنّه سقط بعد ثوانٍ بفعل رمي المدافع الصاعق الذي مزق حزامه وبدلته العسكرية وجسده. غابت عن الأنظار موجة أخرى من المهاجمين، وما لبث أن سقط أفرادها صرعى على بعد بضع ياردات من مواضع الأمريكان. كان إيلرود يتنقل من موضع إلى آخر، ليرفع من معنويات رجاله. لم يقف متفرجاً عندما وصل الأمر إلى حصول اشتباك بالأيدي، حيث إن الرعب الذي اجتاح قلوب الرجال جعلهم ينقضّون بعضهم على بعض مثل الوحوش الكاسرة – كان يبدو أن ثبات وصمود هذا الرجل لا يتزعزع. عند وصول المزيد من الأعداء للهجوم على الشاطئ، فاجأهم ستار من الرصاص جعلهم يتخبطون وهم يواجهون الموت الأكيد. لم يصل سوى عدد قليل جدّاً منهم إلى غطاء من الشجيرات الكثيفة، ومن نجح في ذلك، كان يصرخ وهو يلوح بحرابه، ثم انخرطوا قي قتال مع جنود المارينز الذين قفزوا من قمة ساترهم المشيد من الأكياس الرملية وبدؤوا يضربونهم بأعقاب البنادق أو غوارزها. كانت مجموعة من المهاجمين على وشك الوصول إلى مدفع الملازم حنا من عيار 3 بوصة. جمع إيلرود خمسة رجال، بمن فيهم الجندي أول هيسون، وكان لا يزال يعاني من جروح الشظايا التي لم تمنعه من إطلاق النار من المدفع الرشاش نوع طومسون. وسط الصراخ والشتائم قاموا بتوجيه رصاص بنادقهم باتجاه العدوّ المتقدم نحوهم، مما أسفر عن مقتل عدد كبير من اليابانيين. وجه أحد رجال إيلرود الخمسة سلاحه نحوهم بشراسة وأوقع في صفوفهم العديد من القتلى،

فجأة دوّى صوت رصاصة. رمى سلاحه وسقط على الأرض فقد أصابته الرصاصة في كتفه.

«انزلوا يا رفاق!» صرخ العريف هولوينسكي. هناك قناص ياباني لعين في مكان ما. دوّى صوت ارتطام رصاصة بالمرجان الذي كان يقف عليه العريف فخدشت قدمه وتسببت في ألم شديد. لا بدّ أن تكون تلك الرصاصة قد جاءت مباشرة من كومة الجثث الموجودة بالقرب من الشاطئ. قفز إيلرود وحرك بذراعه المدفع الكبير.

صاح إيلرود قائلاً: «هيّا يا أصحاب. لا تتكاسلوا. سنأخذ قسطاً من الراحة عندما نصل إلى هناك...» كان الدافع وراء ما حدث أخيراً هو غريزة البقاء على قيد الحياة، التي تجعل المرء يفعل ما كان يخاف من فعله، وليدرك أن الطريقة الوحيدة للتغلب على الخطر هو القيام بمجازفات جنونية. أخذ إيلرود نفساً عميقاً وفعل ما يجب القيام به. ركض نحو المدفع. أسرع رفاق إيلرود الأربعة بالركض وسط الشجيرات الكثيفة باتجاه مدفع الملازم حنا. واصل الجندي أول هيسون مسيره، وتركيزه منصبّ على ذلك القناص الخفيّ، مع منظر جسده وهو يتمدد على قمة كومة من جثث القتلى اليابانيين كانت ملقاة هناك. ربما كان ذلك القناص ابن العاهرة يوجه بندقيته نحوه. صادفتهم نصف دزينة من أفراد العدوّ. هذه المرة لم يكن هناك صراخ أو ارتباك؛ كان عملاً جماعيّاً لأناس متمرسين، لم يستمر سوى بضع ثوانٍ فقط. عند القتال اليدوي، تميز جنود المارينز ذوو البنية الضخمة على الجنود اليابانيين الأقصر منهم بوزنهم الثقيل وقوة عضلاتهم. وساعدهم ذلك بالفعل، فقد توقف اليابانيون جامدين أمامهم. تجمع جنود المارينز البحرية وهم ملطخون بالدماء تحت مظلة من الشجيرات الكثيفة، وهم يتنفسون بصعوبة، ويزيلون العرق عن وجوههم.

صدر صوت ارتطام شيء ما! ومع الدويّ المفاجئ لانطلاق رصاصة، انزلق المدفع الرشاش من يد إيلرود. سار بعض الخطوات غير المتوازنة قبل أن ينهار ويسقط على الأرض. لقد أطلق أحد اليابانيين النار على

نقيبهم الشجاع، كان يتظاهر أنّه ميت وسط حشد من القتلى. سحب هيسون دبوس قنبلته اليدوية وألقاه في كومة الجثث، وقلبها رأساً على عقب انتقاماً لقائده الذي سقط ميتاً. لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله من أجله. لقد أصيب بطل جزيرة ويك بجروح قاتلة.

«لقد مات النقيب...» كانت وجوه رفاقه قاتمة. كان فقدان النقيب إيلرود يعني بالنسبة لهم أكثر من مجرد فقدان قائد؛ فقد اعتبره كلّ فرد منهم خسارة شخصية له، كانوا يحترمونه، وكان يحترمهم. حمل اثنان من الجنود جثة النقيب ونقلوها إلى الملجأ المحاط بأكياس الرمل. كان ذلك كلّ ما يمكنهم فعله من أجل رفيقهم الشهم. ربما كان قدراً لا مهرب منه أن يكون مصير أفضل الرجال هو الموت.

بينما وقعت هذه المذبحة في بقعة صغيرة وسط المحيط، تدفقت الرسائل إلى القيادة العامة للأسطول الأمريكي في بيرل هاربور من جميع محطاتها العاملة في المحيط الهادئ. ما عدا محطة جزيرة ويك فقد كانت تمثل استثناء، حيث سلطت عليها الأضواء إلى حدّ كبير. كان لا بدّ من فعل شيء. دعا الأدميرال باي أعضاء القيادة العامة إلى عقد اجتماع. أعرب رئيس المخابرات عن قلقه بشأن التقارير التي تحدثت عن وجود حاملة طائرات يابانية في الجوار. كان الوقت ثميناً، وكان على فرقة المهام الوصول إلى جزيرة ويك قبل أن تقترب حاملة الطائرات اليابانية وتطلق طائراتها. كان الخيار بسيطاً: إبطاء سرعة حاملة الطائرات ساراتوغا حتى تتمكن السفن المرافقة من أن تصل إليها، ولكن تفويت فرصة الوصول إلى هناك في الوقت المناسب، أو عطل شاشة الرادار، سيجعلها تسير من دون سفن مرافقة لها مما يعرضها لخطر القصف من قبل قاذفات العدوّ.

«لا يمكننا تحمل خسارة إحدى حاملات طائراتنا». انطلاقاً من هذه العبارة، قرر الأدميرال باي استدعاء فرقة المهام المشتركة 11/ 14. تلقى الأدميرال فليتشر، الذي سارع إلى نجدة القوات في جزيرة ويك، أمر باي

«بالعودة دون إجراء أيّ احتكاك مع العدوّ». عندما تمّ استلام البرقية على متن حاملة الطائرات الأمريكية ساراتوغا، احمرّ وجه الأدميرال فليتشر غضباً، ونزع قبعته ورمى بها على الطاولة. لم يكن الشخص الوحيد الغاضب؛ فقد كان ذلك حال القائد الجوّي لأسطوله، الأدميرال أوبري فيتش، بالإضافة إلى أفراد طواقم الطيران القتالية الموجودين على متنها، والمتلهفين لتفريغ قنابلهم فوق السفن التي قتلت رفاقهم في بيرل هاربور. أثار أمر باي بالعودة جدلاً واسعاً، خاصةً بعد أن بات معروفاً أن «جزيرة ويك البطلة» قد تمّ التخلي عنها لتواجه مصيرها بنفسها.[6] لو تمّ السماح لفليتشر بالاستمرار، فإنّ معركة ميدواي الحاسمة ربما كانت قد بدأت قبل شهور عديدة. من يعرف؟ أو ربما كانت حاملة الطائرات الثمينة ساراتوغا قد غرقت. بقي الوضع على حاله، واصلت مسيرها لتنال مجدها في يوم آخر ولكن فيما يخصّ جزيرة ويك، فقد سبقهم اليابانيون ووصلوها في يوم ما.

بالنسبة للمدافعين عن الجزيرة المرجانية، لم يكن هناك أيّ شك في أن النتيجة كانت تتضمنها برقية قصيرة من القائد العام للأسطول الأمريكي في المحيط الهادئ «لن تكون هناك سفن صديقة بجواركم في هذا اليوم». لقد تركت القوات في جزيرة ويك لتواجه مصيرها بنفسها لم يكن رجال ديفيرو يتوقعون أن تأتيهم النجدة.

كان فصيل ياباني قد توجه في وقت سابق بشكل مباشر نحو البطارية أف. في جزيرة ويلكس. حاول طاقم المدفع عبثاً منع اليابانيين من الوصول إلى مواضع مدافعهم من عيار 3 بوصة.

أراد النقيب ويسلي بلات، قائد القوات في جزيرة ويلكس، أن يعرف

6- عندما سئل ديفيرو في عام 1970 ما إذا كان وصول قوات من فرقة المهام لإغاثتهم سيحدث أيّ فرق في النتيجة في جزيرة ويك أجاب قائلاً: «أشك في أن فرقة المهام هذه، بحجمها وتكوينها، كان بإمكانها أن تكون فعالة للغاية... أعتقد أنّه كان من الحكمة... التراجع».

كيف تسير الأمور فتوجه بالسؤال إلى الرقيب ريموند كولسون: «كيف هو الموقف عندك؟».

جاءه الردّ جافّاً من الرقيب: «سيئ».

فقال له بلات: «أخلوا مواضعكم على الفور. وانصب مدفعي رشاش متوسطي الحجم من عيار 30، ليقوما بتغطية عملية انسحاب رجالك».

بات حفنة من الأمريكيين الذين نجوا من الهجوم الأولي، يزحفون الآن في ضوء الفجر، يجرون معهم رفاقهم الجرحى. تمكن الرقيب كولسون من وقف حركة العدوّ بتوجيه تيار متواصل من النيران نحوه بينما توجه رفاقه نحو مجموعة الشجيرات الكثيفة طلباً للأمان.

شعر الرائد ديفيرو وكأنّه رئيس فرقة إطفاء يحاول إخماد حريق بخرطوم مياه مثقوب؛ فهرع بآخر ما عنده من تعزيزات وتوجه بها إلى النقيب بلات والملازم ماك أليستر لاستعادة المدفع 3 بوصة المتروك والعائد للبطارية أف. في جزر ويلكس، اقتحم بلات وماك أليستر ومجموعة من جنود المارينز مجموعات الشجيرات الصغيرة والرمال ببنادقهم الملتهبة، وأطلقوا النيران منها وهي عند وركهم ويقذفون بالقنابل اليدوية. تعالت أصوات الصراخ والشتائم والانفجارات والمدافع الرشاشة التي تنفث اللهب، بدؤوا يصطادون أفراد العدوّ المحتشدين جنباً إلى جنب عند نقطة ارتكازهم بواسطة رشق متقطع من طلقات الرصاص المتقاربة؛ سقط عشرة يابانيين ثم عشرون وبعدها أصبحوا مئة ليتكدسوا فوق كومة من الأجساد التي تئنّ من الألم. استعاد رجال ماك أليستر المدفع، إلى جانب صناديق الذخيرة المتروكة وأكياس من الأرز. كانت هزيمة العدوّ ساحقة. خلفت هذه الصولة التي استمرت لأقل من دقيقتين، في أعقابها ثمانية وتسعين قتيلاً يابانيّاً وفقدان أحد عشر فرداً من قواتهم. كان ذلك بمثابة الانتصار النهائي لمشاة البحرية الأمريكية في جزيرة ويك.

في الساعة 06:52 (التي توافق الساعة 10:32، من يوم 22 كانون الأول

1941، في بيرل هاربور)، أرسل القائد كننغهام برقية لاسلكية إلى قائد الأسطول الأمريكي في المحيط الهادئ: «الأعداء في الجزيرة هناك تحرك لبضع سفن حربية إضافة إلى عدة ناقلات جنود، الهزيمة وشيكة». بعد إرسال هذه البرقية، صمت جهاز اللاسلكي في جزيرة ويك تماماً.

بحلول الساعة 08:00، كانت جزيرة ويلكس ما زالت صامدة، بل وصدّت الهجمات المتتالية، ولكن الطوق الدفاعي حول جزيرة ويك تقلص إلى حجم ملعبين لكرة القدم. بعد موقف بطولي دام ما يقرب من ست ساعات، بدأت تظهر آثار الضغط والإرهاق ونقص الذخيرة. تعرض جميع الرجال، وقد غطى وجوههم مسحوق أسود، إلى إصابات. تمكن الرائد ديفيرو من العثور على خط هاتف أرضي لم يتمّ قطعه يوصله بالقائد كننغهام في مقرّ القيادة العامة. كان أول شيء سأل عنه: «ما هي أخبار قوة المهام المكلفة بالإغاثة؟».

«لقد ألغيت عملية إرسالها... ما هو الموقف لديكم؟».

«سيّئ تماماً المكان كلّه في حالة خراب. إنهم يزحفون نحونا من كلّ مكان. لا يستطيع رجالي الصمود لفترة أطول».

سادت فترة من الصمت المؤقت، قبل أن يقول كننغهام: «حسناً، لقد قمنا بكل ما نستطيع فعله. يجب الآن أن نعتني بإنقاذ الأرواح...».

لقد كان موقفهم بطوليّاً. لا أحد يستطيع أن يلومهم لأنّهم ألقوا أسلحتهم. خوّل كننغهام الرائد ديفيرو للبدء في خطوات الاستسلام الفوري. بعد بضع دقائق، وصل موزع البريد حاملاً رسالة إلى الملازم بارنينغر. الذي توقفت مدافع بطاريته (أي) عن إطلاق النار منذ فترة طويلة، لكن مدافعها الثقيلة كانت لا تزال تعمل. كانت الرسالة تقول: «يجب تدمير معداتكم». أخذ الملازم المحبط مسدسه وأطلق ست رصاصات على جهاز تعيين المدى في المدفع. أزال أفراد طاقمه دبابيس إطلاق النار وحطموها فوق المرجان. لم يكن بالإمكان الوصول إلى جميع الوحدات؛ لقد حدث أن رجال الملازم بويندكستر استمروا في

إطلاق النار بعد أن قام رجال الملازم بارنينغر بوضع صفيحة بيضاء على فوهة مدفعهم التي يبلغ قطرها 5 بوصات والتي كانت متجهة نحو السماء.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والربع صباحاً عندما انطلق الرائد ديفيرو برفقة الرقيب دونالد ماليك من قوات مشاة البحرية الأمريكية وهو يحمل مقشة ربط في نهايتها منديلاً أبيض، ليتوجها والألم يعتصرهما نحو الشاطئ الشرقي لجزيرة ويك من أجل مقابلة ضابط ياباني من المراتب العليا. أوقفهما أحد الجنود وهو يوجه بندقيته نحوهما. أشار ديفيرو إلى العلم الأبيض، فأخذهما الجندي وهو يشير إليهما ببندقيته إلى معسكر للعمال حيث وجد ديفيرو نقيباً يابانيّاً يفهم بعض الإنجليزية. في غضون عشر دقائق، انضم إلى مجموعتهم عقيد ياباني بالإضافة إلى القائد كننغهام، الذي ارتدى خلال مراسيم الاستسلام سترة القوات البحرية ذات اللون الأزرق الداكن يزينها عدد من الشرائط. فجأة هزّت سلسلة من الانفجارات الجزيرة. قفز الضباط اليابانيون وسحبوا مسدساتهم. بالنسبة للأمريكيين الثلاثة، أصبح الوضع سيئاً تماماً. صرخ العقيد الياباني مصدراً أمراً وهرع حراسه ليضعوا أصابعهم على الزناد. في الواقع، عندما رأى رجال الملازم كليوير الأعلام البيضاء، رفضوا تصديق ذلك. قال له أحدهم: «إنها خدعة قذرة، يا سيدي. المارينز لا يستسلمون أبداً». لكن كليوير، الذي كان ينظر إلى غابة من الأعلام اليابانية كانت تمتد على طول الشاطئ، كان يعلم أن هذه كانت النهاية. فقام بالضغط على مكبس تفجير الألغام التي وضعت في المدرج لتتناثر فيه مجموعة من الحفر العميقة. كانت تلك هي الانفجارات التي سمعها المفاوضون. في غضون دقائق، ألقى آخر الجنود الأمريكان سلاحه وخرج من خندقه. كانت الصورة الأخيرة لجزيرة ويك التي رافقت الرائد ديفيرو وهو في طريقه إلى معسكر الأسر هي صورة بحار ياباني يقوم بإزالة العوارض الملتوية لبرج المياه المحطم ليتسنى له إنزال وتمزيق العلم الأمريكي الذي كان يرفرف طوال فترة حصار الجزيرة.

كانت الساعة تشير حينها إلى الواحدة ظهراً من يوم 23 كانون الأول 1941. عندها لم تعد جزيرة ويك أرضاً أمريكية.

طوال ستة عشر يوماً من الأعمال البطولية، تمكن 449 فرداً من مشاة البحرية الأمريكية من كتيبة الدفاع الأولى للقوات البحرية الأمريكية وأطقم أسطول مشاة البحرية أم. أف. 211، بمساعدة لا تقدر بثمن من 1146 فرداً من أطقم العمل المدنية، من خوض معركة مع عدوّ يفوقهم أضعاف المرات. لقد صمدوا في وجه عاصفة من الهجمات الدامية والقاتلة والعنيفة بشكل يفوق الوصف انطلقت نحوهم من البحر وغزت الجزيرة التي كانت في الواقع تمثل تخوم الأراضي الأمريكية.

لم تمثل جزيرة ويك أبداً مكسباً مهمّاً. ولم تؤدِّ خلال ما بقي من سنوات الحرب، أيّ غرض مفيد. فلم يهتمّ بها الأمريكان، حيث بدؤوا بالاعتماد على أسطولهم الضخم من حاملات الطائرات. ولم يعد اليابانيون يطلقون طائراتهم من مدرج الجزيرة؛ بسبب أن كمية الوقود المخصصة لطائراتهم الجاثمة كانت محدودة للغاية. قصفت الطائرات الأمريكية المدرج مراراً وتكراراً ثم كانت تتمّ إعادة إصلاحه على يد أفراد طاقم البناء الأمريكي، الذين ظلّوا محتجزين في الجزيرة. في صباح يوم 7 تشرين الأول 1943، اصطف آخر مئة مدني أمام ثكناتهم، وتمّ إعدامهم بدم بارد.

حاول الرائد ديفيرو الفرار مرتين من معسكر أسرى الحرب الياباني، وتمّ القبض عليه مرتين، وعوقب بشدة. لم يتخلَّ أبداً عن الأمل في أن يتمكن يوماً من الانضمام إلى قوات المشاة البحرية الأمريكية والقتال ضد عدوّ الأمة.[7] بالنسبة لليابانيين، توقفت جزيرة ويك عن أن تكون لها أيّ أهمية عسكرية ولم يعد أحد يتذكر حاميتها العسكرية. لا يمكن إلّا للغواصات أن تقوم بهكذا رحلة محفوفة بالمخاطر لتجلب الإمدادات لها. على مدار الأعوام التالية، هلك 1288 من اليابانيين بسبب الجوع وعدم تلقيهم العلاج

7- بعد انتهاء الحرب، بقي ديفيرو في سلاح مشاة البحرية وارتقى إلى رتبة عميد في مشاة البحرية.

من الأمراض التي أصابتهم. في 4 أيلول 1945، وبدون إطلاق رصاصة واحدة خلال مدة توليه المنصب، قام الأدميرال شيجيماتسو ساكيبارا بتسليم جزيرة ويك إلى قائد البحرية الأمريكية ويليام ماسيك[8].

وهكذا عاد العلم الأمريكي بعد 1221 يوماً من تمزيقه على يد أحد جنود اليابان المنتصرة، ليرتفع عالياً عند بقايا العوارض الملتوية الصدئة لبرج الماء القديم. وخلال مراسم الاحتفال باستلام الجزيرة صرح القائد ماسيك قائلاً: «هنا في هذا المكان أظهر لنا جنود المارينز كيف تكون البطولة».

في 5 كانون الثاني 1942 صدر البيان التالي الذي حمل توقيع الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت: «إن ما أبداه الضباط والرجال الذين دافعوا عن جزيرة ويك من شجاعة في وجه التفوق الساحق للهجمات الجوية والبحرية والبرية للعدوّ في الفترة من 8 إلى 22 كانون الأول 1941، قد نالت إعجاب رفاقهم في الوطن وأبناء العالم المتحضر، وسوف لن ينساهم أحد ما دامت الشجاعة والبطولة موضع احترام ومبعث شرف. وقد أثنوا عليهم لتفانيهم في أداء الواجب وسلوكهم الرائع في معاركهم في ظلّ أكثر الظروف قساوة. ورغم قلة الوسائل الدفاعية التي كانوا يمتلكونها في وجه الهجمات التي قامت بها قوة كبيرة، فقد قاموا بتأهيل منشآتهم العسكرية والتحليق بطائراتهم بشكل ممتاز مما تسبب في تعرض خمس سفن حربية للغرق أو الإصابة بأضرار جسيمة، وتمكنوا من إسقاط العديد من الطائرات المعادية وقتل عدد غير معروف من أفراد القوات البرية.

أصبح القارب الطائر باسيفيك كليبر ينتمي إلى عصر مضى. فالطائرات الحديثة، القادرة على عبور المحيطات على نطاق واسع أصبحت تحلق في الوقت الحاضر دون الحاجة إلى إعادة التزود بالوقود، وهي تحمل على متنها رجال الأعمال الأمريكان لتطير بهم فوق المحيط الهادئ

8- تمّ توجيه الاتهام إلى ساكيبارا وأحد عشر ضابطاً بارتكابهم جريمة حرب -عن قتل طاقم العمل وتمّ إعدامهم شنقاً.

متجهة بهم إلى أرض عدوّهم السابق ليقوموا بعقد الصفقات التجارية. عندما ينظرون إلى الأسفل من نوافذ طائرتهم، سيرون، على بعد عشرة أميال (16 كم)، أرخبيلاً يحوي ثلاث جزر مرجانية في وسط المياه العميقة الزرقاء للمحيط. وليس هناك شيء آخر. فخمسون عاماً من تيارات المدّ والجزر والعواصف أزالت آثار جروح الحرب القاتلة.

باتت جزيرة ويك تمثل مكاناً لواحدة من العديد من سلسلة المعارك التي خاضتها أمريكا في المحيط الهادئ؛ سرعان ما تراجع الحديث عن مواقف قواتها البطولية في العناوين الرئيسة للصحف بسبب المعارك الأخرى: ميدواي، وغوادال كانال، وتاراوا، وإيو جيما وأوكيناوا. ولكن في لحظة واحدة عابرة في تاريخ أمريكا، جذبت جزيرة ويك انتباه الأمة. وخوفاً من الأعمال الانتقامية من جانب سجانيهم اليابانيين لم تفصح البحرية الأمريكية أبداً عن أسماء كلّ من كننغهام أو ديفيرو أو إيلرود[9] أو أيّ أشخاص آخرين حتى بعد الحرب. لكن فيما بعد انتهى كلّ شيء، وكتبت القنبلة الذرية السطر الأخير في سجل الطموحات اليابانية، ولم يعد الإفصاح عن الأسماء مفيداً فيما بعد؛ فقد أصبح أبطال جزيرة ويك جزءاً منسيّاً من سجلات التاريخ، حيث دفنوا في الرفوف المتربة لغرف حفظ الأرشيف.

واليوم، يرتفع نصب تذكاري بالقرب من مدرج الطائرات في جزيرة ويك وهو عبارة عن عمود علّقت عليه بقايا يعلوها الصدأ لمحرك ومروحة معقوفة تعود للطائرة المقاتلة من طراز وايلد كات التي كان يقودها النقيب هنري ت. إيلرود.

كان كننغهام وديفيرو يمتلكان العزيمة والتصميم؛ وصمدا بثبات عندما كان الموقف محفوفاً بالمخاطر. ورغم أن الاتصالات مع الجزيرة كانت مقطوعة، ولم يكن هناك أمل في الحصول على أيّ مساعدة خارجية،

9- هناك اليوم فرقاطة صاروخية رائعة تجوب البحار السبعة وتخليداً لذكرى الطيار إيلرود الذي حصل على وسام الشرف بعد وفاته أطلق عليها اسم يو. أس. أس. إيلرود.

لكنهما قاتلا حتى النهاية. أصبحت شدة القتال هي المحدد الرئيس لما يمكن أن تحققه العزيمة والإصرار الثابت. ولكون معركتهم كانت أول معركة في الحرب، فقد ساعد موقفهم البطولي في رفع الروح القتالية للمقاتلين الأمريكان الذين كان يتملكهم اليأس.

ظهرت ميزة إيلرود في امتلاكه الشجاعة الفريدة بشكل واضح أثناء القتال، وتعرضه لعدة إصابات أثناء الحرب. كان طياراً ماهراً في عمله، حين كان يقصف اليابانيين من الجوّ ويغرق سفن العدوّ؛ وأصبح أول أمريكي يحمل لقب الطيار البطل (هو طيار عسكري في سجله 5 عمليات إسقاط طائرات أو أكثر - م) في الحرب العالمية الثانية. بحلول الوقت الذي أصبحت فيه القصة الكاملة معروفة للجميع، كانت الحرب قد انتهت وعاد الأمريكيون العاديون إلى ما يجيدون القيام به، يديرون أعمالهم، ويتطلعون إلى المستقبل وينسون كلّ شيء عن الحرب.

جامعة ميونيخ،
18 شباط 1943

(الوردة البيضاء) حركة المقاومة السلمية الألمانية: نداء إلى جميع الألمان.

• **نداء إلى جميع الألمان**

إن هتلر يسير بأمتنا في طريق يؤدي بها بلا أدنى شك نحو الهاوية. وحيث لم يعد بوسع هتلر أن ينتصر في الحرب، فإنّه يطيل أمدها فقط. ولم يعد بإمكانه هو وزمرة مساعديه، ومنذ فترة طويلة القيام بالتدابير المناسبة. لقد حان الموعد الآن أكثر من أيّ وقت مضى للقيام بإصدار العقوبة التي يستحقها، لقد حان يوم تسوية الحسابات. سينهي شبابنا هذا حكم هذا الطاغية البغيض، ويخلص أمتنا الألمانية من أسوأ معاناة مرّت بها. هل نقبل بعد اليوم أن نضحي بما بقي من شباب ألمانيا لتحقيق الغرائز الدنيئة لزمرة من القتلة؟ نقسم إن ذلك لن يتحقق أبداً![1]

• **المنشور الخامس لجماعة الوردة البيضاء، 27 كانون الثاني 1943**

يجب على أيّ شخص يشعر بالمسؤولية الأخلاقية أن يضم صوته إلينا وأن يثور ضد سيطرة هذه القوى المتوحشة...

• **الأستاذ كورت هوبر، 19 نيسان 1943**

1- يورد المؤلف في هذا الهامش النص الأصلي للمنشور باللغة الألمانية.

سألت الفتاة السجينة: «هل حان الوقت؟» قدّمت المرأة التي كانت ترتدي بدلة ذات لون بني مخضر سيجارة مشتعلة إلى الفتاة النحيفة وأومأت برأسها قائلة: «دقيقتان!» شعرت مديرة السجن بالاحترام لهذا الثبات الأخلاقي للفتاة. حدث ذلك في الأيام الأولى لذوبان الجليد الخجول ليطرد أخيراً أيام البرد القارس لفصل الشتاء الذي حلّ باكراً في الشوارع، مهما بقي من روعتها السابقة، فلم يكن هناك أيّ شيء يستطيع إخفاء صورة الخرابَ الذي حلَّ بالمدينة التي تحولت بناياتها إلى أنقاض. كان الجوّ داخل الغرفة الواسعة المدهونة باللون الأبيض شديد البرودة. دخلتها أشعة شمس الظهيرة من خلال نافذة عالية ذات قضبان حديدية وسقطت بشكل مباشر على وجه الفتاة كان وجهاً جميلاً، محاطاً بشعر مقصوص بلون العسل الكثيف. ومع ذلك، كانت عيناها أبرز ملامحها، كانتا تتوهجان بالنار المقدسة. انفتح الباب ودخل شابان. وارتمى الثلاثة بعضهم في أحضان بعض وبكى أحدهم قائلاً: «لقد أردنا تحقيق شيء مستحيل». بحلول عام 1943، كان هناك أمل ضئيل في أن «ينجح ذلك الشيء المستحيل». كان الحزب النازي يمسك بقبضته الوحشية بزمام كلّ شيء في البلد، وأشاع الهوس بالحرب في كلّ مكان في ألمانيا. كان المتعصبون للقمع الوحشي يستخدمون أساليب تعسفية قاسية مع الشباب الألمان الذين يتمتعون بالتفكير المستقل. الموت لا يأتي إلّا مرة واحدة فقط.

«سيكون كافياً إذا استطعنا أن نوقظ ضمير بعض أفراد شعبنا. نحن الأوائل، لكن هناك آخرين سيحملون رايتنا». بهذه الكلمات أجابته الفتاة وهي تستنشق بعمق سيجارتها، قبل أن تقدمها إلى أحد الشبان. فتح البابّ ليدخل منه قسيس استدار نحو الفتاة.

وقال: «لا أحد يمتلك حبّاً أعظم من ذلك الذي يضحي بحياته من أجل أصدقائه». وأضاف بعد أن أشار إلى آخر شعاع من الشمس، وهو يدخل إلى الغرفة منحرفاً عبر قضبان النافذة: «الحياة مثل الشمس سوف تشرق بالنور مرة أخرى».

حينها قالت الحارسة: «لقد حان الوقت».

صدر صوت منخفض من الأصفاد التي كانت تقيد معصمي الفتاة.

«يا أصدقائي، سنلتقي من جديد في العالم الآخر».

«عاشت الحرية» قالها الشبان بهدوء محاولين كبح مشاعرهم.

أجابتهم الفتاة ورأسها مرفوع: «عاشت الحرية».

تمّ أغلاق باب السجن الثقيل وراءها بصوت تردد صداه عبر جميع الممرات

عندما ذهب سكان مدينة ميونيخ إلى العمل، في 23 شباط 1943، وجدوا جدران مدينتهم مليئة بالملصقات الحمراء.

باسم الشعب تمّ الحكم بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى على:

هانز شول البالغ من العمر 25 عاماً

أخته صوفي شول البالغة من العمر 22 عاماً

وكريستوف بروبست البالغ من العمر 24 عاماً

وتمّ تنفيذ الحكم بهم

أيام حكم أدولف هتلر لألمانيا، كان كلّ شيء يتمّ القيام به «باسم الشعب» يتمّ اعتقال الناس «باسم الشعب» وتشنّ الحروب «بإرادة الشعب». ومع ذلك، لم تتمّ استشارة الشعب أبداً. كان على معارضي النظام الفرار من البلاد (إن استطاعوا!) لمواصلة أنشطتهم السياسية من المنفى. بدا أن الدعاية من الخارج من قبل المنفيين السياسيين هي السبيل الوحيد المتاح لتقويض الحكم النازي. لكن في بلاد كانت فيها جميع وسائل الاتصال خاضعة لسيطرة مشددة، ويتمّ منع وصول جميع الأخبار غير المناسبة، لم يكن لهذا الأمر أيّ تأثير على الأمة الألمانية. ما حدث في عهد هتلر لا يمكن فهمه أو تقديره بأيّ طريقة منطقية تبدو معقولة وطبيعية للإنسان الغربي العادي الذي يعيش في نظام ديمقراطي، ولا يمكنه تخيل أن دولة متحضرة يمكن أن تقترف جريمة نشوء مثل هذا النظام الوضيع الذي زيّف كلّ شيء. لقد وضح هتلر هذا الأمر في كتابه «كفاحي»، وهو

الذي يعرض فيه آراءه السياسية: (إن جماهير الأمة الواسعة تقع بسهولة شديدة ضحية لكذبة كبيرة مقارنة بالمجموعات الصغيرة). لم يكن هتلر هو الشخص الوحيد الذي كذب، فقد فعلها غوبلز، كما فعلها غورينغ، فالجميع فعلوا ذلك، ابتداءً من قادة الحزب، مروراً بمسؤول المنطقة الحزبي وانتهاءً بمسؤول الحيّ. كرّس الصحفيون أنفسهم لنشر الأكاذيب، وفعل ذلك معلمو المدارس: كان عهد الكذب الجماعي.

على عكس ما كان يحدث في بلدان أوروبا التي خضعت للاحتلال الألماني، لم يتمّ تشكيل حركة مقاومة موحدة داخل ألمانيا؛ كانت أحزاب المعارضة محظورة وتمّ اعتقال قادتها؛ لم تكن لديها أمكنة دينية مقدسة تلتجئ إليها ولا غابة تختبئ فيها وتقاتل منها. كان يقع عبء المقاومة في المقام الأول على الأفراد الذين يتمتعون بضمير حيّ، وربما يعولون على المساعدة التي يقدمها بعض الأشخاص الذين يحملون الأفكار نفسها. وقد كانت مثل هذه المجموعات الصغيرة موجودة بالفعل. لقد انبثقت من جميع الطبقات الاجتماعية واتخذت أساليب مقاومتها أشكالاً متنوعة، ولكن مواردها كانت دائماً محدودة. كان يكمن ضعفهم في اختلاف دوافعهم وقد استغل النازيون هذا الخلل بذكاء. كان هناك الشيوعيون الذين فرّوا من بطش النظام الفاشي وأقاموا علاقات رفاقية مع النظام السوفيتي؛ وكان هناك عدد من رجال الدين اللوثريين الذين كانت غايتهم القيام بعملية إحياء ديني؛ وكان هناك اليونكرز وهم الأغنياء الأرستقراطيون من فئة الضباط الذين رفضوا اتباع النزوات العسكرية لـ«العريف» هتلر، وزمرته من المسؤولين الكبار الحديثي العهد بالسياسة؛ كان هناك النخبويون التقليديون والمثقفون الليبراليون، الذين لم يكن يجمعهم شيء مشترك مع المشاغبين في قاعات البيرة، وكانوا يناضلون من أجل استعادة ألمانيا أخلاقيّاً. وأخيراً، كان هناك من لديه «صحوة ضمير»، وكان مستعداً لأن يضحي بنفسه ثمناً للوقوف في وجه الوحشية النازية.

كان من أوائل الذين عبّروا عن رفضهم الشديد لمخططات هتلر الوحشية هم مجموعة من الشباب. وبعد أن انضم إليهم نصف طلاب جامعة ميونيخ، كانوا يأملون في تشكيل نواة موحدة لحركة ثورية شبابية لمنع شخص همجي من إضاعة مستقبل جيلهم. لم يطلبوا شيئاً غريباً، مجرد الحرية - حرية التعبير عن أفكارهم، وأن يكون لهم رأي في اختيار الطريق الذي يؤدي إلى مستقبلهم، والحق في رفض ما لا يرغبون به. وبسبب السيطرة القمعية التي كان يقوم بها النظام الشمولي على وسائل الاتصال بشكل واسع لم يسمع سوى عدد قليل جدّاً من الناس داخل ألمانيا بحركة الوردة البيضاء.

لم تكن الأمور في ألمانيا في صيف عام 1942 على ما يرام. ليس كما كان الفوهرر قد وعد شعبه. سرعان ما تحولت الحرب الخاطفة إلى إقامة درع بشري في معركة ستالينغراد، وتزايدت الخسائر في الجيش الألماني بشكل فاق كلّ التوقعات. وسبق لهتلر قبل عام من الآن، وفي نوبة من الجنون الديكتاتوري، قد حكم بزوال الأمة الألمانية عندما أعلن الحرب على الولايات المتحدة؛[2] فأيّ إحصائية بسيطة كانت تشير إلى أن سكان أمريكا يبلغ ثلاثة أضعاف عدد سكان ألمانيا، وأن إمكاناتها الصناعية هائلة. مع دخول الولايات المتحدة في الحرب، انعطف موقف ألمانيا نحو الأسوأ. ألقت قاذفات الحلفاء أطناناً من القنابل على المدن الألمانية، وتقنين حصص الغذاء جعل الناس تعيش على حدّ الكفاف؛ ومع ذلك، فإنّ غالبية الألمان واصلوا العمل بانضباط عالٍ وفقاً لإملاءات هتلر، لأنّه لم يكن لديهم خيار. وكان ذلك سبب وجيه.

ومع أن الأشخاص الذين يرتدون زيّ قوات الأمن الخاصة (S.S) لم يكن يراهم الناس بأعداد كبيرة في مقاطعة بافاريا كما هو الحال في بولندا

2- يجب الإشارة إلى أن اليابان على الرغم من أنها كانت عضواً في التحالف الثلاثي مع ألمانيا النازية لم تعلن الحرب على الاتحاد السوفيتي. ولم يكن هجوم اليابان على بيرل هاربور سبباً مقنعاً على الإطلاق لألمانيا.

وروسيا، لكن ضباط الأمن الذين يرتدون ملابس مدنية كانوا منتشرين في كلّ مكان. نشر الغستابو (البوليس السري الألماني - م) شبكة من المخبرين في جميع أنحاء جنوب ألمانيا، الذي كان يمثل معقلاً تقليدياً لرجال الدين. وكانوا مهووسين بالحصول على معلومات عن بعض الوعاظ الذين يشغلون الوظائف الخالية، من الذين جاؤوا حديثاً إلى كنائس بافاريا والنمسا، فهم لم يكونوا قساوسة على الإطلاق. لذلك، كانت قلة قليلة منهم مستعدة للتضحية بنفسها والحديث في السياسة بصراحة ومواجهة الاعتقال، والذي يتبعه عادة تنفيذ حكم إعدام سريع. في مثل هذا الوضع، ظهرت مجموعة من طلاب جامعة ميونيخ. كانوا في العمر الذي يرمز إلى ما أسماه الزعيم النازي: «مستقبل ألمانيا».

أعلن هتلر ما يريد بهذه الكلمات: «على شبابنا يعتمد مستقبل الأمة الألمانية. يجب أن نعيد تشكيل الروح التي يحملها أبناؤنا ونهيئهم لواجباتهم».[3] ومع ذلك لم يتحدث كتاب هتلر عن أيّ دور سياسي للشباب؛ تمّ تجاهلهم، وكانت حقوقهم الأساسية تنتهك، كان لا يتلقون في تعليمهم سوى التوجيهات بالتضحية بأنفسهم من أجل الفوهرر. على مدى عدة سنوات، كان يتمّ غسل عقول الملايين من الصبية والفتيات الصغار بعناية ليكونوا مستعدين لتطويق أوروبا لينقضّوا عليها مثل إعصار مدمر؛ كانوا يقسمون إنهم رجال العاصفة التي تحمل موجة المدّ الفاشية. كان يتمّ قمع أية معارضة بسيطة لاستمرار الحرب القاتلة من قبل الشرطة السرية القاسية للرايخ الثالث. والآن وبعد أن أصدر الزعيم الفاشي أوامره بالاستمرار في الحرب إلى نهايتها المريرة والتضحية بجيل كامل، تجرأ خمسة شباب على إطلاق تحذيرهم.

ظهرت في الفترة من أوائل صيف 1942 إلى منتصف شباط 1943، سلسلة من الرسائل المنسوخة بآلات طابعة بسيطة في صناديق البريد في جميع أنحاء جنوب ألمانيا وأوستمارك (الاسم الذي كان يطلق على

3- بحلول عام 1938، كان هناك 8.7 مليون فتى وفتاة أعضاء في منظمة شبيبة هتلر.

النمسا المحتلة) تدعو جميع الألمان إلى الردّ على الأساليب اللاإنسانية التي يتبعها النظام النازي، ليس في المناطق المحتلة، ولكن في قلب ألمانيا نفسها. وحين علم هتلر بها استبدّ به الغضب. وصرخ الديكتاتور قائلاً: «ابحثوا عنهم!»، وتمّ إرسال أمره بـ«العثور عليهم» إلى جميع المؤسسات الرسمية؛ ترددت أصداء غضبه عبر البلاد، قام هاينريش هيملر رئيس مكتب الأمن الرئيس أس. أس. بنقل الأوامر إلى وكالة الاستخبارات السيئة السمعة المعروفة باسم (الشوتزشتافل)، وأحدثت القضية هزة عنيفة في شارع برينز-ألبريشت في برلين حيث موقع مكتب الأمن الرئيس وفي مكتب هاينريش مولر رئيس الغستابو[4] كان مولر رجلاً ذا رأس مربع (وصف لأبناء الشعب الألماني والدول الاسكندنافية كان سائداً في بدايات القرن العشرين، وكان ذا نبرة عنصرية ومن باب التهكم عليهم أيضاً -م) يسعى بلا رحمة نحو امتلاك المزيد من النفوذ الشخصي، ويرتسم على وجهه تعبير لفلاح بافاري بريء ولطيف، فصار ينبح عالياً ويقول: «أريدكم أن تحضروهم لي أحياءً».

لم تكن عائلة شول الساكنة في بلدة فورشتنبورغ مختلفة عن جيرانها. كان أفرادها من المتدينين اللوثريين الورعين، وكانوا يرون كيف أن النازيين يقلّلون من قيمة كنيستهم وكيف يسيئون التعامل مع كلام الله. والأسوأ من ذلك، أنّهم شاهدوا عدداً كبيراً من اللوثريين والكاثوليك ينضمون إلى الحزب النازي، حيث كانوا ينظرون إلى هتلر كمنقذ لهم عندما وعد بمنح وظيفة لكل شخص طيب من الجنس الآري. هتفت الجماهير الحمقاء ولوحت عندما اجتاحت جحافل الديكتاتور جميع أنحاء النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وفرنسا وروسيا. تلك النجاحات الأولية منحت المبرر لفعل كلّ شيء. تردد شباب عائلة شول لفترة طويلة في التعبير عن استيائهم، فقد كانوا يعانون من الشعور بأنّهم سيخونون بلدهم التي كانت في حالة حرب إذا تحدثوا. ومع ذلك، فإنّ ضميرهم

4- أصبح مولر رئيساً للغستابو بعد اغتيال رئيسه السابق هايدريش في براغ.

المسيحي دفعهم للوقوف في وجه أكاذيب ذلك الرجل وحزبه، الذي كان يريد غزو العالم على حساب التضحية بشباب ألمانيا.

وُلدت صوفي شول، الفتاة ذات الشعر الأشعث والأنف الأفطس والبشرة النضرة، في 9 أيّار 1921، وهي الرابعة من بين خمسة أطفال لعمدة بلدة فورشتنبورغ. في عام 1933، بعد فترة وجيزة من وصول هتلر إلى السلطة، انضمت إلى رابطة الفتيات الألمانيات(BDM)، وهو جناح الفتيات في منظمة شبيبة هتلر (HJ) في وقت كان يتجسد فيه التعبير عن الانطباع الذي أحدثه هتلر على شباب ألمانيا في وقوف فتاة تبلغ من العمر عشر سنوات أمام كاميرات السينما لتقول: «سنقاتل ونموت من أجل الفوهرر. عاش هتلر». وبعد أن كانت صوفي تتحمس لشعارات مثل: (شعب واحد، أمة واحدة، زعيم واحد)، فإنّها سرعان ما تحولت إلى انتقادها خاصة بعد أن تعرض شقيقها هانز لمشكلة تسبب بها صديقه، الذي شعر أن من واجبه إبلاغ السلطات المحلية بملاحظة عابرة قالها هانز حول الواجب المقدس الذي يدعو كلّ فتى من العرق الآري للتضحية بحياته من أجل الفوهرر. تمّ اعتقال شقيقها، حيث كان على كلّ شخص ألماني إما أن يكون نازيّاً طيباً أو لا يستحق الحياة على الإطلاق. كان هانز محظوظاً. فرجال الأمن ضربوه فقط وسمحوا له بالرحيل بوعد منه أنّه سيكون من الآن فصاعداً ولداً طيباً. لقد كانت هذه صدمة لصوفيا التي كانت تعبد أخاها الأكبر وأصبحت حريصة على اختيار صديقاتها. في أيّار 1942، وبفضل درجاتها العالية في المدرسة الثانوية حصلت على قبول في جامعة ميونيخ، وبدأت تدرس علم الأحياء والفلسفة.

ولد هانز شول، شقيق صوفي، في 22 أيلول 1918 في مدينة إنغرسايم. وكحال معظم الأولاد الصغار في أوائل الثلاثينيات، كان متحمساً لوعود هتلر بجعل ألمانيا تنهض من جديد بعد حالة الكساد التي شهدتها في أعقاب كارثة الحرب العالمية الأولى المدمرة، لكن سرعان ما أظهر

الوحش النازي رأسه القبيح.[5] لم يكن الأب شول، الذي كان يلقب هتلر بـ (المزمار)، يشعر بالارتياح عندما قرر ابنه الانضمام إلى حركة شبيبة هتلر التي أثبت فيها صفاته القيادية التي جعلته يصبح (أصغر قائد سرية). تمّت دعوته للمشاركة في مسيرة الحرية (مؤتمر الحزب النازي – م) في نورنبرغ في أيلول 1935. وعاد منها بشعور عميق بأن هتلر كان يستخدم شباب ألمانيا من أجل مكائده السياسية. قبل اندلاع الحرب بفترة قصيرة، انتقل هانز من منزل عائلته في مدينة أولم إلى العاصمة البافارية ميونيخ.

كانت ميونيخ هي المدينة التي كان يعيش فيها هتلر، وأُسس فيها عام 1920 حزب العمال القومي الاشتراكي. والذي لم يكن اشتراكيّاً ولا قوميّاً، لقد كان تجمعاً لأكثر من عشرين شخصاً من قدامى المحاربين من معاقري الخمر الذين أسسوا واحداً من الأحزاب العديدة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى. في ميونيخ، انضم العريف في جيش القيصر النمساوي المولد، أدولف هتلر، إلى تجمع يضم عشرين رجلاً، واكتشف بدهائه أن الغياب التام لبرنامج سياسي للحزب سيمنحه وسيلة سهلة لأن يتولى زعامته. وأضاف كلمة قومي وألماني إلى شعار حزبهم وحوّله إلى حزب ناشط سياسيّاً رغم صغره يدعى حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني، أو ما يعرف بالحزب النازي.

خلال ليلة 8 – 9 تشرين الثاني من عام 1923، جمع هتلر من حوله عدة مئات من أعضاء الحزب المخلصين له في برغربروكيلر في ميونيخ، وهو مستودع جعة ألماني ضخم. تناولت كلمته الافتتاحية الحقائق اليومية التي يعرفها الجميع وهي البؤس والبطالة. كان صوته يرتفع تدريجيّاً، مما جعل الحاضرين ينشدّون إليه بكل حواسهم إلى أن صرخ بأعلى صوته: «لذلك لا يمكن أن يستمر هذا...» تصاعدت هتافات الجمهور الحاضر، كما لو

5- في عام 1934، استخدم هتلر قوات أس. أس. SS (أو ما يعرف بفرق الحماية) التي كان قد تمّ تشكيلها حديثاً لقتل المئات من رفاقه القدامى في كتائب العاصفة شبه العسكرية التابعة للحزب النازي من أجل اغتصاب السلطة غير المقيدة.

أن هذا الكلام قد غيّر بالفعل كلّ شيء. انتظر الرجل على رأس القاعة وقد أشرق وجهه ثم بدأ يقدم الوعود العريضة، والمقنعة، والمغرية الواحد تلو الآخر، ببساطة بدأت الدنيا تمطر وعوداً.

لقد خلق جنة فوق رؤوس الحاضرين. مثل لعبة يانصيب كان كلّ خاسر فيها هو الفائز، وقد وجد فيها كلّ شخص فيهم سعادته وتحقيقاً لأحلامه الشخصية.

تسلّق هتلر طاولة مليئة بأقداح البيرة الفخارية الكبيرة ليقف عليها، وحينها سحب مسدسه، وأطلق منه رصاصة نحو السقف، ووسط «الصيحات الحماسية» لأتباعه أعلن قيام الثورة النازية، حاول تقليد معبوده موسوليني، الذي توجه على رأس أتباعه من ذوي القمصان السوداء في مسيرة للزحف نحو روما، وأطاح بالحكومة الإيطالية المترنحة، وسيطر على البلاد. والآن جاء الدور له ليصنع لحظته. بعد تناولهم كميات كبيرة من البيرة المصنوعة في ميونيخ، سار هتلر ورفاقه من قبو الجعة إلى النصب التاريخي فيلدهارنهاله للمطالبة بحلّ الحكومة البافارية. رفضت (الشرطة البافارية) أن تشاركه ألاعيبه وأطلقت النار على الأشخاص الذين كانوا يلوحون بالأعلام وسط المسيرة. تمكن هتلر من الفرار، ولكن لقي ستة عشر شخصاً من أتباعه مصرعهم. تمّ إلقاء القبض على هتلر وحكم عليه بالسجن لمدة تسعة أشهر، قضاها يملي صفحات كتاب (كفاحي) الذي يروي سيرة حياته السياسية على زميله رودولف هيس. في 30 كانون الثاني 1933، وصل هتلر إلى السلطة من خلال الانتخابات، بعد الصدام الذي حصل بين القادة الاشتراكيين والشيوعيين. في 2 آب 1935 أطلق هتلر على ميونيخ لقب عاصمة الحزب.

مع حصول مدينة ميونيخ على لقبها الجديد تشكلت فيها حكومة محلية جديدة، برئاسة زعيم الفرع المحلي للحزب النازي. لم تسلم جامعة ميونيخ من التغيرات التي طرأت على البلاد. تمّت إحالة عدد من

الأساتذة الأكفاء على التقاعد، وفرّ العلماء اليهود إلى إنجلترا أو أمريكا، ومن بينهم بعض الحاصلين على جائزة نوبل الذين قاموا بعدة أبحاث في حقل الفيزياء النووية. تمّ تعيين رئيس جديد للجامعة هو، والثر فوست وكان يحمل رتبة أوبرفير، ومعناها «الزعيم الأقدم»، (وهي رتبة شبه عسكرية في الحزب النازي – م) وتولى رئاسة قسم علوم العرق الآري، وقام بصياغة البرنامج التعليمي للجامعة ليناسب الأيديولوجية النازية. لم يعد يعمل فيها إلّا من ينتمي إلى العرق الآري، ابتداءً من صاحب أعلى منصب فيها وصولاً إلى البواب الذي كان يدعى السيد شميدت، وكان رجلاً لا تفارقه زجاجة البيرة ويحمل ولاءً لا يرقى إليه الشك للحزب النازي. كان يعتبر نفسه من فئة الضباط، كونه يقود كتيبة من عاملات التنظيف في الجامعة، لكن وظيفته الرئيسة كانت التجسس على الطلاب وإبلاغ رؤسائه عن أيّ أحاديث مناهضة للحزب تصدر عنهم.

في منتصف صيف عام 1939، وصل وزير الدعاية الدكتور جوزيف غوبلز إلى المدينة. كانت تبدو على الشوارع مظاهر احتفالية حيث كانت تزينها أعلام النازية ويحتشد فيها أفراد من الشرطة. داخل قاعة المهرجانات الضخمة، كانت رايات الصليب المعقوف ملفوفة ومعلقة فوق منصة الخطابة. ولافتة عملاقة مكتوب عليها: (جميعنا مع هتلر والحزب). كان هناك عدد كبير من الناس مكتظين في الداخل. كانت تجلس في الصفوف الأمامية للقاعة شخصيات بارزة ترتدي الزيّ الرسمي باللونين البني والأسود، وحفنة من جنرالات الجيش ببدلاتهم الرمادية اللون. تمّ تخصيص جزء صغير من القاعة «لأفراد الشعب» والعمال والمسؤولين الصغار. كانت معظم «الهتافات» التي تحيّي وزير الدعاية تتعالى من وسط مجموعة من الحاضرين، كانوا جميعهم من الشباب: مستقبل الأمة. وكان من بينهم طالب الطب، هانز شول.

بعد أداء التحية النازية ا توجّه غوبلز إلى المنصة، لم يكن طويل القامة، لكن صوته الجَهوري وصل دون صعوبة إلى أقصى زاوية في القاعة

الكبيرة، أمّا الحشد الهائل الذي كان يتجمع في الخارج فقد وصلهم من خلال مكبرات الصوت. بدأ خطابه بصوت مليء بالثقة دون أن يسمع أغلب الحاضرين ما كان يقول، بالثناء على وفاء الحزب بوعوده في إنشاء الطرق (وهذا صحيح، ولكن يبدو أن كلّ الطرق التي تمّ إنشاؤها كانت تلك التي تقود إلى الحدود الفرنسية والبولندية) وصنع المركبات (ومجدداً كان هذا صحيحاً، ولكنها كانت مزودة بالمجنزرات وتحمل أبراجاً مدفعية). عندما ارتفع (الحماس في القاعة)، ووصل إلى ذروته، تغيرت نبرة صوته وارتفع مستواه بشكل كبير وبدأ يطلق العبارات النارية الواحدة تلو الأخرى، التي تتحدث حول كيفية محاولة الفوهرر الحديث عن السلام مع قادة القوى الأوروبية، وكيف أنكر هؤلاء القادة مطالب ألمانيا المبررة في استعادة حدودها الوطنية السابقة كانت عبارته الرئيسة: «إن غدانسك هي جزء من ألمانيا»[6]. والآن بعد أن نهضت ألمانيا الجديدة من الرماد المخزي لحرب خاسرة، وأصبحت أقوى من أيّ وقت مضى، لن يسمح (أي الفوهرر) مرة أخرى، لأمته أن تعيش في حالة من العار. «هل تريدون العيش إلى الأبد في عار وخزي؟» صرخ الحشد: «كلّا!» وبعد أربعة أسابيع، سارت الجيوش الألمانية نحو بولندا.

في خريف عام 1939، تمّ قبول هانز شول البالغ من العمر حينها 21 عاماً مع ثلاثة آخرين من أقرانه وهم-ألكسندر شموريل وكريستوف بروبست وويلي غراف، والذين سيلعبون دوراً بارزاً في حياته في كلية الطب في جامعة ميونيخ. قبل فترة قصيرة من غزو هتلر للاتحاد السوفيتي، تمّ استدعاء شول للخدمة في الجيش، ولكن في بداية عام 1942، بعد مرور سبعة أشهر على خدمته في الجبهة الروسية، حصل على إعفاء خاص، مما سمح له بالعودة إلى الوطن من أجل مواصلة دراسته في كلية الطب. احتاج الجيش إلى جراحين كفوئين لمعالجة المصابين الذين كانت أعدادهم في تزايد بشكل فاق حاجته إلى الجنود المحاربين. وصل هانز

6- أدّت قضية المطالبة بعودة غدانسك إلى ألمانيا إلى إعلان الحرب على بولندا.

شول إلى ميونيخ في الوقت نفسه الذي كانت فيه شقيقته صوفي تبدأ السنة الأولى من دراستها الجامعية لعلم الأحياء والفلسفة. كان الطلاب الشباب الذين قابلهم هانز وصوفي في الفصول الدراسية هم أبناء وبنات من سكنة المدن ملتزمين أخلاقيّاً ومن الأعضاء المخلصين للحزب النازي. كان الأصل الطبقي والولاء الذي لا جدال فيه للحزب يمثلان المعيار الرئيس لدى النظام النازي لقبول الأشخاص في مؤسسات التعليم العالي.

كان بإمكان هانز وصوفي أن يعيشا حياة طلابية مريحة نسبيّاً في ألمانيا في زمن الحرب، لكن القدر حتّم عليهما أن يعيشا بطريقة أخرى. كانت ميونيخ، مركز الحركة النازية، مكاناً خطيراً للعيش لأيّ شخص لديه مشاعر معادية لهتلر، ولم يكن أحد يجرؤ على التعبير عن هذه المشاعر علانية. كان الحصول على الأخبار صعب المنال. وكانت عقوبة الاستماع إلى محطة إذاعية أجنبية هي الإعدام. وكان مصير من يقوم بإلقاء النكات السياسية التي تسخر من القيادة النازية هو عقوبة الإعدام. كان عدم الاشتراك في الهتافات الحماسية التي تصاحب خطب الفوهرر، والكلمات المنبعثة من شفاه «أعظم عبقري في الأمة»، يعدّ أمراً خطيراً.

عندما دخلت الحرب عامها الثالث لم تكن هناك سوى حركة معارضة محدودة لنظام هتلر، ومن البدهي أنّها لم تكن تضم في صفوفها أعضاء من الفئة العمرية التي كانت تمثل دائماً قطب المعارضة في العالم البرجوازي والرأسمالي من الأشخاص البالغين القادرين على إثارة اضطراب سياسي، فقد كان معظم طلاب الجامعة يرتدون البدلة العسكرية ويخدمون في مكان ما في روسيا أو شمال أفريقيا، محاولين البقاء على قيد الحياة. عاد هانز شول، وألكسندر شموريل، وكريستوف بروبست من الجبهة الروسية وهم يحملون قصصاً عن الدمار الناجم عن الحرب والفظائع المروعة التي ارتكبتها فرق الكوماندوز التابعة لقوات الأمن الألمانية الخاصة (إينساتسكوماندو) التي كانت تعرف بفرق الموت المتنقلة. خاض هانز شول تجربة مروعة بشكل خاص «حدث ذلك في الصباح

الباكر. كان هناك ضباب كثيف، لذلك لم يكن باستطاعة مفرزة الأمن الخاصة رؤيتي؛ شاهدت مجموعة من الشاحنات ينزل منها عدد كبير من الناس عائلات، ورجال، ونساء، وأطفال، اختلط الجميع معاً. كان ضابط قوات الأمن الخاصة يقف في مكان قريب يحمل سوطاً وأمرهم بنزع ملابسهم. وكان دقيقاً في عمله، فقد جعلهم يكدسون ملابسهم في أكوام مرتبة حسب جنس كلّ واحد منهم. كان عددهم بالتأكيد لا يتجاوز بضع مئات. عندما أصبحوا جميعاً عراة، اقتادهم حراس قوات الأمن الخاصة إلى مكان ما بعدها سمعت قعقعة مدفع رشاش. بعد أن غادرت قوات الأمن الخاصة، ذهبت إلى ذلك المكان لأكتشف حفرة كبيرة تحوي جثثاً تكومت بعضها فوق بعض، وكان عدد منها لا يزال يرتعش...».

روى كريستوف بروبست قصص المعاناة التي تعرض لها باعتباره جنديّاً عاديّاً يعمل تحت إمرة قادة حزبيين تمّ تعيينهم قادة عسكريين رغم افتقارهم إلى الخبرة العسكرية. حيث كان طبيباً في وحدة للمشاة. عندما أشار الرقيب المخضرم في وحدتهم إلى عدم جدوى شنّ هجوم على الروس بسبب تفوقهم بنسبة خمسة إلى واحد في عدد الجنود والقوة النارية، حذره قائد قوات الأمن الخاصة من مغبة التشكيك في أوامره. شنّت وحدته الهجوم وتمكن الروس من صدّه قبل أن يقوموا بتقطيع أوصالهم. وقد عبّر ألكسندر شموريل عن شعوره بهذه الكلمات: «لقد بدأت أشعر بالتعب الشديد من هذه الحرب ومن الرجال الذين يقودوننا».

في ربيع تلك السنة، وقعت صوفي الجميلة بجنون في حب فريتز هارتاغيل وهو ملازم شاب أنيق كان عائداً إلى وطنه في إجازة. لكن افتتانها به لم يسلبها عقلها ولم يمنعها بالتالي من الدخول معه في نقاش حاد، خصوصاً عندما أخبرها عن انتصارات الجيوش الألمانية في بولندا وفرنسا.

«كيف يمكنك أن تتحدث عن الانتصارات عندما تذهب إلى هناك وتقتل الأبرياء؟».

«أنا لم أطلق النار على أيّ شخص»، أجابها فريتز بحدة.

«لكن النازيين يفعلون».

«هدئي من روعك، يا صوفي. ليس من المنطقي مواجهة النازيين».

«أنت الذي أقسم اليمين أمام الفوهرر، ولست أنا. اشرح لي من فضلك، لماذا يحق لرجل مثل هتلر أن يعرض حياة الكثير من الناس لخطر الموت لا تقل لي إن هذا من أجل مصلحة الوطن».

لم يكن لدى فريتز، الذي كان مقتنعاً في ذلك الوقت بحتمية انتصار ألمانيا، الكثير ليردّ به عليها. بعد بضعة أسابيع، كتبت إليه وهو في الجبهة. «لا يجب أن نعيش في أمل كاذب بأن هذه الحرب ستنتهي قريباً، حتى لو نجحت دعاية النظام بنشر اعتقاد ساذج في جميع أنحاء بلادنا مفاده أن إنجلترا ستركع قريباً بسبب الحصار الذي تفرضه عليها غواصاتنا».

وجدت صوفي وهانز سكناً لهم في شقة مهجورة، وعاشا على قدر إمكانياتهما. كانت مهمة صوفي اليومية هي معرفة ما يمكن أن تصنعه من طعام مع شريحة من الخبز ومعجون السمك الذي لم يكن له طعم السمك. كانت تغادر الشقة أحياناً للتنزه. لم تعد ميونيخ ذلك المكان الذي يحمل ذكريات الطفولة، عندما أخذها والداها لأول مرة إلى المدينة بشوارعها الواسعة ذات الأشجار. تحول كلّ ما شيّده الإنسان، ذلك الرجل البافاري ابن ألمانيا، من منازل، ومصانع ودور عبادة، إلى كومة من أنقاض تتكون من الطوب والخشب. تمّ على عجل تصليح أنابيب المياه التي تفجرت بالقنابل الحارقة لتكون جاهزة للهجوم التالي. كانت أعلام الصليب المعقوف ترفرف عند مداخن تنتصب بين الأنقاض لكي تحاول دعم المعنويات المنكسرة، كما كانت هناك لافتات تمّ تعليقها في الشوارع وقد كتب عليها: (إلى الأمام مع الفوهرر حتى النصر النهائي).

حدثت تغييرات كبيرة في حياة الناس، الذين كانوا يسيرون بصمت

بجانب الجدران في ملابسهم البالية. كان معوقو الحرب يتجولون وهم يستندون على عكازاتهم. كان قادة الحزب النازي المحليون يسيرون فوق أكوام المنازل المهدمة وهم يبغون فرض سلطتهم. كان هناك فتى صغير يرتدي زيّ أعضاء منظمة شبية هتلر يهزّ صندوقاً ليجمع فيه بعض البنسات من أجل الحصول على مؤونة للشتاء. وكانت هناك طوابير لا نهاية لها اصطفت في أرجاء المدينة، بغية الحصول على بطاقات الحصص الغذائية، وطوابير لحاملي بطاقات الحصص التموينية للحصول على كلّ ما هو متاح في متجر المواد الغذائية المحلي. شعرت صوفي بالاكتئاب لدرجة أنّها قررت أن تتوقف عن التمشي في الشوارع. عند المساء، جلس هانز وصوفي في شقتهما المظلمة وتذكرا أيام طفولتهما، لكن جلّ حديثهما كان يدور عن المستقبل، الذي كان يمتد أمامهما وسط حالة من الضباب الغامض. في إحدى المرات ذهبا إلى حفلة في شقة أليكس شموريل. أدار أحد الأشخاص جهاز الحاكي، ولكن لم يرقص أحد لأن الحرب حينها، كانت قد وصلت إلى أبواب بيوتهم.

صدر تحذير من مركز رصد القوات الجوية في مدينة دويسبورغ، حول اقتراب تشكيل كبير لطائرات بي. 17 من مدينة نورد فايك وإلى أن تمكن مركز التحذير من تحديد هدف التشكيل بدقة، كان الوقت قد فات ولم يتمّ تحذير المنطقة المحددة. كان من غير المنطقي بثّ الذعر في مكان خطأ والبلد في السنة الثالثة من الحرب الوحشية، ووقف العمل في المصانع وجعل العمال يهرعون إلى الملاجئ. تمّ نقل التحذير إلى مدينة ميونيخ (هناك سرب من طائرات العدوّ يتجه نحو المدينة). استعدت المدينة. تحركت فوهات المدفعية المضادة للطائرات لتتجه نحو السماء، وتمّ تجهيز القذائف، ومحركات إطلاق النار، وغرف إجراء العمليات الجراحية، وفتحت الملاجئ أبوابها.

حدث ذلك في يوم تمكنت فيه صوفي من القيام بجولة ريفية. كانت قد ظهرت ألوان الأصفر والبني والكستنائي المحمر التي تشير

إلى بدايات الخريف، وتمجد مرور الزمن. وبعيداً عن المدينة، تدفقت نسمات من الحرية فوق المناظر الطبيعية. أخذت تتنفس بشكل عميق وتنظر من حولها. يا لها من مناظر جميلة يحيط بها الهدوء، جلست في أرض معشوشبة، وركبتاها قريبتان من صدرها، وبدأت تقرأ في كتاب أخلاقيات لسبينوزا، حيث كانت تحاول فهم المشاعر الإنسانية. هل لا يزال يوجد البعض منها في هذه الأوقات المجنونة حيث تتجه بلدان العالم نحو تدمير بعضها بعضاً؟ ذهب تفكيرها نحو حبيبها فريتز. بدأت تسترجع ذكرياتها معه في إجازته الأخيرة التي قضاها في الوطن، وكيف اقترب منها وقبّلها برفق، وكيف شعرت بالتوتر. كيف أمسكها وقرّبها منه وحثّها على الصمود، مهما حدث لها، وكيف أقسما على أن يلتقيا بعد انتهاء المعارك. حدث ذلك في مكان مشابه للأرض التي كانت تجلس عليها، وهو الآن على بعد ألفي كيلومتر عن بافاريا، في مدينة تسمى ستالينغراد. انقطعت سلسلة أفكارها حين سمعت صوت دويّ مميز. شاهدت في الجزء العلوي من السماء الزرقاء، خيوط دخان للقاذفات العملاقة التابعة لأسطول القوات الجوية الأمريكية، وهي في طريقها لتفريغ حمولتها المميتة في بعض المدن الألمانية. «هذا جنون»، نفست الفتاة عن آلامها بصراخها على بعض الأبقار التي كانت تلوك في حزمة من الحشائش. «لقد أصيبت الحضارة بالجنون».

أوقف مذيع الراديو بثّ برنامج موسيقي ليعلن: «مجموعة كبيرة من طائرات العدوّ تقترب من ميونيخ...».

ارتفع صوت شميدت بواب الجامعة وهو يخرج من غرفته: «هناك غارة جوية» ليؤكد على أهميته، وبدأ بالسير في ممرّ الجامعة وهو يصيح: «ليتوجه الجميع إلى الملجأ. هيّا أسرعوا». ظلّت صفارات الإنذار تعوي مثل صوت الغراب المشؤوم. اندفع الطلاب يركضون على السلم الحجري الواسع، ليتجهوا نحو أحد مداخل الملجأ. باتت صفارات الإنذار تصفر بشكل هستيري من على سطح الجامعة. توجه هانز شول،

الذي أصبح في وسط هذا الحشد المندفع بجنون، نحو الملجأ؛ لم يمرّ وقت طويل على إغلاق باب الملجأ الثقيل وراءهم، حتى انطلقت أولى قذائف المدفعية؛ بدا أن صوت هديرها يشبه صوت الرعد البعيد بالنسبة لتلك الأجسام المتكدسة في الملجأ حيث انطلقت منها رائحة الرعب الكريهة وامتزجت مع حرارة الخوف الذي تملّكها. في الخارج، كانت صفارات الإنذار لا تزال تعول، يكتمه الباب المغلق. كانت الفتيات ينظرن بقلق إلى السقف، كما لو أنهن يتوقعن في أيّ لحظة أن تدخل قنبلة من خلال فتحات التهوية لتنفجر فوق رؤوسهن. كانت تلك هي اللحظات التي تسبق سماع الصوت الرهيب، الذي يشبه صافرة قطار يهبط من السماء، يليه انفجار مروع. تسببت قذائف الطائرات الضخمة في رفع بنايات بأكملها في الهواء، وجعلها تسقط بجانب الملجأ. وكانت قمة الرعب الذي ساور الطلاب أن يدفنوا وهم أحياء. لم يعد بإمكانهم وهم يتكدسون بأمان في أعماق الملجأ، التظاهر بأنّهم لا يعرفون ما الذي يكمن وراء رائحة الكبريت واللحم المتفحم الذي كانوا يستنشقونه من خلال فتحات التهوية. التصقت ألسنتهم بأعلى أفواههم، وصارت عيونهم تلسعهم وتحرقهم. جاءت تلك الرائحة الكريهة من أناس آخرين لم يصلوا إلى الملجأ، ربما كن أمهاتهم وأخواتهم، وقد احترقن بسبب طوفان من القنابل الحارقة التي سقطت من الجوّ. كان بإمكانهم أن يشعروا بمدى شدة الحرارة. وحينها بدا القبو مكاناً ميئوساً منه إلى أقصى الحدود.

انكمش السيد شميدت، بواب الجامعة مرتعداً، وهو يقف بجوار هانز، محاولاً التصرف دون خوف، ولكنه في الحقيقة كان يبحث عن الأمان في وجود الشخص الذكر الوحيد القريب منه. وقال بصوت عالي النبرة: «جميع هؤلاء الفتيات مرعوبات»، وقد توهج وجهه واتسعت عيناه، ليكشف بوضوح عن حالة الهستيريا التي كان يعيشها. «ما الذي يجب الخوف منه؟ ليس لدى الأمريكان مقاتلات حماية وسوف يقوم طيارونا بتفجير طائراتهم وهي في السماء، انتظر فقطَ وسترى...». كان

هانز يعرف رائحة الخوف، وكان هذا البواب مرعوباً. أثناء جلوسهم في القبو لم يكونا يريان شيئاً من الرعب الموجود في الخارج، لكنهما شعرا به؛ اصطدم شيء ما بالأرض جعلها تهتز بعنف، تصاعد صوت دويّ عميق ليتحول إلى هدير شديد يمزق الأذن. ارتفع فوق ملجئهم لهيب أحمر هائل، أعقبه صوت تهشم ألواح خشبية وطوب مباني كما لو أن العالم انقلب رأساً على عقب.

كان الفوسفور المشتعل يتساقط على الأنقاض مثل زخات المطر. تحولت المدينة إلى فرن مشتعل. بدأ الناس يركضون وهم يصرخون من وسط أنقاض منازلهم، وشعرهم وملابسهم مشتعلة، كانوا يتراقصون برعب وهم يمرّون من بين جوانب اللهب قبل أن يتحولوا إلى أشكال معقوفة بشكل غريب وسط الإسفلت المنصهر. كان جميع الضحايا الأبرياء، وسط معمعة الحرب التي جلبها إليهم زعماؤهم. فهل كان غريباً أن الكثيرين لم يعودوا يصدقون بشدة دعاياتهم، التي كان ينحسر تأثيرها يوميّاً، والتي تتحدث عن العرق الآري المتفوق الذي لا يقهر وتحقيق النصر النهائي؟ لم تكن القنابل المتساقطة ولا الكبريت الحارق يميزان بين من يصدق تلك الدعايات وبين من لم يعد يقتنع بها. لم ينتج عنها سوى جمع الناس بعضهم مع بعض. كان كلّ ما يحتاجه الأمر هو إيقاد الشرارة ليتفجر بركان الغضب الشعبي. لقد استوطنت تلك الفكرة في عقل شول الشاب عن طريق لقاء جرى بالصدفة.

في خريف عام 1941، بينما كان هانز في إجازة قصيرة للوطن، التقى بكارل موث، مؤسس المجلة الدينية الأدبية هوشلاند، التي حظرها النازيون. الذي عرفه على مجموعة من الأشخاص الذين يعيشون (غربة داخلية) كانوا ضمن حلقة مغلقة لم تنخرط بشكل مباشر في نشاطات مقاومة علنية، ولكنها كانت تمثل مقاومة فكرية، ضمّت شخصيات مثل فيرنر بيرغنغروين، مؤلف كتاب الطاغية والمحكمة، الصادر في عام (1935) وإرنست يونغر، مؤلف رواية على المنحدرات الرخامية (1939)

وقد انتقدوا في أعمالهم، فكرة النظام الشمولي وأثرت أفكارهم على شول الشاب. ما ساعد هانز أيضاً محاضرة ألقاها أستاذ الموسيقى والفلسفة، كورت هوبر، الذي كان يؤكد على المسؤولية السياسية للمفكر. بعد ذلك كتب إلى صديق له يقول: «لطالما كانت الروحانية العدمية تشكل خطراً كبيراً على الثقافة الأوروبية. بمجرد أن تصل إلى غايتها النهائية، أي ذلك النوع من الحرب الشاملة التي نخوضها الآن، فإنّها لا تؤدي سوى إلى فراغ كبير لا يمكن أن ينتج عنه شيء بنّاء. وقادنا ذلك للاعتقاد أنه، ستنتج من ذلك نهضة وطنية عظيمة». وهكذا كان هانز يرى الحرب من خلال هذا المنظور، التي كانت تنظر إليها الجماهير، باعتبارها النار العظيمة المطهرة. لكنه لم يستطع أن ينسى أبداً المبدأ الذي غرسه فيهم والدهم: وهو أن السياسة لا يمكن أن تحيا دون أن يكون لديها شعور قوي بالأخلاق.

في عام 1942 دخلت حياة هانز وصوفي شول في مرحلة جديدة وحاسمة. في كانون الثاني، تمّ عقد اجتماع في فيلا في ضاحية فانسي في برلين، حيث قام رؤساء أجهزة قوات الأمن الخاصة بتوجيه من المشرف العام على أجهزة الأمن راينهارد هايدريش بتحديد ترتيبات تفاصيل خطة «الحل النهائي» للمسألة اليهودية. بدأت تبرز وحشية النظام القمعي؛ وبدأ أتباع الديانة اليهودية يختفون ووقعت مذابح في جميع بلدان شرق أوروبا المحتلة. وصلت الجيوش الألمانية إلى نهر الفولغا وتوقفت عنده. وبإصرار من هتلر، كان يتمّ زج الكتيبة تلو الأخرى من الجيش الألماني في المعركة وتحولت بقايا مدينة ستالينغراد إلى مقبرة موحشة للروس والألمان على حدّ سواء. أغرقت أساطيل الحلفاء غواصات ألمانية أكثر مما أغرقت تلك الغواصات سفناً للحلفاء. كان الجنرال مونتغمري على وشك هزيمة الفيلق الأفريقي الشهير بقيادة رومل في شمال أفريقيا.

أصبحت الغارات بقاذفات القنابل على المدن الألمانية عملاً روتينيّاً يوميّاً. عانى السكان المدنيون كثيراً. إذا لم يكن هذا كافياً لتوضيح الواقع

المعاش، فإنّ ما أحدث الفرق هو الآلاف من الإعلانات القصيرة التي بدأت تظهر يوماً بعد يوم في الصحف المحلية، أو تمّ تثبيتها على أبواب الكنيسة وجدران المنازل:«... نموت من أجل الفوهرر والوطن». على الرغم من أن السلطات تمكنت من إخفاء الحجم الحقيقي للكارثة، إلّا أن مئات الآلاف من الصلبان الخشبية كانت تروي القصة الحقيقية.

كانت تلك هي اللحظة التي قرر فيها هانز شول العمل في (المقاومة النشطة) لنظام مخاتلٍ وقمعي بالقدر نفسه. كانت كلّ ضحية تسقط في سبيل المبادئ الإنسانية الأساسية تكون فداءً للفوهرر والوطن، مع تلقي الجيوش الألمانية لأولى نكساتها، بدأ الإرهاب يسود بسعار غير مسبوق في جميع أنحاء ألمانيا، وباتت المقصلة في انتظار كلّ من يتجرأ على مناقشة القضايا الأخلاقية الشديدة العمق. سيطر هتلر على الأمة بوسائله القمعية التي كانت مخفية في عهد الكذب. وفي حين إن غالبية السكان التزمت الصمت خوفاً من أساليب القمع الوحشية، قرّر شاب يبلغ من العمر 22 عاماً الوقوف بوجه هتلر وفضح أكاذيبه؛ كان هانز شول يؤمن أنّه بات من الضروري إعطاء إشارة إلى أنّه لا تزال هناك مقاومة أخلاقية، وأن هناك شخصاً يمتلك الجرأة على التحدث علناً. كان يعلم أنّه سيواجه «الغستابو»، وهي منظمة تمّ إنشاؤها أصلاً لاستخدام عناصرها للتسلّل إلى المجموعات المعادية لهتلر، وإحباط خططهم وتصفية قادتهم بدم بارد. تمّ تصميم الغستابو على طراز جهاز التشيكا[7] الذي اشتهر به ستالين، والذي أسسه فيليكس دزيرجنسكي، وهو شخص كان يعاني من العصاب النفسي بشكل كامل وكان يرى أن هناك مؤامرة في كلّ ركن من أركان الشارع. نما جهاز الغستابو مثل جهاز التشيكا بشكل سريع ليتحول إلى جهاز أخطبوطي يديره البيروقراطيون ولا يمكن السيطرة عليه. وأدّى

7- تشير كلمة تشيكا إلى الأحرف الأولى من عبارة اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة (وأخيراً بات يعرف باسم جهاز الكي. جي. بي. KGB). وبعدها بدأ يشار إليه بالأحرف NKVD.

ذلك إلى انخفاض كفاءته الكلية، لكنه ظلّ جهازاً قاتلاً، حيث لم تكن تقف في طريقه أية قيود حين يقوم بإجراء التحقيقات وتنفيذ عمليات انتقامية ضد أفراد أو مجموعات يشتبه في أنّها تشكل خطراً على النظام. لتحقيق هذه الغاية، تصرف عملاء الغستابو بأساليب وحشية وغير إنسانية تماماً. كان الاشتباه مساوياً للاعتقال أو ما هو أسوأ. أصبح الضحايا مجرد أرقام. في مثل هذه الظروف بدأ يستعدّ حوالي ستة من طلاب كلية الطب لمواجهة هذا الوحش.

قال هانز الـذي كان يرغب في حماية أخته: «صوفي، عودي إلى المنزل».

فسألته: «وأتركك هنا؟».

«إنّه أفضل ما تقومين به». نظر من النافذة المغطاة بشريط، وهو إجراء ضروري لمنع تحطمها إذا ما سقطت قنبلة من إحدى الطائرات.

«لقد كنت أراقبك طوال الأسابيع الماضية ولا أعرف ما كان يدور في ذهنك»، نظرت صوفي إلى أخيها بعيون تتلألأ قائلة: «لكنني سأبقى معك. مهما كان قرارك بخصوص ما يجب أن نفعله، سوف أكون بجانبك».

في نهاية هذه الحرب، قد نجد أنفسنا عاجزين ولا نملك شيئاً وسيطالبنا العالم: ماذا فعلتم للتصدي للظلم؟ يجب علينا أن نفعل شيئاً لتحرير أنفسنا من هذا الذنب الرهيب، الذي يرتكبه عدد قليل من الأشخاص باسم الأمة. لقد وجد دعماً كاملاً من أخته لقراره بوجوب «تحريض أبناء الأمة».

يجب أن نضع حدّاً لاستبداد هذا الرجل قبل أن نموت جميعاً. فهو يأمر شباب ألمانيا أن يموتوا دون السماح لهم بإبداء رأيهم في هذا الأمر. يجب أن نوقظ فيهم الإرادة لمقاومة هذا الطغيان المستبد.

كانت تلك هي أفكار هانز شول الإرشادية، كانت تلك هي أفكاره في الأساس ثم ألهم بها أفراد مجموعته. كانت قوتها المحركة ثلاثة طلاب في أوائل العشرينيات من العمر: هانز وصوفي شول، وصديقهم

ألكسندر شموريل. إن ما بدأ كنقاش فلسفي بين الأخ والأخت، سرعان ما انضم إليه عدد من الطلاب ذوي التفكير المتشابه من داخل جامعة ميونيخ: كريستوف بروبست، وويلي غراف، وتراوت لافرينتز، وهوبرت فرونتاونغلر، وكاثرينا شودكوبف وجيزيلا شرتنج. وجميعهم جاؤوا من بيئة دينية أو برجوازية، أو نوع من الأوساط اللوثرية أو الكاثوليكية المعادية للفكرة الإلهية الجديدة التي يطلق عليها الاشتراكية القومية، وكان الفوهرر هو معبودها. كانت عائلة شول تؤمن بالمبادئ اللوثرية، وكان ويلي غراف من أتباع كنيسة الروم الكاثوليك، وترعرع شموريل في كنف الكاثوليك الأرثوذكس.

ولد ألكسندر شموريل، الذي كان يناديه أصدقاؤه «شوريك»، في 16 أيلول سنة 1917 في مدينة أورينبورغ الروسية لأب ألماني وأم روسية؛ كان قد التقى هانز شول في معسكر الطلبة رقم 2.

ولد كريستوف بروبست في 6 تشرين الثاني 1919 في مدينة مورناو. وقد كان ابن رجل متعلم لم يكن يصدق بوعود هتلر. أمضى كريستوف خدمته العسكرية كجندي في سلاح المدفعية في بطارية نوفتاوف المضادة للطائرات وهي نفسها التي خدم بها هانز شول.

ولد ويلي غراف في 2 كانون الثاني 1918 في مدينة كوتشينهايم، وترعرع في مدينتي ساربروكن ورابنلاند. وكان متديناً مؤمناً بالمبادئ الإصلاحية والأخلاقية للدين المسيحي.

بحلول أوائل الصيف، أضافوا عضواً مهمّاً إلى مجموعتهم، هو أستاذهم الجامعي، البروفيسور كورت هوبير، السويسري المولد (24 تشرين الأول 1893) وكان يتمتع بموهبة موسيقية مذهلة. فقد كان يقود فرقة أوركسترا موسيقية لعزف السيمفونيات قبل أن تمنحه جامعة ميونيخ كرسي الأستاذية في الموسيقى والفلسفة. في ربيع عام 1942، زاره أحد طلابه السابقين، وكان عائداً من روسيا. «أستاذ، لقد كنت أعتقد دائماً أن الألمان أشخاص محترمون، لكنهم في الشرق يتصرفون

مثل الحيوانات...» ثم تابع حديثه بعرض وصف للجرائم التي ارتكبتها قوات الأمن الخاصة. صدمت هذه القصص البروفيسور هوبير؛ أصبحت محاضراته تهتمّ بالأمور السياسية على نحو متزايد، وأصبح مهتمّاً بقضايا الإنسان أكثر من مسائل الموسيقى. كان هانز وصوفي يصغيان إلى الأستاذ وهو يناقش علل المجتمع في زمن الحرب، واتخذا الخطوة الجريئة بكسبه لقضيتهم. بهذه الطريقة أصبح كورت هوبير جزءاً لا يتجزأ من حركة المقاومة التي يقودها أبناء عائلة شول.

اختار هانز شول، قائد الحركة الذي لم ينافسه أحد على الزعامة، اسماً حركيّاً لمنظمتهم هو الوردة البيضاء على اسم رواية للكاتب الألماني ب. ترافن، لم يكن أفراد حلقتهم في البداية منظمين وتصرف بعضهم بسذاجة. لم يكن لديهم مال ولم يكن بإمكانهم الاعتماد على المساعدة الخارجية؛ كانوا يعملون في ظلّ تهديد مستمر من أن يكتشفهم الغستابو. وطالما كانت مقاومتهم كلامية فقط ومقتصرة على من يثقون فيه، فإنّ الخطر لم يكن كبيراً جدّاً. ولكن لإثبات فعاليتها، سيتعين عليهم توسيع أنشطتهم وإجراء اتصالات مع جمهور واسع الانتشار، وهذا من شأنه أن يؤدي بهم إلى الخطر. بعد أمسيات عديدة قضاها أعضاؤها في مناقشة وسائل نشر فكرتهم، وبسبب الضغوط المالية المسلطة عليهم، توصلوا إلى طريقة بسيطة. حدث ذلك عن طريق الصدفة عندما ذكر ألكسندر شوموريل أنّه رأى آلة استنساخ في نافذة متجر لبيع الأشياء المستعملة. ستكون مناسبة بشكل مثالي لطباعة منشورات سرية ونظراً لأن شموزيل كان هو الوحيد الذي يمتلك المال، فقد اشترى الآلة الطابعة. لم يدركوا أن بساطة أدوات عملهم كانت تمثل أفضل غطاء لهم، حيث تمّ تدريب عناصر جهاز الغستابو على مكافحة شبكات التجسس الجيدة التنظيم التي تستخدم وسائل متطورة للغاية.

ظهرت أولى هذه المنشورات، المعروفة باسم نشرة الوردة البيضاء (الكتيب الأول) في 27 حزيران 1942 وتمّ إرسالها بالبريد من وسط

ميونيخ، وقد كتبه هانز شول وألكسندر شوموريل، وقام بطباعته تراوت لافغينتز بواسطة آلة كاتبة محمولة من طراز ريمنغتون. واشترك في عمليتي النسخ والتوزيع كل من صوفي وإينغ شول، وكريستوف بروبست. أرسلت أول رزمة، وقد طبعت في مئة نسخة، بالبريد إلى الكتّاب والصحفيين والمفكرين الذين كانوا يأملون منهم أن يتعاطفوا مع قضيتهم. وللتأكد من أن مكتب البريد قد سلم الرسائل بالفعل إلى وجهتها، أرسل هانز رسالة إلى نفسه. لسوء الحظ، فشلت مجموعة المقاومة الطلابية في تقييم القدرة على تعبئة الجماهير الألمانية، التي كانت لا تزال تحت تأثير سحر شخصية الفوهرر. وخوفاً من تعرضهم لعمليات انتقامية محتملة، قام خمسة وثلاثين شخصاً من المستلمين الأوائل لرسائلهم بتسليمها إلى مقرّ الغستابو في ميونيخ. وتلك كانت أول مرة يسمع الغستابو بهذه الرسائل.

ثم تبعتها ثلاثة أعداد أخرى قبل 12 تموز 1942. تضمنت اقتباسات من غوته وشيلر وأرسطو ونوفاليس والكتاب المقدس، دعوا من خلالها أفراد البرجوازية الليبرالية في ميونيخ إلى إدراك أن الحق الأساسي للمواطن الفرد قد تعرض للخيانة. كيف يمكن للأمة الألمانية، التي تفخر بتراثها الثقافي، أن تقبل ديكتاتورية عصابة من المجرمين والكذابين؟ لم تقدم الثلاثة أعداد الأولى خياراً سياسيّاً واضحاً ومفصلاً. ولم تشر إلى احتمال حدوث هزيمة ألمانية إلّا في العدد الرابع، مستخدمة على سبيل المثال النكسة التي تعرض لها الجيش الألماني على يد الجيش الأحمر عند أبواب موسكو في شتاء 1941–1942. علاوةً على ذلك، أشارت إلى القصف العشوائي الذي تعرضت له مراكز تجمعات السكان الألمان من قبل موجات من الغارات التي قامت بها قاذفات الحلفاء، والتي سبق للمارشال غورينغ أن أكد أنّه لن يسمح بحدوثها مطلقاً، وخاطب الألمان قائلاً: «وإذا حدث ذلك فإنّ لكم الحق في أن تنادوني باسم ماير»!، (وهي إشارة إلى اسم شائع بين الألمان وما يقصده أن الناس لن ينادوه بلقب الجنرال غورنغ، بل باسم فرد من عامة الناس – م) واصل المنشور تذكير

الناس بقائمة طويلة من قتلى الجيش الألماني الذين سقطوا في الجبهة الشرقية. وأخيراً حثّ المواطن العادي على مواجهة مسؤوليته الفردية كشخص تربّى في ظلّ الثقافة المسيحية والحضارة الغربية، وانتهى إلى ذكر أمثلة على كيفية قيام إلههم المزيف هتلر، بخداع الأمة في كتابه كفاحي.

ولأجل توزيع منشوراتهم على نطاق واسع، قام هؤلاء الطلاب بطباعة عدة مئات من النسخ منها واختيار عناوين الأشخاص الذين سترسل لهم من دليل الهاتف. كانت تكمن إحدى المخاطر الرئيسة في احتمال الكشف عن نشاطهم في قضية شراء مئات الطوابع اللازمة للرسائل. تطوعت صوفي للقيام بذلك العمل. قامت بوضع شارة سوداء فوق سترتها ووضع رمز الصليب المعقوف بشكل بارز في طية صدر السترة. سلّمت صوفي مظروفاً إلى موظف البريد قائلة: «كم هو مبلغ الطوابع التي يجب أن أضعها على الظرف؟».

«ماذا يحوي؟» سألها موظف البريد.

«نموذج استمارة مطبوعة».

قام بوزن الرسالة. «ثلاثة بنسات، لكن يجب عليك عدم إضافة أيّ شيء مكتوب باليد».

«هل يمكنني من فضلك الحصول على أربع مئة طابع».

نظر إليها بعين الشك. «أربع مئة؟ ماذا ستفعلين بأربع مئة طابع؟».

رسمت صوفي على وجهها نظرة حزينة. «لقد مات أخي في روسيا...».

«أنا آسف للغاية»، ردّ عليها الموظف مع ابتسامة تدل على شعوره بالإحراج وهو يسلمها ثماني رزم تحوي كلّ منها على خمسين طابعاً من فئة ثلاثة بنسات.

تمّ إرسال جميع الأعداد الأربعة الأولى من النشرة من ميونيخ. لكن هانز كان يعلم أن إرسالها جميعاً من المدينة نفسها عبر البريد أمر خطير للغاية. تطوعت الفتيات بالسفر إلى مدينتي كولن وشتوتغارت وهن

يحملن حقائب محشوة بالمنشورات. وكعادة كلّ شيء قاموا به، كان هذا الأمر محفوفاً بالخطر أيضاً؛ كانت شرطة السكك الحديدية تقوم ببحث دائم عن التجار الطفيليين الذين يحملون الحقائب الضخمة، ويعملون في السوق السوداء ويقومون بتهريب (لحم الخنزير المقدد)، والخضروات وغيرها من المواد التموينية في المدن. في رحلة صوفي الأولى إلى مدينة فرايبورغ، دخلت دورية للشرطة مقصورتها، لكن لحسن الحظ، لفتت انتباههم امرأة بدينة لكون حقيبة سفرها كانت محشوة بالبطاطس وشحم الخنزير. بينما كانت صوفي تجلس مرتجفة وقد خبأت حقيبتها تحت مقعدها، تقدمت المرأة السمينة أمام رجال الشرطة وهي تصرّ على براءتها. توجه تراوت لافغينتز إلى برلين لإجراء اتصالات مع يورغن فيتغنشتاين، صديق ألكسندر شموريل. عثرت صوفي على مساعدة من هانز هيرزل، وهو طالب في المدرسة الثانوية يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً من شتوتغارت، وكان مسروراً بفكرة توزيع منشورات غير قانونية في جميع أنحاء منطقة شوابيا. بعد القيام بإنشاء شبكة للتوزيع من الشباب، بدأت المنشورات في الظهور في صناديق البريد الخاصة في جميع أنحاء البلاد.

استبد الغضب بهاينريش مولر رئيس جهاز الغستابو. كان عملاؤه غير قادرين على التوصل إلى أدنى فكرة عن المنشورات الغامضة. ثم تبخرت هذه المنشورات، التي أرسلت عبر البريد طوال صيف عام 1942، بشكل مفاجئ. واجه مولر مشكلة أخرى: فهو لم يكن فرداً من قوات الأمن الخاصة، ولم يكن من أعضاء الحزب المقتنعين بسياساته. كان مفتشاً في الشرطة البافارية وتصرف بصورة صحيحة. في أوائل الثلاثينيات، قبل أن تصبح جمهورية فايمار على وشك الانهيار، تحول ولاؤه إلى هتلر. وهو الآن على وشك أن يلعب لعبة جديدة وكانت المخاطرة كبيرة هذه المرة[8].

8- لم يكن مولر هو الوحيد. في كانون الأول 1942، أرسل هاينريش هيملر قائد قوات الأمن الخاصة صديقه، المحامي الدكتور لانغبن، إلى زيوريخ لإجراء مفاوضات سرية مع المسؤولين الأمريكيين والإنجليز.

كان واحداً من العديد من القادة، المدنيين أو العسكريين، الذين أدركوا أن بلادهم كانت متجهة إلى كارثة. قريباً سوف يغزو الحلفاء قارة أوروبا ولم يحدث أن انتصرت ألمانيا مطلقاً في حرب خاضتها على جبهتين. لقد حان الوقت للتفاوض. لكن الإشارة إلى أن مثل هذا الشيء كان مساوياً للانتحار، خاصة إذا كان هذا الاقتراح يأتي من رأس الجهاز الذي كان من المفترض أن يحارب الخونة. قرّر أنّه من الأفضل بكثير له أن يتظاهر بأنّه يسير مع التيار السائد نحو الهاوية، ولكنه في الوقت نفسه، بدأ في اتخاذ ترتيبات خاصة به. ولأجل ذلك يتطلب الأمر أن يجد لنفسه غطاء يحميه. وقد وجد حلّاً مبتكراً: ما هو الغطاء الأفضل من عرض ولائه لفوهرر من خلال تحطيم شبكة مهمة مناهضة للنازية؟

أصبح مولر حينها، تماماً كما هو الحال مع جميع المشاركين الآخرين في التحقيق، مقتنعاً بأن لهم علاقة بحركة تنظيمية ضخمة، ربما مع الشيوعيين المتمرسين، وبمساعدة الأموال التي تمّ نقلها لهم بالمظلات من خارج البلاد. في عام 1942، حقق جهاز الغستابو نجاحاً ساحقاً عندما قام عملاؤه بالإيقاع بشبكة مشهورة للمقاومة السرية، ثم استخدم جهاز اللاسلكي الخاص بها والشخص المسؤول عن تشغيله لإرسال برقيات مزيفة إلى موسكو.

أطلقوا على هذه العملية اسم–فونكشبيل ومعناها بالألمانية (لعبة جهاز اللاسلكي). في قضية «الأوركسترا الحمراء»، تبين أنه، مهما كان التنظيم جيداً وواسع النطاق، فإنّه بمجرد انهيار قاعدة الشبكة، والقبض على زعيمها، فإنّ هيكل التنظيم يتهاوى بأكمله. ولكن مولر في هذه المرة واجه طريقاً مسدوداً. قام عملاؤه بجمع كلّ المشتبه بهم من اليساريين والمثقفين والكتاب والقساوسة المعروفين وبدؤوا باستجوابهم. سرعان ما أصبح واضحاً أنّهم يواجهون منظمة غير معروفة تماماً ومعزولة عن بقية الشبكات بشكل جيد ومتطورة للغاية. كان يدير عملية الوردة البيضاء خمسة طلاب في أوائل العشرينيات من العمر، مستخدمين قوت يومهم

لشراء الحبر للآلة الطابعة والطوابع البريدية والمظاريف، وهو ما لم يخطر على بال مولر رئيس الغستابو أبداً. استدعى كبير المحققين لديه الملقب (البروسي). كان الإجراء المتبع في الغستابو هو أن لا يقوم «بالاستجواب المفصل» مع المتهم رجل من المنطقة نفسها التي يسكن فيها المتهم، فقد تحدث حالة من الإعجاب أو الصداقة بينهما.

حدّق مولر من وراء مكتبه وعيناه تقدحان شرراً في وجه كبير المحققين مخاطباً إيّاه بلهجته البافارية الخشنة: «يجب أن نحطم شبكة الوردة البيضاء هذه، عليكم أن تعثروا على أفرادها». لم يكن بحاجة إلى إضافة عبارة: «وإلّا ستنالون عقابكم». غادر كبير محققيه إلى مكان عمله ليباشر تحقيقاته. وبطريقته المنهجية التي تمرس عليها، بدأ عمله من خلال التحقق من أرشيف الغستابو. كانت كلّ محطة تابعة للجهاز تضيف أسبوعيّاً أسماء جديدة إلى «القائمة» وأصبح المقرّ الرئيس للغستابو مكتظّاً بسجلات لأسماء المشتبه فيهم وغير المرغوب فيهم. لم يكن اسم عائلة شول في هذه القائمة؛ كانوا عائلة لوثرية طيبة ليس لديها سوابق تدعو للشك.

توقف نشاط حركة الوردة البيضاء لمدة ثلاثة أشهر، فلم يحسم قادتها أمرهم في الاتجاه الواجب اتخاذه. لم يلقَ نداءهم الأول أيّ استجابة. لكن ذلك قد يتغير فجأة إذا خسرت ألمانيا معركة ستالينغراد وبدأ الناس يشككون في عبقرية هتلر العسكرية. عمل هانز شول وكريستوف بروبست على كتابة مسودة عدد جديد من المنشورات. في إحدى الليالي في أواخر تشرين الثاني، كانا منغمسين في عملهما، وكانت طاولة مطبخهم مغطاة بأوراق تحوي عدداً من العبارات غير المنتظمة، طرق شخص بابهم. أصابهم الهلع! لم يكونوا يتوقعون أيّ شخص في تلك الليلة. قاما بإخفاء الأوراق في الأدراج واستبدالها بالكتب المدرسية. استمرت صدمة صوفي لفترة طويلة بما يكفي لكي يلاحظها شموريل، لأنّه هو من كان - وليس الغستابو - يطرق بابهم. بدا ألكسندر مرتبكاً وهو يهرع أمامها إلى

الغرفة. «هانز، لقد سمعت للتوّ في هيئة الإذاعة البريطانية أن الروس قد حاصروا جيشنا السادس بأكمله في ستالينغراد».

قال هانز: «هذه هي بداية النهاية».

«هذا بالضبط ما فكرت فيه. لهذا السبب اعتقدت أنّه يجب عليك أن تعرف على الفور».

أدركت صوفي أنّهم كانوا يخاطرون بشكل مخيف وأنّهم يعيشون في الوقت الضائع. من أين جاءها كلّ ذلك الشعور العارم بالقوة بحيث كان يدفعها إلى أن تخبر أبناء شعبها الذين كانوا يقادون مثل قطيع من الخراف نحو الهاوية؟ لكنها فعلت، ومما عزّز إرادتها في المضي قدماً تلقيها رسالة من حبيبها فريتز. كتبها أحد رفاقه:

«حبيبتي! نحن بالقرب من ستالينغراد. لقد أبيدت كتيبتنا. كلتا يديّ متجمدتان. كنا نقف لأسابيع، في النهار والليل نحرس في العراء، في درجة حرارة تبلغ 30 درجة مئوية تحت الصفر. قد تكون هذه هي الرسالة الأخيرة التي تصلك مني...».

لقد حطمت هذه الأخبار عالمها الخاص. فيداه الثمينتان المدربتان على تهدئة الألم وشفاء الناس، أصبحتا الآن عديمتي الفائدة؟ منحها ذلك الأمر سبباً مقدساً لإنقاذ الآخرين الذين يعانون من مصير مشابه لمصير حبيبها الملازم. ليذهب الخطر الذي سيحصل لنا إلى الجحيم! إذا كان لدى الشباب، في البداية، بعض الأوهام حول جدية مسعاهم، سرعان ما زالت عنهم الشكوك في المخاطر المميتة التي جلبوها على أنفسهم، لكنهم لن يتراجعوا أبداً.

ومن جديد، وقف القدر إلى جانبهم. ما كانوا يحاولون تحقيقه، وهو حثّ الشباب الألمان على القيام بردّ فعل معادٍ للنظام، قام به النازيون! كان بول غيزلر هو رئيس فرع الغستابو في ميونيخ، وهو أحد كوادر الحزب الذي استخدم أقوى سلاح سياسي - قوته البدنية - للفت انتباه هتلر. لكن الفطنة السياسية التي كان يمتلكها كانت تماثل فطنة طفل يبلغ

من العمر عشر سنوات. في أوائل كانون الثاني 1943، أثبت ذلك من خلال الإصرار على أن يحوز لنفسه على الشهرة من خلال إلقاء الخطاب الرئيس في الاحتفال بالذكرى 470 لتأسيس جامعة ماكسيميليان في ميونيخ. وقد تمّ التخطيط ليكون هذا الاحتفال تعبيراً عن الولاء للفوهرر والرايخ، وكان لزاماً أن يحضره كلّ طالب من طلاب جامعة ميونيخ. تمّ تزيين القاعة الكبرى لمتحف دويتشه بلافتات عملاقة وضعت وراء منصة المتحدث كتبت عليها عبارة (مع الفوهرر إلى النصر النهائي). تمّ تخصيص الجزء الخلفي من القاعة لجلوس الطالبات. أمّا الصفوف الأولى فتمّ تخصيصها لجلوس مجموعة من رجال قوات الأمن الخاصة وهم يرتدون زيّاً أسود وجزمات أنيقة للغاية. كما كانت هناك مؤثرات بصرية، فقد تمّت إضافة عدد من الجرحى وهم جالسون على الكراسي المتحركة لإظهار تصميم الشعب الألماني على القتال حتى النهاية. حتى دويتشه فوتشينشاو (مؤسسة السينما الحكومية) كانت حاضرة لتسجيل الحدث المهيب. صعد القائد بول غيزلر إلى حيث يوجد الميكروفون ورفع يده ليؤدي التحية النازية! وردّ الحاضرون بكل جدية على التحية، كما كان متوقعاً منهم.

صاح غيزلر: «كلنا مع الفوهرر حتى النصر النهائي.» ومن جديد تفاعل معه الحاضرون، وإن كان بحماس أقل. ما شجع غيزلر كثيراً هو ردّ الفعل على التحية النازية التي قام بتأديتها، لدرجة أنّه فشل في ملاحظة التغيير الطفيف الذي جرى في نغمة الحاضرين في هذه المرة. ثم شرع في خطابه الناري، الذي كان حشواً لعبارات سياسية مملة كما كان متوقعاً. بدأ كلمته بهذه العبارة: «حضرات السادة الطلبة الكرام»، على الرغم من حقيقة أنّه لم يكن حاضراً هناك أيّ طالب من الذكور تقريباً، فقد كانوا جميعاً في الجبهة «أنتم تقفون على الشاطئ، وتنظرون إلى الأمواج المتلاطمة وهي توعدكم بأن هناك وقتاً رائعاً ينتظركم. وباعتباركم الطليعة المثقفة للأمة، فإنّ واجبكم المقدس هو القتال على الخطوط الأمامية من أجل

الوطن...» حتى الآن، كان كلّ شيء ممتازاً. لم يقل القائد غيزلر شيئاً استثنائيّاً، سوى ترديد عبارات الحزب التقليدية فقط. وبعد أن أصبح مأخوذاً بانتباه الجمهور إليه، والذي عزاه إلى جاذبيته وكفاءته الخطابية، أشار إلى الجزء الخلفي من القاعة وأعلن شيئاً مثيراً للغضب لدرجة أن الطالبات - ومن بينهن صوفي شول - لم يكن بإمكانهن تصديق آذانهن حين قال: «إن الجامعة الألمانية ليست ملاذاً لإنقاذ فتيات ذوات مكانة عالية ممن يرغبن في الهروب من واجبات هذه الحرب. سيكون من الأفضل بكثير أن تقوم هؤلاء الطالبات بواجباتهن كنساء ويقدمن إلى الفوهرر لإثبات ولائهن له، هدية في كلّ عام دراسي جامعي، تكون عبارة عن طفل ألماني صالح».

خيّم الصمت عبر القاعة، تلته دمدمة غاضبة. لكن القائد غيزلر لم يكن في باله التوقف؛ وكأن ذلك لم يكن كافياً لإزعاج الجمهور من الإناث، أضاف عبارة، كانت أكثر غباءً: «... وبالنسبة لمن هن عذارى، واللائي يشعرن بأنهن قبيحات للغاية ولا يجذبن انتباه الشباب، اسمحن لي أن أؤكد لكن، لديّ ما يكفي من الرجال الأقوياء المستعدين لتقديم هذه الخدمة!».

كان غيزلر يعوّل على إثارة الضحك بين الحاضرين، لكن ما تلقاه هو صرخات الاحتجاج الغاضبة بينما كانت الطالبات الغاضبات يتسلقن مقاعد الشخصيات البارزة في قوات الأمن الخاصة الجالسة في المقدمة ويتوجهن إلى المنصة لضرب هذا القائد المعتوه وصبّ الشتائم والإهانات فوق رأسه. أظهرت الطالبات الشابات بتصرفهن الغاضب هذا شجاعة مذهلة في مواجهة أعلى سلطة حزبية في بافاريا.

أمسكت إحدى الفتيات بالميكروفون وصرخت فيه: «ألم تفعلوا ما فيه الكفاية... أشعلتم هذه الحرب وقتلتم رجالنا... اللعنة عليكم»، في تلك اللحظة انفتحت الأبواب، ودخل أفراد من وحدات الغستابو إلى القاعة. كان خوف الطالبات من وحشيتهم في أدنى مستوياته لدرجة أنهن

لم يقاومن في الأغلب ولم يتراجعن أمامهم. وقد شجع ذلك مسؤولي الحزب ذوي الجزمات المصقولة بعناية والذين أصيبوا بالصدمة على تشجيع المهاجمين الذين كانوا يستخدمون الهراوات، وأن يقوموا باختراق حشود الطالبات، ويقومون بضرب رؤوسهن. لم يهدؤوا حتى جعلوا الدم يتدفق من رؤوس جميع من تجرّأن على الوقوف بوجههم، ثم غضبوا عندما رأوا طالبات كلية الطب يحاولن تقديم الإسعافات الأولية للمصابين. أمسكوا بطالبات كلية الطب من شعرهن وجرّوهن إلى خارج القاعة حيث تمّ «اقتياد مثيرات الشغب الخطرات» إلى شاحنات مغطاة بالقماش المشمع.

إذا كان قادة جهاز الغستابو قد ظنّوا أنّهم استطاعوا القضاء على جميع قادة هذا الشغب الطلابي العفوي، فقد كانوا مخطئين؛ لقد فاتتهم نصف دزينة من الطلبة من النوع الأكثر خطورة. كان هانز وصوفي شول وأعضاء مجموعتهم الوردة البيضاء شهوداً صامتين على مشهد كشف عن مدى بلاهة السياسيين ووحشية شرطة الولاية، واعتقدوا أن الوقت للتحرك على نطاق أوسع بكثير قد حان أخيراً. كلّ ما كان يستلزمه الأمر هو مواصلة إثارة غضب الطلاب. وهكذا عادوا للعمل في العدد الخامس من نشرتهم:

«نداء إلى جميع الألمان! إن هتلر يسير بأمتنا في طريق يؤدي بها بلا أدنى شك نحو الهاوية... لكن الأمة الألمانية لا ترى ولا تسمع. فهي تتبع بشكل أعمى هذا المهرج وهو يقودها نحو الخراب. إن حرية التعبير! والحرية الدينية لجميع الطوائف! وحماية المواطن الفرد من الجرائم التعسفية للدولة القمعية، هي أسس بناء أوروبا الجديدة. ادعموا المقاومة، وقوموا بتوزيع هذه النشرة! حركة الوردة البيضاء»[9].

على مدار يومين (من27 إلى 29 كانون الثاني 1943) قام كلّ عضو في المجموعة بتعبئة الرسائل في صناديق البريد. وتمّ جمعها بواسطة

9- يورد مؤلف الكتاب في هذا الهامش النص الأصلي للمنشور باللغة الألمانية.

شاحنات البريد في صباح اليوم التالي وتوجهت إلى العناوين التي اختارها أعضاء الحركة مجدداً من دليل الهاتف بشكل عشوائي نفدت أخيراً مظاريف الرسائل التي لديهم، واقترحت الفتيات وضع مجموعة من المنشورات المتفرقة في أماكن الانتظار في محطات الحافلات والسكك الحديدية. في ذلك اليوم، تعرضت ميونيخ إلى غارة جوية مدمرة أخرى. حاصرت الغارة صوفي وهي في العراء وشاهدت برعب كيف ألقت القنابل الفوسفورية في الجوّ زخات من الشرر الأبيض المتوهج على بعد 60 قدماً (18 متراً) منها. وأخيراً وجدت ملجأ لها في قبو للفحم. عندما أعلنت صفارات الإنذار نهاية الهجوم، لم تشاهد في طريقها سوى الحرائق فقط. تمّ تطويق الشوارع بالحواجز بسبب القنابل غير المنفجرة. كانت النيران تشتعل في الشاحنات وحافلات الترام. وكان الناس الذين تتدفق الدماء من وجوههم يصرخون طلباً للمساعدة. أمّا الأمهات فكن يتنقلن من مكان إلى آخر، وهن ينادين بأسماء أطفالهن، الذين حاصرتهم الغارة أثناء عودتهم إلى المنزل من المدرسة. دعا صوت أجشّ صادر من مكبرات الصوت في إحدى الشاحنات جميع من تعرضت منازلهم للقصف لتقديم بلاغ إلى المنظمة الحزبية للحصول على المساعدة؛ كما طلب من الجميع الإبلاغ عن المفقودين من أقاربهم.

كان الجميع منشغلين للغاية فلم يلاحظوا فتاة تحمل حقيبة كتف محشوة بأوراق تثير الشبهة. تجولت لعدة ساعات حتى ساد الظلام وأصبحت البلدة معتمة تماماً؛ كانت الأوامر تقضي بإطفاء جميع المصابيح. كان الجوّ بارداً جدّاً، كانت صوفي قد رفعت ياقة معطفها؛ وحملت فوق كتفها حقيبة؛ تحمل فيها أوراق الهوية التي تشير إلى أنّها من العرق الآري. ولكن لم يكن هذا كلّ ما تحمله، كان هناك أيضاً مئة نسخة من العدد الخامس من النشرة السرية مطوية بدقة وجاهزة لدفعها تحت الأبواب. كانت تقوم بتوزيع تلك المنشورات المخالفة للقانون لأنّها عاهدت نفسها على أن تقوم بذلك، ولكن في الوقت نفسه، كانت خائفة

حقّاً؛ في الآونة الأخيرة كانت هناك علامات تشير إلى أن الوضع يتغير بسرعة ليزيد من الأخطار التي تلحق بأعضاء المجموعة. كانت الشرطة السرية في كلّ مكان، وتقوم بدوريات في الشوارع، وتتفحص هويات الأشخاص في المقاهي، وتدخل إلى دور السينما ومحطات السكك الحديدية، وتنتشر خارج أسوار الجامعة. في ذلك المساء البارد، كان عدد قليل فقط من الناس لا يزالون في الشارع. كان لدى صوفي شعور بعدم الارتياح لأن شخصاً ما كان يتابعها.

«أيتها الشابة»، ناداها فجأة صوت جاءها من الخلف وبدأت دقات قلبها تتسارع: «هل لديك ولاعة؟» كان يقف وراءها رجل يرتدي زيّاً رسميّاً ويحمل سيجارة. كانت تواجه صعوبة في تحديد وجه الضابط. «نعم»، قالت وهي تتلعثم بصوت مختنق للغاية جعلها تشعر أنّها لن تستطيع نطق حرف واحد آخر. وبيدين مرتجفتين أشعلت عود كبريت، لاحظت بارتياح أن شارات بدلته لم تكن سوداء مثل زي عناصر قوات الأمن الخاصة المخيفين. أشعل سيجارته، ثم ابتسم لها قائلاً: «شكراً جزيلاً!»، وسار مبتعداً.

توجب على صوفي أن تتكئ على أحد الجدران. استغرق الأمر بعض الوقت لتهدئة مشاعرها. فقد غابت عنها للحظة من الزمن كلّ الثقة والجرأة التي استجمعتها من أجل إنجاز هذه المهمة؛ كانت مقتنعة بأنّهم كانوا يراقبونها. ربما كان طلب هذا الجندي المهذب للولاعة بمثابة فخّ. شعرت كما لو أنّها كانت تعبر أرضاً محرمة مزروعة بالألغام؛ لم تستطع التفكير سوى في هانز وكريستوف وألكسندر وجميع الآخرين. وكانت تتوق إلى أن يضمها فريتز بشدة، لتشعر بالدفء والأمان، لمساعدتها على التخلص من الرعب الشديد الذي كانت تعيشه.

«الغستابو يعرفنا أفضل مما نعرف أنفسنا. أنا لست جبانة يا هانز، لكنني خائفة حقّاً».

«الخوف هو أداتهم في العمل. ربما يعرفون أساليبنا، لكنهم لا يعرفون

من نحن. إنهم يطاردون شبكة واسعة من الشيوعيين»،[10] حاول شقيقها تهدئتها. «إنّه من واجبنا المقدس أن نستمر». في الحقيقة، أصبحت مواصلة كفاحهم واجباً مقدساً وهم يرون أن الوطن كان يتجه نحو الهاوية.

كانت صوفي على حق، ولم يكن الغستابو خاملاً. كان مولر رئيس الغستابو قد أقام الدنيا ولم يقعدها وأرسل برقية إلى جميع فروع جهازه: «استخدموا كلّ الوسائل لإلقاء القبض عليهم». تمّ تخصيص وحدة من الغستابو في بافاريا لتقوم بمهمة واحدة هي تحديد موقع منظمة الوردة البيضاء ووقف نشاطها، فمنذ تلك اللحظة كان الغستابو متأكداً من أن مركز الشبكة لا بدّ أن يكون في ميونيخ أو بالقرب منها؛ تمّت كتابة العدد الخامس من النشرة على الآلة الكاتبة ذاتها التي كتبت فيها الأعداد الأربعة السابقة، وأرسلت جميعها بالبريد من بافاريا. تمّ عرض مكافأة قدرها ألف مارك لمن يدلي بمعلومات تؤدي إلى اعتقال «المتآمرين ضد أمن الوطن».

خاطب مولر رئيس الغستابو كبير محققيه قائلاً: «من يدير شبكة الوردة البيضاء هذه؟ هل هم من الروس، أم شيوعيون، أم عسكريون؟»، كان من المعروف عنه أنّه شخص لا يحجم أبداً عن استخدام شتّى أنواع التعذيب من أجل انتزاع المعلومات.

«لم أتمكن من تمييزهم. هم أذكياء بطريقة ما، لكنهم يتصرفون رغم ذلك بطريقة غير متقنة للغاية لا توحي بأن السوفييت يقفون وراءهم؛ وطريقتهم لا توحي بالتأكيد أنّهم عسكريون. أنا أعتقد، أنّهم أكاديميون، وعلماء، وأساتذة، وقساوسة، والإيقاع بهذا النوع من الناس لا يعتمد على مراقبتهم وملاحقتهم فقط، بل على الصدفة. أنا متأكد من أنني في يوم ما سأقابل أعضاءً من حركة الوردة البيضاء وجهاً لوجه، ستكون أكبر مفاجأة في حياتي».

10- يبدو أن هذا كان مؤشراً على أن هانز كان لديه اتصال ما داخل الشرطة البافارية.

أخيراً لاحت الفرصة أمام جهاز الغستابو. في 27 كانون الثاني 1943، وحالما تمّت طباعة العدد الخامس، كانت صوفي قد قامت برحلة نهارية خطرة إلى شتوتغارت لتوصيل 500 نشرة سرية إلى هانز هيرزل. وعادت على الفور إلى ميونيخ بينما قام هانز ببعث الرسائل. بعد أن أنهى مهمته، تباهى هذا الفتى المراهق أمام اثنين من رفاقه في المدرسة الثانوية حول مشاركته في مهمة سرية؛ في 29 كانون الثاني، ذهب الصديقان اللذان كان يثق فيهما بشكل أحمق وقد كانا أعضاء مخلصين في منظمة شبيبة هتلر، إلى شرطة المدينة للتبليغ عن هيرزل. أصغى لهما مفتش الشرطة المحلي، الذي كان اهتمامه منصبّاً على العمل على كيفية فك الاختناقات في الشوارع التي تعقب كلّ غارة جديدة تقوم بها قاذفات الحلفاء ولم يكن يعلم شيئاً عن التحقيقات الجارية من قبل الغستابو، وقام بتدوين الملاحظات، وخاطب مساعده قائلاً وهو يتصنع الجدية في نبرة صوته: «قضية خطيرة بالفعل»، مع ذلك شعر بأنّه مضطر لإرسال مذكرة موجزة عن البلاغ إلى مقرّ قيادة الشرطة في ميونيخ، حيث تمّ استلام مذكرته حسب الأصول وحفظها في أحد الأدراج. كان لدى قائد شرطة بافاريا اهتمامات أكبر من قصص بعض المراهقين من مدينة أولم. ولهذا السبب لم يتمّ القيام بأيّ إجراء يخصّ القضية، حيث كان نادراً ما كان هناك تواصل بين الشرطة العادية والغستابو.

كان يجب على هانز شول إذا أراد لحركة الوردة البيضاء الوصول إلى جمهور أكبر، توسيع نطاق حلقته. فالطلاب الخمسة لن يستطيعوا القيام بذلك بمفردهم. فاستطاع هانز الاتصال مع فولك هارناك، الذي أعدم النازيون شقيقه أرفيد هارناك لكونه كان قائداً لشبكة التجسس المعروفة باسم «الأوركسترا الحمراء» التي يديرها السوفييت؛ أكّد فولك على أن إرساء الأساس لحركة مقاومة عالمية أوسع، يجب أن يقوم على أساس سياسي صلب، وقد اقترح أن يعمل كوسيط مع حلقة بونهوفر-دهناني. وقد أدّى هذا الاستنتاج الذي عرضه فولك عن وجوب أن تكون

للحركة رسالة سياسية ذات أهداف محددة بدقة، لأن يقرر هانز الاتصال بالبروفيسور كورت هوبير «الخبير في التأليف» ويعرض عليه القيام بصياغة مسودة العدد السادس.

في غضون ذلك، حذر مصدر داخل قيادة الشرطة ويلي غراف[11] من أن الغستابو قد توصل بشكل جازم إلى أن مركز حركة الوردة البيضاء في ميونيخ، وأنّهم شكلوا فريقاً خاصّاً للكشف عن الحركة، وأنّهم يركزون جميع جهودهم على منطقة ميونيخ. جلست تروتا لافرينتز وراء آلتها الكاتبة وسألت بصوت خجول: «ألا تعتقدون أنّه سيكون من الأفضل أن نوقف نشاطنا ونختفي لفترة من الوقت؟».

«يجب علينا الاستمرار. القضية ليست متعلقة بنا فقط، بل تخص كلّ شاب ألماني. لا يمكننا أن نستسلم لمجرد أن شخصاً مجنوناً ومختلاً عقليّاً في برلين يمتلك السلطة، ويريد أن يقود أمتنا إلى الخراب».

«لكن يا هانز، بعد أن بات الجيش على وشك الهزيمة في معركة ستالينغراد، ألم يكن قد فات الأوان كثيراً لتقول لهم الحقيقة؟».

هل فات الأوان على يسوع عندما أرسلوه إلى الصليب؟ لا يفوت الأوان أبداً عن قول الحقيقة. الحقيقة المجردة.

في تلك الليلة كتبوا أفضل افتتاحية لنشراتهم. تحدثوا فيها عن التخلص من حطام الرايخ الثالث المهزوم والمشين. وأدانوا موقف كلّ ألماني حيّ لم يسبق له أن شارك في الكفاح من أجل الحرية الفردية وطالبوا مواطنيهم أن لا يموتوا من أجل أدولف هتلر في حرب خاسرة.

تحركت الأمور بسرعة. في 31 كانون الثاني 1943 في ستالينغراد، استسلم المشير فون بولوس قائد الجيش السادس مع أفراده. تمّت التضحية بالجيش بسبب جنون العظمة الذي أصاب هتلر حين رفض السماح لقواته المحاصرة بالانسحاب على الرغم من أنّه كان لا يزال

11- لم يتمّ الكشف أبداً عن هوية هذا المصدر، لكن ويلي غراف كان له مصدر داخل الشرطة المحلية.

هناك متسع من الوقت. لقد دفع حوالي 230000 جندي ألماني حياتهم من أجل حماقة رجل واحد.

في أيام الثالث والثامن ومرة أخرى الخامس عشر من شباط 1943، شاهد الطلاب العاملات في كتيبة البواب شميدت وهن يعملن بكل نشاط لإزالة شعارات مكتوبة على الجدران بارتفاع 3 أقدام (90 سم) بالقرب من المدخل الرئيس لجامعة ميونيخ: وكانت تتضمن عبارة: «يسقط هتلر»، و«الحرية»، كانت تلك هي الشعارات التي كتبها هانز شول، وألكسندر شموريل وويلي غراف أثناء الليل، وقد كُتبت بدهان لا يمحى. تذكرت شقيقة هانز وصوفي شول كيف أنّها سارت مع صوفي وهانز، إلى الجامعة حيث شاهدت عدداً كبيراً من الطلاب وهم يقرؤون الكتابة الموجودة على الجدران.

استغرقت صوفي في الضحك وهي تشير إلى العاملات وتقول: «لن يستطعن محو الشعارات إلّا بعد أن تتكسر أصابعهن، فهي مكتوبة بمادة القطران الخالص».

لكز هانز بشكل خفيف إليزابيث قائلاً لها: «هيّا بنا، لا نريد أن يلاحظنا أحد عندما تأتي الشرطة». لقد شعر بالإحباط عندما رأى طالباً يبصق على كلمة «الحرية»، ويصرخ: «الكلاب الخنازير!»، في حين شتمهم آخر قائلاً: «خونة الوطن»، فيما ظلّ بقية حشد الطلاب صامتاً.

في 3 شباط، بدأت المجموعة كتابة مسودة العدد السادس. وأوكلوا مهمة صياغته النهائية حصراً لأستاذ الفلسفة. لا شكّ أن البروفيسور كورت هوبير كان خبيراً في الكتابة من الطراز الأول. دفعت الخسائر الفظيعة التي تكبدتها مؤخراً الجيوش الألمانية في ستالينغراد، الأستاذ إلى التأكيد على الموضوع الذي تطرق إليه شول في العدد الثالث من نشرتهم ولكنه صاغه بشكل غير متقن.

يجب ألّا يكون تدمير البلشفية هو الاهتمام الرئيس للألمان، بل سقوط الاشتراكية القومية.

بهذه العبارة الرئيسة، كتب البروفيسور هوبير افتتاحية العدد السادس من نشرة حركة الوردة البيضاء التي جاء فيها:

«زملاءنا الطلبة... إن الشعب الألماني بأكمله يتطلع إلينا. إنه ينتظر منا أن نقوده مرة أخرى كما سبق لنا وفعلنا في عام 1813، في مواجهة إرهاب نابليون – لذلك يجب أن نقوم بذلك الآن، من أجل القضاء على القمع الذي يمارسه الحزب القومي-الاشتراكي من خلال قوة أرواحنا. لقد عادت أشباح معركة بيريسينا (1812) لتظهر من جديد في معركة ستالينغراد (1943) في الشرق، يجب أن ينهض شعبنا ضد استعباد أوروبا من خلال الاشتراكية القومية في منعطف حاسم من أجل حريتنا وشرفنا! يا زعيمنا، نشكركم على مقتل ثلاث مئة ألف من جنودنا في ستالينغراد!».

في 12 شباط، تمّ توزيع الدفعة الأولى من النشرة المكونة من 200 نسخة؛[12] وصلت معظمها إلى وجهتها المقصودة. لم تكن ناجحة تقريباً مثل الدفعة الثانية. في 15 شباط، وضعت الفتيات 1200 مغلف آخر في صناديق البريد في وسط ميونيخ وحولها. وبينما كانت قراءة الصحيفة الحزبية فولكيشاير بيوباختر، المكتوبة بالخط القوطي والمليئة بالتصريحات اليومية المكررة التي تبثها آلة الدعاية التي يديرها الدكتور غوبلز، حتى بالنسبة لأشد النازيين إخلاصاً، لا تثير فيهم سوى الكآبة. أصبح هناك شيء آخر يمكن لمواطني ألمانيا قراءته في القطار وهم ذاهبون إلى العمل. إنّه نشرة حركة الوردة البيضاء.

لقد أصيب شعبنا بالصدمة جرّاء الكارثة التي حلّت بجنودنا في ستالينغراد.[11] فقد تمّ سَوق ثلاث مئة وخمسين ألف رجل ألماني إلى الموت والخراب بسبب العبقرية الاستراتيجية لعريف الحرب العالمية

12- كانت الرسائل موجهة إلى أشخاص في مدن هامبورغ، وبرلين، وشيمنيتز، وكولون، وبون، وفرانكفورت، وساربروكن، وهايلبرون، وشتوتغارت، وأولم، وفرايبورغ، وميونيخ، وإنسبروك، وسالزبورغ، ولينز وفيينا.

11- يورد المؤلف هنا أيضاً نصّ المنشور باللغة الألمانية.

الأولى. هل نقبل أن نضحي بما بقي من شباب ألمانيا من أجل الغرائز المنحطة لزمرة الحزب؟ لن يحصل ذلك أبداً! باسم الشباب الألماني، نطلب من حكومة أدولف هتلر أن تعيد إلينا أغلى ما نملك، ألا وهو الحرية الشخصية التي حرمنا منها باستخدام النظام لأكثر الوسائل حقارة.

كانت نهايتهم تقترب بسرعة. حاول غراف أن يحذر صوفي وهانز شول من وجود تجمعات مثيرة للقلق لوكلاء الغستابو بالقرب من وسط المدينة، والتحقق من المارة بحثاً عن الطرود المشبوهة. تعامل زعيم مجموعة المقاومة الطلابية مع وجودهم كحقيقة واقعة. أظهر هانز وصوفي هدوءاً لا يصدق طوال أيام التوتر هذه. والآن أصبح الغستابو متأكداً من وجود حركة الوردة البيضاء في العاصمة البافارية، قام محققوه بتفتيش مكتب البريد الرئيس في ميونيخ بحثاً عن جميع الرسائل المشبوهة وسحبوا 800 رسالة قبل إرسالها. خلال ليلة 15 شباط، قام هانز وألكسندر بطلعة ليلية جريئة أخرى باستخدام علبة دهان القطران الخاصة بهما، والتحرك على المكان الذي لا يتوقعه أحد، مبنى حكومة بافاريا. في صباح اليوم التالي، أصابت الدهشة سكان ميونيخ لرؤيتهم شعارات مكتوبة على جدران المبنى بأحرف كبيرة: (هتلر = أعمال القتل الجماعي).

استشاط مولر رئيس الغستابو غضباً. وكانت تلك علامة سيئة. فقد ألمحت الأعداد الأربعة الأولى إلى وجود مشكلة؛ لكن العددين الخامس والسادس، مع حملة الشعارات على الجدران، حوّلتها إلى كابوس. بدأ عناصر الغستابو يقومون بأعمال إضافية وبدأ نشاطهم يؤتي ثماره. عثر أحد وكلاء الجهاز على تقرير مفاده أن مفتش شرطة محلي في مدينة أولم قام بإرسال إشارات مهمة قبل ثلاثة أسابيع تقريباً. في 17 شباط، قام فرع الغستابو في مدينة أولم باقتياد الشاب هرزل لاستجوابه. بدت تفسيراته مجنونة للغاية لا يمكن تصديقها. لكنه أشار أيضاً إلى اسم «صديقتي صوفي شول» الذي لم يلفت انتباه المحقق في البداية، ولكن سكرتيرته التي تقوم بالاختزال انتبهت إليه وذكرته في تقريرها. قرر فرع الغستابو في

مدينة أولم أن يترك الصبي يرحل ثم يراقبه بسرية. تمكن الصبي هرزل أن ينفذ بجلده واتصل على الفور بوالدي شول في مدينة أولم ليقوما بتحذير هانز وصوفي. كان الوقت حينها، متأخراً جدّاً، ولم تكن هناك قطارات ليلية تسير بين مدينتي أولم وميونيخ. في غضون ذلك، كانت نسخة من التحقيق مع هرزل قد وضعت بالفعل في سيارة خاصة ليتمّ نقلها من مدينة أولم إلى قصر ويتلزباخر في ميونيخ، مقرّ الغستابو. اعتاد مساعد مولر الخاص، وهو ابن جهاز استخبارات سري مرهق، على التعامل مع شبكات كبيرة سرية مزودة بأجهزة إرسال لاسلكية وأحبار سرية، ولم يكن بوسع عقله التركيز على الفور على قصة عن بطولات مراهقين وصديقاتهم. ومع ذلك، ومن خلال قراءة التقرير عن هرزل، لفت انتباهه اسم صوفي شول. قرّر إلقاء نظرة فاحصة على الفتاة في اليوم التالي، 18 شباط 1943.

في تلك الأثناء لم يعد بإمكان أعضاء حركة الوردة البيضاء القيام بمجازفات خطرة. لقد اكتشفوا أن معظم رسائل البريد الخاصة بهم قد تمّ اعتراضها، لأن الرسائل التي أرسلوها لأنفسهم لم يتسلموها. لم يعرفوا أن اسم صوفي كان موجوداً بالفعل في ملف الغستابو، وأن الوكيل الذي يقوم بالتحقق من العناوين الموجودة في 800 ظرف تمّت مصادرتها، كان ملزماً بعمل مرجع تبادلي لكشف الصلة التي تربط بين ابنة عائلة شول التي ذكرها هرزل أثناء استجوابه وأسماء شول الموجودة على الظروف المشتبه بها. على الرغم من تشديد الخناق عليهم، كان أعضاء الحركة منغمسين إلى حدّ بعيد في أنشطتهم إلى حدّ لا يمكنهم التوقف عنه الآن؛ قرروا استخدام جميع الوسائل الممكنة لتحريض الناس. التقى هانز وصوفي شول بألكسندر وأخبراه أنهما سيذهبان صباحاً إلى الجامعة لكي يقوما بتوزيع المناشير داخلها. حاول ألكسندر ثنيهما عن القيام بهذه الخطوة. لم يصغيا إليه لا بدّ أن يكون هانز قد عرف أن عناصر الغستابو كانوا في طريقهم إليهما. كان لا يزال هناك وقت للإفلات من رجال الأمن

الذين كانوا يطاردونهما. سيغتنمان أقرب فرصة للهرب، لم تكن تفصلهما سوى أربع ساعات بالسيارة من ميونيخ إلى الحدود السويسرية، أو ربما يومين بالدراجة، إذا ما قاموا باستخدام طريق يمرّ عبر الغابات والوديان العميقة. تمكنت الأسر التي لديها أطفال صغار من اتخاذ هذا الطريق للهروب. كان يمكن لصوفي وهانز أن يوقفا كلّ شيء ويهربان. ولكن لتقديم دليل على إخلاصهما وشجاعتهما، مضيا في الأمر، وهما يعلمان أنّهما متجهان إلى كارثة. لم يكن هانز يعتقد بضرورة القيام بالأمر، ولكن صوفي هي من صممت وقالت له: «يجب أن نظل صادقين في كفاحنا وهذا لا يترك لنا أيّ خيار». لقد عملا طوال الليل لطبع ألف نسخة من العدد السادس لنشرتهم.

كانت الساعة تشير إلى 07:55. من يوم 18 شباط 1943 اندمج هانز وصوفي في حشود الطلبة الصباحية المتوجهة إلى الفصول الدراسية، وقد مرّا من أمام عملاء الغستابو الذين كانوا يحومون من حول مداخل الجامعة؛ كان هانز مثل العديد من الطلاب الآخرين، يحمل حقيبة. لم يتوجها إلى قاعة المحاضرات، لكنهما اختبآ في دورة المياه وانتظرا أن يدق الجرس الذي يدعو الطلاب للتوجه إلى مختبراتهم وقاعات المحاضرات. انتظرت صوفي عشر دقائق أخرى قبل أن تمدّ رأسها بحذر من الباب؛ كان الممرّ فارغاً. كان هناك ضوء قادم من نافذة في أسفل المدخل الطويل. لم يكن هناك صوت، لا شيء يشير إلى أن أيّ شخص كان يتمشى في الممرات. لوّحت لأخيها. تدفق الضوء عبر النافذة الوردية في الفناء الداخلي. هذا من شأنه أن يجعلهما واضحين للعيان إذا ما قام أيّ شخص بالانتقال من أحد الفصول الدراسية للذهاب إلى دورة المياه. ترددت صوفي، للحظة كان هناك خوف عميق يوخزها من الداخل؛ بينما كان هانز يسلّمها رزماً صغيرة من المناشير يخرجها من الحقيبة، بدأت بوضعها في جميع الممرات، وفي مقصورات دورات المياه وعلى طول الدرج الرئيس. انتهيا من الطابق الأول وانتقلا إلى

الطابق الثاني عبر السلّم المكشوف والملتوي حول الفناء الداخلي. كان هانز يجلس القرفصاء، حين استلّ آخر رزمة من المناشير من الحقيبة وسلّمها إلى صوفي. همس هانز ليحذرها: «لم يبقَ سوى أربع دقائق ويدق الجرس، أسرعي».

أجابته صوفي: «يجب أن نتخلص منها جميعاً. حتى إذا أوقفنا أحدهم، يمكننا أن نظهر له الحقيبة فارغة»، وهي تقوم بتوزيع الرزمة الأخيرة على الدرج المؤدي إلى الطابق التالي أعاد هانز غلق الحقيبة بسرعة. «أسرعي!» أمسكت صوفي الأجزاء القليلة الأخيرة الباقية في يدها. في لفتة من التحدي، قامت برمي دزينة أو نحو ذلك من المناشير على الدرابزين؛ فتهاوت إلى أسفل الفناء الداخلي مثل الطائرات الورقية. سمعت صوفي صوت باب يُفتح حركت شفتيها دون أن تصدر صوتاً قائلة: (تعال...). اختلست بالكاد نظرة إلى أخيها، لكي تلفت انتباهه إلى المكان الذي كانت تسير فيه؛ ركضا على السُّلَّم وكانا يتخطيان درجاته بسرعة، فكانا ينزلان درجتين بخطوة واحدة. في تلك اللحظة، دخل البواب السيد شميدت، وقد برزت بطنه إلى الأمام، إلى الفناء الداخلي. استشاط غضباً عندما رأى ورقة مرمية على الأرض. إنه انتهاك لحرمة الجامعة، فكيف تكون أرضها المقدسة مغطاة بأوراق مستعملة! كان البواب شميدت شديد الحرص على النظافة وأصدر أوامر صارمة إلى عاملاته أن يحافظن على جميع طوابق المبنى نظيفة وحتى فناء الجامعة يجب أن يظهر بحلة نظيفة جداً. ثم انحنى، والتقط واحدة من تلك الأوراق، نظر فيها فشحب وجهه، الوردة البيضاء! إنّها خيانة للفوهرر! حدث ذلك في الوقت الذي سقطت فيه أوراق أكثر. نظر في الوقت المناسب فرأى شخصاً ينزل بسرعة من على السُّلّم. اندفع وبسرعة وبما يسمح له جسده الضخم نحو السُّلّم ليقطع عليه الطريق، عندها رأى طالبين، صبي وفتاة، ينزلان نحوه. كان الصبي يحمل حقيبة، فناداهما شميدت. لم يظهر أيّ قلق على صوفي وظلّت تعابير وجهها هادئة فقامت ببراعة بتخطيه. لكن هانز لم

يكن محظوظاً، فقد أمسك به البواب من كم قميصه. «ماذا تحمل في هذه الحقيبة؟».

كانت تلك مشكلة تحتاج إلى قرار سريع. كان بإمكان هانز على الأرجح أن يتخلص منها لو تصرف بشكل مهذب، لكن هذا الرجل الغبي أغضبه. وبدلاً من أن يكون مهذباً، حاول أن يتملص منه وكلمه بجفاء: «وما شأنك أنت اهتمّ بعملك».

كان هذا هو الشيء الخطأ الذي يمكن قوله لرجل كان يؤمن بسلطته المطلقة. حينها أصدر أمراً «تعالا معي!» وجرّ صوفي من ذراعها.

سألته صوفي بصوت هادئ: «ماذا تريد منا؟».

أبرز شميدت صدره إلى الأمام. وقال: «أنتما قيد الاعتقال»، وأمسك الفتاة بشدة من ذراعها. قامت صوفي بحركة مفاجئة قصيرة لتحرر نفسها. كان لا يزال لديهما أكثر من دقيقة لينجحا في الهرب. لكنهما تجمدا في مكانهما، أو ربما ظنّا أن بإمكانهما خداع البواب؛ أيّاً كان الأمر، فقد ضاعت فرصتهما الأخيرة مع ارتفاع صوت الجرس. تأرجحت أبواب مدرج الجامعة لتنفتح ويتدفق منها الطلاب. وبلمح البصر، أحاطت حلقة من الفضوليين بالأشخاص الثلاثة.

«ما الذي يحدث؟» صدر ذلك الصوت الحاد من مشرف الجامعة، وكان من المحتمل جدّاً أن يكون عميلاً للغستابو قدم شميدت للمشرف سرداً موجزاً للحادث، وهو يلوح بالمناشير، تمّ اقتياد هانز وصوفي شول إلى رئيس الجامعة وهما يتوسطان البواب والمشرف.

«سيادة الأوبرفورر (رتبة شبه عسكرية للقادة في الحزب النازي - م)، اقرأ هذا». تغير وجهه إلى اللون الأحمر حينما بدأ يقرأ المناشير. قفز من مقعده وانتصب بشكل مسرحي أمام خلفية من العلم الأحمر الذي يحوي على صليب معقوف أسود يلفت الانتباه بسبب سطوعه وسط دائرة بيضاء اللون.

وصرخ قائلاً: «أنتم عار على هذه الجامعة، وأنتم أكبر عار على ألمانيا! ألا تمتلكان ذرة من الشرف؟»، رأى هانز وصوفي أنّه من الأفضل لهما أن يظلّا صامتين. في غضون دقائق، هرعت مفرزة من رجال الشرطة نحو البوابة الأمامية للجامعة.

أعلن رئيس المفرزة «نحن سنتولى الأمر»، ونظر بحزم إلى المعتقلين هانز وشقيقته. تورد وجه البواب مفتخراً بالإنجاز الذي حققه ووقف في وضع الاستعداد ومال إلى الوراء وأومأ له رئيس الجامعة معبراً عن استحسانه.

تتحدث عن ذلك كريستي مايرهايد كامب، إحدى صديقات صوفي، والتي كانت شاهد عيان على ما حدث:

تمّ إغلاق جميع مخارج الجامعة. أمرتنا السلطات بالتجمع في الفناء الداخلي. وتمّ الإعلان على أن كلّ من لديه منشور القيام بتسليمه على الفور إلى أحد عنصري الغستابو اللذين كانا متواجدين بالقرب من الباب. أبقونا واقفين في الفناء لمدة ساعتين تقريباً، عندما فتح الباب وتمّ اقتياد هانز وصوفي ومرّا من أمامنا، كانت أيديهما مقيدة خلف ظهريهما. نظر هانز نحوي مباشرة، لكن وجهه لم يظهر أيّ انفعال بشير إلى أنّه يعرفني. كان يعلم أن ظهور أقل إشارة إلى وجود معرفة له بشخص ما ستؤدي إلى اعتقاله.

انطلقت السيارات داخل المدينة، وتوقفت خارج شقة عائلة شول في شارع فرانز جوزيف، وأثناء البحث داخلها، اكتشف عناصر الغستابو في صندوق النفايات تحت حوض غسيل الصحون مسودة ممزقة للعدد السادس من نشرة حركة الوردة البيضاء. كانت هذه المسودة مكتوبة بخط يد كريستوف بروبست.

لم تكن ألمانيا بعد مستعدة للاستماع إلى التحذير الرهيب الذي أطلقته مجموعة من الطلاب، فقد كانت لا تزال مفتونة بزعيمها الساحر الكبير ووعده بتفوق ألمانيا على المخلوقات البلشفية غير الآدمية، وقد

تجلى في حدث وقع في اليوم نفسه. فقد توجه الدكتور جوزيف غوبلز العبقري الذي يصوغ وسائل الدعاية الشريرة لهتلر، لمخاطبة حشد كبير من الجماهير في قصر الرياضة شبورتبلاست في برلين.

صرخ قائلاً: «هل تريدون أن نشنّ حرباً شاملة؟»، فأجابه الحشد الهائل: «نعم!».

كانت الليلة باردة للغاية. لأول مرة منذ ساعات أو أيام - لم تعد صوفي تحسب الوقت تركوها تنام. لكن النوم كان يجافيها. كان الظلام يسود زنزانتها. استيقظت وسحبت البطانية نحو كتفيها وحدقت في سماء الليل الممتلئة بالنجوم إلى حدّ كان يبدو أنّها يمكن أن تمد يدها وتحصل على حفنة منها. قبل بضعة أيام فقط، كانت واثقة للغاية بنفسها، حيث كانت تتمتع بجرأة شديدة. لكن حياتها قد تغيرت، والآن، وهي في وسط زنزانتها النظيفة الشديدة البرودة، لم تكن على استعداد لمقابلة ربها دون أن تخوض قتالها الأخير. لقد كانت أربعة أيام من الاستجواب من دون انقطاع، أربعة أيام من الألم والتعب. لقد حاولت التزام الهدوء، وقبل كلّ شيء كانت تعرف أن المحققين يعتمدون على رعب المفاجأة أثناء الاستجواب. في البداية، لم تكن متأكدة ما إذا كانت تستطيع تحمل الألم. لكنهم لم يستخدموا التعذيب الجسدي؛ بدأ استجوابها الأول بطريقة مقبولة إلى حدّ ما. الشخص الذي قام بالاستجواب تصرف بشخصية أب حنون. كان رجلاً مسنّاً، كان لا يتوقف عن مناداتها بكلمة فتاتي، وتحدث معها بلهجة لطيفة. تبّاً له، لقد كان هذا اللطف هو الذي أربكها وأدركت أنّها يجب أن تبذل مجهوداً كبيراً للبقاء في حالة تأهب ولا يغريها الشعور الكاذب بالأمان. ربما يمكنها أن تجعله يعتقد أنّها ليست سوى فتاة جميلة وعقلها فارغ وغير ضارة. «لماذا فعلت ذلك؟» كان صوته ناعماً، كأنّه ينقط عسلاً.

على الرغم من تصميمها على التحدي، وجدت نفسها وهي تنظر إليه مثل طفل خائف «أفعل ماذا؟ لم أفعل أيّ شيء خطأ».

كان محققو الغستابو يلعبون معها لعبة خفية، حيث قاموا بوضع الفخاخ باستخدام الإقناع والقوة. في النهاية، ترك المحقق الوحشي شخصية الأب الحنون. عندما نظرت إلى عينيه الزرقاوين الحادتين، أدركت أنّها لا تتوقع منه الشفقة.

«هيّا، سهّلي الأمر على نفسك، أخبرينا بكل شيء»، أمرها بلهجة قاسية «لا تحاولي حتى أن تكوني عنيدة وإلّا سوف تتعرضين للأذى. أخبريني عن المناشير التي كنت تحملينها في الحقيبة».

«كانت الحقيبة فارغة. وقد كان أخي ينوي أن يجلب بها ملابسنا من المكوى».

حدث الأمر فجأة، صفعها المحقق بشدة على وجهها، وتذوقت طعم دمها من شفتيها النازفتين. «لا تكذبي عليّ. أنت عضو في شبكة مجرمة تعمل ضد وطنها في الوقت الذي يقاتل فيه من أجل البقاء. أليس كذلك؟».

صرخت صوفي بأعلى صوتها: «كلّا...» حين دفعها إلى الوراء بقوة وخيمت على الغرفة غشاوة من الظلام. وصله صوتها من مكان بعيد. «إياك والاعتداء على شرفي».

أعمت الدموع عينَي صوفي، بدأت ترتجف. كان ينتظر. لقد فعل الشيء الصحيح معها. لم يسبق لفتيات من صنفها أن تعرضن للضرب، كان تأثير الصدمة والإذلال كافياً وفعالاً يشبه تأثير الألم الناتج عن الضرب ذاته. عندما تصل لحظة الحقيقة، يصبح الأمر متعلقاً بقوة الشخص الداخلية أو ضعفه. لكن هذه الفتاة فاجأته، ولم يكن يتوقع ردّ فعلها. لقد اشتعلت نار الغضب في عينيها، وليس الخوف.

حينها نبح صارخاً: «أين هي خليتكم؟ من هم أعضاؤها؟».

«لا أعرف ما الذي تتحدث عنه».

في المرة التالية تحول صوته إلى همس أجشّ. امسك يدها وكانت أصابعه باردة كالثلج. وفتح بيده الأخرى، ملفّاً صغيراً ملقى على الطاولة وسحب منه عدة أوراق.

«وكيف تفسرين هذه؟ وجدناها في غرفتك تعرفت على الأوراق الملونة ومعها مئة وأربعون صورة لهتلر، فقد كان لدى الغستابو مئة وأربعون طابعاً بريدياً من فئة 3 بفنغ. تحمل صورة هتلر»، شعرت صوفي بألم في رأسها حين أدركت أنّها ضاعت.

حين يبدأ عناصر الغستابو تحقيقاتهم تغيب المشاعر الإنسانية، ويغيب معها المنطق. لا تعود الضحية التي تنزف تحت سياط الجلاد إنساناً كاملاً. فهو يدخل في مسار صامت إمّا أن يجعل منه بطلاً أو خائناً. ومع ذلك، فإنّ التحول لا يمكن التنبؤ به ويكون غير مفهوم في بعض الأحيان. وبينما تصبح كلمات مثل «بطولة»، و«عدم الولاء» بالنسبة إلى المحرض المحترف، خالية من أيّ معنى ويتلاعب بمحققه كأنّه خصم له في لعبة شطرنج، يقع الهواة ضحية لمعاييرهم النبيلة. الشرف، والصدق، والإخلاص! وهؤلاء الشباب هم هواة أنقياء، يناضلون من أجل المثل العليا. بالنسبة لهانز شول، وضع له محققو الغستابو نوعاً مختلفاً من المعاملة منذ البداية. قرروا أن لا يسمحوا له بالنوم. تمّ استجوابه بواسطة عدة محققين، وكان كلّ واحد منهم يطلق نحوه شرارة غضبه بسبب إهانته لزعيمهم الفوهرر.

كان المحقق الذي عينه مولر هو الأسوأ. كان طويل القامة، عريض المنكبين وكما هو معروف عن صفات أبناء الجنس الآري، كان يستجوب هانز على مراحل، لكن المتهم لم يتحدث بشيء. أدرك هذا الخبير الذي قام بالعديد من أنواع هذه التحقيقات المفصلة أنّه لا توجد أنصاف تدابير مع هذا المتهم وأخته. قرّر أن يكون لطيفاً نسبيّاً مع الفتاة ويعذب شقيقها، معتمداً على حقيقة أن أحدهما سيكشف عن اسم واحد ثم يتبعهم بالباقين. وحين تفشل ضحيته في أن تلعب دور البطل المثالي، تتحول إلى شخصية جبانة ومسالمة وخائنة. كان هذا هو المنطق القاتل لمحققي الغستابو. كان منطقهم هذا ينجح في الظروف العادية ولكن ليس مع هؤلاء الشباب، فقد كانوا يستمدون القوة من إيمانهم الداخلي. وظلّوا مخلصين لرفاقهم إلى الأبد.

بالنسبة لهانز شول، فقد الوقت معناه. «من هم شركاؤك؟» صرخ صوت في أذنه. «من هو زعيم شبكة الوردة البيضاء؟» إنهم أغبياء، هذا ما كان يفكر به هانز، إنهم لا يعرفون أنّه وببساطة لا توجد هناك شبكة! لم يكن هناك تنظيم! لم يكن سوى اسم مأخوذ من عنوان لرواية. إنهم ما زالوا لا يعرفون أنّهم باعتقاله كانوا يحتفظون بالشخص الرئيس في «الشبكة»، وليس عضواً ثانويّاً في منظمة كبيرة. هزّ هانز رأسه فتلقى ضربة في أضلاعه بقبضة يد من أحد الموجودين. ومع ذلك، استمر في إنكاره معرفة أيّ شيء عن المناشير، أو الكشف عن الأسماء، إلى أن همس صوت في أذنه: «بالمناسبة، وجدنا الآلة الكاتبة». وحينها انتهى الأمر.

مع القبض على الأخوين شول انكشفت مجموعتهم وهرب أعضاؤها. سيكون الإمساك بهم أسوأ كارثة على الإطلاق سيتمّ اقتيادهم إلى أقبية التعذيب. بالنسبة لجهاز الغستابو، لم يكن هناك شيء يثير مشاعر كراهية كبيرة ويستدعي القيام بإجراءات بحث وتفتيش على نطاق واسع جدّاً إلّا عندما يكون هناك ألمان يخونون الفوهرر. هذا ما قاله رئيس الغستابو لهم، وقد تصرفوا بناءً على أوامره. اجتاح عملاء الغستابو الجامعة وامتلأت مدرجاتها بهم، وتمّ تحويل الفصول الدراسية إلى مراكز استجواب؛ تقدم بعض الطلاب عن طيب خاطر وأدلوا بمعلومات، وتمّ إجبار الآخرين على الإدلاء بالمعلومات. كانوا يدونون الملاحظات عن جميع الطلبة الذين كانوا، وفقاً للمعلومات التي أدلى بها زملاؤهم الطلاب، على علاقة صداقة مع الأخوين شول. أشارت استجواباتهم بوضوح إلى ألكسندر شموريل وكريستوف بروبست وويلي غراف.

اختفى شموريل وبروبست، لكن غراف كان لا يزال موجوداً. في ليلة 18 شباط، اقتحم عملاء الغستابو شقته واعتقلوه مع شقيقته أنيليز. لم يكن لدى الغستابو أيّ فكرة عن مدى حجم الشبكة فعليّاً، أو هوية زعيم حركة الوردة البيضاء؛ رفضوا الاعتقاد بأن هذه العملية اقتصرت على حفنة من

طلاب الجامعة. تقربوا من غراف ووعدوه بالإفراج عنه، معتمدين على كونه الحلقة الضعيفة. لقد احتاجوا إلى قائمة كاملة بالأسماء وجهات الاتصال وعاداتهم. لم تنكسر عزيمة غراف رغم أنّهم جربوا معه أقسى الطرق. حصر غراف معلوماته في الحقائق التي كانوا يعرفونها بالفعل؛ لكنه لم يكشف عن أسماء.

كان كريستوف بروبست يتجنب الذهاب إلى شقته. لم يكن متأكداً مما إذا كان هانز أو صوفي قد أجبرا على الاعتراف عليه. لقد حدث أن زوجته دخلت المستشفى في هذا اليوم الحاسم لتلد طفلها الثالث. في يوم 19 شباط 1943، كان الأوان قد فات على كريستوف. فقد ذهب إلى المستشفى لزيارة زوجته وطفله المولود حديثاً، وليودعهما. طُلب منه في مكتب الاستقبال ملء نموذج للحصول على تصريح زيارة، عندها أحاط به رجلان، وهما يرتديان زيّ الأطباء، قائلين له: «كريستوف بروبست، أنت رهن الاعتقال!» لم تسنح الفرصة لبروبست لرؤية طفله الثالث.

بعد اعتقال الأخوين شول وغراف وبروبست، ظهرت ملصقات مكتوب عليها كلمة «مطلوب» على الجدران وفي وسائل النقل العام، حيث قدمت مكافأة قدرها ألف مارك للقبض على ألكسندر شموريل الخائن الخطر على الأمة. اجتاحت مشاعر الرعب شوريك (هكذا كان يناديه أصدقاؤه). كان يعلم أنّه تمّ القبض على هانز وصوفي، ولكن لم يكن لديه أدنى فكرة عما حدث للآخرين. كان عليه أن يتحدث إلى كريستوف. في الطريق إلى منزل بروبست، اعترضه في الشارع صديقه نيكولاي نيكولاف هماسسبين:

> *بدا ألكسندر مرتبكاً وخائفاً. أخبره أن هناك موجة من الاعتقالات. قال إنه سوف يشق طريقه عبر الحدود السويسرية، لأنّه قضى عطلته هناك قبل الحرب في ممارسة التزلج. كان يرتدي معطفاً رمادي اللون وحمل حقيبة. قال لي: «سيكون من الجيد إن استطعت تغيير شكلي».*

خلعت سترتي الجلدية الخضراء التي اشتريتها في بلغاريا ثم أضفت لها بعض قطع لحم الخنزير، وعدد قليل من السجائر و100 مارك وأعطيتها له لم يكن عندي المزيد.

لم ينجح ألكسندر شموريل أبداً في الوصول إلى سويسرا. خلال غارة جوية يوم 24 شباط، بينما كان في ملجأ للغارات الجوية في ميونيخ، تعرف عليه أحد الرجال وتمّ احتجازه إلى حين وصول رجال الغستابو. برّر الرجل الذي بلّغ عنه، فعلته بالقول: «إنها ليست للحصول على المال، لقد فعلت ذلك لأجل الوطن».

قال له عميل الغستابو: «طبعاً لقد فعلت ذلك من أجل الوطن»، وقام بتسليمه شيك بمبلغ ألف مارك ألماني.

انتهت القضية، ولم يعد الأمر سوى مسألة وقت فقط قبل أن يتمكنوا من القبض على الشخص الأخير. في 27 شباط، بينما كان عملاء الغستابو يتجولون خارج إحدى قاعات المحاضرات المزدحمة، كان أستاذ الفلسفة كورت هوبير يقول لطلبته: «لقد انتهى وقت العبارات الجوفاء». كانت تلك آخر محاضرة ألقاها.

(العدالة هي ما ينفع الشعب). كانت هذه هي القاعدة التي يحكم بها رولاند فريسلر، كبير القضاة في (محكمة الشعب)، ويحقق بها العدالة. كان قد بدأ حياته المهنية بتصريح غريب من نوعه بالنسبة لقاضٍ كان قد أقسم تحت تمثال آلهة العدالة المعصوبة العينين أن يحكم بنزاهة. فقد كتب رسالة إلى هتلر وخاطبه قائلاً: «إنني أقسم بأن محكمة الشعب ستحكم دائماً وفق ما تراه يا سيدي الفوهرر، وكأنك أنت هو القاضي، وأنت من يقرر نوع الحكم. عاش الزعيم هتلر! جنديك المخلص إلى الأبد، رولاند فريسلر».

كانت إدارة فريسلر لمحكمة الشعب الألماني متميزة لأنّه لم يكن هو من يقرر الحكم النهائي فحسب، بل كان أيضاً أكثر المدعين العامين

سرعة. كانت طريقته المفضلة هي توجيه اتهاماته إلى المتهم الذي كان من المفترض أن يحكم عليه بنزاهة وعدالة. وبذلك، تجنّب عمداً كلّ ما توجبه الأحكام القضائية من موضوعية عن طريق توصيف أقل هجوم على الاشتراكية القومية كونه جريمة خيانة عظمى، وهو تكتيك اكتسبه من دراسته لأداء أندريه فيشنسكي خلال عمليات التطهير المرعبة التي قام بها ستالين في الثلاثينيات. عندما رأت صوفي القاضي، الذي يترأس المحكمة والصليب المعقوف معقوداً بردائه القرمزي، عرفت أن مهزلة المحاكمة هذه سيتمّ استغلالها لتنفيذ عملية قتل مفاجئ ومتعمد بحقهم تتمثل بإصدار حكم الإعدام. قرأ فريسلر لائحة الاتهام الموجهة إلى هانز شول، وصوفي شول وكريستوف بروبست: الخيانة ومساعدة العدوّ، والتحريض على الخيانة العظمى وتحطيم معنويات أفراد الجيش، كانت عقوبة كلّ واحدة من هذه التهم هي الإعدام. انحطت عملية استجواب الشهود التي أجراها فريسلر لتتحول إلى مجموعة من التهجمات اللفظية الغاضبة على المدانين، وخطاب مليء بالكراهية.

«أنتم عار على البلد والأمة!» هكذا صرخ باتهاماته؛ لم يستطع فريسلر احتواء غضبه الذي يصاحب جنون العظمة الذي لديه. فوجئ هانز بسماع محاميه يتمتم وهو يذكر حجج الدفاع عنه. قال فريسلر وهو يشير إلى هانز وصوفي: «هناك يجلسان، يهوذا والزانية ليسامحني الله على تشويه صورة المرأة إلى هذا الحدّ...».

قاطعه هانز شول قائلاً: «اترك الله بعيداً عن هذا الموضوع».

دافعت صوفي شول عن حقّها في التحدث بحرية: «ليس من حقك تكميم أفواهنا نحن متساوون مع الآخرين».

قفز فريسلر من مقعده، وفمه يرغي ويزبد: «اخرسي! إن الذين يهاجمون الاشتراكية القومية لا ينتمون إلى شعبنا. أولئك الذين يتهجمون على شخص حبيبنا الفوهرر»...

قاطعته صوفي: «الفوهرر يدرك ذلك أفضل، نحن فقط البداية».

قبل أن يصل إلى النطق بالحكم، تقيأ فريسلر بكل ما يحمل من أحقاد: «القذارة التي مثلكم لا تستحق سوى الموت».

تمعنت صوفي في وجه القاضي المروع. كيف يمكن أن يكون مثل هذا الرجل مسؤولاً عن القضاء، وقد جلس متربعاً في كرسيه تحت تمثال آلهة العدالة المعصوبة العينين وهي تحمل ميزان الإنصاف والنزاهة؟ لم يكن فريسلر هذا سوى جلاد معين من قبل الحزب النازي، والذي لا يملك ذرة من الصدق والعدالة.[14] وجاء الحكم كما هو متوقع: أصدرت هذه المحكمة حكماً بالإعدام بحق المتهمين بتهمة الخيانة العظمى للأمة.

لم يُضِع فريسلر الوقت مع الشكليات القانونية مثل طلب الاستئناف. تمّت إعادة المدانين إلى زنازينهم. طلب بروبست، وكان من المؤمنين بفلسفة اللاأدرية طوال حياته، إحضار قسّ كاثوليكي له؛ وقد حضر الأب هاينريش سبير، نيابة عن الأب فرديناند برينكمان رجل الدين الخاص بالسجن لأنّه كان مريضاً ليقرأ عليه عظة المسيح في العشاء الأخير. لم يكن لديهم الكثير من الوقت. قبل وقت قصير من الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم محاكمتهم، سارت صوفي مشيتها الأخيرة في الممرّ الطويل في سجن ميونيخ ستادلهايم وهي ترتدي بلوزتها البيضاء الأنيقة، كانت تبدو قصيرة وضعيفة، لكن ذلك كان من الخارج فقط. التفتت إلى حارستها في السجن وقالت بالفرنسية: «يجب أن يكون لديك عقل صعب المراس وقلب حساس».[15] عندما رأت أن تعبيراً محيّراً ارتسم على وجه حارستها، ترجمت لها العبارة التي قالتها بالفرنسية إلى الألمانية.

بعد انتهاء الحرب استعادت حارسة السجن ذكرياتها عن تلك اللحظات «لقد تصرف هؤلاء الشباب بشجاعة لا تصدق. لهذا السبب خاطرنا بتركهم يجتمعون للحظة واحدة أخيرة، قبل دقائق فقط من إعدامهم. لو أن القاضي كان قد اكتشف الأمر، لكان عاقبنا بشدة. لكننا

14- طبقاً لرواية شاهد عيان يدعى ليو سامبرغر.

15- من أقوال الفيلسوف جاك ماريتان.

أردنا أن نسمح لهم بالحصول على فسحة ليدخنوا السيجارة الأخيرة لهم معاً لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق، لكنني أعتقد أنّه كان يعني الكثير لهم. أتذكر، أن الشاب كريستوف بروبست تحول إلى صوفي وقال لها: لم يكن لديّ أيّ فكرة أن الموت يمكن أن يكون بهذه السهولة. فأجابته الفتاة: لن تمرّ سوى بضع دقائق وسنلتقي مرة أخرى في العالم الآخر».

تركت صوفي وراءها دفتر مذكراتها. كانت تتحدث فيه عن حلم رأته في الليلة الماضية:

«كان يوماً مشمساً ومشرقاً. حملت في ذراعي، طفلاً يرتدي ثياباً بيضاء في طريقه إلى طقس المعمودية الأولى. كان الطريق إلى الكنيسة يؤدي إلى سفح جبل حادّ. فجأة كنت أتعثر وأنا قريبة من الهوة. لم يكن لديّ الوقت الكافي لأجعل الطفل يرقد بسلام قبل أن أذهب إلى الهاوية. كان هذا الطفل يرمز إلى فكرتنا، على الرغم من كلّ العقبات التي واجهتها فأنا متيقنة أنّها سوف تنجح. نحن ببساطة أولئك الذين نكشف الطريق للآخرين ويجب أن نكون مستعدين للموت من أجل مثلنا العليا».

في 19 نيسان 1943، مثل ويلي غراف وألكسندر شموريل والبروفسور كورت هوبير أمام القاضي الخبيث رولاند فريسلر ومحكمة الشعب. ظلّ خطاب هوبير العنيد أمام المحكمة معلماً تذكاريّاً لشجاعة الرجل:

«يجب على أيّ شخص يشعر بالمسؤولية الأخلاقية أن يضم صوته إلى صوتنا وأن ينتفض ضد الاستبداد الذي يهيمن على الناس مستخدماً قوة وحشية... بالنسبة للناس، لا توجد عقوبة مخيفة أكثر من أن يعيشوا في ظلّ أجواء لا يأمن فيه المرء من جاره، ولا يأمن الأب من ابنه... أنت تحاول أن تسلب مني حق المعلم. ومع ذلك، فلا يمكن لاتهام باطل بالخيانة العظمى أن يسلب كرامة الأستاذ الجامعي منه، الرجل الذي يحارب علانية من أجل مفهوم الدولة العادلة في عالم عادل سوف ينصفني التاريخ ويحكم بالحق على ما كنت أحاول تحقيقه، وهذا هو اقتناعي الثابت».

تمّت محاكمة المتهمين وإدانتهم والحكم عليهم من قِبل الشخص الظلامي فريسلر وقد وضع على جسمه رداءه القرمزي المطرز بالصليب المعقوف.

نفذ حكم الإعدام بحق البروفيسور هوبير وشموريل في 13 تموز 1943.

اقتيد ويلي غراف إلى المقصلة في 12 تشرين الأول 1943.

داخل الرايخ الثالث، تمّ التكتم على محاكمة أعضاء حركة الوردة البيضاء. ظهرت فقرة قصيرة فقط في صحيفة الحزب النازي فولكشر بيوباختر تحت عنوان: «صدور حكم عادل بحق خونة الأمة». لم تسمع سوى قلة قليلة من الناس داخل ألمانيا بحركة للمقاومة قادتها مجموعة صغيرة من طلاب ميونيخ. لم يتمّ توزيع مناشير كافية لإحداث تغيير في عقلية الناس. أطلق كثير من الأشخاص الذين استلموا مناشير الحركة لقب الخونة على أعضائها وشوهوا سمعتهم؛ كان لا يزال أغلبية الألمان يسيرون وراء مهرجهم. قلة قليلة من الناس تجرأت وأطلقت عليهم بصمت لقب الأبطال. ولكن، هل يمكن أن يطلق عليهم أبطال؟ إنهم لم يؤدوا أيّ عمل خارق. لقد دافعوا ببساطة عن حقهم في التعبير عن الرأي بحرية. إذا كان لديهم بعض التشوش الفكري بشأن هدفهم في البداية، فإنّ خطهم الفكري أصبح أكثر تركيزاً في إعداد نشراتهم الثلاث الأخيرة. وأشار إلى العقل الإجرامي لزعيم أمتهم؛ كان هدفهم الوحيد هو وقف حمام الدم الذي كان يتعرض له جيل الشباب الذي أحبوه ولم يخونوه أبداً. وباعتبارهم مؤيدين لتأكيد التراث الثقافي لأمتهم والحفاظ على السلامة الأخلاقية لألمانيا، كانت هذه مهمة جديرة بالاهتمام.

كان وصول أفراد حركة الوردة البيضاء إلى الجماهير العريضة مستحيلاً طالما كانت جيوش هتلر تسير من نصر إلى نصر. كان عليهم انتظار تبدل الوضع العسكري لإحداث ردّ فعل إيجابي على قضيتهم. لقد حاولوا بعد نكسة القائد رومل في معركة العلمين، وفشلوا؛ ظنّوا أنّهم وجدوا ذلك مع كارثة ستالينغراد، وفشلوا بسبب افتقارهم إلى الواقعية السياسية.

كانت حركات الشباب الألمانية بطبيعتها غارقة في نوع من الفلسفة المثالية الألمانية التي ظلّ أتباعها مخلصين لها إلى الأبد. كان إيقاظ ضمير سياسي معارض في شباب منغمس في أيديولوجية الرايخ الثالث أملاً غير واقعي. ولهذا السبب فشلوا.

إن دعوتهم شباب ألمانيا لمقاومة نظام هتلر لم تمت معهم. بعد عدة أشهر من إعدامهم، قام هيلموث غراف فون مولتك،[16] وهو رجل مقاومة ألماني، بتهريب نسخة من نشرتهم الخامسة إلى إنجلترا. ما فشلت في تحقيقه حركة الوردة البيضاء، بالاعتماد على خدمة البريد الألمانية، حاولت الطائرات البريطانية تحقيقه. في خريف عام 1943، تمّ إلقاء ملايين النسخ من منشورات تتضمن بيان طلاب جامعة ميونيخ فوق الأراضي الألمانية.

أظهر كفاح حركة الوردة البيضاء عمق المشاكل التي تواجه من يبغي القيام بنشاط للمقاومة داخل ألمانيا النازية؛ وبالرغم من نواياهم النبيلة، فإنّ أعضاء حركة الوردة البيضاء قاموا بأنشطة واسعة فاقت قدرة أعدادهم الصغيرة على السيطرة عليها. ادعى الكثيرون أن هانز وشقيقته صوفي وأصدقاءهما فشلوا بسبب افتقارهم إلى البراغماتية السياسية. لم يكن الأمر كذلك. كان على الخلاص من الاستبداد أن يأتي على شكل قضية عادلة؛ وإلّا فإنّه سيبتعد عن الفكرة المثالية عن الإحسان والإيمان بالخير. كان خطأ المتمردين الشباب يعود بالدرجة الأساس إلى جهلهم بمدى الحجم الكبير للدعم الذي كان يقدمه الشعب لقضية خاسرة. لم يصدق الألمان بشكل عام أنّهم وحدهم من قام بشنّ تلك الحرب، أو أنّهم في الحقيقة خسروها.

في 3 شباط 1945، أثناء غارة جوية أمريكية على برلين، وقع عمود قبو منهار على رأس القاضي رولاند فريسلر وقتله. بقي مولر رئيس الغستابو في برلين المحاصرة حتى يوم 27 نيسان 1945. ثم اختفى كما لو أن مصير هتلر النهائي لم يكن من شأنه. ولم يعثر عليه قط.

16- أعدم هيلموث غراف فون مولتك، في 23 كانون الثاني 1945.

بعد ثلاثة أيام، في 1 نيسان 1945، انتحر هتلر.

قام هانز وصوفي شول وأصدقاؤه بالتصدي للظلام، الذي كان يخيم على كلّ شيء، ثم وقعوا في صراع بين كلّ أولئك الذين أيدوا الشر عن طيب خاطر، وأولئك الذين أدركوه ولكن خضعوا له تحت سوط ديكتاتور قاسٍ وشرطته السرية. أظهروا بشجاعتهم أن حركة المقاومة، مهما كانت صغيرة، كانت ممكنة في النهاية؛ وأنّه لا يزال هناك شباب في ألمانيا يتمسك بالأخلاق ولم تنطلِ عليه الأكاذيب التي كان يطلقها هتلر وزمرته. والأهم من ذلك، أنّهم أثبتوا أن السياسة حين تكون بلا أخلاق، ولا تستند إلى الأساس العميق لتلك المبادئ الإنسانية الأوروبية العظيمة، سيكون محكوم عليها بالفشل في النهاية.

إن كلماتهم المقدسة التي كانت تتحدث عن الحرية والضمير والإنسانية، والشجاعة الكبيرة في المحن، منقوشة على حجر تذكاري موجود عند مدخل جامعة ميونيخ. مئات الأشخاص يمرّون من أمامه وهم في طريقهم إلى قاعات الدرس. إن ذكرى أولئك الذين خاطروا بحياتهم بإدراك منهم، لأن الحرية ليس لها ثمن، لا تزال حية. قد لا يكون أبناء الجيل الأصغر يعرف أسماء أولئك الذين كتبوا هذه الكلمات المقدسة شول وشموريل وبروبست وغراف وهوبير لأنّهم يعرفونهم فقط باسم حركة الوردة البيضاء.

كان دافع أعضاء حركة الوردة البيضاء هو ما يحملونه من شجاعة أخلاقية لا تُصدق. كانوا يعلمون أن دعوتهم قد تعرضهم للعقاب والموت. لكن لا شيء كان يمكن أن يمنعهم من الكشف عن «الكذبة الجماعية». في تلك اللحظة المظلمة التي سادت في وطنهم، عندما لم يجرؤ أحد على الكلام، تحدوا آلة سياسية قوية في محاولة شجاعة لإيقاظ وعي أبناء أمتهم على حقيقة أن شخصاً مختلاً عقلياً وزمرته يدمرون البلاد وشعبها. لقد فشلوا بسبب القدرة التحكمية المتأصلة في أيّ نظام شمولي، والذي كان يسيطر على المنافذ الضرورية للتعبير عن التحدي؛ لكن الأهم من

ذلك، أن الأمة لم تهتمّ بالاستماع إلى كلماتهم النبوئية. بعد ذلك بعامين، تمّت تبرئتهم. كانت نهاية نظام هتلر مروعة. أصبحت مدن ألمانيا أكواماً من الطوب والرماد. الناس، الذين رفضوا الإصغاء إلى تحذيرهم، خرجوا من جحورهم حيث كانوا يعيشون كما تعيش حيوانات الخلد في الكهوف ليواجهوا كابوساً رغم ضوء النهار الشديد.

كوبنهاغن،
1 تشرين الأول 1943

ج. ف. دوكفيتز، النازي الذي أنقذ اليهود الدانماركيين

«أنا أعرف ما الذي يجب عليّ فعله»

• جورج فرديناند دوكفيتز،
من مذكراته السرية، 19 أيلول 1943

«يجب أن نتمسك بمبادئنا، وأن نطيع الله أكثر من طاعة البشر».

• أسقف كوبنهاغن، هانز فوغلسانغ
دامغارد، 3 تشرين الأول 1943

في وقت متأخر من بعد ظهر يوم 28 أيلول 1943، قام جورج فرديناند دوكفيتز، العضو في الحزب النازي والمستشار الخاص للمندوب الألماني السامي للدانمارك المحتلة للنقل البحري بالتقاط سماعة الهاتف. كان الرجل الذي يتصل به عضواً في الحزب الديموقراطي الاجتماعي الدانماركي ومن ألدّ أعداء الاحتلال الألماني لوطنه الأم الدانمارك.

«يجب أن نلتقي - على وجه السرعة!» كانت تلك هي العبارة التي فهمها من ذلك الدانماركي كان هناك شيء ما يحدث، وبعبارة أخرى:

عاجل للغاية. في وقت متأخر من ذلك المساء، وبعد طرق خفيف على باب أحد المنازل في شارع رومرغيد في كوبنهاغن، اصطحبه رجل إلى ممرّ داخل المنزل. وفي نهاية الممرّ دخل إلى صالون يحوي أثاثاً مريحاً كان يجلس فيه أربعة أشخاص. ثلاثة منهم، سبق لدوكفيتز أن سمع بهم من قبل، لكنه لم يلتقِ بهم وهم: أج. سي. هانسن، وهو سياسي دانماركي بارز، وعضو الكونغرس ألسنغ أندرسن من الفولكتينغ (مجلس العموم) في الدانمارك، وفيلهيلم بوهل؛ وجميعهم كانوا أعضاء في الحزب الأول في الدانمارك، الحزب الاشتراكي الديمقراطي. أمّا الشخص الرابع، فكان رجلاً مغموراً يرتدي بدلة رمادية ومعطفاً ذا صدرية، أمّا الرجل الذي كان قد اتصل به سابقاً، والذي سارع عبر الغرفة لاستقباله فقد كان هانز هيدتوفت[1] الزعيم السابق للحزب الديمقراطي الاشتراكي الدانماركي، والذي أجبره الألمان على التنحّي. بعد ذلك بوقت قصير، فتح الباب مرة أخرى، مما سمح لشخصين جاءا متأخرين بالانضمام إليهم وهما، فرانتس هفاس، رئيس قسم في وزارة الخارجية الدانماركية، والمفوض الجنائي كريستيان مادسن من شرطة كوبنهاغن قال هيدتوفت: «لا أرى أن هناك حاجة إلى أية مقدمة لقد سبق وأن أخبرت زملائي عنك، حتى نتمكن من الشروع مباشرة في العمل. ما هو بالضبط ما تريد أن تخبرنا به؟» كان ستة قادة من الدانمارك، يثبتون عيونهم على هذا النازي، والذي لم يكن شخصاً عاديّاً، فقد كان ذا نفوذ فهو المندوب المفوض للرايخ الألماني في الدانمارك. لم يكن لدى أيّ من الستة أدنى فكرة عما كانت عليه هذه المسألة الملحّة. هل كان ذلك بمثابة تحذير صارم آخر بالامتناع عن أعمال التخريب؟ لا يمكن لبلد صغير مثل الدانمارك أن يحقق نتائج مذهلة ضد قوة احتلال قوية مثل الجيش الألماني. كانت أقصى وسائلهم الدفاعية هي أنشطة المقاومة السلبية، وقد، كان الدانماركيون أساتذة حقيقيين فيها. أعمال مثل نسف قاطرة هنا، وإشعال النار في مصنع هناك، ونقل

1- أصبح بوهل وهيدتوفت وهانسن رؤساء وزراء الدانمارك بعد الحرب العالمية الثانية.

أطقم الطائرات البريطانية والأمريكية إلى السويد، ونقل المعلومات إلى قوات الحلفاء.[2] لأجل تفعيل هذه القنوات السرية يستدعي الأمر الوثوق بالشخص الذي تتعامل معه؛ وتعتمد مسألة من تثق به ومن هو ليس محل ثقة على روابط الصداقة والاحترام المتبادل. وعن طيب خاطر كشف الأشخاص الستة عن وجوههم لهذا الرجل الألماني، لأن هيدتوفت طلب منهم ذلك؛ وهيدتوفت كان يحترم دوكفيتز.

بدأ دوكفيتز يتحدث وقد ارتسمت ابتسامة خجولة على وجهه قائلاً: «هناك نوعان من الحروب؛ الأول هو المواجهة بين قوتين عدوّتين، تقومان بعملية غزو لبلد ما-وقد حققت ألمانيا هذا الهدف- لكن هناك جانب آخر لا علاقة له بالحرب؛ وهو الذي يستثير الطبيعة الوحشية للإنسان بدلاً من الكشف عن إنسانيته: وهو القضاء على عدد كبير من الأبرياء».

لم يخفِ هيدتوفت صدمته. «ماذا تعني بهذا التهديد بالإبادة»؟ لقد كان يعلم أن هناك شيئاً جديداً سيحدث، وهو ما كان يتشوق لمعرفته. «هل تتحدث عن إبادة بعض أبناء وطني؟».

«ليس البعض فقط». أخذ دوكفيتز نفساً عميقاً. ثم قال: «عليك أن تخرج اليهود من البلاد».

...

... قوبل كلامه بصمت وذهول، قبل أن يسأله هيدتوفت: «أنت تقصد»

-قاطعه المفتش مادسن، الذي كان دائماً ما يعرف باسم الشرطي المتجهم- «هل أنت متأكد؟»، أجاب دوكفيتز: «للأسف، نعم. لقد صدرت توجيهات من الفوهرر بذلك. ليس أمامكم سوى أيام قليلة. لقد تلقى جهاز الغستابو أوامره بالفعل. ستشنّ الحملة البوليسية خلال ليلة 1 إلى 2 تشرين الأول. ليس أمامكم سوى ثلاثة أيام لإخراجهم».

2- بفضل مراقبي السواحل النرويجيين والدانماركيين، تمّ إبلاغ قوات البحرية البريطانية بأول تحرك قامت به البارجة الألمانية بسمارك في شمال المحيط الأطلسي.

نهض هانسن وراح يمشي جيئة وذهاباً، وهو مستغرق في التفكير، قبل أن يطرح السؤال الواضح الذي كان يدور في أذهان الجميع: «وأين تقترح أنّه يجب علينا نقل هذا العدد الكبير؟».

«لقد قمت بالفعل باتصالات أولية مع ستوكهولم. ستجد السويديين متقبلين لمثل هذه الخطوة. سأرى ما إذا كان بإمكاني تقديم المزيد من المساعدة» وتردد للحظة ثم قال: «... بوسائل أخرى».

توجه هيدتوفت بالسؤال إلى دوكفيتز: «أنت مهتمّ حقّاً بالأمر، أليس كذلك؟».

فقال: «إنها واحدة من حقائق الحياة المحزنة أن يجبر المرء على تغيير معتقده في بعض الأحيان، خاصةً عندما يبدأ في إدراك أنّه لم يعد قادراً على تغيير بعض الأشياء التي يُطلب منه القيام بها». من الواضح أن دوكفيتز كان رجلاً يمزقه الصراع الداخلي بين الواجب الملزم به تجاه وطنه وإحساس أعمق بالواجب تجاه الإنسانية.

سأل هانسن: «أليس هناك من ثمة أمل لهم أبداً؟».

«الأمل دائماً موجود ما عليكم سوى جعله يتحقق».

«سنفعل ما في وسعنا وبكل طريقة ممكنة».

«من الأفضل أن تسرعوا في ذلك؛ ليس لديكم الكثير من الوقت».

أومأ هانز هيدتوفت برأسه. صافح دوكفيتز الرجال، قبل أن يلتفت إلى صديقه، المفتش مادسن، وطلب منه إبلاغ سي. بي. هنريكس، المحامي في المحكمة العليا في البلاد بالأمر، والذي صادف أنّه كان رئيس الجالية اليهودية في الدانمارك، من أجل إطلاعه على الخطر الذي يلوح في الأفق. وعندما غادر الغرفة، كان يشعر بالقلق.

ثم قال: «حظّاً سعيداً»، وكان لدى هيدتوفت شعور غريب بأنّهم سيكونون بحاجة إلى كرمه أكثر من مرة قبل انتهاء هذا الأمر. شاهد الرجال في الغرفة مادسن ودوكفيتز وهما يغادران المنزل.

سأل هانسن: «هل يمكننا الوثوق بهذا الألماني؟».

نظر هيدتوف إليه: «ليس لدينا خيار، أليس كذلك؟» يا لها من مهمة كبيرة تجري تحت أنوف محتلي بلدهم، والذين كان لديهم مخبرون في كلّ مكان، ستكون صعبة وخطيرة على حدّ سواء.

جاء أول ردّ فعل من فرانتس هفاس: «إذن، متى نبدأ؟».

«لقد بدأنا ذلك بالفعل، منذ عشر دقائق»، أجاب هيدتوفت.

في الليلة نفسها، كتب دوكفيتز في مذكراته السرية: الاستعدادات للحملة على اليهود جارية وبسرعة. وقد وصل الخبراء المتخصصون بهذه العملية الدنيئة. آمل ألّا يجدوا الكثير من الضحايا.

استمر يعمل لمدة أسبوع واحد دون توقف، أسبوع واحد من المخاطرة، وكلّ ما انتهى إليه كان الإحباط. لم يستطع فعل المزيد. بات الأمر الآن في أيدي الدانماركيين.

في 9 نيسان 1940، اجتاحت الكتائب الألمانية الدانمارك، على الرغم من اتفاقية عدم الاعتداء الموقعة بين البلدين قبل ستة أشهر. لم يكن لدى الدانماركيين جيش، لم يكن هناك سوى 3300 جندي، بالإضافة إلى 8000 مجند، يدافعون عن نصف دزينة من الحواجز المؤقتة على الطريق الرئيس المؤدي من شمال ألمانيا إلى منطقة جوتلاند، وكان هناك شخص مدني واحد مع جنديين وعدد قليل من المجندين الذين لم يتلقّوا أبداً أية تدريبات على استخدام الأسلحة الرئيسة. يقومون بحماية حصن ماسنداوي، الذي يقع بالقرب من مدينة فوردينغبورغ، لحراسة القضبان الحديدية لأطول طريق وجسر للسكك الحديدية في أوروبا يمرّ عبر مضيق ستورزترومن الذي يفصل جزيرة فالستر عن جزيرة زيلاند. تمّ الاستيلاء على الحصن من قبل نخبة من المظليين الألمان، الذين هبطوا من السماء على نصف دزينة من المجندين التعيسي الحظ، وأفضل وصف لما قاموا به أنّهم كانوا كمن يستخدم المطرقة البخارية لقتل ذبابة.

كان الجسر المشيد فوق مضيق ستورزترومن مهمّاً لاحتلال جزيرة زيلاند. استسلمت الحكومة الدانماركية للقوات الألمانية، التي قامت بإنزال في متنزه لانجيليني في ميناء كوبنهاغن، وتهديد الألمان بالقيام بقصف جوي لعاصمة البلاد. كان السبب الرئيس لغزو الدانمارك هو سبب استراتيجي، لتنفيذ خطة غزو النرويج عبر جوتلاند وحماية جناح القوات الألمانية المتقدمة. بمجرد أن تمّ إنجاز العملية بنجاح، عاد جميع الدانماركيين إلى نشاطاتهم العادية، هذا إذا كان يمكن للمرء أن يصف الاحتلال القسري لوطنه بأنّه أمر عادي. كان النشاط العسكري الألماني الوحيد الملحوظ يحدث في المطارات الساحلية على طول شاطئ بحر الشمال، وبدأت الطائرات الألمانية تشنّ غاراتها على مدن برمنغهام وكوفنتري انطلاقاً من مدارج الطائرات الخرسانية في مدينتي إسبيرغ وألبورج.

كان ثمانية وتسعون في المئة من الدانماركيين (ولا يزالون) من اللوثريين. أمّا الباقون فمن الروم الكاثوليك. وثمانية آلاف يهودي. في البداية، حاول زعماء النازية أن يكسبوا إلى جانبهم ما كانوا يعرفون بالشماليين الشقر الطويلي القامة ليس باعتبارهم مثالاً ساطعاً على تفوق العرق الآري فحسب، بل لأن هتلر كان لا يستطيع أيضاً تحمل عواقب تكليف قواته الموجودة في الجبهة بمهمة الاحتلال. لهذا عرض على الدانماركيين صفقة المنتصر في صيغة «تعاون شكلي»، حيث ترك للملك كريستيان العاشر ملك الدانمارك والبرلمان سيطرة شكلية على البلاد. أصبح هذا الملك، وهو الملك الأوروبي الوحيد الذي ظلّ خلف شعبه من بين كلّ البلدان التي اجتاحتها آلة هتلر الحربية، نموذجاً للتحدي؛ لقد لعب دوراً حيويّاً في تعزيز الروح المعنوية لأبناء بلده من خلال تجوله كلّ يوم في شوارع عاصمته، ولم يردّ أبداً على التحية العسكرية التي كان يؤديها له الضباط والجنود الألمان.

عندما سأل ضابط ألماني ذات مرة صبيّاً صغيراً: «إذا كان هذا هو الملك، فأين حارسه الشخصي؟»، أجابه الطفل: «نحن جميعاً حراسه

الشخصيون». لم يحب الدانماركيون الألمان، لكن لم يكن باليد حيلة؛ واصلوا ممارسة أعمالهم اليومية وهم يرتدون الأحذية الخشبية التي تشبه القباقيب ويركبون الدراجات الهوائية القديمة، وهما الشيئان الأساسيان اللذان لم تصل إليهما يد الاحتلال. تمتلك الدانمارك موارد غذائية هائلة - مثل القمح والحليب والزبدة، وكانت تشتهر بلحم الخنزير المقدد الدانماركي. لم يكن لدى الدانماركيين ما يخشونه من غارات القصف البريطانية، حيث لم يكونوا يملكون صناعات ثقيلة يمكن للألمان استخدامها لتعزيز جهودهم الحربية. هؤلاء الدانماركيون الذين تخيلوا أن هذا الوضع سيستمر إلى الأبد، استيقظوا مرعوبين في 29 آب 1943. في ذلك اليوم، اقتحمت الدبابات الألمانية عاصمتهم كوبنهاغن وانتهى شهر العسل الشكلي بين الطرفين عندما أمر هتلر بحل البرلمان الدانماركي، وبالتالي أصبح واضحاً أن كلّ أمر يصدره ممثله الخاص في الدانمارك يجب تنفيذه والالتزام به كما لو كان صادراً عن الفوهرر نفسه.

أدّى ذلك إلى نشوب أزمة، بعد أن رفض الملك إنذاراً وجهه إليه ممثل هتلر، الدكتور بست، وحاصرت وحدات الجيش الألماني القصر الملكي، مما جعل صاحب الجلالة ملك الدانمارك سجيناً لديهم. قبل أن تتمكن البحرية الألمانية من السيطرة على السفن البحرية الدانماركية، أسرع الضباط الدانماركيون لإنقاذ قوارب الدورية الخاصة بهم، التي كانت ترسو في ميناء كوبنهاغن. تمّ حلّ الجيش الدانماركي وإعطاء ضباطه خيار الدخول إلى صفوف أفواج قوات الأمن الخاصة بالفايكنغ، وهو الأمر الذي لم يفعله أيّ منهم؛ لذلك تمّ اعتقالهم، وتمّ حظر أيّ تجمع يضم أكثر من ثلاثة أشخاص. لم تكن نتائج هذا المرسوم القاسي في صالح الألمان. ومهما كانت فرصة أن يحظى الألمان بمكانة في قلوب الدانماركيين ضئيلة، فإنّهم بمجرد أن تحرشوا بشخص ملكهم المقدس، فقد قضوا عليها تماماً. حدث إضراب أدّى إلى شل الحركة في البلاد، وتعين على الدكتور بست التخفيف من الأزمة. لكن الحالة المزاجية لم

تعد كما هي، لقد أصبحت الآن حالة من العداء الصريح، وسيلعب هذا الوضع دوراً رئيساً في العاصفة التالية التي ستشهدها البلاد.

ظلّ النازيون يواجهون بسبب هذا الوضع «مشكلة اليهود الدانماركيين». لقد شهدت أوروبا أدلة عديدة على تفاقمها. لم يحاول النازيون حتى إخفاء (سياسة الإبادة) القاسية التي كانوا ينتهجونها. أثبت هاينريش هيملر رئيس الغستابو أثناء توليه مهمة المشرف الأعلى على تنفيذ «الحل النهائي» للمسألة اليهودية، أنّه تلميذ متعصّب لنظرية التفوق العرقي وحاول بإيمان ثابت ترجمتها إلى واقع صارخ. وأظهر ذلك في خطابه الموجه لعناصر قوات الأمن الخاصة في مدينة بوزنان البولندية في 4 تشرين الأول 1943:

«ينص توجيهنا الرئيس لعنصر قوات الأمن الخاصة على: «إنّه يجب أن نكون نزيهين، وصادقين، ومخلصين، وأن نتعامل بروح رفاقية مع من تربطنا بهم صلة الدم وليس مع الآخرين... ولا يهمنا سواء كانت الشعوب الأخرى تعيش في راحة أو تهلك من الجوع، ما يهمنا فقط هو بقدر ما نحتاج إليهم كعبيد لخدمة حضارتنا... سأتحدث إليكم هنا، بكل صراحة، عن مسألة خطيرة للغاية؛ وأعني بها قضية إجلاء اليهود، وتصفية أبناء الشعب اليهودي. يعلم الكثيرون منكم ما يعنيه أن ترى مئة جثة أو حتى خمس مئة أو ألف جثة مدفونة معاً. إن الاستمرار في هذا النهج وبقاءنا في الوقت نفسه وبصرف النظر عن الحالات الاستثنائية الناجمة عن الضعف البشري زملاء مخلصين بعضنا لبعض، هو سرّ بقائنا أشداء».

لحسن الحظ، لم يكن جميع الألمان يفكرون مثل الزعيم هيملر. كان هناك من تجرأ على العمل بالضد من نوايا قادة الحزب النازي المتزمتين وبرنامج الحل النهائي. وقد تمّ تعيين واحد من هؤلاء في الدانمارك.

ولد جورج فرديناند دوكفيتز في 29 أيلول 1904 في مدينة بريمن؛ وكان جدّه الكبير أرنولد هو من أسس شركتهم العائلية في عام 1828، وأصبح رئيس بلدية مدينة بريمن التي كانت تابعة للرابطة الهانزية الحرة (رابطة

ضمت العديد من المدن التجارية في منطقة بحر الشمال والبلطيق، استمرت من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر - م.). بعد دراسته القانون، استقر جورج فرديناند الشاب في كوبنهاغن لرعاية مصالح أعمال التصدير للشركة العائلية في الدول الاسكندنافية. وقد أكسبته طبيعته المنفتحة عدداً كبيراً من الأصدقاء في الدوائر التجارية والسياسية الدانماركية. كان أحدهم هانس هيدتوفت، الذي كان مقدراً له أن يصبح زعيم الدانمارك.

في عام 1933، وجد دوكفيتز نفسه معجباً ببلاغة خطابات الديكتاتور الألماني وقرّر الانضمام إلى صفوف حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني. سرعان ما اكتشف الرجل الذي اقتنع بنية حسنة بشعارات الحزب الوجه الحقيقي للنازية. ومع ذلك ظلّ عضواً في الحزب النازي، لأنه بصفته «رفيقاً في الحزب»، كان يحمل بطاقة دخول إلى الدائرة الداخلية للسلطة؛ لم يكن يظنّ سوى القليل من الناس أن قراره بالبقاء في الحزب سيكون يوماً ما ضروريّاً لمساعدة اليهود الدانماركيين. في المراحل الأولى من الحرب العالمية الثانية، أعفاه منصبه كخبير في الشحن لخط الشحن الذي يربط هامبورغ-أمريكا، والذي استطاع من خلاله إقامة روابط ما بين ألمانيا والسويد المحايدة، من أداء الخدمة العسكرية. عندما غزت القوات الألمانية الدانمارك، كان مرتبطاً بوزارة الخارجية الألمانية، وبشكل أكثر تحديداً بمنصب مندوب الرايخ والمسؤول العام عن احتلال الدانمارك في كوبنهاغن، وهو الدكتور كارل رودولف وورنر بست، القومي المتطرف والعضو المؤسس للاتحاد الألماني للدفاع عن حقوق الإنسان، الذي دمجه هتلر في حزبه.

أصبح الدكتور بست عضواً في حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني في عام 1930 وانضم إلى ذراعه الضاربة (الفرق الوقائية أو وحدات أس. أس.)، في عام 1931. أنفق وقته في الدخول في المناورات السياسية المستمرة وهزم بدوره كلّ منافس له. ترقى بسرعة إلى رتبة (لفتنانت جنرال في وحدات أس. أس.). في 27 تشرين الأول

1942، قام هتلر بتعيين الدكتور بست في منصب ممثل الرايخ الألماني في الدانمارك، وهو عنوان دبلوماسي كان ستاراً رقيقاً لإخفاء وظيفته الديكتاتورية. بالنسبة لحاكم بلد محتل، كان الدكتور بست قد نجح نسبياً وكان واثقاً أنّه يستطيع الاستمرار على هذا النحو. تسببت الهزيمة في ستالينغراد (كانون الثاني 1943) في هزّ قناعاته بشدة كما هو حال كثيرين آخرين. بدأ يشعر بالقلق من أن هتلر قد يخسر الحرب في النهاية، وبدأ في وضع خطط تضمن بقاءه صامداً في وجه مثل هذا الاحتمال. كان يتمتع بحياة مريحة نسبيّاً حتى صيف عام 1943، بما أن القيادة النازية كانت لا تزال تستكشف وسائل لدمج الدانماركيين في الرايخ الألماني، كما فعلت بنجاح مع النمساويين وأبناء إقليم السوديت.

في عام 1943، سارت الأمور بشكل سيّئ في مسيرة هتلر نحو النصر. مع الانتكاسات في ستالينغراد، وعدم انشغال القوات البريطانية والأمريكية بعمليات قتالية في شمال أفريقيا، بدأت ألمانيا تشعر بالقلق من أن الحلفاء قد يفتحون جبهة ثانية قريباً. كان يقع المكان الأكثر ترجيحاً، وهو الأقرب إلى معقل ألمانيا، على طول الساحل الغربي من جوتلاند. هذا التهديد أزعج القيادة الألمانية ودعاها للقيام بسلسلة من الإجراءات؛ بادئ ذي بدء، أمرت بتركيز جميع قوات الاحتلال على طول الساحل الغربي الدانماركي. أعقبت ذلك سلسلة من أعمال التخريب التي قامت بها مجموعات المقاومة الدانماركية، وعمليات إعدام لعناصر من المقاومة، وإضرابات ضخمة في المصانع والحقول الزراعية. ولخشية الفوهرر من أن اندلاع التمرد هذا سيصب في دعم عمليات إنزال الحلفاء، أصدر أوامره إلى بست لتطهير الدانمارك من الأعداء. في ذلك الوقت، تلقى بست أيضاً مكالمة سرية من وكيل وزير الخارجية الألمانية في برلين، الدكتور فرانز فون سونليتنر، يبلغه فيها أنّه قد تمّ إعداد أمر بترحيل اليهود الدانمركيين. ولم يمكن التأكد تماماً إن كان الإجراء المتعلق باليهود في الدانمارك كان بمبادرة مباشرة من بست.

والحقيقة هي أن الليفتنانت جنرال بست كان يقود فرقة العمليات التابعة لوحدات الأمن الخاصة الشهيرة في بولندا قبل توليه منصبه في كوبنهاغن. وكان يقول لتبرير تصرفاته: «يجب أن نتعامل بقسوة مع الرعاع». شكا بست في وقت لاحق من أنّه يمكن توقع حدوث مشاكل كبيرة في موضوع اليهود الدانماركيين، ولذلك بدأ يركز جهوده على إنجاح محاولته حلّ القضية بالقوة عن طريق إرسال برقية إلى السلطات في برلين يقترح فيها تسوية المسألة اليهودية «بطريقة معقولة».[3] وقد ذكر في محاكمته التي جرت بعد الحرب، أن مخططه كان مبنيّاً على افتراض عدم فاعلية قوات الشرطة الألمانية في الدانمارك، والدور الذي كان من المفترض أن تلعبه القوات المسلحة الألمانية في الحملة. أصبحت برقية بست هي العامل الرئيس الذي مهد للتخطيط للمذبحة في الدانمارك:

برقية رقم 1032بتاريخ 8/ 9/ 1943[4]:

يجب عدم التريث في حلّ المسألة اليهودية في الدانمارك[5] في رأيي أنّه يجب علينا الآن أن نوجد حلّاً للمسألة اليهودية طالما أن حالة الطوارئ موجودة، لأنّها ستؤدي إذا تأخرت إلى حدوث ردود أفعال في البلاد... سوف تستقيل الحكومة ولن يتعاون الملك والبرلمان معنا... إن اعتقال ما بين 6000 إلى 8000 يهودي (بمن فيهم النساء والأطفال) يتطلب تجهيز أعداد إضافية كبيرة من الشرطة الألمانية، كما تمّ التأكيد عليه في برقيتي بتاريخ 1/ 9/ 1943 علاوة على ذلك، يجب على قائد الجيش، والقوات الألمانية في الدانمارك، وضع المزيد من وحدات الجيش الألماني تحت

3- لم يتمّ أبداً توضيح الدور الغامض الذي لعبه الدكتور بست في هذه القضية. يدافع الكاتب إريك طومسون، في عمله، سياسة الاحتلال الألماني في الدانمارك-عن بست، في حين تدين البروفيسورة ليني ياهيل في كتابها: إنقاذ اليهود الدانماركيين- أفكار بست ودوافعه.

4- نقلاً عن الأرشيف الألماني الوثيقة المرقمة AAO Bd R 29567.

5- يورد المؤلف في هذا الهامش ترجمة لعنوان البرقية المذكور باللغة الألمانية في النص الأصلي للكتاب.

تصرفنا. ولنقل مثل هذا العدد الكبير من اليهود، سيكون من الضروري توفير عدد من السفن...

بمجرد إرساله البرقية، اتصل بست في وقت متأخر بدوكفيتز طلباً لمشورته. التقى الرجلان وجهاً لوجه في مكتب يقع في الطابق الأول من مبنى كان سلف الدكتور بست قد استولى عليه عند وصوله إلى كوبنهاغن. ارتدى كلاهما ملابس مدنية بدلاً من الزيّ الرسمي لقوات الأمن الخاصة. كان سلوك بست متعجرفاً، أقرب إلى الازدراء. فيما كان دوكفيتز يعامله ظاهريّاً باحترام، وكان حريصاً على عدم إعطاء رئيسه فرصة لإلقاء محاضرة طويلة حول مزايا الاحتلال الألماني. تمعن بست عن كثب في الرجل الذي يواجهه عبر الطاولة. هل هو مؤهل لإنجاز المهمة؟ بالطبع وإلى حدّ بعيد. هل كان مخلصاً للحزب؟ كانت هذه مسألة أخرى. لم يكن هناك ودّ بين الرجلين اللذين كان من المفترض أن يعملا في وئام وسط الأزمة المتفاقمة.

«يا دوكفيتز يرغب المسؤولون في برلين أن نتخلص من اليهود بطريقة ما. لقد أرسلت لهم برقية أخبرتهم فيها أنّنا نحتاج قبل ذلك إلى المزيد من الوسائل الفعالة للقيام بالعملية. كيف سيكون ردّهم في رأيك؟». إذا كان بست قد توقع الحصول على ردٍّ فوري، فقد خاب ظنّه. حينها صرخ بوجه دوكفيتز غاضباً: «لقد طرحت عليك سؤالاً، -ثم استدرك قائلاً- أيها العضو في الحزب».

«كنت أفكر في الآثار المترتبة على القيام بهذا الإجراء حتى أصل إلى إجابة صحيحة. اليهود؟ إنّها مسألة شائكة. أنت تعرف الدانماركيين...».

«أنت تشكك في قراري، وقرار المسؤولين في برلين؟» استفسر بست منه بهدوء.

«أنا أوردُ الحقائق ببساطة. ما الذي يمكن أن نجنيه من القيام بمثل هذا الفعل؟».

«إنها سياسة الحزب. تريد أن تردعهم». أوجز الدكتور بست الوضع بإيجاز، وكيف كان يحاول إيقاف الحملة على اليهود بسبب الوضع المتفجر

الحالي في البلاد، من خلال طلب تعزيزات من القوات، وهو ما عرف أنّه لن يحدث قريباً،[6] ثم قدم لدوكفيتز برقيته التي أرسلها إلى برلين ليطلع عليها.

ألقى دوكفيتز نظرة سريعة على البرقية، قبل أن يقدم تقييمه. «سيدي الدكتور بست، لن تفسر برلين رسالتك أبداً بالطريقة التي تقصدها. فهي لا تصرف انتباههم عنها، بل على العكس، سوف تجعلهم يركزون على القضية. يجب وقف إرسال هذه البرقية قبل أن تصل إلى يد ريبنتروب،[7] أو ما هو أسوأ، الفوهرر نفسه».

أصبح وجه بست شاحباً. قد يكون هذا الرجل محقّاً. لحسن الحظ كان لديه حدس داخلي يمنعه من السعي للحصول على مساعدة من الغستابو، الذي قد يهاجم اقتراحه ويبلغه إلى برلين. «ما الذي تقترحه؟» في هذه المرة لم يحاول حتى إخفاء قلقه.

«لديّ أحد معارفي يعمل في وزارة الخارجية، يمكنني أن أذهب لرؤيته».

«افعل ذلك، واحرص على أن توقف إرسال البرقية إلى أبعد من ذلك».

توجه دوكفيتز إلى برلين حيث التقى وكيل وزارة الخارجية هينكه الذي أخبره أن البرقية لم تتجاوز مكتب وزير الخارجية فحسب، بل هي الآن في طريقها إلى الفوهرر في مقرّه الرئيس في بروسيا الشرقية. عندما وصلت البرقية إلى هتلر، لم يلقِ سوى نظرة سريعة عليها وقرّر بعدها مستقبل يهود الدانمرك بعبارة واحدة قصيرة:

«يجب القضاء على يهود الدانمارك».

استلم الدكتور بست أمر هتلر في 18 أيلول 1943 [8]:

أصدر الفوهرر أوامـره بوجوب تنفيذ عملية ترحيل اليهود من الدانمارك...

6- بحلول صيف عام 1943، كانت ألمانيا تخشى أن يقوم الحلفاء بغزو جزيرة جوتلاند وحشدت كلّ ما لديها من قوات للسيطرة على شواطئها.

7- كان يواخيم فون ريبنتروب يشغل منصب وزير الخارجية الألماني في عهد هتلر.

8- نقلاً عن الأرشيف الألماني الوثيقة المرقمة AAO Bd R 100864

عندما يتلقى شخص ما في ألمانيا أمراً من الفوهرر، لا يكون لديه خيار سوى الطاعة. من جديد، استدعى بست خبير الشحن ومستشاره الخاص للحصول منه على المشورة. كان بست يجلس وراء مكتبه، وقد وضع رأسه بين يديه.

«فقط ألقِ نظرة على هذه». وقام ذلك المجنون بدفع البرقية المشفرة عبر المنضدة. «ألا يعرفون وضعنا في الدانمارك؟ مثل هذا الفعل يمكن أن يسبب أذى للرايخ».

ألقى دوكفيتز نظرة على أمر الفوهرر وشحب وجهه. كان يعلم أن مصير اليهود الدانماركيين قد كان مفروغاً منه. بالنسبة له، لا يوجد شيء يمكن أن يضاهي شهوة التعطش للدماء الطائشة لأولئك الذين ذبحوا الأبرياء تحت حجة خلق تفوق عرقي، أو وحشية الرجل الذي أمر به.

«سيادة الدكتور بست– رفض دوكفيتز، المدني مناداته برتبته في قوات الأمن الخاصة الليفتنانت جنرال– لماذا لا تجرب أن تحاول مرة أخرى وترسل برقية جديدة؟».

«وأعمل بالضد من أوامر الفوهرر؟ لا بدّ أنك أصبحت مجنوناً». ومع ذلك، فقد استمع بست إلى دوكفيتز حالاً وقام بإرسال ملاحظة أخرى، معرباً عن مخاوفه الأخيرة.[9]

برقية برقم 1094 بتاريخ 18/ 9/ 1943

من الناحية السياسية، فإنّ ترحيل اليهود سيجعل الوضع بلا شك متفجراً للغاية. لم يعد بإمكاننا الاعتماد على تعاون من الحكومة المحلية ويجب أن نتوقع حدوث اضطرابات وإعلان الإضراب العام على مستوى البلاد.

ظلّ هتلر مصرّاً ولم يتأثر بهذه البرقية. قيل لبست إن أمر الفوهرر لا زال ساري المفعول.

9- نقلاً عن الأرشيف الألماني الوثيقة المرقمة AAO Bd R 29567

كان بست يعرف أن دوكفيتز كان شخصاً يعرف «الجميع في الدانمارك» منذ أيام ما قبل الحرب:

أتمنى أن أتمكن من بناء جسر عبر أوريسند، وهو المضيق الذي يفصل بين الدانمارك والسويد.

هل كان بست يحاول تمرير رسالة ما؟ على أيّ حال، فقد قرّر دوكفيتز بالفعل القيام بمهمة شخصية خطيرة للغاية. لقد كان رجلاً دقيقاً وحريصاً؛ فكل شيء كان ينوي القيام به كان يفكر فيه بعناية قبل أن يتصرف بموجبه. ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت لذلك. كان عليه أن يقامر لإيقاف ارتكاب جريمة بشعة، لأنّه كان يعرف من التجربة ما كانت فرق وحدات الأمن الخاصة قادرة على تحقيقه بسبب تحيّزها الأعمى للعداء للسامية. في عام 1938، رأى صوراً تظهر الأساليب الوحشية التي استخدمها عناصر قوات العاصفة القساة في حملاتها ضد اليهود، فقد قاموا بتحطيم زجاج نوافذ بيوتهم وحرق الكتب، وبعد ذلك راقب وهو غير مصدق انتشار موجة من الكراهية والوحشية في جميع أنحاء ألمانيا، حتى أصبحت فلسفة يتبناها الحزب. في ذلك اليوم، برز الجنون الذي شعر به وهو ينمو، وأثارته أقلية من القادة المتعصبين. وإذا كان ذوو الرتب الأدنى في أجهزة الأمن ممن يمارسون عمليات القمع متوحشين وعنيفين، فإنّ رؤساءهم من ذوي الرتب الأعلى كانوا مجرمين منحرفين جلبوا العار لوطنه. كانت أعمال الإبادة الجماعية الممنهجة تجري على قدم وساق منذ منتصف عام 1941؛ تمّ القضاء فعليّاً على أكثر من ثلاثة ملايين يهودي. وببساطة لم يعد بإمكانه أن يبقى لا يحرك ساكناً في ظلّ تفشّي أفعالهم الشريرة، التي جلبت وصمة عار دائمة إلى ألمانيا. لقد كان مؤمناً بشكل راسخ بأن «الولاء للوطن يجب ألّا يتمّ الخلط بينه وبين الولاء لرجل واحد». في 19 أيلول، حدد دوكفيتز مسار حياته في مذكراته السرية: «لقد عرفت ما يجب عليّ فعله». ومع كتابته لتلك العبارة، انطلق دوكفيتز في «مهمته».

بدأت تحركاته الأخيرة في لفت انتباه الغستابو. في 22 أيلول 1943، اتصل دوكفيتز بالقائم بالأعمال السويدي في الدانمارك، نيلز إريك إيكبلاد وأطلعه بشكل موجز على مدى خطورة الموقف وعرض إيكبلاد السفر معه إلى ستوكهولم. كان تبريرهم لغرض الرحلة: مناقشة مرور السفن التجارية الألمانية، لأن السويد أوقفت كلّ حركة المرور الدولية على طول ساحلها الغربي ولم تعد تسمح لأيّ سفن أجنبية بالعبور من حدود قناة فيلستوبه التي تبلغ ثلاثة أميال (4.8 كيلومتر). جعلت العواصف الشتوية والموانئ المتجمدة التي تغطيها الثلوج السفر بغير الطائرات الصغيرة أمراً شبه مستحيل، وقام الألمان بتركيب مسار مزدوج من نقاط الرقابة على طول الخط الذي يمرّ بمركز جزيرة أوريسند، بعد أن اكتشفوا أن الطيارين الذين يهبطون من طائرات سلاح الجوّ الملكي البريطاني كانوا يستخدمونه ليتمكنوا من الهروب. كانت البارونة الدانماركية الثرية مونيكا ويتشفيلد تخفي عدداً من أطقم الطائرات البريطانية في مزارعها، قبل أن تقوم بنقلها إلى السويد على متن يختها. أبلغ أحد المتعاطفين مع النازية السلطات عن نشاطات البارونة الشجاعة. تمّ القبض عليها وحكم عليها بالإعدام وأُعدمت في سجن ألماني. قبل أن يتوجه دوكفيتز إلى ستوكهولم، اتصل بنظيره السويدي، الدكتور رينسبرغ، لعقد اجتماع عاجل مع رئيس الوزراء السويدي، بير ألبين هانسون. خلال هذه المقابلة، دخل دوكفيتز في الموضوع بشكل مباشر:

«سيادة رئيس الوزراء هانسون، لقد أمر هتلر باعتقال جميع اليهود في الدانمارك. يجب أن تهبّ لمساعدتهم». مع أن هانسون قد صدم من هذه الأخبار، ولكنه تمكن من إخفاء مشاعره. في الواقع، لقد كان يتوقع دائماً حدوث شيء من هذا القبيل فبدأ بمناقشة إمكانية تقديم المساعدة مع زملائه الوزراء، لكنهم فشلوا في التوصل إلى توافق في الآراء.

«في الحقيقة ليس لديّ فكرة كيف يمكننا تقديم المساعدة»، ثم توقف ليقول بأسلوب السويديين المهذب: «هذا شأن ألماني تماماً». على

الرغم من قبول السويد بالفعل لعدد من اللاجئين من النرويج المحتلة المجاورة، إلّا أنّها كانت متمسكاً رسميّاً بسياسة الحياد الصارمة. لقد حاول دوكفيتز جاهداً، لكن هانسون ظلّ غير ملتزم بتقديم المساعدة إلى «إخوته الاسكندنافيين». كان من الممكن تماماً، وفقاً لاتفاق دولي ساري المفعول، أن تعيد السويد اليهود إلى الأراضي التي تحتلها ألمانيا.

توسل دوكفيتز بهم قائلاً: «افتحوا حدودكم أمام اللاجئين اليهود. أمّا كيف سيعبرون جزيرة أوريسند فستكون تلك مشكلتهم».

كان هانسون يدرك جيداً المشكلات المتزايدة التي كانت تواجهها ألمانيا في إدارة الحرب. لم يخسروها بعد، لكنهم بالتأكيد لم يعد بإمكانهم ربحها. كان قد قرّر بالفعل ممارسة الضغط على زملائه في (البرلمان السويدي) للحصول على مساعدة من بلاده للمهاجرين الدانمركيين؛ كانت القضية مسألة كبرياء وطني والسويد لم تكن على استعداد لتحتل المرتبة الثانية عندما يتعلق الأمر بإنقاذ الأرواح البشرية.

ووعد قائلاً: «سأرى ما الذي يمكن عمله». لقد كان يعلم أن الأمر لن يكون سهلاً. كانت أولى خطواته إصداره أمراً لتخليص بلاده من العناصر المشكوك فيها؛ كان معروفاً على نطاق واسع أن أحد مسؤولي الجمارك في ميناء تريلبورغ قبالة الدانمارك كان متعاطفاً مع النازية. من خلال مكالمة هاتفية، نقل هانسن الرجل إلى شمال السويد حيث لا يستطيع الإضرار بأحد، قبل أن يتصل بزملائه الوزراء. وبينما كانت المشاورات جارية، نوقش خطر مواجهة هتلر علناً، كان الخط الهاتفي بين ستوكهولم والسفارة السويدية في برلين لا يتوقف عن الرنين. انتظر دوكفيتز بفارغ الصبر في فندقه للحصول على ردّ. كان الوقت ينفد منه بسرعة. أمضى ليلة لم يغمض له فيها جفن، غير مدرك أن القضية قد حسمت بالفعل؛ ثمّ تلقى ردّاً من برلين، حيث أبلغ مسؤول في وزارة الخارجية الألمانية السفير السويدي باقتضاب «بوجوب عدم التدخل مطلقاً في الشؤون الداخلية الألمانية».

في اللغة الدبلوماسية، كان هذا الردّ قاسياً. كان وصف ما يحدث مع الدانمارك في الشؤون الداخلية لألمانيا هو سبب القرار السويدي، لأن السؤال هو إلى أين ستتمدد منطقة ألمانيا الداخلية حسب اعتقاد هتلر مستقبلاً؟ إلى ستوكهولم؟ التقى هانسن مع دوكفيتز للمرة الأخيرة ووعد بموافقة حكومته على استقبال أيّ شخص يصل إلى الأراضي السويدية ويطلب اللجوء. كان رئيس الوزراء حريصاً على عدم تحديد من يجب أن يكونوا طالبي اللجوء هؤلاء، أو أن عرض السويد يهدف بشكل أساسي إلى تسهيل الهجرة الجماعية لليهود من الدانمارك.

عاد دوكفيتز إلى كوبنهاغن وطلب موعداً مع مساعد الجنرال فون هانيكن، قائد الجيش في القطاع الدانماركي. استقبله المساعد المدني للجنرال بول إرنست كانشتاين وكموظف مدني يواجه موظفاً آخر مثله، قام دوكفيتز بمجازفة محسوبة عندما كشف عن هواجسه. «كيف سيكون ردّ فعل جيشنا على أوامر الفوهرر فيما يتعلق باليهود؟».

«سوف تطيع قوات الجيش قائدها العام، وهانيكن لن يعارض هتلر». كان يمكن لكانشتاين أن يغدر بدوكفيتز عند الغستابو، لكنه كان رجلاً مخلصاً ولم يفعل شيئاً من هذا النوع.[10]

عندما تصافحا، قال كانشتاين: «لا بدّ لي من تحذيرك، لا تحاول أن تتحدى هتلر». أدرك دوكفيتز مغزى التحذير، لكنه ما زال يرفض الاستسلام. وفيما يتعلق بالأوامر التي وصلته عبر الهاتف، أمره الدكتور بست بتجهيز السفينة مونتي روزا التي يبلغ وزنها 14000 طن والراسية عند مدينة آرهوس في جزيرة جوتلاند، للإبحار إلى كوبنهاغن استعداداً لنقل اليهود إلى ألمانيا. وقف الحظ إلى جانبه. فقد كان الرجل المسؤول

10- لم يتمّ التثبت أبداً ما إذا كان كانشتاين قد تحدث بالفعل مع الجنرال فون هانيكن وعما إذا كان تدخله قد ساعد في إبقاء القوات الألمانية في مواقعها خلال الساعات الحرجة.

عن الملاحة المدنية في جوتلاند هو صديقه القديم فريدريش فيلهلم لوبيك. ذهب دوكفيتز إلى آرهوس للقاء لوبيك، الذي قدمه إلى هاينريش بيرترام قبطان السفينة مونتي روزا، وهو بحار يقود سفناً تجارية لم يخفِ مشاعره تجاه قادة الرايخ الثالث. بعد هذا الاجتماع، تمّ نزع عمود المرفق لمحرك السفينة مونتي روزا لإجراء تصليحات عاجلة عليه وتمّ وقف حركة السفينة لعدة أسابيع. إذا كان دوكفيتز يأمل في أن يوفر له ذلك مزيداً من الوقت للتخطيط، فإنّه لم يحسب حساباً لأمر الإبحار الذي أصدره الأدميرال فورماخ لسفينتين صغيرتين، هما وورثلاند وفريدلاند، للتوجه من ميناء شتيتين إلى كوبنهاغن.

في 26 أيلول، ذهب فوجلسانغ-دامغارد أسقف كوبنهاغن لرؤية الدكتور بست، للاستفسار عن مصير اليهود. فردّ عليه بكذبة شنيعة: «لم يتمّ طرح مثل هذه المسألة إطلاقاً».

في كلّ ليلة، كان الدانماركيون يتسمّرون أمام أجهزة الراديو الخاصة بهم، وكانت القلة منهم تضبطها على راديو ألمانيا أو إذاعة بي. بي. سي. (وهم الأغلبية) للاستماع إلى آخر الأخبار عن الحرب. لم تخبر أيّ من الإذاعتين مستمعيها بالحقيقة؛ كلاهما كان يضخ نوعاً من الدعاية يناسب المجهود الحربي الخاص بحكومته. مع وجود البي. بي. سي. كان هناك على الأقل أمل في معرفة الحقيقة؛ أمّا مع راديو ألمانيا فإنّ الأمل مفقود تماماً. لم يتمّ ذكر مصير اليهود الدانماركيين أبداً. لا من قبل الألمان لأن هذا الأمر لا يتوافق مع سياستهم، ولا من قبل البريطانيين لأنّهم لا يعرفون شيئاً عنه. لم يعرف بالأمر سوى عدد قليل من الدائرة القريبة المحيطة ببست والغستابو وأولئك الأشخاص الذين في الجيش والبحرية الألمانية ممن تمّ إعلامهم بشكل خاص من قبل دوكفيتز، والذين كانوا حينها أشخاصاً محدودين جدّاً. كيف كان من الممكن إذن أن يفشل جهاز التجسس الفعال التابع للغستابو في اكتشاف التحركات اليائسة التي قام بها دوكفيتز؟

اقتحم الأوبرستورمفانورر (رتبة شبه عسكرية في الحزب النازي -م) الدكتور رودولف ميلدنر، رئيس جهاز شرطة الأمن الألماني، والذي كان سابقاً رئيس فرع الغستابو في مدينة كاتوفيتسه والمفوض السياسي لمعسكر الاعتقال أوشفيتز، مكتب بست ليخبره: «سيدي لقد علمت للتوّ أن خطتنا قد تعرضت للخيانة».

لم يكن بست يأمل سوى أن تكون تلك حجارة ألقاها رجل الغستابو في الظلام. «من هو الذي قام بذلك؟».

«لم نتمكن بعد من معرفة من هو. ولكن يجب علينا تقديم موعد البدء بالعملية».

أجاب الدكتور بست بحزم: «لا يمكننا فعل ذلك»، لم أستلم لحدّ الآن التعزيزات العسكرية اللازمة لضمان النجاح الكامل للعملية. يجب أن يظل تاريخ الأول من تشرين الأول قائماً. كان السبب وراء إصرار بست تافهاً للغاية فقد كان قد دخل في مفاوضات تجارية مع المنتجين الدانماركيين للحصول على إمدادات غذائية لألمانيا التي باتت تتضور جوعاً بشكل متزايد. بدا قراراً منطقيّاً وأومأ الأوبرستورمانفهرر ميلدنر برأسه على مضض علامة على قبول القرار الذي اتخذه رئيسه.

«فقط دعنا نتأكد، سيادة المفوض السامي للرايخ، من أن جميع السجناء الذين يتمّ نقلهم سيتمّ تسليمهم إلى أيدي الغستابو. سنستجوبهم للكشف عن المؤامرة». لم يقل ما هي المؤامرة التي كانت تدور في ذهنه، ولكن كان من الواضح أن اليهود التعيسي الحظ سيتعين عليهم تحمل المعاملة الوحشية والتعذيب على يد العناصر التي ستعتقلهم قبل إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال الألمانية.

بعد يومين، تحدث الدكتور بست مع دوكفيتز وأخبره بفحوى حديثه مع ميلدنر؛ حينها كانت القضية قد وصلت إلى حالة تبعث على الذعر. كان يبحر في بحر من الخطر وقد أخذ كل شيء على عاتقه؛ كانت تنتصب أمامه محض مشكلة غير قابلة للحل، في الخلف كان يحوم عناصر جهاز الغستابو اللعين،

وطوال الوقت كانت الساعة تدق. في الأيام التي سبقت وصول القضية إلى ذروتها، أصبح شديد الارتياب ولسبب وجيه؛ كان لديه شعور غريب بأن عملاء الغستابو يتابعون كلّ خطوة من خطواته. بدأ سوء حالته العصبية يشوش تفكيره. ويقلل من حيلته. في هذه الأوقات العصيبة، لم يكن دوكفيتز ذلك الشخص الذي كان يتصرف وفق ذكائه، والذي كان يخلص نفسه من المآزق من خلال التصرف بنباهة. في تلك الليلة، وقف أمام المرآة وحدّق إلى وجه متعب ينظر إليه من الخلف، قبل أن يدرك أنّه وجهه. لم يمنعه سوى الإرهاق الذي كان يشعر به من الخروج من الغرفة للابتعاد عن هذه الصورة التي تكشف ماذا فعلت هذه الحرب به. أراد أن يخرج إلى الشوارع وينزع عن نفسه خيبة الأمل ويخبر اليهود أن يغادروا، وعلى الفور.

لكنه، بالطبع، لم يستطع فعل ذلك. لم يكن لديه أيّ فكرة عن مدى اشتباه عناصر جهاز الغستابو اللعين به، أو إذا كان بالفعل على قائمة المحكومين بالإعدام التي لديهم. بالنسبة له فإنّ ذلك يجب أن لا يغير شيئاً، ولضمان نجاة عدة آلاف من البشر، كان عليه أن يتصرف ويحصل على أكبر وقت ممكن. بعث برسالة سرية بواسطة السفير السويدي إيكبلاد إلى رئيس الوزراء هانسن في ستوكهولم، ونصحه بتوقع حصول تدفق كبير لليهود الدانماركيين خلال الأيام أو الأسابيع القليلة المقبلة. وهو في طريقه إلى جهاز التلغراف، توصل دوكفيتز إلى قرار سوف يغير التاريخ. التقط هاتفه وبدأ يتصل...

تقرر أن يعقد الاجتماع المصيري بين النازي السابق وأربعة من زعماء الحزب الديمقراطي الاشتراكي، الذين كان يشك في أنّهم كانوا على اتصال مباشر مع قادة حركة المقاومة، (مجلس الحرية)[11]، في منزل يقع في شارع روميرغيد في كوبنهاغن مساء يوم 28 أيلول 1943 كان دوكفيتز يعلم أنّه قادر على الوثوق بهيدتوفت، لكن ماذا عن الآخرين؟

اجتاز جورج فرديناند دوكفيتز ما يمثل نقطة اللاعودة بالنسبة له. كان

11- وحتى هؤلاء لم يكونوا يمتلكون السيطرة الكاملة على جميع الأنشطة المعادية لألمانيا.

في الطريق إلى أهم لقاء في حياته. لم يذهب بسيارته الرسمية. استقل من منزله في لينغبي، وهي منطقة سكنية هادئة في كوبنهاغن، حافلة محلية إلى وسط المدينة المكتظ بالسكان، حيث سيكون من الأسهل له أن يضيع كلّ أثر له. انتظر في ساحة كونغينز نيتورف، أكثر تقاطعات كوبنهاغن ازدحاماً، حتى غادر معظم الركاب قبل أن يغادر الحافلة. وجد له مخرجاً وغاص في وسط زحام الناس على الرصيف عندها فقط أبطأ خطواته في محاولة لالتقاط أنفاسه والتفكير بهدوء. كان يعلم أنه، إذا تمّ القبض عليه، سوف يُجبر على الاعتراف، قبل تصفيته مع كلّ الآخرين الذين كان يثق بهم. كان هناك الكثير من أرواح أشخاص من المراتب العالية على حافة الموت من الألمان والدانماركيين على حدّ سواء. زائداً 8000 يهودي.

جهز المفتش كريستيان مادسن منزلاً آمناً يراقبه رجاله عن كثب. وهو المكان الذي عقد فيه دوكفيتز لقاءه مع هانز هيدتوفت وج. سي. هانسن، وهما من كبار القادة السياسيين في الدانمارك. أظهرا احترامهما لدوكفيتز. ورغم كونه ذلك«النازي الطيب» إلّا أنّهما ظلّا ينظران إليه كشخص ألماني.

«بدأ كلامه بحذر: ما سنقوله لن يعرف به أحد سوانا، هذا وعد مني». أدرك دوكفيتز أنّه كان عليه أن يتغلب على شكوكهم. «ستشهد الدانمارك قريباً عدداً من التغيرات».

نظر إليه هيدتوفت متسائلاً: «حياة بعض أبناء بلدك على وشك أن تتغير».

قال دوكفيتز لهم بصدق: «أخرجوا مواطنيكم من اليهود من البلاد»، مدركاً أنّه كان يلقي على الدانماركيين قنبلة على وشك أن تنفجر. لكنه كان يجب أن يكون مباشراً وصريحاً، لم يكن الوقت يسمح بإخفاء أيّ شيء. «إنها أوامر هتلر، وسوف يصب جام غضبه عليهم، وليس هناك غيركم من يمكنه منع ذلك». والآن بعد أن انتهى الأمر، شعر بتحسن كبير. لم يكن بوسعه سوى أن يحذر الدانماركيين فقط، فهو لا يستطيع أن يوقف أتباعه النازيين.

سأله هيدتوفت: «ماذا عنك؟».

«هانز... أنا ما زلت ألمانيّاً وشخصاً مسؤولاً. سأفعل ما أؤمن به وما يجب القيام به». لقد سار في الطريق الوحيد المتاح أمامه والذي يمكنه من منع الظلم عن إخوانه من البشر. ومن أجل ذلك، انخرط في مغامرة لم تكن نتائجها مرئية، وأعرب عن أمله في أن مشاركته هذه، ولو بجزء بسيط، سيساعد على تجنب وقوع الظلم، أو حدوث ما هو أسوأ.

كان هيدتوفت قد تعرف على دوكفيتز قبل الحرب. كان يعلم أن هذا الرجل الألماني كان صادقاً عندما أخبرهم عن الخطر؛ كان من المفترض أن تتمّ ملاحقة اليهود في جميع أنحاء الدانمارك، وتدمير وجودهم الاقتصادي وتهجير عوائلهم، وربما إبادتهم. بالنسبة لخطة العمل التي تمّ استعراضها بعناية، فقد فات الأوان. كان عليهم أن يفعلوا ما كان متاحاً لاتخاذ إجراء فوري، ولم يكن أمامهم سوى يوم واحد للقيام بردّ الفعل.

قال هانسن: «لم يعد أمامنا وقت كافٍ».

أجابه هيدتوفت «لا زال بإمكاننا أن نفعل شيئاً ما». حتى قبل أن يقول ذلك، أدرك أنّه لكي ينجح الأمر، كان عليهم الاعتماد على كلّ مصدر خفي متاح لهم، مثل حركة المقاومة، والكنيسة، والأهم من ذلك، زملاؤهم الدانماركيون. لقد اضطروا إلى التحرك بسرعة قبل أن يقوم جهاز الغستابو اللعين بتنفيذ عمله. تفرق الرجال. كان على كلّ منهم اختيار قطاع منفصل من المدينة لاتخاذ الإجراءات المناسبة.

قال هيدتوف لدى مغادرته: «إذا وقعنا في قبضة...» ثم توقف عند منتصف الجملة «... هيّا، دعنا نتحرك، ليس لدينا الكثير من الوقت...».

كانت عيونهم مثبتة في الشوارع المظلمة في الخارج. كانت الليلة تعد بأن تكون مزدحمة. قام الأشخاص الأربعة بعدد من التوقفات في جميع أنحاء المدينة. كانت رسالتهم إلى قادة مجلس الحرية والحركة الطلابية واضحة: «توجهوا إلى اليهود واطلبوا منهم المغادرة فوراً إلى السويد». لم يجرؤوا على إخبارهم أكثر من ذلك، أو من أين جاءت تلك

المعلومات. إنها لحقيقة مدهشة، وربما فريدة من نوعها في تاريخ أيّ حركة مقاومة في الحرب العالمية الثانية، أنّه لم يحدث هناك أيّ تسريب للمعلومات، وأن مخططهم لم يتعرض للخيانة أبداً ويتمّ كشفه لجهاز الغستابو اللعين. كان الأمر يستدعي القيام بإجراءات سريعة. لحسن الحظ، كان معظم اليهود يتركزون في العاصمة كوبنهاغن وما حولها، حيث عاشت 1673 أسرة بشكل متجاور. من المعروف أن ثلاثاً وثلاثين عائلة فقط كانت تعيش خارج العاصمة، وكانت منتشرة في العديد من الجزر الدانماركية. إضافة إلى هذا العدد، كان هناك 1208 عائلة يهودية أخرى، فرّت من ألمانيا بعد وصول هتلر إلى السلطة واستقرت في الدانمارك. لم يكن عملاء الغستابو يعرفون دائماً مكان إقامتهم لأن الهاربين من ألمانيا النازية بذلوا قصارى جهدهم للاندماج والذوبان في البيئة المحلية خوفاً من اكتشاف أمرهم.

لكن من هو الذي يكون قادراً على تنظيم هروب ما يقرب من 8000 رجل وامرأة وطفل؟ كانت الحكومة الدانماركية وحتى حلول شهر آب 1943 ملتزمة بشكل صارم بـ«سياستها للتعاون مع المحتلين» في مقابل السماح لها بإدارة بلدها، كما وعدها هتلر في 9 نيسان 1940. ولكن هذا لم يمنع الدانماركيين من إيجاد وسائل لمعارضة المحتل. جعلت حركات المقاومة وجودها محسوساً، من خلال منظمات مثل هولغه تانسكه، وبوبا[12] ودانسك سفينسك لخدمة اللاجئين (والتي ساعدت في عمليات الهروب) أو (شبكة استخبارات الطلاب). كانت المنظمات

12- كانت منظمة هولغه تانسكه، التي تمّت تسميتها على اسم بطل الدانمارك، هي مجموعة قومية أنشأها توم سوندرغارد وهو مقاتل مخضرم في الحرب الفنلندية الروسية. أسست منظمة بوبا من قبل أعضاء سابقين في اللواء الأممي الذي شارك في الحرب الأهلية الإسبانية. بدأت شبكة الطلاب أولى نشاطاتها على يد آرني سير، وهو تلميذ يبلغ من العمر 17 عاماً؛ ثم شملت في وقت لاحق العديد من المثقفين والكتّاب. جميع تلك الجماعات كانت نشطة في أعمال التخريب، وجمع المعلومات وطباعة المنشورات غير القانونية.

السرية تستخدم بشكل رئيس لتهريب الطيارين البريطانيين الذين تسقط طياراتهم في الأراضي الدانماركية إلى السويد. لقد توصلوا إلى إنشاء نظام تهريب عملي تحايل بذكاء على الدوريات البحرية الألمانية. لكن كلّ مهامهم كانت عمليات بسيطة نسبيّاً، تضم اثنين أو ثلاثة من الطيارين البريطانيين في وقت واحد. ما طلب منهم الآن القيام به هو ببساطة أمر ضخم: نقل 8000 شخص إلى برّ الأمان!

فجأة أصبحت البلاد كلّها كأنّها خلية نحل؛ وصلت مساعدات قيمة من العديد من المصادر غير المتوقعة: الموظفون المدنيون الدانماركيون، الذين التزموا دائماً بسياسة التعاون الشكلي لحكومتهم؛ ومديرو السكك الحديدية وضباط الجمارك وشرطة كوبنهاغن، الذين لم يعودوا يمضون وقتهم في اعتقال السكارى، بل بدؤوا يطرقون الأبواب بدلاً من ذلك لتحذير السكان اليهود الذين يواجهون الخطر يستدلون على أماكن سكناهم من سجلات الشرطة. حتى المهربون السيئو السمعة، الذي كان مصدر رزقهم هو تهريب السجائر والنبيذ من السويد بزوارقهم السريعة، شاركوا في الأمر. كان الكثير من ذلك يرجع إلى حقيقة أن هتلر تجرأ في آب على أن يمسّ شخصاً مقدساًعندهم وهو ملكهم، كريستيان العاشر. ففي حين هربت الأسر الملكية الأخرى، بقي الملك الدانماركي وعائلته معهم، وبقي شعب الدانمارك ببساطة يعبده لهذا السبب.

بينما كان أفراد المقاومة الدانماركية يقودون دراجاتهم الهوائية لإبلاغ السكان اليهود، واصل دوكفيتز المجازفة بسلامته الشخصية[13]. وقام بدعوة قائد الميناء الألماني في قطاع كوبنهاغن، ملازم البحرية

13- لا يبدو أن جميع الدانماركيين يتفقون على ذلك حتى يومنا هذا. فقد كتب هنريك لونباك مساعد مدير متحف الحرية في الدانمارك، ملاحظة إلى المؤلف يقول فيها: أعتقد أن معظم الناس سوف يتفقون على أن بست كان على علم بدرجة ما بما كان دوكفيتز يفعله. هذا لا يجعل المبادرة التي اتخذها دوكفيتز لا تستحق الثناء من وجهة نظر أخلاقية، لكنني أشك فيما إذا كانت تنطوي على أيّ مخاطر كبيرة فيما يتعلق بسلامته الشخصية.

القبطان كاممان، إلى مأدبة عشاء خاصة. كان هذا الشخص زميلاً سابقاً آخر لدوكفيتز، كان يعمل خلال سنوات ما بين الحرب في خط هامبورغ - أمريكا نفسه مثل دوكفيتز. وكونه ضابطاً في البحرية الإمبراطورية الألمانية القديمة، ومثل الكثيرين من الضباط، تربى على تقاليد البحرية الإمبراطورية وكان يرفض أداء التحية النازية، أصبح كاممان حينها المسؤول عن الزوارق الرمادية الأنيقة التي أطلق عليها الألمان اسم شنيلبوت أي الزوارق السريعة بالألمانية، بسبب محركاتها القوية وسرعتها العالية، المصممة لملاحقة دوريات العدوّ أو سفنه الحربية، وتقوم بقصفها بطوربيداتها قبل أن تنطلق هاربة بسرعة كبيرة. لكن يمكن استخدامها أيضاً لمنع الزوارق الصغيرة، مثل السفن التي تحمل الطيارين التابعين لسلاح الجوّ الملكي البريطاني ممن أسقطت طائراتهم، من الوصول إلى المياه السويدية. ويمكنها بواسطة مقدمتها الفولاذية القوية، أن تشق القارب الخشبي إلى نصفين وترسله إلى قاع البحر. كان التأثير النفسي لرؤيتها وهي تقبع في ميناء كوبنهاغن يشكل رادعاً كافياً لثني العديد من قباطنة سفن الصيد عن القيام بمحاولات تهريب مستحيلة. في بداية حديثهم، أثبت كاممان أنّه متردد. «عزيزي جورج، الحرب هي جنون مؤسف، والموت جزء ثابت منها. بالطبع، سيكون هناك دائماً قتل في الحرب، مع وجود سببين متعارضين تماماً يؤمن كلّ جانب بواحد منهما. إذا كنت تعتقد أن ما تفعله هو الصواب، فعندئذٍ يكون تصرفك بلا ذنب مثل فعل جندي يخوض حرباً، وهو يعتقد أن ما يفعله هو في سبيل قضية عادلة. لكنك شاركت في حملة صليبية يائسة».

أنا لا أدين جنديّاً لأنّه قتل في المعركة. لكن قتل اليهود ليس حرباً. إنّه مجرد قتل. لقد نجح دوكفيتز في النهاية في الظفر بملازم البحرية القائد كاممان ليقف إلى جانبه. عشية ليلة (الهروب الكبير)، تمّ وضع أسراب من زوارق الشنيلبوت في أرصفة الميناء، تمّ تجريد العديد منها من محركاتها

من أجل إصلاحها.[14] وبذلك أدّى تدخل دوكفيتز الشخصي إلى إزالة خطر آخر، وإذا كان قد اعتبر أن نتائج محادثاته مع مساعد الجنرال فون هانيكن كانت سلبية، فقد كان هناك شيء واحد مؤكد: لم تقم قوات الجيش بالتفتيش في الحافلات والقطارات التي كانت تحمل مئات العائلات اليهودية، التي كان أفرادها يجلسون مرعوبين فوق حقائبهم في مقصورات القطار المكتظة بالبشر. ومع ذلك، تمّ نقل معظم اللاجئين إلى نقاط المغادرة بواسطة جميع أنواع السيارات، أو الدراجات الهوائية أو مشياً على الأقدام. لا يمكن أن يتخيل المرء أن مراقبي السواحل من الجيش الألماني قد تغاضوا عن هذا النشاط المحموم المستمر الذي كان يجري أمام أعينهم. ومع ذلك، كلّما استدعى واجب مراقبي السواحل أن يتصلوا ليبلغوا عن «نشاط كثيف يجري في جزيرة أوريسند»، لم يكن ضباطهم يتابعون تقاريرهم؛ باستثناء بعض الحوادث المنفردة، لم يفعل الجيش شيئاً للتدخل في إيقاف عملية النزوح الجماعي. لم يخفِ جزء كبير من فئة ضباط الجيش أبداً اشمئزازهم من المعاملة اللاإنسانية والإعدامات الجماعية التي نفذتها بحق اليهود القيادات الأمنية لقوات الأمن الخاصة في بولندا وأوكرانيا. ومع ذلك، فإنّ هذا لم يمنع قوات أخرى من الجيش نفسه من المشاركة في الأعمال الوحشية في أوروبا الشرقية.

حتى حلول يوم 29 آب 1943، وهو اليوم الذي غيّر فيه النازيون وضعيتهم القانونية وأصبحوا محتلين رسميين للدانمارك، كان أفراد الغستابو في الدانمارك يتصرفون فقط «بصفة استشارية»، ومن الناحية النظرية دون ولاية قضائية. لم يتمكنوا من الحصول على أدلة أو اعتقال أو احتجاز سجناء في منطقة التعاون الدانمركية، التي وافق عليها هتلر في عام 1940 إلّا إذا تمّ تسليم هؤلاء السجناء عن طيب خاطر من قبل الدانماركيين

14- بعد انتهاء الحرب، اتصل باحث يهودي بوزارة الخارجية في بون لإثبات تواطؤ ضباط البحرية الألمانية في قضية إصلاح زوارق شنيلبوت الغامضة، ولكن كلّ الأوامر قد صدرت شفهياً ولم يتمّ ترك أيّ مستندات تثبت خلاف ذلك. وينطبق الشيء نفسه على تقاعس الجيش الألماني عن التحرك نحو القطارات الدانماركية.

الذين لم يفعلوا ذلك أبداً. لذلك تنكر أفراد الغستابو في هيئة أشخاص دانماركيين لأداء عملهم القذر. وكان أبرز ضحاياهم كاج مونك، وهو كاهن ومؤلف مشهور. تمّ العثور عليه وهو يرقد في بركة من الدماء وسط مجموعة من شتلات الصنوبر بجوار طريق ريفي بالقرب من قرية بوروفيد في 3 كانون الثاني1944. وفي محاولة لإلصاق جريمة القتل بفصائل المقاومة الدانماركية، تركوا ملاحظة كتبت بسرعة على سترته تقول: «أيها الخنزير كنت دائماً تعمل لصالح الألمان». ما كشف أمر الكتابة، أن جزءاً منها كان مكتوباً بأحرف قوطية والتي لم يتعلمها أيّ دانماركي في المدرسة! وصلت الشرطة الدانماركية إلى مكان الحادث واكتشفت على الفور تقريباً هوية العصابة القاتلة، ولكن بعد ذلك صدرت الأوامر لها لتقييد قضية مونك بكونه «ضحية لإطلاق نار من قبل جهات مجهولة».[15]

وجدت الدانمارك في الكاهن كاج مونك رمزاً لشهدائها. لكن في قضية «الحل النهائي للمسألة اليهودية»، كان الغستابو ومخبروه من الدانماركيين الخونة غافلين، وظلّوا يجهلون أن خطتهم قد تمّ اختراقها من الداخل! فقد أثبت دوكفيتز من خلال مثاله أنّه كان من الممكن الجمع بين القيم الثقافية والوطنية الموروثة، وفي الوقت نفسه، منع تنفيذ أعمال الإبادة الهمجية. ومن خلال سلوكه الشجاع، ساعد في تجنب حدوث مأساة كبيرة كانت هناك أمثلة لا حصر لها لحدوثها في جميع أنحاء أوروبا التي كانت تعاني من وطأة الاحتلال النازي. أصبح الأمر الآن متروكاً للدانماركيين، وقد استجابوا كأمة واحدة لمساعدة من هم في خطر. الديمقراطية الإنسانية صمدت أمام اختبارها. لذلك، فإنّ العالم الحرّ يتذكرهم.

وصل الإنذار الأول إلى عدد كبير من أبناء الجالية اليهودية في

15- الأربعة الذين تمّ تحديدهم على أنّهم قتلة هم: أوتو شفيردت زعيم العصابة وهو عنصر من قوات أس. أس. وكان لديه اسم مستعار هو بيتر شيفر، وهاينريش سوهلين، ولويس نيبل (وهو شخص سويسري وعضو سابق في مجموعة العصابات الأمريكية) وكورت كارستينسن وهو عنصر من قوات أس. أس. وقد قتل العضو الخامس في المجموعة في روسيا.

كوبنهاغن صباح يوم 29 أيلول. اجتمع أفراد الطائفة اليهودية في كوبنهاغن، التي كانت لا تزال تجهل الصاعقة التي توشك أن تنزل على رؤوسهم، في صباح ذلك اليوم في الكنيس اليهودي استعداداً للاحتفال السنوي بعيد رأس السنة العبرية روش هاشناه قبل لحظات من بدء الشعائر الدينية أخذ كبير الحاخامات ماركوس ميلشيور رؤساء طائفته جانباً قائلاً لهم: «أخبروا كلّ شخص تثقون به أن يخرج أسرته من الشقة ويختبئ مع جاره». وخلال إقامة الشعائر، كانت رسالته تنتقل همساً من أذن إلى أخرى. في غضون ساعات قليلة، وصلت رسالة الحاخام ميلشيور إلى معظم أفراد الجالية اليهودية في كوبنهاغن. كانت المشكلة هي كيفية توصيل الرسالة إلى إخوانهم في الريف. حلّت الكنيسة اللوثرية الدانماركية المشكلة: هرع القساوسة المحليون وقد تمّ إخطارهم عبر الهاتف من أبرشياتهم، ليتوجهوا إلى القرى النائية على دراجاتهم، محذرين اليهود من اعتقالاتهم الوشيكة. بالنسبة للدانماركيين لم يكن هناك تمييز بين المسيحيين واليهود. كانوا جميعاً دانماركيين وكانوا كلّهم إخوة. كان إخفاؤهم شيئاً، وجعلهم يفلتون بجلودهم شيئاً آخر.

في الساعات الأولى من يوم 2 تشرين الأول، بدا الأمر كما لو كان أفراد شرطة الأمن الخاصة بهتلر حاضرين في كلّ ركن من أركان كوبنهاغن: رجال شرطة ألمان بالزيّ الرسمي يسيرون على الأقدام، وعملاء الغستابو في السيارات السوداء، يتجولون في شوارع مهجورة في مدينة مظلمة. أينما ظهر ضابط شرطة ألماني في مدخل مبنى سكني يضم عائلة يهودية، بذل الدانماركيون كلّ جهد ممكن لتحويل انتباه الألمان من أجل منح مواطنيهم في العيش المشترك فرصة جيدة للهروب من الدرج الخلفي. عندما كان يجد العملاء شققاً مهجورة، كان الجيران يقدمون أيّ عذر يبدو معقولاً: لقد أصيب طفل العائلة المجاورة بمرض الحصبة ونُقل إلى المستشفى. أيّ مستشفى؟ لم يكن جيرانهم يعرفون. كانت ربات البيوت، وقد توهجن بالجرأة الأنثوية، يظهرن ازدراءهن التام للألمان. وحين لم يكن هناك أحد

مجرمي الغستابو إلى جانبهم، فإنّ أفراد الشرطة الشباب كانوا في كثير من الأحيان يعبرون عن إعجابهم بشجاعة النساء ويوقفون عمليات التفتيش. وفي لحظة عابرة كانت تلفت انتباههم صورة مؤطرة موضوعة على الحائط، لزوجين سعيدين في نزهة يوم الأحد، قبل أن يغادروا وهم يهزون أكتافهم.

انتشر في جميع أنحاء البلاد اتفاق ضمنيّ لمواجهة أيّ شيء تنبعث منه رائحة الغستابو. كان الكهنة والمزارعون يخبئون اليهود في منازلهم، وفي العليات، وصوامع الحبوب، وحظائر التبن. امتلأت المستشفيات فجأة بكامل قدرتها الاستيعابية. ضمّ مستشفى بيسبيرغيا في كوبنهاغن وحده أكثر من 2000 يهودي؛ استقبلهم الدكتور ريتشارد إيج وزوجته، كانوا مختبئين في أجنحة الحجر الصحي، وفي مساكن الممرضات، وحتى في المشرحة. أعطت المخططات الطبية التي على الأسرة أسماء غير يهودية للمرضى مثل مولر أو هانسن أو جينسن ارتفع الطلب على دخول المكتبات فجأة؛ كان أحد مراكز الإرسال الرئيسة هو مكتبة نورديسك في كوبنهاغن، حيث كانت مجموعة المقاومة هولغر دانسكه تقوم بنقل اليهود إلى أماكن مختلفة من أجل ترحيلهم.

ومع ذلك فقد حدث أن بعض اليهود لم يمكن الوصول إليهم في الوقت المناسب. كانت كريستين تالفارد امرأة لوثرية. لكن بما أنّها كانت متزوجة من رافي سيليغمان الذي كان قد رحل مع امرأة أخرى قبل سنوات فقد اعتبرت هي والابن الذي أنجبته من رافي يهوديين. كانت تعمل نادلة في مقهى وتستأجر غرفة من رجل أرمل يبلغ من العمر 69 عاماً. كانت في العمل عندما جاء الرجل الأرمل وأمرها بالعودة إلى المنزل على الفور. لسنوات طوال، كان يعتبر كريستين وابنها البالغ من العمر خمس سنوات عائلته الخاصة.

قال لها: «يجب أن تكوني قد غادرت الدانمارك منذ فترة طويلة»، وأضاف والدموع في عينيه، وهو يحتضن المرأة وصبيّها، «لكن الآن يجب عليكما أن ترحلا»، ثم وضع حفنة من الأوراق النقدية في جيبها.

«خذي هذه، هذا كلّ ما أملك أن أقدمه» بمجرد مغادرتهما للمنزل، دفن وجهه في يديه وبدأ يبكي. بعد ثلاثين دقيقة سمع ضربة على الباب. كان رجال شرطة الأمن الألمان.

«لديك امرأة يهودية تعيش هنا. يجب أن نتحدث معها».

أجابهم الأرمل العجوز: «إنها ليست هنا»، وقد فوجئوا بمظهره الهادئ. لم يبحث أفراد الشرطة كثيراً، كما لو كانوا يشعرون بالارتياح لأنّهم لم يضطروا إلى اعتقال امرأة وطفلها. بعد مرور اثنتي عشرة ساعة، كانت كريستين وصبيها الصغير في طريقهما إلى السويد.

أمّا أولئك الذين ساعدوا اليهود في تسهيل هروبهم فكانوا من مختلف الفئات الاجتماعية والمهن. كان أحدهم ليف هينديل والذي كان يعمل محرراً في أكسترا بلادت وهي أكبر صحيفة يومية في الدانمارك، واستطاع بمساعدة شرطي محلي، كان يراقب دوريات الألمان، من تأمين طريق هروب فعال من قرية سنيكيرستين شمال كوبنهاغن، إلى جزيرة فين في السويد؛ وبدأ زورق سويدي، يطلق عليه اسم يوليوس، يملكه إريك ماركس، وهو شخص يهودي من مدينة غوتنبورغ يقلّ الهاربين وينقلهم إلى السويد. تمّ التعامل مع أحد مسارات الهروب من قبل شخصية ظريفة أخرى هو، يوهانس يوهانسن، وكان أحد كبار موظفي أكبر مصنع للجعة في الدانمارك وهو توبورغ، الواقع في منطقة هيليروب. لقد كان هذا الدانماركي المرح ذو الكرش ونظرات مدير المدرسة أحد المنظمين الرئيسين لعملية الهجرة. منذ الغزو الألماني في عام 1940، كان هذا الملكي الشجاع قد أقام طريقاً للهروب، تحسباً لما قد يجعله يضطر في يوم ما لأن يقوم بعملية إنقاذ لملكه. والآن أتيحت له الفرصة لوضع خطته موضع التنفيذ.

عندما سأله هنريك كرافت مدير مصنع توبورغ: «هل يمكنك العثور على قائد سفينة يمكنه نقل بعض الناس إلى السويد، بدون أن يثير الشبهات؟» أومأ برأسه.

«أرسل جماعتك وسأنقلهم».

منذ الأيـام الأولـى من شهر تشرين الأول عام 1943، استقبلت مستودعات مصنع توبورغ للبيرة تدفقاً غير عادي من الزوار؛ تمّ تزويد البالغين بالزيّ الرسمي للعمال وساعدوا في حمل صناديق من البيرة خلف حراس المرفأ الألمان ووضعها على متن السفن. تمّ نقل الأطفال في مجموعات رياض الأطفال ليصعدوا على متن السفينة «لإلقاء نظرة على آلية عمل السفينة». كانت سفن يوهانسن تنقل البيرة من منطقة هيليروب إلى جزيرة جوتلاند، واليهود من جوتلاند إلى المياه السويدية. في طريقه لنقل البيرة واليهود على المساعدة بشكل لاإرادي بسبب مشاجرة بين اثنين من قائدي الميناء الألمان حول مسألة القيادة. استغل يوهانسن هذا الوضع ليخبر أحد الألمان أن الآخر كان قد فتش بالفعل سفينته. قامت سفن البيرة الخاصة به، التي كانت تنطلق من ميناءي غرينا وسيبي في جوتلاند، بجولة لتفريغ اليهود على البئر الرملية في جزيرة فين، المتداخلة مع خط مياه أوريسند الإقليمي الذي يفصل بين منطقة هورشولم (الدانمارك) ولاندسكرونا (السويد).

سرعان ما أصبحت جزيرة فين تكتسي مظهر مخيم لقضاء العطلات على شاطئ البحر. وصل العديد من العائلات اليهودية بأمان بفضل طريق توبورغ الذي أقامه يوهانسن مسؤول الميناء. كانت هناك طريقة أخرى مبدعة تتمثل في قارب إمداد تجهيزات مكافحة الحريق في مثل قارب غيردا الذي انطلق من مدينة غيدسر، متوجهاً إلى غيدسر فايرسكيب، وهو برج ضوء عائم يمثل المدخل الجنوبي لبحر البلطيق. لم يتمّ تحميل الخبز والخضروات فقط على متن القارب، أثناء ما كان ربانه يلوح بالمرور إلى سفينة الدورية الألمانية الموجودة خارج الميناء، ولكن كانت هناك حمولة من اليهود، ممددين على بطونهم تحت قطعة من القماش المشمع الزيتي. كان أقصر طريق يوصل من الدانمارك إلى السويد هو الذي يبدأ من بلدة إلسينور التي تحوي قلعة كرونبورغ التي اشتهرت بمسرحية هاملت إلى بلدة هيلسينجبورغ؛ وكانت هناك نقاط

انطلاق أخرى من مدن لوند ودراغوروكيليلاي وبويسكوف وموزيد في جزيرة زيلاند أو من جزر سامسو ومون وفالستر والمتجهة نحو مدن ليمهامن وإيستاد ومالمو وتريليبورغ.

لعب الصيادون دوراً حاسماً في هذه القضية. تمّ دفع أجور لبعضهم، وكثير منهم لم يأخذ أجراً. لم يكن هذا عملاً لنقل المسافرين، لقد كان جهداً إنسانيّاً خطيراً للغاية لإنقاذ الأرواح، ودفع اليهود الأثرياء ثمن وقود الديزل لأشقائهم الأشد فقراً. كان هناك طريق سالك يمتد من كوبنهاغن إلى مالمو عبر اللسان الرملي الممتد بعيداً عن شاطئ جزيرة سالتهولم[16] كان ينتظر على رصيف صغير خارج كوبنهاغن مجموعة مؤلفة من ستة أفراد وعائلتين مع أطفالهم. كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يميزهم عن الدانماركيين الآخرين هو بطاقات الهوية الخاصة بهم - لم تكن أسماؤهم جنسن أو بولسن، ولكن ستيرن وبوزنر. كانوا جميعاً دانماركيين بالولادة. كان لورينز ستيرن مصدراً للماشية وكان ديفيد بوزنر يمتلك متجراً للملابس في المدينة. وبسبب تعقب عناصر الغستابو لها، هربت العائلات إلى مستشفى بيسبيجيرغ حيث اختبأت في المشرحة. قبل وقت قصير من حلول الظلام، تمّ إخبارهم بوجوب أن يستقلوا الحافلة المتوجهة إلى جزيرة أماغر؛ حيث يلتقيهم طالب مراهق في محطة للحافلات. قامت حركة الطلاب السرية بعملها بشكل جيد. بعد ذلك بوقت قصير، تهادى قارب نحو الشاطئ في المكان المحدد الذي تمّ إخبارهم به. لقد أصيبوا بصدمة عندما تبين أنّه زورق صغير، لدرجة أنّهم أصبحوا على يقين من أن رحلتهم وسط هذا التيار الغادر في جزيرة أوريسند. سحب القارب رجلان يرتديان معطفاً يناسب جميع الأحوال الجوية.

«كم عددكم؟».

أجاب الأب ستيرن: «ستة».

16- في عام 2001، تمّ افتتاح جسر عملاق يربط بين الدانمارك والسويد في ذلك المكان.

«ستة؟ قيل لنا أربعة». هزّ كتفيه وقال: «حسناً، اصعدوا»، ولوّح لهم، ثم أوقفهم عندما رأى الطرود التي كانوا يحملونها. وأمرهم قائلاً: «اتركوا هذه».

كالعادة، كان اللاجئون يحملون دائماً ما يعتقدون أنّهم لا يستطيعون الاستغناء عنه، مثل الصور العائلية والتذكارات الأخرى العديمة الفائدة. ما كان على المحك هي أرواحهم، وليس التذكارات. سيكونون ثمانية على متن قارب يحمل عادة شخصين مع أدوات صيد الأسماك: كنود راسموسين، وبنغت بولسن، مع ثلاثة أشخاص من عائلة ستيرن وثلاثة من عائلة بوزنر.

قام بنغت بتثبيت نفسه بواسطة مجموعة من المجاذيف، بينما دفع كنود القارب من الشاطئ الضحل لمسافة طولها قصبة (وحدة لقياس الطول تساوي 5 ½ ياردات - م). جلس اللاجئون في أسفل القارب الصغير وسط المياه التي كانت تتأرجح بشكل خطير بالقرب من الحافة العلوية لجسم القارب، مثل العصافير المذعورة الواقعة في الشرك. تركوا بصمت الدانمارك ومنازلهم وممتلكاتهم وذكرياتهم. سحب الصيادون المجاذيف وخرجت أنفاسهم على شكل شهقات قوية، وسرعان ما غمر العرق أجسادهم بسبب المجهود الذي بذلوه.

جلس الصبي يوليوس بوزنر، الذي بلغ لتوّه التاسعة من عمره، بين مقعدي المجدف في قاع المركب، كان لديه انطباع بأنّهم كانوا متوجهين مباشرة ليبتلعهم فم كبير لحوت متوحش. على بعد بضع مئات من الأمتار من الشاطئ، ضربتهم الأمواج المتلاطمة. قام كنود وبنغت بقيادة القارب بعناية ليصلا به إلى الحافة العالية للتيار، حيث كانا يجدفانه ببطء إلى الأمام. كانت هناك موجة كبيرة تطاردهم. اصطدمت مؤخرة القارب بقاعدة الموجة بينما تمّ دفعه للأمام بقوة العضلات الهائلة لتحييد سرعة البحر المندفع. تمّ رفع القارب، ثم وقف للحظات ثابتاً على ذروة القمة بينما مرّت الموجة من تحته.

تمكن البحاران الدانماركيان وكانا من ذوي الخبرة، اللذان كانا

يدفعان مجاذيفهما بقوة كبيرة، من تحاشي تعرضهم للضربة الجانبية للموجة والتي كانت ستقلبهم. بعد الموجة الكبيرة جاءت سلسلة من موجات الدوامة، كانت أصغر بكثير وكان التعامل معها أسهل. انحنى كلا الرجلين على المجاذيف وبعد بذل جهد عظيم توجها مباشرة بالقارب ليصبح وسط الظلام. حمل المزيد من الأمواج القارب في المياه العميقة، لكنها من ناحية أخرى دفعت بالمياه إلى داخل القارب، وبلّلت اللاجئين. ومع تقدمهم داخل البحر كانت تندفع نحوهم المياه أكثر من مرة وبسرعة كبيرة بسبب التيارات المندفعة من تحت الماء.

ورغم ما بدا للهاربين أنّه مثل يوم القيامة، فإنّ كنود وبنغت كانا يجدفان في انسجام تام، كانت عضلاتهم تتوتر في حركات متناوبة، شدّوا المجاذيف، بينما كان عرقهم يتصبب على أذرعهم ويغمر عيونهم. أصاب الصبي يوليوس دوار البحر، وبالتالي لم يعد يعاني من التفكير بالحوت الوحش. جاهد وهو يفتح عينيه إلى أقصى حدودهما ليحاول أن يرى شيئاً في ذلك الظلام الذي يرفض أن يتزحزح. كان يبحث يائساً عن إشارة إلى أن الأمواج ستتوقف عن التلاعب بقاربهم وسيتوقف عن الصعود والهبوط. فجأة تمكنوا من رؤية خيوط الفجر تتسلّل من فوق حوت طويل؛ كلّا، لم يكن حوتاً، بل شريط من الرمال يشبه سنام الحوت! مع آخر سحب للمجاذيف، وصل القارب إلى المياه الساكنة وانجرف للتوقف على الشاطئ الرملي لجزيرة سالتهولم. قام المجدفان بإخراج المجاذيف من القارب ثم واصلا شدّ وإرخاء قبضاتهم المتعبة بينما قفز اللاجئون من القارب ليخوضوا في المياه حتى ركبهم للمساعدة في جرّ القارب نحو الشاطئ. سيقضي الصيادان بضع ساعات يستريحان، ثم يعودان إلى الدانمارك، وسيسحبان وراءهما ثعبان البحر حتى لا يثيرا الشك. كان الأمر مختلفاً بالنسبة للاجئين، كان يغلب عليهم شعور بفرحة شديدة. فكان الشاب يوليوس يشعر بالفرح، لأن وحش البحر لم يبتلعه، ووالديه، لأنهم استطاعوا

الهروب والنجاة من هتلر وأتباعه ذوي الملابس السوداء. أمّا الحنين إلى الوطن فسوف يأتي في وقت لاحق.

وصلت مجموعة تضم عشرين يهوديّاً إلى محطة السكك الحديدية في مدينة ناسكوف في جزيرة لولاند؛ وبأيد متوترة مرروا العملات المعدنية من خلال نوافذ التذاكر. لم يطلب موظف التذاكر أيّ إخطار منهم ولا طلب تصريح سفر من السلطات. كانوا ينتظرون بقلق وصول القطار عندما ظهر شرطيان عسكريان ألمانيان؛ إلّا أن هذين الشرطيين كانا مهتمين فقط بالتحقق من أوراق الجنود الألمان المغادرين في إجازة لزيارة الوطن. مع وصول القطار، عبر اليهود المنصة مع حشد من الركاب وصعدوا على متن القطار. لم تعر دورية الجيش الألماني الموجودة على متن القطار اهتماماً بهم ولم تلتفت إليهم ولو لثانية واحدة.

كانت منطقة سكودهافن في كوبنهاغن هي مكان المغادرة. ذهب العديد من اليهود إلى هناك لإيجاد قارب. تجولت كريستين تالفارد سيليغمان هناك مع طفلها. لم تكن غنية مثل العديد من اللاجئين الآخرين؛ لم يكن لديها سوى القليل من المال الذي قدمه لها الرجل العجوز. واجهت صياداً ملتحياً وهي ترتجف من الخوف على طفلها.

قال لها بصوت هادئ: «هل أنت في مأمن» وقد خفّف كلامه من مخاوفها. في تلك الليلة، أخذ كيرت نيلسن الصياد من بلدة كاستروب معه في رحلته بالقارب 926 ثمانية يهود إلى السويد.

لم تكن المسافة بين مدينتي كوبنهاغن ومالمو كبيرة لدرجة يتعذر القيام بها في ليلة واحدة؛ ومع ذلك، كان على المغادرين من الجزر إلى أسفل بحر البلطيق، مواجهة رحلة مروعة للغاية. تمّ تحذير ماكس تيشمان عندما دخل مكتبه للمحاماة في فالستر من أن عناصر الغستابو كانوا على وشك إلقاء القبض عليه. تمكن من الاتصال بزوجته توفا في بلدة أديستروب، التي تقع على بعد أربعة أميال (6.4 كم) من مكتبه، وطلب منها أن تذهب هي والأولاد إلى ستوبيكوبينغ، وهو ميناء صغير لصيد

الأسماك كانوا يقضون فيه معظم فصل الصيف يستمتعون بمياه البحر. بينما كان يتجول على دراجته في مدينة نيكوبينغ، كان يأمل أن تتمكن توفا وطفلاهما بالفعل من الوصول إلى أحد أصدقائه من مسؤولي الميناء. في الواقع، فإنّ توفا تحاشت المرور هي والأطفال عبر حاجز طريق ألماني؛ أخذت الأطفال عبر غابة كورسليتز، التي أضافت أميالاً إلى مسار طريقهم. كانت أجواء الغابة الكثيفة بشجر بلوطها الرائع تشبه حقبة زمنية تعود إلى زمن الفايكنغ، مع دولميناتها (طاولات حجرية ضخمة مكونة من الصخور الصوانية الكبيرة تمثل المقابر – م) الجنائزية، وهي تذكير دائم بالفترة المجيدة عندما كانت القبائل الشمالية سيدة البحار. لكن توفا لم تكن مهتمة بالتاريخ الاسكندنافي فقد كان أطفالها على وشك أن يفقدوا القدرة على التحمل والمطاولَة. كان الأطفال متعبين جدّاً بحيث لم يشعروا بالخوف. وشعرت أن هذا الأمر في حدّ ذاته بمثابة تعويض لها عن الإرهاق الذي تشعر به. وصلوا إلى كوخ فورستر حيث أعطت زوجته الأطفال الحليب وشرائح سميكة من الخبز بالزبدة. والأكثر من أيّ شيء آخر، أنّها أعطتهم الأمل في أن هناك شخصاً يهتمّ بهم. أرسلت ابنها البالغ من العمر أربعة عشر عاماً إلى مكتب مدير الميناء. لم يندهش فيغو أندرسن من الأخبار التي سمعها؛ فقد سبق للقسيس أن حذره قبل ساعات قليلة. بعد بضع ساعات، عند نزوله من عبارة بودو، امتلأ مكتبه فجأة بعشرين يهوديّاً من كوبنهاغن.

كان الدانماركيون أناساً أقوياء وذوي نظرة ثاقبة وصريحين. فإن أردت شراء شيء من أحد الدانماركيين، وساومته على السعر، سيجيبك بـ «نعم» أو «لا». دون أن يدخل معك في نقاش عقيم. فهذا الأمر لا يستسيغه أحد في الدانمارك. ذهب فيغو أندرسن إلى الميناء الصغير. كان الرجل الذي يتحدث معه له هيئة صياد وكان يعرف ما الذي يدور حوله. كان أوتو سيلو يقف بجانب مركبه الصغير القديم الذي كان متهرئاً نوعاً ما ولكنه كان صالحاً للإبحار.

«أوتو، لقد أصبح الوضع خطيراً» الألمان يلاحقون اليهود. هل يمكنك أن تنقل بعضهم؟ بعد حلول الظلام؟

«أنقلهم؟» كانت هذه الكلمة تعني للدانماركيين، في زمن الحرب، السويد دائماً.

«نعم».

«إنّها رحلة طويلة. سأحتاج إلى بعض من وقود الديزل».

قال فيغو أندرسن: «سيكون لديك». لقد أعطاه الأثرياء من اليهود المال لشراء الوقود من السوق السوداء. «قابلني في الساعة الثامنة في موقف العبّارات في غرونسوند».

أومأ أوتو برأسه. لم يحتج الأمر إلى مزيد من الكلام، وهو شيء كان الدانماركيون حريصين جدّاً على عدم تبديده بلا داعٍ. كان نقل مجموعة من البشر في سفينة شحن يعدّ بمثابة مجازفة كبيرة، فما بالك إذا كان جهاز الغستابو يقتفي أثرهم... واحتمال التعرض لما لا يحمد عقباه واردة جدّاً. كان قارب صيد أوتو سيلو عبارة عن سفينة صيد خشبية طولها 33 قدماً (9.9 متراً)، مزودة بمحرك يصدر صوتاً عالياً وعتيق الطراز بسعة 35 حصاناً، من طراز تالونا أن. أف. 24 وبسبب الحرب لم تعد قطع غياره موجودة، وكان محركه يعتمد في عمله على التمنيات الصادقة أكثر من اعتماده على حصته من الكيروسين التي تقدمها السلطات والتي كانت محدودة للغاية.

في وقت متأخر من بعد الظهر: دفعت توفا وزوجة فورستر الطفلين المتعبين على الدراجات الهوائية إلى حافة الغابة. ثم قالت لهم المرأة «انتظروا هنا». كان كلّ شيء هادئاً؛ كان الصوت الوحيد هو صوت الأمواج الهادئة وهي تداعب منصة نزول الركاب الخشبية. بدأت الغيوم الداكنة تغطي الأفق وغطى المكان ضباب يشبه الرذاذ كان قادماً من البحر. كان الجوّ بارداً. خلعت توفا معطفها ولفّته حول أطفالها.

انطلق أوتو سيلو يرافقه شقيقاه، هيرمان، البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، وغونر، ذو العشرين عاماً، من ميناء ستوبيكه بينغ الصغير

لجمع اللاجئين من على الرصيف الخشبي في غروينيسوند، قبالة غابة كورسيليتزي. وجدوا فيغو أندرسن وأوف لوند من منشرة هايسنيس، حيث كان بعض اليهود يختبئون، مع عشرين شخصاً من جميع الأعمار، يجلسون على حقائب. كيف يمكن نقل جميع هؤلاء؟ ثلاثة إخوة من أبناء سيلو، وثلاثين شبكة لصيد سمك الرنكة، وعشرين لاجئاً. ولكن مع ذلك، لم يكن بالإمكان تركهم هناك، فإنّ هذا من شأنه أن يعرضهم للاعتقال.

«حسناً، اقفزوا على متن القارب! ولكن بدون حقائب».

قالت امرأة شابة وهي تمسك بذراعيها حقيبتها الصغيرة: «ولكن أرجوك...».

صاح هيرمان: «بدون أن تحملوا شيئاً معكم، ليس لدينا مجال للحقائب. تخلصوا منها، أو اتركوها وراءكم». تجمّع اللاجئون عند الرصيف ليصعدوا إلى سطح السفينة. كانت هناك امرأة عجوز تبدو واهنة للغاية لدرجة أن غونر شك في أنّها ستتمكن من النجاة من المعبر الخطير. أمّا بالنسبة للفتاة، فقد أخبرت هيرمان أنّها كانت تحاول الوصول إلى عمها في المكسيك! ما إن تحركت السفينة الخشبية بعيداً عن الرصيف، حتى صدرت صرخة مدوية من محركها الثنائي الأشواط. كان اللاجئون يشعرون بالقلق طوال الرحلة خوفاً من أن يصل صوت المحرك إلى مسامع سفن الدوريات التابعة للبحرية الألمانية التي كانت تجول في منطقة كريجرز فلاك.

اجتازت السفينة ممرّ غروينسوند بينما كان هيرمان يعتني بالمحرك الذي أصابه الإجهاد، كان أوتو يمرّ بسفينة الصيد التي كانت تصدر زعيقاً وصريراً من أمام منارة جزيرة مون في بحر البلطيق المفتوح على المحيط؛ باتوا يسمعون صوتاً لا يتوقف لشيء يتلاطم في وسط البحر المظلم، كان ذلك صوت اندفاع أمواج خارقة. لقد كانوا مقبلين على عاصفة بحرية.

ضربتهم الموجة الأولى. أمسك اللاجئون الأقرب إلى حافة السفينة بالركاب الآخرين ليتجنبوا الوقوع في البحر. في غضون دقائق، بات جميع من كان على متن السفينة يشعر بالغثيان ويتقيأ بشدة وكان غونر، باعتباره

الأصغر سنّاً، مضطرّاً لتنظيف ما يخرج من أفواههم. كان من الجنون الإبحار في مثل هذا الجوّ. إذا كانت الأمواج عالية، فلم تكن تعني شيئاً مقارنة بالمخاطر التي تقترب منهم، والتي لم يكن الركاب على علم بها: فقد كان هناك حقل ألغام زرعه الألمان في الطريق الذي يختصر عليهم رحلتهم إلى السويد والذي يمرّ بين منطقتي ستيفنز كلينت وكريجرز فلاك. لم يكن هذا كلّ شيء؛ فقد كانت توجد في نهاية حقل الألغام المتصلة بنهاية المحيط، سفينة ألمانية كبيرة تحمل على متنها مدفعاً ضخماً.

عرف أوتو وإخوته ما يمكن أن يتوقعوه إذا تمّ رصد سفينتهم ونبّه الألمان أحد (زوارقهم الحربية الشنيلبوت). مع محركه الذي يصدر قرقعة وتبلغ سعته 35 حصاناً، لم تكن لدى قاربهم أية فرصة للمطاولة أمام زوارق الدوريات الساحلية الألمانية التي تزيد قوة محركاتها عن 600 حصاناً. تبين أن العاصفة البحرية، برغم مما تسببته من إزعاج لركاب القارب، كانت ضربة حظ موفقة. غطّت ضوضاء الرياح على صوت محرك قاربهم وقلّلت من الرؤية. وساعدهم هذا على الإفلات من الخطر الذي كان يتربصهم؛ لكنه استدعى قيامهم بعملية التفاف طويلة تبلغ حوالي 30 ميلاً (48 كم)، مضيفة خمس ساعات إلى زمن الرحلة، قبل أن يجرؤ أوتو على التوجه شمالاً ليصل الساحل السويدي عند مدينة تريلبورغ. كان هناك خطر آخر: لقد ألقى الإنجليز ألغاماً مغناطيسية عائمة في هذا الجزء من بحر البلطيق. لم يكن ذلك خطيراً على سفينة صيد ذات هيكل خشبي، ولكن الخوف كان إذا ما انجرف أحد تلك الألغام نحوهم – فقد اصطدم أحد تلك الألغام ذات مرة بصياد من هايسنس فقطع أوصاله ولم يعثر على شيء منه. أصبحوا على بعد ثماني ساعات من الدانمارك، وبات مركبهم على بعد حوالي 15 ميلاً (24 كم) من الشاطئ السويدي متجهاً نحو الأضواء الساطعة لمدينة تريلبورغ، والتي كان يمكن رؤيتها بوضوح حتى لمن كان عند الشاطئ البعيد ، عندما كشف الفجر الذي بدأ يسطع بقوة عن ظلّ سفينة حربية في الأفق.

كان القارب لا يزال قرب «المنطقة المحظورة» وكانت هناك

احتمالات بأن تقوم زوارق دوريات الحراسة الألمانية باكتشافه قريباً. في مواجهة هذه الصعوبات غير المواتية، لم يكن لدى أوتو خيار سوى المخاطرة بكل شيء. كان عليه أن يتجه نحو المياه الضحلة، مخاطراً بسلامة المحرك وتحطم عارضة القارب. فإذا حدث وغرز قاربهم وسط تلك المياه، فسيكونون صيداً سهلاً لمدفع السفينة الحربية الألمانية. كان هناك العشرات من التلال الرملية والنتوءات الصخرية المغمورة بالمياه، كان حجم بعضها أكبر بقليل من الصخور الدائرية الملساء، التي كانت تمنع وصول القارب إلى المياه السويدية. كان الإبحار في تلك القنوات خطيراً، ويمكن لهم أن يضيعوا بسهولة في الظلام ما لم يتبعوا صياداً سويديّاً يعرف المرور جيداً من بين كلّ صخرة.

ونظراً لأن قاربه لم يكن يحوي سترات للنجاة، فقد أمر أوتو الجميع بخلع أحذيتهم ويتجردوا من ملابسهم إلى الحدّ الأدنى، في حالة أنّهم أجبروا على مغادرة المركب. بعد ساعات من مكافحة العاصفة، دفع أوتو سيلو خانق الوقود في المركب إلى الحدّ الأقصى من الدورات، وهو شيء لم يجرؤ عليه من قبل؛ بدأ المحرك يهتزّ ويهزّ معه القارب ويجعله يقرقع؛ لكن سرعته زادت، ووصلت إلى أقصاها وهي سبعة أميال في الساعة (11 كم/ ساعة). وقف الله إلى جانبهم وبقي القارب الخشبي القديم بطريقة ما قطعة واحدة ولم يتحطم، وقد أنقذه وجوده في المياه الضحلة غير الآمنة بشكل كبير من خطر وشيك. كان من الجنون أن تخاطر سفينة حربية ألمانية وتصطدم عارضتها بالصخور من أجل أن تطارد سفينة صيد قديمة.

كان الخطر ما زال ماثلاً من زوارق الدوريات ذات القاع المسطح والعالية السرعة. ولكن سارت الأمور على ما يرام ولم يتعدّ ما يبعدهم عن السويد في الحدّ الأقصى سوى ثلاثة أميال (4.8 كم) عندما صرخ صوت مذعور على سطح السفينة: «هناك شخص ما قادم!».

نظر غونر من خلال نظارته وضحك قائلاً: «إنّه سويدي».

في الواقع، كان ذلك قارب دورية سويدي متجهاً إلى مركب الصيد

الخاص بهم. ظلّ خفر السواحل السويدي على بعد بضع مئات من الأمتار عنهم ثم لوح لهم ضابط ودود وسألهم: «هل تحملون لاجئين؟».

«نعم».

«قم بتغطية رقم القارب واسمه بشبكات الصيد وتوجه إلى مكان التزود بالفحم». كان هناك سبب وجيه لتحذيرهم. كان من المعروف أن المتعاونين مع الألمان يلتقطون صوراً لأيّ قارب يحمل رقماً دانماركيّاً. بينما كانوا يقتربون من الشاطئ البعيد، كشف ستار حاجب عن أن السماء كانت تمطر بشدة. كان هذا جيداً، لن يقف أحد على الشاطئ ويراقبهم. بينما كان غونر يمسح الملح من وجهه، تناهى إلى مسامعه صوت خافت متشنّج قادم من مقدمة القارب: صوت يدل على الشعور بالنجاة، والفرح، والخلاص، وكانت جميع تلك المشاعر مجتمعة في صوت واحد. بعد عشر ساعات تسلّل القارب دون أن يلاحظه أحد إلى تريلبورغ. تولى حمال عند رصيف الفحم أمر حبل رسوّ القارب. تعانق الناس وقبّلوا بعضهم بعضاً وربتوا على ظهور الإخوة سيلو. وبعيون تحيط بها الدوائر المظلمة، حدقت توفا تيشمان في وجه أوتو. وعندما قبّلته، ظهرت ومضة من الخجل والارتباك على وجه ذلك الدانماركي. حينها استدار، ثم مشى بعيداً دون أن يتكلم.

تمّ إصلاح محرك مركب أوتو وإخوانه بفضل كرم شخص يهودي سويدي ثري. قاموا برحلة أخرى إلى السويد. وكان عشرات من الدانماركيين قد نجوا من الحرب بسبب آل سيلو أبناء مدينة ستوبيكوبينغ. في رحلتهم الثانية، كاد أن يتمّ الإمساك بهم بسبب ملاحظة عفوية لشخص قاموا بنقله في أول رحلة لهم إلى برّ الأمان.

«هذا هو القارب الذي نقلنا إلى هنا»، صاح أحد الأشخاص وهو يبكي مبتهجاً، وكان واقفاً وسط حشد من الناس كانوا ينتظرون وصول أقارب لهم واقفين على الجانب السويدي، بينما كان يشير إلى القارب المقترب. كان هناك احتمال كبير أن يكون واحد على الأقل من بين الأشخاص الواقفين على الرصيف مخبراً ألمانيّاً.

«ما الذي تتحدث عنه؟» كلّمه أحد الواقفين بغضب. «عليك أن تنسى كيف وصلت إلى هنا أو من اتصلت به، هل هذا واضح؟».

أدّت بعض الرسائل التي لم تكتب بحذر وإن كان عن غير قصد إلى تعرض بعض الدانماركيين الشجعان الذين خاطروا بحياتهم إلى الخيانة. جمع كلاوس هيلسين من مجموعة المخابرات الطلابية بعض الهاربين ليقودهم إلى ميناء صيد السمك تاربوك، بعد أن أعطى أحد الأشخاص إلى الغستابو وربما بالخطأ رقم تسجيل سفينتهم. أطلق الألمان النار على القارب وقتل كلاوس هايلسن البالغ من العمر 20 عاماً. تمّ القبض على الصياد والهاربين وتفجير القارب.

مع تزايد أعداد الذين حاولوا الوصول إلى السويد، أصبحت المخاطر أكبر وباتت الممرات باهظة الثمن. كان أحد المشاركين في عملية الإنقاذ هو كريستيان ألغرين بيترسن، الذي كان يعمل تحت اسم مستعار هو «كريستيان» في مجموعة مخابرات الطلاب. «كانت مهمتي في البداية هي توصيل الرسائل. بعد الأيام الأولى من شهر تشرين الأول، انتهت موجة الاندفاع الأولية. كان اليهود ما زالوا محشورين في شقتنا، حيث أخذت أمي أسماءهم وسألتهم عن مقدار المال الذي لديهم. كان هذا مهمّاً. بعض اليهود كانوا أغنياء لكن الكثير منهم لم يكن لديهم سوى بضع مئات من الكرونات والبعض الآخر لم يكن لديهم مال على الإطلاق».

كان السؤال الأول الذي تطرحه والدة كريستيان على القادمين الجدد هو: «هل لديكم مال؟» لقد صدم الكثيرون من السؤال لقد اعتقدوا أنّها كانت تطلب منهم فدية لكن الحقيقة كانت أن صيادي الأسماك كانوا يحاولون اقتناص الفرص بمجرد أن يصل إلى علم الغستابو أن هناك يهوداً يرومون الهرب. أصبح البحث عن السفن التي تجوب المحيطات أكثر تشدداً وبدأ الألمان في استخدام الكلاب البوليسية. قررت مجموعة من الطلاب الذين يدرسون الكيمياء العمل على حلّ المشكلة وتوصلوا إلى صنع مسحوق كان مزيجاً من دماء الأرانب المجففة والكوكايين. كان

هذا المسحوق يشل قدرة الكلاب على الشعور بالرائحة. لكن الخطر على عابري السبيل كان حقيقيّاً.

كان قباطنة السفن يطلبون مبلغ 1000 كرونة (ما يعادل 200 دولار أمريكي بقيمة عام 1943) لكل مسافر[17]. لم تكن هذه فدية ولم يثرِ أحد منهم من جرّاء نقل الهاربين التعساء إلى برّ الأمان. لقد كان نوعاً من التأمين على القوارب. فكان أيّ شخص يتمّ القبض عليه أو يشتبه بتهريبه اليهود يتعرض إلى مصادرة سفينته، أو ما هو أسوأ من ذلك، إحداث ثقوب في بدنها.[18] تمكنت السيدة ألغرين بيترسن من جمع أموال من اليهود الأغنياء لدفع تكاليف التهريب لليهود الفقراء.

ونتيجة فشله في الإمساك باليهود، بدأ جهاز الغستابو ينتقم من منظمي عمليات التهريب. تعرضت مجموعة كريستيان، التي ساعدت أربعين من طياري الحلفاء للوصول إلى السويد، للخيانة ووقعت في كمين للغستابو. ووصل الأمر إلى حدّ حدوث إطلاق نار في شوارع كوبنهاغن. قتل اثنان من رفاق كريستيان الذي أصيب بجروح بالغة وقضى بقية سنوات الحرب رهن التحقيق في معتقلات الغستابو.

كانت إحدى طرق التهريب هي ترتيب لقاء بين سفن الصيد الدانمركية ونظيراتها السويدية في أعالي البحار حيث تتمّ مبادلة اللاجئين بصيادي السمك السويديين. وقد زوّدت هذه الطريقة الدانماركيين بالتغطية المناسبة لمواصلة «عمليات الصيد» الخاصة بهم. كان هناك طريق مزدحم، تجري فيه عمليات انطلاق صغيرة، يقع بين شبه جزيرة أماغر، التي تقع مباشرة إلى الجنوب من كوبنهاغن، وجزيرة سالتهولم الصغيرة التي تمتاز باحتوائها على سلسلة من الشرائط الرملية الخطرة، التي تقع في منتصف الطريق الممتد عبر بلدة سوند الفسيحة إلى السويد. لقد ألقوا بالهاربين

17- مع الأخذ في الاعتبار أنّه مقابل دفع مبالغ إجمالية قد تصل إلى 1.400.000 دولار أمريكي (بقيمة عام 1943) - تمّ إنقاذ حياة 7200 شخص فلا يبدو هذا المبلغ مبالغاً فيه.

18- هذا ما ذكرته كريستيان ألغرين بيترسن.

في ملاذ الطيور هذا في انتظار التقاطهم بواسطة القوارب السويدية. مع كثرة القوارب التي كانت تفرغ حمولتها فيها، اتخذت جزيرة سالتهولم التي كان يمنع الاقتراب منها مظهر جزيرة تحتضن سباقاً للقوارب.

بلا شك، كان أبرز الشخصيات من بين جميع الهاربين هو العالم الفيزيائي الدانماركي العظيم، نيلز بور الحائز على جائزة نوبل، وقد كان نصف يهودي[19] ومؤسساً مشاركاً للجنة دعم المفكرين اللاجئين. كان نجاحه في التخلص من عملية الاعتقال التي كانت وشيكة من أكثر قصص الحرب روعة. لقد سمح الألمان لبور، الذي كان عبقريّاً مشغول البال دائماً بتجاربه ولا يعرف شيئاً عن مشاكل العالم، بمواصلة عمله في معهد الفيزياء النظرية، ودراسة الإمكانيات النظرية لإجراء عملية إطلاق للذرة. حاول نظيره الألماني هايزنبرغ إقناعه بالعمل لدى الألمان خلال زيارته إلى كوبنهاغن. عندما اكتشفه الإنجليز، أرسلوا إليه على الفور دعوة سرية للانضمام إلى فريق من علماء الفيزياء النووية الذين يعملون في إنجلترا؛ نقلت هذه الرسالة إلى بور بواسطة خلية للمقاومة كانت تطلق على نفسها اسم الأميرة[20] في قطعة من شريط ميكروفيلم مخبأة داخل مفتاح مجوف. رفض بور مغادرة الدانمارك. ومع ذلك، مع تحذير دوكفيتز، الذي نقله له هيدتوفت شخصيّاً وهو في السجن، وافق بور أخيراً على اصطحاب ابنه إلى السويد. اختبأ في مقصورة القبطان سفين كنودسن، الذي كان يدير عمليات تهريب سرية بقاربه الرمادي اللون ذي المحرك الصامت. وصل بور وابنه إلى بلدة ليمهامن الواقعة بالقرب من مالمو.

تمّ تكليف ضابط سويدي شاب لمرافقة الفيزيائي الشهير بالسيارة إلى ستوكهولم. توقفوا في طريقهم لتناول طعام الغداء، وقدم الضابط بفخر «ضيفه الحامل لجائزة نوبل» لصاحب المطعم، الذي اتصل بإحدى

19- كانت والدة بور يهودية.

20- تمّ تأسيس هذه الشبكة من قبل مجموعة من ضباط الجيش الدانماركي السابقين تحت قيادة اللفتنانت كولونيل نوردنتوفت.

الصحف وذاع السرّ خارجاً. هكذا اكتشف الملك السويدي وجود بور ودعاه لتناول العشاء. تلك الدعوة، التي تمّ نشرها بشكل واسع، حلّت مشكلة صعبة للقوات الجوية الملكية؛ بينما اعتقد العملاء الألمان في ستوكهولم أن حامل جائزة نوبل الهارب كان جالساً لتناول وجبة عشاء في القصر، كان نيلز بور يتمدد في حجرة القنابل في القاذفة البريطانية موسكيتو التي نقلته عبر النرويج التي كانت تحتلها ألمانيا إلى إنجلترا. من هناك ذهب الأستاذ نيلز بور إلى مختبر لوس ألاموس الوطني في أمريكا للمساعدة في ولادة «القنبلة الذرية». ما بقي من القصة يسرده تاريخ القنبلة الذرية ولكن لم يكن كلّ شخص محظوظاً تماماً مثله.

وهكذا استمر الاسكندنافيون بهدوئهم المعروف، في نقل الهاربين من اليهود تحت مرأى ومسمع الغستابو، قاموا باستخدام العديد من الحيل لتضليل العملاء الألمان. وعلى الرغم من كلّ الاحتياطات، كان يتمّ في بعض الأحيان تسريب المعلومات ووصل السباق بين من يصل أولاً من المهربين أو عناصر شرطة الألمان الذين يرسلون لاعتراضهم إلى مديات بعيدة. في بعض الأحيان كان الحظ يخذلهم. إنها لحقيقة مؤسفة أن معظم أولئك الذين اعتقلوا قد تمّ القبض عليهم نتيجة بلاغات من المتعاونين الدانماركيين. وقع أسوأ حادث في بلدة كيليلاي الساحلية شمال مدينة إلسينور الواقعة على ساحل جزيرة زيلندا. كانت هناك فتاة، تعمل خادمة، قد وقعت في حب جندي ألماني؛ وحزنت عليه عندما تمّ نقله إلى الجبهة الروسية. عرض إعلان نشره الألمان في الصحف الدانماركية، مكافأة كبيرة في مقابل الحصول على معلومات تؤدي إلى اعتقال اليهود. ذهبت إلى الغستابو على أمل أن يعيد تصرفها هذا حبيبها، وأبلغت عن ثمانين من الهاربين اليهود الذين كانوا يختبئون في قاعة وعلية الكنيسة الرعوية في البلدة.

في مساء يوم 5 تشرين الأول 1943، توقفت عربات الشرطة الألمانية أمام الكنيسة. طلبوا من الشرطة المحلية مساعدتهم، لكن الدانماركيين رفضوا. أوقف كيلدغارد جينسين قس الكنيسة أفراد الشرطة الألمانية

لأكثر من ساعة، حيث لم تكن لديهم أية أوامر محددة بتدنيس الكنيسة. وانتهت المواجهة عندما ظهر هانز يوهل أحد ضباط الغستابو وأمر زمرة من وحدات الأمن الخاصة التي يقودها بتطويق الكنيسة بالمشاعل والمدافع الرشاشة. ثم اقتحموا الكنيسة. أدّى استخدام العنف إلى أن ينبعث ما يكفي من الخوف في نفوس الضحايا فقاموا بتسليم أنفسهم دون مقاومة. وصف كيلدغارد جينسين قس مدينة كيليلاي هذا الحدث المثير في السجل الرعوي لكنيسته:

كان يوم الخامس من تشرين يوماً فظيعاً لجميع أبناء مدينة كيليلاي. في ذلك اليوم، نفذت قوة الاحتلال غارة على هذه البلدة للقبض على اليهود. تمّ شنّ غارات أخرى في الأيام التي تلت ذلك، وتجمع الكثير من اليهود، من المعروفين والمجهولين وكان عددهم 1200 على الأقل هنا في البلدة في منازل خاصة وفي الفندق، وللأسف أيضاً في دور علوي في الكنيسة. تجدر الإشارة إلى أن الغارات لم تنجح إلّا بمساعدة المخبرين. ليرحم الرب شعبه الوقور والعنيد ويحافظ عليه من الأذى.

لم ينجُ سوى عدد صغير من اليهود الذين اعتقلوا في كيليلاي واقتيدوا إلى معسكرات الاعتقال وعادوا بعد الحرب.

كان دور الخادمة في مدينة كيليلاي هو الاستثناء؛ بالنسبة لبقية البلاد، فإنّ تحذير الدكتور بست للسلطات في برلين كان سريعاً. لم يستسلم الدانماركيون لأوامر هتلر اللاإنسانية. على المستوى الرسمي، صدر أقوى احتجاج من مصدرين. أرسل الملك كريستيان العاشر مذكرة احتجاج سلّمها إلى السلطات الألمانية وكيل وزارة الخارجية الدائم نيلس سفينينغن. وحيث لم يكن ذلك كافياً لإشعال حماس الدانماركيين، فعندئذٍ جاءت هذه الرسالة الرعوية (3 تشرين الأول) التي أصدرها فوغلسانغ-دامغارد الأسقف الأعلى اللوثري في كوبنهاغن، والتي تمّت قراءتها خلال المراسم الكنسية في جميع أنحاء البلاد. لم يلطف الأسقف كلماته:

يقع على عاتق الكنيسة المسيحية واجب مقدس في الاحتجاج حينما يتعرض اليهود للاضطهاد لأسباب عنصرية أو دينية بحتة، لأن هذا يخالف مبادئ العدالة التي يؤمن بها الشعب الدانمركي. وبعيداً عن المعتقدات الدينية، يجب أن نقف جميعاً ونقاتل للحفاظ على حرية متساوية لإخواننا وأخواتنا اليهود التي نعتزّ بها أكثر من الحياة. ضميرنا يجعل من واجبنا الوقوف ضد أيّ انتهاك لهذا الحق. يجب أن نلتزم بمبدئنا، أن نطيع الله أكثر من الإنسان.

عندما نجح ماكس تيشمان، الذي كان قد فرّ بواسطة المراكب الشراعية من جزيرة مون، في لمّ شمله مع زوجته توفا وطفليهما في مالمو، غمرت كيانه كلّه فرحة العثور عليهما أحياء. شعرت مئات العائلات الأخرى بفرحة مماثلة، فقد كان يلاحقها الرجال ذوو المعاطف السوداء، ولكنها نجحت في الهروب.

كان فيغو أندرسون أو الإخوة سيلو أو جوهانس يوهانسن مجرد نماذج لكثير من الأبطال الصامتين. كان ردّ فعل الشعب الدانماركي شجاعاً وبطوليّاً حقّاً. في غضون أيام، إن لم يكن خلال ساعات، تمّ نقل أكثر من 7000 رجل وامرأة وطفل. ولإعطاء فكرة عن حجم الفشل في حملات الملاحقة التي قام بها عناصر الغستابو، أنهم لم يستطيعوا إلقاء القبض سوى على 481 شخصاً فقط. من إجمالي 8000 يهودي دانماركي. لقد نجح شعب الدانمارك في الاختبار.

«لقد حدث شيء لم يعتد عليه أيخمان (رئيس جهاز البوليس السري الغستابو - م) ورجاله: فقد فلت اليهود من قبضتهم واختفوا، إذا جاز التعبير، خلف حائط النجاة الذي أقامه لهم الشعب الدانماركي في ليلة واحدة».[21]

وفّر الدانمركيون ملاذات لليهود في جميع أنحاء البلاد، في المزارع البعيدة والمستشفيات والكنائس والمتابن وشقق المدينة والأقبية ومنازل

21- راجع: Yahil, L., The Rescue of the Danish Jewry, Philadelphia, 1969

القساوسة ودور المسنين؛ تمّ تحويل المنازل الخاصة والمباني العامة إلى منازل آمنة لهم، وأصبحت المكتبات العامة ومستودعات الجعة بمثابة مراكز انطلاق لترحيل اليهود. فيما كان أفراد الشرطة الدانمركية وموظفو الجمارك ومراقبو السكك الحديدية يغضون الطرف عن ضرورة التحقق من تصاريح السفر وأوراق الهوية. كانت مهمة الطلاب توفير الخدمات اللوجستية، في حين أصبح الصيادون العاديون يقودون السفن المعروفة بعداءات الحصار (هي سفن تجارية تستخدم للتهرب من الحصار البحري للميناء أو المضيق. وعادة ما تكون خفيفة وسريعة – م). باتت كلّ الدانمارك في حركة دائبة لمساعدة اليهود كانت تجري بصمت ودون أن تلفت الانتباه.

تنامى الشعور بالأخوة بين أبناء الشعب، وقد فجرته مشاعر الغضب ضد المعاملة الوحشية لأقلية بريئة لا حول لها ولا قوة. في جميع الأحوال، يجب الإشارة إلى تلك القلة من الألمان الذين لم يوافقوا على إرهاب الغستابو وقدموا المساعدة بشكل أو بآخر متى ما استطاعوا، حتى لو كان من خلال غضّ النظر بشكل معين في الوقت المناسب، وقد سجل هذا في الوثائق الرسمية لتاريخ الدانمارك.

لم يكن كلّ ذلك ليسفر عن نتيجة، لولا التحذير الذي جاء في الوقت المناسب من قبل شخص ألماني، هو جورج فرديناند دوكفيتز، الذي كشف عن مخطط زعيمه، وبمساعدته في «تجميد حركة» الزوارق الساحلية الألمانية السريعة وجعلها جاثمة في أرصفتها، جعل المخطط بشنّ حملة على اليهود الدانماركيين يتحول إلى فشل تام للنظام النازي. في زمن الرعب والظلام في أوروبا المحتلة، شيد دوكفيتز نصباً تذكارياً للإنسانية. لم يكتشف الغستابو أبداً من هو ذلك «الجاسوس» ونجا من أهوال الحرب.

وكتب في مذكراته يوم 4 أيّار 1945، بعد تلقيه تأكيداً بأن هتلر قد مات وأن الوحدات الألمانية في شمال ألمانيا قد طلبت الاستسلام غير المشروط: «حين تلقيت هذه الأخبار شعرت بواحدة من تلك اللحظات

المليئة بالعاطفة الجياشة التي عشتها في حياتي، حيث تيقنت أنني لم أعش دون جدوى في هذا العالم».

بقي هناك سؤال واحد دون إجابة: من الذي حرّض بالفعل على عمليات الاعتقال؟ خلال الاستجوابات التي جرت بعد الحرب، ذكر دوكفيتز اسم ميلدنر رئيس الشرطة في كوبنهاغن الذي اتهم د. بست مفوض الرايخ في الدانمارك لكن بست اتهم ريبتروب وزير خارجية الرايخ مشيراً إلى أنّه كان يعمل لإرضاء هتلر، ودافع ريبتروب عن نفسه خلال محاكمات جرائم الحرب في نورمبرغ بأن الأوامر صدرت بشكل مباشر من هاينريش هيملر رئيس الغستابو. الذي مات إثر تجرعه السم. وكان واحداً من العديد من القتلى الذين انتهت حياتهم في حقبة مثيرة.

لا يمكن تلخيص المأساة التي صنعتها ألمانيا النازية بالأرقام. لكن الأرواح التي أنقذتها شجاعة جورج فرديناند دوكفيتز، تظهر ما يمكن أن يحققه رجل واحد، يمتلك الحس الإنساني. من أجل هذا، منحه اليهود جائزة هاينريش ستال المرموقة، وكرمته جلالة الملكة مارغريت الثانية ملكة الدانمارك بوسام صليب دانيبروغ العظيم، وهو أرفع وسام يمنح للأشخاص من غير العائلة المالكة. عندما توفي دوكفيتز، في سن الثامنة والستين، في 16 شباط 1973، كتبت الصحيفة الدانماركية الشهيرة بيرلينسك تيدندي في مقالها الافتتاحي:

لا شك أن تصرفه الشجاع ساعد على منع وقوع حمام دم بين أبناء بلدنا في كوبنهاغن. وبدا الأمر كما لو أن خبير الشحن الألماني هذا كان يدفع بعجلة التاريخ إلى الأمام. سيكتب اسم جورج فرديناند دوكفيتز بأحرف من الذهب في سجل تاريخ بلادنا.

وأشاد الوزير الدانماركي بير فيدرسبييل بالإنجاز الفريد الذي حققه هذا المواطن الألماني في خطابه أمام البرلمان الدانماركي: «يجب علينا في الدانمارك ألّا ننسى أبداً الدور الذي لعبه جورج فرديناند دوكفيتز والشجاعة التي أظهرها».

سوف يكتشف الزائر إلى متحف الهولوكوست في القدس زورقاً صغيراً أزرق اللون فيه لوحة برونزية مكتوب عليها:

خلال الحرب العالمية الثانية، نجح الشعب الدانماركي في إحباط نية ألمانيا النازية في ترحيل 8000 يهودي من الدانمارك إلى معسكرات الموت في الشرق. كان من المقرّر أن يبدأ الترحيل، الذي كان من المفترض أن يكون جزءاً من خطة «الحل النهائي» للمسألة اليهودية التي كانت تهدف لإبادة يهود أوروبا، في الأول من تشرين الأول عام 1943. تمّ تنفيذ عملية إنقاذ شجاعة لليهود من قبل أعضاء حركة المقاومة السرية الدانماركية حيث ساعدوا 7200 يهودي على الهروب إلى السويد.

ثمة مواقف في الحياة لا تخضع لنظام محدد. ويقظة الضمير تجاه المواقف غير الإنسانية بين معظم أفراد الجنس البشري، لا تعدو كونها مسألة فردية. مثل هؤلاء الأشخاص، وهم دائماً الأقلية، يمارسون تأثيراً أخلاقيّاً وروحيّاً لا يتناسب مع عددهم. كان دوكفيتز أحد أفراد تلك المجموعة المختارة. لقد كان عضواً في الحزب النازي، وكان مبدأ الحزب الوحيد، وواجبه الوحيد، هو أن ينفذ ما يأمر به الفوهرر. لقد آمن هذا القائد ضمنيّاً بأن كلّ شيء فعله الحزب كان رائعاً، لأنّه هو نفسه من كان يصوغ كلّ سياسات الحزب. لقد تجرأ دوكفيتز على عصيان أوامر زعيمه، وكانت هذه لعبة خطرة؛ لكن ضميره الحي ساعد في إنقاذ أرواح الآلاف. في 5 نيسان عام 1971، كرّمت دولة إسرائيل عمله الإنساني بزراعة شجرة بلوط في غابة من الأشجار وكانت تحمل اسم ج. ف. دوكفيتز ضمن مجمع ياد فاشيم –غابة العدل.[22] (ياد فاشيم عبارة عن مجمع يحتوي على متاحف ومعارض، ومعاهد التعليم والأبحاث والأنصاب التذكارية تعرض جميعها الذكريات الأليمة لضحايا المحرقة النازية – م).

كان دافع دوكفيتز هو الشجاعة الأخلاقية، التي هي مصدر القوة التي تصنع الفعل النابع من الإرادة الحرة. لقد كان يشغل منصباً يمكنه من

22- كان العدد الإجمالي للألمان الذين تمّ تكريمهم هو 276 شخصاً..

بحر البلطيق،
30 كانون الثاني 1945

ألكسندر مارينسكو، كلنا فداءً للزعيم ستالين

«عبادة الفرد هي الأكثر قوة رغم أنها لا تقيم أدنى اعتبار لحرية الإنسان».

- **هربرت سبنسر، في كتابه الإحصائيات الاجتماعية**

اقتلوهم، يا أبناء الجيش الأحمر الشجعان. اقتلوهم.
ليس هناك بريء واحد بين هؤلاء الألمان أطيعوا أوامر الرفيق ستالين وأبيدوا الحيوانات الفاشية في جحورها.
حطّموا التفاخر العنصري للمرأة الألمانية. اعتبروهن غنائم شرعية للحرب.
اقتلوهم.

- **الكاتب إيليا أهرنبورغ، من الإعلان الصادر عشية الهجوم على بروسيا الشرقية، كانون الثاني 1945**

كانوا جميعاً من الأبطال العظماء. بعد لحظة المجد الكبرى، تعرضت شهرة بعض هؤلاء الأبطال للسرقة بطرق مخادعة. كان لدى الاتحاد السوفيتي طريقته الخاصة في تشويه صورة بعض أبطاله.

كان اسمه ألكسندر مارينسكو. ولد في أوديسا في عام 1914، وعاش طفولته في الأحياء الفقيرة. قضى سنوات تكوينه نشالاً، أو يقوم بالغوص في مياه ميناء أوديسا بحثاً عن عملات معدنية ألقيت من سطح سفن سياحية عابرة. أصبح زعيماً لإحدى عصابات الشوارع، حيث كان يقاتل ضد عصابات شوارع أخرى من الأتراك أو البلغار أو الأرمن؛ كانوا يتقاتلون على السيطرة على الأراضي والفتيات. في الخامسة عشرة من عمره، بدأ يعمل كخادم في سفينة تدعى البحر الأسود. حدثت نقطة الانعطاف في حياته خلال ليلة عاصفة في عام 1934، عندما انقلب قارب طوربيد سوفيتي قبالة ساحل مدينة سكادوفسك المطلة على البحر الأسود وقفز ألكسندر الشاب إلى الخارج لإنقاذ عدد من البحارة. لفتت عملية الإنقاذ البطولية هذه انتباه قائد أسطول العلم الأحمر في البحر الأسود، الذي طلب من الشاب البالغ من العمر 21 عاماً الانضمام إلى مدرسة تدريب تابعة للبحرية. كان التدريب شاقّاً، وهو ما لم يكن يخطر في باله، لأنّه فرح في البداية لأن الانضمام إلى المدرسة منحه مكانةً وزيّاً خاصّاً والشعور بأنه أصبح أخيراً واحداً من أفراد المجتمع. كان يتباهى ببراعته في الحانات خلال نوبات من الإسراف في تناول الكحول، وهو شيء مقبول في البحرية الروسية. كان يغير عشيقاته بقدر تغييره الجوارب. في عام 1936 تمّ نقله إلى قاعدة تدريب الغواصات، وعندها وجد المهنة التي تناسبه.

تميز مارينسكو بسبب تربيته القاسية بالتعامل مع المواقف البالغة الخطورة بهدوء شديد، مما جعله يلفت انتباه معلميه في المدرسة البحرية، تمّ تعيينه كضابط ملاح على متن الغواصة بيشكا أس. سي. ج. 30، والتي كانت واحدة من أحدث الغواصات في أسطول بحر البلطيق السوفيتي. وقد أثبت كفاءته وفي عام 1937 تسلّم قيادة غواصة أصغر هي أم 96، كانت قادرة على العمل فقط في المياه الساحلية. على الرغم من قدمها، قام مارينسكو بالسيطرة على طاقمه بشكل ممتاز لدرجة أن

الغواصة أم 96 أصبحت الغواصة الأكثر كفاءة في أسطول بحر البلطيق. مع بداية الحرب، قامت غواصة مارينسكو أم 96 بإجراء دوريات في المياه الساحلية حول مدينة لينينغراد وخليج بوثنيا. ورغم أنّها لم تحرز نجاحاً كبيراً ولم تغرق أبداً أية سفينة، لكنها تمكنت من الفرار عندما هاجمها قارب طوربيد ألماني.

في عام 1944، أصبح مارينسكو قائد الغواصة ستالينتز من طراز أس.13وهي أكبر وأسرع بكثير من باقي الغواصات. ومن سخرية القدر، فإنّ تلك الغواصة، التي تسببت في أضرار كبيرة للبحرية الألمانية، تمّ تصميمها وبناؤها... من قبل الألمان! فلغرض التحايل على اللوائح الصارمة التي تحكم معاهدة سلام فرساي، افتتح الألمان مكتباً لصناعة السفن في هولندا المحايدة، باستخدام الاسم الهولندي المضلل (مكتب المهندس لصناعة السفن). كانت الشركة تعود بشكل مشترك إلى القوات البحرية الألمانية وعائلة كروب الصناعية، وعرضت بعضاً من إنتاجها من القوارب الحديثة على روسيا، وهذا دليل على التعاون الذي كان قائماً بين هتلر وستالين قبل الحرب.

بحلول فصل الشتاء ما بين نهاية عام 1944 وبداية عام 1945، باتت الأمور تسير بشكل سيئ بالنسبة للجيش الألماني، الذي كان يقاتل لأول مرة دفاعاً عن الأراضي الألمانية، في بروسيا الشرقية. أيّد الجنرال غوديريان وجهة نظر قائد الجيش الرابع في ألمانيا، الجنرال فون هوسباخ، عندما دخل في جدال مع هتلر حول الانسحاب الفوري للقوات الألمانية تحاشياً لخطر تطويقها في مدينة كونيغسبرغ (التي تعرف اليوم باسم كالينينغراد). رفض هتلر ذلك رفضاً قاطعاً بالقول: «إن بروسيا الشرقية جزء لا يتجزأ من ألمانيا وستظل جزءاً من الرايخ الألماني».

جادله غوديريان بالقول: «إن من واجبنا إنقاذ رجالنا».

«أنقذ المدنيين، إذا كنت تريد، ولكن على جنود بلدي أن يبقوا في مواضعهم!».

في 12 كانون الثاني 1945، هاجم الروس بما يقرب من مئة فرقة المدينة الألمانية الأولى التي اجتاحوها وكانت تسمى نيمرسدورف. انخرط أبناء المدن الألمانية في القتال إلى جانب وحدات الميليشا المعروفة باسم قوات العاصفة، تاركين نساءهم وأطفالهم وراءهم. كان الرعب الذي حدث للمدينة لا يوصف. تمّ سحق الأطفال بواسطة دبابات تي 34 التي عبرت من فوقهم. تعرضت أمهاتهم للاغتصاب حتى الموت أو تمّ تعليقهن بالمسامير على أبواب البنايات. انتشرت قصة الاغتصاب في نيمرسدورف في جميع أنحاء شرق بروسيا وخلال أربع وعشرين ساعة، قام مليون لاجئ ألماني، بالفرار قبل وصول الجيش الأحمر الذي كان يتقدم بثبات، اكتظت الطرق المؤدية إلى موانئ البلطيق بالفارين. تذكر الأدميرال دونيتز، الذي كان حاضراً خلال اللقاء مع الفوهرر، عبارة هتلر: «أنقذوا المدنيين...» وأمر أيّ سفن نقل كانت متاحة باستقبال اللاجئين في مدينتي غوتينهافن (تعرف حاليّاً باسم غدينيا) وبيلاو ونقلهم إلى مدينة كيل.[1]

في الفترة الواقعة بين كانون الثاني إلى نيسان 1945، تمكنت سفن النقل الألمانية في ما كان بمثابة جهد خارق، ومن دون غطاء جوي أو حماية برية، من نقل أكثر من مليوني لاجئ وعسكري مصاب إلى برّ الأمان. كانت السفن المستخدمة بشكل رئيس هي هانسا التي كان يبلغ وزنها 21000 طن وكاب أكرونا التي كان يبلغ وزنها 27572 طناً، وهامبورغ التي كان يبلغ وزنها 22000 طن، ودوتشلاند التي بلغ وزنها 22000 طن، وفيلهلم غوستولف البالغ وزنها الإجمالي 25484 طناً[2]،

1- .تشير وثيقة بريطانية تمّ الحصول عليها، أنّه تمّ إطلاع الألمان على مخطط تقسيم ألمانيا إلى أربع مناطق بين الحلفاء. وكانت مدينة كيل ضمن القطاع البريطاني.

2- انطلقت لأول مرة في 5 أيار 1937 برعاية أدولف هتلر من عند مقرّ شركة صناعة السفن بلوم أند فوس ورفت في هامبورغ. قبل خمسة أيام من اندلاع الحرب العالمية الثانية، في 25 آب 1939، تمّ إيقاف السفينة غوستلوف لفترة قصيرة من قبل طراد بريطاني قبالة سواحل النرويج، وأمرها بوقف تشغيل محركاتها، ولكن بعد ذلك تمّ السماح بمرورها بأوامر مباشرة من لندن.

والتي كانت تعتبر فخر أسطول نقل الركاب الألماني. وكانت قد تمّت صناعتها بناء على طلب هتلر في عام 1935 لتقوم برحلات ترفيهية لأبناء شعبه، وكانت تنظمها منظمة (القوة عبر السعادة). هذه المرة لم تكن في رحلة ترفيهية، ولكن في رحلة وسط الجحيم.

في نهاية عام 1945، كانت السفينة أس 13 راسية في ميناء توركو الفنلندي، الذي كان الجيش الأحمر قد اقتحمه مؤخراً. كانت المنافسة بين قباطنة أسطول البلطيق شرسة، كما هو الحال في الغالب بين وحدات النخبة. كان لكل قبطان هدف واحد: أن يصبح «بطل الأمة»- كانوا يدركون جيداً أن مهمتهم لن تكون سهلة، لأن مسرح عملياتهم لم يكن مناسباً تماماً للحرب البحرية؛ كان بحر البلطيق مليئاً بالترسبات الرملية الخطرة، وبصفة عامة، كانت المياه ضحلة جدّاً لا تسمح بالغطس بشكل فعال.

في 2 كانون الثاني 1945، تلقى قائد مجموعة الغواصات، النقيب البحري ألكسندر جيفستافيتش أورجيل، أمراً مباشراً من ستالين ليقوم بالتحرك من أجل منع ناقلات الجنود الألمان من الوصول إلى الجيش الألماني الرابع بقيادة الجنرال فون هوسباخ أو جعلها تتركه، والذي كان يقاتل ضد قوات المارشال روكوسوفسكي في جبهة بيلوروسيا الثانية في مسرح عمليات بحر البلطيق. صدرت الأوامر إلى الغواصات التي ترفرف عليها الراية الحمراء لأسطول بحر البلطيق بالإبحار. ولأن تلك الأوامر قد صدرت من ستالين شخصيّاً، اشتدّت حدّة المنافسة بين القباطنة إلى أبعد حدّ. كانوا يعلمون أن في انتظارهم المكافأة المخصصة للقائد الذي يغرق أكبر عدد من السفن ذات أكبر الأوزان من الأطنان، وأراد الجميع أن ينالوا وسام «بطل الاتحاد السوفياتي» الأول في سرب الغواصات.[3] وحتى تلك اللحظة، لم تتح لهم الفرصة لإثبات بسالتهم وترقية قواربهم إلى رتبة سلاح النخبة في الجيش

3- وهو يعادل تقريباً وسام صليب فيكتوريا، أو وسام الشرف الأمريكي، أو صليب الفارس الألماني.

الأحمر. وها قد جاءتهم الفرصة. كان جميع القباطنة يستعدون للذهاب عدا واحد منهم.

تمّت تهيئة الغواصة أس 13 وأصبح طاقمها جاهزاً للإبحار، لكن لم يتمّ العثور على قبطانها. في الواقع، كان القبطان من الدرجة الثالثة ألكسندر مارينسكو يشعر بالملل من التسكع مكتوف الأيدي، في انتظار أوامر الإبحار التي لا يبدو أنّها ستأتي أبداً، حتى إنّه أخبر مساعده الثاني، ليف جيفريمنكوف، بالاهتمام بالقارب، بينما قرر أن يغيب لمدة ثلاثة أيام يقضيها في معاقرة الخمر وبين أحضان النساء. وبينما كان يستلقي سكران ومنتشياً في أحد بيوت الدعارة، وصل الأمر ببدء القتال. قبل انتهاء اليوم، بدأت الشرطة العسكرية الروسية تبحث عنه، لأنّهم تلقوا أوامر من الاستخبارات السوفيتية لتوجيه الاتهام له بالفرار والتعاون مع العدوّ.

عندما عثر أفراد الشرطة أخيراً على مارينسكو في حمام ساونا فنلندي، حيث كان العرق ينزل من جسمه بغزارة بسبب تناوله كميات كبيرة من البونتيكا وهو مشروب كحولي فنلندي لاسع يكون طعم الفودكا مقارنة به مثل حليب الأطفال لم يكن يتذكر في أيّ منزل عاهرة قضى وقته أو كم عدد النساء اللواتي نام معهن. لم يصدق رجال الاستخبارات الذين يشكون بكل شخص توضيحاته؛ فقاموا باستجوابه بقسوة. يودون معرفة أين أمضى آخر 72 ساعة؟ وهل كان على اتصال مع الأجانب؟ مع أن توركو كانت ميناءً فنلنديّاً، وكان الفنلنديون يفضلون الألمان على الروس. تمنى القائد أورجيل أن تهدأ الأمور. كان بحاجة إلى كلّ غواصة لتنفيذ أمر الرئيس ستالين. قام جمكوشيان مفوض الاستخبارات السوفيتية بتجاوز القائد البحري أورجيل واستمر في استجواب مارينسكو، الذي تمسك بقصته والذي كان في حالة سكر شديدة لدرجة أنّه لا يستطيع تذكر تفاصيلها. أثناء تبادلهم النقاش الساخن، ارتكب مارينسكو غلطة لا تغتفر حين شكك بشجاعة مفوض الاستخبارات السوفيتية من خلال وصفه بشخص يسارع إلى اتهام الآخرين بالفرار بينما يحرص هو نفسه

على عدم الاقتراب من الجبهة. وسوف تنتج عن هذا الحادث المؤسف عواقب وخيمة تقع فوق رأس قائد الغواصة.

أراد جمكوشيان تقديم مارينسكو على الفور إلى محكمة عسكرية، لكن تمّ منعه من قبل ضابط البحرية الأعلى، القائد فيرشوفسكي، الذي كان يتصرف نيابة عن الأدميرال نيكولاي كوزنيزوف، الذي كان يخشى أن يؤدي إطلاق النار على ضابط، يحظى بشعبية وسط طاقمه، إلى حدوث تمرد على متن الغواصة. تعزز شعوره هذا عندما تمّ تقديم عريضة إلى الأدميرال موقعة من طاقم الغواصة أس. 13 بأكمله، بما فيهم مساعد القبطان، ليف جيفريمنكوف. أنقذ هذا الالتماس مارينسكو، ولو مؤقتاً فقط. بمجرد أن تمّ الإفراج عنه وعاد إلى غواصته، غادرت الغواصة أس.13 ميناء توركا للانضمام إلى مجموعة من القطع البحرية التي أطلق عليها لقب الذئب الروسي قبالة خليج دانزيغ. وهناك، بقي مارينسكو في حالة انتظار لعدة أيام، دون أن يكتشف أيّ سفينة للعدوّ.

لم يكن مارينسكو منضبطاً إلى حدّ بعيد وفي الوقت نفسه كان من ذلك النوع من قادة الغواصات الذين ولدوا وهم يمتلكون بالغريزة القدرة على شم رائحة طريدتهم. أدرك بغريزته أنَ الألمان كانوا يقومون بنقل الرجال والمواد من مدينة غوتينهافن، وليس بيلاو. لقد ارتكب الآن خطأ آخر لا يغتفر. دون أن يكلف نفسه عناء إبلاغ مقرّ القيادة البحرية السوفيتية في كرونشتادت، قام بترك موقعه المحدد له وتوجه إلى طرف شبه جزيرة هيل، وهي نقطة عصية على ممرات الشحن في بحر البلطيق. من تلك اللحظة فصاعداً، فقدت البحرية السوفيتية كلّ اتصال مع الغواصة أس 13، وأصبح لدى الاستخبارات السوفيتية الاعتقاد الراسخ بأن قائد الغواصة قد انضم إلى الألمان. في الواقع، كان ما حدث فعلياً هو شيء مختلف تماماً. وبرّر مارينسكو سبب قيامه بهذه الخطوة إلى فلاديمير كريلوف المفوض السياسي الموجود على متن الغواصة، بالقول: «لن يكشف الفاشيون عن أنفسهم بهذه الطريقة. أنا متأكد أن هذا هو المكان الذي يتواجدون فيه!».

ضغط بإصبعه على نقطة في الخريطة البحرية تشير إلى موقع لمياه ضحلة يقع على ضفاف نهر ستولب (نهر في شمال غرب بولندا، وهو أحد روافد بحر البلطيق - م) وقال: «سوف أتوجه إلى شبه جزيرة هيل. بالطبع هناك دائماً خطر وجود ألغام، لكن إذا كانت السفن النازية تستطيع الخروج منه، فباستطاعتي أيضاً دخوله. الأمر يستحق المخاطرة...».

وبينما كانت الغواصة أس. 13 تبحر جنوباً لتنتظر في الموقع الذي كان واضحا أنّه سيتعين على سفن العدوّ المرور فيه، فإنّ إجلاء الآلاف من لاجئي بروسيا الشرقية قد تصاعد بنسب عالية. تمّ حشر السفن بالركاب إلى أقصى طاقتها تقودها الأطقم الكفوءة للغواصات الألمانية المتخرجة من مدرسة التدريب[4]، مع طاقم من موظفات البحرية، والآلاف تلو الآلاف من النساء والأطفال، الذين تجمعوا على طول الأرصفة، وكانت النساء تخشى من أن يواجهن مصيراً مماثلاً لما واجهته النساء في مدينة نيمرسدورف.

كانت إحدى سفن الإخلاء هذه هي السفينة فيلهلم غوستلوف،[5] وكانت سفينة ضخمة حقّاً، تتسع مقصورتها وقت السلم لـ 1465 مسافراً. لكن في 30 كانون الثاني 1945، وهو اليوم الذي أبحرت فيه من مدينة غوتينهافن، استوعبت ما يقرب من ثمانية أضعاف ذلك العدد؛ انحشر 10582 شخصاً على متنها واحتلوا كلّ زاوية وركن فيها.[6] وتوجب على 370 امرأة شابة من مدرسة تدريب البحرية النوم في قاع حمام السباحة المفرغ من المياه. ولأول مرة، كانت السفينة غوستلوف تبحر تحت قيادة مزدوجة؛ القبطان المدني السابق للسفينة فريدريش بيترسن وضابط البحرية القائد الملازم فيلهلم زان. وتسبب هذا في خلق فوضى في القيادة

4- تمّ تدريب هذه الطواقم على تولي قيادة الغواصات الجديدة والقاتلة من النوع 21 و23، وهي نوع ممتاز للغاية من الغواصات تسببت في إحداث قلق كبير في دوائر البحرية البريطانية.

5- سميت على اسم زعيم الحزب النازي السويسري الذي اغتيل.

6- تمّ إحصاء العدد الإجمالي للمسافرين من قبل هاينز شون، أحد الناجين، والذي كرس حياته لجمع جميع البيانات على السفينة وصنع أرشيفاً بذلك.

على متن السفينة، لأن بيترسن كان يعتبر نفسه قبطانها طبقاً لمبدأ السفن البحرية التجارية أنّ للسفينة رباناً واحداً، يسير بها تحت رعاية من الله.

غادرت السفينة فيلهلم غوستلوف ميناء غوتينهافن وسط عاصفة ثلجية مظلمة. وصلت درجة الحرارة في الخارج إلى 20 درجة مئوية تحت الصفر وانخفضت درجة حرارة الماء إلى ما يقارب درجة الانجماد ووصلت إلى 3 درجات مئوية.[7] وكانت الوسيلة الوحيدة التي تمتلكها السفينة غوستلوف لحمايتها من الغواصات السوفيتية الغادرة، هي زورق طوربيد واحد، وكان يسمى لوفا، لأن سفينة الحماية الثانية كان فيها ثقب يحتاج إلى تصليح. ومما زاد الطين بلة، أن كاشف الغواصات في زورق الطوربيد لوفا قد تجمد نتيجة البرودة الشديدة فتوقف عن العمل. على أيّ حال، فإنّ الغواصات السوفيتية لم تكن همهم الرئيس لأنّها كانت غير نشطة بشكل أساسي. كان الخطر الأكبر الذي يخشاه القباطنة الألمان هو سلاح الجوّ الملكي، الذي كان قد أسقط ما مجموعه 2013 لغماً عائماً في ممرات السفن حول ميناءي غوتينهافن وسوينموندِه.[8] وهكذا انطلقت السفينة غوستلوف عند ظهيرة يوم 30 كانون الثاني 1945. ومع تساقط الثلوج عبر البحر الهائج وتلاشي الضوء بسرعة، سيحل الظلام قريباً. انسلّت السفينة التي غطاها الظلام لتخترق ذلك المكان الموحش. ارتفعت حدة النقاش في غرفة القيادة في السفينة غوستلوف بين القبطان بيترسن والملازم فيلهلم زان حول استخدام الأضواء الملاحية. ظنّ، القائد العسكري، أن هذه دعوة للتخلي عن موقعهم في حين إن بيترسن كان يخشى حدوث تصادم مباشر مع حقل الألغام في القناة الضيقة المليئة بالمياه الضحلة.

في النهاية، انتصر رأي بيترسن وفي تمام الساعة 19:30، بالقرب من حقل الألغام قبالة ساحل مدينة ريكسهوفت، التي تبعد حوالي عشرة أميال

7- على سبيل المقارنة، بلغت درجة الحرارة في كارثة السفينة تايتانيك 4 درجات مئوية.
8- خسر الألمان بسبب هذه الألغام ثماني عشرة سفينة.

(16 كم) عن ساحل منطقة بوميرانيا. تمّ تشغيل أضواء الملاحة في السفينة وسرعان ما اجتازوا المياه الضحلة الخطيرة عند ضفة نهر ستولب، ومن هناك سيجدون مياهاً عميقة إلى الجنوب من جزيرة بورنهولم. لم يكن بيترسن قلقاً للغاية، فقد شعر بحماية كافية؛ فبالإضافة إلى إبحاره في منطقة قريبة من البحر كان لديه زورق الطوربيد لوفا، وفي اتجاه الشاطئ كانت ترسو أعداد كبيرة من السفن الألمانية.

كانت الغواصة أس 13 عند سطح البحر، تعيد شحن بطارياتها، تجثم وهي في حالة انتظار على بعد اثني عشر ميلاً (19 كم) قبالة ساحل بوميرانيا على الطرف الشرقي من ضفة سلوب وفجأة، شاهد الملازم فينتوغرادوف الذي كان في برج المراقبة ومن خلال موجات الثلج الكثيفة، أضواء شيء ما. اعتقد أولاً أنّها صادرة من منارة ميناء ريكسهوفت، لكن عندما تحركت، عرف أنّها كانت سفينة وأبلغ مارينسكو الذي أطلق صفارة الإنذار. كانت خطته للهجوم واضحة؛ إذا كان الطقس معتماً، لن يقوم بالغوص، بل يستخدم غواصته كسفينة هجومية ذات طوربيد. استخدم الألمان هذه التقنية بنجاح مذهل، لكن هذه الطريقة كانت مخالفة لأيّ شيء منصوص عليه في كتيبات الغواصات الروسية (أو البريطانية)، حيث تترك الغواصة ظاهرة للعيان أمام أيّ هجوم جوّي. لم يكن هناك خطر من هذا النوع في مثل هذا الطقس. كان هناك سبب آخر: الطوربيدات السوفياتية كانت ذات تصميم قديم،[9] لم تختبر بشكل كبير ولا يمكن الاعتماد عليها عندما تطلق من عمق معين، وأراد أن تكون عملية القتل مؤكدة تماماً فتجنب مرور الطوربيد في مسار ذي مياه ضحلة.

كانت هناك سفينة كبيرة وأخرى أصغر منها تقتربان منه. فسار مارينسكو بمقدمة الغواصة ليبتعد عن خطر السفينة الصغيرة التي كانت

9- لقد باعهم الألمان الغواصات، ولكن لم تبع لهم أحدث تقنياتهم للطوربيدات، وكانت الطوربيدات السوفيتية مصممة وفق الطراز الألماني القديم للحرب العالمية الأولى، والذي كان غير مستقر إلى حدّ كبير.

تبحر عند جانب البحر، والتي افترض بشكل صحيح أنّها كانت سفينة حماية. ثم ذهب إلى ضباطه والمفوض السياسي لإبلاغهم بقراره: علينا أن نلتف حول سفينة الحماية هذه ونشنّ هجوماً عليها من الجانب الساحلي؛ فهم لن يتوقعوا حدوث أيّ هجوم من هناك، فعيونهم لا تحدق سوى في البحر.

شقّت الغواصة الملساء طريقها عبر البحر العاصف، وسرعان ما باتت تتحرك في مسار موازٍ لهدفها يبعد كيلومترين عنه، وكان مارينسكو يعتقد أنّه عابرة محيط وقدر وزنها حينها بعشرين ألف طن. أدّت الحركة التي قام بها إلى أن يقع مكان الغواصة أس 13 بين سفينة العدوّ والشاطئ، وهو مكان خطير؛ إذا حدث أيّ شيء خطأ - مثل أن يتمّ رصدهم بواسطة سفينة الحماية سوف يقعون في فخ قاتل، وحينها لن يستطيع الإفلات لأن عمق المياه تحت عارضة الغواصة كان لا يتجاوز 30 متراً (حوالي 1000 قدم) فقط، ومثل هذا العمق لا يكفي للغوص.

تمّ تجهيز أنابيب الطوربيدات في مؤخرة الغواصة. كان يحمل كلّ منها طوربيده القاتل، واسماً تعريفيّاً منحه له طاقم الغواصة. الأنبوب الأول: «فداءً للوطن الأم روسيا»؛ الأنبوب الثاني: «فداءً للزعيم ستالين»؛ الأنبوب الثالث: «فداءً للشعب السوفيتي»، والأنبوب الرابع: «فداءً لمدينة لينينغراد». جهزت الطوربيدات للانطلاق من عمق ثلاثة أمتار. للتأكد من إصابتها الهدف، كان من المقرّر إطلاق الطوربيدات الأربعة على مسافة قريبة من الهدف. عند الساعة 20:55 (بتوقيت ألمانيا) أعطى مارينسكو أوامره لوضع الغواصة في حالة هجوم. غمرت المياه الخزانات وتمّ إنزال الغواصة إلى العمق المقرّر لإطلاق الطوربيدات، ولم يبقَ سوى البرج المخروطي ظاهراً فوق الأمواج. لن تمرّ سوى دقائق، حتى تمرّ السفينة الألمانية العملاقة ومن على مسافة 600 متر فقط (666 ياردا) من أمام أنابيب الطوربيدات الأربعة الموجودة في مؤخرة الغواصة أس.13 كانت الدقائق تمضي، حتى ظهر فجأة ظلّ أسود ضخم وهو يتهادى في

البحر عبر زخات الثلج. في تمام الساعة 21:04 من صباح يوم السبت، قدم ضابط الملاحة ريدكوبورودوف تقريراً أخيراً عن سرعة سفينة العدوّ الضخمة والمسافة التي تبعد بها عنهم. في الساعة 21:08، أصدر مارينسكو أوامره: «أطلقوا الطوربيد الأول... أطلقوا الثاني... أطلقوا الثالث... أطلقوا الرابع!».

انطلقت جميع الطوربيدات، باستثناء واحد: الطوربيد الثاني، الذي يحمل لقب «فداءً للزعيم ستالين» وكان لا يزال داخل الأنبوب المغمور بالمياه، بينما كانت مروحته تدور، وهكذا فقد ينطلق ذاتيّاً. ويمكن أن ينفجر في أيّ لحظة. بعد وقت قصير، هزّت الغواصة السوفيتية سلسلة من الانفجارات العنيفة. رأى مارينسكو من خلال نظارته الليلية ثلاث كرات نارية ضخمة، ثم بدأ الهدف يميل إلى الأمام تقريباً. اجتاحت موجة عالية قمة برج الغواصة، فغمرت المياه المراقبين المتواجدين فيه. في تلك الأثناء أبلغه المسؤول عن إطلاق الطوربيد الأول، فلاديمير كوروتكين، عن أن هناك طوربيداً عالقاً في الأنبوب الثاني.

لاحظ كوروتكين، عندما دفع المكبس ذا الضغط العالي، أن الطوربيد «المخصص لستالين» لم يصدر عنه الصوت المعتاد للطوربيد المنطلق. فقام بدفع المكبس مرة أخرى، لكن لم يحدث شيء. بعدها علم أن مراوح الطوربيد كانت تدور، وهذا يعني مجدداً أن الطوربيد سينطلق ذاتيّاً داخل الأنبوب! لا يتطلب الأمر سوى هزة بسيطة حتى ينفجر ذلك الشيء الرهيب. فهرع إلى برج الغواصة لتحذير مارينسكو من الخطر الوشيك. تسبب هذا التحذير في تحويل انتباه قائده بعيداً عن الهدف الذي كان يغرق وجعله يدخل في حالة طوارئ.

لم يكن باستطاعته إيجاد حل لمشكلة الطوربيد دون المجازفة بإحداث تفجير داخلي. وبينما كان الآلاف من اللاجئين على متن السفينة غوستلوف يكافحون في حالة من اليأس المطلق للوصول إلى قوارب النجاة، كان طاقم الغواصة تحت قيادة كوروتكين يعمل بحماسة لمحاولة

إيقاف محرك الطوربيد، الذي كان مع كلّ دورة لمروحته، يجعلهم أقرب إلى الكارثة. انغمس الجميع بإيجاد حل لهذه المشكلة، إلى حدّ تركهم الغواصة تنجرف لتصبح بمحاذاة أول قارب من قوارب النجاة التي تمّ إنزالها إلى الماء. وقد روى الناجون من ركاب السفينة الألمانية فيما بعد كيف مرت قربهم غواصة كان فيها رجال يتجادلون بعضهم مع بعض باللغة الروسية. كان رجال الغواصة أكثر حظّاً من ضحاياهم. تسبب عطل آخر، حدث هذه المرة في حجرة ضغط الهواء في الطوربيد، إلى توقف محركه عن العمل. تمكن كوروتشكين مسؤول الطوربيد ومساعدوه، وهم معلّقون بالحبال من الجانب، بطريقة أو بأخرى من دفع الطوربيد «الخاص بستالين» المدهون بشحم المكائن داخل الأنبوب. بعدها قاموا بإقفال الأنبوب. حانت اللحظة التي طال انتظارها لينطلق الطوربيد. اتصل مساعد مسؤول الاتصالات شنابزيف لاسلكيّاً ببرج الغواصة وأبلغ مسؤول الاتصالات فيه انه أصبح بإمكانه أن لا يسمع من خلال سماعات أذنه صوت تصدع صفائح بدن السفينة المستهدفة وهي تتحطم فحسب، بل ويسمع أيضاً الضوضاء المميزة للغاية لمروحة السفينة وهي تقترب بسرعة.

صرخ مارينسكو: «اجعلوها تغوص في الماء!»، وهو ينزل من برجها. غمرت المياه خزانات الغطس، واختفت الغواصة أس 13 في المياه الضحلة.[10] تركوا وراءهم مشهداً مرعباً، لم يسبق لبحر مليء بالزبد أن غطته الآلاف من الرؤوس وهي تتماوج وأصحابها يكافحون من أجل إنقاذ حياتهم وسط الأمواج العالية، والمياه الجليدية الباردة والظلام. لم يدرك مارينسكو ولا طاقمه أنّهم تسببوا للتوّ في حدوث أكبر مأساة بحرية على الإطلاق، مما جعل كارثة السفينة تيتانيك تبدو تافهة مقارنة بما حدث.

10- لا يزال حدث اقتراب قوارب النجاة من الغواصة، كما أفاد به الناجون الألمان، لغزاً، حسب سجلات الغواصة أس 13 فإنّها على الأغلب غطست فور انفجار السفينة غوستلوف.

بعد مرور 62 دقيقة، بينما كانت السفينة فيلهلم غوستلوف على وشك الاختفاء، عادت مولدات السفينة التي كانت متعطلة للعمل. كان الأمر كما لو أن السفينة ترفض أن تختفي عن الوجود. كانت أضواؤها تتألق ببراعة من جميع فتحاتها، وصفارات إنذارها تدوّي. بعدها، وعلى حين غرة بدأت تلك السفينة المهيبة التي صممها النظام الفاشي للقيام بالرحلات الترفيهية المعروفة باسم «القوة من خلال السعادة»، تميل إلى الأمام ووسط تصاعد النيران، انزلقت تحت الأمواج، وقد أخذت معها أرواح 9582 شخصاً كانوا على متنها[11].

بعد عشرة أيام، أغرقت الغواصة أس 13 التي يقودها مارينسكو سفينة إجلاء ضخمة أخرى. كان مشغل جهاز السونار فيها قد التقط صوت مروحة سفينة. ظهرت قافلة من السفن، تتوسطها، سفينة كبيرة، والتي أخطأ مارينسكو بتمييزها فاعتقد أنّها طراد ثقيل من نوع إمدن. هذه المرة كانت غواصته مغمورة بالمياه بشكل جيد. في الساعة 00:53 من يوم 10 شباط 1945، وعلى مسافة 4000 متر (4444 ياردا)، أطلق مارينسكو طوربيدين. تمكن كلاهما من إصابة السفينة. ضرب أحدهما أسفل غرفة القيادة، وذهب الثاني إلى حجرة المحرك. لم يكن هذا طراداً ثقيلاً، بل سفينة الركاب الفاخرة «فون ستوبين» التي يبلغ وزنها 14، 660 طنّاً، وكانت مليئة إلى حدها الأقصى باللاجئين. تعرضت السفينة إلى إصابات شديدة، وقد حكم على من كانوا على متنها بالموت في المياه المتجمدة. في غضون دقائق، ارتفعت مؤخرة السفينة عالياً من وسط المياه وانحدرت السفينة الكبيرة إلى الأعماق. كانت هناك فقاعات قليلة تشير إلى المكان الذي دفنت فيه. نجح مارينسكو وغواصته أس 13 مجدداً في توجيه ضربة لواحدة من السفن الألمانية، وفي هذه المرة تسببت في وفاة 3408 فرد.

11- على الرغم من أن السفينة لم تكن تحمل قائمة ركاب، إلّا أن العدد وصل إلى هذا الحدّ من خلال طرح عدد الذين نجوا من عدد اللاجئين والجرحى المعروف أنّهم استقلوا السفينة.

في عشرة أيام، تسبب قائد غواصة في وفاة أشخاص كان عددهم يفوق عدد ضحايا جميع الكوارث السابقة التي شهدتها سفن المسافرين في القرن العشرين مجتمعة، بما في ذلك السفينة تيتانيك[12].

عندما عاد مارينسكو منتصراً إلى توركا، وحيث إنّه قد وضع في باله أنّه نجح في إغراق سفينتين كبيرتين، فلم يكن يتوقع شيئاً أقل من منحه لقب «بطل الاتحاد السوفيتي». قبّله زملاؤه وربتوا على ظهره، وبدؤوا بتوزيع زجاجات الفودكا، بينما كان رجال الاستخبارات السوفيتية ينتظرونه في الخفاء لغرض استجوابه بشأن قضية اختفائه تلك. لم يحصل مارينسكو على ميدالية البطل التي كان يتوقعها، وتمّ التكتم على مصير السفينة ويلهلم غوستلوف والجنرال فون شتاوبن؛ بالنسبة للألمان كان الأمر مفهوماً تماماً؛ لكن بالنسبة للسوفييت، لم يعرف أحد أبداً سبب إخفاء أخبار انتصاراتهم، فقد التزم السوفيت الصمت أيضاً. ربما لم يدركوا الأبعاد الكاملة للحدث المثير، أو، إذا كانوا قد أدركوه، فقد كانوا لا يرغبون في أن يطلعوا حلفاءهم على الخسارة الفادحة في أرواح المدنيين. كان انحرافاً غريباً عن حقائق التاريخ، فللمرة الأولى، لم يكن لدى الحلفاء أيّ شيء يشكون منه في سلوك ستالين في الحرب. تعرض روزفلت إلى ضغط من ستالين في مؤتمر يالطا ليوافق على ضمه لمدينة غدانسك، والتي كان من المعروف لدى البريطانيين والأمريكيين أنّها كانت تضم مركز تدريب لطواقم الفئة الأكثر تطوراً من الغواصات الألمانية من فئة 21 و23 والتسبب في خسائر كبيرة في صفوف هذه الأطقم العالية التخصص لا يمكن أن يصب في خدمة جهود الحلفاء الحربية.[13]

بالنسبة إلى مارينسكو، كان غواصاً أطلق طوربيداته الخمسة على

12- بلغ العدد الكلي للأرواح التي أزهقت على متن السفينة تيتانيك، 1517 شخصاً.

13- في اليوم الذي ألقى فيه الأمريكيون القبض على فيرنر فون براون ومن معه من اختصاصيي الصواريخ الذين ساعدوا الولايات المتحدة في تطوير صواريخهم، حصل الروس على تصاميم الغواصات الألمانية وأصبح أسطول الغواصات السوفيتية هو الأقوى في العالم باستخدامهم التصميمات الألمانية الأصلية.

سفن العدوّ؛ لم يخبره أحد أبداً عن الحجم الحقيقي للكارثة الإنسانية التي سببها. علاوة على ذلك، فهو بعد أن أمضى سنوات الحرب في لينينغراد المحاصرة، والتي مات فيها مليون شخص بسبب الجوع، لم يكن يهتمّ بقتل بعض «المعتدين الفاشيين». ولكن هل كان هناك ما يشير إلى أن غوستلوف كانت سفينة لنقل اللاجئين؟ لم يكن لهذا السؤال على الأغلب إجابة شافية. فقد أبحرت السفينة وسط العتمة ولم تظهر عليها علامات الصليب الأحمر (التي يمكن تمييزها بوضوح)؛ كانت مسلحة بمدافع مضادة للطائرات، مما جعلها سفينة حربية؛ وأخيراً، يمكن لآلة الدعاية السوفيتية أن تصفها بشكل مبرر أنّها كانت ناقلة للجنود، حيث كان على متنها، بالإضافة إلى العديد من الجرحى، 1000 جندي ألماني من خيرة منتسبي مدرسة تدريب الغواصات.[14] نظراً لكل ما سبق، وبموجب الاتفاقية الدولية التي تحكم قوانين البحار، يمكن اعتبار إغراق السفينة فيلهلم غوستلوف أمراً مبرراً.

أوضح مارينسكو سبب قيامه بإغراق السفينة غوستلوف أمام لجنة التحقيق قائلاً: «لبضع لحظات توقف الثلج عن السقوط ورأيت ملامح سفينة عملاقة. كنت على يقين من أنّها كانت مليئة بالرجال الذين دنسوا تربة الوطن الأم روسيا وكانوا يحاولون الفرار. كان يجب أن تغرق الباخرة، وكنت الرجل الذي قام بذلك». ومع ذلك وجهت له العقوبة الرسمية بقتل جميع الألمان؛ كتب إيليا إهرينبورغ شاعر بلاط الزعيم ستالين، بياناً دعائيّاً تمّ توزيعه في جميع وحدات الجيش الأحمر والأسطول السوفيتي، يحرض الجنود على العنف والموت: «اقتلوهم، يا أبطال الجيش الأحمر. اقتلوهم! لا شيء يمكن أن يجعل الألمان بريئين».

مع وصول الحرب بسرعة إلى نهايتها، بدأ مارينسكو البالغ من العمر 32 عاماً يلحّ على قادته في البحرية للتوصية بمنحه لقب بطل الاتحاد

14- بعد الحرب، أصدرت وسائل الدعاية السوفيتية بياناً، ادّعت فيه أن عدد الذين كانوا على متن السفينة غوستلوف كانوا 3000 شخص.

السوفيتي، وهو ما اعتبره المكافأة التي يستحقها لقيامه بعمل عظيم في خدمة الوطن الأم. في الواقع، وباعتباره قائداً للغواصة أس 13، فإنّ مارينسكو أغرق من سفن العدوّ عدداً يفوق ما أغرقته أيّ غواصة سوفيتية أخرى أو قائد سفينة تسير على سطح البحر. تعرض اقتراح بعض أعضاء قيادة أسطول بحر البلطيق، بمن فيهم الأدميرال نيكولاي كوزنيزوف، لتكريم مارينسكو بمنحه لقب «بطل الاتحاد السوفيتي»، إلى النقض من قبل الاستخبارات السوفيتية التي ذكرت مارينسكو بعطلة نهاية الأسبوع التي ضيعها في توركا وتركه غير المنضبط لموقع غواصته الذي خصص لها قبالة خليج غدانسك. بالنسبة إلى مارينسكو، أصبح الوضع خطيراً تماماً؛ مع الانتصار في الحرب، لم يعد ستالين في حاجة إلى مدافعين أبطال عن البلاد، وأصدر أوامره إلى الشرطة السرية للبحث عن المتعاونين مع العدوّ والمنشقين. وبسبب إهاناته لمفوض الاستخبارات السوفيتية، تمّ فتح ملف قضية تخص مارينسكو.

«ساشا (اسم التحبب من ألكسندر بالروسية – م)، اترك هذا الموضوع»، بهذه العبارة نصحه صديقه ليف جيفريمنكوف. «لقد انتهت الحرب. وعاجلاً أم آجلاً، سوف يجعلونك أميرالاً». لكن صبي الأحياء الفقيرة في أوديسا لم يستسلم. لقد أغضب رؤساءه لدرجة أنّهم طردوه من سلاح الغواصات، وأخيراً من سلاح البحرية كلّه. بعدها وجد عملاً في مستودع لمستلزمات البناء في لينينغراد، وكان يحاول التغلب على تعاسته من خلال تناول الكحول وملاحقة النساء، ودخل في مشاجرات ومعارك بالأيدي، وتمّ إلقاء القبض عليه من قبل خصمه مفوض الاستخبارات السوفيتية المرعبة في عهد ستالين والتي باتت تعرف باسم الكي. جي. بي. (وكانت سابقاً تعرف باسم كي. في. دي.). لفّق له جمكوشيان قضية متهماً إياه بسرقة مواد بناء، وهي جريمة كانت قد اكتشفها مارينسكو بالفعل وكان يحاول لفت انتباه الشرطة المحلية. ومع ذلك وكما يحدث في الروايات السيئة حيث يتمّ الإيقاع بالرجل الطيب، فقد تمكن الجاني الحقيقي، وهو

رئيس مارينسكو وبمساعدة من رجل الكي. جي. بي. الذي تواطأ معه، من الإفلات منها ليُتهم بها مارينسكو بدلاً عنه.

في العادة كانت هذه هي نهاية القصة، ولكن في تناقض غير مألوف لمحاكمة تجري في روسيا في عهد ستالين، وقف المدعي العام إلى جانب المتهم ووجد أن التهمة الموجهة له لا أساس لها. وحكم له بالبراءة. ورغم ذلك، قررت المحكمة الخاصة، المؤلفة من مجموعة من ثلاثة من مفوضي الكي. جي. بي. شيئاً مختلفاً. لم يتمكنوا من اتهامه بارتكاب جريمة سياسية والذي كان تخصصهم؛ كان من الممكن أن يتهموه بالسكر، وكان من الممكن أن يتهموه بإهانة مسؤول حكومي، وهو زميلهم جومكوشيان، لكن ذلك لم يكن ليدينه بتهمة تكون عقوبتها شديدة. اشتد غضب مفوضي الكي. جي. بي.عليه. توصل القضاة الثلاثة في محاكمة سرية إلى إنزال عقوبة سرقة ممتلكات حكومية بحقه! وهكذا، فإنّ قائد الغواصة، بدلاً من الحصول على ميداليته، تمّ إرساله إلى أسوأ معسكرات الاعتقال في سيبيريا، الذي كان يدعى كوليما، أو كما كان معروفاً: معسكر الموت في القطب الشمالي. حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات وقضى عشر سنوات. كان يعمل ست عشرة ساعة يوميّاً، ولسبعة أيام في الأسبوع، في أعماق المناجم، ويتعرض للضرب على أيدي المشرفين المتوحشين، وكان يحرم من الطعام لأدنى حادثة، وينام على أرض متجمدة في خيام مرقعة، كان هذا هو مصير البطل السوفيتي.

قوبلت استفسارات رفاقه السابقين عن مصير قبطانهم بصمت مطبق. ومثلما حدث لعدد لا يحصى من الأشخاص الآخرين، فإنّ نزوة بعض أعضاء اللجنة المركزية للحزب أو شخص ذي نفوذ كانت تحول البطل بكل قسوة إلى «نكرة». كان مارينسكو واحداً من هذا القبيل، تمّ إرساله ليموت في بعض الثقوب السوداء المهجورة، بعيداً جدّاً عن البحر الذي كان يحبه كثيراً. لقد نسي روعة المحيط وطعم الملح على شفتيه؛ الأهم من ذلك كلّه أنّه نسي التنفس بحرية. في لحظات اليأس، تمنى لو أن قنبلة

من قارب الطوربيد الألماني قد أصابت غواصته. لكان الأمر حينها قد انتهى بسرعة، من دون هذا الألم الطويل المتمثل في الانتظار ومن دون وجود أمل في أن يأتيه الفرج في يوم ما. ولكن بينما مات عشرات الآلاف من الجوع أو جمدوا حتى الموت في معسكرات الاعتقال، نجا مارينسكو من أهوال معسكر كوليما. بعد عامين من وفاة ستالين، في عام 1955، تمّ السماح لمارينسكو المتعب والمريض بالعودة أخيراً إلى لينينغراد.

استغرق الأمر ست سنوات أخرى قبل أن تتمّ إعادة الاعتبار إليه من خلال برنامج وثائقي تمّ عرضه على التلفزيون السوفيتي حول انتصار الجيش الأحمر في دول البلطيق، والذي أشار إلى (قضية السفينة فيلهلم غوستلوف). وقد عين القبطان من الدرجة الثالثة أ. مارينسكو قائداً للغواصة أس 13 التي تسببت في غرق السفينة. في عام 1961، أضاف المتحف البحري السوفيتي لينينغراد لوحة لغواصة مارينسكو، مع توضيح كتب فيه: «... الغواصة أس 13 التي شاركت في الهجوم على سفينة الفاشية الألمانية فيلهلم غوستلوف التي يبلغ وزنها 25000 طن، والتي استخدمها النازيون لإجلاء أفراد جيشهم من بروسيا الشرقية». لم يتمّ ذكر مصير الآلاف من المدنيين الذين كانوا على متن السفينة.

توضح قضية السفينة فيلهلم غوستلوف أن كلّ حرب لها وجهان؛ ففي حين إن إحدى الدول تنعى ضحاياها، فإنّ الأخرى تمجد شخصية البطل. حتى منتصف الستينيات من القرن الماضي، لم يظهر اسم ألكسندر مارينسكو في أيّ كتاب تاريخ سوفياتي رسمي يتناول قتال الجيش الروسي في البحر. في تشرين الأول 1963، أي بعد ثمانية عشر عاماً من إنجازاته العسكرية، تمّ تكريم مارينسكو بشكل خاص من قبل عدد من كبار الضباط السابقين، بمن فيهم أدميرال الأسطول السوفيتي نيكولاي كوزنيزوف وإيفان إيساكوف.

أخيراً تخلص مارينسكو من حالته كنكرة. عندما سئل عن رأيه في غرق سفينة محملة باللاجئين، لم يبدِ أيّ ندم. لم يكن ينظر أبداً إلى

أولئك الذين غرقوا في المياه الجليدية سوى أنّهم جنود العدوّ الذين ألحقوا الأذى ببلاده.

(لقد أغرقت سفينتين. كانتا ألمانيتين. بالنسبة لي، ولكل شخص في روسيا، ألمانيا كانت عدوّتنا). أعاد تأكيد هذه الفكرة مسؤول رفيع المستوى. يعتبر القائد الأعلى للأسطول السوفيتي، وهو الأدميرال أس. جي. غورشكوف، الذي اعتبر الهجوم على السفينة فيلهلم غوستلوف عملاً بطولياً لا يمكن مقارنته بأيّ عمل آخر، والذي لا يوجد له مثيل في تاريخ الحروب البحرية بأكمله.[15]

بالنسبة لمارينسكو، فإنّ تكريمه قد وصل متأخراً للغاية. بعد ثلاثة أسابيع من إعادة تأهيله، تمّت إعادة تصنيفه (كمتقاعد) وصرف معاشه التقاعدي وبعد ثمانية عشر عاماً كاملة تمّ الاحتفال بالحدث أخيراً وتمّ تقديم الطبق المفضل لقائد الغواصة وهو «الخنزير الرضيع المشوي»[16] توفي ألكسندر مارينسكو، ضحية مرض غير قابل للشفاء كان قد أصابه خلال (السنوات التي قضاها في جناح السرطان) في معسكرات الاعتقال التي أقامها ستالين في سيبيريا. أقيمت (لملك إغراق السفن في الأسطول السوفياتي) والذي كان بلا منازع مراسم دفن عسكرية في المقبرة المركزية في لينينغراد، كان ضحية نظام كان قد خدمه جيداً وبأمانة، لكنه دمره في النهاية.[17]

لقد تطلب الأمر أن يمرّ ثمانية عشر عاماً أخرى، إلى سنة ظهور سياسة البيريسترويكا (سياسة إعادة البناء الإصلاحية التي قادها الزعيم السوفيتي ميخائيل غورباتشوف في ثمانينيات القرن العشرين – م)،

15- راجع: Baronov, O. and Panov, I., A Personal Enemy of the Führer, Moscow, 1967

16- كان من المعتاد في أسطول الغواصات السوفيتية، أن يتمّ تقديم طبق الخنزير الرضيع المشوي لكل طاقم عائد من رحلة ناجحة.

17- لا يبعد قبر مارينسكو كثيراً عن مقبرة طاقم الغواصة النووية كورسك التي غرقت عام 2000، والذين دفنوا في ربيع عام 2002. بالمقارنة مع هذه الغواصة النووية العملاقة، ستبدو الغواصة أس.13 وكأنّها قارب نجاة.

لإعادة تسمية الواجهة البحرية في كالينينغراد، التي كانت تعرف سابقاً باسم كونيغسبرغ، باسم رصيف مارينسكو، ومنح النقيب من الدرجة الثالثة ألكسندر مارينسكو بعد وفاته اللقب الذي كان يتوق إليه بشدة: بطل الاتحاد السوفيتي.

كان دافع مارينسكو يكمن في الروح التنافسية بحثاً عن المجد الشخصي. في تحديه المستمر لباقي قادة الغواصات السوفيت ليصبح ملك إغراق السفن، أراد الصبي القادم من الأحياء الفقيرة في أوديسا أن يثبت أنّه كان أحسن، أو أفضل من البقية. في حين إن الآخرين كانوا مسكونين بالخوف من الفشل، الذي منعهم من القيام بأعمال جريئة، أثبت تمرده أنه كان يسير على النهج الصحيح. لقد أظهر جرأة لم تكن مقيدة من قبل التخطيط الدقيق، وكانت مساوية للتهور. ولكن بعد ذلك تعرض للخيانة من قبل النظام الذي خدمه بكل قواه. استطاعت مشاعر الغيرة والحقد أن تحول بطولته إلى رحلة هوت به بسرعة في الحضيض بعد أن كان في القمة. لقد نال الوسام، والاعتراف بإنجازه البطولي، ولكن بعد فوات الأوان ولم يحدث معه أيّ فرق.

مختبر لوس ألاموس،
21 أيّار مايو 1946

الدكتور لويس سلوتين
بطل القوات المسلحة الامريكية

«اللعب بذيل النمر»

• **الدكتور ج. روبرت أوبنهايمر،**
مختبر لوس ألاموس، تموز 1945

ليرحمك ربي أيها العالِم الجليل.
أنت تعيش في قلوبنا حيثما كنت، لقد بات
حتى الغرباء يعرفون كم كانت كبيرة سعة الأفق
العالية التي تمتلك وحين صهرت بوتقة الموت
جسدك تكشف لنا أخيراً قلبك النبيل.

• **من مقال في صحيفة لوس ألاموس تايمز نشرته**
تكريماً للدكتور سلوتين، 14 حزيران 1946.

وجاءه الموت في الساعة 3:20 بعد ظهر يوم الثلاثاء. لم يكن وصوله أمراً غير متوقع؛ فقد كان الخطر موجوداً دائماً في مكان عملهم. تسبب التوهج الذي صاحبه أزيز، وأضاء فجأة المختبر، في أن يتحول لون وجوههم إلى اللون الأزرق الباهت. وعلى الفور أدرك القريبون من مكان

الحدث أنّه لم يعد هناك من مهرب. كانت الضربة المميتة غير مرئية ولا مناص منها. ومع ذلك، فإنّ التدخل السريع الذي قام به شخص واحد أدّى لإنقاذ حياة الآلاف.

وكان هذا البطل هو الدكتور لويس سلوتين.

عندما يتعلق الأمر بـ«القنبلة النووية» لا يوجد هناك من يقف على الحياد. هناك من معها، وهناك من هو ضدها. ليس هناك من يقف على التل ويتفرج. منذ أكثر من نصف قرن، استعبد الخوف من القنبلة الذرية الجنس البشري وجعله حبيس رعبه، وفي الوقت نفسه، أبقى العالم في حالة سلام غير مستقر. وسواء تمّ استخدامها من أجل الخير أو الشر، فإنّها حددت مصير القرن العشرين. «قصة اكتشاف القنبلة» هي قصة ذعر، بقدر ما هي قصة اختراع واكتشاف علمي. ليس هناك سوى خط رفيع يفصل الاكتشافات عن الاختراعات. تؤدي الاكتشافات إلى الاختراعات، ومن ثم تؤدي الاختراعات الجديدة إلى اكتشافات أكثر. لقد كان هذا عاملاً رئيساً في السباق المجنون من أجل التفوق النووي. وفي حين إن انشطار الذرة كان اكتشافاً، فإنّ تطبيقه الأولي كأداة للتدمير كان اختراعاً. الأهم من ذلك كلّه، أن «قصة القنبلة الذرية» هي أسطورة صنعها عدد من الرجال كانت مزيجاً بين عبقرية وإصرار بعض من تجرأ على تحدي النظريات الأساسية التي تبناها العلم لعدة قرون. إنها قصة تروي وقائع القيام بالتجارب وتحقيق النجاح ويقظة الضمير والظلم والخزي والعار.

بدأت قصة الطاقة الذرية قبل بضعة أسابيع من قيام الثورة الفرنسية عام 1789؛ حصل الأستاذ الألماني مارتن كلابروت على قدر يحتوي على مادة صفراء - يتكون نصفها من طين ونصفها الآخر من حبيبات الرمل. لكنهما لم يكونا رملاً ولا طيناً. جرب كلابروت جميع الاختبارات المعروفة، لكنه لم يصل إلى أيّ نتيجة. بعد أن أصابه الإحباط، وضع الوعاء على رف مما جعل الغبار يتجمع فوقه، عندما قام مساعده بتسخين فرن مختبرهم الصغير

لإجراء بعض التجارب. تذكر كلابروت الوعاء وقام بتعريض بعض المواد الصفراء إلى حرارة كبيرة. وفوجئ بأنه حصل على معدن يميل لونه إلى الرمادي لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين يتأكسد على الفور. يُعرف كلّ عنصر أساسي في الطبيعة برمزه، وحيث إن الفلكي الإنجليزي وليام هيرشل كان قد اكتشف لتوّه كوكب أورانوس (1781)، أطلق كلابروت على اكتشافه اسم: «اليورانيوم»[1]. لقد اعتقد أنّه تمكن من عزل العنصر الأساسي نفسه؛ ولكن الحقيقة، أنّه لم يحصل سوى على مركب أوكسيد اليورانيوم.

في عام 1841، استطاع الكيميائي الفرنسي إ. م. بيليجوت، عن طريق تسخين رابع كلوريد اليورانيوم مع البوتاسيوم في بوتقة بلاتينية أن يحصل أخيراً على عنصر اليورانيوم الخالص. (U-238) لم يعر أحد اهتماماً لاكتشافه. ولم يحصل جراءه سوى على معلومة مهمة هو أن اليورانيوم عنصر مشع وخطير جدّاً. بعد وقت قصير من اكتشافه، تدهورت صحة هذا الكيميائي وتوفي بعد فترة وجيزة بسبب مرض غريب، في ما كان على الأرجح أول حالة مسجلة للإصابة بالتلوث الإشعاعي.[2] وبعد اكتشاف العنصر حينها، تمّت إضافته بصيغة U-238 إلى جدول الأوزان الذرية، وأصبح يعمل به منذ عام 1803، عندما اقترح الكيميائي الإنجليزي جون دالتون النظرية الذرية للمادة. تمّ تحجيم هذا الأساس لكل الكيمياء الحديثة على أخفّ الغازات، وهو الهيدروجين، بوزنه المحدد بواحد. وعلى مدى قرن من الزمان، لم يتمّ التوجه نحو استخدامه.

يمكن الادعاء بأن العالم قد حقق الكثير من الإنجازات العلمية بسبب الحرب، لكن لا شيء مهم يمكن أن يقارن بالتهديد الذي شكلته الفاشية، التي تحدت الديمقراطيات الغربية المطمئنة في أعظم اكتشاف علمي

1- كما أن كلابروت اكتشف الزركونيوم المستخدم في المصابيح الكاشفة والمفاعلات النووية.

2- تمّ اكتشاف أول حالة مرضية للتلوث الإشعاعي بعد الحرب العالمية الأولى عندما ماتت 24 امرأة من النساء العاملات في مصانع إنتاج أقراص مؤشر الساعات المضيئة بسبب التلوث الفتاك.

وتقني في كلّ العصور. في البداية، كان لدى ألمانيا كلّ شيء - العقول القادرة على الابتكار، والوسائل التقنية للإنتاج. كان ذلك قبل أن يشرع أدولف هتلر في اضطهاد الناس ليس بسبب ما فعلوه، بل بسبب أصولهم العرقية؛ لم يستثنِ رهاب كره الأجانب الذي كان يعاني منه هتلر أصحاب أكثر العقول عبقرية في القرن العشرين. بالنسبة لضحاياه من العلماء، لم يعد الأمر مجرد مسألة ضمير، بل مسألة البقاء على قيد الحياة في مواجهة الإبادة الجماعية. لو لم يطارد هتلر علماء الفيزياء من أوروبا الوسطى، لربما كان برنامج الحلفاء لإنتاج السلاح الفائق قد وجد نفسه في ورطة كبيرة. في النهاية، تغلبت على هتلر حقيقة أن الشر قد يكون قوة عظيمة، لكنه ليس أكثر عظمة من العبقرية والإبداع والشجاعة.

لقد أصبحت عبارة «وهل هو مثل أينشتاين» طريقة لوصف شخص لا يمتلك إلّا القليل من العبقرية. إذا كان هناك مثال بارز لعقل مبهر، ولشخص اتسع أفق أفكاره إلى ما هو أبعد من العلم، فلم يكن غير ألبرت أينشتاين.

«أريد أن أعرف كيف خلق الله العالم»، قال أينشتاين هذه العبارة في اليوم الذي بدأ فيه طريقه الطويل في الاكتشافات العلمية. نعم، لقد ذكر كلمة الخلق - وليس التدمير - وقد أدّى اكتشافه أن الكتلة يمكن تحويلها إلى طاقة إلى ظهور أكثر الاختراعات لعنة في تاريخ البشرية. بحلول عام 1919، تحول «رجل القرن العشرين»، (حاز على جائزة نوبل للفيزياء عام 1921) إلى شخصية مشهورة بين عشية وضحاها بفضل ظاهرة الكسوف الشمسي التي أكدت نظرياته عندما انحرفت أشعة الضوء عن نجم بعيد بفعل جاذبية الشمس بالمقدار الدقيق نفسه الذي تنبأ به[3]. على الرغم من أنّه لم يشارك أبداً بشكل مباشر في صنع «القنبلة النووية»، إلّا أن اسم هذا

3- تؤكد نظريته النسبية أن الضوء يتحرك في خط مستقيم عبر مساحة فارغة وبالسرعة نفسها في فراغ، وأن شعاع الضوء سوف ينحني حيث منحنيات الزمكان. وأن الجاذبية تحرف منحنى الزمكان وأن هذا الانحراف يحدث بالقرب من جسم ضخم، مثل نجم ضخم.

العالم الفيزيائي الذي يحمل مشاعر إنسانية كبيرة ظلّ مرتبطاً وإلى الأبد بأكثر الأسلحة تدميراً التي أنتجها العالم على الإطلاق.

إلى جانب أينشتاين، كان هناك عالم فيزيائي مهم آخر في القرن العشرين هو إرنست روثرفورد، مدير مختبر كافنديش في كامبريدج، وهو مواطن نيوزيلندي اشتهر بإنجازاته وعرف باسم اللورد روثرفورد من مدينة نيلسون. لقد فاجأ الحقلَ العلمي عندما أعلن النتائج التي توصل إليها من أن كتلة الذرة بأكملها تتركز في نواة صغيرة بشكل لا يصدق، وأن لا بدّ أن كمية هائلة من الطاقة تربط هذه الجسيمات معاً. ماذا كانت هذه النواة؟ وفقاً لتفسير روثرفورد المبسط: إنها تدور حولها مثل نظامنا الكوكبي. تخيل أنّه إذا تمّ الافتراض أن تتضخم ذرة بحجم ملعب كرة قدم كبير، فإنّ نواتها ستظل بحجم كرة الجولف مع وجود عدد قليل من الذباب المضطرب (النيوترونات) يقوم بالطنين حولها. كانت المشكلة هي إيجاد وسيلة لإطلاق هذا المصدر للطاقة. فشلت محاولات شطر النواة بواسطة مساعدين لروثرفورد من علماء الفيزياء هما إرنست مارسدن وهانز غايغر (الذي اخترع عداد غايغر للإشعاع)، لكن هذه المحاولات أظهرت أن النواة ظلّت مستقرة تماماً وتمتص طاقة أكثر مما يتمّ إطلاقه. كان هناك شيء واحد مؤكد: الطاقة كانت موجودة، فقط في انتظار أن يجدها شخص ما ويطلقها.

بحلول عام 1931، شرح ألبرت أينشتاين نظرياته لاستخدام مصدر هائل للطاقة خلال مأدبة عشاء رسمية حضرها في برلين بدعوة من رئيس الوزراء البريطاني الزائر، رامزي ماكدونالد. لم يكن رئيس الوزراء البريطاني مهتمّاً بشكل كبير بتفسير علمي عميق لم يفهمه؛ لقد جاء إلى ألمانيا لتوقيع اتفاقية تجارية. ولكن كان هناك أحد المدعوين في العشاء استمع إليه بعناية فائقة هو البروفيسور أوتو هان[4]، الذي كان نموذجاً للأستاذ الألماني العميق التفكير الذي جعله فضوله العلمي الذي تميز به منذ مولده يبرز في الأوساط

4- تمّ إعلامه بسقوط القنبلة الذرية على هيروشيما حينما كان في منزل في كامبريدج، حيث كان أسير حرب.

العلمية. استخدم هان لتجاربه الأولية عنصراً ثقيلاً لم تتمّ تجربته حتى ذلك الحين والذي ترك في أدراج المكاتب العلمية لمئة عام. بالاعتماد على مساعدة من اثنين من الكهربائيين وعامل مخرطة، قام باختراع ماكنة غريبة. مع أنابيب فولاذية متصلة بنواة مركزية وأقراص موصولة بأسلاك ملفوفة عبر الأرضية بأغلفة تشبه السباغيتي، أعطت للماكينة مظهر الخلاط الإسمنتي المتصل بقطع من المخلفات تبدو وقد تمّ جمعها من مخزن خردوات أكثر من كون مصدرها من مفاعل اختبار. أدّت تجارب هان مع مفاعله البدائي وباستخدام كميات لا حصر لها من اليورانيوم إلى اكتشاف مهم: إن ذرة اليورانيوم تنشطر عند قصفها بالنيوترونات!

نظراً لعدم إظهار السلطات الألمانية أيّ اعتراض، أعلن هان بفخر عن اكتشافه في بحث علمي، بما في ذلك تفاصيل العنصر الأساسي الكيميائي (U-238) المستخدم في التجربة. والآن بعد أن تكشفت الحقائق، استيقظت الأوساط العلمية فجأة على احتمالات الذعر النووي. تمّ حساب أن رطلاً واحداً من اليورانيوم يمكنه إطلاق طاقة تساوي 3,000,000 رطل من الفحم! فماذا سيحدث إذا كان يمكن صنع سلاح منه – لا سمح الله! – ولا سيما إذا أصبح في أيدي ديكتاتور عديم الضمير، مثل هذا الذي كان قد توجه لتوّه إلى النمسا واحتلها، في ربيع عام 1938... كان أدولف هتلر يحرض من خلال سياساته الهوجاء على شنّ الحرب. لقد زرع في العالم المتحضر حالة من الرعب بعبارة واحدة، بإعلانه أمام جمهور كبير من أتباعه وسط هتافاتهم المجنونة في آب من عام 1939: «قد تأتي بسرعة اللحظة التي نستخدم فيها سلاحاً لا يمكن مهاجمتنا به!».

في ظلّ هذا المناخ من وفرة المعلومات العلمية وظهور شبح معاداة السامية، كان هناك شخص يهودي مجري نشيط، يبلغ من العمر 35 عاماً، يدعى ليو زيلارد، تميز بقدرته على التعامل مع التحديات الرياضية عقلياً بشكل أسرع مما كان يمكن لمعظم الناس باستخدام المسطرة الحاسبة،

عمل على فكرة غريبة للغاية إلى الحدّ الذي لم يكن هناك أحد على استعداد لتصديقه. كان الفيزيائي الشاب مقتنعاً بأن صنع القنبلة الفائقة التدمير كان أمراً ممكناً في النهاية. لم يكن المصدر الذي أثار تفكيره هو أينشتاين، ولكنها رواية خيال علمي كتبها هـ. جي. ويلز، عنوانها: العالم يتحرر. في تلك الرواية، تحدث ويلز عن سلاح للطاقة ذي إمكانيات خارقة يمكن أن يقضي على جميع سكان العالم. وكلّما كان زيلارد يتوسع في حساباته، كان يزداد اقتناعه بإمكانية تصنيع مثل هذه القنبلة. وكونه يهوديّاً، لم يكن يُسمح له بالوصول إلى كافتيريا جامعة برلين. ولغرض مناقشة النتائج التي توصل إليها، كان يلتقي مع زملائه في مقهى شعبي. وقد تلقى صدمة عندما بدأ البعض ممن كشف لهم أفكاره تظهر عليهم أعراض عبادة الفوهرر. لم يكن هناك داعٍ لقلقه على مكانته العلمية، فلكونه يهوديّاً، لم يحصل سوى على أدنى مرتبةٍ في الأوساط العلمية في برلين، وتمّ رفض أفكاره الخارقة باعتبارها (خيالات شخص يهودي مجنون).

مع ازدياد الضغوط المعادية للسامية، انتشرت شائعات عن «أعداء الشعب» في الأوساط العلمية في برلين، وخشي زيلارد من أن دوره سيأتي قريباً. فقام بعملية هروب مثيرة، بعد أن قرع عملاء الغستابو باب مسكنه الأمامي بينما كان يقبع عند الدرج الخلفي، تمكن بجواز سفره الهنغاري من عبور الحدود إلى الدانمارك، وغادر من هناك إلى لندن في خريف عام 1935. حاول إبلاغ البريطانيين حول التجارب النووية العلمية المتقدمة التي تجري في ألمانيا، وخاصة تجارب معهد كايزر فيلهلم تحت إدارة البروفيسور هان، والتهديد المحتمل الذي تمثله. لم يستمع له أحد. مع بضع شلنات كانت تأتيه من منظمة إغاثة يهودية، واصل زيلارد أبحاثه في غرفة فندق حقير في لندن. مع القلم والورق وحاسبته العقلية، ركز على نظريتين: «التفاعل التسلسلي» و«الكتلة الحرجة». قام بتبسيط الأمر على النحو التالي: يقوم نيوترون واحد بشطر ذرة واحدة – وينتج عنه نيوترونان

يقومان بشطر ذرتين حيث ينتج عن ذلك أربعة نيوترونات تشطر أربع ذرات... بمجرد أن تشرع السلسلة في الانشطار فإنّها ستتضاعف إلى ما لانهاية. وجرّاء بحثه حول نظريات «كيفية صنع جهاز ذري قادر على إحداث قوة تدميرية كبيرة»، والتي ثبت أخيراً أنّها صحيحة بكل التفاصيل، حصل زيلارد على براءة اختراع بريطانيا في شباط 1936.

لم يكن الهنغاري زيلارد هو الشخص الوحيد الذي حاول اكتشاف سرّ الانشطار النووي. كان هناك البعض من الهواة الموهوبين، مثل فرانز سيمون (الذي بات يعرف فيما بعد بالسير فرانسيس سيمون)، وهو سليل عائلة يهودية ثرية من برلين، الذي أجرى تجربته الأولى في الفصل الكيميائي باستخدام ماء الصودا والمصفاة التي كانت تستعملها أمه في المطبخ. على الرغم من ندرة النتائج، لم تستمر الأبحاث فحسب، بل توسعت أيضاً في عمليات البحث المتنوعة التي قامت بها مجموعات صغيرة من العلماء المتفانين والدؤوبين. بدأت كلّ مؤسسة علمية تحترم اسمها تلتفت إلى أهمية علوم الذرة وفتحت داخلها قسماً للبحوث الذرية.

خلال سنوات ما بين الحربين العالميتين، بدأ الفيزيائيون بالتجمع في المراكز الرئيسة للبحوث النووية: في ألمانيا في غوتنغن وبرلين وميونيخ بحضور العلماء بلانك، وهيسيمان، وبولي، وبييرلس، وهان، ومايتنر، وستراسمان؛ وفي الدانمارك في معهد الفيزياء الذرية تحت إشراف العالم نيلز بور؛ وفي فرنسا في معهد الراديوم بإشراف العالمة جوليو كوري وفي المَملكة المتحدة في مختبر كافينديش في جامعة كامبريدج تحت إشراف العالم إرنست روثرفورد. وكان هناك أيضاً نشاط متزايد في معهد لينينغراد للفيزياء تحت إشراف العالمين إيغور كورشاتوف ويولي خاريتون، وكذلك في جامعة كولومبيا في شيكاغو وجامعة بيركلي. وكان معهد برينستون يمثل نقطة جذب متميزة لأن ألبرت أينشتاين، الذي هاجر إلى الولايات المتحدة. كان يعمل فيه.

اعتقد كلّ عالم أن اكتشافه كان من أجل تقدم البشرية، وليس لبعض

الصفقات التجارية أو الأسوأ من ذلك، استخدام القدرات الخفية للذرة لتدمير العالم. تمّ التعبير عن هذا التهديد أولاً بشكل علني من قبل إيغور تام (الحائز على جائزة نوبل للفيزياء، 1958)، وهو عالم فيزياء روسي بارز أعلن أمام المعهد السوفييتي للعلوم أنّه «يمكن صنع قنبلة ستدمر مدينة مساحتها بحدود دائرة نصف قطرها عشرة كيلومترات». كان قلقه راسخاً. أخيراً تمّ حل لغز العنصر المناسب للقيام بالتفاعل التسلسلي في برلين. في كانون الأول 1938، توصل أخيراً العالمان الكيميائيان الرائدان في ألمانيا، أوتو هان (حاز على جائزة نوبل للكيمياء، 1944)، وفريتز شتراسمان، إلى ما أطلق عليه هان «عملية جديدة تماماً». حدث هذا التقدم العلمي في حين كانت تتجمع غيوم الحرب على أوروبا. مع استمرار تركز معظم الأبحاث الذرية في ألمانيا، ألم يكن من المعقول أن يخشى أن يسرع هتلر من برنامج تطويره النووي؟ وعلى الرغم من المضي قُدُماً في «مشروع اليورانيوم الألماني»، في بداية الحرب، إلّا أنّه تمّ كبحه بسبب عجرفة بعض المثقفين. لم يكونوا ينظرون إلى المهندس في ألمانيا، باعتباره صاحب «عقلية علمية»، بل مجرد ميكانيكي يصنع الدراجات الهوائية، ولذلك رفض علماء الفيزياء التعامل مع الحلول التقنية.

في عام 1939، بينما كانت ألمانيا تسير نحو حافة الهاوية، تمّ عقد اجتماع في برلين. صدرت الأوامر إلى كبار علماء الأبحاث النووية في البلاد، أوتو هان، وفريتز ستراسمان، وفالتر بوته لتقديم عروضهم إلى هتلر. كانوا يمتلكون بين أيديهم مفتاح القوة التي يمكن أن تدمر نظريّاً أيّ عدوّ، بغضّ النظر عن عدد قواته أو ناتجه الصناعي. تمّ عقد هذا الاجتماع في القاعة الرخامية الواسعة في مستشارية الرايخ حيث مقرّ هتلر. كان هتلر محاطاً بأقرب أتباعه المطيعين مثل غورينغ، وهيملر وغوبلز، كانوا جميعاً سياسيين، ولم يكن أيّ واحد منهم يمتلك معرفة علمية تمكنه من تقديم المشورة إلى زعيمهم. ولكن الفوهرر حينها، كان يعتبر نفسه

عبقري القرن، وبالتالي فهو لا يحتاج إلى مشورة من أحد لكي يعرف ما يصب في مصلحة ألمانيا.

عندما اختار العلماء هان ليتحدث باسمهم، كان ذلك اختياراً سيئاً. فهو لم يبدِ تأثره بجنون العظمة للزعيم الفاشي ونظامه العالمي الجديد، علاوة على ذلك، فلكونه عالماً، كان هان غير قادر على التواصل معه بعبارات بسيطة غير علمية. ترك شرحه العلمي المعقد شعوراً لدى هتلر أنّه يضيع وقته من خلال خطة جنونية أخرى. ولكن رغم شعور الفوهرر بالملل فقد أخفاه جيداً؛ طوال حديث هان، احتفظ برباطة جأشه، وتلك الهالة من الغموض التي جعلته يحكم السيطرة على شعب بأكمله بواسطة قبضته الحديدية.

بعد أن انتهى هان سأله هتلر بوجه صارم: «حضرة البروفسور؟ ما هي المخاطر التي ستتعرض لها؟». كان السؤال بصياغة سيئة. ما كان يجب أن يسأله هو: «ما الذي يمكن أن ينتج عن هذا الأمر؟».

«في مثل هكذا أمر عظيم، لا يوجد حدّ فاصل بين المحاولة والمخاطرة». كان هذا بالكاد تقييماً مطمئناً، لكنه كان أفضل ردّ يمكن أن يقدمه عالم مخلص. حينها وقف رجل واحد فقط في وجه اكتشاف يصنع التاريخ ويؤدي إلى تدمير العالم. لقد جرب العريف في الحرب العالمية الأولى الذي تحول إلى زعيم الأمة القصف المدفعي على الجبهة الغربية وكان يعرف كلّ شيء عن تأثير إطلاق القذائف. لقد رأى الدبابات والطائرات وهي تقصف وتدمر، لكن هذا الشيء الذري لم يكن شيئاً يمكن لمسه أو مشاهدته، وبالتالي تخيله. بالنسبة لهتلر، الذي كان على وشك أن يطلق آلته الحربية في جميع أنحاء أوروبا، لم تكن هذه الثرثرة العلمية سوى تشتيت للخيال. ومهما كانت القوة التي قد تخفيها هذه الذرة الغامضة، فلم يكن الوقت مناسباً لتركيز جزء من برنامج الأسلحة على مشروع طائش لا يمتلك أدنى ضمانة على نجاحه. ظلّ المهندسون

منشغلين في الاختراعات ذات القيمة الملموسة: تطوير الرادارات، والطوربيد المغناطيسي أو فتائل القذائف.

من المحتمل، في ظلّ نفوره من شخصية هتلر، أن هان لم يكن ينوي أبداً عرض التفاصيل الكاملة لديكتاتور ألمانيا. عندما عرض هذا العالم الفيزيائي المشروع عليه – ولم يتطرق بعد ذلك إلى ذكر (أو حجبها عن قصد) إمكاناته القتالية! – تجاهله هتلر واصفاً إيّاه (الهراء الذري). ولم ينقل إلى الزعيم الألماني نبوءة الفيزيائي فيلهلم غروث بأن «الدولة التي تستفيد أولاً من القوة المخيفة للذرة ستحقق ميزة لا نظير لها على كل الدول الأخرى». وبالنسبة لهتلر والرايخ الثالث، تمّ غلق الحديث عن الفصل الذري. قال التاريخ كلمته وتجنّب العالم الشعور بالرعب من قنبلة الألمان.

إذا كان هتلر قد أصيب بالجهل العلمي، فهو لم يكن الوحيد بين زعماء النظام. زادت مخاوف زيلارد بشكل فاق كلّ التصورات بمجرد أن قرأ مقالاً في أحد أعداد صحيفة برلينر مورغنبوست كان قد صدر منذ ثلاثة أسابيع يتحدث عن اللقاء الذي جرى بين الفوهرر والبروفيسور أوتو هان، واجتاحه وسواس جعله يفترض أن الاكتشافات الأخيرة للألمان ستجعل النازيين يكتشفون حتماً «السلاح النهائي»- وهو سلاح وحشي لدرجة أن بإمكان الغطرسة النازية أن تملي إرادتها على بقية العالم. كانت خشية زيلارد التي لها ما يبررها، أن ينتهي المطاف بنظرياته الخاصة بالذرة في مبنى المكاتب الحربية الألمانية في برلين. قام بتسليم خططه شخصياً في مظروف مغلق إلى مكتب الحرب البريطاني، حيث لم يتجاوز مكتب الاستقبال وقيل له أن يحشر الملف الذي يتضمن أسرار (كيفية صنع القنبلة ٨) في فتحة في النافذة. أصر زيلارد على وضع كلمة «سري» على الملف، واستلم إيصال استلام مختوم. بعد تأخير طويل نسبياً، تلقى رداً من مسؤول في المكتب الحربي «يبدو أنّه لا يوجد سبب لإبقاء تفاصيل أبحاثك سرية حسب وجهة نظر مكتب الحرب».

مثل هذا التفكير البسيط – حتى لا ندعوه غباءً كان محيراً. ولكن حينها، لم يكن أحد يعرف، أو يخشى، من وحش يسمى القنبلة الذرية. غادر ليو زيلارد، الذي كان محبطاً للغاية، إنجلترا إلى نيويورك حيث تعاون مع أحد الفارين من حكم إيطاليا الفاشية بزعامة موسوليني، وهو البروفيسور إنريكو فيرمي. وبدآ العمل معاً في مجال الانشطار النووي. وقاما بتشغيل معمل ذرات في مختبر في حرم جامعة كولومبيا، وهو أقل قوة بكثير من معمل البروفسور هان في برلين، واستخدموا المعادلات الرياضية بشكل أساسي لتأكيد التجربة النيوترونية النظرية لجولييت كوري. أمّا المعلومات الحيوية التي تمّ الحصول عليها، والتي مكّنت من البحث في اختراع السلاح الفائق، الذي يمكن أن ينهي الحرب بسرعة، فقد تركت مرمية في «داخل أدراج مكاتب» المسؤولين. لم تكن الطريقة التي تعامل بها المسؤولون الأمريكان مع قنبلة ليو زيلارد «بأيّ حال من الأحوال أحسن من الطريقة التي عوملت بها» في المملكة المتحدة.

وبسبب شعوره بالإحباط من بيروقراطية «المسؤولين»، كتب زيلارد وكملاذ أخير له رسالة إلى ألبرت أينشتاين. كان أينشتاين مثل العديد من اللاجئين الهاربين من جحيم الهتلرية، مهووساً بفكرة أن الألمان قد يجدون طريقة لإطلاق الطاقة الذرية. درس كبير علماء الفيزياء بحث زيلارد وأدرك بذكائه الحاد ما يتضمنه من حقائق على الفور؛ كتب أينشتاين مذكرة إلى الرئيس فرانكلين روزفلت.

برينستون، 2 آب 1939.

... تقودني بعض التجارب الحديثة التي قام بها العالمان زيلارد وفيرمي، والتي اطلعت عليها من خلال البحث الذي أرسلوه لي، إلى توقع أن عنصر، اليورانيوم، قد يتحول إلى مصدر جديد وهام للطاقة في المستقبل القريب. يبدو أن بعض جوانب الحالة التي ستنشأ تستدعي الحذر، وإذا لزم الأمر، قد تستلزم إجراء سريعاً من جانب الإدارة... إن

قنبلة واحدة من هذا النوع، يحملها قارب وتنفجر في أحد الموانئ قد تدمره بالكامل إضافة إلى بعض المناطق المحيطة به...[5]

وكما تبين لاحقاً، فإنّ التصميمات التي قام بها شخص هرب من جحيم الفاشية بالإضافة إلى الأبحاث التي أجراها لاجئون آخرون فرّوا من ملاحقات أجهزة هتلر القمعية، والتي دعمها فيما بعد شخص يعيش في المنفى وكان من أبرز المتحدثين ضد فوبيا كره الأجانب التي كان يحملها الديكتاتور، بدأت تغير مسار الأحداث. اندلعت الحرب، وساد الاضطراب حكومة المملكة المتحدة وزاد الإنتاج العسكري إلى أبعد الحدود، ولم يكن هناك سوى نشاط محدود للغاية في جبهة البحوث النووية. في أواخر عام 1940، شرح اثنان من الهاربين الألمان، وهما رودولف بييرلس وأوتو فريتش، في مخطوطة من ثلاث صفحات، الخطوات العملية لإنتاج سلاح بقوة تدميرية هائلة. فطن ونستون تشرشل إلى إمكانات هذا السلاح وتمّ إرسال وثيقة بييرلس، إلى جانب حزمة أوراق زيلارد من المواد التي رفعت عنها السرية، إلى أمريكا لتقييمها هناك. وذهبت مذكرة بييرلس في اتجاه آخر. انضم عالم رياضيات شاب لامع إلى البروفيسور بييرلس في برمنغهام. وحيث إن هذا الشخص كان لا يزال نظريّاً مواطناً ألمانيّاً، فقد كان من المقرّر أن يتمّ إرساله إلى معسكر لأسرى الحرب في كندا. من خلال خلط حدث في اللحظة الأخيرة في أوراق الترحيل الخاصة به، لم يتمّ نقله على متن سفينة الركاب أراندورا ستار، التي اصطدم بها طوربيد فغرقت ومات جميع من كان على متنها. لو كان هذا الشخص قد صعد على متنها، لما كانت روسيا حصلت على حيازة السر النووي بحلول عام 1949. كان كلاوس فوكس، أكثر جواسيس العلوم الذرية السوفيتية كفاءة، وقام بنقل معلومات نووية مهمة إلى موسكو منذ عام 1942.[6] ومع ذلك،

5- راجع: S. Weart and G. Szilard, Leo Szilard: His Version of the Facts, Cambridge, 1978

6- ألقي القبض على فوكس في شباط 1950 بعد سبعة أشهر من حدوث أول تفجير نووي روسي.

كان ذهن ستالين آنذاك منصرفاً للدفاع عن وطنه الأم، ومثل هتلر، كان لا يودّ التعامل إلّا مع الأشياء التي يمكن أن يراها أو يلمسها.

بمجرد علمه بتحذير أينشتاين، قام الرئيس روزفلت الذي كان شخصاً براغماتيّاً بالتصرف. لقد كان مدركاً تماماً للآثار السياسية التي ستحصل في حالة حصول الجانب الخطأ على مثل هذا السلاح المتطور. بهذه الأفكار المزعجة، وتأكيد أينشتاين، دعا إلى تشكيل لجنة أبحاث اليورانيوم. قام مجلس عسكري غير علمي بإدارة البرنامج وكان التقدم بطيئاً إلى حدّ العدم؛ وعلى حدّ قول زيلارد: «كان الأمر يشبه السباحة في بركة تحتوي على سائل كثيف ولزج». عندما اشتكى من بطء العمل، أخبره أحد الضباط المسؤولين عن اللجنة برتبة عقيد: «يتطلب كلّ سلاح جديد اختباره في حربين لمعرفة ما إذا كان سلاحاً فعالاً».

وصلت هذه المواجهة بين العلماء والقادة العسكريين إلى منعطف مفاجئ في ربيع عام 1942، عندما عين الرئيس الأمريكي رئيس معهد كارنيغي المرموق، فانيفار بوش، مسؤولاً عن لجنة أبحاث اليورانيوم. وقد وجدوا في بوش، شخصاً يمكنه المزج بين الخبرة العلمية والدراية العملية.[7] بدأت الأمور تتحرك؛ تمّ تشييد اثنين من منشآت التكرير العملاقة في وسط صحراء تحوي عدداً من الأشجار، شيدت واحدة بالقرب من هانفورد في ولاية واشنطن، والأخرى في أوك ريدج في ولاية تينيسي. أطلق المسؤولون على المشروع الفائق السرية اسماً رمزيّاً مناسباً: مشروع مانهاتن.

كان يقال إن الحرب العالمية الأولى كانت «حرب علماء الكيمياء»[8]، والثانية كانت «حرب علماء الفيزياء». عين فانيفار بوش رجلاً عسكريّاً متمرساً ليتولى مسؤولية الأمور اللوجستية للمشروع؛ تمّ استدعاء الميجور جنرال ليزلي غروفز من فيلق المهندسين بالجيش الأمريكي إلى واشنطن في أيلول عام 1942.

7- كان لبوش دور فعال في إنشاء المجمع الصناعي العسكري بعد الحرب.

8- مع التحسينات في المتفجرات وغاز الخردل الفتاك.

خاطبه بوش قائلاً: «إذا قمت بعملك بشكل صحيح، فسنربح الحرب».
بدأ غروفز، الذي كان يمتلك معرفة واسعة في تشييد الجسور، لكنه لم يسمع عن الانشطار النووي، بجمع «ذوي العقول اللامعة» من حوله. كان على رأس قائمته هارولد أوري، الحائز على جائزة نوبل، الأستاذ في جامعة كولومبيا، ومكتشف الماء الثقيل، وإرنست لورانس، الحائز على جائزة نوبل، وهو نجل واعظ في داكوتا، كان أقصى طموح لأبيه بناء أفضل مصيدة فئران. وهو من اخترع جهاز مسرع الجسيمات. كان لورانس مسؤولاً عن استخراج نظير عنصر اليورانيوم U-235[9] القابل للانشطار من العنصر الأساسي U-238 عن طريق العملية الكهرومغناطيسية؛ وقد اقترح العالم أوري، بمساعدة العالمين دانينغ وكيث، طريقة أخرى لإنتاج قنبلة باستخدام عنصر اليورانيوم U-235 من خلال عملية انتشار غازي.

تمّ الطلب من علماء آخرين حائزين على جائزة نوبل، مثل آرثر كومبتون من جامعة شيكاغو، ومعه ليو زيلارد وإنريكو فيرمي ويوجين فينر. جنباً إلى جنب مع هانز بيت، وجون فون نيومان وإدوارد تيلر، لبناء مفاعل نووي. كانت المشكلات التي يواجهها هؤلاء العاملون في مجال العلوم، وهم ينغمسون في جوّ غير مألوف من السرية العسكرية، هي هذه السرية بكل بساطة. لم يكن هناك شيء مؤكد في هذه البقعة المجهولة. لم يتمكنوا من تبادل النتائج التي توصلوا إليها أو مناقشتها مع بقية أفراد الأوساط العلمية الدولية. لا يمكن إنجاز هذا المشروع الضخم إلّا عن طريق «العامل رقم واحد» في تاريخ البحث العلمي: المال! لم يكن العثور على المال لكسب الحرب يواجه مشكلة. ولكن كسب الحرب معناه في المختبر، شيء مؤكد واحد فقط الفوز بالسباق النووي قبل أن يتمكن النازيون من امتلاك القنبلة النووية.

حدث منعطف كبير في الساعة 15:53 في 2 كانون الأول 1942، قام الأستاذ إنريكو فيرمي ومساعدوه بتكديس 40.000 قطعة من الجرافيت

9- كان العنصر U-235 أخفّ قليلاً حيث كان يحتوي على ثلاثة نيوترونات أقل في نواته.

حوالي 50 طنّاً من خام اليورانيوم في قبو تمّ جعله ملعب للاسكواش، يقع تحت مدرجات ملعب كرة القدم في حرم جامعة شيكاغو. كان فيرمي يعلم جيداً أن اليورانيوم يطلق النيوترونات، والتي إن تفاعلت معها ذرات اليورانيوم الأخرى، أو ما يعرف بـ«الكتلة الحرجة»، (وتعني أقل كتلة من اليورانيوم 235 أو البلوتونيوم 239 أو بعض العناصر الأخرى فوق اليورانيوم التي يمكن أن يتمّ فيها التفاعل المتسلسل من دون توقف – م)، سوف تنشطر ويحدث ما يعرف «بالتفاعل التسلسلي»، الذي يتسبب في تحرير مصدر هائل للطاقة. كان هذا هو المبدأ. وحان الآن وقت تجربته عمليّاً. تكون المفاعل الأول الذي ابتكره العالم فيرمي، والذي كان يدعى CP-1، من شبيكة من أقراص اليورانيوم، داخلة في تجاويف كتل من الغرافيت المزيت لتعمل كمهدئ للنيوترون (هو عبارة عن وسيط يقوم بتقليص سرعة النيوترونات السريعة – م)؛ تمّ استخدام قضبان التحكم في انزلاق الكادميوم لمنع التفاعل التسلسلي (المأمول) من الخروج عن نطاق السيطرة. في تلك الظهيرة التاريخية، عندما أمسك فيرمي بالدرج لينزل إلى غرفة القبو، كان قلبه ينبض أسرع مما كان عليه من قبل. كان الكثير يعتمد على ما سيحدث بعد ذلك ربما سيتمّ تغيير مجرى الحرب بأكمله، إذا كان قد قرأ بشكل صحيح ردود أفعال جميع الحاضرين. لم يُسمح سوى لعدد محدد من الوصول إلى غرفة التحكم (غرفة تغيير الملابس لفريق كرة السلة الرئيس التابع للجامعة) لمتابعة التجربة على لوحة عرض كبيرة. كان الضغط الناتج عن القلق المستمر بشأن الفشل أو النجاح يظهر على وجه الجميع؛ كان البعض خائفين، لكن الجميع كانوا قلقين. أدار فيرمي مفتاح التشغيل لكي تعمل المرحلات التي رفعت ببطء قضبان التحكم في الكادميوم... فجأة بدأ شيء يصدر صوت أزيز... تحرك المؤشر... وتمّ الحصول على الكتلة الحرجة. لقد نجحت العملية!

«أدخل القضبان»، صاح الأستاذ بمساعده. عندما دخلت قضبان التحكم وتمّ تجنب الخطر الحاد، شعر فيرمي بفيض من السعادة. لقد

نجح في ذلك! هرع الجميع لتهنئته. اتصل آرثر كومبتون وهو في شدة تأثره بواشنطن وأبلغها: «لقد هبط الملّاح الإيطالي في العالم الجديد».

«هل كان السكان الأصليون ودودين معه؟».

جاء الردّ يفيض فرحاً: «هبط الجميع بأمان وكانوا سعداء»[10].

وسط مظاهر البهجة التي عمّت الجميع، أشار أحد مساعديه، وهو الكندي لويس سلوتين، «العالم سيتغير غداً».

«ليس بالنسبة لنا»، أجاب فيرمي. «بالنسبة لنا لا شيء يتغير. سنكون وحدنا دائماً».

كان أحد أفراد مجموعة شيكاغو التي ساعدت فيرمي في تجربته، شاباً كندياً من مدينة وينيبيغ. ولد لويس سلوتين عام 1910 لزوجين من المهاجرين اليهود الشديدي التدين الذين فروا من مذابح القيصر. نشأ لويس الشاب في مجتمع غالبيته من المهاجرين في مدينة وينيبيغ الواقعة أقصى الشمال، حيث كانت درجات الحرارة خلال أشهر الشتاء تفوق في انخفاضها أحياناً تلك المسجلة في القطب الشمالي. ورث روح الريادة من والده، الذي أوصل خطوط السكك الحديدية التي كانت تمدها شركة نيو كانديان باسفيك إلى نقطة في وسط المروج الكندية والتي أصبحت فيما بعد مدينة وينيبيغ في مقاطعة مانيتوبا. حول الأب سلوتين تركيزه إلى التجارة بالماشية، ولكن كان لدى لويس الشاب طموحات أخرى كشف عنها في سن مبكرة. لقد كان الطفل واسع الاطلاع، وكان يفضل قراءة الكتب بدلاً من قضاء وقته في الركض وراء الكرة. في أحد الأيام، وجد لويس المراهق، وهو يتصفح في مكتبة مستعملة، كتاباً من عدة مجلدات يتحدث عن أسس الفيزياء والكيمياء. قام بالتهام الكتاب واكتشف من خلاله المهنة التي تناسبه.

10- راجع: A. Compton, Atomic Conquest, New York, 1956

«يا أبي، أريد أن أذهب إلى الجامعة».

«وما نفع الذهاب إلى الجامعة وأنت تعمل في تجارة الماشية؟ ستتعلم جودة اللحم البقري في حظيرة الماشية».

«لا يا أبي، أريد أن أصبح عالم فيزياء».

«تصبح ماذا؟» سأله الأب المذهول، الذي كان يتخيل ابنه وهو يبيع كميات كبيرة من لحم البقر الفاخر إلى الناس في تورونتو ومونتريال. ومع ذلك، بمجرد اقتناعه بأن ابنه لن يكون تاجراً للماشية، فقد دعم إلى أقصى مدى طموحه من خلال تسجيله في المدرسة. أثبت لويس أنّه شخص شديد الطموح والدهاء؛ كان هذا الشاب الذي يرتدي النظارات فائق الذكاء لدرجة أنّه في سن السادسة عشرة فقط، اجتاز امتحان القبول في قسم الفيزياء في جامعة مانيتوبا، حيث نال الميدالية الذهبية في علمي الفيزياء والكيمياء. عندما لم يمنحه مجلس البحوث الكندي منحة لمواصلة دراساته العليا، غادر إلى لندن لينضم إلى البروفيسور أولماند في كلية كينجز.

بينما كان لويس يتدرب في صالة الألعاب الرياضية في الكلية، استفزّه مدرب فريق كرة السلة بالكلية قائلاً: «أيها الشاب من الأفضل أن تترك التمارين الرياضية، وتهتمّ بدراستك». لقد اعتبر هذا الكلام بمثابة هجوم على هيئته النحيلة وقد أزعجه بشدة إلى حدّ جعله يخلع نظارته، ويطوي كتبه ويبدأ بالتدريب الجاد. وكما كان ديدنه مع كلّ شيء يقوم به، كان يريد أن يكون أفضل من الآخرين وبفضل إرادته القوية سيصبح بطل فريق الجامعة في الملاكمة فئة وزن الديك. ومع ذلك، فإنّ هذا لم يكسبه شهرة مثل التي حصل عليها من نتاجه الفكري، حيث نال ميدالية على أطروحته الرائعة حول «المركب الوسطي للجزيئات غير المستقرة خلال بعض التفاعلات الكيميائية» والتي كانت جواز مروره إلى حقل البحوث العلمية النووية.

بحلول عام 1937، كان سلوتين قد عاد إلى أمريكا حيث التحق بجامعة شيكاغو كزميل أبحاث، وأمضى كلّ دقيقة من وقته في المساعدة في بناء

أول «مسرع دوراني» لتحطيم الذرة في العالم. بفضل براعته، أصبح أعظم خبير في المسائل النظرية والعملية على حدّ سواء، فقد كان مهندساً بين علماء الفيزياء وفيزيائياً وسط المهندسين. لم يكن هناك ما يمنعه من تجربة نظرياته في الممارسة العملية، ولهذا فقد كان يقوم بأعمال اللحيم ومدّ الأسلاك الكهربائية وإجراء التجارب المختبرية. اخترع أغرب الآلات. بعضها نجح، والكثير منها فشل، ولكنه لم يتخلَّ أبداً عن المحاولة.

كتب زميله هنري نيوسن وهو يصف ما قاموا به يقول: «لقد كان عملاً شاقاً ومخيباً للآمال في كثير من الأحيان. لقد قمنا ببناء ورشة تصنيع المكائن، ومدّ الأسلاك الكهربائية، بل وحتى حطمنا الخرسانة بأنفسنا». كانت أواخر الثلاثينيات من الأوقات العصيبة على العلم والبحث العلمي. كانت هناك مشاريع جديدة لم تختبر تفتقر إلى التمويل، لم يعد لويس يملك مالاً، وكان لا بدّ من دعمه من قبل والده السخي، الفخور بأن يشير إلى أحد أفراد أسرته قائلاً: «ابني، الطبيب»، على الرغم من أن الرجل العجوز سلوتين لم يكن لديه أدنى فكرة عما كان ابنه يعمله. لفتت الأفكار الغزيرة التي يحملها لويس وحماسه انتباه البروفيسور إنريكو فيرمي، الذي قبله في فريقه في مختبر شيكاغو للمعادن عندما تمّ إطلاق مشروع مانهاتن. ولهذا كان الشاب لويس سلوتين في شيكاغو عندما أثبت البروفيسور فيرمي جدوى القيام بتفاعل تسلسلي نووي مكتفٍ ذاتياً بواسطة كتلة من مادة الغرافيت تدور حول محور من اليورانيوم[11].

كان التحدي العلمي بالنسبة إلى الدكتور الشاب لويس، هو كلّ شيء في حياته. منذ البداية كان شغوفاً بالمشروع النووي وكان يهرع لتلبية أيّ نداء يتعلق بالمشروع، كانت البداية في مدينة أوك ريدج، حيث كان يعمل مع البروفيسور يوجين وينر في إنتاج البلوتونيوم، قبل نقله إلى مختبر لوس ألاموس، وفي كانون الأول 1944 تمّ تعيينه في قسم فيزياء

11- وفقاً لسجلات جامعة شيكاغو، كان سلوتين حاضراً خلال التجربة التي قام بها فيرمي، على الرغم من أن أحد زملائه وهو هنري نيسون يدعي أنه لم يكن موجوداً.

القنبلة النووية الذي يديره البروفيسور أر.أف. بانشر. وهكذا أصبح لويس سلوتين أحد الصبيان الحاذقين الذين تمّ اختيارهم للعمل في المشروع رغم أنّهم كانوا في منتصف العشرينيات من عمرهم، حيث بدأ يتلقى الإرشادات والرعاية من بعض من أعظم العقول في المجال العلمي، وهم علماء الفيزياء الحائزون على جائزة نوبل. تمّ التكتم على عمله بموجب قانون الأسرار الرسمية. بالنسبة لعائلته، كان هذا يعني أن ابنهم «قد اختفى تماماً ولم يعد له أثر». وصلت بطاقة بريدية من مكان غير محدد:

«لا تقلق يا أبي، إذا لم تسمع شيئاً مني لفترة من الوقت، سأكون بخير...». وتبع ذلك صمت دام لعدة أشهر. لقد علموا أن ابنهم كان يقوم ببحوث عملية على نوع من المعادن، وربما كان يصمم عجلات جديدة لسيارة وأرادت شركة السيارات حماية سرّها. لم يكن لدى آل سلوتين الساكنين في وينيبيغ أيّ فكرة عن أن نجلهم البالغ من العمر 26 عاماً كان على وشك تصنيع أكثر الأسلحة تدميراً التي ابتكرها الإنسان.

بعد تجربة فيرمي، لم تعد «القنبلة النووية» من بنات خيال عالم مجري مهووس. ففي تلك اللحظة أصبح المهندسون هم من يتولى زمام الأمور وباتت لهم الغلبة على علماء الفيزياء. لكن الطريق الذي أمامه كان شاقّاً وصعباً. كانت عملية استخراج بضعة كيلوغرامات من اليورانيوم القابل للانشطار تستغرق ثلاث سنوات وتكلف ملياري دولار. كان هناك عنصران يمتلكان القدرة على الانشطار الأول كان اليورانيوم، والذي كان موجوداً منذ عام 1789 وكان معروفاً إلى حدّ ما. ومع ذلك، كان هناك عنصر أساسي آخر يحتمل أن يمتلك تلك القدرة، وكان غير مستقر للغاية وسام ومشع بشكل فتاك.

في عام 1940، قام فريق بحث أمريكي تحت قيادة جلين سيبورج (الحائز على جائزة نوبل للكيمياء، 1951) وإدوين ماكميلان وجوزيف كينيدي وآرثر وال باكتشاف مفاجئ. كانت تفصلهما عشرات السنين من

الخبرة في مجال الكيمياء، ومع ذلك، لم يعرفوا ماذا يفعلون مع اكتشافهم المرعب. وكما زعم سيبورج «أنّه عنصر سيّئ للغاية، وغير مستقر للغاية، ومجرد ذكر اسمه يجعلني أرتجف من الرعب». كان ذلك هو عنصر البلوتونيوم، الذي سمي على اسم كوكب بلوتو، وقد كان بلا شك أكثر العناصر فتكاً بالإنسان. كانت ميزة البلوتونيوم على اليورانيوم أنّه يحتوي على نواة أكبر، مما يعد بإطلاق طاقة أكثر قوة.

أمّا المعضلة الكبيرة التالية فكانت عملية الفصل بين المواد. وكان السؤال هو: كيف يمكن عزل مواد النظير المشع القابل للانشطار لليورانيوم (U-235) عن العنصر الأساسي غير النقي (U-238)؟[12] أو كيفية تحويل اليورانيوم إلى الكتلة فوق الحرجة للبلوتونيوم (Pu-239)؟ استلزمت العملية الكهرومغناطيسية وجود مغناطيسات عملاقة تمتص كميات هائلة من الطاقة الكهربائية، بحجم يكفي لتشغيل مصانع دولة بأكملها؛ وهذا الأمر يمكن حلّه بالأموال التي كانت تحت تصرف فريق العمل. الطريقة الثانية هي الاستخراج أو الانتشار الغازي، وكانت مسألة مختلفة. فقد تطلبت وجود أغشية تحوي ثقوباً دقيقةً ولكن لم يتبين أن هناك إمكانية للحصول على ثقوب مناسبة بما فيه الكفاية. سبّبت هذه المشكلة مشاعر من الإحباط لدى المهندسين إلى أن حدث الأمر فجأة فحين كان يغتسل أحدهم كعادته كلّ يوم، وأثناء تقليبه في صفحات مجلة ذات ورق مصقول، لمعت فكرة في رأسه! لقد اكتشف أن الصور التي في المجلة ليست سوى مزج لعدد من النقاط المتناهية في الصغر. أدّى مزج حبر الصحف بأحد الحوامض إلى تحقيق تقدم كبير في عملية صنع أغشية تحوي ملايين الثقوب. بمجرد نجاحها تفوقت طريقة الانتشار الغازي هذه، على العملية الكهرومغناطيسية الأكثر تكلفة.

والآن بعد أن أصبحت عملية إنتاج كلّ من البلوتونيوم واليورانيوم

12- يجب تخصيب اليورانيوم 235- من محتواه الطبيعي البالغ 0.7 في المئة إلى أكثر من 90 في المئة!

ممكنة، لم يبقَ سوى صنع قنبلة حقيقية. في هذه المرحلة وصل شخص ذو عبقرية خالصة، عمره 39 عاماً وهو فيزيائي قديم من جامعة بيركلي، يدعى الدكتور ج. روبرت أوبنهايمر. بعد تخرجه في جامعة هارفارد (1925) حصل على درجة الشرف من جامعة غوتنغن الألمانية عن أطروحته حول أعداد الكم لنواة النيتروجين، طُلب منه ابتكار جهاز لإنتاج تفاعل تسلسلي لنيوترونات متفجرة في عنصر قابل للانشطار، مثل اليورانيوم U-235 أو البلوتونيوم Pu-239. واجهه في ذلك العديد من التحديات: أولاً كان الحصول على الكتلة الحرجة يستلزم نظريّاً إطلاق سلسلة من التفاعلات التسلسلية لقوة تدميرية كافية، وثانياً، ضرورة إيجاد طريقة لعزل الكتلتين الحرجتين. وعلى كلّ حال، كانت الفكرة هي قصف برلين، وليس ولاية تينيسي. لم يكن بالإمكان تنفيذ هذه العملية في موقع محطات الفصل وذلك لأسباب أمنية. فكان لا بدّ من العثور على موقع جديد.

عندما كان أوبنهايمر فتى في الكشافة، كان ينصب خيمته على قمة تلة مقفرة في صحراء نيو مكسيك، تدعى لوس ألاموس. لم يكن هناك شيء حولها، فكانت مكاناً مثاليّاً لضمان السلامة والسرية. كان من الصعب تخيل مكان أكثر كآبة وشؤماً من لوس ألاموس. بدا أن كلّ شيء قد تمّ بطريقة خاطئة، لكن ثبت فيما بعد أن ذلك الأمر كان نعمة، لأنّهم اضطروا للبدء من الصفر. وبناء قرية سرية في وسط الصحراء. كان خلاف أوبنهايمر الوحيد مع قائد الجيش، الميجور جنرال ليزلي غروفز، يتعلق بارتداء الزيّ العسكري. فقد رفض علماؤه ارتداءه ببساطة.

تلقت «فرقة صنع القنابل» دعماً لها مع وصول نيلز بور، الذي كان أول من نشر أطروحة عن بنية وإشعاع الذرات. وخوفاً من أن يكتشف الألمان ما يجري وراء السياج المكهرب في لوس ألاموس، تمّ تقديم الأستاذ الدانماركي المنفي في المعسكر باعتباره الدكتور نيكولاس بيكر. كان الجميع يشعرون بالضغط والتوتر، وهو ما كان يعتبره أوبنهايمر، أمراً بالغ الأهمية لعملهم. لقد شقّوا طريقهم في أرض مجهولة. لم يكن

هناك شيء يعمل؛ تمّ طلب مخارط خاصة للتعامل مع المعادن الجديدة، وأثبتت أدوات المكائن أنّها هشة للغاية؛ لم تجتز الأغطية المصنوعة بدقة الاختبارات الصارمة؛ كانت الأسلاك على الدوائر الكهربائية ضخمة للغاية وبدأت الرحلة ببطء شديد. لقد كان كابوساً. كان أوبنهايمر الهادئ يقف في وسط كلّ ذلك، مثل قائد فرقة موسيقية من العازفين الموهوبين. كان يتمّ عرض كلّ مشكلة عليه، وكان معظم الحلول يأتي من بنات أفكاره. كان الجميع فريق عمل واحد وكانت كلّ مشكلة تمثل تحدياً شخصيّاً له. فينكبون جميعاً على العمل في لوحات التصاميم الهندسية والمكائن، إلى أن يجد شخص ما الجواب. تولى الدكتور لويس سلوتين، الفتى العبقري البالغ من العمر 26 عاماً من مدينة وينيبيغ الكندية، مسؤولية العملية الدقيقة لمراقبة التفاعل التسلسلي لعنصر البلوتونيوم؛ كان اللقب الممنوح لمجموعته الصغيرة ولكن المختارة هو «فريق المحور القتالي».

يتكون «قلب» القنبلة الذرية من نصفين بحجم ثمرة الكريب فروت مصنوعين من البلوتونيوم المستخدم في صنع الأسلحة تغلفهما مادة مصنوعة من عنصر البيريليوم. كان تصنيع قلب القنبلة من عنصر البلوتونيوم يمثل تحدياً مزدوجاً للقائمين على صنعه، وكانت مرحلة التجميع أكثر خطورة بشكل غير محدود بسبب إمكانية التعرض للمجال الإشعاعي لعنصر اليورانيوم. وكانت عملية تثبيته في الموضع الصحيح تتطلب استدعاء شخص متخصص، ولم يكن هناك من هو أقدر من سلوتين للقيام بهذه المهمة. كان على شخص ما القيام بتلك المهمة، وكان سلوتين معتاداً على التعامل مع عنصر البلوتونيوم المشع. واعتماداً على تجربته القيمتين كمهندس وكفيزيائي في جهاز المسرع الدوراني، تمّ تكليفه بتصميم عملية تجميع قابلة للتطبيق للكتلتين الحرجتين. كان أفضل دليل على قبوله لمخاطر لا تصدق هو ما جرى من حادث غريب. تعطل صمام أحد عناصر التبريد؛ لضبط الصمام، تجرد سلوتين من ملابسه وبقي بسرواله الداخلي فقط وغطس في حاوية المياه التي تمّ

تركيبها خصيصاً لامتصاص الإشعاع. لقد تجاهل تعرضه للاشعاع بحجة أنه «كان على أحدنا أن يفعل ذلك».

ووصفه زميله الدكتور مورغان بأن اندفاعه يجعله يشبه «رعاة البقر ولكنه عالم تجريبي رائع»[13].

كان سلوتين يحب الدخول في تحديات. أصبح الأمر بالنسبة له، تكراراً لمبدأ التجربة والخطأ، مع أنّه كان يأخذ في عين الاعتبار حقيقة أن الخطأ أثناء التعامل مع «المواد الحقيقية» غير مسموح به. لقد طور نظاماً كان فريداً بقدر ما كان قاتلاً. حذره إنريكو فيرمي، الذي كان يراقبه بقلق شديد وهو يقوم بتجارب مختبرية، قائلاً له: «إذا واصلت القيام بالتجارب مستخدماً مواد حقيقية، فستموت في غضون عام». تصدى لهذه المهمة الشاب الكندي (وكان قد حصل حينها على الجنسية الأمريكية) باستخدام يديه الرشيقتين. باتت تلك المهمة التي لم تكن سوى معرفة مدى قرب الشخص من نصفي البلوتونيوم حين يقوم بالجمع بينهما، قبل أن تصل الأجزاء إلى المنطقة «الحرجة بشكل كامل»، تسمى في لوس ألاموس بعملية (اللعب بذيل النمر) كناية عن مدى خطورتها.

بدأ سلوتين القيام ببحوث نظرية لمعرفة أفضل طريقة لتحقيق ذلك، قبل أن ينجح في تصميم جهاز يقوم بهذه المهمة. كان يشبه من الخارج مخرطة عمودية، أطلق عليها من كان لديه هاجس أن كارثة ستحصل اسمها «المقصلة». تمّ وضع أحد نصفي كرة البلوتونيوم في الجزء السفلي من منصة الاختبار التي صنعت خصيصاً لهذا الغرض، وجانبها المسطح يتجه إلى الأعلى. ثم تمّ ربط شقيقها التوأم نصف الكرة الثاني بنابض يتصل بنظام من الأذرع بالإمكان جعله يسقط - ولكن ليس بسرعة سقوط أداة الموت الفرنسية السيئة السمعة ولكن بلطف شديد جدّاً لقياس المسافة التي تفصل نصفي الكرة قبل السماح «للتفاعل التسلسلي السريع» أي

13- نشر الصحفي الكندي مارتن زيليغ مقالة عن لويس سلوتين في مجلة بيفر الكندية المهتمة بالتاريخ في عام 1995.

(الانفجار النووي) بالحدوث. إذا بقيت المسافة التي تفصل نصفي الكرة بعيدة للغاية، فإنّ النتيجة النهائية ستكون غير فعالة؛ لأنّهما سيبتعدان عن بعضهما مثلما يحدث مع أقطاب المغناطيس المتنافرة.

من أجل توضيح ذلك التأثير، استخدم سلوتين مقدمة سيارة سباق وسائقها. ترك النصفين بعيدين جدّاً عن بعضهما بشكل يشبه سيارة السباق التي تنطلق في الاتجاه المعاكس. للحصول على انطلاقة جيدة، يضطر السائق إلى تشغيل المحرك بأقصى قدر من الدورات حتى يشتعل الضوء الأخضر، ثم يجعل سيارته تتجه للأمام ثم يقوم بإيقاف مفاجئ للمسرّع (مثل تأثير انطلاقة البندقية). وينطبق الشيء نفسه أيضاً على تجميع نصفي الكرة المغلفين بالبريليوم. فمثلما حدث مع السيارة، كان نصفي الكريب فروت في قلب القنبلة يرتكزان على شبكة الانطلاق، في انتظار اشتعال ضوئهما الأخضر؛ في تلك اللحظة فقط كان مسرع القنبلة عبارة عن متفجرات كيميائية قياسية محشوة بإحكام، يدفعان النصفين كلّاً باتجاه الآخر. فإذا ابتعدا بعضهما عن بعض مسافة طويلة، ستحدث حالة من «الخمول» أو الركود، وإذا أصبحا قريبين جدّاً من بعضهما سيجعلان الفائض الشديد من النيوترونات يتسبب في إشعال تفاعل متسلسل غير منضبط. وبذلك لم يتمكن أحد من أن يحدد بدقة عالية مقدار المسافة المناسبة التي تفصل بينهما. كان العلماء قد حسبوا نظريّاً أن (النقطة الآمنة الحرجة) التي تسبق (الاندفاع الفوري) تكون عندما يتراوح مقدار ابتعاد الكرتين عن بعضهما بين 3 إلى 4 ملم؛ لكن تلك كانت في أحسن الأحوال قيمة مقدرة...

أوقد الدكتور سلوتين ومساعدوه العديد من الشموع في الليل، محاولين اتباع أساليب مختلفة. خلال هذا الوقت، كان الدكتور سلوتين عبارة عن ورشة عمل متحركة، وجيوب بدلته البيضاء مليئة بدبابيس ذات طيات، ومسطرة حاسبة، ومفك للبراغي، وشريط لصق أسلاك كهربائية، وقاطع للأسلاك. كان منغمساً في عمله لدرجة أنّه فاته تناول الطعام،

وكان على المقصف أن يصنع شطائر خاصة بعد فترة طويلة من وقت تناول الطعام؛ كان قضاء عطلة في يوم الأحد ترفاً غير معروف.

بدأ سلودن بمساعدة من فريق عمله بإدخال كرات تمّ تصنيعها بدقة من معدن عادي ولكن بحجم مضبوط وتشبه في الوزن تقريباً ما هو موجود في «القنبلة الحقيقية». في هذه المرحلة التحضيرية، لم يكن الأمر مهمّاً إذا ما ساءت الأمور، عدا أن التجارب الإضافية كانت تستغرق وقتاً طويلاً. يمكن إصلاح كلّ شيء أو تعديله أو إلغاؤه. أمضوا ساعات طويلة في ورش إعادة بناء أو تحسين «المقصلة» التي صنعوها؛ لقد عملوا عليها مرات عديدة حتى أصبحوا واثقين من أنّهم قادرون على إجراء العملية وعيونهم مغمضة. كانت تلك التجارب تجري باستخدام كرات من الصلب العادي. بالنظر إلى الخطر الكامن في التعرض للإشعاع، فإنّ التشغيل الحقيقي سيكون أوليّاً تقريباً وسيُجرى دون حماية كافية. بعبارة أخرى، أثناء القيام بالتجربة باستخدام عناصر حقيقية، فإنّ الدكتور سلوتين «هو من سيأخذ الأمر على عاتقه وحده بشكل فعلي ويخاطر بحياته».

ثم جاء اليوم الذي سيقوم فيه سلوتين «بالاختبار الحقيقي». لم يترك شيئاً للصدفة. كانت غرفة التجميع التي تحوي المقصلة المركزية جاهزة وقد غمرها ضوء أبيض قاتم. أخرجوا النصف الأول من حاويته ووضعوه بعناية في مهده السفلي في المقصلة. ثم جاء الجزء الصعب، النصف الثاني؛ تمّ تثبيته في نظام مثبتات نابضية على ذراع متحرك، تتأرجح من المخرطة لمزيد من الأمان. بمجرد النقر عليها، والتحقق من توافقها المثالي، حينها يتمّ استخدام عجلة مسننة يتمّ تشغيلها يدويّاً وترس لخفض الذراع الممسكة بالنصف الثاني ليجعله في المسافة الحرجة. في عملية التركيب الأولى هذه، كانت أداة القياس الوحيدة الموثوقة عند سلوتين هي عداد غيغر المحسن وصوت مساعده البالغ من العمر 24 عاماً، هاري داغليان، الذي كان يقف خلفه بمسافة ثلاث أقدام ويخبره بقيم الإشعاع

بالإضافة إلى قيم المسافة الظاهرة على المقياس المضيء، في حين ظلّت عيون سلوتين مثبتة على نصفي الكرة.

سجل جهاز النيوترون، الذي يشبه مقياس الأنواء الجوية، زيادة في كمية الإشعاع بالحبر الأحمر على الأسطوانة الورقية. بدأ سلوتين بهذه الأجهزة البسيطة، ومقدار وفير من الشجاعة الجسدية، وزوج من الأيدي المتماسكة، في خفض الجزء العلوي من نصف الكرة من خلال الدوران المضبوط للعجلة التي يتمّ تشغيلها باليد لتلتقي مع شقيقتها التي كانت تنتظر. زادت تدريجيّاً فرقعة عداد غيغر المميزة حيث كان داغليان يذيع قراءات إبرة المقياس، والتي كانت لا تزال تظهر نتائج مقبولة من (وحدات قياس الإشعاع). فجأة بدأ صوت فرقعة عداد غيغر يرتفع بسرعة شديدة.

«اقتراب من النقطة الحرجة!» أعلن داغليان بصوت ثابت، كما لو كان يجري عملية تجريبية أخرى.

كان العداد يتسارع، وقد قفزت إبرته. حينها قال داغليان: «الموقف حرج!»

قام سلوتين بإرجاع العجلة إلى الخلف قليلاً قبل إيقاف العملية. تمّ الانتهاء من «التجربة الحقيقية» الأولى بنجاح. وانتصر أوبنهايمر وفيرمي وجميع العلماء الذين بذلوا قصارى جهدهم. وابتسم الجنرال غروفز. وكذلك فعل سلوتين؛ في غضون أيام، قام بتسليم أول نواة قنبلة نووية قام بتجميعه إلى القادة «الثلاثة» الذين منحوه مازحين لقب الشرف «قائد درع الولايات المتحدة».

بدأ فريق العمل الذي يقوده أوبنهايمر في تركيب نواة (أو قلب) القنبلة كجزء من آلية صنعها. في الواقع، كانت هناك ثلاث قنابل. تتكون الأولى من 30 رطلاً (13 كجم) من اليورانيوم المستخدم في صنع الأسلحة لتوفير كتلتها الحرجة. في لغة العلماء الاصطلاحية، أصبح هذا الجهاز يُعرف باسم مدفع انشطار اليورانيوم، لأنّه تمّ تحميل نصفي الكرة لعنصر اليورانيوم U-235 في الأطراف المقابلة لأسطوانة سبطانة مدفع مثقوبة ومصنوعة من

فولاذ عنصر التنغستن. تمّ وضع شحنة مدفعية قياسية خلف أحد النصفين لتتهشم في الطرف الآخر ومن ثم يتمّ إحداث تفاعل تسلسلي.

كانت القنبلتان الأخريان مصنوعتين من البلوتونيوم. هنا، واجه الفريق العلمي مشكلة مماثلة لما واجهه مع قرينتها، قنبلة اليورانيوم - وهو تسلسل الإطلاق. كان إطلاق تفاعل تسلسلي لمحور نواة البلوتونيوم أكثر صعوبة: كان يجب ضغط نصف كرة البلوتونيوم فجأة وبصورة أكثر عنفاً. كانت هذه العملية تسمى الانبجار (أي الانهيار من الداخل عكس الانفجار - م). كان العنصر الحاسم هو التوقيت؛ كان يجب إطلاق العبوات الكيماوية الناسفة بدقة مليون في الثانية. وقد تعثر نجاح هذا الأمر لفترة طويلة حتى تمّ حله باختراع مفتاح إلكتروني صغير كان يمثل ثورة في الاختراعات يسمى «كريتون».

كانت العبوات الناسفة مرزومة بإحكام حول كرة البلوتونيوم Pu-239، وقد تمّ تركيب مفتاح الإشعال الإلكتروني. كانت القنبلة ذات الانفجار الداخلي (الانبجار) هي التي تمّ اختيارها أخيراً للتجربة الوحيدة التي أعطي لها اسم رمزيّ هو «ترينتي»، (ومعناه الثالوث وتمّ اختياره من قبل روبرت أوبنهايمر، مدير مختبر لوس ألاموس الذي استلهم الاسم من إحدى قصائد جون دون.- م). كان من المستحيل الدخول إلى قاعة التجميع النهائية بدون إذن تصريح واجتياز نقطة الحراسة، التي كانت تشغلها وحدة خاصة لديها أوامر بإطلاق النار على الأفراد وقتلهم بدون سابق إنذار، من خلال باب فولاذي يتحرك على عجلات صغيرة ولا يمكن فتحه إلّا من الداخل، وفقط بعد تمرير رسالة مشفرة صادرة من موقع الحراسة. بعد الانتهاء من كلّ تلك الإجراءات والمضيّ قدماً واجتياز الفحص البصري، يقودك الطريق عبر ممرّ ضيق إلى قاعة مقببة، مضاءة بأنوار ساطعة. عند الخروج من النفق المظلم، يستغرق الأمر بعض الوقت حتى تتكيف العيون مع شدة الضوء الساطع. هنا تمّ تجميع قنبلة البلوتونيوم. الكائن الذي تسبب في الكثير من القلق كان يرقد في مهده، كانت مطلية باللون الأسود، مع اثنين

من السنانير المعدنية والأسلاك الكهربائية الخارجة من صندوق توصيل خارجي إلكتروني. كان هناك شيء شرير يشع من أداة الموت هذه. ربما كانت تلك الأشياء المحيطة بها، أو الظلمة الشريرة لكهف يعود إلى عصر ما قبل التاريخ والذي كان قد وفر ذات مرة مأوى لرجال الكهوف الذين استخدموا عظام حيونات فيلة الماستودون (التي كانت تعيش في عصور ما قبل التاريخ - م) كسكاكين لذبح أعدائهم. وأصبح يحوي الآن في جنباته السلاح النهائي الذي ابتكره الإنسان.

كان العلماء والمهندسون يعلمون أن لديهم «قنبلة واحدة كبيرة»؛ لكنهم لم يعرفوا حجمها. لم يشكك أحد في حقائق الفيزياء التطبيقية، تماماً مثلما لم يشكك أحد في أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين. يتميز علم الفيزياء، مثل الرياضيات، بالتنظيم والمنطقية لأن وجودها لا يتمثل سوى في وضوحها. مثل معظم الأشياء غير المجربة في الحياة، يعتمد هذا الجهاز على الوضوح. في الأيام التي سبقت الاختبار، كان معظم الفيزيائيين يعانون من الإرهاق وقلة النوم. كانت الحقائق مهنتهم - ولم تكن لديهم حقائق، وإنما مجرد تخمينات وتقديرات. إن الادعاء بعد ذلك أنّهم لم يستوعبوا التداعيات الكاملة للانفجار النووي سيكون غير مجدٍ بمجرد إطلاق القنبلة.

عندما توجه الجنرال غروفز بالسؤال إلى أوبنهايمر عن القوة المتوقعة للانفجار، حصل على ردّ من أحد العلماء: «من الصعب شرح ذلك بدون الاستعانة بعلم الرياضيات، ولكن إذا وقفت بجانب موقع انفجار ذري، فلن يحدث فرق إذا كان حجمه عشرة، أو مئة ألف طن». لكن هل كان «هذا الشيء» خاضعاً لسيطرة الإنسان حقّاً، أم أنّهم خلقوا وحشاً سيعيد البشرية إلى عصر القردة؟ كلّما تجرأ عالم فيزيائي على التعبير عن قلقه، لم يهتمّ به القادة الكبار في الجيش معتبرينه من «وساوس العلماء». وهكذا أضيف عامل القلق إلى العديد من المشاكل التقنية.

«لقد اعتقدت دائماً أن الله يقف إلى جانبنا، والآن سنثبت ذلك»،

هكذا صرح الدكتور أوبنهايمر بثبات في الليلة السابقة. كان الجميع متأكدين من شيء واحد: من الغد عند شروق الشمس، لن يكون العالم هو نفسه مرة أخرى.

«يقال إنّها قنبلة ضخمة، عند الفجر سوف يكتشف الجميع قوتها، حينما توقظ التنين...».

في يوم إجراء التجربة النووية (ترينتي)، المصادف 16 تموز 1945، وحين ارتفع أول شعاع للشمس فوق صحراء خوراندا ديل مويرتو في موقع اختبار ألاموغوردو وهي إحدى مدن ولاية نيو مكسيكو إيذاناً ببدء يوم جديد. كان الأشخاص الذين سُمح لهم بالمشاركة في هذا اليوم التاريخي قد ركزوا انتباههم على قمة برج فولاذي يبلغ ارتفاعه 100 قدم (30 متراً) تململ بعضهم وهو يغلق سحاب معطفه، ومضغ آخرون أظافرهم. كان سلوتين داخل ملجأ خرساني تحت الأرض، ويتحقق من قراءاته مراراً وتكراراً للتأكد من صحة كلّ شيء. وكان كلّ شي يسير في الاتجاه الصحيح.

كان وجه أوبنهايمر يبدو متعباً – من التركيز، والخوف، أو تأنيب الضمير، من هو الذي يعرف ماذا يخبئ لنا القدر؟[14] كان يشعر طوال عدة أشهر بالوحدة وكأنّه مثل بطل قصة روبنسون كروزو في الجزيرة، مختلياً بحساباته وبياناته، ويضع مشاريع تستند إلى الحقائق التي حصل عليها ولم يكن ذلك ذا قيمة عالية. والآن بعد أن أصبحوا على وشك الدخول إلى بوابة التاريخ، شعر كما لو بأن بعض القوى الخارجية تتغلب على الإشارات التي يرسلها دماغه؛ لتتركه مع مشاعر الخوف الطبيعية من الويلات التي ستأتي.

وكلّما كان يبحث أكثر في جدوى القيام بانفجار ذري، كانت تزداد المشاعر التي تصده عن هذه الفكرة. وحينها كان يقول لنفسه: «توقف عن

14- راجع: R. Oppenheimer, The Open Mind, New York, 1955

القلق». بعد فترة من الزمن سيكشف إلى صديق يأتمنه على أسراره أنّه في تلك اللحظة، جالت في عقله قصيدة من الملحمة الهندوسية بهاغافاد غيتا:

«عندما يرتفع عمود متوهج من الدخان
واللهب يوازي شروق ألف شمس
سيكشف ذلك عن روعة عملاق ضخم،
الآن أصبحت أنا الموت... إني مدمّر
هذا العالم».

بدأ العدّ التنازلي... ستون دقيقة واستمر العدّ. عشرون دقيقة. جميع مراجل الطاقة أصبحت نشطة... تمّ ارتداء النظارات الواقية، بقيت خمس عشرة ثانية، عشر... خمس، أربع، ثلاث، اثنتان... واحدة. عند الساعة 05:29 وخمس وأربعين ثانية. *كما لو أن ألف شمس أشرقت في الوقت نفسه*، اشتعلت ومضة في بقعة صغيرة، كان وهج الضوء شديد السطوع لدرجة أنّه امتص كلّ ألوان قوس قزح قبل أن يصبح لونه أبيض نقيّاً وكبر بسرعة ليتحول إلى كرة من نار. *الآن أصبحت أنا الموت... إني مدمّر هذا العالم*. اهتزت الأرض وتبعها الظلام. مع صيحة شيطانية، عبرت موجة من الضغط من فوق حفرة الملجأ، رافقها شلال من الصوت والرياح. كان أولئك الموجودون في العراء الواسع يراقبون ما يحدث بقلوب تخفق بقوة وعيون محمية بنظارات واقية يملؤها الدخان؛ شفطت جلود وجوههم قوة الرياح لتتحول إلى أقنعة قبيحة بينما كانوا يركزون انتباههم على الشاشة المرعبة. كانت الفوضى هائلة لدرجة أن عقولهم لم تتفاعل بشكل كامل مع فظاعة ما شاهدوه للتوّ.

كان إنريكو فيرمي الرجل الوحيد الذي يفكر بعقلانية. رمى برزمة من الورق، وجعلها تتطاير عند قاع حفرة الملجأ. قام بشكل سريع بقياس المسافة التي تفصل موضعه عن الورق. في حين إن أولئك الذين شاهدوا الوميض أشاحوا بوجوههم بعيداً عن مكان الانفجار ليعود بصرهم إلى

طبيعته، قرأ فيرمي ما سجلته مسطرته الحاسبة. رفعها بحركة رجل منتصر قبل أن يستدير نحو الآخرين.

«قوته تعادل انفجار عشرة آلاف طن من مادة تي. أن. تي.».

حدق الجنرال غروفز إلى وجهه: «ماذا؟ أوه... يجب أن نبقي هذا الشيء طيّ الكتمان».

«ماذا تعني، طيّ الكتمان؟ لقد سمع الناس هذا الانفجار في خمس ولايات...»[15].

أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك السلاح النهائي.

سبق للأدميرال ويليام ليهي، أن أبلغ الرئيس الأمريكي «أن القنبلة لن تنفجر أبداً، وأنا أتحدث كخبير في المتفجرات». لكنها انفجرت لتوّها، من خلال التجربة التي عرفت باسم ترينيتي.[16] في اليوم الذي تلا تجربة القنبلة، كان لا يزال بحوزة الأمريكان قنبلتان قابلتان للاستخدام في ترسانتها الذرية: الأولى من البلوتونيوم ذات انفجار داخلي ويبلغ وزنها 13 كيلو طن[17] والثانية قنبلة انشطارية من اليورانيوم يبلغ وزنها 22 كيلو طن[18]. وقد برز حينها السؤال التالي ماذا نفعل معهما؟

باتت ألمانيا النازية محطمة. فقد استسلمت قبل شهرين ونصف الشهر. وقد حدث شيء ما لعلماء الفيزياء. فقد كان غالبية العلماء العاملين في مختبر لوس ألاموس من اليهود الأوروبيين، وكانوا خائفين من التهديد النازي. ولم تكن لديهم مشكلة مع اليابانيين. باتوا يشعرون بتأنيب الضمير تجاه السلاح المرعب الذي اخترعوه.

15- كان التفسير المقدم للسكان المحليين أن الأمر كان تفجيراً لذخيرة حربية.

16- تمّ إبلاغ الرئيس الأمريكي، هاري ترومان، بعملية ترينيتي خلال مؤتمر بوتسدام، الذي عقد في تموز 1945.

17- كيلو طن واحد يساوي 1000 طن من مادة تي. أن. تي.

18- KT، أو كيلو طن، هو مقدار الطاقة المنبعثة من 1000 طن من مادة تي. أن. تي. تمّ إسقاط قنبلة البلوتونيوم على هيروشيما (6 آب 1945)، واليورانيوم على ناغازاكي (9 آب 1945).

«استخدام أيّ سلاح في الحرب قد يكون غير أخلاقي إذا كان يسبب معاناة أكثر من الضرورة القصوى لاستخدامه»، أصبحت هذه العبارة هي دليلهم الإرشادي. أصبح ليو زيلارد المفعم بالحيوية الناطق باسم مجموعة من العلماء المنشقين.[19] وقال صراحةً ما كان يدور في ذهن الجميع: «لقد كانوا يخشون أن ينتج الألمان ذلك السلاح؛ كانوا يعرفون أن اليابانيين لا يستطيعون!». عندما لم يستقبله الجنرال غروفز، توجه زيلارد إلى شخص أهم من الجنرال وهو جيمس بيرنز، وزير الخارجية الأمريكي.

أغضبت هذه الخطوة الجنرال غروفز ودفعته للقول: «لقد ابتلي مشروع مانهاتن منذ بدايته بوجود علماء يتخذون قرارات تثير الريبة وإخلاصهم ليس حقيقيّاً».[20] وقد شمل اتهامه هذا النابع من رهاب كره الأجانب الذي كان يتسم به الرجل الذي كان له دور فعال في نجاح المشروع وهو الدكتور روبرت أوبنهايمر، ولكن ضمير أوبنهايمر الأخلاقي أجبره على التعبير عن قلقه. كادت هذه الحلقة من الاتهامات أن تؤدي إلى واحدة من أكثر الأحداث المخزية في التاريخ الأمريكي، إعادة محاكم التفتيش للمخالفين في الرأي. لم يعارض الأمر أوبنهايمر وزيلارد وحدهما. كان هناك العديد من العلماء حينها ضد استخدام السلاح الذي ابتكروه. عندما كان هناك شعور بأنّه لا ينبغي لدولة واحدة أن تسيطر على هذه القوة المطلقة، فإنّ نيلز بور اقترح حتى كشف السرّ للروس حلفائهم في الحرب. في أواخر حزيران 1945، تمّ عقد اجتماع في واشنطن. وكان غروفز وأوبنهايمر من بين الحاضرين.

في طريقه إلى الاجتماع، سأل أوبنهايمر: «هل أنت على علم بخطط تلك المجموعة المنشقة في شيكاغو؟» وكان يشير بذلك إلى الرجال الذين حول ليو زيلارد.

19- حصل زيلارد مع زميله يوجين ويغنر على جائزة «الذرة من أجل السلام» المرموقة في عام 1959.

20- للتعرف على كره غروفز للأجانب ومشاعر معاداة السامية التي كان يحملها راجع كتاب ج. بلوم، The Price of Vision، بوسطن، 1973.

«إذا كنت تتحدث عن مخاوفهم، فإنّ إجابتي هي نعم».

«أنت تريد تنقية ضميرك بينما تتاح لنا الفرصة لإنهاء هذا الأمر برمته مرة واحدة؟» كان تذكر هذا الحادث بالذات ينقل المرء إلى فترة «الرعب الأحمر» المخزية التي اجتاحت الولايات المتحدة في أوائل الخمسينيات (تضمنت تلك الفترة حملات من الهجوم الشخصي على الأفراد من خلال الادعاءات المشوشة المعلنة على نطاق واسع، بناءً على اتهامات واهية وقادها السناتور جوزيف مكارثي وعرفت أيضاً بالمكارثية – م). واجه غروفز المزيد من المعارضة خلال الاجتماع الرفيع المستوى. هذه المرة جاء النقد من داخل معسكره الخاص، وهو الجيش.

قال ضابط بحري رفيع المستوى: «ماذا ستكون فكرة العالم عنا؟ إن استخدام هذا الاختراع ليس وسيلة شريفة لخوض الحروب».

استبد الغضب بالجنرال غروفز. «ما الذي تدعوه وسيلة شريفة، يا أدميرال؟ هل تعتبر أن قصف بيرل هاربور كان وسيلة شريفة؟».

«يجب أن نقوم بالكشف عنها علناً قبل استخدامها».

كان أوبنهايمر يجلس هناك ويدخن غليونه. لم يصطف حتى الآن مع أيّ جانب.

«ما هو رأيك يا دكتور أوبنهايمر بإجراء تجربة علنية؟».

«تقصد، ندعو اليابانيين، ونريهم إياه؟».

«شيء من هذا القبيل، نعم».

«إذا أجرينا اختباراً، ودعونا اليابانيين وفشلنا، ماذا سيكون موقفنا؟ سنخسر بعض المواد التي لا يمكن تعويضها».

«تقصد أن تقول أن نمضي قدماً في الأمر ونسقطها بدون إجراء اختبار؟».

«هذا الأمر لا يقرره العالم، الرئيس فقط من يستطيع أن يقرره».

عندما عاد أوبنهايمر إلى لوس ألاموس، كان أول شيء أراد الجميع معرفته: سيتمّ إجراء اختبار أم لا.

«نعم، سنفعل ذلك»، أخبرهم رئيسهم.

حينها قال أحد العلماء: «هل فكر أحد في هذا من قبل أنه سيؤثر على حياة الآلاف وربما الملايين؟». كان ذلك الشخص هو الدكتور سلوتين.

أخرج أوبنهايمر غليونه من فمه وأشار به نحو العالم الشاب. مخاطباً إياه: «لقد طُلب منا حل مشكلة فنية، وليس التوصل إلى حكم أخلاقي. نحن نجربها، هذا كلّ شيء».

كانت الحرب الهمجية لا تزال مستمرة في المحيط الهادئ. وكانت الخسائر الأمريكية فادحة، وواجهت الولايات المتحدة لأجل إنهاء الحرب احتمال غزو الجزر اليابانية، ووقوع المزيد من الضحايا. تمّ استبدال العلم بالسياسة. الآن وقد أنجزوا مهمتهم، طُلب من المخترعين العودة إلى ملعبهم وتجريب اللعب بألعاب جديدة. كانت جميع القرارات التي صدرت فيما بعد منوطة بصائغي عالم ما بعد الحرب العازمين على تحقيق السلام الأبدي. كان الرئيس الأمريكي مصرّاً على رأيه. وأعلن ترومان في بيان تاريخي له: «إذا أمكن صنع قنبلة نووية، فمن الممكن استخدامها».[21]

أصبح من الواضح اليوم أن العلماء عرفوا شيئاً لم يكن يعرفه رئيس الولايات المتحدة أو لم يأخذه في الاعتبار: الآثار الأخلاقية المترتبة على ذلك الأمر، إضافة إلى وصمة العار التي سيلحقها بهذا البلد الذي أطلق وحشاً على الإنسانية. تعتمد الديمقراطية على مبدأ أنّه إذا كان لدى الناس معلومات كافية، فسيتمّ اتخاذ قرارات حكيمة. لم يتمّ إطلاع أيّ من المسؤولين في واشنطن على الآثار اللاحقة للانفجار النووي التي سيتسبب بها الإشعاع الناتج عنه. بعد الانفجار التجريبي، تمّ تجاهل الآثار السيئة الواضحة التي عانت منها القوات الأمريكية والتي كانت تتمركز خصيصاً بالقرب من موقع الانفجار النووي، والتي لم يكن أفرادها يمتلكون وسائل حماية أكثر من نظارة واقية من الدخان، والتي إمّا تمّ إهمالها أو إخفاؤها. إن الدرس الذي يقول إن إسقاط القنبلة النووية

21- راجع: H. Truman, The Year of Decision, New York, 1955.

يعني القضاء على جميع المبادئ الأخلاقية ويمكن أن يهدد البشرية جمعاء في نهاية المطاف، قد فهمه العلماء ولكن لم يتعلمه السياسيون.

اجتمعت «لجنة عالية المستوى» برئاسة وزير الحرب هاري ل. ستيمسون في واشنطن لتقرير ما إذا كان ينبغي إسقاط القنبلة على اليابان، وإذا كان الأمر كذلك، فأين؟ اقترح أحد الحاضرين إلقاء القنبلة على هدف عسكري بحت، مثل جزيرة تورك في المحيط الهادئ. ومع ذلك، ولتحقيق «تأثير نفسي عميق» على سكان اليابان، يجب الإعلان عن توجيه ضربة وكان يخشى الجيش من أن يقوم العدوّ بنقل الآلاف من الأسرى الأمريكيين إلى الموقع فتمّ التخلي عن هذه الفكرة. لا يعرف شيء عما حدث فعلاً في قاعة المؤتمر في يوم اتخاذ القرار هذا، ولا من صوّت لصالحه ولا من الذي عارضه؛ تحتوي المحفوظات الرسمية التي رفعت عنها السرية على مذكرة موجزة فقط:

بعد إجراء نقاش مستفيض حول أنواع مختلفة من الأهداف والتأثيرات الناتجة، أعلن الوزير ستيمسون عن القرار النهائي، الذي كان محل اتفاق عام، والذي يشير إلى: أنّه لا يمكننا توجيه أيّ تحذير لليابانيين... لكن يجب أن نسعى لإحداث انطباع نفسي عميق عند العديد من السكان بالقدر الممكن.[22]

لم تكن سوى مجموعة صغيرة من العلماء النوويين تدرك أنّه حتى الحروب لها حدودها. في 6 آب 1945، عند الساعة 08:15 صباحاً، دخل العالم العصر النووي بجملة واحدة، حين صرخ الطيار الثاني لقاذفة القنابل إينولا غاي قائلاً: «يا إلهي! ماذا فعلنا!؟».

كتب الفيلسوف فرانسيس بيكون (1561-1626) في كتابه (الأورغانوم الجديد): «لا يمكننا التحكم في الطبيعة إلّا بطاعتها». لقد حاولت مجموعة صغيرة من العلماء السيطرة على الطبيعة، لكن لم يكن لديهم شيء يفرحون به. بمجرد أن شاهد العالم صوراً لمنطقة أبادتها القنبلة

22- راجع: M. Sherwin, A World Destroyed, New York, 1975

النووية، كان من المستحيل أن لا يصدر عنه حكم أخلاقي. بالطبع، كانت هناك هجمات قاتلة على مدن أخرى، تسببت في المزيد من الخسائر، مثل قصف دريسدن وطوكيو. لكن تمّ تحقيق ذلك باستخدام «الأسلحة التقليدية»، والتي بدت مقبولة. ولكن هذه العملية كانت حالة اختبار مصممة بوضوح لإظهار براعة الإنسان العلمية وجبروته الصناعي.

حاول نيلز بور، وهو عالم صاحب رؤية، أن يحذر الرئيس الأمريكي روزفلت في وقت مبكر من شهر تموز 1944: إن حقيقة السعي لتحقيق انتصار فوري عن طريق ابتكار سلاح ذي قوة لا مثيل لها من شأنه أن يغير بشكل كامل جميع ظروف الحرب في المستقبل... ومع ذلك، فإنّ أيّ ميزة مؤقتة له، مهما كانت عظيمة، لا تنفي حقيقة كونه تهديداً دائماً للأمن البشري.

هل كان هذا إذن أكبر اختراع حققته البشرية؟ هل كانت القنبلة الذرية مجرد حادثة مفاجئة ناتجة عن إرادة لإنهاء كلّ عمليات القتل في ساحات المعارك ورغبة الإنسان الحقيقية في وقف استمرار هذا النشاط البربري؟ أم أنّها كانت مأزقاً لا مفرّ منه في الطريق الطويل بحثاً عن «السلاح النهائي»؟ كان هناك شيء واحد مؤكد: إن التهديد النووي قد غيّر قواعد الحرب حيث لم تعد المقامرة مسموحاً بها. الثقة التي قد يضعها زعيم القوة العظمى في السلاح كرادع للعدوان كانت مجرد وهم. أيّ نزاع يتمّ استخدام الأسلحة الذرية فيه لن يكون فيه غالب أو مغلوب، بل سيكون انتحاراً متبادلاً. من الناحية العملية، يمكن القول إن القنابل الذرية التي أُسقطت على هيروشيما وناغازاكي قتلت عدة آلاف، لكنها في الحقيقة أنقذت ملايين الأرواح منذ أن أنهت الحرب، ومنعت بدء تصنيع القنبلة الكبيرة التالية. على الأقل، قد يتمّ بذلك الدفاع عن إلقاء القنبلة الأولى على هيروشيما.[23]

23- أعلن السير هنري تيزر، رئيس لجنة أبحاث الطيران في وزارة الطيران البريطانية أثناء الحرب، وهو يخاطب مؤسسة رويال يونايتد للخدمات بعد أشهر قليلة من الحرب: لقد كان من حسن الحظ فعلاً أن القنبلة الذرية والصاروخ البعيد المدى قد تمّ عرضهما على الملأ قبل نهاية الحرب، وخلاف ذلك ما كان لها تأثير يذكر على نتيجتها راجع: R. Clark, The Birth of the Bomb, London,1961

«هل تعلم ماذا كنت تفعل؟» ادعى العديد من العلماء، الذين شاركوا مباشرة في خلق الوحش، بعد ذلك أنّه لم تكن لديهم فكرة عن تأثير القوة الهائلة التي أطلقوها على أجيال المستقبل. وكان الدكتور لويس سلوتين من بينهم. في رسالة إلى والديه، كتب يقول: «إن خطوة هائلة قد تحققت، وأنا فخور بها». في الواقع، بالنسبة لشخص عالم، كانت «ولادة القنبلة» تعتبر نجاحاً. لم يحدث أيّ شيء غير مرغوب فيه أثناء صنعها، وكانت نتيجتها النهائية مقنعة: فقد تمّ محو مدينتين وحرقهما وتحويلهما إلى فتات، مما يعطي دليلاً واضحاً على القوة الهائلة للذرة. لقد كان صناع القرار السياسي الأمريكان مبهورين وواثقين بنفسهم بعجرفة من حقيقة أنّهم أصبحوا يملكون السلاح النهائي. كان الجنرالات يؤمنون إيماناً ثابتاً بحتمية امتلاك الأسلحة النووية وفقاً للفكرة العسكرية القائلة بأن «السلاح الأكبر هو الأفضل». لا شيء يمكن أن يحدث خطأ. لا زالت الحالة الطارئة أثناء الحرب قائمة، حين يكون الخيار الصحيح أن تضغط على زر إطلاق القنبلة بكل ما لديك من سرعة؛ ولا زال العالم بعيداً عن الاستعداد لتحقيق السلام الدائم.

واصل الفيزيائيون والفنيون عملهم، وما زالوا غير مهتمين بإجراءات السلامة المناسبة. لم تكن هناك سوى بعض الحوادث البسيطة، ولكن بغضّ النظر عن مدى عدم أهمية أيّ من هذه الحوادث المؤسفة، فقد كانت جميعها خطيرة، كونها كانت جزءاً من قوة لا يمكن تخيلها. بدأ العاملون في المجال النووي يواجهون الشكوك الأولى هل كانوا محصنين حقّاً من أيّ مشكلة صغيرة؟ نما لديهم شعور بأنّه مهما كان النظام قد وصل حدّ الكمال من الناحية النظرية، فإنّ الاحتمال العملي لعدم ضمان أنّه تمّ التعامل مع كلّ عنصر بالدقة نفسها، كان ببساطة يفوق ما يجب توقعه في نظام يعتمد على البشر. يشعر المرء بالأسى حين يتشاجر مع زوجته، أو يصيبه ألم في المعدة، أو تعرق يده المرتجفة؛ هذه مجرد بعض الأسباب الكثيرة التي تجعل الأمور تذهب إلى الأسوأ.

لكن العادة هي الخطر الأكبر. مثل أيّ مهمة، يتمّ تنفيذها يوماً بعد يوم، فإنّها تميل إلى أن تصبح روتينية، وتجعل المرء يقول في نفسه: «أستطيع أن أفعل ذلك حتى في نومي» الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى عدم الانتباه للحظة، وحينها تحل الكوارث. حتى أولئك الذين كانوا يتبنون وجهة النظر التي تتحدث عن العملية المضمونة الخالية من المتاعب أصبحوا يدركون تدريجيّاً الخطر المحتمل لوقوع حادث كارثي. مع الزيادة في الانتقادات التي توجه لبعض الجوانب التقنية، والإعلان عن آثار الإشعاع الذي أعقب قصف مدينتي ناغازاكي وهيروشيما، انتشر في جميع أنحاء العالم وعي عام بخطر الأسلحة النووية، وعداء شامل لها، بتوحيد وعفوية لم يسبق لهما مثيل. لكنها لم تغيّر شيئاً. لقد كانت القوى العسكرية على يقين من أن أيّ نقد بناء في الغرب ما هو إلّا مؤامرة من الخطر الأكبر الذي تمثله روسيا والشيوعية، التي تهدف إلى إضعاف إرادة أمريكا للدفاع عن الحرية في العالم. انتهت الحرب العظمى؛ وبدأت أخرى في اللحظة التي بدأ فيها المنتصرون يتشاجرون فيما بينهم. أطلق عليها تشرشل اسم: «الحرب الباردة». كانت أمريكا تمتلك «القنبلة النووية»، التي أعطتها وضع قوة عظمى فريدة من نوعها تجعلها تقرر مصير العالم. كانت الهيمنة العالمية على المحك وكان مفتاحها «القنبلة النووية».

بدأت تقام المصانع النووية؛ وتمّ إجراء المزيد من الاختبارات وإنتاج قنابل أكبر وأفضل. في أواخر عام 1945 وقع حادث لم يعرف مصدره. خلال واحدة من «العمليات الروتينية»، حدث شيء لم يستطع أحد تفسيره، فقد تعرض هاري داغليان مساعد سلوتين إلى جرعة كبيرة من الإشعاع بلغ حجمها عدداً كبيراً من (الرادات: الراد هو وحدة قديمة لقياس جرعة الأشعة المؤينة للجسم - م). ورغم أنّه كان قد تمّ في تلك الأثناء التعرف إلى نتائج التعرض للإشعاع وتمّ التأكد منها بدراسة حالات ضحايا انفجاري هيروشيما وناغازاكي، إلّا أن دراسة الحروق التي أحدثتها أشعة غاما والنيوترونات كانت لا تزال في مراحلها الأولى.

توفي العديد من الناجين في غضون أيام قليلة بعد الانفجار، كانوا ضحايا هذا القاتل الصامت الجديد: «الإشعاع». كان من المعروف أن التعرض لجرعة مقدارها 1000 راد تؤدي إلى الموت. في ناغازاكي، وجد أن أيّ شخص كان داخل دائرة نصف قطرها ميلان (3.2 كم) من موقع التفجير قد تلقى 1000 راد من الإشعاع وأن أعراض المرض الإشعاعي تظهر واضحة عليه على الفور تقريباً. نتيجة لهذه الدراسات، تمّ وضع مقياس يضع التعرض للتهاطل النووي في أربع فئات:

المستوى الأول (من 0 إلى 100 راد)، لا توجد فيه أعراض واضحة سوى التعب. فرصة الشفاء: لا يهدد الحياة

المستوى الثاني (من 100 إلى 200 راد)، شعور بالاضطراب العام. فرصة الشفاء: معقولة

المستوى الثالث (200 إلى 600 راد)، نزيف من الجلد، والحمى، وتورم الحلق. فرصة الشفاء: 20 في المئة

المستوى الرابع (600 إلى 1000 راد)، أعراض في الجهاز الهضمي، والقيء، والغثيان، والحمى الشديدة، والترنح وخلل في الحركة، ونزيف في الفم والبول. فرصة الشفاء: صفر؛ يحدث الموت في غضون أيام.

أصبحت حالة داغليان، التي تمّ تصنيفها على أنّها من «المستوى الثالث»، أول حالة معروفة مرتبطة مباشرة بعملية إنتاج القنابل في الولايات المتحدة. كانت حالته تضعف يوماً بعد يوم. كان لويس سلوتين أحد زواره الدائمين في قسم الحجر الصحي المخصص لتلك الحالات في مستشفى المعسكر. لقد هزم القاتل الخفي كلّ جهد لإنقاذ داغليان.

مع وفاة صديقه هاري داغليان، لم يعد سلوتين يهتمّ بشيء. بدأ بالتخطيط للعودة إلى الحياة المدنية والعمل في مشاريع البحث العلمي في شيكاغو وتقدم بطلب للحصول على وظيفة في معهد شيكاغو للفيزياء

الحيوية الذي يرأسه الأستاذ ريموند زيركل. لقد أراد أن يستكشف مجالات جديدة ربما مع الحلم في نهاية المطاف بالحصول على جائزة نوبل للفيزياء. وافق على البقاء في لوس ألاموس إلى أن قام بتدريب بديل مناسب له، على الأقل حتى بعد انتهاء عملية «تقاطع الطرق» لتجربة سلاحين نوويين، والتي جرت في جزيرة بيكيني عام 1946.

«لقد شاركت في الكثير من الاختبارات المتعلقة بالقنابل النووية، الأمر الذي أثار الكثير من اشمئزازي. لكنني واحد من الأشخاص القلائل الموجودين هنا والذين لديهم خبرة في تنصيب وتجميع القنابل»، بهذه الكلمات كشف سلوتين عن أحد أسراره لصديقه فيليب موريسون في ربيع عام 1946. في الواقع، لقد تلاشت حيوية سلوتين التي كان يتميز بها في وقت الحرب؛ لقد ساعد هو وزملاؤه بلاده على كسب الحرب، ثم رأوا النتيجة المدمرة التي سببها ابتكارهم. أمّا بالنسبة للخطر المستقبلي الذي يمثله الروس بقيادة ستالين، فكل ما كان يعرفه عنهم هو ما أخبره به والده عن المذابح التي قاموا بها بحق القيصر وعائلته. استمرت أمريكا في صنع المزيد والمزيد من القنابل، وواصل الدكتور لويس سلوتين بطل القوات المسلحة الأمريكية، عمله المعتاد في «ربط أجزاء هذه القنابل معاً».

سأله أحد زملائه الذي كان يرافقه في العمل يومياً: «كيف يمكنك أن تفعل ذلك، يوماً بعد آخر؟».

«هناك فرق بسيط بين خط تجميع أجزاء السيارة وما أقوم به. إنّه أمر روتيني». ورغم أنّه كان في الواقع عملاً روتينيّاً، ولكنه كان من النوع الأكثر فتكاً، لأن الروتين يقود إلى الإهمال. ولم يكن عمله الروتيني تجميع أجزاء السيارات معاً، بل كان تعريض نفسه لخطر شديد (تحريك ذيل النمر).

كان للمختبر المشيد من الخرسانة الموجود في موقع التجميع السري للغاية في باغاريتو كانيون قبالة لوس ألاموس فوق موقع أوميغا، باب صغير من الصلب ونافذة زجاجية أصغر من الرصاص. في ذلك اليوم، كان هناك

ثمانية أشخاص في القاعة: سلوتين، يقف عند مخرطة التجميع؛ وكان يقف خلفه بمسافة قليلة ليراقب العملية، الرجل المعين ليخلفه في تولي المهمة، ألفين غريفز؛ وكان يقف خلف غريفز عالم آخر، هو آلان كلاين. وكان هناك في القاعة أيضاً، ولكن بعيداً بعض الشيء عنهم، علماء نوويون آخرون مثل: سيسليكي ويونغ وشريبر وبيرلمان. وكان هناك أيضاً حارس أمن، هو باتريك كليري. على مرّ الشهور، أصبح وجود جوّ من التوتر الشديد نمطاً عاديّاً قبل كلّ عملية تجميع ولا يمكن التخلص منه إلّا بعد الانتهاء من العملية بنجاح. ومن جديد، مثل الأوقات السابقة، شعر الجميع بهذا التوتر.

لم يكن الدكتور سلوتين يجازف مطلقاً مع قوانين الفيزياء. كان قد أجرى العملية مئة مرة وكانت الإجراءات في أغلبها، إن لم تكن جميعها، عبارة عن عمليات ميكانيكية. كان سلوتين «ميكانيكيّاً» ممتازاً، ولديه خبرة كبيرة، وكان يدرك جيداً المطبات والمخاطر في عمله، ولا يفعل ما يفعله البلهاء ويتجاهل عمليات الفحص. لقد كان يحفظ قائمة الفحص عن ظهر قلب: «تأكد من أن كلّ شيء يتمّ حسب القوانين والتعليمات قبل أن تفكر في وضع هذه الأشياء معاً». لقد كان دائماً يوصي بذلك ويفعله دائماً. لكنه في ذلك اليوم لم يفعل. لا أحد يعلم ما الذي جعله ينسى إدخال مشبكي الأمان، وحدث ذلك في يوم 21 ايار 1946. ربما كان هذا بالنسبة له مجرد تكرار لحدث مألوف، واعتبر نفسه قد أصبح متمرساً إلى حدّ أنّه لا يحتاج إلى جهاز أمان إضافي، والذي لن يفعل سوى إبطاء حركته.

في ذلك اليوم المشؤوم، أصبح الدكتور لويس سلوتين المتخصص الأمريكي المعروف (في تركيب القنابل)، مثل لاعب سيرك يسير على الحبل بدون شبكة أمانه. حسب قول آلان كلاين، الذي كان حاضراً في الغرفة: لقد قام بعملية التركيب هذه عدة مرات إلى حدّ أنّه بات يعرف جميع خصائصها جيداً. ولكن هذه المرة فعل سلوتين شيئاً مختلفاً. في الواقع، أدخل سلوتين إبهامه الأيسر في ثقب أعلى الجزء السفلي من الكرة ثم قام بحشر مفك براغي غليظ بين نصفي الكرة لمنعهما من

الاتصال المباشر. تحركت يداه بسهولة وثقة وثبات. توقف للحظة ليأخذ نفساً عميقاً، ثم بدأ بالتركيز بشكل أكثر شدة بينما كان نصف الكرة يتحرك ببطء شديد إلى الأسفل. لم يكن يتطلب الأمر سوى دورة أخرى ويصل المسافة الحرجة. كان سلوتين يرتدي نظارات واقية فوق نظارته، انحنى إلى الأمام، وكان يستعد للدورة الأخيرة للعجلة.

ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان. من غير المعروف ما الذي صرف انتباهه أثناء قيامه بتدوير مفك البراغي المخروطي من أجل تقليل المسافة بين نصفي الكرة. ربما يكون هناك شيء ما قد صرف انتباهه وأصبحت يده غير مستقرة للحظة، أو أن قطرة من العرق قد تسربت من جبهته وسقطت فوق نظارته لتكسيها بغشاوة. انزلق من يده اليمنى مفك البراغي. ليسقط ويتناثر على الأرض بينما علق النصف العلوي من الكرة وتوقف مؤقتاً، ثم تباطأ نزوله فقط من خلال عجلة الموازنة دون أن يتوقف عند نقطة الأمان. سمع جميع الموجودين في الغرفة صوت فرقعة المؤشر المخيفة. صدر ذلك الصوت من وسط طاولة العمل بينما كان نصفا الكرة على وشك أن يتلامسا تقريباً. انفجرت هالة زرقاء لامعة مثيرة للألم من وسط الطاولة، واجتاح سلوتين تدفق مفاجئ للحرارة فيما قفزت إبرة عداد غيغر. حدث كلّ شيء بسرعة لدرجة أن معظمهم كانوا غير قادرين على رؤية ما حدث بالفعل.

«الموقف حرج!» صاح سلوتين بأعلى صوته، وخبط بيده اليسرى أحد نصفي كرة البريليوم وأوقعه على الأرض. وفي جزء بسيط من الثانية تحرك إلى الأمام، وقد حمى جسده الآخرين، على الأقل جزئياً، من الإشعاع الناجم عن الانفجار. كان ردّ فعله السريع قد منع حدوث ما لا يمكن تصوره فقد منع شحنة القنبلة من أن تصل إلى الحالة الحرجة وتتفكك من خلال حدوث «انفجار سريع»، الأمر الذي كان من المحتمل أن يكون قد تسبب في انفجار مبنى مختبر لوس ألاموس بأكمله وإلحاق الضرر بالقدرة النووية لأمريكا. منذ اللحظة التي ألقى فيها سلوتين بنفسه على نصفي الكرة القاتلين فإنّه بالتالي منع حدوث تفاعل تسلسلي قبل

أوانه، وبالتالي أنقذ حياة جميع أولئك الذين كانوا في القاعدة، ولكن تلاشت تماماً فرصته في البقاء على قيد الحياة.

ثم قال: «أصبح الموقف آمناً»، وأضاف محاولاً التقاط أنفاسه: «أنا على وشك الموت».

ثم خيمت حالة من الذعر والارتباك وسادت المكان. كان هناك شيء واحد فقط كانوا متأكدين منه: لقد حدث شيء فظيع. فقد التقط سلوتين وسط نسيانه خطر الإشعاع، عداد غيغر لكي يعرف القياسات. ثم شعر بشيء كان يخشاه دائماً، وشيء لم يخطر بباله أن يحدث له في يوم ما أول وخزة صغيرة من الألم في معدته. مرّت لحظات قليلة قبل أن يشعر بالغثيان وهو يصعد من أعماق أحشائه، وصار مثل طوق حديدي يحيط به ويدفعه إلى التقيؤ، ويمنعه من التنفس. بات بإمكانه الشعور أن حالته تسوء، في حين إن الضغط المسلط عليه أصبح أكثر قوة ولا يطاق. يا ترى هل وقع في القبضة القاسية التي لا ترحم لذلك القاتل الغامض؟

تعثر وهو يبحث عن الباب من أجل الخروج إلى العراء... بدأ الدم يخرج من أنفه. لكنه كان على قيد الحياة... على قيد الحياة... جاءه صوت من مكان ما: «لويس، تحدث معي، أرجوك تحدث معي. أخبرني إذا كنت على ما يرام. هذا كلّ ما أريد أن أعرفه».

... أومأ لويس سلوتين بإيماءة ضعيفة من يد تحترق كأن ناراً تشتعل فيها.

تمّ فرض تعتيم فوري على القضية. ومع ذلك، هناك تقرير رسمي (رفعت عنه السرية في عام 1985) وبعض البيانات التي أدلى بها بعض الرجال بعد سنوات من الأحداث، ممن كانوا حاضرين وشهدوا ما حدث داخل القاعة:

«خرج كلاين وكليري ويونغ بعد الحادث مسرعين من الباب الشرقي للمختبر بمجرد أن استطاعوا القيام بردّ فعل لما جرى... كان بيرلمان يركض في الممر الشمالي الشرقي... وتبعه سلوتين وغريفز وشريبر إلى المختبر الرئيس حيث طلب سلوتين سيارة إسعاف. ثم اتصل بالآخرين

(سيسليكي وكليري وكلاين) ليعودوا وأعدّ مخططاً أولياً لتأشير المواضع التقريبية لكل الحاضرين التي كانوا فيها لحظة وقوع الحادث».

أكد حارس الأمن كليري هذه الواقعة بإفادته:

«ركضت من الباب الشرقي نحو أسفل الطريق المنحدر. استغرق مني ذلك ما يقارب خمس ثوانٍ. تبعني سيسلي وكلاين. طلب كلاين من الشرطي فتح البوابة، وقد واجهته مشكلة في إخراج صفارة من جيبه قبل أن يفتح البوابة. ثم أبلغ عن الحادث. ركضت على ارتفاع 1000 قدم [300 متر] عن الطريق، عندما خرج الدكتور سلوتين والسيد يونغ ودعوانا للعودة إلى المختبر. لكن قبل أن تتاح لهم فرصة العودة، تقيأ سلوتين بشدة وشكا من حروق قوية في يده اليسرى. عندما رسمنا المخطط البياني لمواضعنا، كان الحديث يدور فقط حول من امتص أكبر كمية من الإشعاع».[24]

عاد شريبر إلى المختبر لأخذ قراءة عداد غيغر وغادر على الفور عندما كانت الإبرة تحوم بالقرب من النقطة الحرجة. في غضون ذلك، أجرى سلوتين مكالمة هاتفية أخرى مع صديقه الفيزيائي فيليب موريسون: «لقد وقع حادث. لقد وصل الوضع إلى (النقطة الحرجة). من الأفضل أن تنزل إلى هنا».

تساءل موريسون بصوت قلق: «هل كان الأمر حرجاً حقّاً؟» أفصح جواب سلوتين عن كلّ شيء: «كان هناك توهج أزرق...».

عرف موريسون حينها أن الأمر كان خطيراً. في غضون ساعة، تمّ حجز جميع من كانوا داخل المختبر في الحجر الصحي داخل الثكنات الخضراء في مركز لوس ألاموس الطبي، ليس فقط للفحوصات ولكن أيضاً لمنع انتشار خبر الكارثة إلى العلن. تمّ وضع سلوتين وغريفز في الغرفة نفسها.

قال سلوتين حالما أصبحا وحدهما: «آسف، آسف لأنني أدخلتك في هذا». «أخشى أن لا تتجاوز فرصتي للنجاة خمسين بالمئة».

24- راجع: From newspaper articles by Barbara Moon in Maclean's Magazine (October 1961) and M. Zeilig in (The Beaver Aug. 1995)

لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت تظهر على سلوتين علامات ارتفاع في درجة الحرارة وانتشر طفح أحمر على بطنه، إلى جانب التقيؤ المستمر والإسهال الحاد. لا يزال كلّ واحد منهم متمسكاً بالأمل الضئيل في أن الجرعة التي امتصها لم تكن كبيرة، لكن بخصوص سلوتين كان يشتبه بالفعل في أن جرعته تجاوزت الحدّ المسموح به. عندما دخل اختصاصي الأشعة في المركز، الدكتور رايت لانجهام، إلى الغرفة، نظر سلوتين إلى الأعلى وقال: «أعلم لماذا أنت هنا». مثل كلّ من تعامل مع الأمر، كان يعلم أنّه لا يوجد ترياق للحرق الناجم عن الإشعاع. بعد ثلاث ساعات من الحادث أصبحت يده اليسرى متورمة وحمراء. عند حلول الظلام أصبحت بطنه متيبسة ومتورمة. وضع الدكتور لانجهام قطعاً من الثلج فوقها وحقنه بإبرة مورفين لتخفيف الألم. استجاب سلوتين للأمر بعقلانية. من المؤكد أنّه كان لا يبدو مكتئباً.

عمل جميع موظفي المستشفى، وكذلك كلّ فيزيائي في القاعدة، بحماس لإيجاد حل، وخلص الدكتور لانجهام، بعد فحص خاتم يد سلوتين وبعض فئات النقود المعدنية الصغيرة التي كان يحملها في جيبه في لحظة وقوع الحادث، إلى أنّه قد امتص جرعة تعادل أربعة أضعاف تلك التي قتلت داغليان.

قام كلّ من شريبر وسيسليكي وكلاين بعمل تخطيط لموقعهم في الغرفة بشكل تقريبي. عندما تمّت مقارنة تلك الرسوم، أظهرت بوضوح أن سلوتين كان يحميهم بجسده، وبالتالي تصرف مثل الدرع، بينما كان يمتص الحدّ الأقصى من الرادات. كان أولئك الذين يقفون بالقرب من سلوتين هما مساعديه الرئيسين، كلاين وغريفز. من خلال العمل باستخدام المسطرة الحاسبة واستناداً إلى الرسومات الفردية، وباستخدام المعادلات والمقارنات وعن طريق أخذ بعد المسافة التي كانت تفصل كلّ واحد عن المركز والمسافة المحتملة لحدوث اتصال الحرج، تمّ تحديد مستويات الإشعاع.

كان كلاين على بعد حوالي خمس أقدام (1.5 متر) من النقطة الحرجة، وامتص حوالي 90 راد، أو المستوى الأول العلوي. كانت جميع المستويات الأخرى في المستوى الأول على نطاق منخفض، حيث كانت بعيدة جدّاً عن النقطة الحرجة.

أمّا غريفز، كان على بعد ثلاث أقدام (90 سم)، ولكنه كان محمياً جزئيّاً بجسم سلوتين، وامتص 166 راد، وكان في المستوى الثاني.

لم يضرب وميض الإشعاع بشكل مباشر سوى الرجل الذي اصطدم بأحد نصفي الكرة وهو الدكتور لويس سلوتين الذي كان في المستوى الرابع.

انتشر المرض الرهيب في جسد الدكتور سلوتين بعناد لا يرحم، كان الألم شديداً ومبرحاً ويعذبه من الداخل، وضربته الحمى وجعلته ضعيفاً لدرجة أنّه لم يعد قادراً على تحريك يديه. انتشر خبر وقوع حادث خطير في جميع أنحاء المبنى. ورفض زملاء سلوتين، الذين تجمعوا أمام المستشفى للحصول على أحدث تقرير طبي، قبول تشخيص الدكتور لانجهام.

قال صديقه موريسون: «بحق الجحيم، لا يمكن السماح بحدوث ذلك». وصرح أولئك الذين كانوا مع سلوتين داخل قاعة التجميع أن الضوء الأزرق لم يظهر سوى لمدة ملي ثانية (وحدة زمنية تساوي جزءاً من الألف من الثانية – م)؛ ولم يكن هذا الوقت كافياً لشوي جسد الإنسان. وقد تبين أن ضحايا القنبلة التي سقطت على ناغازاكي من الذين تعرضوا للإشعاعات لعدة ثوانٍ هم فقط من تعرضوا لجرعة مميتة.

تمّ التعتيم على خبر الحادث. بعد أن هدد فيليب موريسون باللجوء إلى الصحافة من أجل تشييد نصب تذكاري تخليداً لشجاعة صديقه، أصدر الجيش الأمريكي بياناً، كان ضعيفاً مثل تلك التي تلفقها إدارات العلاقات العامة في المؤسسات الحكومية. مرّت أربعة أيام، قبل أن يتمّ تسليم بيان رسمي إلى خدمة أي. أن. أس. الإخبارية في منتصف ظهيرة يوم 25 أيار 1946 جاء فيه: لقد وقع حادث أثناء القيام بتجربة معملية مع عنصر انشطاري. في لحظة وقوع الحادث، قام الدكتور سلوتين،

المسؤول عن الاختبار، بتشتيت العنصر لتفادي حدوث عواقب وخيمة جرّاء ضرب الإشعاع لأعضاء آخرين في المجموعة...

وذكر البيان الصحفي كذلك أن أربعة من الرجال الثمانية الذين تعرضوا للإشعاع في الحادث قد خرجوا بالفعل من مستشفى المهندسين الأمريكي في لوس ألاموس. وخلص إلى: «... إن جميع الكوادر الفنية المعنية في حالة جيدة». وفي تلك الأثناء أصبح من الواضح أن لويس سلوتين كان يموت ببطء وتمّ استدعاء الخبراء الطبيين في جميع أنحاء البلاد لفحص العالم المنكوب. وهكذا أصبحت الحكومة بشكل واضح على دراية تامة بحالة الدكتور سلوتين النهائية عندما تمّ نقل الدكتور هيرمان ليسكو، اختصاصي علم الأمراض الشهير من شيكاغو، إلى لوس ألاموس لإجراء عملية التشريح، وهذا لن يحدث إلّا إذا كان قد توفي...

بعد البيان الصحفي، سُمح لسلوتين أخيراً بالاتصال بوالديه. لقد أملى برقية غامضة: «رحلتي إلى المحيط الهادئ تأجلت إلى أجل غير مسمى. سوف أكتب التفاصيل لاحقاً. مع حبي. لويس». وبسبب المزيد من الضغط من الزملاء وافق الجنرال غروفز على السماح لسلوتين بإجراء مكالمة هاتفية. ليلة الخميس، بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من وقوع حادثه، حملت ممرضة من المستشفى جهاز استقبال الهاتف لتضعه على أذنه أثناء حديثه إلى والده. أخبره عن حادث بسيط تعرض له، وبما أنّه لم يستطع العودة إلى المنزل، فربما ينبغي لوالديه المجيء لرؤيته؛ وقال إنّه يتطلع إلى أنّهم حصلوا على إذن لدخول القاعدة. وصل والداه، إسرائيل وسونيا سلوتين، في يوم السبت المقدس لدى اليهود. لقد صدما من حالة ابنهم. كانوا قد رأوه آخر مرة قبل عدة أشهر، كان حيويّاً ومليئاً بالطاقة؛ والآن فإنّ جسده المستنزف في وضع شاحب وعاجز، تداهمه التشنّجات المتكررة، كانت ذراعه اليسرى منتفخة بشدة وموضوعة في قدر مليء بالجليد. عندما تحدث إليه والده بصعوبة بلهجته الإنجليزية، ابتسم لويس، كان الأب يحاول ألّا يحرج ابنه بسبب خلفيته الأوروبية الشرقية؛

يتذكر طفولته واللغة التي كانوا يتكلمونها في المنزل: «بابا، تكلم أرجوك باليديشية!». (لغة يهود أوروبا- م)

لقد مرّت فترة طويلة عندما كان كلام لويس مترابطاً منطقيّاً، حتى إنه كان يحاول إرضاء أبيه وأمه. لم يكن سلوتين أبداً شديد التدين على عكس والديه، اللذين كانا من اليهود الورعين الأرثوذكس (الشديدي التدين)[25]. لكن احتمال الموت أعاد الدكتور سلوتين إلى التواصل مع الطقوس اليهودية. منذ وقوع الحادث، أصبح إيمانه ضروريّاً جدّاً عنده لدرجة أنّه لم يكن من الممكن أن يتخيل أنّه يستطيع العيش بدونه. كان على يقين من أنّه كان يحتضر، وأن الطاقم الطبي حاول إبقاءه على قيد الحياة بشكل مصطنع عن طريق القيام بعملية نقل دم مستمرة. أخبره موريسون عن الطابور الطويل خارج مركز المتبرعين بالدم جميع من في القاعدة يصطفون وهم يعرضون التبرع بدمائهم لإنقاذ زميلهم الذي أنقذ حياتهم بفعله الشجاع.

في صحراء مثل لوس ألاموس حيث لم تكن هناك أية أزهار تنمو، باستثناء تلك التي زرعتها ورعتها زوجات العلماء في باحات مساكنهن الأمامية، تمّ قطع الزهور ونقلها في باقات كبيرة إلى المستشفى، مع بطاقات كتبت عليها التمنيات بالشفاء. كان المصور المحلي للمختبر يلتقط صوراً كلّ ساعة. وللأسف، نحن لا نتذكره من خلال صوره، فهي لم تسمح لنا سوى بدراسة تلاشي قوة الضحية الذي كان مليئاً بالحيوية. في اليوم الخامس، لاحظت ممرضته الدائمة، آنا ماي ديكي، عند التحقق من عدد كريات الدم البيضاء - المنقذة للحياة لدى الإنسان - أن عددها ينخفض بسرعة بشكل خارج عن نطاق السيطرة. وبدأ يتمّ تدمير الصفائح

25- عندما شرح الأطباء لإسرائيل سلوتين أنّه يجب إجراء تشريح للجثة ليتمّ التحديد بدقة الظروف ومستوى الأضرار الإشعاعية، قال الأب إن هذا الأمر ضد عقيدته الدينية؛ ومع ذلك فقد وافق من أجل العلم وتكريم عمل ابنه أثناء حياته. (من تصريح للأستاذ موريسون).

الدموية بشكل أسرع مما يمكن استبدالها. في اليوم السادس، ارتفع معدل النبض، وكان تنفسه غير منتظم، وبات جسده يهتز بسبب التشنّجات العنيفة. تحول جسده إلى صفيحة من اللون الأرجواني العميق وتغيّر لون شفتيه إلى اللون الأزرق. كان جسده يمرّ في المرحلة النهائية السامة. توقف النزيف مؤقتاً عن طريق استخدام دواء جديد، تمّ اختباره على حيوانات كانت قد تعرضت للإشعاع: كان يدعى «تولويدين بلو». كانت فترة الشفاء قصيرة. عندما بدأ النزيف التالي، كان السبب في ذلك هو أن جميع الصفائح الدموية التي كانتَ تخثر الدم قد استُنفدت.

في اليوم السابع توقف الجهاز الهضمي عن العمل تماماً. آخر شيء كان يجب أن يذهب هو عقله. بعد ثمانية أيام من الحادث، توقفت عن العمل وظائفه الجسدية الرئيسة ودخل في غيبوبة. تمّ وضعه في ناموسية أوكسجين. بعد تسعة أيام من الحادث، في تمام الساعة 11:00 من يوم 30 أيّار 1946، مات الدكتور لويس سلوتين.

كان بوب ستيوارت أحد العلماء الشباب المبدعين في لوس ألاموس، وكان يعمل مساعداً لسلوتين ونعاه قائلاً: «كان لويس مصدر إلهام لنا جميعاً، كان يصرّ دائماً على أن يخوض المجازفة الأكبر بنفسه. وبموته فقد العالم أحد أبرز علمائه». تبعت الصدمة الأولية لخسارة شخصية كبيرة سنوات من الصمت. لماذا لم يتحدث أيّ من زملائه مطلقاً عن «حادثة سلوتين»؟ هل كانوا غير راغبين أم خجلين. كان السبب في ذلك أنّهم ببساطة لا يرغبون في مواصلة التفكير في الأمر.

تحدث فيليب موريسون، الذي حصل في النهاية على منصب البروفيسور الفخري في جامعة كورنيل، عن ذلك بعد سنوات عديدة: «لقد كانت أكثر الأوقات إيلاماً في حياتي ولا أحب العودة إليها».

في أيلول 1946، هاجم البروفيسور زوبرت برود من قسم الفيزياء في جامعة بيركلي تعامل الحكومة بسرية مع الموضوع، مشيراً إلى احتمال وقوع حوادث مماثلة:

أعتقد أنّه سيكون هناك الكثير من الحكمة في إنشاء جائزة تُمنح كلّ عام للمساهمة البارزة في تحقيق إجراءات السلامة في التعامل مع المواد المشعة الخطرة أو تقديراً للبرامج الناجحة الخالية من الحوادث. بعض الدعاية للأفكار البارزة أو البرامج البحثية الناجحة مع المواد الخطرة ستساعد بالتأكيد على التقليل من أنواع الحوادث التي مات سلوتين في واحد منها.

في الواقع، أدّت وفاة الدكتور سلوتين إلى ابتكار أحد تدابير السلامة: تمّ استبدال طريقته الفريدة لاستخدام الإبهام والمفك إلى الاستعانة بذراع روبوت يتمّ التحكم فيه عن بُعد.

على مدى عدة سنوات، تمّ فرض ستار رسمي من السرية والصمت المطبق على قضية سلوتين. كما تمكنت سرية مماثلة، مثل تلك التي ابتليت بها المؤسسة النووية الأمريكية، من إخفاء كارثة حدثت في الاتحاد السوفيتي ستالين. لم يكن أسوأ حادث نووي في التاريخ هو حادث تشيرنوبيل، بل حادث وقع في كانون الأول 1957، بالقرب من المراكز الصناعية الرئيسة في مدينتي تشيليابينسك وسفيردلوفسك (التي تعرف اليوم باسم إيكاترينبرغ).

في عام 1948، في ذروة ذعر ستالين للحاق بالغرب والذي لم يكن يمكن السيطرة عليه، تمّ بناء مفاعل شيليابينسك - 40 لإنتاج البلوتونيوم، (كان رمزه السري في سجلات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية: Post Box 40) بالقرب من مدينة كيشتيم في جبال الأورال. وفي العملية التي ذكرها الكاتب سولجنستين بشكل صريح في ملحمته أرخبيل الغولاغ، والتي لا يحسب فيها لحياة الناس ببساطة أيّ حساب، كان العمال المرهقون والذين كانوا يتعرضون لضغوط شديدة يلقون بحمولة الشاحنات من النفايات الذرية في أيّ مكان يمكنهم العثور عليه. تسربت المياه إلى ساحة التخزين ونشطت في نهاية المطاف المواد المشعة. في أواخر عام 1957، انطلقت تفاعلات تسلسلية متزامنة في مكان تفريغ

النفايات. تسبب ذلك في إطلاق كمية كبيرة من نظير عنصر السترونتيوم -90 المشع في الجوّ وتلوثت مساحة كبيرة، مما تسبب في وقوع عدة آلاف من حالات الإصابة بالإشعاع. تمّ إغلاق منطقة بأكملها في روسيا ولم يُسمح لأحد بمغادرة المنطقة المنكوبة. كان إجمالي عدد الضحايا غير معروف لكن من المؤكد في حينها أن هذه الأرقام كانت ضخمة. في حالة من الغضب الشديد، وصف رئيس هيئة الطاقة الذرية في المملكة المتحدة، السير جون هيل، التقارير الأولية التي تتحدث عن كارثة كيشيتيم بأنّها «هراء خالص». في تشرين الثاني من عام 1976، قام منشق سوفيتي، وهو عالم الكيمياء الحيوية زوريس ميدفيديف، بالكشف عن قصة حادثة كيشيت إلى مجلة نيو ساينتست، وتمّ الكشف عن الحقيقة المأساوية.

أصبحت الولايات المتحدة في عالم ما بعد الحرب، دولة قوية لا يجاريها أحد، وتحتكر بشكل شبه كامل القدرة على إبراز القوة على الصعيد العالمي. مع غلبة القوة التي تتمتع بها الولايات المتحدة حينها، قدمت الإدارة الأمريكية حجتها بشكل واضح مدعوماً بما تمتلك من قوة، وفقاً للقول المأثور: «القوة هي الصواب». بحلول عام 1946، لم تعد القضية النووية الأساسية ذات طبيعة علمية، بل باتت تتعلق بالقرار السياسي حول كيفية استخدام الولايات المتحدة للقوة المذهلة التي أصبحت تمتلكها. لقد أظهرت أمريكا أن قوتها الصناعية ومواردها الضخمة يمكن أن تمكنها من كسب الحروب. كان السؤال هو ما إذا كان النظام العالمي الجديد سيبنى على تهديد الردع النووي، أم أن القوى العظمى تمتلك الديناميكية الفكرية والسياسية لخلق تحول حقيقي في القيم. لأن حادثة هيروشيما قد أثبتت مرة واحدة وإلى الأبد أنّه لم تكن هناك حفرة عميقة بما يكفي لحماية الناجين من الانفجار من موجة الإشعاع التي تلت الانفجار وأنّه قد يكون من الأفضل أن تشوى أجساد الضحايا أو تهلك من جرّاء الانفجار، بدلاً من الموت البطيء بسبب المرض الإشعاعي.

لم تكن قصة دكتور سلوتين قصة موت وتدمير فحسب، بل قصة حكاية انتصار تقني وتنظيمي مذهل؛ قد يقول النقاد إن الذرة قد تمّ تسخيرها لقوى الدمار، إلّا أن أفكارهم وأبحاثهم وتطويرهم وطرقهم التكنولوجية الثورية قد وفرت قوة دفع جديدة للأجيال القادمة. لقد قدمت مصدراً جديداً للطاقة السلمية التي تمس الحاجة إليها لتشغيل الآلات وإضاءة المدن. كما حولت الحرب العالمية المستقبلية إلى مقامرة مستحيلة لا يمكن كسبها، وإلّا سيكون الثمن التضحية بالنفس. لقد أبقت القوى الكبرى في سلام بعضها مع بعض، وظلّت الحرب الباردة كما هو اسمها: باردة.

تمكنت العقول العظيمة التي ابتكرت الثورة الذرية من تغيير القرن العشرين بالطريقة التي غيّر بها أسلافهم مبتكرو الثورة الصناعية القرن التاسع عشر. ساهم العديد من الأفراد في هذه العملية. وراء كلّ اختراع هائل، للأفضل أو للأسوأ، كان يقف ذلك العقل البشري الاستثنائي الذي أطاح بالأفكار الموروثة عن المنطق والفضاء والطاقة. كان الدكتور لويس سلوتين شخصية رمزية في هذه المجموعة المختارة من الرجال. لقد كان شخصاً عاش الحياة إلى أقصى حدّ، وبذل قصارى جهده في أيّ مهمة خاضها، وكان بإمكانه الحصول على أفضل النتائج من الآخرين. كلّ شيء فعله كان قد خطط له إلى حدّ التفاصيل النهائية. وقيل بعد ذلك إنّه خاض مجازفة خطرة جدّاً. أمّا التكريم الذي حصل، هو أنّه بعد نصف قرن من وفاته، عندما تتحدث الأوساط العلمية عن الأبطال، فإنّ اسمه يرتفع وسط هؤلاء الأبطال.

ظلّت الحكومة الأمريكية تتكتم على هذه القضية لسنوات عديدة.[26] لم يكن أحد يعرف اسم سلوتين عدا زملائه وعائلته. ولم يكونوا مستعدين للحديث عن ذلك؛ تجنبوا كلّ إشارة إليه. ولغرض محدد هو وضع حدّ للرعب، اعتقد الفيزيائيون والتقنيون أنّهم اتخذوا القرارات الصحيحة

26- كانت هناك بعض التحقيقات الصحفية الجريئة عنه، مثل تلك التي نشرتها الصحفية باربرا مون في مجلة ماكلين الكندية عام 1961.

وتوصلوا إلى الإجابات الصحيحة، لكنهم لم يخلقوا سوى الفوضى. طوال سنوات عديدة بدا أن الوسط العلمي النووي قد فقد براءته أخيراً.

في شهر آب من عام 1986، قام مكتب التحقيقات الخاصة الأمريكي بإزالة السرية عن الملفات (جزئيّاً) الخاصة (بحادثة سلوتين)، تضمنت مذكرات شخصية مع مقتطفات من تهديدات هتلر المهووسة: «قد تأتي اللحظة التي نستخدم فيها السلاح الذي لا يمكن مهاجمتنا به بسرعة كبيرة!». وكتب بجانبها سلوتين ملاحظة: «من غير المحتمل!». وكان ذلك هو إيمانه لإنقاذ العالم من الخطر. بينما كان يرقد في العناية المركزة، قال له والده:

«لقد عملت بجهد كبير».

أجاب سلوتين والدموع في عينيه: «كان يجب علينا أن نحصل عليها قبل الألمان».

في النهاية، كانت تلك هي «حياته». قضاها في السعي للحصول على مزيد من المعرفة، ولهزيمة الشر، لقد خاطر بحياته.

أخيراً، فإنّ دافع الدكتور سلوتين كان مسألة الموثوقية الشخصية. كان رائداً، وانطلاقاً من إيمان ساذج، كان يعمل من خلال خيبات الأمل، ويحقق اختراقات، دخل في عالم سري من خلال جولة علمية معقدة، كان يعيش دائماً في خوف مما يمكن أن يحدثه تحول تقني خارج عن السيطرة في زمن القيامة النووية. أدرك أن كلّ شيء قد ينتهي بانطلاق مفاجئ لصفارات الإنذار. بمجرد أن ينخرط في العمل الذي كان من المعروف أن المخاطر البشرية موجودة فيه على جميع المستويات، ولكن لم يتمّ اختبارها وغير مؤكدة، كان عليه الاستعداد لهذا الاحتمال. عندما وجد نفسه وسط أزيز وميض أزرق، تصرف بشكل عفوي، لأنّه كان مستعدّاً، وفعل كلّ ما بوسعه لإنقاذ الآخرين من مصير مماثل. كان عالماً ذكيّاً ضحى بحياته من أجل أن يعيش الرجال الحكماء.

في 14 حزيران 1946، بعد ثلاثة أسابيع من وفاة الدكتور سلوتين، ألقى رئيس الفريق الاستشاري الذري التابع لرئيس الولايات المتحدة، برنارد باروخ، كلمة أمام وفود لجنة الطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة قال فيها: «نحن هنا لنختار بين الحياة والموت. يجب أن نختار إمّا السلام العالمي أو الدمار العالمي».

كوريا،
22-25 نيسان 1951

كتيبة فوج غلوسترز المجيدة، الجميع كانوا أبطالاً

تمّ تكريم أفراد الكتيبة الأولى من فوج غلوسترشاير في الجيش البريطاني ومقاتلي بطارية مدافع الهاون المستقلة رقم 170 التابعة للمدفعية الملكية الذين كانوا يرافقونها نظراً لأدائهم المتميز للواجب والبطولة الاستثنائية التي أبدوها في القتال ضد العدوّ المسلح بالقرب من قرية سولام ري في كوريا في أيام 23 و24 و25 نيسان 1951... ودون التفكير في الهزيمة أو الاستسلام، أظهرت هذه القوة البطولية شجاعة وانضباطاً رائعاً في ميدان المعركة...

• **من كلمات الرئيس الأمريكي**
هاري س. ترومان، 1951

إنهم أناس تشرّبوا مبادئ الواجب والشرف والوطن. أصبحت قوة إرادتهم المطلقة هي الدعامة الأساسية لصمودهم. وبقدر ما كانوا متماسكين، كانوا مقتنعين بأنّه لا يوجد بديل للنصر. ليست هذه قصة جندي واحد، بل قصة كتيبة كاملة من الأبطال، لأنّهم في البداية كانوا مجرد كتيبة واحدة.

في نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت القوى المنتصرة قد تقاسمت

غنائمها ما بين «كتلة شرقية» و«كتلة غربية». وكان الحدّ الفاصل الأكثر شهرة بينهما هو «الستار الحديدي»، الذي قسّم أوروبا من بحر البلطيق إلى البحر الأدرياتيكي. كان هناك جدار آخر، ربما أقل وضوحاً، ولكن كان يحمل في طياته عوامل الانفجار. والذي قسّم شبه جزيرة كوريا إلى «شمال» و«جنوب» على طول خط العرض 38. في آب 1945، استسلمت القوات اليابانية المتواجدة في جنوب جوسون[1] للقوات الأمريكية؛ فيما استسلمت القوات الموجودة في الشمال لقوات الاتحاد السوفياتي. وفي حين إن الولايات المتحدة، التي سئمت الحرب، احتفظت بعدد صغير من قوات الدعم المتمركزة في الجنوب، إلّا أن الزعيم الشيوعي الكوري كيم إيل سونغ، الذي توجه إلى العاصمة بيونغ يانغ على ظهر الدبابات الروسية، واغتصب السلطة في الشمال وأنشأ جيش الشعب الكوري، الذي قام الاتحاد السوفيتي بتسليحه وتدريبه بتشجيع من قوته العسكرية المتزايدة بدأ يضع نصب عينيه الاستيلاء على بقية البلاد. مع هذا، إلى جانب الوعد الذي قدمه له أشقاؤه الاشتراكيون بتقديم الدعم، انطلق في مغامرة غير محسوبة. لقد انهار السلام في «أرض الهدوء الصباحي»، (جوسون).

بدأت الحرب في كوريا قبل فجر يوم 25 حزيران 1950، عندما بدأت قذائف المدافع الكورية الشمالية تنهمر عبر خط ترسيم الحدود وشرعت أفواج جيش الشعب الكوري بقيادة الزعيم كيم إيل سونغ، وبدعم من دبابات تي 34، وبشكل فاجأ العالم بعبور خط العرض 38. وبحلول الليل سقطت مدينة كايسونغ؛ بعد ثلاثة أيام، استولى الكوريون الشماليون على مدينة سيئول، وقررت الأمم المتحدة القيام بردّ فعل. لكن ذلك استغرق وقتاً. في غضون ذلك، سرعان ما تمّ دفع الوحدات الكورية الجنوبية والأمريكية السيئة التنظيم إلى محيط مدينة بوسان الواقعة في أقصى الجنوب من شبه الجزيرة الكورية. وهذا هو المكان الذي ظلّت متمركزة فيه حتى 15 أيلول. في ذلك اليوم، وفي عملية نفذت ببراعة، قامت قوات

1- الاسم القديم لكوريا.

الأمم المتحدة بقيادة الجنرال دوغلاس ماك آرثر بإنزال جوي في مدينة إنتشون. وأدّى ذلك إلى تقسيم البلاد إلى نصفين، وجعل غالبية القوات الكورية الشمالية في وضع يائس، ومعزولة عن قواعد الإمداد.

مع هزيمة كيم إيل سونغ الوشيكة، قرّر الحكام الشيوعيون في بكين أن يمدوا له يد المساعدة، ليس لإنقاذ نظام الديكتاتور الكوري الشمالي المتداعي، ولكن لتجنب وجود نظام يسيطر عليه الأمريكيون كجار مباشر لهم. وكان عزل كوريا الشمالية الشيوعية يخدم الصين بشكل جيد. حاز قرار ماو تسي تونغ دخول الحرب الكورية على الثناء في بلده الصين باعتباره (قراراً رائعاً)، باعتباره سيعيد مآثر رائعة حقّاً من الماضي. وبعد أن خرجت الصين للتوّ من الحرب الأهلية المدمرة ضد القوميين، كان الأمر يتطلب إجراءً يؤدي إلى تعزيز عبادة ماو الشخصية. ربما الأهم من ذلك كله، أنّه سيتيح له الفرصة لاختبار الاستراتيجية الأمنية لبلاده، ومعرفة بالضبط كم يمكنه الاعتماد على دعم الشقيقة روسيا.

على الرغم من أن ماو تسي تونغ تلقى تأكيداً شخصيّاً من ستالين بأنّه سيزود «المتطوعين الصينيين» بالمعدات العسكرية والذخيرة بأكثر مما يحتاجون إليه، إذا دخلوا في الصراع، فإنّ روسيا لم تفكر في إرسال طياريها للقتال في كوريا. بالنسبة إلى ماو، كانت هذه إشارة واضحة إلى أنّه لا يستطيع الاعتماد على روسيا في حالة وجود صراع أوسع نطاقاً؛ خلق هذا الأمر أول ثغرة في جدار الأخوة الاشتراكية، والتي كان من المقرّر تأكيدها في السنوات اللاحقة. ومع ذلك، أضاف ستالين بنداً لتعهده: «ستضمن القوات الجوية السوفيتية تشكيل مظلة جوية فوق الأراضي الوطنية للصين، خاصةً فوق المراكز الصناعية المهمة في المناطق الساحلية»[2]. كان من المحتمل أن تؤدي عبارة ستالين تلك إلى نشوب صراع عالمي شامل.

2- بحلول عام 1949، أصبح الاتحاد السوفيتي يمتلك القنبلة الذرية. تمّ «تسريب» هذا البند بالتحديد إلى مصدر أمريكي، مما أدّى إلى أن يتخذ ترومان قراراً بتسريح الجنرال ماك آرثر.

بدأت المواجهة الصينية الأمريكية ببرقية بعثها رئيس الحزب الشيوعي الصيني ماو تسي تونغ إلى اثنين من قادة جيشه، الجنرالان في جيش متطوعي الشعب الصيني، بينغ ده هوا ودينغ هوا، وتمّ إرسالها في الساعة 21:00 من يوم 18 تشرين الأول 1950:

لقد تقرر أن تقوم الجيوش الأربعة وثلاث فرق مدفعية بتنفيذ خطتنا للدخول إلى كوريا الشمالية للقيام بعمليات حربية. ستبدأ القوات بعبور نهر يالو من قاطع أنغدونغ جيان يوم غد (19 تشرين الأول). من أجل الحفاظ على سرية الإجراءات بشكل صارم، يجب أن تبدأ القوات في اجتياز النهر بعد الغسق...[3]

أمر ماو وسائل الإعلام أن تتبنى سياسة «العمل فقط وليس الكلام». تمّ نقل حمولة عربات قطارات الشحن التي تحوي بدلات تشبه زيّ الجيش الشعبي الكوري إلى مناطق تجمع جنود جيش متطوعي الشعب الصيني ليرتدوها من أجل مفاجأة الأمريكيين وأخذهم على حين غرّة. نجحت الخدعة وتمّت مهاجمة الجنود الأمريكان وهم نيام.

بعد وقت قصير من منتصف ليلة 19 تشرين الأول 1950، شنّ أفراد جيش متطوعي الشعب الصيني وقد تمّ إطلاق هذا الاسم عليهم لإخفاء حقيقة أنّهم يمثلون الجيش الصيني النظامي هجوماً كبيراً عبر الحدود التي تفصل كوريا الشمالية عن جمهورية الصين الشعبية، وتمكن ني رونغتشن الجنرال في هذا الجيش من إبلاغ الرئيس ماو بأن كلّ شيء يسير وفقاً للخطة. وتمكن حوالي 180 ألف مقاتل صيني من مباغتة الجيش الأمريكي الثامن الذي كان يسيطر على مناطق شاسعة بقيادة اللفتنانت جنرال والتون هـ. ووكر، وتمّ إرغامه على الانسحاب من موضعه عند نهر يالو. بعد بضعة أيام، توفي الجنرال ووكر في حادث سيارة وتولى قائد مظلي صارم، هو اللفتنانت جنرال في الجيش الأمريكي ماثيو ب. ريدغواي، قيادة الجيش الثامن للولايات المتحدة (27 كانون الأول

3- راجع: Chen Jian, China's Road to the Korean War, New York, 1994

1950). لم يكن بإمكانه فعل الكثير لوقف «موجات التدفق الصيني»، وللمرة الثانية، تمّ التخلي عن سيئول عاصمة كوريا الجنوبية. ومن خلال القيام بعمليات قتال دفاعية، حاول ريدغواي إبطاء الموجات البشرية من الصينيين الذين كانوا يتدفقون من الشمال. تحولت المرحلة التالية من القتال إلى سباق بين القوة النارية الأمريكية مقابل القوى البشرية الصينية.

وصف ريدغواي هذه الاستراتيجية بـ«مفرمة اللحم». وإذا لم تنفع معهم المدفعية والطائرات، فإنّ «القنبلة النووية» حاضرة دائماً.

إن الفكرة الشريرة باستخدام هذا الرادع المثالي، هي التي أدّت إلى هزيمة الجنرال ماك آرثر. عندما بدأ الصينيون في توظيف تكتيكات «الملاذ المتميز»، باستخدام مقاتلات الميغ الروسية الصنع، ولكن مع انطلاق طواقم الطائرات الصينية من المدارج الصينية الممتدة على طول الحدود، وقصف قوات الأمم المتحدة في كوريا قبل أن تتراجع إلى ملاذها الصيني «المحايد»، أطلق القائد الأعلى للقوات الأمريكية في كوريا، الجنرال دوغلاس ماك آرثر، الدعوة إلى «قصف الصينيين وإعادتهم إلى العصر الحجري!» وكان هذا الطلب غير مقبول من الناحية السياسية[4].

صرح الرئيس الأمريكي ترومان: «نحن نحاول منع حرب عالمية وليس بدء حرب جديدة!». ثم قرر تسريح جنراله الشهير (11 نيسان 1951). لم يكن ماك آرثر يعرف أبداً مبدأ الدوائر السياسية العليا: يحق للسياسيين التدخل في الشؤون العسكرية، بينما يجب على الجنود أن يظلّوا بعيداً عن الشؤون السياسية.

بمجرد رحيل ماك آرثر، تولى ماثيو ريدغواي قيادة القوات الأمريكية في كوريا. كان من المتحمسين بشدة إلى التكتيكات الهجومية وكان

4- كان ترومان على علم بالبند السري في اتفاق ستالين - ماو. تحليق سلاح الجوّ الأمريكي في الصين سيدخله في مواجهة مباشرة مع القوات الجوية السوفيتية.

مبدؤه: «إن حرب الخنادق أمر سيئ بالنسبة لمعنويات المقاتلين» ولذلك فقد أمر قواته بالتقدم شمالاً. في كانون الأول، تدفق الصينيون عبر نهر يالو بكميات كافية من الأسلحة والرجال لغزو الأرض، لكنهم لم يتمكنوا من الاستفادة من تفوقهم العددي في وجه المقاومة العنيدة وقوة النيران المتفوقة. سرعان ما تحول ملاذهم عند أشقائهم الكوريين إلى جحيم حقيقي وأصبح مقبرة لهم حيث كانت تنهمر عليهم مثل المطر قذائف المدفعية الأمريكية عيار 155 ملم وقنابل النابالم والقذائف التي كانت توقعها عليهم طائرات سابر الأمريكية.

في 14 آذار 1951، تمكنت قوات الأمم المتحدة من تحرير مدينة سيئول، وفي 3 نيسان، عبرت القوات الأمريكية من جديد خط العرض الثامن والثلاثين المتنازع عليه مع كوريا الشمالية. كان هدف ريدغواي هو منع الصينيين من شنّ هجوم كبير آخر وسحق جيوشهم وتحويلها إلى ذرات من الغبار بمساعدة قوته النارية المتفوقة. في الواقع، تقدمت «مفرمة اللحم التي يقودها ريدغواي» إلى الأمام، وعلى امتداد خط المواجهة، تعرض الصينيون لضربات قاسية. لكن لم يتمّ القضاء عليهم نهائيّاً. صدرت شائعات عن استعدادات لشنّ هجوم مضاد صيني ضخم. كان الموعد الذي يتردد بكثرة هو 15 نيسان 1951. تمكّن الصينيون، تحت جنح الليل، من إحضار 700 ألف جندي تحت قيادة جنرال الجيش الصيني بينغ دهواي، الذي اكتسب خبرته القتالية كقائد فرقة تحت قيادة تشانغ كاي شيك وهو قائد الشيوعيين الصينيين نفسه الذي كان يقود المعركة حينها. كانت خطته الهجومية على مرحلتين: الاختراق ومن ثم تعزيز القوات، وكان نصيب كلّ مرحلة 350 ألف رجل. كان الجنرال بينغ قائداً استراتيجيّاً جيداً. ومع ذلك، كان لا يهتمّ إلّا قليلاً لحياة رجاله، وكان يتمسك بالاعتقاد القديم بأن الفوز في المعارك يتطلب تقديم تضحيات إنسانية سخية. ولأجل تحسين صورته التي فقدت بريقها بعد خسارته سيئول في آذار، أصبحت هذه المدينة هدفه الرئيس مرة أخرى.

قام الجنرال بينغ بتكليف القوة الصادمة للفيلق الثالث والستين التابع لجيش متطوعي الشعب الصيني بمهمة الاختراق الأولي، وكان هذا الفيلق يمثل صفوة القوات الصينية ويتكون من الفرق العسكرية رقم 187 و188 و189. أمسك الفيلق الأول للجيش الأمريكي بقيادة الميجور جنرال فرانك ميلبورن القطاع الذي يحيط بسيئول، مع العديد من الوحدات البريطانية، التي تنتمي إلى مجموعة اللواء البريطاني التاسع والعشرين الذي يقوده البريغادير توم برودي، المرافقة لفيلق ميلبورن. كانت المجموعة البريطانية مؤلفة من ثلاث كتائب من المشاة وواحدة من الفرسان: الكتيبة الملكية الأولى فيوزيليرز نورثمبرلاند، والكتيبة الملكية الأولى أولستر ريفلز، والكتيبة الأولى من فوج غلوسترشير، وفوج الدبابات الملكية الثامن التابع لفرقة فرسان الملك الأيرلندي الملكية (الذي اشتهر بشنّه هجوم اللواء الخفيف أثناء حرب القرم 1854 م). وكانت قوات الدعم مؤلفة من فوج الميدان 45 من المدفعية الملكية، وبطارية مدافع الهاون المستقلة رقم 170 وسرب الميدان 55، من سلاح المهندسين الملكي. علاوة على ذلك، كان يضمّ قسماً خاصّاً أطلق الجنود عليه اسم قسم توضيح الصور الجوية، وما هو الأكثر أهمية بالنسبة لزوجات الجنود هو وجود مفرزة من فيلق الدفع للجيش الملكي (وهو فيلق الجيش البريطاني المسؤول عن إدارة جميع المسائل المالية – م).

بدا اللواء البريطاني مثيراً للإعجاب – ولكن نظريّاً. ما كان يفتقر إليه توم برودي كثيراً هو الرجال والمزيد من الرجال. فقد أرسل إليه أفراد عدة وحدات تمّ دمجها في وقت السلم أثناء فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهي الوحدات التي تمّ تسريح معظم منتسبيها وتقليصها إلى حدّ كبير من أجل إنقاذ أموال دافعي الضرائب البريطانيين، وحينها، تمّ تشكيل مجموعة لواء 29 على عجل، وسارع للمشاركة في حرب جديدة. الجانب الإيجابي في جنوده هو أنّهم جلبوا معهم تجربة القتال مع الألمان في الحرب العالمية الثانية. كانوا يعتقدون أن الآسيويين – وقبل أن يلتقوا

معهم للمرة الأولى - ليسوا مثل الألمان. سرعان ما أصبحت لديهم وجهة نظر مختلفة، عندما تمّت دعوة جميع أفراد وحدات الدعم، من جندي الاتصال اللاسلكي إلى مسؤول صرف الرواتب، مروراً بالميكانيكي، والطباخ، والمصور، وحتى القسيس أو الكاهن أو الحاخام، لالتقاط بندقية والقتال من أجل الحفاظ على حياتهم.

أجبرت القوة النارية الأمريكية الهائلة التي كانت تغطي الطرق الرئيسة المؤدية إلى سيئول، الجنرال بينغ أن يختار طريقين ترابيين ثانويين عبر المنطقة الجبلية إلى الغرب. كان قد تلقى معلومات استخبارية حول وجود مجموعة اللواء البريطاني في قطاع إيمجين، لكنه كان يعلم أنّهم لم يكونوا متمركزين بأعداد كبيرة على الأرض بما يكفي لمواجهة التحدي الذي يمكن توقعه من القوة القتالية الأمريكية بقيادة الميجور جنرال ميلبورن، والمدعومة من المدفعية الثقيلة والطائرات النفاثة. استندت خطة بينغ الهجومية إلى افتراض أن البريطانيين، الذين سيواجهون تفوقاً عدديّاً كبيراً في الرجال، سيتملكهم الخوف ويلوذون بالفرار.

من أجل إحداث انطلاقة سريعة للوصول إلى القوة الضاربة المطلوبة، كان على الوحدات الصينية أن تغادر في وقت متأخر من بعد الظهر وتضرب خط القتال البريطاني عبر إيمجين بعد وقت قصير من غسق يوم 22 نيسان 1951. سيخترق أفرادها الخط البريطاني، ويسيطرون على مقرّ القيادة في الخطوط الخلفية، ومن هناك يندفعون إلى الأمام ليخترقوا الجناح الضعيف للجيش الأمريكي المتمركز حول سيول. وكان من المقرّر أن يصلوا إلى عاصمة كوريا الجنوبية في غضون ست وثلاثين ساعة، أو بحلول ظهر يوم 24 نيسان. لن تسمح خطة بينغ للأمريكيين بتغيير دفاعاتهم؛ من خلال تقدمه السريع، سيسحق الفيلق الأمريكي بأكمله لوقوعه بين فكي كماشة. كانت السرعة هي المفتاح، ولم يكن لدى الجنرال الصيني أيّ سبب للاعتقاد بأن خطته لن تنجح، ولن تواجه أكثر من مجرد ستار ناريّ ضعيف من كتائب قوات الكومنولث البريطانية.

بدأ بينغ يتلذذ حلاوة فكرة تحقيق النصر. بعد أن فشل جيش الشعب الصيني في خطوة مماثلة على نهر يالو في كانون الأول 1950، سوف يحقق النصر هذه المرة. مع القضاء على الفيلق الأمريكي الأول ستنهار جبهة الجيش الثامن بأكملها. في يوم الأحد 22 نيسان 1951، مع الانتهاء من الاستعدادات وتواجد ثلاث فرق على مسافة قريبة من نهر إيمجين، أصدر الجنرال بينغ دهواي أوامره بشنّ الهجوم الكبير. كانت الحرب في كوريا على وشك الدخول في مرحلة جديدة.

أشار بينغ على خريطة ملصقة على الحائط إلى قرية تشوكسونج وطريقها الجبلي الضيق المؤدي إلى الجنوب قائلاً: «من هنا سنبدأ الهجوم الأولي». وهذا هو بالضبط المكان الذي قامت فيه مجموعة اللواء البريطاني التاسع والعشرين بقيادة توم برودي بحفر وإقامة موضع صد، فوق التلال الموجودة في الضفة الجنوبية لنهر إيمجين البالغ طوله 300 متراً (270 متراً). وقد وجدت دوريات الاستطلاع التي قام بها أفراد فوج غلوستر أن النهر كان قليل العمق في عدد من الأماكن ويمكن عبوره مشياً على الأقدام. تمّ نقل هذه الأخبار إلى مقرّ قيادة الجنرال ريدغواي الرئيس وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من تصميم نقطة انطلاق هجوم الربيع للقوات الأمريكية المخطط له. ولكن ماذا لو وصل الصينيون إلى هناك أولاً...

سقطت سلسلة من أكوام الصخور المغطاة بالأشجار بشكل حادّ باتجاه وادي نهر إيمجين.[5] وكان يمتد على ضفته الجنوبية، بموازاة النهر، طريق ترابي يؤدي إلى قرية تشوكسونج. في نيسان 1951، كانت السيطرة على الجزء الأكبر من هذا الطريق الغربي - الشرقي والتلال من خلفه بيد الكتيبة الملكية الأولى نورثمبرلاند فيوزيليرز، بدعم من قوات من بطارية مدافع الهاون 170. إلى الأمام شرقاً كان هناك طريق آخر. وهو يقود من الشمال إلى الجنوب، عبر معبر نهر عمقه لا يتجاوز ركبة الإنسان، أطلقت عليه تسمية «معبر غلوستر» عندما خاضت في مياهه

5- زار المؤلف وادي إيمجين (أو غلوستر هيل) في عام 1961.

دورية من فوج غلوستر «تبحث عن جنود صينيين». من قرية تشوكسونج، ثم يتلوى الطريق عبر ممر ضيق بين التلال، تعلوه قمة جبل كاماك سان الذي يبلغ ارتفاعه 650 متراً (675 متراً)، ثم يؤدي إلى قرية سولام ري ومن هناك إلى مدينة مونسان لم يكن يشبه كثيراً الطرق العادية، بل كان مجرد درب تسير عليه العربات الموحلة التي تعلق كثيراً، فكان لا يمكنه تحمل مرور المعدات الثقيلة. كان غير مناسب أساساً كمحور رئيس لشنّ الهجوم، لم يكن يُعدّ مطلقاً الهدف الرئيس للعدوّ. ولكن نظراً لأنّه كان طريقاً يمكن أن يصبح خطراً محتملاً لهجوم جانبي على الفيلق الأمريكي الأول من جانب وحدات صينية مسلحة تسليحاً خفيفاً لغرض المشاغلة، فإنّ الأوامر صدرت إلى السرايا الأربع التابعة للكتيبة الأولى، من فوج غلوسترشاير (المعروفة باسمها المختصر: غلوستر) بإقامة حواجز صد، تمتد على الطريق بين قريتي تشوكسونج وسولام ري.

أثناء مسيرها للتوجه إلى موقعهم المخصص في إيمجين، تقدم أفراد الكتيبة الأولى من فوج غلوستر عبر مناطق ريفية، اجتازت كتيبتهم عدة كيلومترات تحت أشعة الشمس القاسية والمطر المنهمر، وعبر التلال والأرض المسطحة، وكان معظمهم يسيرون في طابور واحد، خشية أن يحدث شيء غير متوقع. وبينما كان لديهم شعور بأن ألف عين معادية تراقبهم عن كثب، لم يجدوا سوى قرى صغيرة شهدت قتالاً محدوداً وكانت خالية من السكان، ولكن كان هناك العديد من الخنازير الميتة المتعفنة، وقد تخشبت أرجلها وتيبست. كان أحد الجنود يمشي على الأرض عبر حقل للأرز، حينما داس على لغم أرضي. فانفجرت ساقه وتشوّه وجهه.

لقد وجد الجنود وادي نهر إيمجين وقد دمرته الحرب، حيث انتشرت حفر القنابل وآثار سوداء خلفتها قنابل النابالم، كدليل على المعارك العنيفة التي اندلعت هنا خلال الخريف السابق. كانت تلاله مغطاة ببعض النباتات والأشجار المتشابكة. أقاموا موضعاً لهم على تلة تبعد كيلومترين

(1.25 ميل) خلف النهر وعلى بعد 270 متراً (300 يارد) مباشرة أسفل قاع الوادي؛ عند السفح، حمل مقاتلو فوج غلوستر أدواتهم للحفر وذهبوا للعمل. لقد حفروا خنادق عميقة، متوقعين أنّهم قد يبقون هناك لفترة من الزمن. لم يكن الوقت مناسباً للتهاون. أصبحت الارتفاعات المنتشرة على طول خط النهر محصنة وصلبة بدرجة تكفي لمنع أيّ توغل بسيط، لكنها لم تكن مهيأة أبداً لتحمل أيّ هجوم كبير. في موقع ممتد إلى الأمام بالقرب من معبر النهر، يقع على التل رقم 148[6] المعروف باسم «تل الحصن» نسبة إلى حصن مراقبة خرساني تمّ بناؤه قبل أشهر من قبل الأمريكيين، كان يتواجد مقاتلو فوج غلوستر من السرية أي. بقيادة الرائد ب. أ. أنجر، على بعد بضع مئات من الأمتار إلى الشرق منهم، على التلة رقم 182، كانت تتموضع السرية دي. بقيادة النقيب هارفي. وانتشرت على التلة رقم 144 السرية (بي.) بقيادة الرائد أي. دي. هاردينغ، لتغطية الفجوة ما بين تلالها وتلك التي تتموضع فيها سرية مقاتلي فوج رويال نورثمبرلاند تمّ نصب مدفع رشاش من نوع فيكرز. تمركزت السرية سي. بقيادة الرائد ب. ميتشل في موضع محصن في أقصى جنوب منطقة الممر الضيق. وانتشر جنود مدافع الهاون بقيادة النقيب غراهام من طراز لوتين هامفري الثقيلة والمدافع الرشاشة بقيادة النقيب ثيو ليتلوود فوق التلال.

كان التل رقم 235، يبعد قليلاً إلى الأمام من قرية سولام ري الصغيرة، كومة الصخور التي سيتمّ تكريمها باسم «تل أبطال كتيبة غلوستر»؛ اتخذ بضع عشرات من رجال الفصيلة الهجومية الرائدة في الكتيبة تحت قيادة النقيب «سبايك» بايك موضعاً دفاعيّاً لهم على منحدره الشمالي؛ وقد تمّ استدعاء معظمهم للانخراط في الخدمة الفعالة، وكانوا ممن تعودوا على استخدام المجرفة، قاموا بتشييد مواضعهم الدفاعية بعناية وإتقان شديدين، وكانت خنادقهم تتدلى مثل ستارة من الدانتيل عبر التل. كان سبايك بايك

6- في الخرائط العسكرية، يتمّ ترقيم التلال دائماً بطول ارتفاعها بالأمتار. وبعبارة أخرى، فإنّ التل رقم 148 يعني أن ارتفاعه يساوي 148 متراً.

شخصية محبوبة. وكانت علاقته برجاله مثل علاقة الأب بأبنائه. كان القائد العام قد أبلغ لتوّه رئيس عشيرة لوفات والمقاتل المخضرم من فرقة الكوماندوز في الحرب العالمية الثانية أن أمر نقله قد وصل.

حينما كان سبايك بايك يقوم بجولة في الخندق مع الضابط الذي سيحل محله، وهو الملازم ألان بلونديل، قال مازحاً: «ليكن الله في عونك على هذه المسؤولية الكبيرة»، دون أن يدرك كم سيحتاج هو ورجاله إلى عون من الله. تمّ وضع مقرّ قيادة الكتيبة، ومركز الاتصالات، بالإضافة إلى وحدات الدعم بمدافع الهاون من قوات بطارية مدافع الهاون المستقلة رقم 170 بقيادة النقيب ف. ويسبي التي تموضعت في قاع التل رقم 235. من أجل الدعم المدفعي، اعتمدت الكتيبة على بطاريات اللواء 29 الثلاث التي تضم مدافع هاوتزر زنة 25 رطلاً، وهي مدافع يدوية أثبتت فعاليتها في التضاريس الجبلية أثناء الحرب العالمية الثانية... وصل تعداد الكتيبة الأولى من فوج غلوستر بما في ذلك طاقم الدعم والطهاة والفرسان ورجال الإتصال اللاسلكي، إلى ما مجموعه 773 فرداً تحت قيادة الليفتنانت كولونيل جيمس باور كارني، والمعروف بين موظفيه باسم «فريد»، وكان يحظى باحترام كبير من رجاله. أثناء الحرب العالمية الثانية، عمل فريد كارني كقائد كتيبة في بورما، حيث جمع خبرة من قتاله في التضاريس الحرجية. كان هذا الرجل البالغ من العمر 45 عاماً والذي يتكلم بلطف، ذا شارب رمادي أشقر وجسم نحيل، وبرغم أن وجهه اللطيف يناقض قساوته، قد أثبت أنّه قائد ملهم، يهتمّ حقّاً برفاهية رجاله. وفي هذا كان شديد التناقض للغاية مع خصمه، الجنرال بينغ دهواي، الذي كانت أرواح الجنود لا تعني لديه سوى مجرد إحصائيات، فهو لم يكن يعول على شجاعة جنوده، بل على حجم أعدادهم المتوفرة لديه.

في يوم السبت الموافق 21 نيسان، أرسل المقدم كارني مجموعة من جنود الاستطلاع. ولكي يتجنبوا المرور عبر الحقول انتقلوا إلى قرية تشوكسونج المهجورة. ولم يجدوا أية علامة على وجود عدوّ لهم، وكان

معبر مقاتلي كتيبة غلوستر على نهر إيمجين مهجوراً. وتمكن الرقيب جاك إيمز، قائد الدورية، من إبلاغ القيادة أن«ليس هناك نشاط للعدوّ». صدر الأمر إلى الرقيب، الذي كانت تزين صدره ميدالية عسكرية من أيام الحرب العالمية الثانية، بإنشاء مركز مراقبة في كوخ معزول شمال القرية الصغيرة، بالقرب من معبر غلوستر، والبقاء هناك طوال الليل. كان أحد جنوده قد التحق مؤخراً بالوحدة؛ وفي الواقع كان روجر وهذا اسمه بمثابة طفل وسط أولئك المحاربين القدامى. لكن روجر أراد أن يكون في مكان فيه قتال، فتصور أن الالتحاق بكتيبة غلوستر هي جواز العبور لذلك. تطوع للقتال في كوريا ولم يلتحق بهذه الوحدة إلّا قبل يومين فقط. قام الجنود الأكبر سنّاً برعايته وكانوا يتشاركون معه واجب الحراسة. لقد حدث ذلك قبل الفجر بقليل. كان روجر قد أنتهى للتو من واجب الحراسة وكان يريد أن يأخذ غفوة داخل الكوخ، عندما تساقط عدد من قذائف المدفعية داخل الكوخ وحوله. لقي الصبي مصرعه قبل أن يتمكن من ارتداء جزمته. عندما حاولت دورية صينية التسلّل عبر النهر، قتل رجال كتيبة غلوستر أربعة من أفرادها في مناوشة قصيرة وجرف التيار جثثهم. وأمضى الجميع ما بقي من الليل، في هدوء.

بدا صباح يوم الأحد، 22 نيسان مشرقاً ومشمساً. كان على البريغادير توم برودي مواجهة بضعة صحفيين استيقظوا في وقت مبكر، متلهفين للحصول على بضع معلومات لتقديمها إلى القراء «في بلدانهم». لقد سمعوا بعض الانفجارات أثناء الليل: «سيادة البريغادير، كانت هناك نيران مدفعية متقطعة». وكانوا يشيرون إلى الحادث الذي جرى لدورية الاستطلاع التي كان يقودها الرقيب إيمز. «هل هذه علامة على هجوم صيني قادم؟».

«حسناً أيها السادة، يبدو أنّه كان إطلاق نار عشوائيّاً. ليس لدينا أيّ مؤشر إضافي... نعم، لقد كان في قطاع كتيبة غلوستر. والآن أستميحكم المعذرة...». لم يكن برودي مقتنعاً أنّها كانت «نيران عشوائية» وكذلك

كان حال الصحفيين. كانت التعليمات من مقرّ قيادة العمليات المشتركة حول كيفية التعامل مع المراسلين الحربيين تشير للسماح لهم بالحصول على المعلومة بشكل «مباشر وبسيط»، وأن لا يعرضوا موقف القوات للخطر، ومن دون إثارة الذعر. لم يشعر برودي بالذعر، لكنه كان يشعر بالقلق.

طلب من رئيسه في مقرّ قيادة الفيلق الحصول على تعزيزات، فأجابه صوت أمريكي متعاطف: «يا سيادة البريغادير، مع أن هذا لا يعني أنّنا لا نريد أن نسمح لك بالحصول على المزيد من رجالنا، لكن ليس لدينا ما نقدمه لك... نحن نعلم أنك ستصمد بما لديك من معدات. لكننا سنرسل لك بعض المدافع من عيار 155 ملم. كان بإمكان برودي أن يستخدم ما لديه من مدفعية بكثافة، كما أن حصوله على عدد من مدافع الهاوتزر الأمريكية من عيار 155 ملم قريباً سيكون أمراً رائعاً».

كان التفسير الذي قدمه قادة السرية صباح يوم الأحد إلى وحداتهم على طول خط القتال أن ما سمعوه كان «إطلاق نار عشوائي». شرع الكولونيل فريد، الذي لم يكن يراه أحد من دون غليونه الخشبي، الذي كان يستخدمه بالإضافة إلى التدخين كمؤشر للخريطة، في مناقشة عملية القصف مع طاقمه المؤلف من مساعد النقيب أنتوني فارار-هوكلي وضابط المخابرات، الملازم هنري كابرال. كان الجنود يمضون وقتهم، وهم ينظفون الأسلحة أو يكتبون رسائل إلى الوطن ليخبروا أحباءهم أنّه لا يوجد الكثير من الأخبار الجيدة التي تحدث وأن «نهر إيمجين يتدفق بهدوء». بعد كلّ شيء، لم يكن هناك أيّ شخص رأى ما رآه الصينيون، كانوا موتى، نعم، ولم يكن هناك بينهم أحياء. كانوا يعلمون أنّه في مكان ما إلى الشمال، يقبع التنين الصيني العظيم، ولكن إلى أن حل عيد القديس جورج (من الأعياد المسيحية ويتمّ الاحتفال به يوم 23 نيسان – م)، كان كلّ شيء هادئاً تماماً.

وصلت سيارة جيب تقل نيافة سام ديفيس قسيس كتيبة غلوستر وكان

شاباً، طويل القامة وسيماً – لم يكن سوى «شخص عادي». والأكثر من ذلك، كان رجل الدين هذا يجلب معه أيضاً السجائر ونوعاً من المشروبات الكحولية. كان يطلق عليه الماء المقدس، ولم يحاول أحد أبداً الاستفسار عن مصدر كنزه هذا؛ لم يكن الأمر مهمّاً بالنسبة لهم ما دام قد جلبه رجل دين مسيحي. بالنسبة لمقاتلي السرايا الذين كانوا يجلسون على التل، وليس لهم من عمل سوى صيد البراغيث، كان ظهور القس موضع ترحيب دائماً. لا يمكن القول إن الرجال كانوا متدينين بشكل مفرط؛ فقد كانوا في حياتهم الخاصة يذهبون إلى الكنيسة متى كان ذلك يناسبهم أو كلّما تزوج أحد أقاربهم. كانت المفردات التي يستخدمونها في حديثهم هي لغة الجنود، وليست تلك التي يستخدمونها في الكنيسة. ولكن الأمر هذه المرة كان مختلفاً، فالصينيون كانوا في مكان ما هناك، وقد تفوتهم الفرصة لأن هذه قد تكون آخر مرة يتمكن فيها رجال من غلوسترشاير أو بيركشاير أو ويلتشاير من مناجاة ربهم عن طريق هذا الرجل الصالح ومائه المقدس. وهكذا كتب عليهم الاحتفال بعيد القديس جورج (عيد ديني يصادف عادة 23 نيسان من كلّ عام – م) في عام 1951، في تلال كوريا، كان يوماً مشمساً وصافياً. ارتدى الأب وهو محاط بمجموعة من الجنود حاسري الرأس، ثوبه الأبيض، ووضع طاولته المطوية أمام المعبد المحطم، وبدأ يقرأ في الكتاب المقدس. كانت خطبته بسيطة: كلّ الناس الذين سكنوا الأرض قاتلوا بشرف. لقد كانت لغة فهمها رجال السرية «أ»، وأجابوا بهتاف مدوٍّ: «إيه... أيتها القلوب الشجاعة». رفع الأب كأس الشراب المقدس ليحتفل بالقربان المقدس ويتضمن تناول قطعة صغيرة ورقيقة من الخبز ((تعرف بالبرشان) التي تمثل جسد يسوع وأحياناً تذوق أو غمس قطعة الخبز في القليل من الخمر الذي يمثل دم يسوع – م.) مع المقاتلين الراكعين. كان أحدهم فيليب كورت وهو ملازم احتياط يبلغ من العمر 24 عاماً.

أمضى الجنود بقية اليوم، لا يفعلون شيئاً، كانوا يمزحون ويدخنون

ويصنعون الشاي، ما عدا أولئك الذين كانوا في واجب الحراسة. وحتى هؤلاء كانت لديهم حصتهم من الشاي. كان النشاط الرئيس يتركز في منطقتين. في قمة تل بايك الذي يحمل الرقم 235 على الخرائط العسكرية، تمشى النقيب بايك ببطء نحو الملازم الثاني الشاب ألان بلونديل. ابتداء من اليوم التالي، سيتولى الملازم الثاني بلونديل قيادة «مفرزة من جنود الأشغال العسكرية»، لأن «سبايك بايك» سيعود إلى الوطن. ألقى الجندي جاك بيدل، أو «العم جاك»، نظرة على الملازم الشاب الثاني، وأشار بلهجة جافة قائلاً: «سنعمل على تدريبه خلال يومين». كان الحفل الآخر يجري في «قاعة الفندق الكبير» للرقيب الرائد جاك هوبز، والذي هو عبارة عن خيمة تحوي سريراً ذا أربعة أعمدة ومشرب يوزع البيرة على مدار أربع وعشرين ساعة في اليوم، على الأقل هذا ما كان يشاع عنه. كان الرقيب الرائد يقيم حفلاً لزميله الذي سيغادر إلى أرض الوطن، الرقيب الإداري لشؤون التموين تافي إيفانز الذي خدم على أتمّ وجه «الملك والوطن» وكان من المقرّر نقله إلى الوطن. ألم يكن هذا سبباً كافياً لإقامة احتفال كبير يجتمع فيه كلّ الرقباء ذوي النفوذ؟ ومن هم في مناصبهم منذ وقت طويل مثل رقيب الاتصالات جيم سميث والرقيب بروفوست (ضابط صف غير مفوض بالشرطة العسكرية – م) بيل بيغلار الذي سهر على «حفظ القانون وفرض النظام»، والرقيب الرائد للسرية ذي العضلات القوية، والحارس الشخصي للقائد، والرائد العازف فيليب بوس المسؤول عن بوق السرية الرئيس. كان أحد الذين لم يشعروا بأجواء الاحتفال هو قائد الكتيبة الذي يدخن الغليون. فقد ظلّ لمدة أسبوع تقريباً، يتلقى معلومات تبعث على القلق حول تجمعات لقوات العدوّ إلى الشمال من موضعه. لم يكن هناك أيّ مؤشر حتى الآن على حجم هذه القوات أو كم هي بعيدة. ليس سوى معلومة مقتضبة: تمّ الإبلاغ عن «نشاط للعدوّ». وكان كلّما يتعمق في دراسة خريطته العسكرية، يزداد قلقه من الثغرات الهائلة في صفوف قواته. اتصل بلواء في مقرّ القيادة العامة والذي حوله

إلى البريغادير توم برودي. حيث قال له كارني: «سيدي، هناك ثغرات واسعة في قواتنا تكفي لأن تتسلّل منها فرقة صينية بكاملها».

لقد تحدثت بالأمر مع قيادة الفيلق، لا توجد لديهم قوة بشرية يمكنهم الاستغناء عنها. يجب علينا أن نعمل بما لدينا لقد أدرك برودي أن كارني كان على صواب، كانت مسافة 13000 متر (حوالي 14400 يارد) على طول مجرى نهر يمكن عبوره تمثل مسافة واسعة ليس من السهل على كتيبتين السيطرة عليها. بمجرد أن أنهى مكالمته الهاتفية، تحول برودي إلى مساعده. وتساءل: «ألا يوجد خبر عن مدافع الأمريكان؟» أصبح هناك شخص إلى جانب المساعد ذي الوجه المتعب والبائس، والذي قضى يوماً كاملاً على الهاتف، يشعر باليأس من هذا الأمر.

هزّ رأسه: «لا شيء يا سيدي». طوال أربع وعشرين ساعة، ومنذ أن أصبح الخطر واضحاً لأول مرة، كان البريغادير يتوقع بفارغ الصبر وصول قطع المدفعية الثقيلة. تسبب الطريق الذي يمرّ عبر عدة ممرات مائية، والذي كان غارقاً بالمياه بسبب أمطار الربيع، في تأخير وصولها.

«أيها النقيب، أريد منك أن تزودني بتفاصيل المسح الجوي عبر الهاتف».

كان الظلام على وشك أن يحل في يوم 22 نيسان، حين رنّ الهاتف الميداني في مقرّ الكولونيل كارني؛ وكان على الخط بريغادير من القيادة العامة. أبلغهم سرب الاستطلاع الجوي الأمريكي للتوّ أن إحدى طائراتهم رصدت «دلائل تشير إلى وجود تجمعات للعدوّ على بعد عشرة أميال (16 كم) شمال النهر». لكنه لم يشر إلى حجمها. عشرة أميال قد تعني مسير يومين، لكن الكولونيل كارني لم يكن مستعدّاً لاغتنام الفرصة. لقد فعل الصينيون ذلك من قبل وفاجؤوا الحلفاء في يالو. أمر الدورية رقم 7 تحت قيادة الملازم غويدو تيمبل بنصب كمين في معبر غلوستر. انتقل الملازم إلى موضع متقدم. كانت ليلة مقمرة وكانت الرؤية جيدة. لقد حفروا مواضع لهم على طول الضفة الجنوبية للنهر وكانوا مستلقين في

حالة انتظار لمدة ثلاث ساعات تقريباً عندما بدا فجأة أن هناك حركة في الجهة المقابلة من الشاطئ؛ لم يستطع تيمبل أن يصدق ما رآه من خلال نظاراته الميدانية. برزت فجأة حشود من أفراد العدوّ مثلما يظهر الفطر بعد المطر - أشكال آدمية غير واقعية، أشبه بجيش من الأشباح. كان هناك حشد من الصينيين يتجه نحو مواضعهم عند ضفة نهر إيمجين - كانت دزينتان من أفراد كتيبة غلوستر بقيادة الملازم تيمبل في مواجهة الصين بأكملها، أو هكذا بدا الأمر. ما زال هناك وقت للتراجع، لكنهم لم يفعلوا ذلك. كانت ميزتهم تكمن في عامل المفاجأة. لم يكن الجانب الآخر يعلم أن أفراد كتيبة غلوستر كانوا يستلقون وهم في حالة انتظار عبر النهر.

«لا تطلقوا النار إلى أن تأتيكم الأوامر من الملازم»، تهامس الجنود المتواجدون على طول خط القتال بهذه العبارة فيما بينهم. جثم الجنود في خنادقهم، وبنادقهم في وضع الأمان، وأصابعهم على الزناد. تقدمت الموجة الأولى من الجنود الصينيين وهي تخوض النهر الذي لم يتجاوز ارتفاع مياهه ركبة الواحد منهم، وكان كلّ صف منها يحوي أربع دزينات من المقاتلين. عندما أصبحوا في منتصف الطريق صرخ الملازم تيمبل: «إطلاق نار حرّ!» كان التأثير الأوّلي لإطلاق النار رهيباً؛ كانت النيران الدقيقة المتواصلة التي أطلقها مقاتلو الغلوستر مرعبة؛ لم يكونوا بحاجة لاختيار الأهداف لأنّه كان هناك الكثير منها. أمطرت مدافعهم الرشاشة الخفيفة من طراز برن بالرصاص الكتل البشرية القادمة نحوهم. تناثرت أجساد الصينيين في الهواء مثل الحبوب التي تذروها الرياح بسبب رشقات الرصاص التي لا ترحم.

وصلت الموجة التالية من الجنود إلى مسافة خمسين ياردا (45 متراً) من مقاتلي كتيبة الغلوستر، ثم بدا أن قواهم قد خارت. أسندوا بنادقهم بجوار الحاجز الترابي، وبدأ مقاتلو الغلوستر يلتقطونهم الواحد بعد الآخر. أصبح النهر مليئاً بالجثث. اختفى القمر وراء سحابة عابرة، وتحت جنح الظلام، اندفع المزيد من الصينيين إلى الأمام. أصبح أفراد

قوات العدوّ الأمامية على بعد عشرة ياردات فقط من مقاتلي الغلوستر، يصرخون بجنون وهم يقومون بالهجوم، عندما عاد القمر للظهور ليغسل المكان بضوئه الأزرق.

كاد مقاتل صيني أن يصل إلى موضع لين ألين عندما أطلق عليه جندي النار فأصابه في صدره. ارتفع صوت أحد القادة: «استمروا في إطلاق النار على هؤلاء الأوغاد». ترنح الصينيون، وأصابهم الدوار ثم انهاروا. تواصل مجيء المزيد منهم. وكان تصميمهم لا يصدق حقّاً. لم يسمع رجال الفصيل رقم 7 الانفجارات ولا شعروا بعصف الرصاصات المارة من فوقهم، بدأت أنفاسهم تتقطع واستمروا بشجاعة في قتل أفراد العدوّ. وأعقب هجوم الصينيين الأولي شنّهم ثلاث هجمات أخرى بواسطة موجات بشرية، وكان عدد من أرسلهم رجال القائد تيمبل غيدو من الصينيين إلى الموت ما يساوي ثلاثة أضعاف عددهم. لم يتوقف مزلاج مدافعهم الرشاشة عن الحركة وكان يطلق الرصاصة تلو الأخرى لتخترق أجساد الصينيين. صاح الجندي الأول لين ألين، الذي ادعى ذات مرة أنّه لا يكره هؤلاء الصينيين ذوي العيون شبه المغمضة والذي كانت ماسورة مدفعه ساخنة للغاية لا يمكن لمسها: «كان ينبغي على هؤلاء الزعران أن يبقوا في بلادهم ويتناسلون هناك». كانت تتمدد أمام خندقه عشر جثث مشوهة. تصدى مقاتلو الغلوستر المتعبون لجميع الجنود الصينيين الذين نجحوا في الوصول إليهم ولم تكن بحوزة كلّ مقاتل سوى خمس رصاصات وقذيفة واحدة للمدفع الرشاش للجندي الأول ألين والذي كان من طراز برن، وكان قد حان الوقت «لترك المكان بسرعة».

تمّ تبليغ أمر الملازم تيمبل إلى جميع المقاتلين على طول خط القتال: «نحن نتراجع». واجه الفصيل السابع من الكتيبة الأولى من فوج غلوسترشاير، كتيبة كاملة من جيش العدوّ، ونجوا بأنفسهم. لم يدر في خلدهم أنّهم قد أزاحوا الستار للتوّ عن واحدة من أكبر العمليات الهجومية في الحرب الكورية.

كان الليل قد بدأ للتوّ. وكانت الضربة الأشد ضرراً هي تلك التي وجهها الفصيل (أي) الذي يقوده الرائد بات أنجير، فقد كان التل الذي يتموضع فيه يقع على مقربة من معبر النهر، مما مكن جنود أنجير من عرقلة تقدم العدوّ. على الرغم من أن الإجراء السابق الذي قام به الملازم تيمبل قد أدّى إلى إبطاء الاندفاع الأولي للجنود الصينيين، إلّا أن كتيبتين أخريين من جيش الشعب الصيني نجحتا في عبور النهر والتقدم باتجاه المصب. كانتا تتقدمان بسرعة نحو التل 148، أو «تل الحصن». كان شكل المناظر الطبيعية في الوادي التي غسلها ضوء القمر مثل بانوراما هائلة. الشيء الوحيد الذي كان يفسد جمال الطبيعة هو هيئات الجنود الكثيرين الذين يأتون عبر قاع الوادي.

ضرب الرائد أنجير بيده لاقطة جهاز اللاسلكي للتأكد من أنّه يعمل. استعد الملازم فيليب كورتيس ليطلق من مسدسه للتنوير إطلاقة إشارة لجنوده عن الشروع بإطلاق نار حرّ. ارتفع صوت نقرة لمزلاج المدفع الرشاش ليصبح في وضع الاستعداد. كان العرق الناجم عن التوتر العصبي يتدفق إلى عيون الرجال. ظهر القلق عليهم، كان الجندي تشارلي إدكينز يراقب الوضع ونصف جسده بارز خارج موضعه. لقد رأى ما بدا وكأنّها مجموعة من الدمى المتحركة وهي تنسلّ عبر أرض الوادي، صامتة مثل سكون الليل. ثم وصلت الموجة الأولى من الجنود إلى المنحدر. انفجرت قنبلة تنوير، تلاها ارتفاع صوت بوق، ثم بدأ الصينيون يصعدون التل. تعالت أصوات انفجارات متفرقة عرقلت حركتهم، كان مصدرها من وسط الشجيرات وفوق الخنادق. ظهرت من الوادي الذي يقع أمام التل مجموعات ضخمة من الصينيين، وربما كانت هي الجزء الأفضل من كلا الكتيبتين، كانوا ما لا يقل عن ألف جندي، يحاولون صعود التل ليشتبكوا مع ستين رجلاً.

كان تشارلي إدكينز يصدر اللعنات بصوت خفيض. كان يحمل في جيبه علبة سجائر من نوع (أولد غولد)، ويحتفظ بها ليوم جميل حين

يكون بإمكانه الاستلقاء والاستمتاع بتدخينها، والآن ربما لن تتاح له فرصة التدخين مرة أخرى. وسط إطلاق النار في كلّ اتجاه، صعد الصينيون وهم يتدافعون أحد المنحدرات الحادة. كان صدى الانفجارات يتردد جيئةً وذهاباً.

«لقد أصبت بطلق ناري» خاطبه الرجل المجاور له وهو يئنّ. وقد تنقعت سترته العسكرية بالدم. كان قد أصيب في صدره وفي الكتف. زحف إدكينز إلى الرجل، وفتح قميصه، ووضع ضمادة على الجروح. لم تكن تفصل بينهم سوى إنشات عندما أصابتهم الرصاصات، ولم يتعرض إدكينز حتى لخدش بسيط، هذه هي مقادير الحرب. أبقى رأسه تحت حافة الموضع. لو كان قد تعرض لرصاصة في الجسم، ربما كان سينجو؛ فقد كان جسده ضخماً وقويّاً ويمكنه تحمل بضع رصاصات، ولكن ليس في الرأس. كان الرصاص يصدر طنيناً. مرّ ظلّ شخص من أمام بندقيته واختفى وهو يجتازه. عندما كان العدوّ على بعد خمسين ياردا (45 متراً) أسفل خط الخندق، فتحت المدافع الرشاشة لمقاتلي الغلوستر نيرانها لتطلق رشقات متتالية من الرصاص حتى توهجت ماسوراتها من شدة الحرارة وبدأت تنحشر داخلها الطلقات.

قام جنود من سرية «سي» من كتيبة مدافع الهاون 170 برمي مجموعات من القنابل على جحافل العدوّ المتقدمة على التل وفي الوادي. ومع ذلك، لم يكن يبدو أن هناك شيئاً قادراً على وقف تقدمهم؛ كانت أصوات أبواقهم تدفع بهم لأن يكونوا في أفواه البنادق. مات الكثير منهم بينما ارتقى العديد منهم التل. سرعان ما وصلوا إلى أولى مواضع الجنود البريطانيين واستطاعت موجاتهم البشرية أن تجبر البريطانيين بالفعل على ترك «تل الحصن». وبذلك، استولى الصينيون على المعلم البارز في موضع سرية «أي»، والمتمثل بالحصن المبني من الخرسانة. في غضون دقائق قاموا بنصب مدفع رشاش وبدؤوا يستخدمون هذا الملجأ المحصن لرشق رجال سرية أي. بمجموعة قاتلة من الرصاصات؛ أصبح الخندق

المؤدي إلى الملجأ المحصن هو النقطة المحورية لخط قتال يتناوب عليه الصينيون الذين يقتفون أثرهم.

بدأت سرية أي تتكبد خسائر فادحة. تقلص عدد أفراد الفصيل الذي كان يقوده جون مايكوك إلى ستة رجال قبل أن تقلصه إلى النصف إطلاقات المدفع الرشاش. كان الفصيل الأقرب لهذا المدفع هو فصيل الملازم فيليب كيرتس. مع فصيله الذي لم يبقَ منه سوى عشرين فرداً، اتصل كيرتس بقائد سريته. كانت أوامر الميجور أنجير كيرت له: «أبعدهم عن القمة!» أجاب كيرتس بكلمة واحدة: «حاضر!» ثم جمع كلّ ما بقي من رجال فصيله وقال لهم: «دعونا نذهب!» لقد حشوا جيوبهم بكل القنابل اليدوية. التي كان يمكن أن يجدوها وبدؤوا يتسلّلون زحفاً إلى الأمام. تقدموا ثلاثين ياردا (27 متراً) عندما تمّ تمزيقهم بواسطة رشقات نارية من ذلك المدفع الرشاش الملعون. توفي ثلاثة رجال على الفور، وأصيب أربعة آخرون، بمن فيهم فيل كيرتس، الذي أصيب في جنبه وتهشمت ذراعه اليسرى.

لا بدّ من أن الطلقة أصابت عضواً حيوياً في الجسم، حيث كان الدم يتدفق من جنبه على شكل تدفقات صغيرة. كان معظم رجاله قد ماتوا، وكان مسدسه فارغاً، ولم يعد بإمكانه حمل بندقية بذراعه المحطمة. لكنه صمم على أن يسكت المدفع الرشاش، وسيسكته! تحرك ببطء على قدميه، وذراعه المهشمة تتدلى بلا فائدة على جانبه... تعثر وهو يخطو للأمام، ممسكاً بقنبلة يدوية بقبضته السليمة، وتوجه بها في خط مستقيم نحو المعقل المحصن الذي على التل. استمر المدفع في إطلاق رشقات من النيران الواحدة تلو الأخرى، ولكن الشيء العجيب أن أيّاً منها لم تصبه. لم يعد هناك شيء يمكن أن يمنعه. لقد ترك أثراً من دمه الحي يسيل على الأرض. ما أعطاه القوة للتحرك كان لغزاً، رجل يموت في أكثر مهامه مجداً. رفع ذراعه السليمة، وقرب القنبلة من فمه وسحب دبوسها بأسنانه وفجأة وقف على بعد خمسة ياردات (4.5 أمتار) من

المدفع الرشاش. عندها رآه الصينيون أداروا مدفعهم نحوه ورشقوه بعدة طلقات توجهت مباشرة نحو ذلك الملازم البطل، في تلك اللحظة ترك القنبلة اليذوية تسقط منه. وبينما انهار فيل كيرتس وأصيب بجروح قاتلة، تدحرجت القنبلة نحو المعقل المحصن، وانفجرت، ومحت من الوجود طاقم المدفع. أصبحت محرقة جثة الملازم فيليب كيرتس عبارة عن كومة من القنابل المتفجرة والذخيرة التي جعلت المعقل المحصن يتشظى إلى فتات جعل المشهد يشبه عرضاً للألعاب النارية.[7]

كان يسود الصمت على التل رقم 182 القريب، حيث تتمركز السرية (دي) التي يقودها النقيب مايك هارفي، كانت الخطة العسكرية الأكثر فاعلية هي إرسال دورية كمين لتنبيه سريته إذا حصل هجوم. بإمكان اثنين أو ثلاثة رجال يحملون زوجاً من صناديق الذخيرة يحوي كلّ واحد منها مئة طلقة القضاء على العشرات من أفراد العدوّ حتى قبل أن يتمكنوا من الردّ عليهم. لكنه رفض المجازفة بأيّ أشخاص آخرين أو شطر قواته، ولكن فجأة سقطت عدة قنابل هاون، أصابت التل والمدافعين عنه. صعد الصينيون المنحدر على شكل أزواج، وانتشروا بعيداً. لم يكن يمكن رؤية سوى وميض فوهات بنادقهم بوضوح في الظلام. كانوا يطلقون النار برشقات أفقية طويلة فوق المنحدر ويستخدمون الذخيرة بإفراط كما لو كانوا ينثرون رملاً. بسبب تفوقهم الساحق في القوة البشرية والعتاد، كان يمكنهم تحمل خوض معركة استنزاف. في غضون دقائق، تكبدت السرية(دي) خسائر فادحة. عندما خرجت الموجات الأولى من المهاجمين من وسط الأشجار التي كانوا يختبئون فيها، أطلق رجال السرية (دي) النار بشكل مباشر نحو الحشود.

لكن الهجوم على السرية «دي» لم يتمّ بقوة الهجوم الرئيس نفسه الذي كان لا يزال مستمرّاً على السرية «أي» وأجبرها على التقدم. وهكذا، أصبحت قذائف الهاون البريطانية الثقيلة منخرطة في القتال. انفجرت

7- تكريماً لعمله البطولي، تمّ منح الملازم فيل كيرتس وسام صليب فيكتوريا بعد وفاته.

قنابل البطارية 170 بمسافة لا تبعد سوى ثلاثين ياردا (27 مترا) أمام رجال الرائد أنجيير. تصاعدت الأبخرة اللاذعة لمادة الكوردايت (وهي المادة الدافعة المستعملة في القذائف الصاروخية والمدافع والأسلحة النارية - م) بشكل كثيف فوق خندقهم الضيق فيما أثارت إطلاقات الرصاص المتساقطة الأوساخ التي كانت بجانبهم، وبدأت تدور فوقهم، ومن حولهم. لقد صمدوا وقتلوا أعداءهم وتمّ قتلهم. بالنسبة لهم كان قد انتهى كلّ شيء، وهذا جعلهم يقاتلون بعزيمة أشدّ. تصاعد الصراخ والشتائم من جميع أنحاء التل، ولكن كانت ترافقها أيضاً صرخات من العذاب والإحباط. مزق الرصاص أجساد الجنود وجعلهم يتدحرجون فوق جثث من سقط قبلهم.

مع تقلص عدد أفراد السرية إلى ثلاثين جنديّاً قادرين على الصمود وإطلاق النار، أرسل الرائد أنجير رسالة أخيرة إلى العقيد كارن: «سيادة العقيد، يجب عليَّ أن أبلغك أن موقفنا في خطر. إذا كنت سأبقى، فعندئذٍ يجب أن أحصل على تعزيزات. ليس عندي سوى دزينتين من الرجال والذخيرة على وشك النفاد». وفي ما كان ربما أصعب قرار يتخذه العقيد كارن في حياته المهنية برمّتها، كان عليه أن يرفض إرسال ما بقي من أفراد السرية لإنقاذ بقية أفراد وحداته من الإبادة. تغيرت ملامح وجهه. وتصلب فمه وضاقت حدقتا عينيه. تكلم بصوت متقطع في الميكروفون: «عليك الصمود حتى إشعار آخر».

كان ردّ أنجير: «أمرك سيدي، لا تقلق بشأننا؛ سنكون بخير».

بعد عشر دقائق، مات الرائد بات أنجير.

في اللحظة التي تمّ فيها القضاء على السرية «أي» بشكل كامل وبدون مقاومة تذكر، ارتفعت أصوات أبواق الصينيين وحينها استدار المهاجمون، وبدؤوا ينزلون من المنحدر المليء بالدماء والحفر. أصاب الذهول مقاتلي الغلوستر. قبل دقيقة اقتحم العدوّ مواضعهم، وفي اللحظة التالية تركها. عاودت مدافع الهاوتزر من طراز 105 ملم، والتي

كانت ساكتة بلا حراك بسبب المدى القصير لقذائفها، إطلاق القذائف على الأرض التي تفصل بين الصينيين المتراجعين والنهر. فأصابت بعضاً منهم وقطعت أوصالهم، فيما انحرف آخرون عنها، ورجعوا إلى الوراء، وما إن توقفوا للحظات حتى حدث انفجار آخر لتتلقى أجسادهم جميع ما خلفه من آثار، فتحركوا أقل من مئة يارد والقلق يتملكهم خوفاً من هذا التوقف الآخر المخيف. كان نصف الصينيين فقط محظوظين بما فيه الكفاية لينجوا بأنفسهم. أمّا النصف الآخر فقد تعرض للقتل أو التشويه. وسط السكون الذي تلا ذلك الحدث، كان المشهد البانورامي للمناظر الطبيعية الخلابة التي كانت ذات يوم تعبّر عن مدى جمال الطبيعة يعرض صورة لساحة معركة تعود إلى القرون الوسطى تتناثر فيها الجثث.

لم يصدق أفراد الدزينة الأخيرة الباقية من السرية «أي» كم كانوا محظوظين. فقد كانوا بالكاد على قيد الحياة، ينظرون حولهم غير مصدقين ويعيشون حالة من الذهول. كان هناك صيني ميت تدلى نصف جسمه في الخندق فسحبوه إلى الخارج. سقطت محفظة من القماش المتهرئ من جيبه. كانت تحوي بضع عملات معدنية، وصورة فوتوغرافية، انمحت جميع ملامحها تقريباً، لفتاة تحمل طفلاً، وخاتم زفاف مصنوع من الأسلاك النحاسية؛ كانت تلك جميع ما يملك هذا الرجل في هذه الدنيا. مثل العديد من مئات القتلى، الذين تناثرت جثثهم في جميع أنحاء المنحدر، فإنّ هذا الصيني لن يجلس مرة أخرى مع زوجته وطفله الرضيع. بالقرب منه، كان أحد مقاتلي الغلوستر متمدداً ووجهه إلى الأرض، يرتجف بشكل جنوني. تحول رأسه جانباً وفمه مفتوح، يدخل إليه التراب، ورئتاه مثقوبتان بحربة. قام الجنود بتضميده ومددوا جسده على بندقيتين لتكونا نقالة مؤقتة. اكتشفوا أنّه الرائد قائد سريتهم. لقد جاءته هذه المساعدة في وقت متأخر جدّاً. انحنى أحدهم على جثته، ووضع فمه على فم الرائد، محاولاً إعادة الحياة إليه.

صاح أحدهم: «بيني، إنّه ميت، ميت. دعنا نترك المكان، فهم يزحفون نحونا من كلّ مكان».

من المؤكد جدّاً أن العدوّ سيعاود الهجوم مرة أخرى. مع هبوط ظلام الليل، ساد الأجواء توتر شديد، وكان واضحاً لدرجة أنّه يمكن سماعه في خفقان القلوب وملامح الجنود التي يسودها الخوف. حدقت العيون في الظلام المتزايد. كان الجنود ينفخون في أيديهم الباردة، فيما كانت البنادق معلقة في أذرعهم. في مكان ما، على بعد 10000 ميل (16000 كم)، كان هناك ضوء وحرارة. أمّا هنا فلا يوجد سوى الظلام والبرد. كانت الدقائق تمضي ببطء. نظر الرقيب جاك إيمز نحو ظلال الجنود المتحركة. وجلس بجانب مجند شاب.

«كيف سينتهي كلّ هذا، أيها الرقيب؟» سأله الصبي، وللمزيد من التأكيد. أضاف قائلاً: «أنا خائف».

أجابه الرقيب: «وأنا أيضاً يا بني، لكننا لن نعطيهم شبراً واحداً، أليس كذلك؟».

لقد تمكن الصينيون من نصب بطارية مدفعية كبيرة على سلسلة من التلال المطلة على مواضع البريطانيين. على مدار اليوم، كانت انفجارات المدفعية تلاحق الجنود في تل غلوستر وتشعرهم بالغضب. ومع أن جنود المدفعية الصينيين استمكنوا مواضعهم، لكنهم انتظروا حلول الظلام قبل أن يبدؤوا بقصفهم بكثافة. اجتاح جحيم النيران جميع الخنادق. أضاءت الليلة المظلمة تلك الألعاب النارية التي كانت تنطلق في السماء بمسار متعرج بجنون. غمرت مشاعل الضوء موقع الحدث بضوء أزرق مروع. بسبب نيران انفجارات قنابل الهاون وقذائف المدفعية، كان الضوء يشع من قمة التل كأنّها حافة بركان. سقطت بعض قذائف أولى موجات القصف في مكان أقصر عن الهدف، لكن فيما بعد كانت جميع القذائف تصيب الهدف، وتنفجر وسط الجنود؛ اخترقت ظلام الليل ومضة من الضوء، تلاها انفجار، ثم تصاعدت في السماء شظايا القذائف. تلتها سلسلة من الانفجارات المتتالية التي تصمّ الآذان.

توقف الزمن بالنسبة لمقاتلي الغلوستر الذين كانوا في مواضعهم،

وأصبحت الثواني دقائق وتحولت الدقائق إلى ساعات. كان ذلك قبل وقت قصير من انبعاث «ذلك الصوت» من وسط ظلام الليل - كان صوتاً غير مألوف وغريباً، وهو صوت سيتذكرونه طوال حياتهم. صوت الأبواق الصينية، تلته عدة صفارات، كانت عشراً، ثم أصبحت عشرين، ثم مئة، اندفع نحو أعالي التل حشد من الجنود الصينيين بشكل هائل وسط صرخات الموت والحماس الشديد، ظهرت ظلال أفراد العدوّ وسط الضوء الأبيض الشديد لمشاعل التنوير، بدأ مقاتلو الغلوستر بإطلاق النار واستمروا في ذلك، نفدت صناديق العتاد لتحلّ محلّها صناديق أخرى جديدة. كان اليأس والإحباط يندلق من ماسورات بنادقهم الرشاشة وكان الشيء الوحيد الذي يشعرون به هو ارتداد بنادقهم. كان المهاجمون الذين يتعقبون أثرهم يطلقون النار بتتابع، يعينون الأهداف. فتنطلق قذائف الهاون، وتتقوس في السماء، ثم تنفجر بسرعة مذهلة، لتصنع فجوات كبيرة في صفوف الأصدقاء والأعداء.

انهال التراب ودفن مفرزة من جنود العدوّ بأكملها تحت وابل نيران جولة قصيرة من قصف مدافع الهاون التابعة لهم بينما كانوا يسرعون في صعود التل. تطايرت الرصاصات مثل ألواح فولاذية مصممة للذبح. انطلقت صرخات الألم وصيحات الموت من الصينيين الراقدين على المنحدر. كان الرصاص يلاحقهم من خلف كلّ صخرة، وكل شجرة، وكانوا يهربون منه بحثاً عن ملاذ. حوصرت مجموعات منهم وسط تبادل مميت لإطلاق النار من المدافع الرشاشة. وكلّما ذهبوا للاختباء، مزقت رصاصات الجنود البريطانيين الشجيرات. حاول البعض من الصينيين الردّ على نيرانهم وهم في الأرض المفتوحة. لكن سرعان ما قتلوا على الفور. بدأت الذخيرة تنفد من مقاتلي الغلوستر. شجع انخفاض معدل إطلاق النار الصادر من مقاتلي الغلوستر الجنود الصينيين على القيام بمناورات جديدة.

تمكنت إحدى سراياهم من التسلّل بصمت لتصبح على بعد ياردات

من الخندق. عندما ارتفعت أصوات تلك الأبواق الصينية المزعجة، نهض الصينيون، واندفعوا مثل شلال بشري، إلى خنادق مقاتلي الغلوستر، وبدؤوا بإطلاق النار، وإلقاء القنابل اليدوية، والهجوم عليهم بالحراب. سقطت قنبلة يدوية على قدم أحد الجنود فقفز إلى الوراء كما لو أن قنبلة هاون انفجرت قربه. أصابه الانفجار في خصره فطرحه أرضاً. تمدد بلا حراك على الأرض وصرخ فجأة. ليس لأنّه كان يشعر بالألم، فلم يكن يؤلمه شيء. لقد صرخ عندما أدرك أنه أصبح مشلولاً.

كان مجرى النيران يمتد من فوق الخنادق ومن تحتها. وكان الضجيج يحطم الأذن. أثارت الرصاصات أكوام النفايات وجعلتها تتطاير في الهواء وكانت تصدر أصواتاً مكتومة عندما ترتطم بالأشجار. انتقل إطلاق النار مجدداً إلى موضع الرقيب إيمز وخدشت إحدى الرصاصات كتفه. وجعلته يتراجع، وأطاحت بخوذته وغطت الدماء مؤخرة رأسه حين اصطدم بأحد الأحجار. انتقل ألم الارتجاج من الجزء الخلفي من جمجمته إلى عينيه وخشي أن يفقد الوعي. مرّت طلقة بمسافة بوصة من فوق رأسه. فأيقظته. نهض، وثبّت جسمه على حافة الخندق، وأفرغ رصاص بندقيته الأوتوماتيكية في ظلال الجنود المندفعين نحوه. قتل حفنة من الصينيين كانوا على بعد نصف يارد منه فقط. عند الطريق المؤدي إلى التل من جهة الشرق، تقدم الصينيون حاملين الحراب نحو التل باطراد. كانوا يتحركون بحذر، وهم منحنون، ووجوههم متوترة بشدة. بعد يومين من الخسائر الفظيعة التي لحقت بهم، أصبحوا متحفظين ومترددين. كانوا يقفزون من موضع إلى آخر حتى أصبحوا قريبين. وحينها تمّ رصدهم. كانت ثلاثون ياردأ (27 متراً) فقط من الأرض المدمرة تفصل مقاتلي الغلوستر عن الصينيين. لكن البريطانيين كانوا في مواضعهم والصينيين خارجها. سحب الملازم كابرال دبوس قنبلة يدوية وتركها تتدحرج على المنحدر. ثم انفجرت!، توقفت مجموعة من خمسة صينيين عن الحركة. وسط الرصاصات التي كانت تضرب كلّ مكان من حوله، اقترب

أحد الأطباء المرافقين لمقاتلي الغلوستر من أحد المصابين. لم يستطع إخراج الرصاصه من جسده، لذا قام بتضميده وأعطاه حقنة مورفين، قبل أن يزحف لتقديم الإسعافات الأولية للآخرين. ولكي يرفع الجرحى من تحت الإبطين وينقلهم إلى مكان أكثر أماناً، كان على الطبيب أن يرفع جسده. فأصابته رصاصة. تأوّه بأنين خافت ورغوة تخرج من فمه المفتوح، وانقبض وجهه من الألم؛ صدرت منه همهمة منخفضة وجثا على ركبتيه ثم مات.

كانت قوة هذا الدفاع الشجاع الذي لا يوصف فوق طاقة تحمل الصينيين؛ على الرغم من أن ضباطهم كانوا يصرخون عليهم بغضب، بدأ أفراد وحدات بأكملها في الهرب. تحول المشهد إلى طوفان من الهاربين. سعى الباقون إلى إيجاد مأوى لهم أينما استطاعوا، وسط الشجيرات وخلف الصخور على طول المنحدر. ثم أرسل الله معجزة. فقد لاحظ الجندي جيم ووكر بعض الصينيين، وهم يرتعدون خوفاً في منخفض من الأرض، ينظرون إلى السماء المضاءة بالنيران ويتحدثون باهتياج. تمايل فرحاً وهو في موضعه، وقام برفع مدفعه الرشاش من نوع برن وحصدهم بقذيفة واحدة.

حلّ الفجر بشكل بطيء جدّاً، ليهيئ ساحة المعركة لمنظر مثير للاشمئزاز للجثث المشوهة المتناثرة أمام الخنادق أو تلك التي تتدلى من الحفر، كانت معظمها لأفراد العدوّ، ولكن كان فيها أيضاً العديد من الأصدقاء. منح الهدوء الذي أعقب القتال القسيس ديفيز وقتاً لإجراء مراسم الصلاة على الموتى.

بدأ الأب سام ديفيز يتلو صلاته: «سأرفع عينيّ إلى التلال حيث منبع قوتي». نظر الرجال إلى التل، تلّهم، يفكرون في الرجال الذين لقوا حتفهم هناك، وكيف كانوا قريبين من الموت في هذه الثماني والأربعين ساعة الماضية. بات بالإمكان سماع صلاة القسيس، لأنّه عند طلوع الفجر، حلق سرب من طائرات نفاثة تابعة للقوات الجوية الأمريكية

من طراز أف. 80 الملقبة بنجم إطلاق النار عالياً في السماء وارتفع صوت دويّها وانتظمت في صف واحد فوق خيوط الدخان التي أرسلها رجال كارني. كانت الطائرات تهبط سوية، وتنقضّ من السماء كالطيور الجارحة. كان يصدر عنها هدير عالٍ وهي تحلّق فوق التل على مستوى منخفض. وبشكل غريزي، ألقى الرجال بأنفسهم في الخنادق وانبطحوا على الأرض في الوقت الذي أسقطت فيه أسطوانات فضية من أجنحة الطائرات. اشتعل في المنحدر لهب أبيض حارق. وفي ثوانٍ اجتاحت الغابة التي أمام الخنادق ريح هوجاء مدوية من ألسنة اللهب الصفراء. بدأ الجنود الصينيون الذين انسكب عليهم سائل حارق بالصراخ وتحولوا إلى مومياوات سوداء. ارتفعت ستارة من الدخان الأسود اللاذع فوق تل الغلوستر سببتها خزانات أجنحة الطائرات التي كانت تلقي قنابل النابالم المميتة، وصنعت رقعة نارية وسط كتائب قوات الجيش الوطني الصيني التي تمّت إعادة تشكيل وحداتها. زحف خيط رفيع ملتوٍ من الدخان الأسود نحو خندق الغلوستر، وجلب معه بقعة من الزيت، تسبب في احمرار عيون المقاتلين وباتوا يتذوقون طعم اللحم المحترق الذي وصل إلى الجزء الخلفي من الحلق. وبينما التصق السائل الهلامي بالأشجار، كان يومض مثل بقع الجحيم. وكان يمكنهم من خلال ضوء تلك البقع، رؤية أجزاء متفحمة ومتيبسة كانت تعود لعدد من القتلى. على المنحدر الشمالي الشرقي، كان الصينيون يركضون أسفل التل على أمل إيجاد مخرج لهم من المحرقة.

حتى ذلك الحين، كان المهاجمون قد تكبدوا خسائر فظيعة؛ كانت أربعون في المئة من القوة الهجومية إمّا ميتة أو أصيبت بجراح. والحال أن من بين الفرقتين اللتين كانتا تقاتلان في هذا القطاع، تمّ القضاء على إحداهما بالكامل تقريباً، وهي تحاول تمهيد الطريق لهجومها من خلال التضحية بجنودها، والدفع بكتيبة تلو الأخرى لتحقيق اختراق في صفوف البريطانيين. وقد دعا قائد قوات جيش الشعب الوطني المتواجدة في

الجبهة كتيبته الهجومية التي تعرضت لضربات شديدة لإعادة تجميع صفوفها، ثم قرّر فيما بعد استخدام فرقة جديدة، وتركيز كلّ الجهود نحو شنّ هجوم كبير آخر على البريطانيين.

بالنسبة للجنود على التل، كان كلّ شيء هادئاً: «لقد هربوا!» لم يصدق بضع مئات من الناجين من الكتيبة ذلك. لقد حاولوا الهجوم سبع مرات وتمّ صدهم في المرات السبع. حمل الجنود البريطانيون الناجون بنادقهم، وهم في حالة ذهول وصدمة وإرهاق. جلس أحد الجنود بجوار جندي مصاب بجروح شديدة. أشعل سيجارة للجريح، وأمسك برأس الرجل وراقبه وهو يحتضر. وكان الرقيب جاك إيمز في واجب الحراسة. تمّ نقل جرحاهم خلف ملجأ مكون من بعض الصخور، حيث شعروا بأنّهم ربما لديهم فرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة في الهجوم التالي. أمّا الآخرون، المتعبون والمنهكون، فبقوا مستلقين في الخندق، نصف نائمين فوق أسلحتهم، في انتظار شروق الشمس الذي قد يجلب الراحة لهم عندما نظر إيمز إلى أسفل المنحدر، بدا له أن الصينيين يمكن أن يكونوا على بعد عشرة أمتار ولن يراهم أو يسمعهم أحد. لقد كان الوضع هادئاً جدّاً بحيث لا يمكن أن يكون حقيقيّاً.

لم يستمر هذا الهدوء وقتاً طويلاً قبل أن ينهال عليهم الجحيم وتجتاحهم عاصفة نارية. انفجرت قذائف البطارية الصينية المتمركزة على الجبل القريب مثل البراكين. أبقى الجنود رؤوسهم منحنية تنظر إلى الأسفل بينما كانت الشظايا وقطع صغيرة من الخشب والصخور تتطاير في كلّ مكان. جاء جندي يركض نحو مجموعة الجنود التي تحيط بإيمز، وهو يتنفس بصعوبة، وقد اسودّ وجهه بسبب تعرضه لمادة الكوردايت. لم يقل كلمة بل أمسك نصف دزينة من القنابل من صندوق خشبي وعاد بها راكضاً. لم يروه ثانية أبداً. سمعوا فجأة هديراً هائلاً لطائرة تحلق فوقهم وذهب الجندي جيم ووكرمسرعاً إلى الجدار المقابل. اهتزّت الأرض، قبل أن تنزل كتل منها وترتطم به وتحيط به. بعد فترة من الوقت، ابتعد عن

الوجهة التي سقط فيها، كانت أصوات الغرغرة تخرج رغماً عنه؛ انسكب الدم على وجهه، قذف بجسده نحو الأعلى وتقدم إلى الأمام، دون أن ينتبه إلى الألم.

«لقد أصبت»، سمع نفسه وهو يصرخ «عليكم اللعنة»، لم تكن الضربة شديدة لتجعل منه بطلاً فكانت تشبه تلك التي يتلقاها أحد صيادي الجوائز، أو الملاكم الذي يستقتل من أجل الفوز، وكلّ ما يحصل عليه في النهاية هو نزيف في الأنف! عندما تلاشت آثار الانفجار وتوقف تساقط المطر الغزير على الأرض، قام الجنود في الخندق بانتشال أنفسهم وهم يرتجفون ومصدومين. أصيب البعض منهم بجروح. لكن الصينيين كانوا أقل حظّاً. وجهت القاذفة الأمريكية ضربة شديدة لهم. تطايرت جثثهم لتلتصق بالشجيرات التي من حولهم.

وصل المزيد من الطائرات الأمريكية وهي تعوي في السماء، كانت نيران مدافعها الرشاشة تحصد جنود العدوّ مثل العشب. لم يمنع ذلك المدفعية الصينية من صبّ مزيد من القذائف على كلّ من المدافعين والمهاجمين. لقد أصبحوا الآن متقاربين للغاية بحيث لا يمكن الفصل بينهم بدقة، ويبدو أن قادة بطاريات المدفعية الصينيين لم يكونوا يهتمون لمن كان يتمّ توجيه الضربات. كانت الجثث تتطاير في الهواء حين كانت عشرات الانفجارت تصيب أنحاء مختلفة من التل. أقسم البعض من الجنود بعد ذلك أنّهم قد رأوا أرواح الموتى وهي تصعد إلى السماء، كانت خدعة غريبة لعبت بخيالهم وأعصابهم إلى أبعد مدى.

قام الرقيب جاك إيمز، الحاصل على الميدالية العسكرية في الحرب العالمية الثانية والذي يتميز بصوته الذي يمكنه اختراق جدران الثكنات، والمعروف باسم «الرجل الذي لا يقهر»، بإلقاء نظرة على الجثث المقطعة وهي ملقاة أمام رجاله. وما إن ابتعد قليلاً، حتى ظهر فجأة المزيد من الصينيين أمامه. فقام برمي قنبلتين عليهم. فقتلهم بانفجار مزدوج! وبدأ الرقيب يبحث بالفعل عن أهداف جديدة. اندفع المزيد من الصينيين

نحوه. فقفز، وأطلق النار نحوهم بلا تردد، وقتل أغلبهم. لكن تمكن منه أحد الجنود الصينيين، كان يحمل حربة في يده فطعنه بها. شعر إيمز بالألم في شكل موجات تدفق سائل شديد السخونة، كان الدم ينزف بغزارة في شكل تدفقات صغيرة من خلال الجرح الواسع في جنبه. لم يكن لديه مورفين. تناول قطعة من الخشب الصلب وعضّ عليها بأسنانه ليكتم صرخاته من الألم.

توقف إطلاق النار لبرهة من الزمن، وخيّم السكون المفاجئ على خط الخنادق. كانت الأصوات الوحيدة هي أصوات الرجال الذين يتنفسون والأنين الخافت للجرحى. جاء أحد المسعفين وهو يهرع، ونزع الغطاء البلاستيكي عن بدلته القتالية ووضعها فوق فوهة الخندق الواسعة. هفا عليهم نسيم من الهواء، شعر الجنود بالامتنان لتلك الرياح اللطيفة، فقد خلصتهم من الأبخرة اللاذعة.

«الجناح الأيسر!» صاح أحدهم وأطلقوا النار على كلّ شيء يتجمع على حافة الخندق. شعر الرقيب إيمز، وكان مستنداً بجانب جدار الخندق، بارتفاع غير مسبوق في هرمونات حماسه. لا شيء يمكن أن يؤذيه بعد الآن، ولا شيء يمكن أن يمنعه؛ شعر بأن أيّ رصاصة تصل سوف ترتد ولن تصيبه. عجزت ذراعاه بسبب ضعفها الناجم عن فقدانها الكثير من الدماء، عن الإمساك بالسلاح الثقيل؛ لقد نسي كلّ شيء عن جرحه الرهيب أثناء حشوه الرصاص في بندقيته وإطلاقها الواحدة بعد الأخرى. كان أيّ شخص آخر غيره قد ترك المكان بسبب شدة الانفجارات التي تصمّ الآذان. كان يمكنه أن يرى أجساد الجنود وهي تتسلق التل، فتسقط القذائف فوقها، وتبدأ بالتدحرج على المنحدر الحادّ. بدا المزيد من الصينيين يركضون في اتجاهه. سيطرت عليه حالة من الجنون، وإطلاق الصراخ والشعور بقرب موته. كان الجنود يركضون من حوله في كلّ اتجاه، فقط ليتحولوا إلى أكوام من الحطام البشري. بعدها تداعت قوته وانهار. أمسك به رجلان من تحت الذراعين وسحبوا جسده الواهن إلى

مكان آمن خلف إحدى الصخور. كان يرقد هناك، وعيناه مغلقتان وصدره يصعد وينزل ببطء شديد. جلس بجواره جندي شاب، كان هو الجندي ذاته الذي قال له الرقيب من قبل إنّهم لن يتخلوا عن شبر واحد، وكانت الدموع تنهال على خديه.

«يا إلهي، رحمتك... أدعوك أن تفعل شيئاً. إنه يحتضر...» لم يسمع أحد نداءه، لا أحد سوى قسيس الكتيبة. ركع القسيس سام ديفيز بجانب الرقيب إيمز وألقى نظرة على الجرح. حاول وقف الدم، ولكن الدم كان يتدفق من الجرح مثل تدفق مياه الربيع. فتح الرقيب عينيه. وحاول بصعوبة بالغة أن يبدو بهيئة رجل شجاع.

همس قائلاً: «أنا بخير، أيها الأب، يمكنك أن تتركني الآن». ثم مات. لم يكن جاك إيمز الملقب بالرجل الذي لا يقهر هو الوحيد. عثر القسيس ديفيز على جندي شاب كان وهو ميت يقبض على مسبحة بيده.[9]

كانت المدافع الرشاشة المنصوبة على طول تل الغلوستر، تبيد كلّ شيء حيّ يتوجه نحوها. لم يستمر الأمر على هذا المنوال. فقد باتت المدافع إمّا ساخنة جدّاً أو نفد الرصاص منها... حينها قفز الصينيون إلى الخندق الأمامي!

«إخلاء!» كان هذا هو النداء الذي صدر فسارع كلّ من يستطيع الحركة لصعود التل، وكان يطلق النار وهو يجري. أمسك أحدهم وهو الجندي جيم ووكر، الذي كان دائماً يسير وحده، بمدفعه الرشاش من طراز برن وسار نحو المنحدر، وتوجه مباشرة نحو حشد من الصينيين، وأطلق النار بجنون وبأسرع ما يمكن. فجأة انتهى الأمر.

قام الليفتنانت كولونيل كارني بسحب الجنود من خط القتال في الخندق الأمامي، وقام بتقليص محيط تواجد جنوده ليتركز بشكل أكبر حول قمة التل. استخدم آخر الناجين حرابهم لحفر مواضع في الأرض

9- رافقت خرزات المسبحة تلك القسيس ديفيز طوال فترة أسره، وبعد تحرره من الأسر أعادها إلى والدي الجندي القتيل.

الصلبة وبناء مصدات لهم من الصخور؛ قام كارني بتقسيم كلّ ما بقي من أفراد كتيبته بين النقيب ويلسون الذي كانت مهمته الدفاع عن النتوء الصخري في الجنوب الشرقي للتل، والرائد هاردينغ الذي يغطي الطريق الشمالي الغربي. كان عليهم الصمود حتى تصل أفواج الإغاثة. كان توم برودي قد وعدهم بإرسال كتيبة من جنود الاحتياط الفلبينيين مدعومة بدبابات من فوج سلاح الفرسان الثامن.

في وقت مبكر من بعد الظهر، تقدمت قوات من الدبابات الأمريكية الخفيفة من طراز تشافي أم 24 بشجاعة. حفرت القذائف المتساقطة الأرض القريبة منها. كانت الدبابة الأولى قد دخلت لتوّها الممر الضيق، حيث قام قائد الدبابة بمسح المنطقة من خلال منظاره، عندما تلقت إصابة مباشرة واشتعلت فيها النيران. لبعض الوقت، قامت بقية الدبابات بنوع من التحركات التلقائية، بالرجوع إلى الخلف والتقدم إلى الأمام، في محاولة لتجنب الصواريخ وقذائف الهاون. كان العدوّ في مكان ما قريب، ولكن لا يمكن رؤيته، ولا يطلق النار مباشرة، ولكن من الأجنحة – أو من الخلف! بمشاهدة النيران الحمراء وهي تلعق درع الدبابات التي لا تبعد سوى ثلاثين متراً (33 يارداً)، وتمنع التقدم، تمّ إيقاف محاولة الإنقاذ. مع ذلك، تلاشى الأمل بوصول من ينجدهم نهائيّاً. أصبح على مقاتلي الغلوستر من الآن فصاعداً أن يعتمدوا على أنفسهم فقط.

قامت سرية (بي) بقيادة الرائد هاردينغ بتنفيذ الأوامر وصمدت طالما كانت لديها ذخيرة وكان بوسع رجالها الصمود. حطمت الانفجارات كلّ مكان حولهم، وغطتهم بالدخان الخانق والغبار الناعم؛ وكانت معجزة أن يتمكن أيّ شخص موجود في الخنادق المكشوفة من النجاة. أمر الرائد هاردينغ جندي المخابرة في سريته بإقامة اتصال مع مقرّ قيادة الكتيبة لكنه لم يتلقّ جواباً. إمّا أنّه كان على التردد الخاطئ، أو أن الموجودين في المقرّ لقوا حتفهم.

أصدر هاردينغ أوامره (يجب الحفاظ على الذخيرة، واختيار الأهداف

بعناية)، اندفعت سبع موجات متتالية من الصينيين عددهم بحجم أفراد كتيبة نحو مواضع السرية (بي). بدا المكان من حولهم يتشظّى حيث أطلقت مدافع الهاون الصينية قذائفها في وقت واحد وكانت تسقط بالقرب منهم. رمى الانفجار بالرقيب الرائد للسرية جون مورتون بعيداً. انفجرت قذيفة وراءه. وجد مورتون نفسه في حالة ذهول، كانت بندقيته مرمية على بعد أمتار قليلة. انتشرت بقعة مبللة بالدم في سترته الحربية. عندما بدأ يزحف وجسمه منخفض نحو بندقيته، شعر أن الدم يتدفق من جرح في جنبه. التقط سلاحه ودفع بجسده مستنداً على ركبتيه. كان الجندي الذي بجواره مصاباً. ثم أصيب جندي آخر ثم آخر... كان أحد أفراد فصيله الأصلي، والذي أصابته الشظايا، يشق طريقه نحوهم. كان الجميع غير قادرين على تقديم المساعدة. ارتمى أحد جنود المدفع الرشاش من طراز برن على بندقيته، وكانت هناك فتحة كبيرة في ظهره. فيما حاول جندي آخر تحريك جسمه مستعيناً بسلاحه، كان يكافح من أجل البقاء، في حين كانت الدماء تتدفق من حلقه. بدأ هذا الجندي يبصق الدم ثم فقد الوعي.

«هيّا، تحدث معي»، توسل إلى رفيقه، وهو يمسك بذراعيه، مثل الأب الذي يعتني بطفله. «كيف تجرؤ أن تموت وأنت في حضني. أنت عائد إلى الوطن، أيها الولد المحظوظ».

قال الرائد: «لم يعد يوجد الكثير مما يمكننا القيام به هنا». عندما انضمت السرية «بي» بقيادة الرائد هاردينغ أخيراً إلى بقية الموجودين في التل رقم 235، كانت تتألف من خمسة عشر جنديّاً وبحوزتها أربع رصاصات. كتب بريج: «لم يكن بإمكان أحد سوى مقاتلي الغلوستر أن يفعل ذلك». هذا ما كتبه البريغادير توم برودي في تقريره، بعد أن تمّ منحه الإذن بالانسحاب. ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان. كان طريق الخروج من الممر الضيق مغلقاً. كان أفضل ما يمكن أن يفعله برودي لمساعدتهم على النجاة من القوات التي تطوقهم هو طلب المزيد من عمليات القصف الجوي. في الوقت نفسه، أمر القادة الصينيون بإشراك العديد من

الكتائب في المعركة. كان القصد من ذلك إطلاق رصاصة الرحمة على آخر المدافعين عن التل.

كان الصينيون، يتعاملون مع تل الغلوستر كأنّه مغناطيس. ربما يتجاوزونه إلى اليسار وإلى اليمين، لكن غايتهم كانت الاستيلاء عليه! بدؤوا بقصف قمة التل بمدافع الهاون.كان الرائد بوس قائد الجوق الموسيقي يستلقي في خندق لم يكن عميقاً. سقطت القنبلة الأولى على بعد مئة يارد، والثانية على بعد خمسين. ففكّر قائلاً: «القادمة ستقع فوقنا بالضبط». سمع الانفجار لكنه لم يره. نظر ليكتشف ما موجود أمام متراسه ليرى حفرة سوداء وتساءل كيف أمكن للقذيفة أن تتخطاه. ثم حدث المزيد من الانفجارات وتناثرت الشظايا فوق الصخور المكومة أمامه. فجأة توقف مدفع الهاون. أقلق الصمت الرقيب بوس بقدر ما أقلقه القصف. لأنّه كان يشير إلى أنّهم «كانوا قادمين». ثم تطلع نحو الآخرين الذين كانوا في مكان قريب.

«هيّا، اقتلهم. اقتل هؤلاء الأوغاد». زمجر غاضباً.

بمجرد أن علم الكولونيل كارن أنّه لن يتمّ تقديم أيّ مساعدة، كان عليه أن يتخذ قراراً. هل ينتظر النهاية؟ هل يقوم بالهجوم المضاد قبل أن يصلوا إلى القنبلة الأخيرة والرصاصة الأخيرة؟ كان يعلم أن الموقف كان يتغير في أسفل التل بشكل سريع. كانت القضية مجرد مسألة وقت. تمّ إضعاف دفاعاتهم وكانت الذخيرة تنفد. أثناء الهجوم التالي، أو الهجوم الذي يليه، سيتمّ اجتياحهم. كان الاختراق في ظلّ هذه الظروف مستحيلاً. مهما كانت النتيجة مثيرة، فقد كان هو الذي أعطى الأمر بالصمود؛ كان هو من يخاطر بحياة رجاله، وسوف يعاني من عواقب ذلك. وكان ذلك فقط ما يميز القائد. أصبح الوضع حول القمة ميئوساً منه، ولا نفع منه. وبحلول الساعة 10:30 صباحاً، كان الصينيون قد اخترقوا المنطقة الشمالية الغربية وكانوا على بعد حوالي مئة يارد من القمة. التقط اللفتنانت كولونيل «فريد كارني» بندقية جندي ميت، وعلق عدة قنابل يدوية في حزامه ثم جمع

بعض الجنود الذين لا يزالون يستطيعون المشي، وكذلك طهاة متنوعين ورجال مدافع هاون من البطارية 170، والذين تخلصوا من ماسوراتها حالما نفدت منهم القذائف التي يرمونها على العدوّ.

توجه كارني بالسؤال إلى الرقيب الوحيد الذي بقي على قيد الحياة قائلاً: «كيف هو حال رجالك؟»، وهو يقوم بتسليح المجموعة التي تمّ تجميعها على عجل بكل ما أمكنه أن يجده من قطع سلاح.

«محبطين وغاضبين سيدي».

«الغضب ليس شيئاً سيئاً أبداً». ثم التفت إلى مجموعته الصغيرة. «هل أنتم مستعدون؟».

جاءه ردّهم: «نعم سيدي!».

«حسناً. دعونا نذهب!». في تلك اللحظة كانوا يسمعون هدير طائرة نفاثة فوقهم. ورغم أن مجموعة من قنابل النابالم انفجرت على بعد مئة يارد منهم، إلّا أن كارني ومجموعته التي تمّ تجميعها على عجل شعروا كما لو أنّهم كانوا في وسط بركان هائج. وقف كارني منتصباً وصاح قائلاً: «يا مقاتلي الغلوستر تقدموا إلى الأمام!» علا الصراخ، وسارع الجنود واجتازوا الحاجز، وتقدموا عبر الخنادق، وفوق التلال الترابية والجثث. ركضوا إلى الأسفل، يصرخون ويصيحون، امتزجت أصواتهم البدائية مع أشد عبارات الإهانة والشتائم قسوة. سقطوا، ثم نهضوا، ثم سقطوا مرة أخرى، وانزلقت أقدامهم وتدحرجوا إلى أسفل التل وأفرغوا صناديق عتادهم.

جمد الصينيون في أماكنهم مذهولين جرّاء الهجوم المفاجئ الذي شنّه عدوّهم الذي اعتقدوا أنّهم قد تخلصوا منه إلى الأبد. كانت هاوناتهم تصدر نباحاً أجوف. كانت أصوات شظايا القنابل التي تمرّ من أمامهم تشبه أصوات الدبابير الغاضبة. عندما وصلهم صفير القذائف، ارتمى مقاتلو الغلوسترز داخل أقرب حفرة وانبطحوا في قاعها، ووجوههم متجهة نحو الأرض. قُتل اثنان أثناء محاولتهما الخروج من الحفرة،

وأصيب ثالث بجروح. واصل رجال كارني الجري في المنحدر المليء بالصخور. وسرعان ما بدأ يخطر على بالهم أنّه يمكن تمزيقهم إلى أشلاء في أية لحظة. لقد أصبحوا قريبين من العدوّ وكانوا في منتصف الطريق عندما فتح النار عليهم مدفع رشاش للعدوّ من تلة أخرى، مرّت من أمامهم إطلاقة العدوّ وهي تصفر. وكما لو كانوا في حلم، استمروا في الجري والصراخ وإطلاق النار ورمي القنابل اليدوية. نجحت غارتهم المجنونة هذه في دفع الصينيين لترك الجزء العلوي من النتوء الصخري. وحاول الصينيون الهجوم لأكثر من ثلاث مرات وبالقدر نفسه قاد كارني «فريقه المجنون» في مطاردة انتحارية وتمكنوا من طرد الأعداء خارج «تلّهم»... حتى نفد منهم الرصاص والقنابل اليدوية. نظر كارن بابتسامة ساخرة إلى النقيب هارفي من السرية «دي»، الذي كان يتبع قائده العقيد:

«أعتقد أنّه يتعيّن علينا الآن ترك المكان، مايك».

كان النقيب توني فارار-هوكلي، مساعد العقيد، قد غادر موضعه؛ مع انتهاء عمر بطاريات جهاز اللاسلكي الخاص به، وانشغال قائده في قيادة هجوم يشبه هجوم اللواء الخفيف (هجوم شهدته حرب القرم، قامت به قوات الفرسان البريطانية الخفيفة بقيادة اللورد كارديغان ضد القوات الروسية وشهد بسالة وشجاعة الجنود البريطانيين - م)، لم يكن هناك سبب آخر له للانتظار عند المقرّ الرئيس والتحديق في جهاز لاسلكي انتهى عمره. لقد تولى مسؤولية من بقي من أفراد السرية «أي» المثيرين للشفقة. كان الصينيون يقتربون منه، وهم ينفخون أبواقهم اللعينة. لقد كره تلك الضجة. وكان ذلك هو الشيء الذي أراد صبّ جام غضبه عليه. كانت أصواتهم تزعجه كثيراً.

صاح قائلاً: «يا رئيس الجوق الموسيقي!». جاءه صوت خشن لرقيب يقف عند أعلى القمة:

«نعم سيدي!» التقط رئيس الجوق الموسيقي فيليب بوس بندقيته، وقفز على قدميه ونزل المنحدر. مسرعاً:

«هل لديك بوق أيها، الرقيب؟».

«نعم سيدي!».

«إذن، انفخ به، يا رئيس الجوق، انفخ!» أطاع الرقيب بوس الأمر بلا تردد. وباعتباره موسيقار الكتيبة، فإنّه لم يستطع أيضاً تحمل ضجيج الصينيين. لم تكن تلك الأصوات نداءات بالبوق، بل كانت مجرد أصوات مزعجة وصاخبة. لم يستطع أخذ شهيق على أكمل وجه، فقد كان جاثماً في خندق، لذا، قفز إلى أعلى الساتر، وأخذ نفساً عميقاً، وبدأت تصدح النغمات الأولى من «نداء إيقاظ الجنود» عبر التل. كان ردّ الفعل عليها لا يصدق. فعلى امتداد خنادق القتال، فرح الجنود الذين كانوا يشعرون بالضيق بما فعله الرقيب بوس، الذي وقف مباعداً بين ساقيه وقد رفع بوقه إلى شفتيه. في الدقائق التالية، انفتحت أبواب الشهرة أمام رئيس الجوق الموسيقي[10] قام فيليب بوس بعزف لحني أغنية (المطبخ) و(بدلة الضابط في حفل العشاء). وأنهى حفله الموسيقي بكل إتقان بعزف أغنية «الرسالة الأخيرة».

كان الصباح بارداً. زحفت لسعة البرد إلى أجساد المقاتلين من خلال بدلاتهم العسكرية. بدا التل مروعاً. كان المنحدر المؤدي إلى مواضع الغلوسترز مفروشاً بسجادة من الموتى الصينيين؛ وبنادقهم موجهة نحو السماء بشكل عشوائي، تمسك بها أيدٍ مجمدة. لم تعد الجثث التي مزقتها القنابل اليدوية تشير إلى أنّها كانت تعود لبشر بأية صورة، ولكن ماذا عن الأشياء الباقية، ماذا أصبحت؟ كان الخندق على حاله. تناثرت فيه صناديق الذخيرة الفارغة وأغلفة الخراطيش الفارغة؛ إضافة إلى جثث، وقطع من الجثث تناثرت على أكياس الرمل. وكانت هناك جثث متيبسة في مرابض المدافع الرشاشة. أصبحت حركة الناجين بطيئة وثقيلة، كما لو أن الوقت قد تباطأ؛ شعر الجميع بأن حياتهم كلّها قد تركزت في هذه اللحظة من الزمن. والآن انتهى الأمر؛ في هذا الصمت المفاجئ، كان هناك الكثير من الأشخاص الذين يجب تضميدهم أو دفنهم، ولم يعد أحد يأخذ حساباً لشيء.

10- تستذكر لوحة زيتية في متحف فوج غلوسترشير هذا الحدث الفريد.

صدر أنين من أحد الجنود: «إني اتألم!» كان يستلقي على ظهره، وصدره يرتفع وينخفض بشكل متقطع. وجلس آخر في صمت، ممسكاً بوجهه المشوه قبل أن يقع مجدداً ليرقد بلا حراك. وكان هناك آخر، يئنّ، ويتقلب من جانب إلى آخر، ويضغط بقبضته على صدغه. وأكثر من ذلك، فإنّ جنديّاً شابّاً، كان نصف جسمه يتدلى من الموضع، يتضرع إلى الله أو أيّ شخص يسمعه، كان جنبه الأيسر مشوَّهاً بالكامل وتغطيه قطع كثيفة من الدم المتخثر. كانت كلّ نبضة من قلبه تضخ المزيد من الدماء. جلس رجل بهدوء، محاولاً كتابة رسالة لزوجته: «يا حلوتي، أنا متعب للغاية ولا أستطيع الكتابة...».

خاطب العقيد كارن قادة سريته: «اذهبوا وابحثوا عن طريق هروب خاص بكم، وادعوا من الله أن يهديكم من خلاله». تركوا وراءهم المصابين من جنودهم، وكانوا يعولون على التزام الصينيين بالأخلاق العسكرية لإبقائهم على قيد الحياة.[11] عرض الضابط الطبي هيكي، والأب سام ديفيز البقاء معهم. كان النقيب هارفي هو الرجل الأخير الذي انطلق مع واحد وثمانين رجلاً... عندما وصل أخيراً إلى خطوط قتال الجيش الأمريكي، كان سجله الخاص بعدد المقاتلين يشير إلى وجود خمسة ضباط وواحد وأربعين جنديّاً.[12]

ثم هدرت أصوات المدافع الصينية للمرة الأخيرة. سقطت قذائفها فوق آخر مئتي مقاتل كانوا عند التل. وعندما توقف إطلاق النار، كان تل الغلوستر مليئاً تماماً بالصينيين.

في منتصف صباح يوم 25 نيسان 1951، كان يلفّ التل صمت متجمد. كان من بقي من الكتيبة الأولى لفوج صاحب الجلالة الثامن والعشرين للمشاة، من الغلوسترز، يمشي متثاقلاً أسفل التل الذي أصبح محرقة

11- اعتبر الصينيون أكثر إنسانية في معاملة الأسرى من رفاقهم الكوريين.
12- بلغت الخسائر التي تكبدها اللواء التاسع والعشرون لقوات الصدمة في جيش الشعب الصيني الثالث والستين 11 ألف قتيل.

جنازتهم المقدسة. لقد صمدوا في التل مدة ثلاثة أيام. هل حدث ذلك بالأمس أم في الشهر الماضي؟ ليس بإمكانهم أن يتذكروا، لقد حدث الكثير. لقد تعبوا بشدة. غطى صمت الموت الوادي والتلال التي وراءه. كانوا يتجهون الآن نحو الأسر. كان يسير في المقدمة الليفتنانت كولونيل «فريد كارني»، الذي سيكتب في قرار منحه وسام صليب فيكتوريا ما يلي: «لقد أظهر قدرته على القيادة التي نادراً ما كانت بهذه البراعة في تاريخ جيشنا».

قدم مقاتلو الغلوستر البواسل نموذجاً لروح المقاومة. فكانوا يؤدون أيّ مهمة تطلب منهم بكل إتقان وبكل فخر. لقد عاشوا معاً، وبكوا معاً، وتعلموا الاعتماد بعضهم على بعض. صمدوا وقاتلوا وماتوا. خلال ثلاثة أيام لا تنسى من صمودهم على نهر إيمجين في نيسان 1951، منحوا بقية قوات الأمم المتحدة الوقت لتحشيد قواها. لم يرجع من مقاتلي الغلوستر، سوى قلة منهم. من بين 622 رجلاً مقاتلاً قارعوا الجيش الصيني، وصل ستة وأربعون شخصاً إلى برّ الأمان. أمّا من بقي فمنهم من سقط ميتاً، أو عانى أشهراً طويلة في الأسر.

وأظهر أفراد الكتيبة (أي) شجاعة روحية، وقوة جسدية ومهارة قتالية لا مثيل لها. لم تكن أفعالهم الفردية البطولية بحاجة إلى تزويق؛ فهي تتحدث عن نفسها. كان جميع الغلوستر البواسل، أبطالاً.

كان الحافز الذي يحثّ الغلوسترز على القتال هو الثبات، مدعوماً بـ «متلازمة الصمود الدائم». عرف الضباط أنّهم يمكنهم الاعتماد على ثبات رجالهم الهادئ وقدرتهم على الاستمرارية في إطلاق النار بشكل ممتاز. لكن القوة النارية وحدها لم تكن كافية بحدّ ذاتها. تطلب الأمر وجود قيادة بارعة لضمان صمود المدافعين. سواء كان السبب هو الثبات أم لا، لم يكن بإمكان اللفتنانت كولونيل كارني أن يقود مدافعين استمروا إلى النهاية دون الشعور المتأصل بالواجب عند هؤلاء الورثة الشرعيين لتقاليد وثبات جنود المشاة البريطانيين. بمجرد أن طُلِب من الغلوسترز

الثبات في مواضعهم لأجل إنقاذ خط المواجهة لقوات الحلفاء بكامله من الانهيار، فإنّهم صمدوا، وضحّوا بأرواحهم الغالية. ولأن المآثر التي حققتها أعمال البطولة الفردية كانت لا تعد ولا تحصى، سيكون من الصعب تمييز واحدة منها.

حرب الهند الصينية، 8 أيّار 1954

جينيفيف دو غالاردو، ملاك معركة ديان بيان فو

«إن معركة ديان بيان فو تمثل رمزاً لكفاح العالم الحرّ ضد العالم الشمولي. على شبابنا اليوم أن يقدروا عالياً شجاعة هؤلاء الرجال الشجعان الذين قاتلوا وضحّوا بأنفسهم من أجل مبادئهم».

• جينيفيف دو غالاردو كانون الثاني 2002

لقد كان الجحيم بعينه. سقطت القذائف على شكل مجاميع عنقودية. رنّ جرس الهاتف في جناح الإسعافات الأولية: هناك ثمانية جرحى، زادوا إلى اثني عشر، ثم أصبحوا فجأة أربعين؛ توقفوا عن العدّ عندما تجاوز عددهم المئة. كان طابور طويل من ضحايا يسير في الخندق المفتوح المؤدي إلى النفق. لم يكن هناك مساحة أكبر داخل الملجأ الذي تحت الأرض. كانوا يتمددون في كلّ مكان، عشرون في غرفة التخزين، أربعة في غرفة الاتصال اللاسلكي الصغيرة؛ كان من بينهم جنديّ اصطبغ وجهه بالسواد من أثر البارود وتمزقت ساقه، وكان الدم يتدفق من جذعه. استلقى بجانبه جندي آخر مصاب بجرح عميق في المعدة. لم يتحرك لأنّه كان قد مات بالفعل. ارتفعت من نقالة أخرى ذراع أحد الجنود، وهو يقوم

بإشارات في الهواء. ودائماً كان هناك المزيد من إطلاق النار من السماء والمزيد من النداءات لحاملي النقالات والمزيد من الطلبات على بلازما الدم والمورفين وعقاقير السلفا. علا الضجيج الحادّ لصوت القذائف المتفجرة فتلاشت صراخات نداءات المساعدة، وأنات الألم المبرح، والصدمة والخوف.

عبّر فو سائق سيارة الإسعاف وأحد «سكان البلاد الأصليين» الذي فقد جزءاً من ذراعه اليمنى عن مشاعره وهو يخاطب الممرضة: «آنستي أنا خائف كثيراً...». كانت الممرضة على يقين من أنّه في أيّ لحظة سوف تخترق السقف إحدى القذائف من عيار 122 ملم وتسقط وسط عنبر المستشفى. وحينها ينتهي كلّ شيء، الألم والمعاناة. لم يكن لديها وقت للقلق. كانت مهمتها هي طمأنة الجرحى وليس طمأنة نفسها. سارت بجانب نقالة يرقد فيها رجل فقد ساقيه، ثم قفزت فوق المزيد من الجرحى، الذين تمّ وضعهم بشكل عشوائي في عنبر المستشفى وعلى طول الخندق الطويل المؤدي إلى الأسفل. كان هناك الكثير من الضحايا وكان يتمّ إحضار المزيد منهم في كلّ دقيقة. وبات الطاقم الطبي يشعر بالإرهاق، حتى إن العريف الطبي سيوني المعروف بصلابته أخبرها قبل ساعة: «لم يعد بإمكاني الوقوف على قدميّ».

شعرت أيضاً بخدر شديد لدرجة أنّها لم تعد قادرة على شم الرائحة النتنة للبول والبراز الممزوجة برائحة العرق الناجم عن الخوف. وقفت بالقرب من الرقيب موريت، وهو رجل شجاع، وكان قد أصابته رصاصة في بطنه، كان في واجب الحراسة وأطلق الرصاصة تلو الأخرى حتى استطاع طرد العدوّ، وكانت لديه فرصة أن يعيش. أما الجندي الجزائري مختار فقد كان أقل حظّاً. مزقت الشظايا أمعاءه وكان غارقاً في دمه.

«أيتها الآنسة، الماء...» لم يكن بإمكانها أن تسمح له بشرب الماء؛ سوف يقتله. على أيّ حال، ما الفرق الذي سيحدثه، الآن، أو خلال ساعة. كانت القنابل تنفجر في سماء المنطقة طوال الوقت. فجأة ساد الصمت.

كان العدوّ قد تلاشى في الظلام. خيّم صمت أيضاً في المستشفى الموجود تحت الأرض. كان من فيه من المصابين إمّا نائم أو ميت.

عندما استيقظ الناس صباح يوم الثامن من أيّار 1954، رأوا صورة عداء مسافات متوسطة تتصدر الصفحات الأولى من صحفهم:

تحقيق معجزة في ألعاب القوى

العداء روجر بانستر يقطع مسافة ميل واحد في وقت قياسي:

3 دقائق و4:59 ثانية!

عند أسفل الصفحة الأولى، كان هناك خبر عن شنّ قوات الفيت مين (اتحاد استقلال فيتنام والذي كان يمثل المقاومة الفيتنامية للحكم الفرنسي في الحرب الهندوصينية الفرنسية - م) هجوماً على حصن محاصر في أدغال الهند الصينية الفرنسية يحمل اسماً غير مألوف هو ديان بيان فو. لم يدرك إلّا القليلون أن السقوط الوشيك لهذا المعقل الاستعماري الفرنسي سيؤدي إلى نشوب أطول حرب في القرن العشرين، حرب استمرت 8000 يوم، وتسببت في مقتل ملايين الأشخاص - بمن فيهم 55000 من الجنود الأمريكيين - وستعيد رسم الخارطة السياسية في جنوب شرق آسيا.

خلفت الحرب الكورية في أعقابها أوهاماً مبعثرة وتصعيداً في الأزمة بين الشرق والغرب، ولكنها أدّت أيضاً إلى تصاعد التوتر بين الصين والاتحاد السوفيتي؛ خلق كفاحهم من أجل فرض الهيمنة الشيوعية تحديات سياسية جديدة لمن يريد إحراز التفوق في المنطقة الآسيوية. أدّى تحليل الدروس العسكرية والآثار السياسية للحرب الكورية إلى تقييم الإخفاقات الاستراتيجية، ودور التسلح المتطور والقدرة القتالية للقوات المسلحة، وأن الخوض في تحليل الدور الذي اضطلعت به الصين الشيوعية عندما تسببت عن عمد في اندلاع جولة من القتال في

هذا الجزء الحساس من العالم، يثير الكثير من الأسئلة حول الحرب المستقبلية في جنوب شرق آسيا.

بعد انتهاء الحرب الكورية، تلقى زعيم حركة تحرير الهند الصينية، هو تشي مينه وقائده العسكري الجنرال نغوين جياب، أطناناً من العتاد الحربي الصيني الذي لم يعد مطلوباً على الجبهة في كوريا. والأهم من ذلك أن «العامل البشري» قد دخل في اللعبة.

وتماماً مثل البريطانيين، الذين لم يستخلصوا العبر أبداً أثناء حرب البوير، قلّل الفرنسيون كثيراً من شأن «أعدائهم حفاة الأقدام». كان الجنرال نافار، قائد القوات الفرنسية في الهند الصينية، رجلاً ينظر إلى جيش الفلاحين الذي كان يقوده الرئيس هوشي منه والجنرال جياب بازدراء تام. من المعروف أن حركة المقاومة الفيتنامية كانت قد عانت قبل عامين من ذلك التاريخ من نكسة حادة أثناء قتالها الفرنسيين. لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً. تمّ تصميم الوضع الراهن للعلاقة بين الشمال والجنوب في أعقاب الحرب الكورية. بالنسبة للمخططين الشيوعيين الآسيويين، فإنّ الهند الصينية كانت البقعة المتأزمة المثالية لإزعاج القوى الغربية. مع وضع ذلك في الاعتبار، تلقى هوشي منه دعماً ضمنيّاً من كلّ من الكرملين وبكين. لقد علّمت النكسة العسكرية السابقة قادة حركة المقاومة الفيتنامية درساً ثميناً؛ فقد انسحبوا من المدن التي كانت تسيطر عليها حاميات فرنسية قوية، واختفوا في الأدغال الموجودة على طول المنطقة الحدودية. وكانت تمثلها المنطقة الواقعة على طول الحدود مع لاوس.

قد يُغفر للخبراء الذين يبحثون في أسباب فشل المنظومات العسكرية اعتقادهم أنّه بعد حربين عالميتين كارثيتين، أن تعود هناك حالة فشل يمكن التعلم منها. ولكن حدثت مثل هذه الحالة. وكانت من نصيب الفرنسيين، في حصن ديان بيان فو، وهو مكان غامض يقع في المنطقة التي كانت تسمى حينها في الهند الصينية الفرنسية. تمّ تشييد هذا الحصن عند التقاطع

الحدودي بين لاوس وفيتنام. وكان أمراً منطقيّاً من الناحية السياسية. فقد كانت فرنسا تريد إحكام السيطرة على إمبراطوريتها الاستعمارية، بما في ذلك لاوس. ولكن من الناحية العسكرية كان ذلك ضرباً من الجنون. كان الحصن يقع في أسوأ مكان يمكن تخيله، كان المكان عبارة عن وعاء من حقول الأرز المحاطة بالتلال الحرجية الكثيفة. عندما تمطر السماء كان الوعاء يغرق بالمياه، وعندما لا تمطر كانت أشعة الشمس الاستوائية تشوي رؤوس السكان الأصليين. لهذا السبب كانوا يرتدون دائماً قبعات القش المخروطية. كانت خطة الاستراتيجيين الفرنسيين تقوم على قطع الطريق إلى لوانغ برابانغ عاصمة لاوس وحرمان الشيوعيين الفيتناميين من إمداداتهم من الأرز. لسوء الحظ، تجاهل مخططوهم حكمة محلية تقول: «محاولة قطع الطريق في بلد يسير فيه الفلاحون حفاة من حول حاجز الطريق، هي فكرة أوروبية».

في 20 تشرين الثاني 1953، أطلقت القيادة العليا الفرنسية «عملية كاستور» والتي تتضمن إنزال كتيبتين من قوات المظليين الاستعماريين الفرنسيين (الفقرات) فوق الحقول المحيطة بقرية حدودية صغيرة غير معروفة تدعى، ديان بيان فو، من أجل إنشاء قاعدة محصنة على طول الحدود اللاوسية وحرمان قوات هوشي منه والجنرال جياب من خط الإمداد الحيوي القادم من الصين عبر لاوس. عند اختيار الموقع، لم يتخيل الفرنسيون أبداً أن أيّ شخص يمكنه اختراق تلك الأدغال البرية، ويمكنه على الأقل أن يحتل التلال المحيطة بالقاعدة؛ وكان على الجنرال نغوين جياب أن يبرهن على خطئهم. لقد حقق ما اعتبره الفرنسيون مستحيلاً. قام بنقل أربع فرق كاملة بالإضافة إلى جميع المعدات الثقيلة الخاصة بها من خلال تلك الأدغال العديمة الطرق. في مساء يوم 12 آذار 1954، أكمل عمليته تلك.

واجه ما مجموعه 48 ألف فيتنامي 12 ألف جندي فرنسي. لم يكونوا يمتلكون مجرد تفوق عددي في الرجال فحسب. بل كان الفرق الرئيس

في المدفعية. قام جيش الجنرال جياب الذي يشبه النمل البشري، وهم «الفلاحون الحفاة الأقدام» الذين كان الضباط الفرنسيون يتجاهلونهم تماماً، بتفكيك المدافع ثم نقلوها قطعة بعد أخرى عبر الأدغال على الدراجات الهوائية! عمل الجنرال جياب أثناء الليل لتأمين المحافظة على سرية العملية، من خلال نصب ثمانين مدفع هاوتزر من عيار 105 ملم وعشرين مدفع هاون ثقيل من عيار 122 ملم على المرتفعات التي تطل مباشرة على ديان بيان فو!

في الليلة التي سبقت قيام جياب بضربته، وصل إلى مقرّ القيادة الفرنسية أحد أفراد قبيلة تسكن التلال، وكان حافي القدمين ومسلحاً برمح، وهو يهذي بصوت مرتفع. لم يكن لدى الضباط الفرنسيين أدنى فكرة عما كان يحاول الرجل إخبارهم به، لكنه لم يعجب قائدهم العقيد. بحلول الوقت الذي وجد فيه مترجماً، كان قد فات الأوان. وقع الهجوم على الفرنسيين بشكل مفاجئ تماماً. لدرجة أنّه في 13 آذار، وهو اليوم الذي بدأ فيه الفيتناميون بصب وابل من النيران المدمرة، قام قائد المدفعية الفرنسية، الذي ادعى دائماً بأنّه «سيمسح الفيتناميين من على وجه الأرض بمدافعه الثقيلة»، بسحب دبوس قنبلة يدوية ووضعها على صدره. كانت الطريقة التي توفي بها طيّ الكتمان وأقيمت له جنازة أبطال.

في أعقاب سلسلة من الهجمات الانتحارية، التي بلغت ذروتها في التغلب على النقاط الفرنسية النائية القوية، نقل الفيتناميون أسلحتهم إلى مكان أقرب وبالتالي تمكنوا من جعل الحامية ومهبطي الطائرات ذات المشابك المعدنية في مرمى نيرانهم بشكل مباشر. وفي تذكير بمعركة فردان 1916، حولت مدافع الجنرال جياب القلعة المحصنة إلى مفرمة لحم. كلّ يوم، كان الخناق يضيق أكثر فأكثر حول المدافعين. في غضون أيام، لم يعد بإمكان الفرنسيين الدخول والخروج من الوادي، ولم يكن لدى سلاح الجوّ الفرنسي ما يلزم لدعم القلعة المحاصرة؛ كانت البنية التحتية في كلّ من الطائرات ومدارج الهبوط غير كافية

ببساطة للتعامل مع عملية من هذا النطاق. جاءت هذه الحقيقة بمثابة صدمة شديدة لقيادتهم العليا مما اضطرهم في النهاية أن يطلبوا من الأمريكان مساعدتهم.

«هذه ليست حربنا، دعونا لا نتورط في نزاع في قارة آسيا»، كانت تلك نصيحة الجنرال ريدغواي، الذي تعلم عدة دروس من الحرب الكورية. أخذ الرئيس دوايت أيزنهاور بنصيحة الجنرال ورفض تقديم المساعدة العسكرية الأمريكية.

كانت أسباب الفشل الفرنسي كثيرة، لكن الأكثر وضوحاً فيها هو تقليلهم المستمر من إمكانات العدوّ. كان العامل الرئيس الذي يصب في صالح الفيتناميين هو قدرتهم على التحرك في جميع أنحاء الأدغال بأكبر قدر من السهولة. وبينما كان الدبلوماسيون يمرّرون المذكرات عبر الطاولات المغطاة بالقماش، كان الآلاف من المدافعين ينتظرون من ينقذهم؛ ومع ذلك، فقد فعلوا كلّ ما في وسعهم لإطالة أمد بقائهم وانتظار «يوم الخلاص الموعود» من خلال القيام بمآثر بطولية رائعة، وكانت إحداها امرأة.

ولدت هذه المرأة وسط الحقول الخضراء الجذابة في جنوب غرب فرنسا، الأرض التي عاش فيها دارتانيان وسيرانو دي برجراك ومثلها مثل هذين البطلين العظيمين، كانت هي أيضاً ابنة لإحدى عوائل النبلاء القديمة، التي يرجع تاريخها إلى عصر جان دارك. انقطعت دراستها في مدرسة كاثوليكية خاصة في باريس فجأة بسبب الحرب العالمية الثانية وانتقلت أسرتها من باريس إلى تولوز. بعد أن شهدت ويلات الحرب، نمت لدى الفتاة رغبة في أن تهبّ لمساعدة المحتاجين، وبدلاً من الزواج من شخص من طبقة النبلاء وتصبح عشيقته العلنية وتسكن في قصر فخم، اجتازت امتحان الدولة لتصبح ممرضة. تقرر مصيرها في اليوم الذي التقت فيه بصديق المدرسة الذي أخبرها عن وجود إعلان للحاجة

إلى «ممرضات الطيران في القوات الجوية الفرنسية»[1] أو كما كان يطلق عليهن: الممرضات المحمولات جوّاً. منحت اللقب الرسمي برتبة ملازم أول، ودمجت المعرفة الطبية الشاملة مع التدريب الشامل على الطيران، بما في ذلك كيفية التعامل مع المصابين بجروح خطيرة في الطائرات التي لا تحوي مقصورة ركاب مكيفة الضغط. اجتازت جينيفيف دو غالاردو الاختبار وطلب منها الذهاب إلى الهند الصينية. لماذا الهند الصينية؟ «لأنّه كانت هناك حرب تخوضها فرنسا ويمكن أن أكون أكثر فائدة للمساعدة في معاناة الجنود».

عند وصول جينيفيف دو غالاردو إلى الهند الصينية في 7 أيّار 1953، كان مقرّ عملها في هانوي وكانت تتنقل كونها ممرضة طيران ما بين مدينة بليكو وهانوي، لإجلاء ضحايا العملية العسكرية التي قام بها الجيش الفرنسي في المرتفعات الجبلية الوسطى في فيتنام وعرفت باسم «عملية أتلانتيد». كانت المرة الأولى التي سافرت فيها إلى ديان بيان فو في 20 كانون الثاني 1954. ومنذ ذلك الحين، أصبح الذهاب إلى ديان بيان فو عملاً روتينيّاً لها. في البداية كان السبب الرئيس هو إجلاء المصابين بحالات الزحار أو الكوليرا. ولكن بعد ذلك تحول كلّ شيء نحو الأسوأ. بعد ثلاثة أيام من القتال المميت في المعاقل النائية حول ديان بيان فو (بين 13 و15 آذار)، لم يعد كلّ شيء كما كان. قامت جحافل الجنرال جياب بتحييد المواقع ووضع معسكر القاعدة الرئيس تحت القصف المباشر بمدافعه الكثيفة. استمرت الخسائر الفرنسية في التصاعد في كلّ ساعة.

في 17 آذار، تمكنت طائرة من طراز DC-3 مطلية باللون الأبيض، تحمل صليباً أحمر كبيراً على جسمها، من الهبوط في مهبط الطائرات في ديان بيان فو، حيث قامت بتفريغ حمولتها من الأدوية والضمادات، وقامت بنقل 32 مصاباً على متنها. لم يكن العدد 32 يمثل شيئاً يذكر مقارنة

1- نشأت مهنة ممرضات الطيران في الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية، وكانت هناك مدرسة لممرضات الطيران في الولايات المتحدة الأمريكية.

بعدد الإصابات الإجمالية، لكنه على الأقل يمثل بداية عملية الإخلاء الطبي. وبينما كان الجرحى لا يزالون مكدسين في الجزء الخلفي من الطائرة فتحت المدفعية الفيتنامية نيرانها عليها وبدأت القذائف تتساقط بالقرب من مهبط الطائرات. أسرع الطيار في تشغيل المحركات وواجه صعوبة في رفع الطائرة ذات الذيل الثقيل فوق الأسلاك الشائكة المحيطة كان يحلق بشكل منخفض جدّاً إلى درجة أن الأسلاك الشائكة مزقت عجلات ذيله، تمكنت طائرتان أخريان من الهبوط في 18 آذار، تعرضت كلاهما لنيران المدفعية الثقيلة، حيث أصابت الشظايا ممرضاً كان على متن الطائرة.

في 19 آذار، تطوعت جينيفيف دو غالاردو لمرافقة رحلة طيران داخلية كان الغرض منها المساعدة في إخلاء المزيد من المصابين بجروح خطيرة. تولت مهام زملائها الذين قاموا بالرحلة ذهاباً وإياباً في اليوم السابق. ولأول مرة، يتقرر إجراء هذه العملية ليلاً. وكان طيارها قائد قاعدة جيا لام الجوية، العقيد ديسكافيس، وبصحبته جينيفيف دو غالاردو باعتبارها ممرضة الطيران في الطائرة. كانا يعلمان أن هناك ما لا يقل عن 400 ضحية في انتظار الإخلاء. وكانا يأملان في إخلاء أربعين منهم. كان من المفترض أن تتمّ رحلتهم وسط ظلام دامس، وسيتمّ إرشادهم في مهبط الطائرات الذي يحوي حاجزاً حديديّاً وثلاثة مصابيح كهربائية، اثنان عند نقطة الهبوط ليبينا لهم مقدار عرض المهبط، وواحد في النهاية للتأكد من توقف الطائرة في الوقت المناسب. ولغرض التغطية على ضجيج الطائرة عند اقترابها، تمّ استخدام طائرة ثانية لتحلق من حولها. كان الجزء الحساس من العملية هو الهبوط؛ كان على الطيار أن يفصل المحركين التوأمين عند الاقتراب، ويطير فعليّاً كطائرة شراعية على مدى المئة متر الأخيرة ليهبط بالمركبة الثقيلة إلى المدرج. مع الأخذ بالاعتبار أن مثل هذه العملية لو نجحت، ستضيف دليلاً جديداً على مهارة الطيارين الفرنسيين.

تلقت جينيفيف الدعوة في وقت متأخر من المساء؛ التقطت زجاجة

الأكسجين الخاصة بها ومجموعة الأدوات الطبية، وأسرعت بها سيارة عسكرية إلى مطار جيا لام حيث كانت الطائرة، وهي من طراز C-47، وتمثل النسخة العسكرية لطائرة DC-3 «داكوتا»، جاهزة للإقلاع. صعدت على متن الطائرة وأقلعت بها.

أخبرها العقيد ديسكافيس: «لدينا ثلاث دقائق على الأرض فقط، ولا ثانية زيادة، ثم ننطلق. لذا، تأكدي من أن كلّ شيء جاهز». كان الهبوط كابوساً بالنسبة للطيار، ولكنه كان أكثر من ذلك بالنسبة لأولئك «الذين يجلسون في الجزء الخلفي منها». على الأقل كان يمكن للطيار أن يرى من نافذته، لكن أولئك الموجودين في الجزء الخلفي المغلق[2] ليس لديهم أيّ فكرة عن مكانهم، أو ما الذي يجري حولهم. كان الأمر مثل ركوب مترو الأنفاق من داخل النفق. عندما انفصلت المحركات، كان كلّ الذي تمكنت جينيفيف من سماعه هو عواء الأجنحة وهي تخترق الأجواء. إذا كانت قد احتاجت للدعاء في لحظة ما، فقد كانت تلك هي اللحظة. كان الارتداد الذي حصل وصوت القعقعة الذي صدر عند حاجز الهبوط هي الدلائل التي أكدت لها أخيراً هبوطها بأمان.

ولكن تلك لم تكن الصدمة الوحيدة لها في تلك الليلة.

(عندما رأيت المسعفين الذين رافقوا الجرحى، واكتشفت الحالة التي كانوا فيها، لم يحلقوا لحاهم، وقد رسم الإرهاق خطوطه على وجوههم بشكل عميق، شعرت كما لو أنني لم أهبط على الأرض بل نزلت بدلاً من ذلك إلى الجحيم. بالطبع، كان هذا مجرد أول انطباع لي، وكنت سأرى ما هو أسوأ بكثير).

دفع المسعفون بحماس ونشاط تسعة عشر جريحاً من خلال فتحة الطائرة. ثلاثة عشر من الضحايا كانوا يسيرون على الأقدام، وتمّ نقل ستة منهم على نقالات.[3] استغرق الأمر دقيقتين فقط، ولكن حتى

2- لم تكن هناك نوافذ في طائرة الشحن من النسخة العسكرية لطائرة سي. 47.

3- كانت جينيفيف دو غالاردو تحتفظ بمذكرات مفصلة عن الوقائع التي شهدتها.

تلك الدقيقتان كانتا وقتاً طويلاً. بينما كانوا على وشك أن يقلّوا آخر الضحايا، اكتشف راصدو مدفعية الفيتناميين وجودهم وبدأت المدافع تقصف مهبط الطائرات. أقلعت طائرتهم وأمر العقيد ديسكاف طائرتي إخلاء أخريين، كانت تحوم في سماء المنطقة، بالعودة إلى هانوي دون محاولة الهبوط. استغرق قطع المسار البالغ طوله 340 ميلاً (544 كم) من هانوي إلى ديان بيان فو ومن ثم العودة به ساعتين ونصف الساعة. على مدار الأسبوع التالي، كانت هناك طائرة أو طائرتان تغامران بدخول المعسكر المحاصر كلّ ليلة. في ليلة 26 آذار، كانت هناك رحلة قامت بها ثلاث طائرات. حلّقت واحدة وهبطت اثنتان. أقلعت الطائرتان تحملان الحدّ الأدنى من الحمولة كما اضطر الطيارون إلى اختصار إقامتهم على الأرض بالنظر إلى كثافة النيران التي كان يتلقونها. وحدث في الليلة التالية المزيد من تلك الأحداث. كانت طائرتان من نوع داكوتا قد هبطتا بالفعل وانطلقتا مع حمولتهما من الجرحى؛ لذلك، لم يتوقع الطاقم الأرضي وجود طائرة ثالثة. لذلك عندما هبطت طائرة الإخلاء التي كانت جينيفيف فيها، لم تكن هناك سيارات إسعاف تنتظر بالقرب من مدرج الهبوط.

ماذا حدث؟ أين كان الخطأ؟ ظلّ الأشخاص الذين كان سيتمّ إجلاؤهم ينتظرون لساعات في الملجأ الأساسي، حينها وصلت برقية تقول: «الطائرات في الطريق». عادة، كان هذا التحذير يصل قبل ثلاثين دقيقة من بدء عملية التحميل، وجاء هذه المرة قبل ثلاث دقائق. أسرعت أربع سيارات إسعاف إلى مهبط الطائرات، وهي تقفز ما بين حفرة وأخرى. ويذكر أحد الطيارين: «كنت أتساءل متى سيقوم هؤلاء الفرسان الجويون بمخاطرة أكبر، عند الهبوط دون أضواء في الليل أو الوصول إلى هدف مثالي أثناء النهار؟».

أجاب الملازم المرافق: «اسأل الطيارين». في تلك الليلة، لم يقوموا بالمزيد من الطلعات. كانت الومضات التي اجتاحت الجبال علامة أكيدة

على وجود مشكلة وشيكة الحدوث. لم تتمكن الطائرة من الانتظار. قام الطيار بجعل الطائرة تتأرجح وأقلع بها والقذائف تنفجر من حوله. لم يرَ الرجال في سيارة الإسعاف التي كانت تتقافز سوى نيران العادم في الطائرة التي كانت تختفي بسرعة.

نظرت جينيفيف من الباب الذي كان لا يزال مفتوحاً. (في تلك اللحظة رأيت سيارات الإسعاف تتجه نحونا، ولكن بعد فوات الأوان إذ كانت الطائرة في الجوّ. شعرت بالرعب الشديد، حيث تركت ورائي كلّ أولئك الذين كانوا يأملون في الخلاص من الجحيم.ولذلك سيتعرض العديد منهم للإهانة، خاصة أولئك الذين لا يمكن تشغيلهم في المعسكر. بسبب هذا الحادث، طلبت من قائد الفريق أن يدرج اسمي في الرحلة التالية، وهي رحلة برهنت أنّها ستحدد مصيري).

كان لا بدّ من إيجاد حلّ، لأن رجال المدفعية الفيتنامية تجاهلوا علامة الصليب الأحمر الكبيرة المرسومة على جسم الطائرة وكانوا يطلقون النار على اللوحة البيضاء لطائرة دي. سي. ثري. أس. ذهب الدكتور بول غراوين، المسؤول عن صالة العمليات الجراحية في المستشفى الميداني، مع الأب هاينريش، لرؤية العقيد دي كاستريس.

«سيدي العقيد، لا يمكننا إخلاء عدد كاف من المصابين».

سأله العقيد: «كم عدد الناس الذين يمكن أن نخليهم ليلاً؟».

«ليس بالعدد الكافي. في النهاية، يعتمد كلّ شيء على العديد من العوامل، رباطة جأش الطيار، وسرعة حاملي النقالات، ووقت ردّ فعل رجال المدفعية الفيتنامية. في الليلة الماضية لم يكن المنظر لطيفاً. كانت الطائرة تقلع بالفعل عندما ركض خلفها عدد قليل من الجرحى ممن يستطيعون السير، وقد تشبثوا بالباب المفتوح ليتمّ سحبهم إلى داخلها».

«حسناً...». قال الطبيب وهو يتنهد بعمق. «يجب أن نفتح محطة للإسعافات الأولية تبعد بمنتصف المسافة عن نقطة إيزابيل المحصنة الموجودة وفي السهل الواقع خارج محيط العمليات القتالية. وهي نوع

من الأرض المحايدة حيث يمكن لكل من رجالنا والجرحى الفيتناميين الحضور للعلاج».

فكر العقيد دي كاستريس للحظة وقال: «ليس بالفكرة السيئة، فقد تحل مشكلة كبيرة. سأنقلها إلى هانوي. لكنني أشك في أن الفيتناميين سوف يقبلونها. لا يبدو أن الجنرال جياب يهتمّ بالجنود الذين يخسرهم».

«إنهم يطلقون النار على طائراتنا التي تحمل علامة الصليب الأحمر».

يدّعي العم هو شي منه أن الطائرة داكوتا تقوم بإحضار الذخيرة. بالنسبة لهم، فإنّهم يبحثون عن أيّ عذر مناسب ليتجاهلوا اتفاقية جنيف.

في صباح يوم 29 آذار. أقلعت طائرة من طراز سي. 47 بقيادة الطيار بلانشيت، بصحبة ميكانيكي الطيارة شوفين والممرضة جينيفيف دو غالاردو، قبل الساعة 05:00. كان قد فات الأوان لإكمال الرحلة ذهاباً وإياباً في الظلام، لكن المشاكل الفنية أدّت إلى تأخير الإقلاع. كان من المتوقع هبوطها في ديان بيان فو في تمام الساعة 06:15. كان الهبوط في مثل هذا الوقت المتأخر، قبل الفجر، يحمل مخاطر قاتلة. كان الضباب الكثيف منذ أسابيع، ويوميّاً قبل شروق الشمس بقليل، يغطي المكان، مما تسبب في إخفاء المدرج. خلال مراحل الاستعداد للهبوط، قام الطيار بمحاولتين عديمتي الجدوى للهبوط بالطائرة، ولكن بسبب الضباب الكثيف الذي تزامن مع وجود مصباحي هبوط إضاءتهم قليلة لم يتمكن من الرؤية بشكل جيد وكان يخشى أنّه لن يصطف بشكل صحيح لأجل أن يتمكن من الهبوط. حاول للمرة الثالثة والأخيرة. كان عليهم النزول، وقد اعتمد الكثير من المصابين عليهم! وحينها وقع الحادث. هبطت الطائرة، واصطدمت بالشرائط المعدنية، ولكن مجازفة الطيار بالهبوط بدون أن يتمكن من الرؤية بوضوح جعلته يقترب من العقدة التي تشابكت فيها الأسلاك الشائكة المخصصة لحماية حافة المدرج.

سمعت جينيفيف صوت صدع حاد، نظراً لأن أحد القضبان التي تحمل عقدة الأسلاك الشائكة قد حطمه المحرك الأيسر. اضطروا إلى

التوقف وقد سبق للجنود أن قاموا بدفع الطائرة إلى موقع الإقلاع. لم يكن لديهم أيّ فكرة عن خطورة الأضرار، حتى ألقى ميكانيكي الطائرة نظرة، وبينما كان المصابون يصعدون إلى داخل الطائرة. أعلن الميكانيكي: أن وعاء الزيت تالف، ومؤشر ضغط الزيت وصل إلى الصفر، وكان الاستنتاج الذي توصل إليه شوفين الميكانيكي: «سوف يستغرق الأمر ساعتين على الأقل لإصلاحه». ولم يكن لديه ساعتان؛ سوف يأتي ضوء النهار في غضون عشرين دقيقة.

نادى بلانشيت قائد الطائرة على جينيفيف قائلاً: «أخرجوا الجرحى من الطائرة وأعيدوهم إلى سيارات الإسعاف».

«لكننا لا نستطيع...» حاولت الاحتجاج.

هزّ الطيار رأسه: «لا يمكنني الإقلاع بالطائرة بمحرك محرك واحد».

ثم هزّ كتفه قائلاً: «أنا آسف، ولكننا عالقون».

ما كان يمكن أن يكون قد تمّ إصلاحه خلال الليل، وفات الأوان عليه بسبب الإقلاع المتأخر، أصبح الآن غير وارد. كانت الشمس على وشك الشروق، وسوف تبدد حرارتها الضباب بسرعة، ولن يستطيعوا تعريض حياة الميكانيكي الذي يقوم بإصلاح الطائرة للخطر كونها ستكون على مرأى من مدفعية الفيتناميين. تمّ دفع الطائرة المدمرة إلى حافة المدرج. في الساعة 10:30، استهدفت المدفعية الفيتنامية الطائرة البيضاء التي تحمل علامة الصليب الأحمر الكبيرة على جانبها، وكانت رابضة مثل البطة الميتة بجانب الميدان. أصابت القذيفة الثالثة الجناح، وانفجر وقود الطيران لتشع في السماء ومضة برتقالية اللون وترتفع أعمدة دخان سوداء كبيرة فوق ديان بيان فو. في هذه المرة، حرص الفيتناميون على ضرب المدرج: سقطت قذائف هاون عيار 122 ملم على المدرج، مما أدّى إلى تقطيع أوصال الشبكة المعدنية وجعلها غير صالحة للاستعمال في المستقبل. وهذا يمثل نهاية أيّ محاولة أخرى لإجلاء المزيد من المصابين.

مع تدمير مهبط الطائرات، أصبحت القاعدة الجوية منقطعة تماماً عن العالم الخارجي. لم يعد بإمكان أحد الدخول أو الخروج منها. كان كلّ شيء يعتمد على توفر إمدادات جوية فعالة ومستدامة. كلّ احتياجات القاعدة، التي يبلغ عدد سكانها عشرة آلاف رجل، وكلّ قذيفة، ورغيف خبز ودواء، وكلّ غالون من مياه الشرب، كان يجب نقلها إلى هناك ثم الهبوط بها بواسطة الإنزال الجوي. قللت ندرة الطائرات المقاتلة وظروف الأرصاد الجوية السيئة بشكل كبير من كفاءة استهداف طائرات الإنزال الجوي في مناطق الهبوط، وخاصة في مواجهة وابل قاتل من النيران المضادة للطائرات. بسبب القنابل المضادة للطائرات التي كان يستخدمها الفيتناميون، كان على طائرات سي. 47 تفريغ حمولاتها من على ارتفاع يتراوح بين 6000 إلى 9000 قدم (1800 إلى 2700 متر)، باستخدام فتيل تأخير يعمل بتقانة نارية لفتح المظلات، وبالتالي ضمان أن الذخائر والمواد الغذائية ستسقط في محيط دائرة كان يصغر أكثر فأكثر. بسبب الرياح السائدة، انجرف أكثر من نصف الإمدادات التي أنزلت بالمظلات وفقدت لأنّها كانت تسقط أمام قطعات العدوّ. كان هناك عائق آخر يكمن في الازدحام الجوي فوق منطقة الهبوط التي كانت تتقلص بسرعة، حيث كانت الطائرات تحلق وتدور في جميع الاتجاهات. تمكنت بعض الطائرات من طراز سي. 119 من الطيران على ارتفاعات منخفضة وحصلت على «انخفاض آمن نسبيّاً»، لكن سعة حمولتها كانت أقلّ بكثير من تلك التي حملتها الطائرة داكوتا. كانت هناك مشكلة أخرى واجهت المدافعين تمثلت في الحفاظ على العتاد في موسم الأمطار. لقد جعلت كثافة الطين من حركة الشاحنات أمراً مستحيلاً وكان يجب حمل كلّ شيء على ظهور الرجال المنهكين بسبب معاركهم اليومية. أضف إلى ذلك أن آخر مناطق الهبوط العامة قد سقطت في يد العدوّ، أو أصبحت تحت نيران مدفعيته المباشرة. كانت مناطق الهبوط الوحيدة المستخدمة هي المواضع الدفاعية المحصنة التي كانت لا تزال في أيدي الفرنسيين.

وفي النهاية شمل ذلك حتى عملية الإنزال الجوّي التي أصبحت عملياً مستحيلة وتوقف جسر الإمداد الجوي عن العمل تماماً. في ذلك اليوم تمّ تقرير المصير النهائي للرجال الذين كانوا يقاتلون على الأرض.

منذ 29 مارس، وهي الليلة التي هبطت فيها طائرة الرحلة الأخيرة إلى ديان بيان فو على المدرج، أضيف شخصان جديدان لمن كانوا فيها: أحدهما كان قائد الطائرة داكوتا، الطيار بلانشيت وكان الآخر هي مرافقته ممرضة الطيران، جينيفيف دو غالاردو. تحولت المرافقة الجوية إلى ممرضة وتوجهت من المطار إلى المستشفى العسكري الذي يديره الطبيب بول غرووا، من أجل تقديم خدماتها فيه؛ كان ذلك هو المكان الوحيد الذي يمكن أن تقدم فيه المساعدة ممرضة الطيران التي أصبحت عالقة.

«دكتور غرووا، حيث يبدو أنني سأبقى لفترة من الوقت، فإنّني أضع نفسي تحت تصرفكم بالكامل».

من المؤكد أن غرووا يمكنه أن يستخدم ممرضة مدربة، لكنه لم يكن متأكداً مما إذا كان بإمكانها النجاح؛ لم يكن في المستشفى أناس مصابون بكسور في الساقين، كانت فيه إصابات لبطون مثقوبة وأذرع مشوهة. كان المكان يشبه المسلخ أكثر من كونه مستشفى ميدانيّاً، حيث كانت المعاناة كبيرة؛ كان يتمّ إحضار الرجال كلّ ساعة وهم مصابون بأكثر الجروح فظاعة ثم يموتون مثل الذباب. قرّر كبير الجراحين إجراء اختبار الصدمة: لقد وضع جينيفيف في جناح مع عشرات من أسوأ الضحايا، رجال يعانون من جروح كبيرة في البطن لا يُتوقع منهم البقاء على قيد الحياة[4]، وكانت الأرض قد غمرتها دماء آخر الضحايا.

كان مستشفى القاعدة عبارة عن متاهة مربكة من الأنفاق ومساحات لتخزين المستلزمات الطبية وغرفة لمعالجة المصابين وإجراء العمليات

4- راجع: Dr Paul Grauwin, J'etais Médecin à Dien Bien Phu, Paris, 1992

الجراحية وأجنحة للجرحى. عندما دخلت جينيفيف لأول مرة إلى النفق الطويل، الذي كانت تضيئه مصابيح عارية، خنقتها الرائحة الكريهة للعرق البشري والبراز ومادة الإيثر المخدرة. جلست على الأرض المليئة بالدماء بجانب مصاب يعاني من جرح شديد وأمسكت بيده. وإلى جانبه، تمّ وضع كفن فوق رفيق له ميت. لم تخرج سوى ذراعه من تحت الكفن. كانت هناك في ذراعه ساعة يد لا تزال تدق. كان المشهد كلّه جزءاً من الجحيم كما وصفه دانتي، لكنها صمدت أمام الاختبار راقبها الدكتور غوروا من المدخل وكتب عنها:

عهدت إليها بأسوأ الحالات الممكنة؛ في ملجأ صغير، كان هناك عشرة مصابين بجروح في بطونهم المكشوفة، متكومين فوق بعضهم على النقالات. لم تكن هناك مساحة كافية ليتحركوا فيما بينهم. غطت الضمادات بطونهم، وكانت هذه الضمادات تحتاج إلى التغيير مرتين كلّ يوم. وكانوا يحتاجون إلى المراقبة المستمرة وإعطاء الحقن. كانوا لا يستطيعون التحرك من دون مساعدة. ولكن الأهم من ذلك كلّه، كانوا بحاجة إلى كلمات لطيفة. وبينما كانت القذائف تتساقط علينا مثل المطر ظللت أراقبها، وقد دهشت من هدوئها. كانت تنتقل من جريح إلى آخر كما لو أنّه لم يكن هناك شيء خاص يحدث. لقد كانت لديها تلك الإيماءة التي تتميز بها، واللطف والتفهم والدقة، ولكن كان لديها شيء آخر: نقاء ونضارة الفتاة الصغيرة.[5]

في الواقع، كان لدى جينيفيف الإيماءة المميزة، واللمسة الرقيقة، والقدرة على الشفاء من خلال تقديم كلمات التشجيع بصوتها الحيوي والشبابي.

«هل تسمح لي أن أعطيك حقنة... أين تريدها، في الساق، في الذراع، آه... ثم شعرت بالخجل. لقد فهمت... هنا، لم تؤلمك، أليس كذلك؟» ويجيبها الجندي، الذي كان ينكمش من الألم، بابتسامة شجاعة. لقد

5. كان الدكتور بول غوروا يشغل منصب رئيس الأطباء.

أدركت أنّها لا تستطيع مساعدة الجميع على البقاء على قيد الحياة، لكنها على الأقل يمكنها مساعدتهم على الموت بسلام.

بمجرد أن رآها الدكتور غوروو وهي منهمكة في العمل، قبل بسرور عرضها. لقد حسم الأمر: جينيفيف دو غالاردو ستصبح مساعدته. لكن حتى هذا الأمر تسبب في مشكلة: كانت جينيفيف دو غالاردو هي المرأة الوحيدة في المعسكر الذي يضم 12 ألف رجل، وقد اعترض مساعده على ذلك. كان لا بدّ من اتخاذ ترتيبات معينة لضمان معاملتها كممرضة، وليس امرأة تتسلّل إلى مجتمع ذكوري بالكامل. قدمها غوروو بكلام وجيز إلى موظفيه: الرقيب ديودون، وعمره أربعة وعشرون عاماً، كان يساعده أثناء العمليات. والرقيب ني دياي، البالغ من العمر 23 عاماً، وهو من السنغال وكان مسؤولاً عن شؤون الرعاية لما بعد العملية الجراحية، كما كان يعتني أيضاً بنظافة المرضى وكذلك نظافة الوسائل البدائية المستخدمة في العلاج. وكان يساعده العريف آبو والعريف لاشامب الذي كان يحتفظ بسجلات عن عدد الضحايا واحتياجاتهم. كان الجندي بيريز طبيب التخدير. والمعقم هو الرقيب كابور، وكان رئيس العرفاء أريبا مسؤولاً عن ثلاثين من العمال المحليين الذين يعملون في مجموعة حاملي النقالات. وكان الحسن الجندي الجزائري البالغ من العمر 19 عاماً، والذي يتمتع بقوة ثور، يستقبل الإصابات القادمة. وكان جولوت مشغل جهاز اللاسلكي. وكان هناك أربعة مساعدين فيتناميين: هوانغ ومينه ومون وبنه، أكبرهم في الثالثة والخمسين وأصغرهم يبلغ سنّه سبعة عشر عاماً. واكتمل الفريق مع الإيطالي، سيوني، والإسباني، كورتيس. وعلى الرغم من أنّهما كانا جنديان لم يحصلا على تدريب طبي، إلّا أنّهما سرعان ما تحولا إلى أشخاص إضافيين ذوي نفع إلى مجموعة الدكتور غوروو.

في الليلة الأولى في الملجأ، حدق المساعدون الطبيون في جينيفيف بعداء صريح. وبدت في بدلة الطيران الخاصة بها، وبلوزة بيضاء مع تنورة زرقاء مع أحذية عادية من المدينة، شخصاً إضافيّاً ليس له جدوى.

كان الحكم الأولي للعريف سيوني... عليها (إنها فتاة بكر) وكان في الواقع يشير إلى افتقارها إلى الخبرة القتالية. «ليس لديها القوة لرفع نقالة. والآن نحن تورطنا معها. أين سنضعها؟ يمكنك أن تتأكد من أنني لن أعطيها نقالتي لتنام عليها...».

ما إن مرّ أسبوع، حتى طلب سيوني ذاته الذي كان يعتبر جينيفيف عديمة الفائدة وحملاً عليهم، أن يكون في خدمتها؛ وأصبح مساعدها الأكثر إخلاصاً. وجد لها جيلوت بنطالاً يناسبها وأعطاها ني دياي قميصاً و«تخلى لها» ليفاسور عن زوج من أحذية كرة السلة. قدم لها رقيب من الفوج الثاني لقوات المظليين معطف تمويه.[6] قدم لها باكوس سريره النقال. أعطاها سيوني ملاءة نظيفة ووسادة ناعمة. أصبح هناك شيء واحد مؤكد: لقد قبلها الجميع عضواً في الفريق.

لم يكن عليها الانتظار لفترة طويلة قبل أن يصبح وجودها شيئاً لا يقدر بثمن. كان يوم 30 آذاريوماً مروعاً. قرّر الجنرال جياب أنّه سيكون اليوم الذي تسقط فيه ديان بيان فو. في الساعة 16:00 بدأ طوفان من النيران يجتاح المعسكر والمواضع الدفاعية المحيطة به. خلال وقت قصير، بدأ المستشفى يستقبل المئات من الجرحى، خاصة أولئك الذين تمكنوا من النجاة من الهجوم على الموضع الدفاعي دومينيك الذي اجتاحته بعد دفاع بطولي، حشود من الفيتناميين. وفي مذبحة لا توصف، أطلق رجال المدفعية الأفارقة بقيادة الملازم برونبروك نيران مدافعهم من عيار 105 ملم على العدوّ المتقدم. كانوا يقومون بحشو القذائف وإطلاقها، الواحدة تلو الأخرى، حتى أصبحت ماسورات المدافع متوهجة بسبب سخونتها.

صرخ الملازم «برونبروك»عندما صمت أحد مدافعه: «أطلق النار، اللعنة عليك».

احتج رئيس جنود صنف المدفعية: «إنه ساخن جدّاً».

6- يشير المؤلف إلى وجود صورتها في الكتاب.

«إذن، قم بالتبول عليه ليبرد». صاح الملازم: «لكن يجب أن يستمر إطلاق النار!».

هجم عليهم جنود العدوّ وتحولت المعركة إلى ملحمة في الاشتباك بالأيدي. جرجر الناجون أنفسهم إلى المستشفى وانتهى بهم المطاف في جناح جينيفيف. توفي الملازم برونبروك في 13 نيسان، بعد أن تلقى الطقوس الأخيرة قبل الموت على يد الأب ترينكواند «ليغفر لك الله...».

كان اليوم الذي أعقب الهجوم الذي وقع في 30 آذار تجربة مروعة لجنيفيف. كان الضحايا يصلون ورؤوسهم تنزف وبطونهم مفتوحة. معظم الوقت كان الجرحى يتمايلون وهم على حافة أن يفقدوا الوعي. كان أمراً فظيعاً. كانت هناك أكوام من الأطراف مرمية في أحد الصناديق. لا أحد يعرف إلى من تعود تلك الساق المحطمة ولمن كانت تلك الذراع المبتورة من تحت المرفق؟ عمل فريق من الجراحين ليلاً ونهاراً وهم يقومون بعمليات ترقيع وبتر وتنظيف وضماد للمصابين وإعطائهم عقاقير السلفا. طوال سنوات عمرها الثماني والعشرين، لم تتخيل جنيفيف أبداً أن شيئاً كهذا قد يحدث. كان هناك مصابون يستلقون على طول الممرات تحت الأرض، في انتظار ترقيع أطرافهم أو بترها، يعانون ويئنّون ويحتضرون. لم تكن هناك مواساة، ولا نظافة، وكانت الجروح عرضة للتلوث. كان ينبغي أن يكون هناك الكثير من الوفيات. لكن كيف نجوا كانت تلك معجزة من الطبيعة – وبالتأكيد كانت تلك هي المعجزة الوحيدة في حفرة الجحيم هذه.

من كان يعرفها جيداً كان يصفها بالقول: «لم تكن تتكلم بصوت مرتفع ولا تتعامل بفظاظة مع الآخرين، كما لم تكن ذات بنية ضخمة وغير مغرورة. على النقيض من ذلك، كان كلّ شيء فيها يقطر عذوبة مثل وجه السيدة العذراء». حتى في ملابسها الفضفاضة، كانت جينيفيف فتاة جميلة ذات شعر كستنائي قصير وأنف معقوف قليلاً. كان يظهر الألم في عينيها بسبب اضطرارها لرؤية معاناة العديد من المصابين في الأجنحة

والخنادق والتي كانت تفيض بهم. كان التعب مرسوماً على جميع تقاطيع وجهها؛ كان جسدها يترنح فتبدو وكأنّها على وشك السقوط. ومع هذا ظلّت تركع بجانب الجرحى لترعاهم، تبلل شفاههم بزجاجات الماء وتفحص نبضهم. كان أحد الجنود صغار السن في حالة صدمة، لكنه كان شابّاً وبمظهر متعافٍ بدرجة كافية تمكنه من الخروج من هذا المكان. لقد خدمته بأفضل ما تستطيع، ونظفت جروحه، ولفت ضمادة على جرحه لإيقاف تدفق الدم. وفي وقت لاحق، عندما لم يكن هناك من يراها، كان جسدها يهتز وتنهمر الدموع على وجهها. لقد قضت الكثير من الوقت في رعاية الجرحى ومشاهدتهم يعانون. لقد رعتهم ورأتهم يموتون. كيف أمكنها أن تستبدل تلك الحياة المطمئنة التي عرضت عليها في المنزل لتقوم بواجب مقدس تجاه بني البشر.

بعد بضعة أيام من وجودها في المستشفى، سألت غرووا: «أيها القائد، أين المصابين الآخرين؟».

«إنهم موجودون في كلّ مكان، بعضهم في المقرّ الرئيس، والبعض الآخر في الفوج الثاني لقوات المظليين».

«هل يمكنني زيارتهم؟».

«ألا تعلمين أن الفيتناميين يقصفوننا؟ ماذا لو أصابتك قذيفة في رأسك؟».

«أوه، بالله عليك، لكني لدي خوذتي...» لم يكن هناك شيء يمكن أن يمنعها.

«أيتها الآنسة من أنت؟ ممرضة؟ لا أصدق. يجب عليك أن تأتي لزيارتنا مرات عديدة...» بعد تلك الكلمات، أصبحت زياراتها تحدث يومياً؛ كان المصابون المنتشرون في جميع أنحاء القاعدة ينتظرون بشوق زيارتها، لثقتهم بها وليستمعوا منها إلى كلمات تريحهم. كتم الدكتور غرووا في سره ابتسامة سعيدة. فكان مرضاه يعتمدون بالدرجة الثانية من بعد أفراد فريقه الطبي على جينيفيف. أعطاها العقيد لانغلايس علب

سجائر لتوزعها على المصابين. انتشرت حكاية «الممرضة المعجزة» في جميع أنحاء القاعدة، كانت تأتيها الدعوات لزيارة خنادق وحدات عسكرية لم يكن فيها مصابون. ادّعى الكثيرون فيما بعد أن الكلمات الرقيقة التي كانت تصدر من هذه الفتاة القوية هي التي زرعت فيهم الأمل وجعلتهم يجتازون محنهم. وسرعان ما أصبحت معروفة باسم جديد - ملاك الأمل.

خلال أيام القصف العنيف، كانت إحدى المشكلات الرئيسة التي تعين عليها مواجهتها هي النظافة الشخصية، وبما أنّه لا توجد طريقة للذهاب إلى المرحاض الخارجي خلال النهار، فقد تسبب ذلك في حدوث مشكلة. بالنسبة للرجال، لم تكن هذه مشكلة عويصة؛ كان هناك ما يكفي من زجاجات الدواء الفارغة والتي يملؤونها بفضلاتهم، ولكن بالنسبة لها، كان الأمر مختلفاً. كان يجب أن تقضي حاجتها في الخارج، وكان لا يتمّ ذلك إلّا تحت جنح الظلام.

«بالطبع، كان هناك دائماً خطر التعرض للقصف. ولكن لتلبية بعض الاحتياجات التي نشعر بها جميعاً، اضطررت إلى الخروج. لذلك اضطررت إلى الانتظار حتى حلول الظلام الذي لم يكن أمراً بسيطاً دائماً». خلال الأيام القليلة الأولى، كانت تنام على نقالة وسط المصابين، وتبقى مستيقظة طوال الليل بسبب أنينهم. ثم، ذات يوم، اكتشفت حجيرة صغيرة في جدار الكهف، مغطاة بمظلة هبوط (باراشوت). لقد حفرها الرجال خصيصاً لها لغرض «راحتها الشخصية». ومنذ تلك اللحظة، أصبحت وكأنّها تعيش في بيتها، الذي زينته بصليب خشبي بسيط. بعد عدة ليال، بدأ يهرب منها النوم لأن التفكير في جرحاها كان يستولي عليها. كانت تخلط بين الأحلام والفترات التي تكون فيها نصف مستيقظة. ثم كانت تلتفت إلى الصليب وتصلي إلى الرب. أدعوك يا إلهي، أن تجعل هذه المذبحة تنتهي. ليرحمنا الله.

قام الملازم شوفالييه بتغطية عملية إجلاء رجاله من خندق موضع

دفاعي عبر أحد الأنفاق، وكان يتصرف مثل هوراتيوس كوكليز(بطل من أبطال أيام روما الأولى، دافعَ بمفرده ضد دخول جيش بورسنا في عام 507 قبل الميلاد عند مدخل جسر سوبليكو، بينما قام أصحابه بتحطيم الجسر من ورائه لمنع الجيش الغازي من التقدم نحو روما. ولما تحطم الجسر، قام بإلقاء نفسه في النهر بكامل سلاحه، ودخل روما سليماً معافى- م). أبقى نفق الهروب مفتوحاً حتى يتمكن من معرفة وقت دخول الفيتناميين من خلال سماع أصواتهم. وحينها يفجره. اتجهت بعض الانفجارات نحوه وأصيب بجرح في عنقه. اخترقت الشظايا جزءاً من عموده الفقري وتركته مشلولاً. سحبه اثنان من رجاله إلى الخلف. وصل وهو يعاني من ألم شديد. جربت الممرضة جينيفييف جميع أنواع المسكنات معه: مثل البروميثازين، والدولوسال، والمورفين، والسيدول والغاردينال. لم ينفعه أيّ منها. كانت حياة شوفالييه تضمحل ببطء. كانت جينيفييف تجلس بجانبه مرتين كلّ يوم، تقوم بإطعامه ملعقة صغيرة من الحساء في كلّ مرة.

قال لها في إحدى لحظات صفائه: «لقد قربت نهايتي، وأنا أعلم ذلك». «بارك الله فيك». لقد عاش ستة أيام أخرى. ومات في الساعة الأخيرة من الليل، قبل أن يأتي الصباح. مات بصعوبة ولم يستطع أحد مساعدته. ظلّ ماسكاً بيد جينيفيف، لكنه لم يعد يعلم أنّها كانت معه.

ثم قال لها أحدهم: «لقد مات».

أجابت الممرضة الفرنسية «كلّا، لم يمت بعد. لا يزال يمسك بيدي».

...

اسمعوا جميعاً يا من تعيشون في أمان

القصة المحزنة عن لغز باريس...

كانت تلك الأغنية هي آخر ما سمعه الرجال في الموضع الدفاعي دومينيك من برنامج تمّ بثّه على راديو هيروندیل من هانوي، بقصد تقديم

التحية للجنود. حدث ذلك قبل لحظات من وصول الفرقة 306 من القوات الفيتنامية.

تصاعدت الأصوات في أرض المعركة: «انزلوا... أين القنابل اليدوية! أطلقوا النار على الجناح... لقد حلّ الليل». في البداية، صدر صوت دويّ القذائف الذي يمزق الأذن، ثم تعالت ألسنة اللهب الأبيض والأصفر القصيرة، تلاها انفجار الهواء الساخن، ثم لاحت بعض أضواء المظلات لتبثّ الرعب بضوئها الأزرق الباهت. ثم تبعتها صرخات الجرحى.

«أيها المسعفون!... ساعدوني، أنا أنزف...

... لقد أطلقوا النار على بطني أيها المسعف.

لا تدعني أموت...».

«انسحب إلى أعلى الخندق... اصطحب الجريح معك...» لقد سحبوا رفاقهم من ذراعهم أو ساقهم أو زحفوا على بطونهم نحوهم.

«استند على رأسي»، ثم زحفا مع أمتعتهما وهما يجران أذيال الخيبة إلى برّ الأمان.

تلقى «مدير المستشفى الطبي» مكالمة من أحد مواقع دومينيك الأمامية التي تعرضت لهجوم بقذائف الهاون والمدافع الرشاشة، «لديّ حالة كسر مضاعف لأحد الجنود. ماذا يجب عليَّ أن أفعل؟».

«سأرسل مجموعة من حاملي النقالات».

«لا، لا يمكن نقله».

«صف لنا إصابته».

«لديه تهشم في عضلات الفخذ، وكسر في الظنبوب (العظم الأكبر في الساق تحت الركبة) ولديه قطع في الشرايين».

«يجب عليك بترها».

«ماذا؟» صاح ذلك الشخص مذعوراً. تمّ تدريب الملازم كوربينو على إطلاق النار على الأعداء، وليس بتر سيقان جنوده.

«سأرسل لك شخصاً يقوم بذلك». وقد وفى الدكتور غرووا بوعده. وأرسل الرقيب الطبي فلوري.

عندما وصل فلوري صاح الملازم كوربينو وسط أصوات انفجار القذائف: «لقد ربطنا له عاصبة لوقف نزيف الدم» كان الجندي الشاب يعاني من ألم شديد.

قال فلوري: «ضعه في ذلك الخندق، وانتقل إلى حاملي النقالة. دعنا نلقي نظرة». قام بإزالة العاصبة فتدفق الدم بغزارة: «يا صديقي المسكين، لا تفعل شيئاً، إن ساقك مبتورة بالفعل. سأقوم ببساطة بتشذيب منطقة الساق».

«ليذهب إلى الجحيم، واصل عملك، يا دكتور». تمّ إجراء عملية للرجل في الخندق المكشوف، حيث كان يسمع المزيد من أزيز القذائف في سماء المنطقة. نجا الرجل بأعجوبة، وتوفي الرقيب فلوري، الذي واجه الرصاص بشجاعة من أجل تنفيذ العملية.

كانت جينيفيف امرأة تتميز بالعناد والصلابة وذات دهاء وحزم، من نوع الأشخاص الذين يرفضون الاستسلام والظهور بمظهر العاجز. عندما نفدت من الدكتور غرووا أكياس الدم المحفوظة لعمليات نقل الدم، وجدت متبرعين. عندما احتاج أحد المصابين المحمولين على نقالة قضاء حاجته، وجدت له زجاجة فارغة. كانت تمثل دور الأم والأخت والملاك وقد اجتمعن معاً في امرأة واحدة.

قالت ذات مرة: «بالنسبة لي، كان أصعب ما في الأمر هو تحمل معاناة الآخرين». وكانت مهمتها الرئيسة هي «وقف تدفق الدم»،[7] التي تشمل الإبطاء المصطنع لسرعة نبض الدم لدى المصاب ليساعده على التغلب على صدمته الأولية، والتي تعقب جميع الإصابات بإطلاق الرصاص. كان يتمّ تحقيق ذلك عن طريق إعطاء المصابين مزيجاً من دوائي الفينيرغان والدولوسال، وهي أدوية قوية تساعد على تخفيض نبض القلب ووضع

7- تمّ اختراع طريقة وقف تدفق الدم على يد البروفيسور لابوريه.

المريض في حالة من «حياة بطيئة الحركة». يغطّ بعدها المريض في النوم. ولا يعود يعاني، وتمنع تأثير الصدمة الخطير الذي تجلبه الإصابة المفاجئة. ولإجل إعطائهم الجرعة، كان عليها الركوع بجوار النقالة، وغالباً يكون ذلك في الوحل، وتحقن المصابين بالدواء على ضوء مصباح يدوي مثبت بأزرار على بدلتها الملطخة بالدماء والطين.

وقد أثنى عليها الفريق بيجار، قائد قوات المظليين بشكل كبير: «أريدك أن تعرفي أنك تحظين بتقدير كبير من قبل رجالي، حتى بين الكثيرين ممن لم يلتقوك مطلقاً، ومن يأملون أن تقابليهم يوماً ما». شجعتها هذه الكلمات كثيراً لدرجة أنّها لم تمانع في إرهاق نفسها لدرجة أنّها كانت تشعر وهي تقف على قدميها وكأنّها نائمة.

بعد كلّ عملية معالجة لمصاب تقوم بها، كان عليها شطف يديها بالكحول قبل الاعتناء بالجذع المكشف لمصاب آخر أجريت له عملية بتر. وتكشط التلوث عن القروح المتقيحة وتعطي الجريح عقار السلفا المخدر. كان من بين مرضاها هاينز هاس، وهو فتى هزيل الجسم وطويل القامة، كان دائماً يمازح الآخرين قبل أن تنفجر قذيفة بالقرب منه. عندما وجدوه كان يرقد وسط بركة من الدماء، في مشهد يرثى له. وقد أدّى الانفجار إلى تمزيق إحدى ذراعيه وانغرزت الشظايا في ساقيه. قام أحد رفاقه بوضع عاصبة على ساقه النازفة وحمله على الظهر إلى نقطة الإخلاء. وضعه المسعف ني دياي على طاولة العمليات. فحص الدكتور غرووا ساقه. كان الشريان الفخذي تالف في حين كان الجندي يفقد الكثير من الدم، ولكن الإصابة لم تصل إلى أيّ عضو حيوي آخر. وقد أصاب ذراعه الأخرى أيضاً جزء كبير من الانفجار وكان شديد التلف إلى درجة أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ حياته كانت في بتر كلا ذراعيه وساقه أو المجازفة بتعريضه لخطر الإصابة بمرض الغرغرينا. كان الرجل غارقاً في الهذيان.

«من فضلك لا تقطعها».

لم يكن لدى غرووا خيار - استناداً إلى الوسائل المتاحة له. قام العريف سيوني بتثبيت الجريح بالأربطة. هيأت جينيفيف مشارط معقمة وضمادات. كانت هذه هي المرة الأولى التي تضطر فيها إلى الوقوف ومشاهدة رجل يفقد أطرافه. سارت العملية بشكل جيد، ولكن بعد ذلك واجهتهم خطورة التلوث، لأن غرووا لم تعد لديه مضادات حيوية كافية لمنع حدوث التهابات في الأطراف المبتورة. لذلك أصبحت مسألة إبقاء الشاب على قيد الحياة بين يديها تماماً عن طريق تغيير الضمادات له مرتين في اليوم، وهي عملية مؤلمة بشكل رهيب، لكل من المريض والممرضة، وهي تراه يعاني. لقد بذل هاس قصارى جهده لإظهار شجاعته لجميع من حوله.

في أحد الأيام، عندما لم يكن القصف شديداً للغاية، توسل إلى جينيفيف قائلاً: «أرجـوكِ ساعديني في الحصول على بعض الهواء النقي». رفعته في وضع مستقيم، ثم وضع جدعة ذراعه المبتورة حول كتفها، ووقف على ساقه السليمة، كان هاس يعرج على طول الخندق إلى أن وصل إلى مخرج الملجأ وقد امتلأت رئتاه بأبخرة مادة الكوردايت والتراب. بالنسبة له، كان هذا هو أقرب مكان صادفه ليستنشق فيه الهواء النظيف منذ أن نقلوه إلى الملجأ.

قال لممرضته: «شكراً لك، هذا أجمل شيء حدث لي على الإطلاق. وعندما ينتهي كلّ هذا، سأدعوك للرقص».[8]

كان هناك جندي آخر أصيب بالشلل بسبب شظايا أصابته في العمود الفقري. في أحد الأيام نادى جينيفيف بحماس: تعالي وانظري! وحينها بدأ يهزّ إصبع قدمه كان عليه أن يشارك شخص ما فرحته، وكانت جينيفيف هي الشخص المناسب لذلك. كان هناك رقيب شاب أصيب بالعمى جرّاء انفجار قذيفة. لقد وجدت له جينيفيف شيئاً ليقوم به ما دام لم يعد بحاجة إلى عينيه - استخدام فمه في عزف الموسيقى. وقد أثبت مهارة فائقة في

8- عاش هاس بعد ذلك وكانت جينيفيف دو غالاردو تقابله بانتظام.

ذلك، وساعدت موسيقاه في تلطيف الأجواء الكئيبة للملجأ وساهمت في أن يستعيد الرجل روحه.

كان هناك أمران يقلقان الدكتور غرووا كثيراً. الأول هو أن القصف المتواصل من المدافع عيار 105 ملم سيؤدي إلى انهيار مستشفاه، والآخر يتعلق بجينيفيف، التي تحولت إلى جزء ثمين من المستشفى لا يمكن الاستغناء عنه، كان قلقاً من أنّها ستُقتل في إحدى زياراتها اليومية إلى مواقع الإغاثة المكشوفة. لم تشعر جينيفيف أبداً بقلق شديد على سلامتها الشخصية؛ كانت تشعر أن الله يقف بجانبها. لم يعد حتى العمل الرتيب البسيط مثل التمشي الآمن في وسط الخندق أمراً سهلاً. كان الخندق المؤدي إلى غرفة العمليات مزدحماً بالنقالات وكان على جينيفيف أن تعبر فوق الكثير من الجرحى للحصول على مساعدة من الدكتور غرووا. كانت الأجنحة مزدحمة إلى أقصى حدّ بالعديد من المصابين بجروح خطيرة. كان البعض يبكي علانية، وحاول آخرون الضحك والمزاح، والبعض الآخر كان يجلس القرفصاء على الأرض، يغمره الألم والحزن. كان الصامتونِ الوحيدون هم أبناء منطقتها، سكان الجبال أولئك الرجال الشجعان ذوو العزيمة الذين قدموا من المنطقة الجبلية الوسطى الذين كانوا يتقدمون للتطوع بانتظام للذهاب إلى أراضي العدوّ لإحضار المعلومات وكانوا أحياناً يعودون من إحدى طلعاتهم وهم يتمايلون من التعب ومصابون بأكثر الجروح فظاعة. ورغم الألم، الذي كان من شأنه أن يجعل الشخص الأوروبي يصل إلى حالة من الجنون والهذيان، إلّا أنّهم صمدوا دون أن تصدر عنهم شكوى أو أنين.

تمّ إحضار شاب أفريقي مصاب بجرح عميق في الصدر. أعطته جينيفيف العديد من الحبوب، لكن الجندي الشاب كان غاضباً ورماها في وجهها. طلبت من أحد الممرضين أن يعطي الرجل حقنة قوية لتخفيض مستوى الحمى لديه؛ وقد ساعدت الحقنة في تهدئته، لكنه كان يصرخ وسط هذيانه ويحاول الاستيقاظ. كان تشخيص الدكتور غرووا لحالته أنّه

سرعان ما سيموت. رفضت جينيفييف الاستسلام. وتناوبت مع الممرض ني دياي بشكل منتظم على الاعتناء به. وقد نجا ذلك الأفريقي.

كما قامت بمساعدة الممرض ني دياي ومجموعة من عمال النظافة في المستشفى الذين معه في تنظيف جناح المستشفى، لجعل المصابين يشعرون بالراحة قدر الإمكان. في البداية، أصاب الرجال الذهول من ظهور أنثى بينهم وقام بعضهم بالصفير. ولكن بعد ذلك ساعدت كلماتها المهدئة على جعل قروحهم وأوجاعهم أقل ألماً. قامت بإعطائهم حقناً منومة، ونظّفت جروحهم، وكانت تقول كلمة لطيفة هنا وتضيف لمستها الأنثوية هناك. كان كثير من المصابين من الفيلق الأجنبي ولم يكونوا يتكلمون الفرنسية. ومع ذلك، فهموا جميعاً ما حاول صوتها الهادئ أن يقوله لهم. كانت دائماً إلى جانبهم، وعندما يحين أجلهم كانت تغلق أعينهم لينعموا بالراحة الأبدية. لا عجب أنّها شعرت أحياناً بأن كلّ ذرة من القوة تستنزف منها؛ ثم كانت لا تفعل سوى أن تقف في وسطهم، وقد زال حماسها، وتبدأ تفكر بحزن شديد، في سبب موت كلّ هؤلاء الشباب الشجعان، ولماذا؟ من أجل شرف البدلة العسكرية والعلم، والذي لم يكن في كثير من الأحيان علم أوطانهم. كلّا، لقد كانت هذه الظاهرة غير المفهومة المتمثلة في الروح الرفاقية الحميمة التي جمعتهم وسط النيران هي الشيء المهم الذي جعلهم يتصرفون كذلك.

كانت واحدة من العديد من المشاكل هي عدم وجود مساحة كافية؛ لقد أسفرت المذبحة الشرسة للقتال بالأيدي في الخنادق عن سقوط عدد غير عادي من الضحايا؛ كانوا بحاجة إلى المزيد من أجنحة العلاج. تمّ حل ذلك مع سقوط الموضع الدفاعي المحصن دومينيك في 30 آذار، والذي جعل موقع الاتصالات اللاسلكية داخل القاعدة دون استخدام. في العادة، كان الدكتور غرووا يعتمد على فلوري لمساعدته في تنظيف الموقع الموجود تحت الأرض، ولكن الرقيب الشجاع فلوري كان قد مات. فقد ذهب لمساعدة رجل كان يعاني من إصابة خطيرة في الساق

وبعد ذلك بقي إلى أن اجتاحت موجات من الفيتناميين الخندق. لم يكن لديه متسع من الوقت سوى لإفراغ مخزني عتاد من مدفع رشاش كان قد أخذه من جندي سقط في المعركة، قبل أن يصاب هو نفسه برصاص مدفع رشاش.

تطوعت جينيفيف بالإضافة إلى جميع واجباتها الأخرى، لتولي وظيفة فلوري بمساعدة بعض الذين كانت إصاباتهم خفيفة، أخذت على عاتقها العمل الضخم المتمثل في إخراج العتاد وطاولات الخرائط من موقع الاتصال اللاسلكي والتي لم تعد هناك حاجة إليها. وفّر الجناح الجديد مساحة لخمسين سريراً. ثم جاء اليوم الذي تعرضت فيه مدافعهم الهاوتزر عيار 155 ملم للقصف فتمّ الاستغناء عن الملجأ الذي كان يحوي عتادها مما وفر لهم مكاناً يستوعب مزيداً من حالات المصابين المحمولين على النقالات. وقد تمّ حينها عزله عن مبنى المستشفى بحيث إن الدكتور غرووا لم يذهب لرؤية ذلك الجناح أبداً، وأصبحت جينيفيف هي مسؤولة التواصل الوحيدة مع المصابين الموجودين فيه.

وكانت أسوأ الحالات دائماً تلك الخاصة بالمصابين في البطن. لقد كان الاصطدام الفوري يحدث لهم دائماً صدمة لم ينجُ منها الكثيرون. أمّا أولئك الذين استوعبوها، فقد كان يتمّ إجراء العمليات لهم ووضعهم في جناح خاص. كان على جينيفيف إزالة الحفاضات المتسخة وتغيير الضمادات ثلاث مرات في اليوم. كانت تؤدي مهمتها دائماً مع كلمة لطيفة. كان التهاب الصفاق (التهاب الغشاء البريتوني المبطن لجدار البطن الداخلي -م) أسوأ قاتل، ولكن القاتل الثاني كان هو النقص في مصل الدم.

دخل أحد أفراد قوات المظليين الأشداء، وهو الملازم رونديو، إلى المستشفى وكأن شيئاً لم يحدث: «أيها الطبيب، لقد أصبت بشظايا صغيرة في بطني. لا أعتقد أنّها كثيرة، لكن من الأفضل إلقاء نظرة عليها». فحص الدكتور غرووا الجرح؛ افترض أن فتحة دخول الشظايا كانت صغيرة

جدّاً ولم تكن هناك حتى الآن إشارة إلى احتمال وجود أضرار في داخل الجسم. فجأة انهار الملازم على الأرض وحدثت له تشنّجات رهيبة.

صاح على الممرضة: «جينيفيف، امنعي تدفق دم الملازم. أسرعي». وحقنت الملازم بالجرعة المعتادة من عقار الفينيرغاندولوسال. بمجرد أن انخفض معدل نبضه، قام الدكتور غرووا بعمل شق. ما اكتشفه كان خطيراً، ثقب معوي يبلغ طوله حوالي 12 بوصة (30 سم). استغرق الأمر منه ساعة كاملة لإزالة قطعة من معدن خشن: «جينيفيف: أعطيه حقنة على شكل قطرة بعد قطرة».

من بين جميع مرضاها العديدين، لماذا تذكرته؟ لأنّه في الأول من أيار، كان من المعتاد في فرنسا أن يقدم إلى الفتيات باقة من زهور (زنبق الوادي) وكان الملازم الشاب قد قدم لها باقة زهورصغيرة صنعها من الورق الملون والأسلاك. ولم تكن حاضرة عندما توفي الملازم رونديو.

في ذروة القصف، جاء العقيد لانغليز إلى المستشفى في زيارة قصيرة.

«احتراماتي سيدي، العقيد» أدّى التحية العسكرية للدكتور غرووا المنهك.

«أنت تحرجني باحتراماتك. سيكون لدينا وقت لها عندما لن يكون لدينا شيء أفضل نقوم به. أريدك أن تكتب لي توصية لتكريمها على بطولتها...» وأشار برأسه نحو جينيفيف. ثم عاد ليتفقد المصابين.

سأل لانغليز بعضاً ممن حوله: «ما هو رأيكم بممرضتنا؟».

«سيدي العقيد، إنها جوهرتنا التي تجلب الحظ الحسن. لا يمكنك العثور على أفضل منها».

دعاها لانغليز لتناول طعام الغداء معه في قاعة طعام مقرّ القيادة الرئيس. تخلى المقاتلون في المقرّ عن حصصهم من الشوكولاتة الثمينة حتى يتمكن الطاهي من صنع كعكة لها.

قال الكولونيل لها: «أنت لا تعرفين ما الذي فعلته من أجل رجالنا، إن مجرد وجودك جعل هذا الجحيم يبدو أكثر إنسانية؟». كان يوجد

القليل من الإنسانية من حولها. عندما عادت إلى ملجأ المستشفى، قابلتها وجوه متجهمة.

«ماذا فعلت لكم؟».

شكا لها العريفُ سيوني. من الآن فصاعداً، سوف تتناولين الغداء مع الضباط؛ يبدو أنّنا لم نعد نعني لك شيئاً.

بعد وقت قصير أخذها الدكتور غرووا جانباً: «لا تقلقي بشأن مشاعر الغيرة التافهة لديهم؛ إنهم يعتبرونك واحدة منهم. إنهم على استعداد لقتل أنفسهم من أجلك».

«سيدي القائد»، قام الرقيب كابور بتقديم نفسه أمام الدكتور غرووا. لم يعد بإمكان جنودي تحمل الرائحة الكريهة. ألا يمكنك أن تطلب من الممرض ني دياي ردم الحفرة؟

أجابه قائلاً: «الحفرة!» كم كانت مرعبة كان عرض الحفرة التي تحدث عنها مترين (ست أقدام) وعمقها مترين. تمّ إجراء الكثير من عمليات البتر جعلت الدكتور غرووا يأمر بحفر واحدة ترمى فيها الأطراف المبتورة وأجزاء الأطراف المشوهة. لهذا السبب أصبحت الحفرة تعرف باسم (حفرة المبتورين) حيث كان سيوني وباكوس وني دياي وأفراد الطاقم الطبي الآخرون يبترون الأعضاء من الأجسام الحية. كانت تحوي مزيجاً شيطانيّاً من السيقان والأذرع والأيدي والأقدام، والذي تسبب في انتشار رائحة كريهة. كان الدكتور غرووا قد أخبر ني دياي بعدم تغطية كلّ طبقة من الأطراف المبتورة بالتراب، لأنّه يحتاج إلى مساحة كافية ليضع فيها البقية. بمجرد أن امتلأت الحفرة الأولى، اضطروا إلى حفر ثانية، ثم ثالثة...

كان الجرحى يتصرفون أمام جينيفيف بشجاعة تامة. لقد تحملوا آلامهم ومعاناتهم في صمت. حيث توجد حياة، هناك أمل، وكان هناك

دائماً أمل».[9] على الرغم من أن العديد من الجرحى لا بدّ أنه قد أدرك أنّه لم يكن هناك أمل في النجاة بحياتهم، فإنّهم لم يظهروا ذلك علانية أو اشتكوا من مصيرهم. كما هو الحال في حالات مماثلة، كان ينتشر هناك الكثير والكثير من الشائعات التي مفادها أن القوات الجوية الأمريكية ستقدم مساعدتها، وأن موسم الأمطار سيوقف القتال، وأن مؤتمر جنيف حول الهند الصينية سيؤدي إلى تسوية مشرفة،[10] وأن الأمريكيين سوف يقومون بإنزال جوي بواسطة أفواجهم النخبة ويقومون بعملية اختراق مشتركة، وأن العقيد كريفكور كان في طريقه بالفعل من لاوس بصحبة أربع كتائب لكسر الطوق الذي ضربه الفيتناميون من حولهم.

كلّما أصبح الطوق أكثر إحكاماً، زاد عدد من يصدق هذه الشائعات، لأنّها كانت أملهم الوحيد. في الواقع، أطلق العقيد كريفكور «عملية كوندور» وكان الفريق غودارت في طريقه بالفعل لنجدة ديان بيان فو بأربع كتائب، منطلقاً من لاوس. شق رجال غودارت طريقهم لمدة ثلاثة أسابيع عبر منطقة الغابات الجبلية الكثيفة، ووصلوا إلى نقطة لا تبعد سوى مسير يومين عن ديان بيان فو، عندها صادفتهم سلسلة من الكمائن. كان على غودارت التخلي عن محاولته والعودة إلى الوراء في مواجهة احتمال تطويقهم من قبل فرقة كاملة من القوات الفيتنامية، تنزل عليهم من السلسلة الجبلية الأخيرة الموجودة قبل القلعة المحاصرة، لكنه تمكن من جمع عدة مئات من الهاربين من الموضع الدفاعي المحصن إيزابيل، الذين تمكنوا من التسلّل واختراق الطوق الذي كانت تفرضه قوات الجنرال جياب.

وفي الوقت نفسه، استمرت المعركة من أجل السيطرة على ديان بيان

9- أجرى مؤلف الكتاب مقابلة مع جينيفيف دو لاغارد.

10- في الحقيقة فإنّ الجنرال جياب كان يتابع المفاوضات أولًا بأول، وكان هوشي منه يحثّه على الاستيلاء على ديان بيان فو قبل أن يقرر المؤتمر مصيرها، ويضعهم أمام الأمر الواقع.

فو دون توقف. امتلأ المستشفى والخنادق والمساحات التي وفرها تفريغ مخازن الذخيرة بسرعة بالجرحى. بعد هجوم قوات الجنرال جياب على الموضع الدفاعي هوغويتا، كانت الحصيلة 106 قتلى و79 مفقوداً و49 جريحاً من بين 300 فرد من قوات المظليين المتمركزة فيه. تجول الناجون، الذين أطلقوا على أنفسهم، (الهاربون من الجحيم)، وهم يتمايلون في أنحاء المستشفى، وأصيب الجرحى القادرون على السير وكانوا يحملون زملاءهم المصابين بجروح شديدة بآلام في الظهر. وسأل القائد فادوت الذي أصابته شظايا في صدره، الدكتور غرووا عما إذا كان يمكن استخدام الجرحى الذين ما زالوا يستطيعون السير في القتال في الخطوط الأمامية.

هزّ الطبيب رأسه قائلاً: «إنهم ليسوا بجرحى. إنهم موتى يسيرون على أقدامهم». في الواقع، بعد أن استنفدوا آخر قواهم، سقطوا في المكان الذي وقفوا فيه، وتلاشوا مثل الشموع.

حين أخذت جينيفيف خوذتها من مشبك معلق في الحائط. توسل إليها أحد الجرحى. قائلاً: «أيتها الآنسة، أرجوك ابقي معنا».

«يجب أن أذهب، هناك آخرون يحتاجون أيضاً إلى مساعدتي». كان هناك دائماً آخرون، وكانوا يتزايدون. لم تتوقف عمليات إحضارهم. قام باكوس وجيندري وليفاسور بنقل من ماتوا في ملجأ المستشفى، كان عددهم اثني عشر في جناح واحد فقط. كان يجب إفساح المجال للآخرين. كم عدد الجرحى الذين يجب عليهم العناية بهم؟ 2000... 3000...؟ متى تتوقف هذه المذبحة؟ كان الأب هاينريش راكعاً بجوار جندي يحتضر وهو يهمس: «... يا رب، أنا راضٍ بموتي، لكن اجعل ساعتي الأخيرة دون ألم...».

ذهبت جينيفيف مع مجموعة من حاملي النقالات إلى موقع تعرض لقصف شديد. عندما وصلت إلى هناك، وجدت جنديّاً مغربيّاً لا يمكنه التحرك. لقد سقطت قذيفة هاون في الخندق الذي خلفه، مما أدّى

إلى تهشيم جزء من عموده الفقري. «لا أريد أن أموت... من فضلك، ساعديني...».

كيف يمكن لها مساعدته؟ لقد تهشّم ظهره، وكان من الأفضل له أن تسقط القذيفة عليه مباشرة. أعطته حقنة تحت الجلد؛ زال ألمه ونظر إليها بعيون ممتنة. واستمر على هذه الحال لمدة ساعة تقريباً. تطلع بعينيه الغافيتين نحو جينيفيف قبل أن يموت. ظلّت لفترة طويلة مسكونة بنظرة تلك العيون، التي كانت تبحث عن بصيص من الأمل. في تلك الليلة، سمعت جينيفيف صوتاً يقول: «كم بودي أن أنام، ولا أستيقظ مجدداً...» ثم أدركت أن ما سمعته كان صوتها.

في 29 نيسان، جاء العقيد لانغليز إلى المستشفى ليطلب من جنيفيف أن تذهب لرؤية القائد العام - دي كاستريس الذي كان قد رقي إلى رتبة الجنرال للتوّ، فقد كان لديه شيء مهم لإخبارها به. عندما وصلت إلى مقرّ القيادة العامة لم تستطع فهم سبب الابتسامة التي كانت ترتسم على وجه كلّ شخص تلقاه. تمّ استقبالها بترحيب - إذا كانت هذه هي الكلمة التي يجب استخدامها لوصف تلك الأجواء - من قبل قائد القوات الموجودة في ديان بيان فو، الجنرال كريستيان دي كاستريس. والذي سلمها مظروفاً.

فتحت المظروف ووجدت داخله صليب الحرب (وسام عسكري فرنسي - م) ووسام جوقة الشرف (وهو أعلى تكريم رسمي في فرنسا-م).

ثم قال لها الجنرال: «نيابة عن رئيس الجمهورية... ولقاء خدماتك الاستثنائية أثناء الحرب أمنحك هذا التكريم». ثم قام بتعليق الشريط القرمزي للميدالية في المعطف الموحل القذر، وطبع قبلتين على خديها. لم تتمكن من التغلب على دهشتها، خاصة وأنّه لم يحدث مؤخراً سوى إنزال جويّ واحد فقط، وانتهى المطاف بالمظلة التي تحمل الميداليات، المخصصة للجنود الشجعان، لأن تسقط في أرض العدوّ. لقد اكتشفت أخيراً أن صليب الحرب كان من حصة العقيد لانغليز وأن النقيب بايلي قد تخلى عن طيب خاطر عن وسام جوقة الشرف الذي تمّ تكريمه به ليزين

صدر البطلة. عندما عادت إلى المستشفى، ظهر عليها بعض الإحراج. لم يكن عليها أن تقلق لقد تمّ إبلاغ فريق العمل. في الواقع، كان المعسكر كلّه يعرف عن تكريمها قبل أن تكتشف ذلك. كان أحد الأولاد في فريق العمل قد صنع كعكة من بسكويت مملح ممزوج مع شوكولاتة ذائبة، مزينة بشمعة ملفوفة بشريط أحمر. وتمّ إحضار المشروبات من مصدر غير معروف، تدفقت زجاجات الشمبانيا من مكان لا يعلمه إلّا الله. لم تنسَ جينيفيف ذكرى هذا الاحتفال طوال حياتها.

«لا أحد يستحق السعفة الذهبية أكثر منك».[11] في المساء التالي، 30 نيسان، حلّ يوم الكاميرون.[12] قام الليفتنانت كولونيل بيجار والمظليون في الفيلق، وكانوا يتميزون دائماً أنهم مفتولو العضلات بتكريم جينيفيف دو غالاردو بمنحها وسام جوقة الشرف من الدرجة الأولى، وأصبحت بذلك أول امرأة تنال مثل هذا الشرف.

ثم حلّ الظلام في يوم 5 أيار. كانت المخابرات العسكرية قد أبلغت مقرّ القيادة الرئيس أن هناك شيئاً مهمّاً يحدث؛ فقد وصلتهم معلومات من فرق الاستطلاع الخاصة بهم والتي كان أفرادها من سكان المناطق الجبلية بوجود تحركات لقوات العدوّ الرئيسة في الأربع وعشرين ساعة الماضية. أمّا عند الملجأ الذي في الأسفل فقد استيقظ عشرات الجرحى القادرين على السير وتجمعوا حول الطبيب الجراح ليقولوا له: «إذا كان زملاؤنا سيقاتلون حتى النهاية، فإنّ مكاننا يجب أن يكون معهم»، وبدؤوا ينهضون من أسرّتهم ووجدوا بطريقة ما القوة ليغادروا أجنحة المستشفى والانضمام إلى وحداتهم لخوض المعركة النهائية. وانضم مقاتلون كان منهم من هو بعين واحدة أو ذراع واحدة أو ساق واحدة إلى رفاقهم الموجودين في الموضع الدفاعي المحصن إليان 2. التقطوا الأسلحة وجردوا الموتى من خوذاتهم. لم تكن هذه لفتة من التحدي، ولكنها

11- Palme dorée، أو السعفة الذهبية، هو وسام صليب الحرب الفرنسي.

12- يوم كاميرون هو اليوم المقدس لدى فيلق الأجانب في الجيش الفرنسي.

كانت نابعة من شعور الإحساس بالروح الرفاقية التي ستدوم إلى النهاية، وكانوا يقولون: «إذا متنا، فلنمت جميعاً معاً». كان موضع إليان يمثل الحاجز الأخير بين الفيتناميين والمعسكر الرئيس. لم يبقَ من الوحدة الأصلية المكونة من ثلاث سرايا، سوى ستين فرداً؛ نزل معظم هؤلاء وكانوا مصابين بجروح خطيرة إلى الخنادق وهم يحتمون بأكياس الرمل، وكانت قاماتهم مرتفعة بدرجة تكفي لإطلاق النار من فوق الجزء العلوي من الخندق. لم ينج أيّ منهم، وقد حققوا بذلك مبدأ الأخوة في القتال.

بدأت نهاية معركة ديان بيان فو في الساعة 16:00 من يوم 6 أيّار. جاءت الإشارة إلى الهجوم الشامل بانطلاق هائل ومروع لعدة قذائف من بطاريات المدفعية التي أرسلها ستالين. سقطت الدفعة الأولى منها فوق محيط وأرجاء من قاعدة ديان بيان فو العسكرية التي تشظت أوصالها وسط لهب أبيض ساخن وغمرت النيران الخنادق كأنّها بركان متفجر واختفت القاعدة وراء ستار من النيران. في غضون دقائق، تحول المعسكر إلى بحر من اللهب. انفجرت براميل الوقود وتغلغل زيت الديزل المحترق إلى داخل الملاجئ تحت الأرض مثل الحمم البركانية. اهتزت الأرض على أثر انفجار ما بقي من صناديق العتاد وباتت وكأن زلزالاً لا يتوقف قد ضربها. بالنسبة لرجال الملازم مارسيل إيدميه من السرية الثانية لفرقة المظليين من أبناء المستعمرات الفرنسية، فإنّ الضربة كانت مفاجئة بحيث لم يكن لديهم الوقت لطلب الحماية. وقد حفر الفيتناميون نفقاً تحت تلتهم وملؤوه بطنين من مادة تي. أن. تي.

في الساعة 16:03، تشظت قمة الموضع الدفاعي المحصن إليان 2 وسط اللهيب والموت. حلقت كتل من التراب والحطام البشري في الهواء. استغرق الأمر ثواني فقط، لكن عندما انتهى الأمر، كان كلّ ما بقي من سرية الملازم إيدميه فوهة كبيرة سوداء. كان الرجال الذين كانوا على مقربة من الموضع إليان 4 ينظرون في حالة من الرعب إلى الانفجارات. اتصل النقيب بوجيه بقائد فصيله، القائد فادو.

لقد أصبح الموقف حرجاً للغاية. لا أستطيع الصمود في الموضع دون وصول تعزيزات.

«ليس لدينا أيّ شيء نرسله لك».

«إذن، دعني أنسحب إلى الموضع إيليان 3».

«كلّا. اصمد حيثما أنت. بعد كلّ شيء، أنت من فرقة المظليين ويجب أن تصمد في مكانك. هذا أمر».

«مفهوم. إذا لم يكن لديك شيء تضيفه، فحينئذٍ انتهى الأمر بالنسبة لنا».

أجابه صوت متقطع عبر اللاسلكي: «وبالنسبة لنا أيضاً...».

زادت شراسة القتال. وبدأت المدفعية الجبلية للجنرال جياب تقصف بكثافة، ودمرت آخر الخنادق. كانت الشظايا وزخات من الحجارة تصدر طنيناً من حول الجنود. هذه المرة كان الجميع على وشك الموت!

بالنسبة لأولئك الموجودين داخل محيط القاعدة، فإنّ الدخان الخانق الناجم عن الصواريخ المتدفقة وزيت الوقود المحترق ظلّ يحجب السماء. توغل الدخان في أجنحة المستشفى، مما زاد من حالات الاختناق والسعال الجاف للمصابين.

حوالي الساعة 23:00، من يوم 6 أيّار، ارتدت جينيفيف خوذتها، وخفضت رأسها لتضعه بين كتفيها، وركضت على طول الخندق المسقوف إلى المقرّ الرئيس لتستفسر من العقيد لانغليز حول ماذا كان يجري، حتى تتمكن من إبلاغ الجرحى به. نظر إليها الضابط بابتسامة حزينة.

«جينيفيف أنت جوهرتنا التي تجلب الحظ الحسن. طالما أنت هنا، فإنّ الحظ سيبتسم لنا». لكنه كان يعلم أنّه حتى وجودها لا يمكن أن يغير النتيجة. طوال ست وثلاثين ساعة، وبينما كان القتال يحتدم في محيط القاعدة الذي كان يتقلص بسرعة، جلست جينيفيف مع جرحاها، لتعيش معهم معاناة لحظات العذاب الأخيرة، واللحظات الشديدة الحزن،

واللحظات التي يلوح فيها قادة الوحدات العسكرية بأيديهم، حين كانوا يأتون إلى ردهات المستشفى لتوديع جنودهم الجرحى.

أصبح الفيتناميون على بعد أمتار قليلة فقط.

أوصاها أحد الجنود: «إذا مُتُّ أريدك أن تعانقي أفراد عائلتي...» كان الكثير من الجنود يطلب منها هكذا أشياء، فقد كانوا يفضلون الموت على أن يقعوا أسرى. كان لدى أحدهم شريط صور فوتوغرافية. خبأته جينيفيف داخل جبس التجبير الذي كان يحيط بذراعه المكسورة[13]، بدأ التخطيط للقيام بعملية - (اقتحام واسعة) لصفوف العدوّ بقيادة اللفتنانت كولونيل بيجار الذي قرر أن يصطحب معه كلّ فرد كان لا يزال يستطيع المشي وإطلاق النار. كان عليهم إطلاق النار على أيّ شيء يصادفونه وهم في طريقهم إلى لاوس. تطوع جميع أفراد الطاقم الطبي للبقاء في الخلف مع المصابين. أوضح الجنرال كريستيان دي كاستريس أنّه لن يغادر؛ وأعرب عن أمله في أن يؤدي بقاؤه إلى طمأنة الجرحى. في اللحظة الأخيرة، ألغى دي كاستريس عملية الاقتحام التي خطط لها بيجار، مدركاً أنّها لن تؤدي بالرجال إلّا إلى حتفهم.

في 7 أيّار 1954، عند الساعة 09:45. بات الفيتناميون يسيطرون بشكل تام على كلّ موضع دفاعي في الضفة المقابلة لنهر نام يوم. صمد الموضع إليان 4 فقط على أمل أن تصله نجدة أو يحدث تغيير مفاجئ في الطقس. لم يحدث شيء من الاثنين. للحظة، بدا أن الوقت يمشي ببطء... كان كلّ شيء، مستقبلهم وربما مستقبل سيطرة بلدهم على الهند الصينية، يعتمد على ما سيحدث في النصف ساعة القادمة. حدق أفراد قوات المظليين الموجودين في الموضع الدفاعي إيليان 4 بوجوههم المتجهمة في غمامة كثيفة من الغبار وهي تلتف في الهواء كانت ناجمة عن بدايات وابل من القصف المدفعي الكثيف على المنحدر المواجه لهم، عندما ظهرت من وسط غمامة التراب، أول موجة من الفيتناميين وهم يصرخون

13- كانت تلك هي الصور الوحيدة للمعارك الأخيرة التي نجت من التلف.

ويتصايحون هجوم! هجوم! كان الكثير من المهاجمين مجندين جدداً، ليس لديهم فكرة عما يعنيه القتال اليدوي فعلاً؛ كان قد تمّ إحضارهم في الليلة السابقة وتمّ إرسالهم إلى المجزرة دون استعدادات. ومن خلال شبكة من الخنادق، انتشروا مثل شبكة العنكبوت الهائلة حول المواقع الفرنسية وظهروا كسحابة من النمل البشري بقبعاتهم المخروطية.

اختار الجنرال جياب الموضع الدفاعي إليان ليكون هدف الهجوم الكثيف الذي قرر شنّه. لم يسبق للمدافعين عنه أن رأوا من قبل هذا العدد الهائل من الفيتناميين عن قرب. سحق وابل من قذائف مدفعية من عيار 105 ملم وقنابل مدفع هاون عيار 122 ملم الدفاعات الخارجية للموضع. كان مدى بعض القذائف أقصر مما يجب، فسقطت مباشرة وسط صفوف الجنود الفيتناميين الذين يسيرون جنباً إلى جنب بأعداد كبيرة، مما زاد بشكل كبير من حالة الارتباك وسط صفوفهم. خلف ستار من النار، شعر المدافعون بأمواج من الفيتناميين دون أن يروهم. لم تشكل عقد الأسلاك الشائكة المتقطعة أيّ عقبة أمامهم؛ حين وصلت حشود العدوّ كانت أشبه بمدحلة بخارية، متكونة من صفوف من الجنود. وبغضّ النظر عن خسائرهم المذهلة، فقد «تدفق» الفيتناميون نحو خطوط الدفاع الفرنسية مثل تدفق مياه فيضانات الربيع، يطلقون النار، ويطعنون، ويشوهون، يَقتلون ويُقتلون. لم يكن ما يحدث يشبه أيّ نوع من أنواع القتال الذي تعوّد عليه الجنود الأوروبيون. وفي مواجهة هذا النمل البشري، أصبحت كلّ تعليمات القتال التي كان يزود بها الجنود شيئاً عفا عليه الزمن.

كان يتقدم مئة وحتى ألف من الجنود الفيتناميين إلى الأمام، والانفجارات والموت في كلّ مكان حولهم، مصممون بحماس على الوصول إلى الخنادق وقتل من فيها من الفرنسيين. سرعان ما استولى على المدافعين سعار شديد. بدأ يصدر منهم صراخ جنوني، قفز الكثيرون خارج الخنادق، وبدؤوا يطلقون النار بشكل عشوائي وهم يقتحمون كلّ

ما يجدونه أمامهم. فقط أولئك الذين خاضوا غمار حرب في البلدان الآسيوية يمكنهم أن تكون لديهم فكرة عن رعبها الوحشي. بينما استخدمت الموجة الأولى من الجنود الفيتناميين الحراب في هجومها، كانت الموجة الثانية، التي لا تبعد عنهم سوى عشرين متراً فقط (22 يارداً)، تصبّ أعيرتها النارية على المواضع الدفاعية وغالباً ما كانت تصيب ظهور الرجال الموجودين أمامها. لبرهة من الزمن تمكنت أوكار المقاومة المتفرقة من صد الموجة الأولى، ثم الموجة الثانية. ولكن كان هناك الكثير منهم وكان ذلك ببساطة فوق طاقة المدافعين المنهكين.

دخلت صرخات النجدة وهدير المدافع الرشاشة في سباق للفوز بأعلى صوت. اضطر مقاتلو خط الدفاع الأخير في الموضع الدفاعي إيليان 4 إلى ترك أماكنهم؛ بدأ الجنود بالتراجع، ثم واصلوا التراجع، لم يعد هناك مكان آخر يتراجعون عنه. عند المساحة الضيقة للخندق الأخير، قاتلت مجموعة من المظليين قتال اليائسين. كانوا يدعون الله بيأس أن يقف إلى جانبهم. لم يستمع لهم الله فقد تساقطوا الواحد تلو الآخر. على الرغم من الجرح الذي في صدره، وقف الملازم كوربينيو على قدميه ورمى بآخر قنبلة يدوية كانت بحوزته على حشود الفيتناميين المندفعة نحوهم. ثم حلّت نهاية العالم على آخر مجموعة من جنود قوات المظليين الفرنسية.

في 7 أيّـار، قبل وقت قصير من الساعة 17:00، أجرى الجنرال كريستيان دي كاستريس اتصالاً باللاسلكي مع قائده، الجنرال كونيه في هانوي: «سيدي الجنرال، الموقف خطير، القتال متشابك في كلّ مكان. أشعر أن نهايتنا قد حانت. سنقاتل حتى النهاية...».

كونيه: «مفهوم أنكم ستقاتلون حتى النهاية. الاستسلام غير وارد».

«كلّا، سوف نقوم بتدمير المدافع وجميع المواد وأجهزة الهاتف والاتصال عند الساعة 17:30».

بعد صمت مؤقت، قال الجنرال كونيه: «شكراً!».

كان لقائد معركة ديان بيان فو الكلمة الأخيرة: «عاشت فرنسا!».

في الساعة 16:45، تلقى الليفتنانت كولونيل بيجار، (وكان يستخدم اسم برونو في الاتصالات اللاسلكية)، نداء من موقع بعيد كان قد شهد بطريقة ما الهجوم الضخم على الجانب الآخر من النهر. أراد الملازم أول أليير من الوحدة 6 للجنود المظليين معرفة ما إذا كان يجب عليه محاولة القيام بعملية اقتحام للانضمام إلى الكتيبة الموجودة في القاعدة. لقد صاغ برقيته بعبارة لا يمكن إلّا لمقاتل مخضرم مثل بيجار فك رموزها: «هل سنخوض معركة كاميرون[14] أم ننتقل إلى موضع جديد؟».

«من برونو» إلى أليير: ليس هناك أوامر بذلك. وقف إطلاق النار على وشك أن يدخل حيز التنفيذ».

جاء الردّ من «أليير» الذي أصيب بالصدمة: «تمّ الاستلام سيدي العقيد»، والذي رفض ببساطة تصديق أن وحدات المظليين الفرنسية ستستسلم. «سيدي العقيد، أنا أطلب أمراً مكتوباً» لقد أصبح هذا الأمر هو المستند الرسمي الوحيد للاستسلام «إلى أليير. وقف إطلاق النار سيبدأ في الساعة 17:30. غير مسموح بالمزيد من إطلاق النار. لا ترفعوا علماً أبيض. أراك لاحقاً. برونو».

أسفل هذه المذكرة، عبّر الليفتنانت كولونيل «في فيلق المظليين»، المرغم على الالتزام بالأوامر رغم انزعاجه الشديد، عن مشاعره في أربع كلمات بسيطة: «مسكين الفوج السادس. والمظليين!».

كانت الحرب كلّ عالمهم، والفيلق وطنهم والفوج عائلتهم. بالنسبة إلى الملازم أول أليير، وجميع الآخرين الذين نجوا من سبعة وخمسين يوماً من الجحيم، كانت الحرب لا زالت قائمة. لقد ضحت فرنسا بـ12 ألف فرد من خيرة جنودها من أجل قضية ميئوس منها، ثم

14- يقصد معركة كاميرون بين فرنسا والمكسيك وقد جرت وقائعها في قرية كاميرون في المكسيك في نيسان 1863، حيث كان للفيلق الفرنسي فيها موقفاً بطولياً شهيراً.

تركتهم يواجهون مصيرهم. في الساعة 17:30، دمّر الناجون أسلحتهم. لقد كانت تلك هي اللحظة التي بدأ يتلاشى فيها المجد بالنسبة إلى أفراد الفيلق الأجنبي وأولئك الذين حملوها لأنّها كانت عزيزة عليهم. شاركهم الطاقم الطبي في شعورهم. وقد فوجئوا عندما حل في الساعة 17:00، هدوء نسبي في القاعدة، كانت تقطعه الانفجارات العشوائية التي لم تكن تبدو على الإطلاق مثل قذائف المدفعية التي كانت تسقط عليهم. كان دويها أثقل نوعاً ما. والأهم من ذلك أن من كانوا يختبئون في ملاجئهم، لم يعرفوا أن الأمر قد صدر لتدمير جميع الأسلحة ومستودعات الذخيرة، وأن العمل في هدم المعسكر كان يجري على قدم وساق.

استدعى غرووا قائد المستشفى الطبي طاقمه إلى غرفة العمليات. «لقد انتهى الأمر». قوبل إعلانه هذا بنظرات من عدم التصديق.

قام أحد المظليين الشباب، الذي كان قد شفي حديثاً من العملية الجراحية، برفع ذراعه المضمدة من نقالته: «لكن، يا سيدي القائد، لا يزال هناك الكثير من الرجال بيننا ممن يمكنهم خوض القتال».

لم يكترث غرووا. «قيل لنا أن نستعد لوصول الفيتناميين. أريد أن يكون هناك شخص (مسعف) في كلّ جناح: جينيفيف، أنت ستبقين معي». وأضاف هامساً: «ولا تتحركي شبراً واحداً بعيداً عني».

بدأ أفراد الطاقم الطبي باستخدام الضمادات لصنع شارات بيضاء، ووضعوا عليها علامة الصليب الأحمر باستخدام مادة الميكروكروم (مطهر الجروح ذو اللون الأحمر - م). لم تكن لديهم أيّ فكرة عما إذا كان الجنود الفيتناميون يعترفون باتفاقية جنيف، أو حتى سمعوا بها، لكن الأمر كان يستحق المحاولة. بحلول الساعة 17:25، ساد صمت مشؤوم فوق القاعدة، عندما تناهت إلى أسماعهم فجأة أصوات صاخبة، أصوات جنود فيتناميين، كانت تصلهم عبر عمود التهوية. وصوت خطى أقدام تدوس على سطح الملجأ، مثل أشباح تسير فوق قبورها.

قال غرووا: «إنهم في الخارج. سوف ألقي نظرة». ورأى من مدخل

الملجأ كيف تمّ اقتياد الجنرال دي كاستريس تحت تهديد السلاح من أمام مبنى المستشفى.

كان من يقتادونه يرتدون الزي الأخضر وخوذات الخيزران التي علقت بها أوراق الشجر.

سمعت جينيفيف صوتاً خلفها: «اخرجا من هنا!».

التفتت لترى شخصاً يرتدي البدلة الرسمية الخضراء اللون، وسرواله مطوي إلى ركبتيه، وقدماه مغطاتان بالطين. كان يحمل في يده بندقية رشاشة موجهة نحو بطنها. تحرك مع بندقيته نحو المخرج. «هيّا تحركا!» تمّ إخراج الدكتور غرووا وجينيفيف تحت تهديد السلاح من المخبأ. من خلال أشعة شمس المساء المائلة، اكتشفت ديان بيان فو الجديدة. كانت ترى على مدّ البصر، رجالاً يرتدون بدلات خضراء، جيشاً من النمل، يتدفق بأعداد كبيرة وبشكل متواصل من التلال ويخرج من الخنادق التي كان يحتلها الفرنسيون. كانت تتناثر على منحدرات التلال القريبة من الموضع الدفاعي المحصن إليان 4 مئات من الجثث للمدافعين والمهاجمين، وقد جمعهم الموت. وأوقفهم ضابط فيتنامي.

صاح بهم: «هل أنت القائد غرووا».

«نعم».

«بأمر من القيادة العليا لجيش تحرير فيتنام، يجب أن تعود إلى المستشفى لرعاية جرحاك». كانت تلك هي الأخبار الإيجابية الوحيدة في ذلك اليوم. سيسمح لهم برعاية الرجال الذين كانوا تحت رعايتهم. من حفرة في الملجأ الذي تحت الأرض تسربت رائحة تبعث على الغثيان للعقاقير والموت، وهي الرائحة التي لم ينتبهوا إليها من قبل، أو اختاروا تجاهلها، خلال مكوثهم سبعة وخمسين يوماً في الحفرة.

حينها انتهت الحرب. في تلك الليلة، جفا النوم جينيفيف التي كانت مرهقة كالعادة، كان خليط من المشاعر يجتاح جسدها، وتركزت أفكارها على جرحاها، وما سيحضر لها الغد. في منتصف الليل، حضر جندي

فيتنامي لمرافقتها إلى دي كاستريس القائد السابق، في المكان نفسه الذي تمّ تكريمها فيه – كم مضى من وقت ؟ لم تستطع حتى تذكر ذلك، بدا الأمر غامضاً للغاية. كان المكان قد تحول إلى مركز قيادة للقوات الفيتنامية. قابلت شخصين من كبار القادة في غرفة الخريطة؛ أحدهما كان قائد الجيش، والآخر كان المفوض السياسي للجيش الفيتنامي.

«لقد طلبنا منك الحضور لأنّنا سمعنا أنك تعتنين جيداً بالجرحى، ونحن مهتمون للغاية أن يستمر تلقيهم الرعاية». ثم طلبوا منها التعاون معهم وهو الطلب الذي رفضته. كانت الحيلة واضحة للغاية. كانوا يريدون استخدامها لأغراض دعائية.

«إذا كنتم ترغبون في إظهار إنسانيتكم، فدعوا الجرحى يرحلون، لم يعد بإمكانهم إيذاؤكم».

بعد أن تحولت جينيفيف من ممرضة طيران إلى ممرضة ميدان ها هي الآن ممرضة أسيرة. اشتكى الجندي الذي عاد إلى الملجأ وهو الذي أعمته قنبلة يدوية ولم يكن يعرف ما الذي يجري حوله، بمرارة: «لماذا لا يعتني بنا أحد؟» سُمح لأسوأ الحالات بالبقاء في الملجأ، وعلى الرغم من أن جينيفيف رفضت تلبية مطالب المنتصرين، إلّا أنّها أعطيت مساحة معينة لرعاية جرحاها. لكن لم يكن لديها أدوية لتعالجهم بها؛ لقد جرد الفيتناميين أرفف المخازن من جميع الإمدادات الطبية والأدوية، حيث اضطروا إلى الاعتناء بالآلاف من جرحاهم وكان معروفاً عن الجيش الفيتنامي أنّه يعاني نقصاً في الأدوية. أثبتت جينيفيف مرة أخرى شجاعتها. فعندما لاحظت كيف بدأ الفيتناميون بالاستيلاء على المضادات الحيوية والضمادات وغيرها من المستلزمات الطبية الحيوية، قامت بإخفاء بعض الضمادات الكبيرة وعقاقير السلفا تحت النقالة التي كانت تستخدمها كسرير تنام عليه، وهي المواد التي كانت تستخدم لمعالجة الجرحى الذين أجريت لهم للتوّ عمليات بتر أو كانت لديهم إصابات في البطن. بعد ثلاثة أيام، أمر قائد فيتنامي بتعليق قطعة من القماش المشمع على عدة

أعمدة، وللمرة الأولى منذ ستين يوماً، تمّ نقل المصابين بإصابات خطيرة من الملجأ الذي تحت الأرض إلى الخارج لاستنشاق الهواء النقي.

ظهر أفراد ذوو وجوه متعبة تغطيها لحى خفيفة من فتحة النفق، وقد غمضوا عيونهم بسبب تعرضهم المفاجئ لأشعة الشمس الساطعة؛ وبأذرعهم النحيفة التي ظهرت منها عظامهم كانوا يحاولون حماية عيونهم الجوفاء. أصبح السبب وراء هذه الإيماءة المذهلة والإنسانية واضحاً في وقت قريب جدّاً عند وصول طاقم من المصورين الفيتناميين لالتقاط الصور. كان المفوض السياسي قد أعدّ كلّ شيء على نحو مثالي، بما في ذلك زيارة المصابين الفرنسيين من قبل القائد العسكري الفيتنامي الذي كان يبتسم برقة، والذي أعطى الإذن للدكتور غرووا ومساعديه الطبيين الذين يرتدون البزات البيضاء النظيفة، للانضمام إلى جرحاهم.

في 14 أيّار، تمّ إجبار عدد من الأسرى على العمل في إصلاح مهبط الطائرات الذي يبلغ طوله 1000 متر (1111 ياردا)، هبطت طائرة من طراز بيفر ذات محرك واحد في ديان بيان فو، كانت تحمل على متنها ضابطاً طبيّاً أبلغ الدكتور غرووا بأنّه قد تمّ التفاوض على إخلاء الحالات الحرجة، وأنّه من الآن فصاعداً، سيتمّ تنظيم رحلات يومية لطائرات صغيرة لتقوم بنقلهم. قام الأستاذ هوارد، عميد جامعة هانوي الطبية، بترتيب العمل الإنساني، قام بالتعرف على العديد من القادة الفيتناميين الذين كانوا من بين تلاميذه السابقين والذين ظلّوا معجبين بهذا الرجل البارز. وقد منحه هذا ثقة القادة الفيتناميين. تمكنت عمليات النقل الجوي بشكل إجمالي من تحرير 858 مصاباً فرنسيّاً من الأسر، والذين كانوا يشكلون - على اعتبار أن 3 آلاف فرد فقط من إجمالي 12 ألف قد نجوا - ثلث جميع الذين دخلوا المعركة. أمّا الآخرون فقد بدأت مسيرتهم الطويلة مع الأسر.

في 24 أيار، هبطت طائرة بيفر تحمل البروفيسور هوارد في ديان بيان فو لإجراء عملية تفقد شخصية للمخيم - ولكي يأخذ معه الممرضة جينيفيف! عندما أعلمها بالخبر السار، رفضت المغادرة؛ لقد أصرّت على

البقاء في المواقع الخلفية، ورعاية جرحاها، وعلاوة على ذلك، كان من غير المقبول أن تحل محل الجرحى على متن الطائرة. حسم رئيسها، قائد المستشفى العسكري غرووا، القضية. «اذهبي في هذه الرحلة، وهذا أمر! أنت تؤدين أكثر مما يتطلبه منك واجبك». أمسك بكتفيها، وسحبها إليه وقبلها من خديها. عندما تركته كانت الدموع تترقرق في عينيه.

«جينيفيف، تذكري أنّه لن ينساك أحد منا أبداً». للمرة الأولى منذ وصولها إلى ديان بيان فو، قبل أربعين يوماً، بكت جينيفيف دو لاغاردو بغزارة. طوال هذه المحنة كانت قد تشبثت بإيمانها، ولم يستطع أيّ شيء أن يهزها. لا القذائف ولا الرعب. في اللحظة التي ترجلت فيها من الطائرة في مطار هانوي، ونزلت منها فتاة في ثوب فضفاض كان واسعاً جدّاً بالنسبة لها، صرخت صحفية أمريكية:

«إنها ملاك ديان بيان فو».

وظلّ هذا الاسم ملتصقاً بها.

كان ما دفع جينيفيف دو غالاردو للقيام بكل ذلك تصميمها الكامل وإصرارها بهدوء على مساعدة المحتاجين، وهو نوع من الشجاعة التي نادراً ما لاحظها المقاتلون. لأنّه كان موجوداً في العقل والقلب. وباعتبارها مسيحية مخلصة وممرضة تحت التدريب، كانت المعاناة التي اضطرت أن تعيشها يوماً بعد يوم، صعبة الاحتمال، لكنها وبشخصيتها القوية، تغلبت على كلّ المصاعب التي واجهتها. كانت في الواقع إنسانة لا تقدر بثمن، تقوم بالتضميد وإعطاء المهدئات، ولم تطلب تعويضاً، ولا كانت تبغي أيّ شيء. كانت تجترح مآثرها البطولية بصمت وهدوء.

بودابست،
23 تشرين الأول 1956

العقيد بال ماليتيه، لقد كانت نسمة من الحرية

لقد أقسمنا، لقد أقسمنا
لن نكون عبيداً بعد اليوم!

• **ساندور بيتوفي،**
خلال ثورة 1848

«سنقوم بدفنكم»

• **نيكيتا خروتشوف،**
26 تشرين الثاني 1956

تجلى لهم أخيراً حجم الرعب الذي كانوا يعيشونه. تدفق حشد من الناس إلى الميدان، وهم يحملون جثة ملطخة بالدماء فوق رؤوسهم. كانت الأزمة الهنغارية في عام 1956 واحدة من الأحداث الرئيسة في الصراع بين الشرق والغرب بعد الحرب العالمية الثانية. لقد تحولت إلى حالة اختبار لرغبة الغرب في الوصول إلى مساعدة دولة تحاول تحرير نفسها من نير النظام الشيوعي. كان قد بدأها الطلاب ثم انضم العمال إليها. بعد فترة وجيزة من اندلاعها خرج ما يقرب من نصف مليون مجري إلى شوارع بودابست عاصمة البلاد. كانوا من جميع الأعمار، وجاؤوا

من كلّ الطبقات الاجتماعية. رددوا النشيد الهنغاري ورقصوا من حول كتلة نار عملاقة، وكانت تزيد لهيبها الكتيبات الحزبية التي ترمى وسطها. جاء العمال من مصانع الصلب «ريد زيبل» في مسيرة إلى ميدان ستالين يحملون مشاعل اللحام. وهجموا بها والغضب يعتمل في صدورهم على تمثال ستالين.

شبّت النيران ذات اللون الأزرق في كاحلي التمثال البرونزي للدكتاتور السوفياتي الذي يبلغ ارتفاعه 10 أمتار (11 قدماً) مع ذراعه التي تشير إلى مستقبل اشتراكي مشرق لم يعرفوه أبداً. قام شاب بتسلق التمثال، وقد قبض بأسنانه على طرف حبل طويل. ولفّه حول عنق الديكتاتور الشيوعي، بينما ربط آخرون الطرف الآخر من الحبل في المصد الخلفي لإحدى الشاحنات. هتفت الجموع وقامت بسحب تمثال ستالين إلى أن سقط على الأرض.[1] كانت أول خطوة في الثورة الهنغارية القيام بعمل رمزي تماماً: فقد بعثوا برسالة واضحة من خلال قيامهم بإسقاط تمثال ستالين، إلى أنّهم لن يكونوا عبيداً للسوفيات وأتباعهم المحليين بعد اليوم.

كانت الساعة تشير إلى 20:30. اندفع قسم من أفراد الحشد الجماهيري الضخم إلى الساحة الواقعة أمام إذاعة بودابست، الذي يشغل مبنى من الطوب الأحمر. كان يقود المتظاهرين مجموعة من الشباب، لا يزيد عمرهم عن خمسة عشر أو ستة عشر عاماً. أطلق أحد حراس الشرطة السريين الواقفين أمام المبنى النار في الهواء لوقف تقدمهم. قام عميل شاب في الشرطة السرية المخيفة وقد صدمه صوت البندقية، حيث لم يكن أكبر عمراً بكثير من الأولاد الذين تحته في الساحة، فقد كان واقفاً في موقع استراتيجي في السطح المطل على الساحة، بسحب دبوس قنبلة صوتية ورماها على الحشد. حدث انفجار شديد، سادت ثانية من الصمت

1- كما هو الحال مع القطع الإسمنتية التي وقعت من جدار برلين، فإنّ أكثر شيء يعتز المجريون بحيازته هي قطعة من البرونز وقعت من تمثال ستالين. يضعها الكثيرون في سلسلة ويرتدونها في العنق.

جرّاء هول الصدمة، تلتها صرخة حادة لإحدى الفتيات. فقد رأت أمامها، وكانت قد تقدمت للأمام إثر دفعة جاءتها من الخلف، جثة بدون رأس. لقد انفجرت القنبلة في وجهه. كان هذا المراهق أول ضحية من بين آلاف الأشخاص في المعارك الدامية التي استمرت ثلاثة عشر يوماً. لقد بدأت الثورة المجرية. ثم تردد صدى موجاتها الصادمة في جميع أنحاء العالم.

يشار في اللغة الهنغارية، إلى الثورة بكلمة (forradolom)، والتي تعني «غليان الجماهير». وكما هو الحال مع البراكين، فإنّ كلّ الثورات المنتصرة في الماضي مرّت بفترة نشطة كان يتمّ فيها تدمير النظام القديم. كانت المرحلة الأولى دائماً هي اندلاع احتجاجات عفوية بين جزء كبير من السكان، ويميل ميزان القوى لصالح الجموع الثائرة. قد لا يكون للثورة قائد في مراحلها الأولى، ولكن حالما ينتفض الناس، فلا بدّ أن يكون هناك من يرشدهم، وإلّا فسيفقدون إرادتهم ومبادرتهم دون وجود إرادة واحدة. حينها يتقدم أحد الأشخاص الصفوف، ليقوم بتوجيه المد الشعبي. في هذه اللحظات، تتحول الثورة بسرعة إلى غليان جماهيري. وفي المجر، حدث ذلك الغليان، في أواخر تشرين الأول 1956.

وبشكل مشابه تماماً لما حدث قبل سنوات حينما أزاح النازيون جانباً الفلاسفة والمفكرين ذوي النزعة الإنسانية لتصبح السلطة بيد ديكتاتور ذي نظرة أحادية الجانب قاد أوروبا إلى الدمار، فإنّ التحرر من نير النازيين تمّت مقايضته بالخضوع لسلطة زعيم شيوعي مستبد، وتحويل النظام في المجر إلى السير على نهج القسوة الأحادية التفكير نفسه. طوال عدة سنوات كان ماتياس راكوشي، قد تعلم الدرس جيداً من الزعيم السوفيتي والذي حمل لقبه «ستالين المجر»، وتخلص من أيّ شخص داخل جهاز حزبه كان يمثل خطراً على حكمه الوحشي. كانت قاعدة سلطته هو جهاز الشرطة السرية التابع للدولة، والذي كان بالتأكيد القوة الأكثر كرهاً في البلاد. تمّ إنشاء هذا الجهاز الإرهابي، وكان

يسمى (هيئة الدفاع عن الدولة أفن)[2] (والذي لا يزال يسمى شعبياً باسمه السابق، أفو)، والذي أُسس على نمط جهاز الاستخبارات الروسي كي. جي. بي. نفسه على يد الشيوعيين الهنغاريين في عام 1946. كان يتمّ تدريب المرشحين للانضمام إلى الجهاز لعدة أشهر على مواجهة القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يمكن أن تؤثر على الأمن داخل بنية الحزب.

كانت قوات جهاز الشرطة (أفن) مكونة من مفارز مدججة بالسلاح، يمكن التعرف عليها من خلال علامات الكتف الزرقاء. خطط عملاؤها لعملياتهم ببراعة ثم نفذوها بدم بارد دون الالتفات للاعتبارات الأخلاقية. لم يكن أيّ شخص في مأمن من الاعتقال التعسفي، لا الأوساط المثقفة، والتي هي دائماً الهدف المفضل في المجتمع الشمولي، ولا الطبقة العاملة التي وعد الحزب بالدفاع عنها. كان من الواضح تماماً أن مفارز الإرهاب هذه ستتحول إلى هدف فوري للانتقام المخيف على يد العامة في حالة حدوث انتفاضة شعبية.

في وقت اندلاع الاضطرابات، قال ساندور كوباتشي مدير شرطة بودابست:

نظامنا السياسي مبني على الخوف. كان كلّ شخص يخاف، وعلى كلّ مستوى. كان الوزير يخاف من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وكانت اللجنة المركزية تخاف من المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي في موسكو. كانت الدسائس تجري في كلّ مكان، وكانت الأعناق تقطع من أجل الاستيلاء على السلطة. عشنا تضارباً دائماً في المصالح. بمعنى آخر، كان الجميع يخاف من الجميع. في كثير من الأحيان كنا نجتمع في جلسات مغلقة، في محاولة للتوصل إلى حل لأنّنا كنا نعرف، إذا لم نجد حلّاً فإنّ الشارع سيجده لنا، وسيكون ذلك بمثابة صدمة فظيعة لنا جميعاً.

بدأت عمليات التطهير المرعبة داخل الحزب الشيوعي الهنغاري

2- لا يزال الناس يشيرون إليه باسمه السابق (AVO (Allamvedelmi Oztaly، والمفارقة في ذلك أن هذا هو اسم فرقة الدفاع عن الدولة.

في عام 1949 مع محاكمة لازلو راج (كان سياسيّاً شيوعيّاً مجريّاً، شغل منصب وزير الداخلية ووزير الشؤون الخارجية - م.)، ولأجل الظفر بقيادة الحزب الشيوعي؛ خلال الصراع على السلطة، اتهمه راكوشي الذي كان دمية في يد ستالين بقيادة مؤامرة (لا وجود لها) ضد الاشتراكية. تمّ إعدام راج بالإضافة إلى 3000 من أعضاء الحزب، من الموالين له فقط. تحوّل راكوشي بعد عملية إعدام راج إلى ديكتاتور للمجر. لقد أدّى حب راكوشي للسلطة، وبهرجتها، إلى تراجعه عن كلّ التزاماته السابقة بالمثل الاشتراكية. وباستخدام شرطته السرية المخيفة بوحشية مطلقة وقسوة، ظلّ راكوشي لسنوات يضع طوقاً من السرية المحكمة على الاضطرابات التي كانت تجري في الخفاء. في ربيع عام 1956، تعامل راكوشي بشكل غير حكيم مع كتّاب وشعراء نادي بيتوفي،[3] الذين استخدموا (جريدتهم الأدبية) بلباقة لاقتراح إجراء تغييرات في السياسة الحكومية. لقد تجرؤوا على اقتراح استبدال الديكتاتور راكوشي بإيمري ناجي، الزعيم الشيوعي، والشخصية الهنغارية المعادية للستالينية والوطنية حقّاً. في اليوم السابق لأعمال الشغب التي جرت في مدينة بوزنان البولندية، والتي أدّت إلى حدوث زلزال لم يجعل بولندا وحدها ترتعش فحسب، بل انتشرت موجاته إلى كلّ بلد من بلدان الكتلة الشرقية، نظم نادي بيتوفي مظاهرة لصالح ناجي. كان التدخل المباشر للسفير السوفييتي أندروبوف (رئيس الوزراء الروسي فيما بعد)، الذي كان يدرك الجانب السلبي لخوض معركة صريحة مع المثقفين المجريين، هو من منع أتباع راكوشي من القبض على ناجي وأربع مئة من أتباعه. ولكن جرس الإنذار قد دقّ.

أدركت موسكو المشكلة التي قد تنشأ في المجر، إذا اتبعت المثال البولندي. لم تكن النزعة القومية فيها عابرة، كان هناك شعور قومي قوي،

3- تعود تسميته إلى الشاعر المجري والمقاتل من أجل الحرية شاندور بيتوفي الذي عاش في القرن التاسع عشر.

وإن كان كامناً، في تلك البلاد، وتفاقم بسبب تواجد القوات السوفيتية على أراضيها. إذا اتجهت المجر، بصفتها أحد أعضاء حلف وارسو، «نحو أعمال التمرد والعنف»، فسينشأ موقف حرج بالنسبة للاتحاد السوفيتي. مع تركيز موسكو اهتمامها على القضاء على الاضطرابات في بولندا، كانت راضية جدّاً عن راكوشي، وكيلها المخلص. ظلّ الملك الشيوعي المجري الذي يملك كلّ السلطات بيده على مدار عدة سنوات يتلقى الدعم من المكتب السياسي للحزب الشيوعي في موسكو الذي يتميز بمكره، واستمر هذا الدعم حتى بدأت أسهمه في الهبوط. عند هذه المرحلة، وفجأة وبشكل أثار الشكوك بالنسبة للهنغاريين عكس الحزب الشيوعي المجري (وموسكو) اتجاههما. لكن بعد ذلك ارتكب زعماء الحزب الشيوعي الروسي خطأً كبيراً؛ فبدلاً من استبدال راكوشي بشخصية تتمتع بشعبية هائلة مثل إيمري ناجي، اختاروا في تموز 1956، أرنو جيرو نائب راكوشي كرئيس جديد للحزب الشيوعي الهنغاري، وكان شخصاً شريراً تعلم كلّ الحيل القذرة من سيده.

بالنسبة للقيادة الهنغارية، كان الوضع يزداد قلقاً بشكل متزايد. وكان الشاهد على ذلك هو أنور خوجه، الدكتاتور الشيوعي لألبانيا، الذي ظلّ مخلصاً للستالينية مدى الحياة والذي كره خروتشوف لأنّه قام بخيانة إلهه ستالين، حين زار بودابست في حزيران 1956. حيث تناول العشاء مع رئيس الحزب جيرو تحت لوحة للقائد العسكري أتيلا الهوني في مبنى البرلمان، قال الزعيم الهنغاري لرفيقه الألباني: «جيشنا ضعيف، ليس لدينا كوادر. فالضباط هم من كبار السن من جيش ميكلوش هورتي»، (وصي عرش المملكة المجرية – م).

أجابه خوجه: «بدون جيش قوي، لا يمكن الدفاع عن الاشتراكية». يجب أن تتخلص من ضباط جيش هورتي يجب أن تدرك أن الاضطرابات الداخلية، المدعومة من رجل الدين الكاردينال مايندزنتي، وطبقة الكولاك (المزارعين الأغنياء – م) القوية والفاشيين المقنعين من أنصار هروتي، بدأت في تقويض

سلطتكم. لقد أصبح بلدك ساحة للمكائد من قِبل خروشوف، الذي يريد وضع بلدك تحت سيطرته، وتيتو، الذي يريد تدمير المعسكر الاشتراكي.

تجاهل جيرو الأمر: هناك مجموعات من المتمردين في الحزب، واتحاد الكتاب، وإلخ، ويريدون الاستفادة من نتائج المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي.[4]

ظهر الانزعاج بوضوح على وجه أنور خوجه. «كيف يمكنك أن تقف مكتوف الأيدي في وجه هذه الثورة المضادة التي تتصاعد؟ لماذا لا تتخذ التدابير؟ بالنسبة لذلك الرجل المتشدد، الغارق في المؤامرات السياسية والمستعد لارتكاب جرائم القتل، كان الأمر كما لو أن رفاقه الهنغاريين فقدوا بوصلتهم. يجب عليك إغلاق نادي بروفتي على الفور، والقبض على مثيري الشغب الرئيسين، وإخراج الطبقة العاملة المسلحة إلى الشوارع. إذا لم تتمكن من سجن [الكاردينال] مايندزنتي، فماذا عن إيمري ناجي، ألا يمكنك اعتقاله؟ هلّا تطلق النار على بعض من قادة الثورة المضادة هؤلاء لتعلمهم ما هي ديكتاتورية البروليتاريا؟[5]».

«لا يمكننا التصرف كما تقترح، أيها الرفيق أنور، لأنّنا لا نعتبر الموقف مقلقاً للغاية. لا زال الوضع تحت سيطرتنا...».

لم يكن الأمر كذلك، وسرعان ما وقعوا تحت الاختبار. لعب حدثان دوراً في ذلك. جرى الحدث الأول في 6 تشرين الأول، أثناء الاحتفال السنوي بالانتفاضة التي جرت في الفترة ما بين عام 1848 إلى عام 1849 وقام بها الهنغاريون ضد حكامهم من آل هابسبورغ. لقد وفر ذلك الاحتفال الفرصة لقيام مظاهرة كبيرة، تحولت بسرعة ضد حكومة جيرو. تجمع الآلاف من العمال والطلاب الذين يلوحون بالأعلام في ساحة كوسوث أمام البرلمان الهنغاري، وهم يهتفون: «ناجي! ناجي! ناجي!».

4- وهو المؤتمر الذي شهد الحملة الشهيرة للتخلص من آثار الحكم الستاليني والتي قادها خروشوف.

5- عن كتاب مذكرات أنور خوجه الشخصية (الخروتشيفية) صدر في تيرانا عام 1984.

من كان هذا الرجل الذي يهتف الحشد الكبير باسمه؟ كان إيمري ناجي الشخصية الأكثر شعبية آنذاك في المجر. كان يحسده الكثيرون على شخصيته التي تمتلك سحراً غير عادي والتواضع والثقة بالنفس التي يتميز بها الرجال الذين يجذبون بشكل طبيعي أتباعاً لهم ويحوزون على الاحترام بشكل طبيعي؛ كان رجلاً بديناً نوعاً ما، يبلغ من العمر سبعة وخمسين عاماً، وله شارب كثّ ويرتدي زوجاً من النظارات ذات الإطار الفولاذي، وكانت لهجته الفلاحية تناقض ثقافته، وكان شخصاً يحب الفنون والمسرح ويتناول الشاي في جيرباود، المقهى الأنيق ذي الماضي الدافئ لأيام آل هابسبورغ ومعجنات السترودل اللذيذة التي يقدمها. لا يمكن اعتبار ناجي شخصاً رجعيّاً أبداً - فقد كان شيوعيّاً مخلصاً من المدرسة القديمة، لكنه معادٍ صريح لفكرة خضوع هنغاريا لاحتلال روسي دائم. كان منطقه بسيط. كانت المجر دولة اشتراكية حقّاً، وعلى هذا النحو، ارتضت لنفسها البقاء داخل الكتلة الاشتراكية. لم تكن جارتهم المباشرة النمسا دولة اشتراكية. ومع ذلك، وفقط في العام السابق (1955)، تمكن النمساويون من تخليص أنفسهم من الروس. فلماذا لا يحدث الشيء نفسه على بعد بضعة كيلومترات أسفل نهر الدانوب الأزرق؟ زرع ناجي هذه الفكرة في عقول الناس خلال الأيام التي قضاها في الحكومة، لأن إيمري ناجي كان يدخل إلى عالم السياسة ثم لا يلبث أن يخرج منه وظل على هذا المنوال طوال حياته. وكان بالتأكيد خارج عالم السياسة في تشرين الأول 1956.

أما الحدث الثاني الذي هزّ الإمبراطورية الشيوعية فقد جرى في 20 تشرين الأول، بالإعلان عن أن فلاديسلاف جومولكا - وهو الصورة البولندية المطابقة لإيمري ناجي - قد تمّ التصويت عليه من قبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البولندية ليكون سكرتيرها الجديد. كان أول عمل له هو إعلان «طريق بولندا المستقل إلى الاشتراكية»، وكان إعلاناً شجاعاً، وضع أمام المجريين معالم الطريق لنيل الحرية، التي كانوا

يطمحون إليها، وكان من غير المرجح أن يتمتعوا بها في أيّ وقت قريب. لقد كانت سنوات حكم راكوشي تعسفية للغاية مما جعل من المستحيل أن ينالوا هذه الحرية بسرعة. وعلى مدار عدة سنوات، كان يغرس في عقول الجماهير فكرة أن «الحرية الفردية» لا تعتمد على مهارة عدد قليل من السياسيين ولكن على رغبة الملايين الذين رأوا مستقبلهم بطريقة مختلفة عن ماضيهم. لذلك، إذا أراد المجريون حريتهم، فعليهم الوصول إليها بطريقتهم الخاصة.

يانوش كافوك هو أحد القادة الطلاب ويبلغ من العمر 22 عاماً وكان يدرس في جامعة بودابست التقنية. وكان يتمتع بشخصية قوية مستقلة، وإدراك لمعاني الشرف والكرامة، أي إنه يمتلك السمتين المتميزتين اللتين تمثلان جوهر الشعب المجري. كان عالم المجريين العاديين ينحدر إلى طريق طويل من اليأس وخيبة الأمل وإرث الخوف. وكان الشاب كافوك يحلم بعالم آخر، عالم لا يوجد فيه رعب، وخالٍ من الأكاذيب التي تنشرها أجهزة الدولة. كان كلّ ما يتطلبه الأمر هو امتلاك الشجاعة للتحدث علناً، وجعل بقية الناس يدركون أنّهم يجب ألّا يستمروا في تحمل الظلم؛ وهو التحدي الذي واجه كلّ المجريين والذي أثمر عن طرح رؤية جديدة.

سأله ساندور بيكيشي، أستاذ الفيزياء: «ألا تعتقد أنك مثاليّ نوعاً ما؟».

«بالتأكيد. وأنا أيضاً اشتراكي. لكن هذا لا يعني أنني أحب واقعنا الحالي. إنهم لن يمنحونا ما نريد، لذلك إذا كنا نبحث عن مستقبل أكثر إشراقاً، يجب علينا الكفاح من أجل ذلك».

أثبت البروفيسور أنّه نبي حكيم: لن ينتهي الحكم الروسي في المجر بمجرد نضال الشعب المجري وحده. لا بدّ أن تتغير الظروف العالمية بشكل جوهري بحيث لن يتمكن أيّ شيء من منع الزوال التام للنظام الشيوعي. ولكي يحدث ذلك، تطلب الأمر انقضاء ثلاث وثلاثين سنة أخرى.

بعض الأحداث العنيفة لها ما يبررها أخلاقيّاً وفكريّاً. على سبيل المثال، إذا كرست إحدى الجامعات محاضراتها للدعاية لفكرة قمع

شعبها، فهذا الأمر أكثر بذاءةً من قيام طلاب تلك الجامعة بالتظاهر ضد أساتذتهم، بغضّ النظر عن مدى عنفهم. في بلدان أوروبا الشرقية الاشتراكية، أصبحت الجامعات مجرد فروع للحزب الشيوعي، والمنبع الرئيس لصدور التعاليم والقرارات الحكومية. فلم تكن مثل مثيلتها في البلدان الديمقراطية، حيث كان الطلاب دائماً يقظين ونشطين في كلّ حلقة من سلسلة الاحتجاج، من المنظرين إلى المخططين، ومن الكوادر إلى المشاركين في المسيرات إلى المشجعين. كان عصر الاستسلام الصامت في الجامعات الهنغارية على وشك التغيير. مع بداية الفصل الدراسي الجديد، أصبحت الحركة الطلابية في بودابست أكثر دينامية وصراحة، وتطالب علناً أن تكون المجر بلداً ديمقراطيّاً اشتراكيّاً حقيقيّاً، تحكمه على أساس متين معاهدة مجرية - سوفييتية يتمّ التفاوض عليها من جديد - ولكن على قدم المساواة. اقترب الشباب من هدفهم يدفعهم إيمان يلتهب حماساً أن عدالة قضيتهم يجب أن تؤدي في النهاية إلى النصر. لقد رفضوا العنف، واعتبروا منذ البداية أن الاستخدام غير الأخلاقي للتخويف لا يتلاءم مع حملتهم.

بهذا النضج العالي في وعيهم، دعوا إلى تجمع للهيئة الطلابية في الجامعة التقنية لصناعة البناء في 22 تشرين الأول. ساد نقاش ساخن، استمر طوال اليوم وانتهى بإصدار قرار من ست عشرة نقطة. كان أحد مطالبهم رمزيّاً بشكل فريد من نوعه: إزالة تمثال ستالين البرونزي الضخم في وسط بودابست. وبينما كان يتواصل هذا الاجتماع، كان هناك طلاب آخرون يقومون بنسخ أوراق تتضمن «النقاط الست عشرة»، قبل لصقها على الشوارع التي تصطف على جانبيها الأشجار في جميع أنحاء المدينة. ودعوا لتنظيم مظاهرة ظهر ذلك اليوم، من أجل تعزيز مطالبهم المقدمة إلى رئيس الحزب أرنو جيرو بضغط جماهيري.

في فجر 23 تشرين الأول 1956 وبينما كانت الغيوم تتجمع بكثافة في سماء مدينة الدانوب.توقعت إذاعة بودابست أن تهطل الأمطار في فترة

ما بعد الظهر. كان ذلك يناسب المسؤولين الشيوعيين، الذين تجمعوا لحضور اجتماع طارئ للجنة المركزية للحزب، لأنّه يتوافق والجملة المأثورة التي قالها تاليران بأن «المطر عدوّ الثورة». كانت القيادة الشيوعية تأمل في أن يمنع هذا الطقس حدوث استجابة كبيرة للدعوة للإضراب بعد ظهر ذلك اليوم. لأنّهم، مثلهم مثل أيّ شخص آخر في صباح ذلك اليوم، أدركوا أن الاستعدادات لانتفاضة طلابية كانت تختمر. واستعداداً «لحالة حدوث اضطرابات أوسع»، أمر جيرو وحدات مسلحة من جهاز الشرطة السرية (أفن) بحراسة المباني العامة واحتلال أسطح المنازل الموجودة حول البرلمان ومحطة الإذاعة. ونظراً لأن أعضاء الهيئة الطلابية كانوا بالآلاف، وأن من المتوقع أن أغلبيتهم سيشاركون في مسيرة الاحتجاج، فقد شكل ذلك مشكلة خطيرة لقوات الأمن؛ فقوات الشرطة السرية في بودابست كانت تفتقر إلى القوى البشرية الكافية. لذلك، قام المفوضون في الجهاز باستدعاء المتدربين الشباب، الذين لم يكن قد تدربوا بعد على كيفية التعامل مع الحشود. ثم ارتكبوا الخطأ الذي لا يغتفر في تزويد هؤلاء المجندين الجدد برصاص حقيقي. لقد أدّى الجمع بين المجندين الخائفين والمستعدين لإطلاق النار بسبب أدنى استفزاز وتزويدهم بالذخيرة الحية إلى صنع خلطة قاتلة. لقد كانت تلك هي الشرارة التي تسببت بالانفجار.

لم يفعل الطقس شيئاً لتثبيط حماسة الطلاب. بعد وقت قصير من الغداء، بدأت المجموعات الأولى منهم بالتحرك من الجامعة التقنية باتجاه وسط المدينة. كان الحشد يكبر في كلّ دقيقة، ومثل نهر الدانوب العريض، الذي عبروه عن طريق جسر السلسلة القديم، جرف ذلك الحشد جميع الناس معه، والتحق به أصحاب المعاشات التقاعدية، وموظفو الخدمة المدنية، وربات البيوت، وأطفال المدارس الثانوية الذين تركوا صفوفهم، وحتى أفراد فريقين كانا يلعبان كرة القدم. لم يعد هناك أيّ شخص بعيداً عن الحدث. وسرعان ما أصبح الشارع ملك الجماهير فعلاً. بدأ الناس

يغنون ويلوحون بالأعلام ويهتفون بالشعارات. أولئك الذين لم يشاركوا في المسيرة، لأنّهم كانوا كبار السن أو كان عليهم رعاية أطفالهم الرضع، أخرجوا رؤوسهم من نوافذ شققهم، وهم يلوحون بالمناديل لهم. من الشارع الكبير تدفق نهر آخر من البشر وهم يلوحون بالأعلام؛ جاء هذا الدعم من مكان لم يكن هناك أدنى احتمال في أن يشارك سكانه في المسيرة، وكان الأمر بمثابة صدمة كاملة للسلطات: إنهم عمال الصلب من الضواحي التي يسكنها الشيوعيون، وهم يصرخون: «أيها الروس عودوا إلى بلادكم!».

عند شارع راكوشي، انقسم الحشد. توجه القسم الأكبر من أعضاء الهيئة الطلابية إلى ميدان البرلمان، في حين انعطف الآخرون ليتوجهوا إلى مبنى الإذاعة، حيث وجدوا الطريق إليه مغلقاً من قبل وحدات الشرطة السرية المدججة بالسلاح، وأفرادها يحملون الهراوات والبنادق الآلية. بدأ المتظاهرون في الصراخ باتجاه أفراد الشرطة السرية، محاولين كسب تأييدهم لقضيتهم وعبر عن ذلك أحد المتظاهرين قائلاً: «صحيح أن ستالين لا يتورع عن فعل أيّ شيء من أجل تحقيق غاياته، لكن لديه الملايين من المجريين العبيد المستعدين للقيام بكل ما يأمرهم به، ومع أنّنا في المجر، لم يعد لدينا رأسماليون وملاك، لكن بات لدينا من حلّ محلهم وهم من نسميهم أمناء الحزب والمفوضين».

بدأت السلطات تشعر بالارتباك. فلم يحدث في تاريخ جمهورية المجر الشعبية أبداً أن وصلت فيه التجمعات العفوية إلى هذا الحدّ. بحلول الوقت الذي تجمعت فيه غالبية تلك الحشود الهائلة، والتي بات يتجاوز عددها أكثر من 300 ألف شخص، أمام البرلمان، بدأ يحل الظلام. أمام المبنى القوطي الجديد على ضفة نهر الدانوب الذي يعود إلى أيام حكم آل هابسبورغ، تجمعت الحشود في ساحة كوسوث الجميلة. لقد تجاهلت العلامات الموجودة: «ممنوع المشي على العشب». أشعلوا المشاعل من صفحات مطوية من الطبعة الأخيرة من صحيفة الحزب

(الشعب الحرّ)، وكانت افتتاحيتها تتحدث حول آخر إنجازات الحكومة، مستشهدة بالتقدم في ظروف معيشة العمال نفسها الذين كانوا يقفون الآن في الميدان، يشعلون شعلة التمرد. نادى صوت باسم رجل، وأجاب عليه عشرة، ثم ألف، ثم مئة ألف: «ناجي! ناجي! ناجي!».

عبّر جوزيف فيدور، ممثل الطلاب في كلية الطب، الذي كان يقف أمام مبنى البرلمان تحت رواقه عن مشاعره قائلاً: «لقد كان شعوراً رائعاً أن أكون هناك، وسط هذا الحشد الهائل، كان شعوراً يتقاسمه جميع من كان حاضراً في ذلك اليوم، كان الجميع يصرخ: ناجي، كان اسمه سحريّاً خالصاً، كما لو أن الأفق أصبح صافياً وبدأت شمس جديدة تشرق على مستقبلنا».

لم تكن الشمس هي التي أشرقت، بل كانت بداية مأساة حقيقية. وصل الرجل الذي كانت الحشود تصرخ باسمه، إيمري ناجي، حوالي الساعة 20:00؛ وبسبب قيام الجماهير بإغلاق البوابة الأمامية، اضطر إلى الدخول عبر باب خلفي. بمجرد أن انتشر خبر دخوله المبنى، ساد الصمت بين ثلاث مئة ألف صوت كان يهتف له فيما كان يحثّ الخطى نحو الشرفة الاحتفالية.

«لماذا أنا؟» توجه ناجي بالسؤال إلى أولئك الذين تجمعوا حوله في الغرفة. «ليس لديّ أيّ سلطة، ولم أعد عضواً في الحزب». وفي الحقيقة، لقد سبق وأن تمّ توبيخه وطرده من الحزب الشيوعي المجري. «من أعطاني الحق في مخاطبة الناس؟» كان بإمكان إيمري ناجي المطالبة بهذا الحق بسهولة لنفسه، حيث إنّه هو ولا أحد غيره كان من اختاره الناس.

عندما استمرت الهتافات «ناجي! ناجي! ناجي!» وبدأ الضغط يتصاعد، في الداخل والخارج، خرج ناجي أخيراً إلى الشرفة، استقبله هدير هائل، يرافقه التلويح الهستيري بالآلاف من الأعلام استمر لبضع دقائق.

عندما هدأ الحشد، قال بصوت عالٍ: «أيها الرفاق!» قابله الحشد بالصيحات والصفير أدرك ناجي خطأه، ورفع يديه وقال بصوته الأجش

كلمات سحرية: «أيها المواطنون! الهنغاريون!» حينها اهتاج الحشد. كان كثيرون يذرفون دموع الفرح من عيونهم - لقد جاء الخلاص أخيراً!

في الوقت نفسه، الذي كان فيه ناجي يخاطب الحشود، كان ممثلو اتحاد الطلاب، وكان من بينهم يانوش كوفاتش، البالغ من العمر 22 عاماً، يقفون في مكتب سكرتير الحزب جيرو، ويضغطون عليه لإجراء إصلاحات فورية. وقد وعد بأنّه سوف ينظر في مطالبهم، ولكن هذا سيستغرق بعض الوقت. ولكن الوقت هو الشيء الذي لم يكن يمتلكه. كان المزيد من الطلاب يتجمعون في مبنى الجامعة التقنية؛ كانت الشائعات والخطب المثيرة تلهب حماسهم. كان الأمر مثل إخراج المارد من القمقم؛ كانوا يهتفون بالشعارات، وقد انطلقوا من حرم الجامعة وتوجهوا إلى مبنى الإذاعة المغلق بالحواجز للانضمام إلى زملائهم المحتجين ليقرؤوا رسالتهم على الهواء. عندما وصلوا إلى الصفوف الأولى من الحشد، والذي تجمع أفراده منذ منتصف بعد الظهر وقد كانت الحواجز التي أقامتها الشرطة السرية لا تزال موضوعة أمامه لتمنع تقدمه، لم يكن لدى القادمين الجدد أيّ فكرة عما يجري أمامهم واستمروا في التدافع إلى الأمام. بحلول الساعة 22:30، أصبح الاندفاع كبيراً لدرجة أن الحاجز المعدني قد وقع على الأرض مما أدّى إلى تدفق الحشود والتوجه نحو مبنى الإذاعة.

بات جهاز الشرطة السرية يواجه مصاعب متزايدة، كان هذا الاستهزاء بسلطته مثيراً للغضب لأنّه لم يكن متوقعاً. لا أحد يستطيع بعد ذلك أن يشرح كيف تطورت الأحداث. ارتفع صوت إطلاق الرصاص، ثم انفجرت قنبلة يدوية. ثم ارتفع صوت طلقة رصاص أخرى وعندها سقط ميتاً أحد زعماء الطلاب، وهو يلوح بالعلم. وسط صرخات الألم والغضب، اندفعت الحشود إلى الأمام، وقد نحت جانباً الحواجز التي أقامتها الشرطة السرية وتوجهت نحو بوابة مدخل مبنى الإذاعة. كان أحد أفراد الشرطة السرية ممن تمّ تجنيدهم حديثاً يحمل رشاشاً آليّاً،

وكان واقفاً على سطح البناية المقابلة لمبنى الإذاعة، وحين أصابه الذعر وبدون انتظار صدور أمر من ضابطه، قام بإطلاق النار من رشاشه. سمع عملاء آخرون للشرطة السرية صوت إطلاق النار. واعتقاداً منهم بأنّه قد تمّ إصدار الأمر بفتح النار، بدؤوا برش الحشود ببنادقهم الأوتوماتيكية ووجد آلاف الطلاب أنفسهم في مواجهة فوهات البنادق.

اخترق الرصاص الحشد الكثيف، وتسبب في تمزيق الأجساد وتقطيع أوصال الشبان الصغار. ترنحت دزينة منهم وسقطت أرضاً، ثم شعر الكثيرون بالدوار واختفوا عن الأنظار. توجه الحشد نحو مداخل المبنى. تمّ إطلاق النار على بعضهم وهم على بعد خطوات فقط من حرم المبنى. كانت قعقعة البنادق الآلية تسمع من جميع أسطح المباني المجاورة. في هذه اللحظة، نزل إلى الشارع العديد من الشاحنات المغطاة بالقماش المشمع وهي محملة بالبنادق الأوتوماتيكية والعتاد: وقد ظلّ اللغز الوحيد الكبير في الانتفاضة المجرية هو معرفة المكان الذي انطلقت منه تلك الشاحنات، أو من هم الذين قدموا الأسلحة إلى أيدي الجماهير الغاضبة بشدة. انفتحت لحظتها كلّ أبواب جهنم. تعالت أصوات إطلاق النار. وكانت الرصاصات تنطلق في الهواء. أطلقت الجماهير الرصاص بشكل غريزي. وردّ عليهم أفراد الشرطة بشكل غريزي أيضاً. تحول كلّ شيء إلى كابوس مروع. كان الرصاص يوزع الموت على الجميع. كان من الممكن سماع أصوات إطلاق النار الصادر بشكل متقطع من البنادق الآلية بوضوح أمام مبنى البرلمان؛ وكان يمكن سماعها في جميع أنحاء بودابست، ومن هناك، كانت أسلاك الهاتف تحمل تلك الأصوات عبر المجر، إلى النمسا، ومنها إلى العالم. في وسط ذلك الوابل من الرصاص فإنّ أيّ فرصة للتوصل إلى حل سلمي كانت قد قبرت. قطعت شبكات الإذاعة والتلفزيون برامجها، كانت أصوات النقر على الآلات الكاتبة تسمع في غرف الأخبار في جميع أنحاء العالم: عاجل عاجل عاجل في يوم 23/ 10 في تمام الساعة 22:00 بتوقيت غرينتش اندلعت

ثورة في هنغاريا، وكالة أسيوشيتد برس تفيد بسماع أصوات إطلاق نار في بودابست.

كانت الأمهات المجريات القلقات يسألن أبناءهن وبناتهن في تلك الليلة: «إلى أين أنت ذاهب؟» وكان الجواب دائماً: «إلى المتاريس!» اقتحم المراهقون مراكز الشرطة، وتغلّبوا على رجال الشرطة، وسلّحوا أنفسهم بأسلحتهم. التقط آخرون الأسلحة من رجال الشرطة السرية القتلى أمام مبنى الإذاعة. كانوا يقتلعون حجارة الرصيف ويجمعونها ليصنعوا منها حواجز في الشوارع. كما قلبوا عربات الترام والشاحنات وأضرموا النار فيها. ترك مجندون شباب معسكراتهم وانضموا إلى الطلاب وجلبوا معهم أسلحتهم. ولوحوا بالأعلام وأنشدوا أغنية وطنية، كتبها قبل قرن ساندور بيتوفي المقاتل العظيم من أجل الحرية، والتي أصبحت كلماتها تتطابق بشكل كبير مع تلك اللحظات أكثر من أيّ وقت مضى: «ها نحن نقسم، ها نحن نقسم / لن نصبح عبيداً بعد اليوم!».

كان الوضع في بودابست يفلت من قبضة سكرتير الحزب جيرو.و في الساعات التالية، أجرى اتصالات في جميع أنحاء المدينة لدعوة مناصريه لعقد اجتماع طارئ. كان يتصرف كرجل يغرق، كان يحرك قلمه بعصبية، ولم يرفع عينيه عندما قال: «لقد طلبت من رفاقنا الروس تقديم مساعدتهم الأخوية».

«يا إلهي، أرنو. أوقف وصول الدبابات!» صاح أحد رجاله من الحرس القديم.

«لقد فات الأوان، إنهم في طريقهم».

«ستحدث مجزرة. إنهم أبناء شعبنا...».

تجاهل جيرو كلامه. «لن يوقفهم شيء الآن». وتردد للحظة ثم قال: «علاوة على ذلك، سأعين إيمري ناجي رئيساً لمجلس الدولة». صدم هذا الإعلان قادة الحزب المتشددين وكأن قنبلة سقطت عليهم.

كانت الساعة تشير إلى 05:00، من يوم 24 تشرين الأول 1956. إلى الشرق من بودابست، ارتفع شريط رمادي شاحب ليعلن عن حلول الفجر. استمر سماع ضجيج قتال الشوارع أكثر من أيّ وقت مضى منذ أن تمّ رفع الحواجز الأولى عند حوالي منتصف الليل. تمّ التغلب على أفراد الشرطة المحلية وعناصر جهاز الشرطة السرية على يد الأعداد المتزايدة باستمرار من المتمردين المسلحين. بدأت وحدات منهم تنمو في كلّ زاوية من زوايا الشوارع. في تقاطع المتحف، انضم كاهن إلى حاجز أقامه طلاب من الجامعة التقنية. رفع يديه وقام بتلاوة ترتيلة النبي زكريا: «من أجل الحب الذي يسكن قلب إلهنا، الذي يطل علينا مع شروق الشمس، ويساعد في تنوير أولئك الذين يحومون في الظلام، في ظلّ الموت، ويوجه طريقنا نحو الطريق المؤدي إلى السلام». استمع المتمردون الشباب إليه وصاحوا بصوت عالٍ: «آمين». تذكر يانوش كوفاتش عبارة أكثر ملاءمةً أخبره بها والده المزارع: «الذئب يأتي عند الفجر ليأكل».

ذلك الذئب كان مستيقظاً. قبل الفجر، أمر القائد السوفيتي في قطاع بودابست، الجنرال تيخونوف، قوة شرطة الأمن التابعة للجيش الروسي، بنقل عدد كبير من الدبابات وناقلات الجنود المدرعة من مركزهم في زيكيسفيرفار إلى وسط بودابست وتفريق مثيري الشغب «عن طريق استخدام القوة». وصلت الوحدات الأولى إلى ضواحي المدينة وبدأت في إطلاق النار على المتاريس. بحلول الساعة التاسعة صباحاً، كانت ثلاث فرق سوفياتية كاملة تخوض معارك الشوارع في وسط المدينة. تمّ تدريب الدبابات الروسية على القتال في الأراضي المفتوحة؛ والآن كانت مهمتهم الانخراط في قتال حرب شوارع في قطاع مكتظ بالسكان في مدينة قديمة، حيث كانت الشوارع ضيقة، وكان القناصون يكمنون لهم فوق أسطح المنازل والمراهقون يقومون برمي زجاجات مليئة بالبنزين من النوافذ المفتوحة.

كانت ماريا ويتنر، طالبة في التاسعة عشرة من عمرها، وواحدة من

«رماة زجاجات اللهب». كانت قد تلقت تدريباتها، كما فعل كلّ تلميذ مدرسة في هنغاريا، من كتاب «الحرس الشبابي» للمؤلف فادييف، وهو دليل لصنع القنابل الحارقة من البنزين، والذي جعلت قيادة الحزب دراسته إلزامية في الفصول الدراسية. قام هؤلاء الرماة بسحب البنزين من السيارات وإفراغه في زجاجات البيرة، ووضع شريط أو شريطين بارزين من الأعلى ويكون عنقها محكم الغلق مع صحيفة مطوية.ويغمر البنزين الشريط، ثم يقومون بإشعاله ومن ثم قذفه. كان ذلك سلاحاً هائلاً إذا تمّ التعامل معه بشكل صحيح. وسرعان ما أصبح الأطفال الذين كانوا يستخدمونه، وكثير منهم لم يكن سوى في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، خبراء بها. تحولت الدبابات الروسية في جميع أنحاء المدينة إلى مصائد موت ملتهبة، حيث يشعل الأطفال والمراهقون النيران فيها، حيث يهجمون بقنابل المولوتوف على الدبابات من مكان غير مرئي لها.

توصل طلاب كلية الكيمياء إلى طريقة مبتكرة لوقف تقدم الدبابات عن طريق سكب الصابون السائل على حجارة الرصيف في الشوارع حتى يجعلها تميل. وقد تسبب ذلك بالفعل في جعل الدبابات الثقيلة تنزلق إلى الوراء بلا حول ولا قوة وتتوقف في نهاية المطاف أمام المنازل. ثم يقوم الطلاب بعد ذلك، بالصعود عليها، ويسكبون البنزين من خلال فتحات أبراجها ثم يقومون برمي علبة كبريت داخلها فتنفجر! أمّا عمال البناء فقد وصلوا وهم يرتدون الخوذات، جالبين معهم صناديق من الديناميت وكبسولات التفجير. ثم قاموا بتجميع أصابع من المتفجرات، وربطوها إلى النهاية في خيط رفيع غير مرئي، مثل خيط صنارة الصيد، وعند مرور الدبابات، يتمّ سحب الخيط من نافذة في الطابق السفلي لتفجير الشحنة تحت عجلاتها. في الممرات الضيقة للغاية التي لا تسمح بمرور مركبات القوات الروسية التي تلاحق الثوار، قام القناصة بالصعود على أسطح المنازل واصطياد أفراد دوريات القوات الروسية الراجلة. انتشرت أوكار المقاومة في جميع أنحاء المدينة. ومع ذلك، كانت تفتقر إلى التنسيق

والتوجيه العام، وحاربت كلّ مجموعة بشكل فردي. هزّت الانفجارات واجهات المنازل، وكان صداها يتردد وبشكل متكرر على طول الممرات الخرسانية والحجرية الطويلة للشوارع الواسعة؛ كانت أعمدة الدخان والنيران تتصاعد خلف نهر الدانوب.

لغرض التقدم نحو مبنى البرلمان والإذاعة، كان على الروس أن يدخلوا في شارع سوروكساري حيث أغلقت الطريق عليهم عدد من المباني الشاهقة، مثل قصر كورفين. كان للمتمردين قول مأثور: «هناك ثلاث قوى كبرى، الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة الأمريكية، وممر كورفين». وكان الموقع الاستراتيجي الضيق هذا يقع وسط مجموعة كبيرة من الشقق، مع شوارع ضيقة جدّاً بحيث لا يمكن للدبابة المناورة، أو حتى القيام بتحريك برج مدافعها. كانت هناك محطة وقود تقع في مكان مناسب في زاوية قريبة، حيث كان يذهب المتمردون إليها للحصول على البنزين. ليس لملء السيارات، ولكن لملء زجاجات المولوتوف.

أصبحت ثورة بودابست وكأنّها حرائق غابات خرجت عن السيطرة؛ ساعدت التقارير الإذاعية على نشرها بسرعة في المدن الكبرى. شهدت مدينتي جيور وماغياروفار عدة اضطرابات. ذكرت تقارير أنّه سمع إطلاق نار في مدينة دبرتسن. تمّ إعلان حظر التجول في جميع أنحاء البلاد حتى الساعة 14:00. في هذه الأثناء، كان الناس يجلسون بقلق بالقرب من أجهزة المذياع في منازلهم. واصلت إذاعة بودابست تقديم تغطيتها المستمرة للمعارك المختلفة. وقد اقتحم مئة وعشرون مراهقاً جسر السلسلة القديم وعلقوا لافتة بيضاء عند ركيزته المركزية. دعا فريق كرة القدم الوطني، المشارك في أولمبياد ملبورن، المواطنين للتعبير عن مشاعرهم الوطنية. اندلعت معركة شرسة بين جسر ستالين وجسر إليزابيث على ضفاف نهر الدانوب، حيث اشتبكت خمس عشرة دبابة، كان قد استولى عليها المتمردون في وقت سابق، مع عدد كبير من الدبابات الروسية. تغلب الروس على المجريين لكونهم غير مدربين بعد على قيادة الدبابات، واستعادوها

منهم، ثم أطلقوا النار عليهم جميعاً. لم تكن المعركة غير متوازنة كما كانت تبدو. لم يكن الروس يعلمون حقّاً أين كان عدوّهم، وبسبب امتلاكها لعنصر المفاجأة، كانت القوى غير النظامية قوية بدرجة تكفي لمواجهة الأفواج النظامية. استمر إطلاق النار المتقطع لساعات، ثم خيم الصمت بشكل مفاجئ. وسادت حالة من الرعب في تلك المدينة المحاصرة.

صرح جيرو في رسالة بثّها عبر راديو بودابست وقد كان في حاجة ماسة إلى الدعم الشعبي، بعد أن دعا الروس إلى إرسال مزيد من القوات، وفشل، بأنّه اقترح على الحزب ومجالس العمال تنصيب إيمري ناجي رئيساً للمجلس الحاكم. مع هذه الخطوة السياسية، أعرب عن أمله في وضع ناجي تحت سيطرته. كان تأثير هذا الإعلان سحريّاً وتوقف القتال.

صدرت الدعوات للتوجه إلى «ساحة البرلمان»، وقال الكثير من الناس: «دعونا نسمع إيمري يتحدث». لم يكن ناجي وطنيّاً فقط؛ بل كان أيضاً السياسي الأكثر جاذبية في بلده. عندما خرج على شرفة البرلمان وخاطب الحشود، بدا الأمر كما لو أن الربيع قد جاء. ووعد بأنّه لن يسمح لأيّ عقبة أن تعرقل برنامجه المتمثل في «شعب واحد وأمة واحدة ومجر واحدة». هتفت الحشود وبدأت تردد نشيد المارسيليز.

سمع ناجي بخبر تعيينه في المنصب السياسي عن طريق المذياع. بعد الانتهاء من كلمته، ذهب برفقة صهره، فيرينك يانوشي، لرؤية سكرتير الحزب جيرو في مكتبه. كان جيرو غاضباً من خطاب ناجي أمام الحشد من دون إذنه. «أنت المحرض على أعمال الشغب هذه»، صرخ على الرجل الذي عينه للتوّ رئيس وزراء جديد.

ردّ عليه ناجي قائلاً: «لم أقم بأيّ شيء وأنت تعرف ذلك جيداً». وكان غاضباً مثله بسبب هذا الاتهام.

«كيف تجرؤ على إثارة الجماهير؟ أنت ليس لديك وظيفة ولا حتى منصب!».

ابتسم ناجي وقال: «أعتقد أنك عينتني للتوّ رئيساً للوزراء». كان

يعلم أن موقفه أقوى لم يسد البرود اجتماعهم فقط؛ بل كان محكوماً عليه بالفشل، لأن ناجي قرر بالفعل ألّا يصبح جزءاً من حكومة فقدت مصداقيتها بالفعل. لم يكن هو ولا جيرو يعلمان أن مبعوثي موسكو الخاصين، ميكويان وسوسلوف، قد وصلا بالطائرة إلى قاعدة جوية سوفيتية بالقرب من العاصمة المجرية. وأحضرتهم قافلة دبابات إلى بودابست. عند وصولهم إلى مقرّ القيادة العامة، ألقيا نظرة سريعة على الوضع الذي كان يتدهور بشكل سريع وقرّرا استبدال جيرو ليحل محله يانوش كادار، الذي كانوا يعرفون أنّه من المؤيدين لروسيا، وبالتالي اعتقدوا أنّه مقبول لدى كلّ من الحزب والمواطنين. لكن ذلك القرار كان قد فات أوانه الآن. كان الشارع قد حسم خياره. كان إيمري ناجي رجل الساعة، والشخص الوحيد المقبول لدى الهنغاريين.

كانت هناك مجموعة من المراسلين الأجانب تجلس حول مدخل منزل إيمري ناجي. لم يسمح سوى لمراسل محطة تلفزيونية واحدة فقط بالدخول. كان هناك شيء ما يحصل. زاد التوتر لديهم، ولم يكونوا متأكدين من السبب. عند الاستماع إلى المذياع، كان المجريون، ومراسلو الصحافة الأجنبية، يقومون بضبطه على مؤشر إرسال إذاعة صوت أمريكا في ميونيخ من أجل التعرف على ردّ فعل العالم الخارجي؛ كان عليهم تحمل الاستماع إلى فقرة طويلة من موسيقى الجاز، تتخلّلها عناوين الأخبار كلّ نصف ساعة والتي استمرت في التعامل مع المجر كحدث جانبي. ونقلت عن تقرير لشبكة سي. بي. أس. من مصدر مطلع في بودابست عن تغيير وشيك في الحكومة. اشتكى جان بيير بيدراسيني مصور مجلة باري ماتش الفرنسية، لزميل كان يشعر بالمستوى نفسه من الغضب يعمل في صحيفة كرونين زايتونغ التي تصدر في فيينا: «دائماً ما يحصل الشيء نفسه، كلّ شيء يحصل عليه الأمريكيون. إنّهم الأخ الكبير الآن. ونحن ليس لنا نصيب في شيء».

كانوا يرتشفون القهوة الساخنة من الترمس، ثم انتقلوا إلى احتساء

البيرة، وفعلوا ما كان يجبر على فعله كلّ مراسل صحفي في جميع الأوقـات: الانتظار. عند حوالي منتصف الليل، وقد كانوا متخمين بالمشروبات الكحولية الهنغارية اللاذعة، عاد الصحفيون إلى مساكنهم ليكتبوا تقاريرهم عن أحداث اليوم. على الرغم من مقالاتهم، التي تنبأت بحدوث ثورة وأنّها لا بدّ أن تقود في النهاية إلى سفك دماء كثيرة، فإنّ الغرب فشل في فهم تطلعات الشباب المجري. قليلون خارج البلاد أدركوا الخطر الذي كان يلوح في الأفق. كتب ألبير كامو، الذي تابع التطورات عبر المذياع: «لحظة اليأس هي وحدها، نقية، واثقة من نفسها، عديمة الرحمة في عواقبها، لها قوة قاسية. الحرية خطرة، من الصعب التعايش معها بقدر ما هي مثيرة» لقد كان المقصود من كلامه توجيه تحذير إلى جميع الأطراف.

كان 25 تشرين الأول هو اليوم الحاسم للثورة التي بدأت أحداثها منذ الصباح الباكر. تجمهر حشد من عمال مصانع زيببيل آيلاند للحديد الصلب، برفقة زوجاتهم، في ساحة البرلمان، أمام وحدات من الدبابات السوفيتية التي كانت تحرسه. قبل أربع وعشرين ساعة، كانوا رفاقاً طيبين يحملون بطاقات العضوية في الحزب؛ والآن استبدلوا راية العمال الحمراء بالعلم الهنغاري بألوانه الأحمر والأبيض والأخضر، يتوسطه شعار المنجل والمطرقة ليصبح راية الثورة. كانوا قد زينوا العلم بشرائط سوداء تكريماً للموتى الذين سقطوا في قتال اليومين السابقين.

أثبت الروس أنّهم ودودون للغاية. حتى إن قائدهم وعد بأنّه لن يستخدم القوة طالما أن أحداً لن يطلق النار على رجاله. لكن هذا بالضبط ما حدث؛ لم يكن العمال ولا زوجاتهم، بل رجال الشرطة السرية، الذين اتخذوا مواضع لهم خلف عدة رشاشات وضعوها على أسطح البنايات المحيطة بالميدان، كانوا هم من فتحوا النار فجأة على المجريين والروس على حدّ سواء. لقد حصلوا على ما كانوا يعدون العدة له، وهو الشروع في مذبحة. أغلق الروس بقوة أغطية دباباتهم وبدؤوا يطلقون النار على

الحشد. توفي اثنان وثمانون شخصاً على الفور. ثم انحنى رجل من الشرطة السرية فوق أحد الحواجز ورمى بعض القنابل اليدوية. شوهد من قبل البعض وأشار إليه أحد الرجال. كان من الصعب وصف الغضب الذي انتاب العمال حينها.

هرع ألف عامل وهم مسلحون بالمطارق والقضبان المعدنية والبنادق الأوتوماتيكية التي أخذوها من القتلى، واندفعوا نحو المبنى. وسقط مدفع رشاش في أيديهم وتمّ توجيهه نحو بوابة ثكنات الحراس. خرج بعض رجال الشرطة السرية من البوابة وهم يصرخون، رافعين أيديهم عالياً، واندفعوا مباشرة إلى مرمى نيران الرشاشات. كان هناك هجوم آخر على مجموعة قريبة من الشقق حيث تمّ رصد مدفع رشاش فيها. واستخدموا سيارة تابعة للجيش لاقتحام الباب الخشبي للمبنى، ثم اندفعوا نحو الدرج العريض، وبدؤوا بقتل كلّ من يجدونه في طريقهم. التجأ آخر من بقي من رجال الشرطة السرية للاختباء وراء المداخن على السطح، وبدؤوا بإطلاق النار من المدافع الرشاشة حتى نفد العتاد منهم. تمّ إلقاؤهم جميعاً على الرصيف أسفل المبنى ما عدا اثنين.

من المؤكد أن توقع أن البلاد بأكملها سوف تنهض لمساندة الثورة استنتاج مفروغ منه، أو أنّه يمكنها أن تصمد أمام قوة الجيش الأحمر. مارس الحزب الشيوعي تصفية قاسية لأيّ مصدر للمعارضة لفترة طويلة بحيث أصبح من الصعب إنشاء قيادة بديلة - ما لم يحدث شيء مثير يوفر حافزاً قويّاً. مثل هذا الحدث لم يكن ببعيد المنال. في الوقت الذي وقعت فيه مذبحة ساحة البرلمان، وقعت حادثة ذات عواقب بعيدة المدى داخل أكبر مجمع عسكري مجري في وسط المدينة، وهو ثكنات كيليان: فقد انضم أفراد فوجها إلى الثوار.

تراجعت الروح المعنوية للمقاتلين بسبب اضطرارهم لعدة سنوات إلى التلاؤم مع نظام التدريب الذي أدخله السوفييت - على سبيل المثال، اعتاد المجريون على تناول وجبات ساخنة في المساء؛ بدلاً من ذلك،

كان يتمّ إعطاؤهم وجبة ساخنة في الصباح. ومع ذلك، فإنّ الحدث الذي كان سيحصل، لا يمكن أن يعزى سببه فقط إلى انخفاض الروح المعنوية للجيش. كانت الحقيقة أكثر تعقيداً. عندما تلقى المجندون أوامر بالتحرك ودعم قوات الدبابات السوفيتية التي كانت تحت ضغوط شديدة، رفضوا إطاعة الأوامر. لقد كانوا مجريين أولاً وأخيراً، ولم يكونوا مستعدين للدفاع عن بعض التصورات الغامضة لمعاهدة وارسو. وجه هذا التحدي لوحدة البلدان الاشتراكية ضربة قاصمة للشيوعيين أتباع جيرو، وكان بمثابة رفض كامل للتفكير الاستراتيجي الشيوعي. منذ البداية، تأكد القادة السوفيت من أن أيّ قوة معارضة محتملة للحكام الشكليين الذين نصبوهم في دول أوروبا الشرقية لن تتاح لها أبداً فرصة القيام بثورة مضادة ناجحة إذا ما تمّ حرمانها من امتلاك الأسلحة الثقيلة. لم ينجحوا في منع حدوث ذلك في المجر، حيث كان العمال المنضمون إلى ميليشيات المصانع يتلقون تدريبات أسبوعية على أساليب الدفاع عن المدن، وكان على تلاميذ المدارس دراسة كتيبات تشرح طرق صنع القنابل اليدوية ذاتيّاً. لقد كان الروس وعملاؤهم المحليون في ورطة، ولم يكن لديهم بديل سوى الاستعداد لصراع طويل الأمد، والذي بات الآن حتميّاً. كان المتمردون المتواجدون في الأقبية والمداخل في وضع يسمح لهم بالضرب في المكان والزمان الذي يختارونه. وعلى الرغم من أنّهم كانوا ما زالوا غير قادرين على مواجهة العدوّ في قتال مفتوح، أو حتى للدفاع عن حاجز في وجه هجوم تقوم به دبابة كبيرة، فإنّهم قاموا بمضايقة السوفيت مثل «عدد لا يحصى من البعوض، يقوم بمهاجمة عملاق من الأمام ومن الخلف، إلى أن يستنفدوا قواه في النهاية».[6]

أصبحت الطوابق العليا وأسطح البنايات مواقع رئيسة للسيطرة على الشوارع. وفرت شبكات المجاري ممرات سرية ووسيلة للتواصل بين المقاتلين المحليين، مما سمح لهم بالانتقال من منطقة إلى أخرى ونقل

6- من أقوال ماوتسي تونغ.

الذخيرة والقيام بعمليات الإخلاء إذا لزم الأمر. بالنسبة للروس، لم يكن من المستحسن النزول إلى هناك والبحث عن المتمردين. لقد تعاملوا مع هذا الوضع إمّا عن طريق سدّ بعض شبكات المجاري أو إغراقها. ثم جاء دور القناصة. قُتل معظم الروس بطلقات في الرأس أو الرقبة. لم يكن المجريون جميعاً يطلقون نيران أسلحتهم بشكل عشوائي؛ كان كثير منهم يعرف في الواقع كيفية استخدامها؛ تركزت معظم طلقات القناصة خلال النهار على مكانين - الرأس والفخذ. كانت إصابات الفخذ تؤدي إلى العوق وكان الأمر يتطلب تواجد شخصين لرعاية جندي مصاب، وكان ذلك أمراً مهيناً. في الليل، كانت معظم الطلقات تصيب الفك السفلي. وقد كشفت بذلك الأخطار الحقيقية للتدخين.

عندما هرع الروس إلى أحد المباني بحثاً عن أحد القناصين، كان هناك احتمال أن يكون سلم المبنى مفخخاً، وقد هرب القناص عن طريق مسار لم يكن الروس يعرفونه. وهنا كانت للدبابات فائدة. وضع المجريون عدداً من الحواجز لوقف تقدمها. تسببت الكتل الخرسانية وحطام المباني والسواتر المصنوعة من الأكياس الرملية والخنادق أو مزيج من كلّ ذلك والتي وضعها المجريون في الشوارع في وقف حركة المدرعات والجنود بشكل فعال. لم يغلقوا جميع طرق الوصول حالاً؛ لكنهم تمكنوا باستخدام نظام الشوارع المغلقة من اقتياد الدبابات الروسية إلى منطقة قتل محددة مسبقاً.مع انضمام المزيد من الناس إلى الانتفاضة، بدأ الثوار في إجبار الروس على اتخاذ موقف دفاعي، فيما قاموا بتعزيز قواتهم وزيادة حجم وحداتهم من فرق صغيرة إلى كتائب نظامية أفرادها من العمال والطلبة. كانت ضرباتهم المتتالية ترفع من معنوياتهم وتستعيد ثقة السكان المدنيين بهم. وحينها أيضاً أظهر فوج من الجيش المجري تجاهلاً صريحاً للأوامر!

قريباً سوف يحل نوع من الحرب التقليدية محل القتال غير النظامي ولن تعتمد نتيجتها على القوة النسبية فقط، ولكن على القدرة والإرادة لتحقيق النصر. لكن الأمر يتطلب وجود عقل عسكريّ حتى يحدث ذلك.

حتى تلك اللحظة، كان المتمردون يعملون في شكل مجموعات متفرقة، غير مرتبطة بعضها ببعض. أدّى تدخل قوات الدبابات السوفيتية (فجر يوم 24 تشرين الأول) إلى توحيدهم في جبهة ثورية مترابطة وواسعة. لكنهم كانوا يفتقرون أكثر من أيّ شيء آخر إلى خطة متماسكة لا يمكن أن يرسمها إلّا قائد عسكري، وأن يكون ضليعاً في الأمور الاستراتيجية والتنسيقية والخدمات اللوجستية. كان هذا الرجل على وشك أن يصل إلى الواجهة، ومن المكان الأقل احتمالاً لمجيئه، وهو القيادة العليا للجيش.

بينما كانت يرد المزيد من التقارير عن حدوث هجمات متفرقة – على سبيل المثال، اقتحم «لواء الحرية» سجن غيستافوغاز وحرر أربع مئة وخمسين معتقلاً سياسيّاً؛ اقتحمت مجموعة أخرى من المتمردين مكاتب صحيفة الحزب، سزاباد نيب (الشعب الحر) وأشعلت النيران في أثاثها وملفاتها – أمّا الأخبار عن ثورة الجنود في ثكنات كيليان الواقعة في قلب المدينة فقد جعلت ولاء الجيش الهنغاري بأكمله في موضع تساؤل. أصدر يانوش كادار الذي كان يعاني من صدمة شديدة أوامره إلى وزارة الدفاع (لأسباب سياسية لا يمكن له أن يطلب من الروس القيام بالمهمة) بتحريك جميع الدبابات المجرية المتوفرة في الثكنة وإخماد التمرد الذي حصل فيها. تمّ تحويل المكالمة الهاتفية التي تحمل الأمر إلى القائد العام، لكن من استلمها أخيراً كان بال ماليتير، العقيد الشاب في الجيش الهنغاري، الذي كان يتواجد في مكان رئيسه أثناء وجوده مؤقتاً خارج المكتب.

كان بال ماليتير في التاسعة والثلاثين من العمر وطويل القامة للغاية. كان وجهه الوسيم يحمل نظرة فرد قوي وذي عزيمة – ويحمل صلابة المقاتل الذي شهد، خلال فترة تنقله في مختلف صنوف القوات، الجانب الأقسى من الحياة. كان يتكلم قليلاً وكانت عيناه تلقي نظرة خاطفة حادة حول ما يجري من حوله وكان يستمع إلى أيّ شيء يقال. كانت لديه الصفات

الفطرية لقائد طبيعي يميل إلى جذب أنصار له ويلهمهم الإخلاص له. كان من النادر أن يتخرج في الأكاديميات العسكرية الروسية قائد يتمتع بموهبة طبيعية مثل هذا العقيد الشاب. كان الهيكل الحزبي المتجانس بصلاحياته الداخلية الصارمة، يشدد على أن المرؤوس لا يستمد سلطته من صفاته الشخصية، ولكن من منصبه الحزبي المعين فيه. لذلك، فإنّ العقيد ماليتير، كان يفتقر إلى المكونات الصحيحة ليصبح كادراً جيداً في الحزب، لذلك تمّت تنحيته جانباً. ولذلك كان من المتوقع له أن يشغل في الجيش منصب عقيد إداري، ولن يكون قائداً ميدانيّاً على الإطلاق.

وُلد ماليتير في مدينة بريسوف الواقعة على الحدود النمساوية السلوفاكية، ودرس الطب في براغ. قبل فترة وجيزة من استيلاء النازيين على تشيكوسلوفاكيا، انتقل إلى بودابست، حيث واصل دراساته الطبية. عندما نفدت أمواله، تطوع للخدمة العسكرية في جيش الوصي المجري الأدميرال هورتي، الديكتاتور الذي كان دائماً يصطف مع حاكم البلد القوي. في ذلك الوقت كان هتلر هو الحاكم القوي. كان الالتحاق بالجيش هي وسيلة ماليتير لمواصلة دراسته والحصول على الجنسية المجرية. بحلول عام 1944 أصبح ملازماً في الجيش المجري الثاني المرابط في الجبهة الشرقية ليقاتل إلى جانب الألمان ضد الجيش الأحمر. في إحدى الليالي، استيقظوا من نومهم على صوت مدوٍّ ينطلق من أحد مكبرات الصوت: أيها المجريون! نحن نعرف أين أنتم. لا تطيعوا قادتكم الألمان، وإلّا ستندمون عند زيارتكم وطننا الأم.

في صباح اليوم التالي سحقت الكتائب الروسية مواضع القوات المجرية بدباباتها. كان الملازم ماليتير أحد الناجين القلائل من ذلك الهجوم. لم ينكر أبداً ميوله اليسارية وقَبِل بسهولة اقتراح السوفييت بأن يستبدل وجوده كأسير حرب بقتال النازيين في وطنه. بعد تدريب حزبي مكثف، تمّ إسقاطه بإنزال جوي فوق ترانسيلفانيا وخاض حملة حرب عصابات ممتازة. تمّ تكريمه لبطولته بأعلى شارة للشجاعة في الاتحاد

السوفيتي، وقلدها إياه المارشال مالينوفسكي شخصيّاً وانتقل ماليتير مع الجيش الأحمر إلى بودابست، وفي كانون الثاني 1945، بعد أن اكتسب ثقة الروس، تمّ تكليفه بقيادة اللواء الذي يحمي الحكومة المجرية المؤقتة. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ليكتشف مدى وحشية النظام القمعي الذي كان ينصّبه ستالين في جميع أنحاء الأراضي التي يحكمها، وقسوة السياسيين الذين احتفظوا بالسلطة اعتماداً على القبضة الحديدية للجيش الأحمر. كان النقيب، ثم الرائد ماليتير، الرجل الذي يتمتع بالأمانة والذكاء العالي، يجمع ما بين شخصية قوية وكره شديد، وإن كان مخفيّاً، للهراء الماركسي. ومع ذلك، لم يكن ذلك الشخص الذي يخون ولاءه للعلم الذي أقسم على الدفاع عنه. في الجيش، لا أحد يثق في أحد. للحصول على دليل على استمرار ولائه، اختبره نظام راكوشي من خلال نصب كمين له.

في صباح أحد الأيام، بينما كان يتناول وجبة الإفطار، طرق أحدهم بابه. كان صديقاً له منذ أيام دراسته في أكاديمية لودوفيكا العسكرية. وتحدث معه قائلاً: «ماليتير، نحن نعرف مشاعرك السياسية. نحن جميعاً نريد أن نعيش في عالم حرّ. يجب عليك مساعدتنا للتخلص من الروس». تناول ماليتير سلاحه ورافق الرجل إلى مركز الشرطة. في صباح اليوم التالي، جاء رجل رفيع المستوى لتهنئته على ولائه الثابت. كانت الشرطة السرية قد جندت «صديقه» وأرسلته إليه ليختبره.

بحلول أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، كان ماليتير قد وصل إلى رتبة عقيد. كان هادئاً، يفضل العمل بمفرده، على الرغم من أنّه كان يشيع السرور في من حوله ويبدو أنّه يستمتع بالعمل مع الآخرين. كانت لديه أيضاً القدرة على إيقاف أيّ أشياء ثانوية تشوش عليه تركيز انتباهه بالكامل وقدراته العقلية على المسألة المهمة التي يعمل عليها، سواء كانت خطة افتراضية لعبور الحدود ومهاجمة العدوّ أو سحق عملية شغب حقيقية تحدث في بلده.

في الأشهر التي سبقت الأزمة، والتي نشأت أساساً بسبب الأحداث التي وقعت في بولندا المجاورة، كانت القيادات العليا داخل الجيش قد بدأت تعمل على خلق مقاربة جديدة تماماً للأوضاع. بل وكان هناك نقاش نقدي هادئ حول الأمور التي ظلّت بعيدة عن الأنظار منذ زمن طويل، وهو تعبير واضح ومتزايد عن السخط على النظام الذي كانوا يعيشون في ظلّه، مقارنةً بالحياة في الدول الديمقراطية في العالم الخارجي - والتي كان يتمّ منعهم بالطبع من الاطلاع عليها، أو لا يذهبون إليها إلّا تحت مراقبة شديدة. نما هذا الاستياء أيضاً في المستويات الأدنى في المجتمع، حيث كانت الغالبية العظمى منها تتألف من الشباب غير المتزوجين الذين تمّ استدعاؤهم للتجنيد الإلزامي. ومع استيلاء الأحداث في بولندا على عقولهم، كان الجنود مقتنعين بأن حدوث وضع ثوريّ مماثل أمر لا مفرّ منه في بلدهم وأنّه من المحتمل أن تنشأ مجر جديدة. لذلك، فليس من المستغرب، أنّه بمجرد اندلاع أعمال الشغب في تشرين الأول، انضم العديد من المجندين الشباب إلى صفوف المتمردين. وعندما حدث هذا، خرجت الدعوة لسحق المتمردين المجريين تحت جنازير الدبابات. وهكذا، بسبب غياب القائد العام، فإنّ الرجل الذي تلقى الأمر من قيادة الحزب المرعوبة، بأن يتوجه بالدبابات المجرية نحو إخماد التمرد في ثكنات كيليان كان هو العقيد بال ماليتير.

كانت تحت قيادة العقيد ماليتير خمس دبابات. وحين شرع في تلك المهمة كان يرتدي خوذته الفولاذية. ومثل هذا النوع من الخوذ يجعل من التفكير أمراً صعباً، وإذا حصل أيّ انفجار وأصاب سيارته، فإنّ الخوذة الفولاذية لن تكون مفيدة. انطلق رتله ليمرّ من أمام آثار الدمار الموجودة في وسط المدينة. تمّ تحطيم المئات من نوافذ المتاجر، لكن المثير للدهشة أنّه لم يتمّ سرقة أيّ شيء، مما يدل على أن هذه كانت ثورة نقية ولم يكن هدفها السلب والنهب. كانت تتناثر في الشوارع الداخلية عربات الترام المقلوبة والسيارات المحترقة. تمّ نقل الأشجار المتساقطة

على الرصيف لتعرقل سير الدبابات. وكانت النيران تشتعل في المتحف الوطني. وقعت معركة شرسة خارج المعهد الفني مباشرة وتمّ تغطية جثث الثوار الذين سقطوا بالأعلام المجرية. أمام فندق أستوريا، كان العشرات من الشباب الصغار يجلسون على الدبابات الروسية، وهم يلوحون بالأعلام ذات اللونين الأحمر والأخضر وقد أصبح من المعتاد حينها أن تحوي ثقباً في الوسط (ناجم عن تمزيق شعار المنجل والمطرقة الشيوعي) كرمز للثورة. ولكونه قائداً عسكريّاً محنكاً، ويحمل مشاعر وطنية كذلك، فقد نظر ماليتير إلى هذا الخراب بفزع. في شارع لاجوس كوسوث، مرّ رتله من أمام مجموعة من الطلاب المسلحين، وقد هتفوا عند رؤيتهم دبابات يقودها طاقم مجري. قفز صبي على الدبابة التي في المقدمة وسلم الجندي الذي يقف خلف مدفع الدبابة العلم الوطني وهو يقول: «عاشت المجر إلى الأبد!» كان هناك شيء ما يثير المشاعر في سذاجة ونقاء التفكير الذي كان يحمله هذا الصبي الصغير. ويمكن للمرء أن يعثر في الظروف المحيطة بهذا الحدث البسيط على الكثير من الدلائل على العوامل التي غيرت مسار الثورة المجرية.

تابع رتل الدبابات مسيره على طول شارع ألوي باتجاه ثكنات كيليان. على الجانب الآخر من الثكنة كانت توجد قلاع كورفين الشديدة التحصين. تمّ تحويل مجمع المباني هذا إلى حصن يتمركز فيه عمال مصانع الصلب، تحت قيادة الأخوين بونغراكز، واثنين من كبار قادة النقابة، وهما مارتون وسوليموشي، وأطلقوا على وحدة الميليشيات التابعة لهم اسم «فوج كورفين». في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، عندما حاولوا الاستيلاء على المجمع الاستراتيجي ووجدوا الباب الرئيس موصداً تحرسه وحدة من جهاز الشرطة السرية، رمى الأخوان بونغراكز عليه حقيبة للكتف تحمل شحنة متفجرات. وقع الانفجار أسفل الباب وكان حارسان من الشرطة السرية يقفان وراءه. وكان هناك عميلان آخران يقفان في الفناء، وكانت وجوههم تعكس الخوف الذي يشعرون به. تمّ

تقطيع أوصالهم بواسطة رشقة من بندقية آلية انتزعها أحد المتمردين من أحد قتلى الشرطة السرية عند بوابة المدخل. سمعوا صوت رتل الدبابات التي يقوده ماليتير المكون من خمس دبابات وهي تخترق الشارع قبل أن يروها. لم يسمع الأخوان بونغراكز بالمشكلة الموجودة في ثكنات كيليان القريبة، وكانوا متأكدين من أن الدبابات قد جاءت لتطردهم من حصنهم. كان قتال أفراد الشرطة السرية المسلحين ببنادق آلية شيئاً؛ ومواجهة مدافع الدبابات شيئاً آخر.

أدرك ماليتير المشكلة عندما رأى بأمّ عينه المشهد. مع وجود ثكنات كيليان على جانب، والتي يسيطر عليها جنود متمردون، وقصور كورفين على الجانب الآخر، التي كان يسيطر عليها العمال المتمرّدون، تحول تقاطع كورفين إلى «جدار الصد الخاص ببودابست». كان أمامه خياران: إمّا أن يقنعهم بالسماح له بالمرور أو يتركه، وفي غمرة تفكيره بالقرار الأنسب تأرجح الباب الكبير لثكنة كيليان قليلاً لينفتح وليخرج منه شاب يلوح بالعلم المجري وكان يوجد ثقب في وسطه. بعد لحظة، ظهر رجل آخر من قصور كورفين. توجه كلاهما إلى الدبابة التي في مقدمة رتل ماليتير.

تحدث الثورات بسرعة البرق. الأيام تصبح ساعات والساعات تغدو دقائق. في لحظة واحدة قد يؤدي اتخاذ قرار ما أو الرجوع عنه إلى ربح المعركة أو الحكم عليها بالفشل. وكان ماليتير يعيش حينها واحدة من تلك اللحظات الحرجة. وحين وجد نفسه في مواجهة جنود وعمال، تحرك شيء داخله. ربما كان السبب أنّه قد سئم من تراكم الأعباء الكثيرة على قواته، أو كان السبب ببساطة أن عقله كان أكثر وضوحاً وجعله يستطيع التنبؤ بما سيحصل لهم، وللبلد عموماً. أيّاً كان الأمر، كان يعلم أنّه لا يمكنه أن يصدر أمراً بإطلاق النار على أبناء وطنه المجريين!

في اللحظة التي انضم فيها بال ماليتير إلى الثورة، مال ميزان القوى لصالح المتمردين. فقد وجدت حركة المتمردين فيه قائدها العسكري. كان ماليتير قائداً ناجحاً وأساليب عمله ناجحة، حتى لو كانت غير تقليدية أحياناً. لم يعد

عقله العسكري منشغلاً بخوض قتال من أجل أراضٍ لا معنى لها من أجل الحكام السوفيت، ولكن من أجل أسرته وشعبه، من أجل المجر! كان يعلم جيداً أن هزيمة الدزوع السوفيتية في وسط مدينته ستحتاج إلى معجزة. وكان ما طلبه ماليتير من قدره هو المعجزة. في السابق كان يضحك دائماً على فكرة وجود نوع من التوجيه الروحي؛ كان رجلاً عمليّاً بشدة. والآن أصبح لديه شعور داخلي عميق أنّه يفعل الشيء الصحيح. اجتاحه شعورغريب بالطمأنينة: فقد أصبح مقتنعاً بأن القدر قد اختاره لمحاكاة كوسوث العظيم (مناضل مجري من أجل الحرية ومن رواد الديمقراطية في أوروبا – م.)؛ ولكنه سيموت أيضاً في هذا النضال من أجل الحرية. وربما بسبب هذا اليقين فقد قبل مصيره بهدوء. هتف رجاله عندما أخبرهم أنّهم الآن في مهمة مجيدة تتمثل في تحرير المجر. من هذه اللحظة فصاعداً، سوف يقاتلون، إذا لزم الأمر، الروس، ولكن لن يقاتلوا المجريين مرة أخرى أبداً.

جمع ماليتير بقية ضباطه. وقال لهم: «لا يوجد سبب لنا جميعاً للبقاء هنا. ما نحتاج إليه أكثر هو جمع الأسلحة والذخيرة من المستودعات. تكلموا مع أولئك الذين ما زالوا يحذرون من المخلصين للحكومة، وأخبروهم كيف تغيرت الأمور. سأجري بعض المكالمات. لا تنسَوا مستودعات جهاز الشرطة السرية. أمّا بالنسبة للأسلحة المضادة للدبابات، فيجب أن نعمل بما لدينا، فقد احتجز الروس مدفعيتنا في معسكراتهم».

توجه ماليتير، الذي كان يتميز بوضوح الرؤية، بشكل مباشر إلى جذر المسألة وسدد ضربته الأولى. كان على الجيش، كما هو ملزم دستوريّاً، حماية الحكومة. ومن خلال السيطرة على مستودعات الأسلحة في المدينة، ومخازن الذخيرة، سوف يستولي على قيادة الجيش، وهذا هو العامل الحاسم في كلّ ثورة.

لم يستغرق الأمر سوى عشر دقائق فقط حتى وصلت أخبار قضية ماليتير إلى يانوش كادار. مع انضمام ماليتير إلى الثورة، شعر الرئيس الشيوعي بالعجز. تمّ ترتيب لقاء بينهما وذهب ماليتير لرؤية كادار. في

سياق مناقشتهم كرّر العقيد اقتراحه. وجادل بأنّه يتعين على الحكومة استدعاء جميع جنود الاحتياط المتاحين وتشكيل «ميليشيا شعبية»، في حال ردّت موسكو بغزو أراضي الدولة ذات السيادة. وقال إنّه مهما كانت المخاطر السياسية، فلا بدّ من استخدام الجيش المجري ورفع جميع القيود المفروضة عليه. كان جيش الدولة هو التجمع الوحيد المنظم للسلطة داخل المجر، والقادر على إسقاط النظام الاشتراكي بأكمله. واجه كادار مأزقاً. كان السماح للعسكري بالتفكير يشكل خطراً على السياسي. ورغم ذلك، أدرك كادار أنّه إذا لم يقبل، فإنّ ماليتير سيعمل بشكل مستقل ويقوم بتشكيل ميليشياته.

وأشار العقيد من النافذة إلى بعض الدبابات الروسية المتوقفة في الخارج وتساءل ما فائدة هذه القوات الروسية؟ نحن بحاجة إلى بثّ نداء عبر المذياع وسنقوم قريباً بالسيطرة على جميع أنحاء بودابست، هذا إذا لم تكن المجر كلّها معنا. بهذا التهديد، اكتشف ماليتير نقطة قوة التمرد، ومنذ تلك اللحظة نجح في السيطرة على الأمور بمهارة وطاقة شخص ولد ثوريّاً. لقد استفاد بالكامل من نقاط ضعف خصومه، مستخدماً تعاليمهم كذخيرة لأسلحته.

كانت مهمته الأولى هي تطهير مركز بودابست من الروس. وكان المفتاح لذلك هي الجسور المقامة على نهر الدانوب. حدث اشتباك شرس بين الدبابات عند ضفة الدانوب. كانت دبابات تي 34 المجرية تتبادل إطلاق النار مع الدبابات الروسية من طراز تي 56 التي تتفوق عليها كثيراً عبر النهر. تمّ تدميرها وارتفعت غيوم سوداء في سماء بودابست جرّاء زيتها المحترق. ثم تراجعت الدبابات الروسية، متجهة بعيداً عن ساحة القتال، وهي تحمل عشرات الجرحى مكدسين خلف أبراج مدافعها.

صرخ أحد الطلاب: «الروس يتراجعون!»، وقفز إلى الضفة الترابية، ولوح بجنون بالعلم المجري؛ ما إن مرّت عدة ثوانٍ حتى قطعت أوصاله زخة رصاص انطلقت من الطرف الآخر من النهر.

سياق مناقشتهم كرّر العقيد اقتراحه. وجادل بأنّه يتعين على الحكومة استدعاء جميع جنود الاحتياط المتاحين وتشكيل «ميليشيا شعبية»، في حال ردّت موسكو بغزو أراضي الدولة ذات السيادة. وقال إنّه مهما كانت المخاطر السياسية، فلا بدّ من استخدام الجيش المجري ورفع جميع القيود المفروضة عليه. كان جيش الدولة هو التجمع الوحيد المنظم للسلطة داخل المجر، والقادر على إسقاط النظام الاشتراكي بأكمله. واجه كادار مأزقاً. كان السماح للعسكري بالتفكير يشكل خطراً على السياسي. ورغم ذلك، أدرك كادار أنّه إذا لم يقبل، فإنّ ماليتير سيعمل بشكل مستقل ويقوم بتشكيل ميليشياته.

وأشار العقيد من النافذة إلى بعض الدبابات الروسية المتوقفة في الخارج وتساءل ما فائدة هذه القوات الروسية؟ نحن بحاجة إلى بثّ نداء عبر المذياع وسنقوم قريباً بالسيطرة على جميع أنحاء بودابست، هذا إذا لم تكن المجر كلّها معنا. بهذا التهديد، اكتشف ماليتير نقطة قوة التمرد، ومنذ تلك اللحظة نجح في السيطرة على الأمور بمهارة وطاقة شخص ولد ثوريّاً. لقد استفاد بالكامل من نقاط ضعف خصومه، مستخدماً تعاليمهم كذخيرة لأسلحته.

كانت مهمته الأولى هي تطهير مركز بودابست من الروس. وكان المفتاح لذلك هي الجسور المقامة على نهر الدانوب. حدث اشتباك شرس بين الدبابات عند ضفة الدانوب. كانت دبابات تي 34 المجرية تتبادل إطلاق النار مع الدبابات الروسية من طراز تي 56 التي تتفوق عليها كثيراً عبر النهر. تمّ تدميرها وارتفعت غيوم سوداء في سماء بودابست جرّاء زيتها المحترق. ثم تراجعت الدبابات الروسية، متجهة بعيداً عن ساحة القتال، وهي تحمل عشرات الجرحى مكدسين خلف أبراج مدافعها.

صرخ أحد الطلاب: «الروس يتراجعون!»، وقفز إلى الضفة الترابية، ولوح بجنون بالعلم المجري؛ ما إن مرّت عدة ثوانٍ حتى قطعت أوصاله زخة رصاص انطلقت من الطرف الآخر من النهر.

لقد تغير نمط الأحداث بسرعة بمجرد تولي ماليتير قيادة العمليات العسكرية. كان هناك ضجيج في كلّ مكان، للقذائف التي تنفجر وصليل وزعيق جنازير الدبابات الهنغارية وهي تتخذ لها مواقع استراتيجية. كانت لا تطلق النار مباشرة من الأمام، ولكن من الجوانب أو من الخلف، في مواقع اختارها طاقمها بشكل جيد على طول الشوارع التي كانوا يعرفونها جيداً. لم يعد هناك شعور بالتعب من القتال بسبب عدم الوضوح في تعيين المسؤولية.فبينما كان الجنود في الماضي يتركون عادةً في حالة من عدم اليقين، فقد تمّ الآن إخبار الجميع بما يجب عليهم فعله. فقد باتوا يستخدمون إمكانياتهم في ضبط النفس والقدرة على التحمل، ويستثمرون مزاياها بأقصى سرعة.

عندما أصبح الموقف أكثر وضوحاً، تسنى للعقيد ماليتير أن ينظر إلى نتيجة عمليته ببعض الرضا، حتى لو لم يتحقق كلّ ما كان يأمله منها. لم يكن هناك أيّ مؤشر حتى الآن على وجود أية ثغرة يمكن استغلالها ضد الدبابات الروسية، ولكن تمّ تحقيق عدة مكاسب، خاصة في وسط بودابست، حيث تمّ عزل الوحدات الروسية وتركت غير متيقنة من مصيرها. اتخذ القناصة المجريون مواقع جيدة لهم وألحقوا بالروس الكثير من الإصابات، في حين ظهرت علامات تصدع في معنويات الروس. لقد اتضحت حقيقة مفادها أن الجيش الأحمر لم يكن كلي القدرة، ولا بمعزل عن الخطر، وكانت هذه علامة مشجعة.

تصدّرت الأحداث العناوين الرئيسة للصحف في جميع أنحاء العالم. وخلصت إلى الاستنتاج أن قدرة القوات الروسية لمقاومة الانتفاضة الشعبية كانت منخفضة للغاية وأن القوة الداخلية للنظام الشيوعي تراجعت بشدة، بحيث لن تكون قادرة على إخماد تمرد الطلاب والعمال، خصوصاً مع توفر دعم من الجيش المجري. عندما ينطوي الهدف السياسي للعدوّ على تضحية أصغر نسبيّاً من التضحيات المحتملة المطلوبة لهزيمته، فسوف يكون حجم الإرادة لمقاومته بالتالي أصغر. كانت تلك هي الطريقة

التي رأى بها ليس المجريون، بل والسياسيون في جميع أنحاء العالم، بداية الانسحاب المذهل للقوات الروسية من وسط بودابست. ذات يوم كانوا هناك، وفي اليوم التالي، اختفت الماكنة العسكرية الشيوعية القوية. لم يهتمّ المجريون بالسبب وراء انسحاب الروس؛ لم يكن يهمهم سوى الاحتفال. بحلول الأيام الأخيرة من شهر تشرين الأول، كانت بودابست غارقة في موجة من نشوة الفرح. وبعد أن أصبح ماليتير يحكم قبضته على الجيش، انتعش المزاج العام. وانتشرت النكات في جميع أنحاء البلاد. كانت النكتة المفضلة هي التي تتحدث عن المراهقين الذين يقرعون جرس باب العانس المعروفة بسرعة هياجها.

حين يقول لها أحدهم: «آنسة كودالي، إذا مسحنا أقدامنا وجعلناها نظيفة، فهل يمكننا الدخول وإطلاق النار من نافذتك؟».

قام مراسلو إذاعة بودابست بتغطية مظاهر الفرح والبهجة، ورفعوا من معنويات أفراد الشعب من خلال نقل سلسلة من المواضيع التي تتحدث بروح إيجابية. فبدؤوا يروون قصصاً عن مآثر من البطولات الفردية، مثل قفز الشباب الصغار على الدبابات السوفيتية، وهم يلوحون بالأعلام ويجربون ما تعلموه من كلمات في اللغة الروسية في مدرستهم ليخاطبوا بها الجنود: مرحباً أيها الرفيق (يقولونها باللغة الروسية -م) هل أخبركم سادتكم من نحن؟ متعصبون؟ فاشيون؟ أم مرتزقة يدفع لهم الأجانب ويحاولون تدمير الاشتراكية؟ قادتنا هم إيمري ناجي، الذي قاتل إلى جانب الاشتراكيين في إسبانيا، وبال ماليتير، الذي حارب النازيين مع الجيش الأحمر!

منذ أيام لاجوس كوسوث أعظم بطل وطني عرفته البلاد، الذي تغلب، في عام 1849، على الإمبراطورية النمساوية القوية، لم يتمتع أيّ شخص بشعبية أكبر من شعبية إيمري ناجي وبال ماليتير. وقد تعززت هذه الحقيقة في موسكو بتقرير صادر عن جهاز الاستخبارات الروسي: تمّ تعزيز مكانة ناجي وماليتير كرمز للتحدي عند الشعب المجري؛ وتحوّل

هذان الرجلان إلى رمزين في الجمهورية الشعبية الاشتراكية في كلّ من رومانيا وتشيكوسلوفاكيا المجاورتين. كان ذلك تحريضاً شاملاً. اجتمع سوسلوف وميكويان مع خروتشوف خلف أسوار الكرملين لغرض التشاور. لم تكن مشكلتهم المجر فقط، ولكن أيضاً احتمال التهديد بحدوث عدوى تنتشر في باقي البلدان الاشتراكية: كان يمكن للأزمة المجرية أن تدفع نصف الكرة الاشتراكي إلى الدخول في صراع يخرج عن السيطرة. ولكن هل يجرؤون أن يتحركوا؟ كانوا يسألون أنفسهم، ما زالوا يفتقرون إلى صورة واضحة لردّ فعل الغرب. ماذا لو قرّرت أمريكا أن ترسل فرقها المدرعة إلى الحدود التشيكية والنمساوية؟ يمكن القيام بذلك دون أيّ نية للقتال الفعلي، لكن يمكن أن يؤدي إلى اندلاع حرب. كان أولئك القابعون في موسكو أسرى إلى حدّ ما للدعاية المتشددة. لم تستطع موسكو الاستسلام – ولن يسمحوا لها بذلك. كان القرار الذي تمّ اتخاذه بالإجماع: توجيه ضربة إلى المتمردين فوراً!

كانت نصيحة نيكيتا خروتشوف هي «الصبر»، مدركاً أن أمريكا في عهد الرئيس أيزنهاور كانت منشغلة بحملته لإعادة انتخابه، وأن فرنسا وإنجلترا كانتا منزعجتين من قيام جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس. أبلغته مصادره الاستخبارية بأنّه سيحدث غزو وشيك لسيناء من قبل الإسرائيليين، بالتزامن مع الإنزال الذي ستقوم به القوات الإنجليزية والفرنسية على قناة السويس. كان الوقت المقدر للقيام بهذه العملية بين 28 و30 تشرين الأول. وسط هذا التشوش في الأخبار عن احتمال قيام حرب في الشرق الأوسط، ومع تحول الانتباه نحو النشرات الإخبارية الخاصة التي تبث من القاهرة وتل أبيب، والتعليقات السياسية في لندن وباريس وواشنطن، لم يعد هناك أيّ أحد في العالم يهتمّ بما يحدث في بودابست.

في وقت متأخر من بعد ظهر يوم 29 تشرين الأول، اقتحم ماليتير مكتب

إيمري ناجي ليخبره: «إن قوة فرنسية وإنجليزية مشتركة قامت بإنزال في قناة السويس». وفي هذه اللحظة، كان على ماليتير أن يدرك أن حلمهم قد انتهى. مع استمرار القتال في سيناء وعلى طول قناة السويس، أصبحت المجر مكشوفة وعاجزة. كان السوفيات قد «انسحبوا» ظاهريّاً - لأنّهم كانوا يعرفون طوال الوقت كلّ شيء عن قناة السويس! لقد كانوا ينتظرون فقط اللحظة المناسبة. مع تحول الاهتمام العالمي نحو مصر، فإنّ الروس لن يسمحوا أبداً بأن تفوتهم مثل هذه الفرصة.

في 29 تشرين الأول، وتحت إشراف الجنرال بيلا كيرالي والميجور جنرال بال ماليتير - تمّت ترقيته بين عشية وضحاها - تمّ تشكيل لجنة القوات المسلحة الثورية المركزية، والتي أصبحت منذ ذلك الحين هيئة القيادة الوحيدة للجيش المجري. في وقت لاحق من ذلك المساء، سلم يانوش كادار مهمة إعادة النظام في بودابست إلى ماليتير ووحداته المجرية. على الجبهة الدبلوماسية، وجدت المجر نفسها معزولة تماماً. في ظلّ هذه الظروف، كان من الصعب تصور كيفية إيجاد حل سلمي. ربما كان الوقت يعمل لصالحهم وكان من مصلحتهم في نهاية المطاف التقليل إلى أدنى حدّ من حجم التنازلات التي يجب منحها للروس، للسماح للمجر بتقرير مصيرها.

ثم حدث شيء غير متوقع وصل سوسلوف وميكويان إلى المجر في 30 تشرين الأول وبشكل مفاجئ تماماً في زيارة لم يعلن عنها وأعلنا أن موسكو مستعدة لقبول معظم فقرات اقتراح المجريين: «سيتمّ سحب جميع القوات السوفيتية من المجر كلّها ما عدا تلك التي تعتبر حيوية لضمان حماية البلدان الاشتراكية كما هو منصوص عليه في اتفاق جميع دول حلف وارسو». كان هذا أكثر مما كان ناجي يأمل فيه. وتوجه بصحبة زولتان تيلدي (الشخص غير الشيوعي الوحيد في الحكومة) وبال ماليتير، للالتقاء بالمبعوثين السوفيتيين لدراسة الاقتراح. استغرق هذا الاجتماع عدة ساعات.

وفي نهاية الاجتماع خاطب تيلدي بنفسه البرلمانيين الروسيين قائلاً:

«يجب أن تثقا برغبتنا في أن نبقى أصدقاء حميمين مع شعب الاتحاد السوفيتي وقادته. ليس لدى المجر أيّ نية لمتابعة أية سياسات معادية للسوفيت». وكونه صادر من شخص غير شيوعي، كان البيان له وزنه. كشف سوسلوف عن انزعاجه المعتاد، بينما ابتسم ميكويان. شعر ماليتير بتشنّج في معدته: فقد كانت ابتسامة ذلك الروسي صادقة للغاية لدرجة لا يمكن أن تكون حقيقية لأن هذا الاتفاق لم يكن أقل من اعتراف سوفيتي بالهزيمة، والروس لن يستسلموا أبداً! ومع ذلك، اقتنع بها الجميع، بما فيهم ألان دوليس، كبير جواسيس وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، والذي أكد للرئيس أيزنهاور أن هذه المعاهدة تمثل أهم معاهدة وافق عليها السوفيت على الإطلاق، وأنّها تشكل خطوة جدية إلى الأمام. في الواقع، شوهدت الدبابات الروسية وهي تنتقل من بودابست، وأفاد عملاؤه أن إحدى فرقهم كانت تنقل دباباتها على متن قطارات خاصة في مدينة زاهوني الحدودية، ومعها الآلات الموسيقية والأعلام وكلّ شيء. عند تقاطع شارع بودابست، كانت هناك نجمة معدنية حمراء سقطت من مبنى حكومي على الرصيف. اقتربت منها ثلاث دبابات سوفيتية، من تلك التي ستغادر المدينة. داست الأولى على النجمة، وكذلك فعلت الثانية. انحرفت الثالثة لتتجنبها لكنها داست بدلاً من ذلك على دراجة نارية متوقفة. التقط صاحبها حجارة من الرصيف ورمى بها الدبابة.

في ذلك المساء، بثّ راديو ميشكولتس، وهي مدينة صناعية، نداءً: «أوقفوا مجزرة إخواننا المجريين في بودابست. دعوا الوحدات السوفيتية تغادر المجر. أجبروهم على وقف إطلاق النار. لقد كان لدينا ما يكفي من الاستبداد الذي مارسه رؤساؤنا. نعم، نحن نريد الاشتراكية، ولكن لتكن اشتراكية مجرية على وجه التحديد، تعكس مصالح الطبقة العاملة ومشاعرنا الوطنية المقدسة».

انتشرت الشائعات في بودابست أن البلاد ستعود إلى المجتمع الرأسمالي الذي كان سائداً قبل الحرب، فنّد ماليتير هذه الشائعات. فقد أعلن خلال

مؤتمر صحفي: «لقد خرجنا إلى الشوارع لبناء دولة المجر الاشتراكية. عدا ذلك فهو أمر غير قابل للنقاش. لن نعيد الأراضي، ولا البنوك، ولا المصانع إلى ملاكها السابقين». مع مرور الأيام وقد أصبح النصر في نهاية المطاف أكثر من مجرد أمل خافت، بدؤوا في التخطيط للمستقبل. لم يغفل القادة الجدد في المجر هدفهم النهائي: تحرير البلاد حقّاً من الاحتلال الروسي وإعادة المجر بعد ذلك إلى حضن البلدان الاشتراكية.

ثم وقع حادث استخدمه الروس لاحقاً لتبرير تبدل موقفهم. على الرغم من هدوئها الخارجي، كانت بودابست لا تزال في حالة من الهياج؛ كانت مجموعات الأمن التي أسسها الأهالي تقوم بمطاردة عملاء الشرطة السرية في ضواحي المدينة، كان هذا مشابهاً لعمليات اصطياد حيوان الأيل الدامية، حيث كانت تنتهي دائماً بطلقة في الرأس. وفي عملية للحسابات ملطخة بالدماء، انتشرت عمليات الانتقام السريعة والقاسية في كلّ مكان. قتل مئتان وأربعة وثلاثون من عملاء الشرطة السرية في بودابست والمقاطعات. وقع حادث شنيع للغاية في ساحة الجمهورية، حيث يقع مقرّ الحزب الشيوعي لمنطقة بودابست الكبرى. وقد تمّ بناء المقرّ نفسه بمتانة وكان لا يزال خاضعاً للحراسة من قبل عملاء الشرطة السرية المكروهين المدججين بالرشاشات.

في الصباح الباكر، تجمع حشد كبير من الناس في الخارج في الساحة، كانوا عازمين أيضاً على تصفية حساباتهم. كان يوجد داخل المبنى سكرتير لجنة الحزب المحلية، إيمري ميزو، الذي اتصل هاتفيّاً باللجنة المركزية للحزب لترسل له مساعدة فورية. اتصلت اللجنة المركزية بوزارة الدفاع التي توجهت إلى بال ماليتير الذي أرسل على عجل ثلاث دبابات إلى الموقع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وتجنب حصول حمام دم. ومع ذلك، انضمت أطقم الدبابات إلى المتمردين ووجهت مدافع دباباتها صوب المبنى. في مواجهة حشد من الآلاف من الناس ومدفعية الدبابات، لم يعد أمام الوزير ميزو وحرسه القديم سوى الاستسلام. تعرض العديد من

كوادر الحزب للموت أو تمّ إلقاؤهم من النوافذ والأسطح. وتمّ تجميع آخرين في صفوف حول الساحة، وأعدموا. تسلّل الرجال الذين كانوا قبل يوم واحد يملكون سلطات غير مقيدة، من المبنى خلسة وكان يتملكهم الخوف ووجوههم شاحبة ويرتجفون، وكان ميزو وكوادر حزبه العليا من بينهم. استقبلهم الحشد المعتد بنفسه بقهقهات السخرية، ثم دفعوهم نحو الباب الأمامي وأعدموهم رمياً بالرصاص. غطى مصور فرنسي تلك المذبحة. واحتلت صورها الصفحات الأولى من الصحف في جميع أنحاء العالم. أدّى إعدام ميزو بدم بارد إلى حدوث تداعيات خطيرة.

وبينما كانت تنتشر في الأحياء الداخلية لمدينة بودابست رائحة المنازل المحترقة والنيران والجثث، ارتدت تداعيات موجة الصدمة من دوي الانفجار الإيديولوجي المجري نحو موسكو، مما كشف عن تنامي شكوك خطيرة وساهم في تعزيز قدرات القيادة العسكرية السوفيتية. كان قرار الانسحاب قد استند بشكل صارم على مبدأ النفعية السياسية، وبات ينظر إلى قيادة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي على أنّها قامت بإجراء تقييم خاطئ. كان جنرالات القيادة العسكرية غاضبين من تعالي أصوات احتجاج الرأي العام من أن الجيش الأحمر قد تعرض لإهانة كبيرة، وهي وجهة نظر كانت تشترك فيها الصحافة الغربية على نطاق واسع. أجبر الجيش لجنته المركزية على التدخل المباشر والوحشي. وأصبحت القضية الآن مسألة وقت.

كان أحد الأشخاص الذين شعروا بالقلق حيال اتفاق سوسلوف وميكويان هو سفير الولايات المتحدة لدى موسكو، تشارلز بوهلين. في تلك الليلة، وفي حفل استقبال في الكرملين، التقى مع المارشال جوكوف، الذي تبنى موقفاً متشدداً حيال «مكافحة الإرهاب» ولم يخفِ حديثه عن ضرورة إظهار «القبضة الحديدية». لم يستطع البطل السوفيتي، الذي أجبر القوة العسكرية لألمانيا النازية على الركوع، تحمل العار الذي لحق بآلة الحرب السوفيتية القوية على يد ذبابة مثل المجر. فأعلن قائلاً:

«يكفي ما جرى». كانت أفكاره، المدعومة من الاعتبارات الاستراتيجية، مدعومة بقوة من قبل الآخرين داخل الكرملين. قام السفير بوهلين بلفت انتباه واشنطن إلى هذا الأمر، لكن تحذيره لم يؤخذ على محمل الجد من قبل وزير الخارجية جون فوستر دالاس.

بحلول منتصف يوم 31 تشرين الأول، تمّ سحب آخر دبابة سوفيتية باقية من ميدان البرلمان. باتت بودابست خالية من الروس! ولكن هل كان الأمر كذلك؟ في الوقت الذي غادرت فيه آخر دبابة روسية بودابست، تلقى ماليتير مكالمة من أحد قادة وحداته في بلدة زاهوني الحدودية يخبره فيها أن أرتالاً جديدة من الدبابات السوفيتية قد عبرت الحدود إلى المجر. لم يجد مبدأ منح الاستقلال الفوري والكلي للمجر قبولاً له أبداً في الكرملين. سيتمّ إحداث فراغ استراتيجي خطير في جزء مهم من الإمبراطورية السوفيتية. ومع ذلك، كان هناك أمل ضعيف في أن يمكن أن يكون هناك نوع من التفاهم بين الروس والقادة المجريين الجدد. وربما كان سيحدث، لكن مثل هذا التفاهم حدث في الصراع الذي انفجر في الشرق الأوسط وهو: أزمة السويس.

التقى رئيس أساقفة إزترغوم وزعيم الكنيسة الكاثوليكية في المجر، الكاردينال مايندزنتي، الذي ظلّ رهن الإقامة الجبرية لأكثر من عام مع ماليتير. لم يحطم السجن عناد رجل الكنيسة، الذي يحمل إرثاً كاثوليكياً عمره 1000 عام. ووعده قائلاً: «خلال يومين سأتحدث إلى الشعب وأقدم حلاً»، وبهذا سيحل المشكلة التي تثير الجدل والمتمثلة في الجمع بين الدولة والدين في بيئة شديدة التدين، وخاصة في المجتمعات الزراعية.

في 2 تشرين الثاني، قدم إيمري ناجي مذكرة إلى السفير السوفيتي أندروبوف، يحتج فيها على استمرار تحركات القوات الروسية، بما في ذلك احتلال محطات وخطوط السكك الحديدية، وهو ما يتعارض مع اتفاق سوسلوف وميكويان السابق، والذي وضع أساساً لحل الأزمة. أخيراً، في 3 تشرين الثاني، شكل إيمري ناجي حكومة جديدة. أصبح

الجنرال ماليتير وزير دفاعه. أرسل ناجي رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة، أعلن فيها حياد المجر. لقد كانت خطوة جريئة، لأنّها وضعت المجر، في الواقع، خارج حلف وارسو. وفي حالة نشوب نزاع بين الشرق والغرب، ستصبح المجر، إلى جانب النمسا وسويسرا المحايدة، منطقة عازلة لا يدور فيها القتال. ومن الناحية الاستراتيجية، كان ذلك أمراً غير مقبول بالنسبة لموسكو.

في تلك الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني 1956، تمتعت بودابست بـ «نسائم الحرية». أعيد فتح المقاهي، وانطلق الأولاد بائعو الصحف يعلنون عن عناوينها الرئيسة وهم يتدافعون بين طاولات المقاهي، كان الناس سعداء في جميع أنحاء البلاد وخرجوا إلى الشوارع يحملون اللافتات ويرددون الأغاني. كان ناجي وماليتير بطلا تلك الأيام لقد تجرأ الأشخاص الذين لايعرف بعضهم بعضاً مطلقاً، على مناقشة الأوضاع بصراحة وعلناً وهم يشعرون بالسرور لتمكنهم من التحدث بكل بساطة بعضهم مع بعض، وكانوا أيضاً «أول» من فعل ذلك داخل الكتلة السوفيتية. أصبحت المدينة قرية عملاقة تضم مليوني شخص أرادوا جميعاً مقابلة بعضهم بعضاً. كان لدى كلّ عابر سبيل قصة أخرى يرويها، سواء كان ذلك عن معركة خاضها أو شاهدها أو إجراء عقابي تعرض له. كان الناس في الشوارع يستمتعون بأشعة الشمس. وكانت حشود الناس، تتناقش وتتجادل في الحدائق والساحات. كان المزارعون من الجمعيات التعاونية يقفون في ظهر شاحناتهم، ويقومون بتوزيع التفاح والدجاج للمواطنين[7].

وبسبب قيام العمال في البلاد بإعلان الإضراب منذ حوالي أسبوع. أطلق ماليتير نداء عبر الإذاعة، وحثّهم على العودة إلى مصانعهم «من أجل مصلحة المجر».

7- راجع: György Konrad, Le Complice, Paris, 1980

عادت عجلة الحياة لتدور من جديد. انتشرت الأحزاب السياسية الجديدة وبدأت في لعبتها المفضلة - المشاحنات. أصبح هناك حزب فلاحي قومي يسمى حزب بيتوفي، وحزب اشتراكي ديمقراطي وحزب أصحاب الملكية الصغيرة. وكان هناك أيضاً حزب شيوعي جديد. أخطأ إيمري ناجي مرة واحدة فقط في حياته السياسية المتميزة، عندما تغاضى عن حقيقة أن زعيم ما يسمى بالحزب الشيوعي الجديد لم يكن سوى يانوش كادار، الذي طرده ناجي من منصبه القيادي. ثبت أن هذا الخطأ كان قاتلاً. لم يكن كادار شخصاً يستسلم لما يحدث له؛ امتلك كادار الذي كان حزبه ما يزال يحتفظ بالأغلبية في البرلمان، أداة سياسية قوية في كفاحه المستمر من أجل السلطة. كما وفر له نقطة تواصل مع السوفيت. في مساء يوم الأول من تشرين الثاني اختفى كادار في ظروف غامضة من بودابست.

كانت الأخبار التي تصل إلى بودابست من محطات السكك الحديدية الحدودية تثير القلق بشكل متزايد. استولى الروس على خطوط السكك الحديدية التشيكية وكانوا ينشرون جيشاً من الدبابات من الشمال إلى جميع أنحاء سلوفاكيا. وعبروا نهر الدانوب وانتقلوا إلى مدينة أزترغوم وقرية راجكا. عبرت الدبابات نهر الدانوب عند مدينة كوماروم. تمّ الإبلاغ عن وجود المزيد من الدبابات على الحدود الرومانية بالقرب من مدينتي نيرباتور ودتبرسن. وكانت هناك وحدات مدرعة أصغر تتحرك بالفعل نحو مدينة سولنوك، التي تبعد مئة كيلومتر فقط (62 ميلاً) عن بودابست. تمّ الإبلاغ عن زيادة حركة النقل الجوي من القاعدة الجوية السوفيتية في زيكيسفيرفار، الواقعة على بعد 40 كيلومتراً (25 ميلاً) عن المدينة. لقد تمّ غزو المجر مرة أخرى! فقط في هذه المرة، كان السوفيت جادين في الأمر. لقد أتوا مع 2500 دبابة و1000 عربة مدرعة، وكان عدد أفراد قواتهم الإجمالية 75 ألف رجل، بالإضافة إلى مساندة قواتهم الاحتياطية.

بحلول مساء يوم 3 تشرين الثاني، وهو اليوم الذي أعلن فيه إيمري ناجي حياد المجر وتشكيل حكومته، كان يجري الاتصال بين بودابست

والمقاطعات عبر خط هاتفي واحد. وكان ماليتير يجتمع مع إيمري ناجي. على مدى الأيام القليلة الماضية، حاول ماليتير أن يحذر ناجي من الجانب السلبي لمعاهدة الصداقة المجرية السوفيتية. ووفقاً لرأيه، فإنّ السوفيت ليست لديهم أية نية للتخلي عن جزء من إمبراطوريتهم. وأن قراره سيخلق سابقة وخسارة فادحة لهيبة قوة عظمى في اللعبة الاستراتيجية العالمية. تحدث ماليتير بلهجة هادئة، دون إثارة الذعر، موضحاً لناجي أفضل السبل للتعامل مع هذا الوضع.

«الدبابات هي وسيلة السوفيت للانتقام لانتكاستهم المخزية. والمتشددون من قادتهم لا يهتمون بالرأي العام في بقية العالم؛ إنّهم يعتزمون أن يجعلوا منا عبرة للدول الأخرى التابعة لهم. أؤكد لكم أن الخطر لم يتضاءل، بل على العكس من ذلك، إنّه يزداد سوءاً». لقد كان متأكداً من أن خروتشوف كان يعتزم، بناءً على نصيحة سوسلوف وميكويان، تنظيم انقلاب مضاد وتنصيب بعض عملائهم ليضعوا الأمور في نصابها...

ردّ عليه ناجي: «ولكن لا يزال لدينا معاهدة تفاهم مع موسكو»، كان ما يزال يثق في فاعلية الورقة التي كتبت فيها المعاهدة، والتي يمكن للسياسي فقط أن يعول عليها، وليس ماليتير، الخبير الاستراتيجي العسكري.

حينها قال ماليتير إنّهم روس ونحن مجريون: «نحن لا نتحدث اللغة نفسها». لم يستمع إليه ناجي؛ لم يستطع الشيوعي القديم أن يتخيل أن السوفيت سوف يخونون عهدهم، لأنّه أراد من كلّ قلبه أن يرى حلمه يتحقق. لهذا، فقد فات الأوان. بمجرد عبور الدبابات الحدود التشيكية - المجرية والرومانية - المجرية، كشف القادة السوفيت عن غدرهم. عندما قدم له ماليتير أخيراً دليلاً لا يمكن إنكاره على حدوث غزو، أصبح وجه ناجي شاحباً.

«يجب أن نتحرك على الفور ونفعل شيئاً».

نظر إليه ماليتير: «ما هي الخطوة التي تفكر بها؟ في هذه اللحظة بالذات،

تتحرك مئات الدبابات صوبنا». حتى ماليتير لم يكن لديه فكرة عن البعد الحقيقي للغزو: كانت أعداد الدبابات المتوجهة إلى بودابست أكثر من أعداد الدبابات التي استخدمها كل من رومل ومونتغمري مجتمعين في معركة العلمين! كان خروتشوف مصمماً على وقف انتشار العدوى وهذا لا يستطع تحقيقه إلّا باستخدام القوة الوحشية بإفراط. لقد كان مصمماً على إثبات أن الاتحاد السوفيتي يجب ألّا يتمّ العبث به، ولهذا فقد وافق على خيار القبضة الحديدية.

لقد انتظر اللحظة المناسبة ثم تحرك بسرعة فائقة. ومع ذلك، ظلّ الروس يلجؤون إلى أساليب التأخير الدبلوماسية. أثناء تحرك أرتال الدبابات السوفيتية إلى المجر، أبلغ السفير السوفييتي إيمري ناجي أن الحكومة السوفيتية قبلت الاقتراح المجري وأنّها مستعدة للتفاوض على أساسه. لهذا كان من الضروري أن يقوم رئيس الوزراء الهنغاري بتشكيل وفد مؤلف من خبراء سياسيين وعسكريين. اقترح السفير أندروبوف أن يكون ماليتير رئيس فريق التفاوض. سيكون من الأسهل على رجل عسكري التفاوض مع رجل عسكري آخر. كان ينبغي أن يكون الهدف من حركته واضحاً للغاية بالنسبة لثعلب قديم في السياسة مثل ناجي: قطع رأس قائد الجيش، ثم التعامل مع السلطة السياسية التي ستترك بدون دعم. ومع ذلك وقع ناجي في الفخ واختار فريقه المفاوض. وكان وزير الداخلية فيرينك إردي يمثل الجانب السياسي، واختير وزير الدفاع الجنرال بال ماليتير للحصول على التفاصيل العسكرية. تمّ اختيار مجمع توكول العسكري الذي يقع خارج الضواحي الجنوبية لبودابست ليكون مكان اللقاء بين الوفدين. أعرب جيزا لوسونسي أحد المقربين جدّاً من إيمري ناجي عن مخاوفه: توكول قاعدة عسكرية سوفيتية. ماذا لو ألقوا القبض عليكم؟

أجابه ماليتير: «لا أستطيع أن أتخيل أن يقوموا بمثل هذه الخيانة الوضيعة من جانبهم». لكنه أضاف: «ما لم... بالطبع... من يعرف ذلك؟

لقد كان يعلم، بالطبع، أنّه كان هناك الكثير من هذه السوابق في الاتحاد السوفيتي خلال عهد ستالين». أدرك ماليتير أنّه لم يكن في مهمة يائسة فقط؛ بل كانت أيضاً مهمة الملاذ الأخير. بعد أسبوعين من القتال، كان الفتيان والفتيات الذين ملؤوا المتاريس يستحقون شيئاً أكثر من الموت دون مقابل. بالنسبة لماليتير، الرجل العسكري، كانت نية السوفيت واضحة. لقد كانوا عائدين ولا شيء يمنعهم قبل أن يحققوا هدفهم، الذي لم يكن أقل من إخماد الثورة. لذلك جاؤوا ومعهم الدبابات والقذائف والرصاص. كان أمام المجريين ثلاثة خيارات: القتال حتى آخر رجل، دون أمل في الحصول على مساعدة خارجية؛ أو الاستسلام والتعويل على أن يرحمهم الروس؛ أو التوجه نحو الحدود مع يوغسلافيا أو النمسا - وهذا يعني هجرة جماعية - لكن هذا لا يمكن تحقيقه في الوقت الباقي أمامهم.

بدأ الاجتماع في الساعة 22:00 مساءً، من يوم 3 تشرين الثاني 1956 في قاعدة توكول كان ماليتير قلقاً من هذا الاجتماع منذ البداية؛ ربما بشكل غير معقول، لأنّه لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله. كان من المستحيل عليه أيضاً أن يخمن. كان ماليتير رجلاً نبيلاً. في بعض الأحيان كان يتجاهل التجاوزات الصغيرة التي تصدر من بعض رجاله طالما أنّهم لم يعترضوا على الأشياء المهمة. لكن كانت هناك قواعد شرف لم يكن يحيد عنها هذا الجنرال. كان يأمل فقط في أن يتصرف الجانب الآخر بطريقة مماثلة. بدت الأمور هادئة بشكل مطمئن في قاعدة توكول. استقبل جندي من حرس الشرف السوفيتي الوفد المجري. لم يكن هناك شيء، ولا أقل علامة على وجود خطر، ولم يكن هناك سبب لقلق ماليتير المزعج؛ ولكن كان لا يزال يشعر بالقلق. كانت هذه الأفكار تصرف انتباهه. لقد أخبر نفسه وهو يدخل ساحة خصمه بوجوب أن لا يشعر بالضعف الآن. كان من علامات شجاعته أنّه سيطر على خوفه، مما مكنه مجدداً من المضيّ قدماً وفعل ما يمليه عليه الواجب.

تمّ نقل المجريين إلى غرفة كبيرة، وعقب المصافحة المعتادة للأيدي عبر الطاولة، جلسوا قبالة نظرائهم السوفيت، وأمامهم طاولة كبيرة مغطاة بالقماش وقد وضعت عليها كالعادة المشروبات الغازية والزهور والأعلام الصغيرة. افتتح الوفد السوفيتي، برئاسة الجنرال مالينين، المفاوضات بالحديث المعتاد في مثل هذه المناسبة التي كانت مقتصرة على موضوع محدد، وهو الحديث عن الأخوة الاشتراكية الأبدية التي تجمع شعوبهم العظيمة. ثم تلاه الجزء الصعب، وهو المفاوضات.قبل أن يبدؤوا بالنقاش، انفتح الباب ليدخل منه شخص غير مدعو: الجنرال السوفيتي إيفان سيروف، رئيس الشرطة السرية الروسية. مشى إلى الجنرال مالينين وهمس في أذنه. جمع المندوب الروسي أوراقه ونهض. وبدون أن يقول كلمة، غادر هو ووفده الغرفة.

انفجر الجنرال غاضباً وكأن صاعقة ضربته: «ما هذا الذي يجري؟».

أعلن سيروف قائلاً: «انتهى الاجتماع. إنكم جميعاً قيد الاعتقال».

ضحك ماليتير باقتضاب، ولكن لم تكن ضحكته صادرة من القلب، لم تكن تحمل سوى مرارة الشعور بخيبة الأمل. كانت المكائد جزءاً من وجوده. واستمرت لفترة طويلة من حياته. ولكن دائماً ما كان يتمّ القيام باللعبة بواسطة قواعد معينة. لقد وقع وسط غابة بشرية لم تكن تحمل أيّ اعتبار حتى لمعظم قواعد اللياقة الأساسية. كانت تتصرف بأعلى مراحل البربرية والوحشية في النكث بالوعد والخيانة. قبل أن يتمكن من الاتصال ببودابست، تمّ إخراجه هو وزملاؤه بالقوة من الغرفة، ووضعوا في حافلة مغلقة، وتحركت بهم بعد ساعتين، كان صوت جنازير أول رتل للدبابة الروسية يسمع في بودابست. وقد وصل السوفيت ومعهم قوات المشاة الآلية المحمولة على حاملات الجنود والمدفعية التي تجرها الجرارات والدبابات. وكانوا ينوون هذه المرة، استخدام القوة الغاشمة دون اعتبار للقيود الدستورية أو القيود القانونية الأخرى، مبررين وحشيتهم تحت شعار «العين بالعين والسن بالسن». وهذا من شأنه أن يروق لجميع الذين

لم يكن للحقوق المدنية لديهم أيّ اعتبار يذكر. لم تكن قوتهم موجهة ضد المقاتلين العسكريين فحسب، بل وأيضاً ضد جميع المشتبه في دعمهم للمتمردين أو التعاطف معهم، من خلال الاستخدام المناسب للإجراءات الانتقامية والإرهاب - بشكل عشوائي ودون أيّ قيود قضائية.

كانت الأمور تتحرك بسرعة البرق. في الساعة 3:30، هرع المساعد العسكري لإيمري ناجي إلى شقته، حيث كان يعمل على إعداد الخطاب الذي سيلقيه في صباح اليوم التالي، ليعلن فيه عن إبرام اتفاق مع السوفيت.

«لقد عاد الروس!».

بعد عشرين دقيقة وصلت رسالة أخرى.

«لقد شكل يانوش كادار حكومة معارضة في مدينة سولنوك».

إذا كان المجريون ما زالوا يأملون في حدوث معجزة، فإنّ انفجاراً قويّاً حطم أحلامهم. في الساعة 04:25، تلاشت شكوكهم بسقوط وابل من قذائف الدبابات، بهدف نشر الارتباك وانعدام الأمن. وصلت وحدة دبابات سوفيتية إلى الضاحية الجنوبية لبودابست، تناثرت شقق العمال، وفتحت النار على أحياء المدينة دون سابق إنذار. سرعان ما تبعت القذائف الأولى سلسلة من الانفجارات الشديدة من عدة اتجاهات. كانت الدبابات السوفيتية تتقدم نحو المدينة من جميع الاتجاهات.

استيقظ جان بيير بيدرازيني، المصور في مجلة باري ماتش، بعد أن اهتز جسمه إثر الانفجار الأول. كان يعرف ما معنى هذا بالنسبة له - الحصول على صور حصرية. كان واحداً من القلائل الذين بقوا في بودابست. بدا أن الأوضاع في المجر قد استقرت وباتت عيون محرري الأخبار الأجانب تركز على حدث طارئ آخر. كان جميع زملائه تقريباً قد غادروا متجهين نحو قناة السويس. هذا ما كان المخططون في موسكو يعولون عليه. مشى جان بيير بيدرازيني في اتجاه ثكنات كيليان. كان شارع كارولي مهجوراً. كانت حواجزه قد أُزيلت خلال أيام «السلام الزائف» للسماح بتدفق حركة المرور العادية. كانت أصوات إطلاق النار قادمة من

جنوب مدينة بودا، حيث كانت القوات المجرية تتمركز في ثكنات مدينة بوداورس. وجعله العواء المتزايد للمحركات الثقيلة يتيقن أن الدبابات تقترب. وصل إلى ساحة كالفين. كانت خالية من حركة المرور واستمر في المسير، واثق بغريزته أنّه سيعثر على مادة صحفية دسمة ومثيرة؛ كان متلهفاً للحصول على الصور. وفي تلك الأثناء، توهجت دائرتان ساطعتان أمامه، وخلف الدائرتين ظهر الشكل الغامض للوحش الدبابة تي 56 وهي تصوب سلاحها نحوه. سمع هدير محركها وهو يتصاعد في أثناء توجهها نحوه، وهي تزيد من سرعتها. أدرك نية السائق وقد أصابه شعور بالغثيان. تقدمت المركبة الثقيلة الضخمة بعد أن داست على سيارتين محترقتين، وسحقتهما تحت مرابطها الفولاذية. إنها تتجه مباشرة نحو المصور الفرنسي الذي اختبأ وراء شجرة، وكاميرته مثبتة على عينيه، وعدساتها بارزة إلى الأمام مثل صاروخ القاذفة بازوكا...[8]

على بعد مئة ميل (160 كم) من زملائه الوزراء المحاصرين، كان الجنرال بال ماليتير في طريقه إلى الأسر. أسرعت حافلته التي تقلّه من أمام أرتال الدبابات التي يتصاعد صريرها وهي تتجه نحو عاصمة المجر. كان يحدق من نافذة السيارة. يا له من ثمن باهظ يدفعه المرء من أجل الحرية. كانت أفكاره مليئة بالحزن. كانوا حمقى لأنّهم وثقوا بقطعة من الورق. وبدلاً من أن يجلب الروس الحرية إلى بلدهم، جلبوا جنونهم ودمارهم وإعداماتهم. كان الثمن الذي طلبوه مرتفعاً جدّاً. كان من الضروري الحفاظ على الهيمنة الروسية والآن سوف تموت بلاده الحبيبة. كانت الحرية التي استمرت ثلاثة عشر يوماً في المجر مجرد نبضات قلب وسط سنوات عديدة من اليأس.

قفز جيزا لوسونسيالي داخل سيارته الفيات الصغيرة وبدأ يقودها من أمام الحلقة المتراصة من الدبابات. عندما وصل إلى البرلمان، وجد

8- توفي بيدرازيني في المستشفى بعد أن ظهر العدد الخاص من المجلة الذي احتوى على صوره الأخيرة.

إيمري ناجي مع تيلدي وبيبو وسزابو. تمّ القبض على الآخرين جميعاً في أجزاء مختلفة من المدينة من خلال التقدم السريع للروس.

كان السؤال الأول الذي طرحه الجميع عليه: «إلى أيّ حدّ ساءت الأمور؟».

أجاب لوسونزي الذي كان يرتجف بشدة: «أسوأ مما تتخيلون. إنهم في كلّ مكان. لا شيء هناك سوى الدبابات، وهي تطلق النار على أيّ شيء يتحرك».

«أين يانوش، كادار؟».

«لقد اختفى».

«أين ماليتير؟».

«لا نعرف لم يصلنا شيء من قاعدة توكول ويجب أن نتوقع الأسوأ».

«يجب أن نجد الجنرال كيرالي...».

هزّ ناجي رأسه باستسلام. كلّا، لا نريد مزيد من الدماء. سأخاطب الناس عبر الراديو.

نصحه لوسونزي قائلاً: «إيمري يجب أن تغادر المدينة»، لكن ناجي قرر بالفعل البقاء في بودابست لكي يجري المفاوضات المباشرة من هناك. لم يكن هناك شيء يتمّ التفاوض عليه وكان الوقت ينفد. اتصل ناجي هاتفيّاً مع سفرائه في مختلف العواصم الأجنبية، على أمل أن تدفع نداءاتهم المجتمع الدولي إلى التدخل ووقف ما كان يخشى منه أن يحدث. لقد كان توقيت الروس للعملية جيداً؛ كانت الساعة 03:45 في لندن و22:45 في واشنطن، وهو ليس بالوقت المناسب للاتصال بزعماء العالم. عندما أجابوا أخيراً –وكان أيزنهاور واحداً منهم وقد أناب عنه وزير خارجيته جون فوستر دالاس – فإنّهم بخلاف تقديم عبارات احتجاج فارغة، لم يفعلوا شيئاً. انتهى كلّ شيء بالنسبة لناجي، ولكل المجريين. كان ماليتير محقّاً طوال الوقت؛ لن يسمح الكرملين لجزء من الكتلة السوفيتية أن ينسلخ عن هيمنته.

في الساعة 05:20، سمع أهل بودابست، الذين استيقظوا منذ أكثر من ساعة بسبب دويّ أصوات إطلاق النار المتواصل، صوت رئيس وزرائهم عبر المذياع. «معكم إيمري ناجي، يتحدث إليكم: «في فجر هذا اليوم، شنّت القوات السوفيتية هجوماً على عاصمتنا بقصد واضح هو الإطاحة بالحكومة الشرعية في المجر الديمقراطي. تقوم قواتنا بهجوم مضاد. لا زالت الحكومة تؤدي عملها. يجب أن أحذر الشعب المجري وأبلغ العالم بأسره بهذا العدوان غير المبرر». الحقيقة هي أن حكومة إيمري ناجي لم يكن لديها أيّ وسيلة لمكافحة هذا الغزو الجديد. تمّ تسليم رسالة إلى إيمري ناجي من القيادة العليا السوفيتية: ما لم يستسلم بحلول منتصف النهار، فإنّ القوات الجوية السوفيتية ستقصف بودابست. وللتدليل على نزاهته وأنّه قام بمحاولة أخيرة لمنع سفك الدماء؛ وجه في الساعة12:07 إحدى رسائله الأخيرة إلى شعبه، وكانت موجهة أساساً إلى القوات السوفيتية الغازية، قامت إذاعة كوسوث الحرة ببثها على الهواء. تحدث ناجي باللغتين الروسية والمجرية: «لا تطلقوا النار. تجنبوا حمام الدم. الروس هم أصدقاؤنا وسيظلون أصدقاء لنا».

تمّ بثّ رسالة أخرى على المحطة الإذاعية نفسها في الساعة 07:56، وكانت نداءً أخيراً مثيراً للشفقة من اتحاد الكتاب الهنغاريين: «نحن ندعو كلّ كاتب ومفكر أينما وجد في هذه اللحظة المأساوية. نتوسل إليكم، أن تهرعوا لمساعدتنا. ليس لدينا لحظة واحدة نضيعها. يجب أن تعرفوا ما يحدث في بلدنا الآن. هبّوا لإنقاذ المجر وحماية كتّابها وعلمائها وعمالها وفلاحيها. أنقذونا، الرجاء المساعدة، الرجاء المساعدة، الرجاء المساعدة...» بعد هذه الرسالة، صمتت إذاعة كوسوث الحرة.

ولكن بدأت محطة إذاعية أخرى تبثّ على الهواء. كان موقعها في شرق البلاد وحملت صوت فيرينك مونيتش. وأعلن من خلالها أن يانوش كادار قد شكّل الحكومة الثورية للعمال والفلاحين وخاطب كادار الناس قائلاً: «لقد أجبرتنا الأحداث على تحمل مسؤوليتنا؛ ونجد

أنّه من المستحيل بعد الآن القبول بالضغط الذي تمارسه القوى الرجعية على حكومة ناجي. نحن نقف ضد جميع الأنشطة المضادة للثورة التي تهدد جمهوريتنا الشعبية، من أجل حماية سلطة الطبقة العاملة والفلاحين وحماية مكتسباتهم الاشتراكية». وأعلن كادار عن قبول جميع النقاط التي حددتها حكومة ناجي، لكن باستثناء فقرة واحدة حيث إنّه لم يذكر إجراء انتخابات حرة. تلا هذا البيان الأول على الفور تقريباً، بيان ثانٍ والذي أوضح منصب كادار: «باسم جميع العمال والفلاحين في أمتنا، نتوجه بأنفسنا إلى القيادة العليا للجيش السوفيتي لتقوم بتقديم مساعدتها لنا وتحطيم القوى الرجعية الشريرة من أجل إعادة الهدوء إلى جميع أنحاء أرضنا. كانت هذه كذبة صارخة، لأن العمال تحديداً كانوا هم أول من قام بإقامة المتاريس ضد الروس! ومع ذلك، فإنّ نداء هذا الرجل الدمية كان يبرر قمع موسكو الوحشي للحريات الفردية في دولة شقيقة».

كان لا يزال الظلام مخيماً. فيما كان الضوء الأبيض المزعج الصادر من مصابيح الدبابات يستعرض الشقق التي تعرضت للقصف وأكوام الجثث المتراكمة في باحاتها. وكان الأمل الأخير في النجاة لمجموعات الطلاب هو أن يتفرقوا، ويقوموا بالالتفاف من حول الطوق السوفيتي والسير بشكل منفرد. في أولى ساعات عودة الدبابات السوفيتية، لم يكن يانوش كوفاتش، زعيم الطلاب من الجامعة التقنية، يعرف ماذا يجب أن يفعل، وهذا يفسر كم كان مرهقاً حينها. جلس يانوش بلا حراك وراء زاوية ممر كورفين. كان معه صديقه جوزيف فيدور. استمر يانوش يتذكر مع نفسه الأيام القليلة الماضية، لحظات الحرية الجميلة. لقد كان حلماً وانتهى؛ الآن سوف يعود النظام القمعي القديم، حكم القانون الظالم؛ قانون القمع والفساد الأخلاقي، وهو القانون الذي يستعبد الإنسان لا لشيء سوى لأنه أراد أكثر من أيّ شيء آخر أن يكون حرّاً. لم يتمكنوا من تحقيق ذلك بمفردهم ولا يمكنهم توقع مساعدة من الخارج. لقد حان الوقت لإعطاء أمره النهائي، وحل الوحدات القتالية الطلابية التي كانت لا تزال قائمة.

«اذهب يا جوزيف، اذهب وحاول أن تبقى على قيد الحياة».

«لن أتركك».

«سأحطم أسنانك إذا لم تتحرك. والآن!».

«وأنت، ماذا ستفعل؟».

«سأقبل بما يخبئه القدر لي».

عانق جوزيف صديقه وركض وهو منحنٍ على طول واجهات المنزل. لم يكن العرق هو الذي يسيل على خد يانوش ويتساقط على قميصه؛ تساءل بلا خجل متى بكى آخر مرة. لم يكن الأمر مهمّاً الآن، ومع موت معظم أصدقائه. انفجر عدد قليل من قذائف الدبابات في مكان غير بعيد، لكنه كان مرهقاً للغاية فلم يبحث عن ملاذ منها. حاصرت الدبابات السوفيتية آخر عشرة من رفاقه، وهو كلّ ما بقي من مجموعته الأصلية التي كان عددها مئتي شخص؛ وكان بينهم من يحمل قاذفة آر. بي. جي. الصاروخية وعشرات من زجاجات المولوتوف. يمكن لقاذفة الصواريخ تلك تدمير دبابة واحدة على الأقل، ولكن ماذا عن البقية؟ لم يكن يعرف السبب وراء عدم تقدم الدبابات.[9] أدرك يانوش أنّه بعيد عمن سيكون الرابح أو الخاسر، فإنّ المعركة لن تنتهي عندما يتمّ إعلان وقف إطلاق النار في النهاية. سيكون هناك دائماً رصاصة أخرى يجب إطلاقها - ربما بواسطة فرقة الإعدام.

أمسك يانوش بقاذفة الآر. بي. جي. وتحرك مع رجاله للتحضير لشنّ هجوم على إحدى الدبابات. كان متعباً جدّاً، فمال على جدار أحد المباني. كلّ ما رآه كان الكثير من الصبية الملطخين بالدماء والذين أرهقهم القتال في مواجهة وحوش العصر الآلي، فجأة دبّت الحياة في محركات الدبابات وعندما تحولت الدبابة الأولى إلى إحدى الزوايا كان ضوء

9- كان المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي لا يزال غير متيقن من ردّ فعل العالم على مهاجمة قواتهم لبودابست، لذلك تلكأ في إصدار الأوامر بشنّ الهجوم النهائي.

مصابيحها الذي يحرق العيون مسلطاً عليه. صوّب يانوش القاذفة نحوها وسحب الزناد. حدث وميض شديد الانفجار يصمّ الآذان، تلاه توهج مدوٍّ للهيب من النار. تفككت الدبابة التي في المقدمة. أطلقت الدبابة الثانية النار. اهتزّت الأرض تحت قدمي يانوش، أصيب في ظهره، شاط جلده ابتداء من فروة الرأس، ولم يعد يسمع صوتاً؛ سدّ الانفجار طبلة أذنه. لكنه استطاع أن يتذوق طعم الدم الذي كان يسيل من أنفه إلى فمه.

وبدأ تدريجيّاً يستعيد الشعور بظهره المشلول. شعر باهتزاز قوي. يبدو أن خرسانة الطريق تتشقق تحته. رغم أنّه لم يستطع سماع صوتها، فقد رأى بقية الدبابات وهي تدور من حول الدبابة تي 56 المحترقة. ارتفع الدخان الأسود الكثيف من الدبابة التي أصبحت الآن ركاماً محطماً. أطلقت أربع دبابات النار في وقت واحد. كان هناك جدار يحمي يانوش من أسوأ لحظات الانفجار. كان أكثر حظّاً من معظم زملائه المقاتلين الشباب. احترق اثنان منهم على الفور حتى الموت جرّاء الانفجار اللاذع. جُرف ثلاثة منهم عبر الشارع، وتهشمت أجسادهم بسبب تعرضهم لشظايا متطايرة من الفولاذ وحجارة البناء. أمّا الباقون فقد سحقتهم القطع الخرسانية السميكة التي تساقطت عندما كانت مقدمة المبنى تنهار. كانت أولى الدبابات تتجه إلى حيث كان يانوش يختبئ. كلّ ما كان لديه زجاجة مليئة بالبنزين. تحرك ببطء على طول جدار أحد المنازل عندما نظر ليرى ماذا هناك حول الزاوية، رأى جنوداً يرتدون الخوذ يتسكعون في الشارع. أشعل فتيل زجاجة المولوتوف وبدأ في الركض نحو الدبابات. في اللحظة التي ألقى فيها الزجاجة سمع صوت طنين في أذنه! انفجرت قذيفة في الشارع قبالته في مكان لا يبعد عنه كثيراً. شعر يانوش بطعنة في صدره... عاد إلى المنزل وهو يعرج ورمى نفسه على الأرض، ووضع رأسه على الحائط. خرج القليل من الدم من إحدى زوايا فمه، في إشارة إلى أن الشظايا قد مزقت رئتيه. كان هناك وجه أحدهم لا يبعد عنه سوى قدم قد استدار نحوه ينظر إليه بعيون لا ترى شيئاً. حينها أغلق عينيه الملسوعتين.

كان يانوش كوفاتش واحداً من آلاف الشباب الثوريين المدفونين في مقبرة كيريبسي في بودابست.

كانت ماريا ويتنر، البالغة من العمر تسعة عشر عاماً، نائمة في منزلها، وهي أول ليلة لها في السرير منذ أكثر من أسبوع. عندما سمعت تجدد إطلاق النار، ارتدت ملابسها سريعاً للانضمام إلى وحدتها في ثكنات بيم.[10] وهي تقترب من ممرّ كورفين، مرّت من أمام جثة كانت ممددة على الرصيف. كانت بالقرب منها جثة أخرى، ثم أخرى. أسرعت ماريا في الركض، حتى تقطعت أنفاسها. فجأة توقفت، وجمدت بلا حراك وهي مصدومة. لقد كانت تتوقع أن تصادف في طريقها عدداً من الدبابات، لكن لم تتوقع أن تصوب إحداها بندقيتها نحوها مباشرة – كانت دبابة روسية من طراز تي 56، لكنها لم تكن تتحرك. خلفها كانت دبابة أخرى، برجها متفجر. وقد تمددت جثث طاقمها المشوية في مكان قريب. شيء آخر كان يتحرك بالقرب منها. تسبب ظهور مدفع دبابة أخرى في سريان الشلل في أطرافها. ثم رأت العلم المجري يرفرف من برجها، وفيها رجل يلوح لها، وقد ارتسمت ابتسامة جنونية على وجهه.

كان الطاقم الذي يستقل هذه الدبابة، التي كانت آخر دبابات تي 34 الهنغارية من جيل الحرب العالمية الثانية، قد نصب كميناً، ومن خلال عدة انفجارات قام بتدمير ثلاث دبابات روسية. وأظهرت المباني المحيطة بالمكان مدى شدة القصف. كانت الطوابق العليا تتمايل فوق أسس محطمة. سمعت ماريا صراخاً، ثم صوت تحطم زجاج مكسور أثناء سقوط جثة من طابق علوي إلى الشارع. وأعقبِ ذلك المزيد من إطلاق النار. انهار سقف المنزل المجاور لها وسط عاصفة من اللهب والشرر، وانفجر زجاج النوافذ إلى الخارج، ودوّى رنين سقوطه في الشارع. كانت تبحث عن ملجأ لها في المدخل. بسبب طرقها المستمر

10- على اسم الجنرال البولندي جوزيف بيم الذي انضم إلى مقاتلي الحرية في ثورة عام 1848.

للبوابة، فتح لها أحد الرجال الموجودين باباً جانبيّاً. كان لديه مظهر رجل مجنون، بشعره الأشعث وتحديقه المستمر بها والصادر من وجه متعب. لم يكن لديه هو وأسرته أيّ شيء يأكلونه ولم يكن لديهم ماء ولا كهرباء. أعرب عن أسفه قائلاً: «لم تكن هذه هي المرة الأولى»، وواصل الحديث بعد أن هدأ قليلاً: «لا زلت أتذكر الروس عندما جاؤوا إلى بودابست في عام 1945. أنا أعرف أساليبهم. بالنسبة إليهم، حياتي لا تساوي أكثر من رصاصة ثمنها كوبيكان»، (أصغر عملة معدنية روسية - م).

واصلت الدبابات شقّ طريقها نحو مركز المدينة؛ كانت المنازل محطمة بالقذائف، وتحولت أجزاء بأكملها من البلدة إلى أنقاض، تاركة آثاراً من سكانها تبعث على السخرية: ملابس أطفال، وأوعية، وبعض الزجاج المكسور؛ وصور ممزقة لأزواج يبتسمون، التقطت في يوم سعيد. في المنازل التي تمّ إنقاذها، كانت خزائن الأواني الفخارية المقلوبة والأثاث المكسور شاهداً على غضب الروس الغزاة. كانت هناك علامات على أن إحدى العوائل فرّت على عجل؛ كانت هناك وجبة طعام لم يكتمل تناولها على طبق بجانب حاوية طعام مفتوحة. كانت جدران السلالم المطلية باللون الأبيض ملطخة ببقع حمراء لأيدي كانت تنزف منها الدماء، مما يشير إلى أن شخصاً ما حاول النزول إلى الطابق السفلي.

كان الوكر الأخير للمقاومة في ثكنات كيليان، وهو المكان الذي انضم فيه بال ماليتير إلى ثورة حكم عليها بالفشل. أحاطت الدبابات والشاحنات العسكرية الروسية بالمبنى من جميع الجهات، وكانت على أهبة الاستعداد لإطلاق النار. ثم انتهى الأمر، ظهر علم أبيض من النافذة. أشهره المقاومون من خلال الجدران المدمرة، وكانت الأيدي مرتفعة. وكان معظمهم صغاراً كانوا بالكاد يبلغون من العمر ما يكفي لتنبت لهم لحية، وكان الجميع يرتدي ضمادة ملطخة بالدماء. أشار إليهم قائد الدبابة الروسية الاستمرار بالسير على طول شارع ألوي، بعيداً عن المباني. وكانت هناك حاملتا جنود مدرعتين واقفتين في الطريق. مع

صدور أصوات قرقعة شرسة من المدافع الرشاشة الثقيلة، تمّ قتل الجنود العزل جميعاً حتى آخر رجل منهم. نجا واحد فقط: جورج مولنار الذي عرض عليهم البقاء خلفهم من أجل إتلاف الوثائق التي تثير الشبهة. نظر من خلال ثقب أحدثته إحدى القذائف والرعب يتملكه إلى ما حدث في الشارع. أحنى رأسه، وانهمرت الدموع من عينيه، وبدأت تتساقط على ضمادة ساقه. اختبأ لمدة يومين تحت الأنقاض وبذلك أصبح الشاهد الوحيد على المذبحة التي جرت بحق المدافعين عن كيليان.

لم يكن ذعر الأيام الماضية شيئاً مقارنة بالجحيم المأساوي الذي تلاه. كان الآلاف يفرون من المدينة، ومن حسن حظهم أنّه تمّ تحذيرهم في الوقت المناسب. جرجرت مجموعات من العوائل نفسها بشكل مؤلم من تحت أنقاض المدينة، وبدا الآباء يدفعون العربات، والأمهات تجمع بسرعة ما هو موجود من ملابس على الحبال، وركب الأطفال وكبار السن العربات، كان بعضهم يبكي، وآخرون لا يفعلون سوى التحديق بعيون فارغة. ربما فكر بعض المراهقين في الوجوه التي لم تعد موجودة هناك. مع ذلك فإنّ الكثير منهم اعتادوا على الموت. بعد الأيام التي قضوها في المتاريس، عرفوا كم كان الموت سهلاً. قلة قليلة لم تفقد أحداً من أفراد العائلة، أو صديقاً في المدرسة. اختفى الكثيرون في تلك الهجرة الجماعية المروعة أو فقدوا أثناء الهجرة إلى بلدان أخرى: مثل كندا وأستراليا... لكن بودابست كانت مدينة كبيرة والآلاف الذين كان لديهم وقت للفرار كانوا جزءاً صغيراً من الملايين الذين ألقي القبض عليهم دون سابق إنذار. ثم كان هناك دائماً أولئك الذين، بغضّ النظر عن مدى ما كان الوضع مؤسفاً، سارعوا إلى جني الأرباح من تلك الظروف البائسة. وهم الذين عملوا في تهريب الأفراد؛ وكانوا يقدمون الوعود وبكل حقارة: «سأجعلك تعبر الحدود النمساوية، لكن ذلك سيكلفك...».

مع عزل بودابست تماماً لم يعد الفرار ممكناً، لم يعد أمام إيمري ناجي وأقرب مساعديه أيّ خيار آخر سوى طلب اللجوء السياسي داخل سفارة

دولة اشتراكية صديقة. لم تكن هناك سوى ممثلية واحدة مفتوحة أمامهم، وهي سفارة يوغوسلافيا، التي لم يكن رئيسها تيتو صديقاً للحكومة السوفيتية. في ذلك الوقت، كانت تعدّ مكاناً آمناً. كانت هناك «عملية هروب» مهمة أخرى. تلقى ملازم شاب في الجيش، يدعى بالينكاس-بالافيسيني الأمر بالقبض على الكاردينال مايندزنتي. وقام باقتياد أكبر قس كاثوليكي في البلاد عبر الشوارع الخلفية إلى السفارة الأمريكية. توجب على الكاردينال أن يبقى سنوات عديدة داخل مجمع السفارة الأمريكية، بينما تمّ إعدام الملازم الشاب بأمر مباشر من كادار الذي غضب كثيراً عليه.

لم يعد بمقدور إرزبيث بونغراكز البكاء. لقد رحل زوجها ولم يستطع أحد أن يقول لها أين يكون في تلك اللحظة. هل لا يزال حيّاً؟ لم تره منذ يومين. وقفت داخل الغرفة، راقبت الدبابات وهي تتجول، وصحونها التي في الخزانة التي كانت تهتز من أثر سقوط القذائف الثقيلة. أرادت ابنة عمها إيفا، التي كانت تقيم معها، إغلاق النافذة. لكن إرزبيث رفضت وقالت لها «لا، أرجوك اتركيها مفتوحة. على الأقل يمكننا أن نرى متى سيأتون إلينا». وبهذه الطريقة استطاعت أن تتحقق من حركة الدبابات الروسية، وهي تمرّ من أمام منزلها في طريقها نحو وسط المدينة حيث كانت تعرف أن زوجها كان يقاتل هناك.

تنهدت قائلة: «هل سيتوقفون؟ إنهم يلاحقوننا» كانت تخاطب نفسها أكثر من كونها تتحدث إلى إيفا. «دعينا لا نعيش تحت أية أوهام، نحن جميعا أصبحنا أهدافاً لهم الآن». استسلمت إيفا لكلامها. وتكورت في إحدى زوايا الغرفة ولم تعد تهتم؛ ضغطت يديها على أذنيها، ولم تستطع تحمل ضجيج الصرير الذي تصدره المرابط الفولاذية للدبابات التي كانت تنزلق على حجارة الرصيف. في الحقيقة، كان بونغراكز زوجها ومعه مقاتلو «فوج كورفين» يقاتلون حتى آخر رصاصة وآخر رجل. عندما اقتحم الروس أخيراً المبنى، وجدوا ثلاث مئة قتيل. أمّا أولئك الذين لم يكونوا قد ماتوا بعد، فقد قاموا بإطلاق النار عليهم.

بدأت جوديث ماليتير، الزوجة الشابة للعقيد البطل، تتذكر آخر مرة كانت فيها مع زوجها. لقد مرّت بضعة أيام قبل أن تحدث بينهما آخر مشكلة. أخبرها بما كان يحدث، وكان يبذل قصارى جهده للحفاظ على هدوء وطمأنينة صوته؛ أدركت أن الظروف كانت هي التي توجه أفعاله وأنّه لم يعد لديهم القدرة على السيطرة على مصائرهم. لقد ضيعوا القليل من الوقت وهما يودعان بعضهما بعضاً، لأن الإغراء بإغلاق أبوابهم بوجه العالم الخارجي كان كبيراً جدّاً. ثم رحل وأخذ كابوسها بعداً جديداً. لم تعد قادرة الآن على تحمل شقتهم الخانقة. كان ما يخيفها أكثر هو الشعور بالفراغ. كانت وحدها، من دون الرجل الذي كانت تحبه يقف إلى جانبها لحمايتها، كانت امرأة تمشي في عالم من الظلام ليس له حدود.

حدث ذلك في منتصف «يوم الأحد الدامي»، 4 تشرين الثاني 1956، وكان آخر أوكار المقاومة في المدينة موجود في ثكنات بيم. نجحت ماريا ويتنر، الطالبة البالغة من العمر تسعة عشر عاماً، في اجتياز الدبابات وكانت تملأ الزجاجات بالبنزين عندما تسببت قذيفة دبابة في إحداث حفرة كبيرة في الجدار. بدا أولئك الذين كانوا الأقرب إلى الجدار يتمايلون إلى أن أسكتهم مدفع رشاش إلى الأبد. نهضت ماريا من وسط ركام الانفجار الذي حدث وهي مغطاة بالغبار. بالنسبة لها، فإنّ الثورة انتهت. خرجت ماريا، وهي مشوشة ومصدومة، من المبنى، وقد رفعت يديها. حينها أطلق عليها جندي روسي النار. تظاهرت أنّها ميتة وأصبحت واحدة من المحظوظين الذين نجوا. في النهاية انتهى بها المطاف في المستشفى، حيث اعتقلتها الشرطة السرية التابعة لنظام كادار. وحكم عليها بالإعدام لمشاركتها في الثورة. تمّ تخفيف العقوبة إلى السجن المؤبد لأنّها كانت والدة لطفل يبلغ من العمر عامين. بعد خمسة عشر عاماً، صدر العفو بحقها وتمّ الإفراج عنها.

كتب لازلو نيميث[11] عن الساعات القليلة الأخيرة لذلك الموقف البطولي الذي حدث في بودابست (كنت أفكر في فتاة صغيرة كانت تقاتل من سطح مبنى في ساحة كالفين. قتل رفاقها الذين كانوا على جانبها لكنها استمرت في إطلاق النار حتى انهار جسدها الصغير أيضاً. كنت أشعر في قرارة قلبي، بأن هذه الفتاة الصغيرة كانت تتحدث. وهي التي أرسلت رسالة من سطح المبنى تقول فيها: «إيه، أيها العجوز الذي على وشك الموت. لقد ضحيت بحياتي الشابة الجميلة، فلا يهمني، أيها الإنسان المسكين العجوز، إذا كنت لا تقوم بواجبك؟».

عند ظهر يوم 9 تشرين الثاني. خيّم فوق بودابست صمت الموت المشؤوم. لم يبقَ هناك شيء يذكر بالثورة المجيدة، لم يعد هناك سوى الأشجار المحطمة، والأطلال التي يعلوها التراب والجثث غير المدفونة. في دوامة من إطلاقات الرصاص والقنابل المتفجرة، سقط الآلاف في الساعات الأخيرة اليائسة: من الطلاب والمتقاعدين، والفتيات والفتيان، والعمال وزوجاتهم.

بثّت الإذاعة خطاباً لرئيس الوزراء مونيتش، يتهم فيه عمال مصانع الصلب المضربين في مجمع زيبل الصناعي العملاق بأنّهم يستلهمون أفكارهم من الفاشيين. فرفعوا لافتة عملاقة كتب عليها: «إن الإضراب في مصانع زيبل يقوم به 40 ألف فرد من الأرستقراطيين والفاشيين».

كان ساندور زيلاغي وصديقه إيمري، وكلاهما مسلحان ببنادق قنص، يختبئان في آخر معاقل المقاومة، وهو مجمع مصانع الصلب الضخمة في جزيرة زيبل، حيث تحصن بضعة آلاف من العمال داخل قاعات التصنيع الواسعة. كان ساندور قد قال بثقة، قبل بضعة أيام: «يجب علينا الصمود حتى الأربعاء!».

«لماذا الأربعاء؟»، سأله إيمري.

11- لازلو نيميث، كاتب روائي مجري شهير، وكان ينشر مقالاته في الجريدة الأدبية المجرية.

«لأنه في ذلك اليوم سيكون قد تمّت إعادة انتخاب أيزنهاور رئيساً للولايات المتحدة».

«وماذا في ذلك؟».

«وماذا في ذلك؟ بعدها ستقوم الحرب. الأمريكيون لن يدعونا نموت». سيواجه أيزنهاور الروس. كان ساندور ما زال يتطلع إلى أمريكا باعتبارها السيد المحترم المخلص والحامي لهم. كانت أمريكا كبيرة وثرية. لكن الحجم والثروة ليسا دائماً هما الشرط المسبق للقوة والإرادة. كانت روما كبيرة وغنية - ودمرها البرابرة. كان ساندور يعبّر فقط عن آمال ملايين الهنغاريين الذين يتوقون إلى غدٍ أكثر إشراقاً. في الواقع، تمّت إعادة انتخاب أيزنهاور، ثم لم يفعل شيئاً.

«سوف ترى، كلّ شيء سيبدو أفضل غداً».

غداً - ما شكل هذا الغد الذي سيكون مختلفاً عن اليوم؟ بالنسبة لآلاف الهنغاريين لا يوجد هناك غد. فقط المزيد من القتال، والمزيد من القتلى، والمزيد من الإحباط.

ظهر مبعوث روسي في مصانع زيبل للحديد وهو يرفع الراية البيضاء.

«أطلب منكم أن تستسلموا، إن تدخلنا في مصلحتكم».

«في مصلحة من؟» صاح أحد العمال.

«نحن أصدقاؤكم، ليس لنا غاية سوى حماية إنجازاتكم وانتصاراتكم. لقد تلقينا طلباً مباشراً من حكومتكم».

قاطع ساندور حديث الموفد الروسي: «لم نطلب منكم ذلك. ونحن الشعب».

بعد ظهر ذلك اليوم، تحركت الدبابات الروسية صوب الجزيرة ثم شقّت طريقها إلى أرض المصنع. أفرغ أفراد لواء العمال القتالي آخر ما بقي لديهم من عتاد في الجنود ذوي البشرة الفاتحة الذين وضعوا على بدلاتهم شارة النجمة الحمراء. مات كثيرون من كلا الجانبين. استمرت

المعركة ساعتين. وخرج آخر من بقي من المدافعين وكانوا بضع مئات من المصنع وهم رافعون أيديهم. لم يأخذ الروس أسرى. نزل الليل. وبالنسبة لآلاف لا عدّ لهم، كانت تلك الليلة هي الأخيرة لهم.

(لقد تمّ سحق الثورة المضادة) صدر هذا الإعلان من إذاعة موسكو، وكتبت صحيفة لوفيغارو الباريسية تقول: «الجيش الأحمر يحتل الآن بودابست. وكان أحمر لأنّه تلطخ بدماء عمالها».

كان الحلم قد مات. قرّر العمال تعليق الإضراب العام الذي أصاب البلاد بالشلل مع أنّه كان يمثل خطهم الدفاعي الأخير. كان يجب أن يحدث ذلك، وإلّا فستحدث عملية انتحار جماعية.

إذا كان مصير الموتى قد حسم، فإنّ مصير الأحياء ظلّ معلقاً. على مدار أسبوع كامل، كان وكيل وزارة الخارجية اليوغوسلافي، فيديتش، والسفير اليوغوسلافي، سولداتيتش، يجريان لقاءات يومية مع يانوش كادار، ويبحثان عن «طريقة مقبولة» لإخراج إيمري ناجي من منفاه الذي فرضه على نفسه داخل السفارة اليوغوسلافية. في النهاية، حصل فيديتش على تأكيد موقع من يانوش كادار للحصول على خروج آمن لناجي وزملائه، مقابل الحصول على (إقرار بالذنب) مكتوباً بشكل معتدل، وهو ما يكفي لجعله مواطناً هنغاريّاً عاديّاً مرة أخرى. حتى إنّه عرض عليه مقعداً في حكومة كادار الجديدة، وهو أمر لم يقبله الشيوعيون المجريون القدامى في قيادة الحزب. تمّ تسليم مذكرة كادار إلى بلغراد وكانت تنص على أن اللاجئين السياسيين داخل السفارة اليوغوسلافية في بودابست لهم الحرية في العودة إلى منازلهم، وعلاوة على ذلك، لن يواجهوا تهماً قضائية.

في 22 من تشرين الثاني 1956، عند الساعة 18:30، توقفت حافلتان قدمتهما وزارة الصحة الهنغارية خارج بوابة السفارة اليوغوسلافية. ولغرض التأكد من عدم حدوث أيّ شيء غير مرغوب فيه لناجي وزملائه، تمّ تخصيص سيارتين من السفارة تقلّان مسؤولين يوغوسلافيين رفيعي المستوى لمرافقة القافلة. خرج عشرة رجال وخمس عشرة امرأة وسبعة عشر طفلاً من البوابة

وانحشروا في الحافلات، فجأة، انطلقت أمامهما حاملتا جنود سوفيتيتان مدرعتان وأغلقت الطريق عليهم. قفز دبلوماسي يوغوسلافي من سيارته ومشى إلى الضابط الروسي قائد المفرزة وقال له: «هذه قافلة دبلوماسية محمية تحت العلم اليوغسلافي. تمّ ضمان مسيرها الآمن من خلال اتفاق مكتوب بين الحكومة الهنغارية والحكومة اليوغسلافية».

خاطبه الملازم الروسي بامتعاض: «عليك ألّا تتدخل في هذه القضية»، وشقّ طريقه من أمام المسؤول وصعد إلى الحافلة الأمامية. وأمر السائق: «اتبع السيارات المدرعة». انطلقت القافلة وتوجهت مباشرة إلى مقرّ قيادة الجيش السوفيتي، وبينما خاطب عقيد عند البوابة المسؤولين اليوغوسلافيين بنبرة غاضبة: «اغربا عن وجهي». فقد تمّ من هناك، اقتياد ناجي ومن كان معه إلى داخل السيارات وتمّ نقلهم مع قافلة مشددة الحراسة إلى رومانيا. أدّت قضية ناجي إلى تدهور العلاقات اليوغوسلافية الروسية. وفي خطاب موجه إلى أفراد البحرية، ألقاه في قاعدة بولا البحرية، اتهم الرئيس اليوغوسلافي تيتو الكرملين بأنّه مسؤول بشكل مباشر عن المأساة المجرية. وردّت موسكو باتهام تيتو بدعم «الأفكار التحريفية». مع هذا التبادل للشتائم، أصبحت القطيعة بين موسكو وبلغراد نهائية.

أصبحت الثورة المجرية رمزاً للأوهام والقناعات الضائعة في جميع أنحاء العالم، وخلقت حالة جديدة من الاستياء. وأدّت في بلدان الغرب، وبشكل مباشر إلى نشوء شكل من أشكال الاشتراكية المنفتحة يسمى «اليسار الجديد». تسببت التغطية السينمائية والتلفزيونية للثورة الهنغارية في تقلص كبير في أعداد المنتمين إلى الأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية. لم يستطع الرفاق القدامى استيعاب ما اضطروا إلى مشاهدته على الهواء - نشوب تلك المعارك الضارية بين العمال الاشتراكيين والمضطهدين الاشتراكيين وهم السوفيت. في السنوات التي سبقت المأساة، كانوا قد اعتبروهم مثالاً للنموذج العظيم المناقض للرأسمالية،

والآن يشاهدونهم وهم يطحنون الرغبة في الحرية تحت المرابط الفولاذية للدبابات.

تخلى الآلاف من الأشخاص عن بطاقات عضويتهم في الأحزاب الشيوعية. استقال أعضاء بـارزون في اللجان المركزية للأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية. كتب الفيلسوف الفرنسي الشهير جان بول سارتر، والذي كان حتى تلك اللحظة مؤيداً علنيّاً لروسيا، مقالاً تضمن إدانة شديدة للمذابح التي ارتكبت باسم الاشتراكية. وظهرت تداعيات ذلك الحدث أيضاً في صناديق الاقتراع: خسرت الأحزاب الشيوعية في الانتخابات الوطنية في فرنسا وإيطاليا. فقدت النقابات العمالية الشيوعية في أوروبا الغربية، التي كانت تمثل القوة العمالية العظمى بعد الحرب، أكثر من نصف أتباعها.

لم يكن هناك قط إحصائية رسمية للضحايا الذين سقطوا في المعارك، تماماً، كما لم يكن هناك قط إحصاء لعدد عمليات الإعدام التي كانت خارج السيطرة ونفذت بحق المسلحين الذين استسلموا؛ ارتكبت هذه الأعمال أساساً من قبل الجيش الأحمر. ووفقاً لإفادة أحد المتمردين الهاربين[12]، فإنّه كان هناك ما بين 50 ألف إلى 60 ألف قتيل، بالإضافة إلى 150 ألف جريح آخر، على أقل تقدير. يضاف إلى هذا الرقم ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص، تمّ اعتقالهم وإعدامهم على دفعات خلال الأشهر التي تلت الانتفاضة (شتاء 1956 إلى 1957). العديد من الذين قتلوا أو أدينوا كانوا من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة عشر إلى ثلاثة وعشرين عاماً. جميع الذين لم يبلغوا سن السادسة عشرة - السن القانوني في هنغاريا لتنفيذ عقوبة الإعدام - اضطروا إلى انتظار عيد ميلادهم السادس عشر في السجن لمواجهة تنفيذ الحكم. أُرسل عشرات الآلاف إلى معسكرات العمل القسري في سيبيريا؛ وتمكن 230 ألف شخص من الفرار إلى النمسا ويوغوسلافيا.

12- راجع: George Paloczi-Horvath, Youth in Arms, London, 1971

بعد سبعة أيام من قيام الدبابات السوفيتية بسحق بودابست، استقبل الرئيس المبتهج خروتشوف رجل المجر القوي الجديد، يانوش كادار، في موسكو. ولكن في بلده، كان فعل الغدر الذي قام به قد كلفه ثقة الشعب الذين كان من المفترض أن يقوده. فلن يغفر له الفلاحون والعمال أبداً قيامه ببيعهم للروس. على الرغم من كلّ الدعم الذي قدمته إليها الحراب الروسية، كانت حكومة كادر العميلة عاجزة عن مواجهة المقاومة العنيدة التي تركزت في مجالس العمال، والتي كانت متجذرة بعمق في الطبقة العاملة المجرية. كانت التهديدات والوعود والطعون على حدّ سواء غير مجدية. لم يكن بإمكانها أبداً أن تمحو من الذاكرة أو أن تزيل آثار تلك الأسابيع المشؤومة من شهر تشرين الأول. في النهاية، تراجع كادار عن كلّ وعد قطعه وأغرق الأمة في عصر مظلم تحت سطوة السلاح السوفيتي.

كانت الانتفاضة المجرية حدثاً صادماً لكل من السوفييت والغرب على حدّ سواء، لأنّها حدثت بشكل غير متوقع. إنّه لأمر مؤسف للغاية أن القوى الغربية لم تدرك بالكامل وفوراً مدى فداحة ما يعنيه هذا الانتهاك للأوامر الأيديولوجية والعقائدية. فقد أظهر جهاز الحزب الشيوعي في دولة تدور في فلك روسيا كم هو عاجز ومنقسم وغير قادر على اتخاذ القرار. لقد أنضجت هذه الانتفاضة البلاد وجعلتها مهيأة لأن يقودها وطنيون مخلصون مثل ناجي وماليتير.

وفي حين إن حرية المجر كانت على كفّ عفريت، فإنّ المشاهد الكئيبة للحرب الشاملة التي دارت في شوارع بودابست كان لها تأثير محبط على الحكومات الغربية من فيينا إلى واشنطن. أسرعت موسكو في إصدار تعليمات إلى سفرائها بالاتصال بالزعماء الغربيين، مؤكدة أنّه يجب عليهم التفكر في عواقب التورط في التدخل في شأن داخلي لبلدان الكتلة الشيوعية. كانت فرنسا والمملكة المتحدة غارقتين تماماً في الأزمة التي أثارها تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس في 26 تموز

1956... وقد ترك هذا الأمر الولايات المتحدة الأمريكية وحيدة. أرادت موسكو اختبار مدى ثبات واشنطن بشأن إعلانها دعم أيّ حركة تقوم على «تحرير البلدان في ظلّ نير الاحتلال السوفيتي». عندما وضعت أمريكا تحت الاختبار، أظهرت أنّها مستعدة لاتباع سياسة الاحتواء فقط؛ فقد كانت تدرك مجالات النفوذ المنفصلة، كما تمّ الاتفاق عليها بين روزفلت وستالين في يالطا. منذ اللحظة التي أعلن فيها الرئيس أيزنهاور أمام الأمم المتحدة (25 تشرين الأول) أن «أمريكا تقف وراء شعب المجر بكل إخلاص»- دون أن يتطرق إلى إدانة التدخل السوفيتي بشدة أو الإشارة إلى تقديم المساعدات - كان من الواضح أن المجريين لا يمكنهم الاعتماد على الولايات المتحدة.

أعلنت النمسا المجاورة عن انتهاج سياسة «الحياد المفيد»، وفتحت حدودها أمام اللاجئين وساعدتهم على الوصول إلى الملاذ الآمن. عبر الحدود عدة آلاف من الأشخاص، وقد أخذوا معهم ما يمكنهم حمله فقط، واجتازوا المستنقعات والبحيرات والأنهار للوصول إلى ولايتي بورغنلاند ونيدراوستريخ (التي تمثل مقاطعات النمسا السفلى). وساعدتهم دوريات الحدود النمساوية على عبور الحدود - كما فعل مراراً وتكراراً مسؤولو الجمارك المجرية - من خلال عبور مراكز حراسة روسية معروفة. كان هذا الموقف أكثر شجاعة بكثير من الموقف الذي اتخذته الولايات المتحدة.

قام البيت الأبيض بزعامة الرئيس دوايت أيزنهاور بالتفاف حول القضية، ووصف الثورة المجرية بأنّها «شأن داخلي»، وأكد للسفير السوفياتي في واشنطن أن أمريكا ليست لديها نية للانخراط في صراع داخل الكتلة الشرقية. كانت محاولة ضعيفة لتهدئة موسكو للسماح للولايات المتحدة بالتعامل مع الأوضاع في مناطق نفوذها دون تدخل خارجي. وهذا ما جعل الولايات المتحدة تخسر على طول الخط؛ كانت صفعة من النفاق، وحتى الافتقار إلى الشجاعة، وأبعدت العديد من الدول

في الغرب عنها. في موجة مجنونة اجتاحت العناوين الرئيسة للصحف، توجهت الاتهامات إلى أمريكا في عهد أيزنهاور بأنّه لا يمكن الاعتماد عليها للدفاع عن حرية شعب ما.

في جميع سنوات الحرب الباردة، لم تصل السياسة الخارجية الأمريكية إلى أدنى مستوياتها مثلما حصل في الأسبوع الذي شهد اندلاع أزمتي السويس والمجر. فقد فقدت المبادئ الأخلاقية التي تمسك بها البلد في التصدي للأعمال العدوانية مصداقيتها؛ وباتت صورتها كمدافع عن الحريات الفردية في حالة من العطب. وبالنسبة لأيّ شخص غريب بدا كما لو أن الجنرال أيزنهاور وقف عن طيب خاطر جانباً لينتظر نتائج القتال على افتراض أن الجانبين سوف يريقان دماء بعضهما بعضاً في نوع من الخضوع المتبادل. لم يكن بحسبان الجنرال في الحرب العالمية الثانية أن موسكو على استعداد لإرسال الآلاف من دباباتها لإخماد تمرد قام به الرفاق الشيوعيين. كانت أحداث المجر درساً مريراً لأمريكا ونكسة هائلة لمصداقيتها. إذا أرادت أمريكا الحفاظ على دورها كقائد عالمي، فعليها أن تبحث عن بعض الإجابات.

لأكثر من عام، لم يسمع أحد أيّ شيء عن بال ماليتير. اختفى كما لو أنّه لم يكن موجوداً. بعد عامين صدر بيان موجز من وكالة الأنباء المجرية MTI؛ في 17 حزيران 1958، أعلنت المجر إصدار حكم بالإعدام بحق كلّ من إيمري ناجي، وبال ماليتير والصحفيين ميكلوس غيمز وجوزيف سزيلاغي بتهمة الخيانة العظمى وإثارة الفتنة.[13]

كانت موسكو قد قرّرت إعدامهم مسبقاً وقبل يومين، واجه الأربعة رئيس المحكمة الشعبية الهنغارية، فيرينك فيدا، للردّ على تهمة تهيئة وقيادة مؤامرة والقيام بأعمال تمرد وخيانة. كانت حكومة يانوش كادار

13- كان المتهم الرئيس الخامس، غيزا لاكونسزي، قد مات بالفعل؛ كان قد أضرب عن الطعام، وعندما حاولوا إطعامه بالقوة، ثقب أنبوب إدخال الطعام رئته وتوفي نتيجة نزيف داخلي.

متهمة بإخفاء وتشويه الأدلة الدفاعية. أصبح بال ماليتير، وجميع المتهمين معه، ضحايا لانتهاك صارخ للعدالة، وتمّ إرسالهم إلى حتفهم.

في لحظة مجده، ترفّع بال ماليتير، البطل المجري الشهير، عن الحصول على الثناء الذي يستحقه. سار في الطريق الطويل للابتعاد عن الشيوعية، ليس بسبب الشكوك العقائدية والاختلاف معها، ولكن لأن عقائدها كانت عقبة في طريق التقدم العملي نحو الأمر الأكثر أهمية بالنسبة له - وهو تحرير بلده. في بداية الانتفاضة، وجد ماليتير نفسه في دور لا يلائمه، وهو أن يقود قواته ضد التمرد. بدافع من كرهه لحاكم وحشي لم يكن يحمل له سوى مشاعر الازدراء، والذي كان يتشبث بالسلطة بمساعدة الدبابات السوفيتية، جاءته فرصة للانضمام إلى معسكر الخير، حتى لو كان ذلك يعني نهايته. كان من المفارقات المريرة أنّه قُتل على يد الأشخاص الذين قضى فترة قصيرة ولكن حيوية من حياته وهو يحاول مساعدتهم في طرد المحتل. وهكذا كان نجاحه، حتى لو كان فقط خلال «برهة من الزمن»، بمثابة مقياس لحجم عزم وتصميم الشعب، للوقوف بوجه كلّ فكرة ظالمة أو عقبة مهما كانت قوية، لتحقيق استقلاله السياسي والثقافي العادل. وبوفاته ووفاة الوطنيين الذين كانوا معه، سلبت مرابط الدبابات السوفيتية آمال المجر في الحرية، لقد غربت الشمس على الشعب المجري ولم يكن هناك قمر، لقد ناضل المجريون كلّ بطريقته الخاصة - البعض علناً، والبعض الآخر بصمت، ضد الديكتاتورية والظلم. كانت جوديث ماليتير تنظر إلى صورة باهتة موضوعة على رف الموقد. كانت حياتها قبل عام 1956 مثل تلك التي في الصورة: حياة أسرية مليئة بالسعادة والحب والزواج والعاطفة. ثم جاء الشر الذي افتتح ذلك اليوم المأساوي في تشرين الثاني 1956، عندما تسارعت الدبابات السوفيتية للهجوم على بودابست. وبعد ذلك، جاء الحكم الدكتاتوري، وحملات الاعتقال، وأعمال التعذيب، وحالات الاختفاء، والوفيات بالآلاف. وتذكرت كلمات زوجها: «يجب ألّا تصبح الذاكرة صورة بالأبيض والأسود لتصبح باهتة مع تقدم العمر. لا

يمكن للأمة أن تطلب من الجميع أن يكونوا جنوداً لها. أنا لم أعد محارباً. يبدو الأمر كما لو أن جميع مشاكل هزيمتنا قد وجدت أخيراً حلّها».

تستذكر ماريا ويتنر اليوم، وقد كانت واحدة من الشباب الذين أقاموا المتاريس، تلك الأيام البطولية لشهر تشرين الأول:

فقط الشباب يمكنهم صنع ثورة، فهم مليئون بالحماس. لم نكن أبطالاً، كنا نتمنى الموت في ميدان المعركة. لم نكن نفكر حتى في ذلك. أسأل نفسي اليوم عما إذا كنا نخشى الموت فعلاً. لم نكن شجعاناً. كنا نختبئ خلف الأبواب في كلّ مرة كانت الدبابة تصوب مدافعها نحونا. هربنا، لكننا قاتلنا أيضاً. ولهذا أقول: إنّه ليس من قبيل الصدفة أن الشباب هم الذين يصنعون الثورة دائماً. نعم، بالنسبة لي، كانت ثورتنا مجيدة.

الوطن هو لا شيء. إنّه قطعة أرض. لكنها مليئة بالذكريات. والتقاليد والتاريخ والأبطال. وجموع من البشر تتحول إلى شعب. وأولئك الذين بقوا، والذين غادروا، والذين قاتلوا، والذين ارتجفوا من الرعب، أصبحوا أبطالاً، كلّهم، باستثناء أولئك الذين وجهوا أسلحتهم ضدهم وطلبوا من الأجانب مساعدتهم. لا يوجد تفسير لذلك العمل، ولا يمكن أن يغفره أحد. لا أنت ولا العالم ولا أنت يا الله. بورك وطني المجر.[14]

كانت هناك حقيقة ثابتة وهي أنّه بعد عشر سنوات من الهيمنة السوفيتية، انتفض الشعب الهنغاري مثل رجل واحد، ليواجه بالبنادق وقنابل المولوتوف الدبابات والمدفعية، وكلّ آلة القمع الوحشية للدولة السوفيتية، لقد تحدوا الظالمين. لا شيء يمكن أن يمحو تلك الحقيقة التي لا مفرّ منها. لقد أبطل الرجال الشجعان أمثال بال ماليتير فعل ذلك السحر، وحطموا الستار الحديدي، وجعلوا نفحة من الهواء النقي تدخل. ولأول مرة منذ ثورة أكتوبر، جاء الدور على الشيوعيين داخل الكرملين ليطاردهم شبح الحرية.

ظل العقيد بال ماليتير شخصاً محروماً من حقوقه ولا يذكره أحد، إلى

14- راجع: Zsolt Bayer, 1965 To leave a sign, Office of History, Budapest, 2000

اليوم الذي انهار فيه جدار برلين في تشرين الثاني 1989، وانهيار الشيوعية في البلدان التي تدور في الفلك الروسي. كان الشيوعيون حريصين على أن لا يصنعوا منه شهيداً. لقد دفنوه في مقبرة لا تحمل علامات. بعد زوال حكومة المجر الشيوعية، كان أفراد الشعب إمّا أصغر من أن يتذكروا أسماء إيمري ناجي أو بال ماليتير أو يانوش كوفاتش أو مشغولين كثيراً بالاحتفال بالحرية التي نالوها أخيراً.

هناك مثل في البلقان يقول: «كل بطل هناك خائن يقف وراءه».

هل كان بال ماليتير، خائناً أم وطنيّاً؟ من وجهة نظر الشيوعيين، يمكن توصيف الرجل بشكل مبرر باعتباره خائناً، لأنّه أقسم على العلم المجري (السابق) أن يدعم الدستور. لكن بالنسبة لشعب المجر، كان العقيد بال ماليتير بطلاً قوميّاً مرتين.

كان عنوان بطولة بال ماليتير هي الجرأة، التي صنعتها الثقافة والإحساس العميق بالوطنية. يقول نابليون: «إن من أعظم الأشياء، والتي تميز الرجل على الفور، هو أن ذكاءه أو موهبته، تكون متوازنة مع شخصيته أو شجاعته». كانت شجاعة ماليتير كافية لمواكبة مهارته التكتيكية في مواجهة احتمالات مستحيلة. لقد استخدم مثاله الشخصي لفرض التغيير وينقذ النظام من الفوضى المحتملة، عندما تطلّب الوضع رجلاً قويّاً يتولى زمام المبادرة ويمنح الزخم لإرادة الشعب لتخليص نفسه من الاحتلال الأجنبي والقمع الحزبي. وقد نجح في ذلك، على الأغلب. لقد تجاوز قضية وجود رجال لا يمتلكون بعد نظره؛ لذلك، تمّ إغراؤه ووقع في الفخ وتمّ التخلص منه بصمت. لسنوات، لم يكن أحد يستطيع ذكر اسمه، ولا حتى همساً.

قليلون هم الذين ما زال الناس يتذكرونهم. أما البقية، فقد فات الأوان عليهم...

الخاتمة

إن الحظ (أو الصدفة) هي التي تصنع البطل بشكل رئيس.

• **توماس فولر، 1608-1661**

أصبحت شاشة التلفزيون سوداء. يظهر مذيع ويقول: «سوف نقطع هذا البرنامج لنقدم لكم هذا التقرير الخاص...» اقتربت الكاميرا: كان هناك طفل، يصارع الماء بذراعيه، وينجرف بلا حول ولا قوة في نهر مغطى بثلوج عائمة. تكبير للصورة: رجل يغوص في الماء، يسبح نحو الطفل. تكبير سريع لصورة السباح: إنّه يصل إلى الطفل، ويسحبه إلى الشاطئ، حيث تتلاقفه الأيدي لمساعدته. صورة عن قرب للطفل وهويرتجف. صورة مقربة للمنقذ، ملابسه منقوعة بالماء وهو يرتجف من البرد. حينها تقول زوجتي: «إنّه بطل حقيقي». إنّه كذلك، لأن «الحدث لا يعرفه أحد إلّا عندما يتمّ عرضه في النشرة الإخبارية المسائية...».[1]

ما الذي جعل هذا الرجل يغوص في المياه الجليدية؟ هل كان يعلم أن عدسة التصوير الخاصة بالكاميرا كانت موجودة لتسجيل هذا العمل الشجاع؟ كلا، لم يكن ذلك الحدث مشهداً سينمائيّاً أو عرضاً مسرحيّاً، حيث كانت صورة البطل تحت السيطرة الكاملة بشكل أكبر مما حدث في أول رحلة قام بها الإنسان إلى القمر، حين قال عبارته (المرتجلة): «هذه

1- راجع: Television publicity slogan, USA, 1982.

خطوة صغيرة بالنسبة للإنسان...»[2] على أيّ حال هل سيقلل هذا من إنجازاتهم؟ كان أول من مشى على سطح القمر أبطالاً حقيقيين، كما كان كولومبوس، الذي لم يكن يعرف ما إذا كان هناك مكان ما وراء البحر، فقد كان يبحر عند حافة الأرض. تطلب ذلك الشجاعة وامتلاك الحدس. كان التفكير مسبقاً بمصير الآخرين هو الذي بثّ النشاط في الأخوين شول ودوكفيتز وماليتير. كان ذلك الرجل، وهو يغوص في نهر جليدي لإنقاذ طفل، يتصرف بشكل تلقائي، كما فعل كونتسه وإيلرود وسلوتين.

لا تزال البطولة الفردية ظاهرة غير مفسرة. من خصائص الطبيعة البشرية اجتراح مآثر بطولية في مواجهة الصعاب المستحيلة. كما هو الحال في كلّ المساعي الإنسانية، تلعب الصدفة والحظ عاملان هامان في حياة البشر. وهو ما قد يسميه البعض بالقدر. كتب توماس فولر في عام 1650[3]. يقول: «إن الحظ (أو الصدفة) هي من تصنع البطل بشكل رئيس»، ومن الطبيعي أن يأتي الحظ في المكان المناسب وفي الوقت المناسب، ويفعل الشيء الصحيح. لا يتطلب صنع البطل فقط شجاعة الإقناع والطاقة والإرادة والعقل فحسب، بل يحتاج أيضاً إلى عامل الصدفة – لأن العنصر الحيوي الذي يجذب انتباهنا إلى البطل هو وجود رجل آخر سوف يكون شاهداً عليه بعد ذلك. وكما ينطبق هذا على ليونيداس (ملك إسبرطة السابع عشر. كان من أبطال معركة الثرموبايلي، وقتل فيها هو وجميع الإسبرطيين الذين كانوا معه – م) وأبطاله الإسبرطيين الثلاثمئة فإنّه ينطبق على الأبطال في وقتنا الحاضر. وفي يومنا هذا تمثل عدسة الكاميرا دور الشاهد على العمل البطولي.

يمكن للوقت والظروف لعب دور حاسم في نشر (أو حجب) الأخبار. في جزيرة ويك أتول، تمّ أسر الحامية بأكملها، وكان على رواياتهم عن البطولة

2- هذه خطوة صغيرة بالنسبة للإنسان، وقفزة كبيرة للبشرية، أول عبارة قالها نيل أرمسترونغ، عندما هبط على سطح القمر في 20 حزيران 1969.

3- راجع: Thomas Fuller, Gnomoloeia, 1650.

الفردية انتظار عودة الناجين بعد الحرب - وحينها ستكون القصة ممتعة. الممرضة جينيفيف دو غالاردو كانت تجعل الرجال المحتضرين يشعرون بالارتياح. غابت بطولتها الهادئة وسط زحمة الهتافات بتحطيم الرقم القياسي لمسابقة الركض وقدره 4 دقائق للميل الواحد. كان صمود مقاتلي الغلوستر عملاً مجيداً بالفعل، ولكن كان هناك لديهم أيضاً الكثير من الأعمال البطولية الشخصية التي لم يذكرها أحد. ومرة تلو أخرى كان يتمّ إخفاء مآثر بطولية عديدة عن الناس لأن قول الحقيقة كان غير مرغوب به من الناحية السياسية. لقد تمّ التكتم على سعي آل شول لإيقاظ ضمير شعبهم بطريقة ماهرة بواسطة الآلة الدعائية لهتلر. كان يجب أن تكون «القنبلة النووية» آمنة، لذلك لم يتمّ الكشف للناس عن المأثرة البطولية للدكتور سلوتين. قام مفوض الكي. جي. بي. بتكميم فم الكابتن مارينسكو، لأنّه لم يعجبه، ولم يعجب النظام أيضاً. أزاح زعماء الحزب بصمت العقيد ماليتير كونه كان يشكل عائقاً أمام طموحهم السياسي. لم يكتشف الغستابو أبداً من الذي خان خطته لاعتقال اليهود الدانماركيين، ولم يكن عضو الحزب دوكفيتز على وشك الكشف عن تورطه. حدث تجاهل لا يغتفر في حالة والدة بوي كورنويل. وقد حدث ذات الشيء مع ذلك الرقيب الذي دخل «الحصن المنيع» عن طريق الخطأ ثم استولى عليه بمفرده... هل ذكر أحدهم كونتسه؟

على مرّ التاريخ، أظهر عدد كبير من الرجال والنساء شجاعة مثيرة للإعجاب - في القتال والمعاناة والإخلاص والتفاني إلى آخر مدى. لم تكن غاية هؤلاء الرجال والنساء الشجعان أن يقدسهم الناس مثلما فعلوا مع «القديسين المحاربين» (هم المسيحيون الأوائل الذين كانوا جنوداً في الجيش الروماني أثناء اضطهاد المسيحيين -م). ولم يكن دافعهم الرغبة في المجد الشخصي. كان دافعهم الوحيد شعوراً قويّاً بالثقة بالنفس والعناد والإخلاص الذي يصبح فيه تأدية الواجب أفضل جزء من أعمالهم الشجاعة. لقد تجرؤوا على الوقوف في وجه الظلم ومحاربة النفاق واضطروا إلى دفع ثمن باهظ في سبيل البقاء مخلصين لمبادئهم.

لا تمثل الشخصيات التي تناولتها فصول هذا الكتاب إلّا عدداً قليلاً من الأسماء التي دخلت في كتاب الشرف العظيم. نحن لا نعرف حتى أسماء العديد من الأشخاص الآخرين، لكن قائمة أسمائهم طويلة. إنهم الملايين المجهولون الذين يتعين عليهم القتال، يوماً بعد يوم، من أجل بقائهم على قيد الحياة، وهم أولئك الذين يبذلون كلّ ما في وسعهم لتحسين حياة الآخرين، هؤلاء هم الأبطال الحقيقيون الذين لا تذكرهم أخبار المساء التلفزيونية، أبطال غير معروفين، ومجهولون، وغالباً ما يكونون منسيين.

والأبطال أيضاً هم أولئك الذين لا نعرف كيف ماتوا.

ولا يمكننا نسيان تضحياتهم.

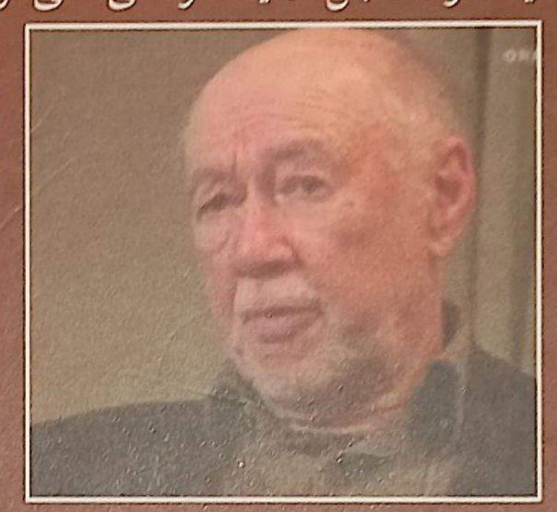
وعلى الرغم من أنّنا نجهل أسماءهم،
إلّا أنّها محفوظة في كتب الله[4]

4- هذه الكلمات منقوشة في النصب التذكاري للحرب الوطنية الاسكتلندية في إدنبرة.

المحتويات

يتحدث هذا الكتاب عن بعض الرجال والنساء الذين خاطروا بحياتهم، وعن شجاعتهم في مواجهة تحديات مذهلة، وحول طبيعة الصدفة؛ حول الظلم الكبير الذي يتعرض له بعض الأشخاص حين يتمّ جعل المآسي التي واجهتهم من أسرار الدولة؛ حول الأحداث المأساوية، والروايات المتعددة للحقيقة.

في كثير من الأحيان، تنبع البطولة من الأفعال التي تتمّ بطريقة غريزية وسط سخونة الحدث، وتسببها ظروف خارجة عن السيطرة. هناك فكرة تقول: «لقد قاتلوا حتى آخر رجل وإلى النفس الأخير»، حيث يفتدي الأفراد حياتهم بأغلى ما يملكون على أمل أن يعيشوا براحة، وعندما تبدو الإبادة أمراً حتمياً، فلن يكون أمامهم إ التضحية بكل ما يملكون لأجل أن يحصلوا على أدنى فرصة لأن يعيشوا يوماً واحداً زيادة.



شهد التاريخ أمثلة عدة عن رفض الكثير من الأفراد الاستسلام. في الحرب العالمية الثانية، قرّر اليابانيون الانتحار بسبب إيمانهم الديني بأن حياتهم كانت ملكاً لإمبراطورهم. كان منتشراً بين مقاتليهم ما يعرف بـ «السلوك القتالي الجدير بالثناء»، وهو مبدأ يشدد على روح الجماعة ويستخدم كحافز قوي؛ يجعل الجندي يلبّي نداء الواجب ويلتزم بقواعد الانضباط والتقاليد ويكون مستعداً للموت. كان خوفه الكبير هو أن يوصم بالعار أمام رفاقه. يمكن أن يصل هذا الأمر إلى حدّ العبث عندما يطلب القائد من أفراد وحدته التصرف بشجاعة و «لا يعنيه حتى لو كان مصيرهم الجحيم». وقعت واحدة من أكثر الحوادث غرابة التي توضح ذلك خلال معركة السوم في عام ١٩١٦ عندما أصدر النقيب نيفيل قائد كتيبة في الجيش البريطاني أمراً إلى رجال فوج مقاطعة سري الثامن أن يتركوا مواضعهم ويهجموا على العدوّ، وحينها خطرت له فكرة مجنونة بأن يقوم أفراد كتيبته بركل كرة قدم عبر المنطقة الحرام ومطاردتها حتى الخطوط الألمانية. تمّ قتل جميع أفراد الكتيبة، بما فيهم النقيب الذي قام بإصدار الأمر.


ISBN 978-9933-6045-9-2
9 789933 604592